مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثامن

سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 6-60-798-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 6-60-798-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسُ

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

[النّساء: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّن اللّه وعده بالجزاء الحسن للّذين يتناجون بالخير، ويبتغون بنفع النَّاس مرضاة اللّه تعالى، بيَّن وعيده لأولئك الّذين يتناجون بالشَّرِّ، ويبيِّتون ما يكيدون به للنَّاس، والّذين يقولون للرَّسول: طاعة، ثمَّ يبيِّتون غير ذلك مبيّنًا ذلك بصورة قاعدة عامَّة على نهج القرآن في مثله، ناظرًا إلى أولئك الّذين يظهرون الطَّاعة، فإذا خرجوا بيَّتوا غير الّذي يقولون، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1]، ولا سيَّما أنَّ هذه الآية، وما قبلها في شأن طعمة بن أبيرق لمَّا رأى أنَّ اللّه تعالى هتك ستره، وبرَّأ اليهوديَّ عن تهمة السَّرقة؛ ارتدَّ، وذهب إلى مكَّة[2].

ولمَّا تكلَّمتِ الآية السَّابقة عن شرط قبول الأعمال الصَّالحة بأن تكون ابتغاء مرضاة اللّه حتَّى تقبل، ويثاب عليها فاعلها؛ جاءَت هذه الآية لتضيف شرطًا آخر، وهو اتِّباع الرَّسول ﷺ في قبول الأعمال، وحذَّرَت من مخالفته وما عليه جماعة المسلمين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُشَاقِقِ﴾: جذر الكلمة هو (شَقَق): شققْت الشَّيء أشقّه شقًّا، وكلّ قطعة منه شقَّة يجمع ذلك الثَّوب والخشبة وما أشبههما، والشّقَّة: البعد، والمشاقَّة: العداوة[3]، الشّقّ: الصَّدع البائن، أو غير البائن، أو الصَّدع عامَّة[4]، أو الخرم الواقع في الشَّيء، يقال: شققته بنصفين[5]، والمعنى المحوريّ: صَدْعُ الشيء الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عمقه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/125.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق).

(4) ابن سيده، المحكم: (شقق).

(5) الرّاغب، المفردات: (شقق).

والشِّقاق: الخلاف، والصِّيغة هنا للمبالغة؛ لأنَّ الخلاف من جانبهم هم مع معاودة وتَكْرار، وكذلك كلّ ما كان سياقه مشاقَّةً للّه ورسولِه، وهو كل (شاقَّ) و(يشاقِّ)[1].

2) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: أصل الرَّسل: الانبعاث على التُّؤدَة، ويقال: ناقة رسلَة: سهلة السَّير، وإبلٌ مراسيل: منبعثة انبعاثًا سهلًا، ومنه الرَّسول المنبعث، وتصوّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على رسلك؛ إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث، فاشتقَّ منه الرَّسول، وجمع الرَّسول: رسلٌ، ورسل اللّه تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء[2]، وهو هنا: عَلَمٌ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ.

3) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: مصدر للفعل الثّلاثي هَدى يهدي، وجذره اللّغويّ من (هدي)، ومعناه يقوم على أصلين: أحدهما: "التَّقدّم للإرشاد، والآخر: بَعْثَة لَطَفٍ... مَا أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَى ذِي مَوَدَّةٍ"[3]، وهما متقاربان في معناهما؛ لذلك فقد ذكر الرَّاغب في معنى الهدى: "الهداية دلالة بلطف"[4].

والمذكور في الآية هدى اللّه: هو بمعناه الاصطلاحي؛ وهو هداية اللّه تعالى للإنسان، ومعنى هدى اللّه في الآية "يعني: أنَّ هدى اللَّه الَّذي هو الإسلام هو الهدى بالحقّ، والَّذي يصحّ أن يسمَّى هدًى، وهو الهدى كلّه ليس وراءه هدًى"[5].

4) ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: جِذر الكلمة هو: (صَلَى)، وأحد أصليه: النَّار وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْحمَّى، والصَّلى: الحَطَب، والنَّار، واسمٌ للوَقود؛ إذا اصطلى به القوم[6]، وأصل الصَّلْي لإيقاد النَّار، ويقال: صَلِيَ بالنَّار أو بكذا: إذا بليَ بها، واصطلى بها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى: 12]، وقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النِّساء: 10][7]، وصَلَى الكافر النَّارَ، فهو يَصلاها، أي: قاسَى حرَّها وشدَّتها.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شقق).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جاء).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) الرّاغب، المفردات: (هدي).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/316.
(6) الخليل، العين: (صلى).
(7) الرّاغب، المفردات: (شقق).

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يبيِّن اللّه في هذه الآية أنَّ من يبَاين الرَّسول ﷺ معاديًا له، فيفارقه على العداوة من بعد ما تبيَّن له أنَّه رسول اللّه ﷺ، وأنَّ ما جاء به من عند اللّه يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، ويتَّبع طريقًا غير طريق أهل الإيمان، وما هم عليه من الحقِّ، ويسلك منهجًا غير منهجهم، نتركه وما استعان به، وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير، ولا يغني عنه ذلك منَ اللّه شيئًا، فجهنَّم هي مصيره ومسكنه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾:

تظهر بلاغة الوصل في إظهار أسلوبٍ من أساليب القرآن الكريم أنَّه يواصل بين النَّقيضين، كأسلوب للدَّعوة إلى الهداية، وبيان التَّفاوت بين أحوالها، وإظهار الحقِّ ونكران الباطل.

ويتَّضح هذا المعنى البلاغي في التَّطبيق على قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ إذ هو موصول بقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، ومناسبته المقابلة بين الموقفين والفئتين منَ النَّاس، منَ المؤمنين والمنكرين، منَ العاملين ابتغاء مرضاة اللّه والمشاقّقين للّه ولرسوله، فعطف قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ على ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ مناسبةً لذكر الرَّسول بعد ذكر اللّه، وابتغاء مرضاته؛ ليحترس من أنَّ مَن يفعل بعض الأفعال منَ التَّصدّق والمعروف والإصلاح، ثمَّ يشاقق الرَّسول تعنّتًا، فإنَّ اللّه يولِّه ما تولَّى، ويصله جهنَّم، فأفاد العطف بين المتناقضين هذا المعنى؛ فمَن يفعل من أفعال الخير هذه معلنًا أنَّها ابتغاء مرضاة اللّه، فيكون قد حقَّق الشَّرط الأوَّل في القبول، فبيَّنت الآية أنَّ مرضاة اللّه لا تكون إلا باتِّباع الرَّسول، ثمَّ بيَّنت مصير مَن يشاقق الرَّسول، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾.

دلالة اختيار ﴿وَمَن﴾ في: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ دون غيرها:

آثر القرآن التَّعبير بلفظ ﴿وَمَن﴾ الَّذي يفيد العموم مع أنَّ الآية على رأي كثير منَ المفسِّرين نزلَت بسبب طعمة بن أبيرق؛ لأنَّه ارتدَّ، وسار إلى مكَّة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/277.

توظيف الحدثِ الخاصِّ في تربية المجتمع

وعلى هذا يكون التَّعبير بـ﴿وَمَن﴾ ليتناول منِ اتَّصف بهذه الصِّفات إلى يوم القيامة[1].

ويدخل أمر طعمة في هذا العموم دخولاً أوليًّا، ومن أسرار (مَن) وضع قاعدة عامَّة في تربية المجتمع وتحذيره من مشاقَّة الرَّسول ﷺ، ومنها بيان علوِّ قدره ﷺ إذ جعل مَن يشاقِقه فقد ضلَّ سواء السَّبيل في دنياه، وساء مصيره في أخراه.

سرّ إتيان الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾ بالفكِّ هنا:

الفكّ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا منهما في شقٍّ عنِ الآخر

جاء الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾ بالفكِّ هنا، وفي الأنفال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، وجاء بالإدغام في سورة الحشر: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: 4]؟

ومجيء الفعل بالفكِّ يفيد أنَّ مَن خالف رسول الله ﷺ صار في شِقٍّ غير شِقِّ المؤمنين؛ فكأنَّ كلَّ قافٍ منهما تشير إلى ناحية، وأيضًا لدلالتها على وجود الانفكاك بين الرَّسول ﷺ، ومَن خالفه؛ فلم يَعد هناك التحامٌ بين المنشقِّ والمسلمين.

وقال الخطيب في حكمة الفكِّ والإدغام: إنَّ (الـ) في الاسم الكريم (اللّه) بخلافها في الرَّسول، واللَّزوم يقتضي الثِّقل؛ فخفَّفه بالإدغام فيما صحبته الجلالة بخلاف ما صحبه لفظ الرَّسول[2].

وذهب بعض العلماء أنَّ ذلك من قبيل اللّغات.

ولكن بالتَّأمّل في دراسة موضوع الفكِّ والإدغام في هذا الموضوع، تجد أسرارًا لهذه الظَّاهرة؛ فعندما تنظر إلى مَوضِع سورة الأنفال مثلًا تجد أنَّ الفعل جاء مفكوكًا مع أنَّ الأصل الإدغام، وكما هو في سورة النِّساء، ولا يوجد داعٍ لغويٍّ للإبقاء على الفكِّ، لذلك

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/146.

المتأمِّل للآيات في سياقها يجد لطائف نبعَت من هذا الفكِّ؛ فآية سورة الأنفال جاءَت في الحديث عن موقف قريش منَ النَّبيِّ ﷺ ودعوته، ومشاقَّتهم كانت ظاهرة وواضحة، ويؤكِّد ذلك أنَّهم قاتلوا رسول اللّه ﷺ وجهَّزوا الجيوش؛ فكان إظهار الحرفين مناسبًا لظهور عداوتهم، ومشاقَّتهم، وأيضًا في سورة النِّساء على رأي مَن قال: إنَّها نزلت في طعمة بن أبيرق الَّذي كانت مشاقَّته ظاهرةً وواضحة؛ لأنَّه ارتدَّ عنِ الإسلام، وممَّا يذكر في هذا المقام في سياق إتيان الفعل مفكوكًا؛ أنَّه إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة، ولأنَّ السِّياق لأهل الأوثان، وهم مجاهرون، وقد جاهر سارق الدَّرعين الَّذي كان سببًا لنزول الآية[1]، فقابل هنا بين ما ذكر منَ المسارَّة، وهي النَّجوى، ثمَّ ما حدث منَ المجاهرة في الإثم، ومشاقَّة الرَّسول ﷺ.

وفي الفكِّ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا منهما في شقٍّ عنِ الآخر؛ فأهل مكَّة في شقٍّ منَ الأرض، ورسول اللّه ﷺ والمسلمون في شقٍّ آخر، وهذا الأمر كناية عنِ البعد.

أمَّا موضع سورة الحشر فجاء بالإدغام، والإدغام في اللّغة معناه الإدخال، وعداوة اليهود ومشاقَّتهم لرسول اللّه ﷺ عداوةٌ دخيلة مخفيَّة؛ فكانوا يألِّبون المشركين على رسول اللّه ﷺ من وراء ستار، فجاء الفعل مدَّغمًا ليبرز هذه المعاني.

سرّ التَّعقيب بقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ بعد الآية السَّابقة:

بلاغة المقابلة

جاءَت هذه الآية بعد الآية السَّابقة؛ لتظهر بلاغة المقابلة بين الثَّواب العظيم والعذاب الأليم؛ لأنَّه لَمَّا رتَّب ﷻ الثَّواب العظيم على الموافقة؛ رتَّب العقاب الشَّديد على المخالفة والمشاققة، وَوَكَّلَ المخالف إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، فيكون بقلبه أو شيء من فعله في جهة غير جهته على وجه المقاهرة[2]، فقابلتِ الآيتان بين المؤمنين الصَّادقين، المسلِّمين أمورهم للّه، الطَّائعين للرّسول، وما يكون في ذلك من صلاح الحياة أفرادًا وجماعات، وبين مَن يدَّعون إصلاح الحياة، ثمَّ هم لا يؤمنون باللّه، ويحادّون الرَّسول، أو أنَّهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.

يعلنون إيمانهم بالله، وما يفعلونه ابتغاء مرضاة الله، ثمَّ يشاققون الرَّسول فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه، فجاء لفظ ﴿يُشَاقِقِ﴾ لبيان الشِّقِّ الَّذي يحدثه هؤلاء بين الله ورسوله، وبين القرآن والسّنَّة، والمشاقَّة: المخالفة المقصودة، مشتقَّةٌ منَ الشِّقِّ، وهو الصَّدع في الشيء؛ لأنَّ المخالف كأنَّه يختار شقًّا يكون فيه غير شقِّ الآخر.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾:

تكرار المعاصي وتنويعها مؤشِّرٌ خطير في حياة الأفراد والجماعات

عبَّر بالمضارع رحمة منه سبحانه بتقييد الوعيد بالاستمرار، وهذا واضح في الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾، و﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فـ(واو العطف) تفيد مطلق المشاركة، وزمن الفعل المضارع ﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ تدلَّان على الاستمرار والتَّجدّد في إظهار بوادر تلك المشاقَّة، فكلَّما شاققَ العاصي الرَّسولَ كانت تلك المشاقَّة إيغالًا في طريق غير المؤمنين، فهما حالان متداخلان منَ المشاقَّة واتِّباع سبيل الكفر، فاستحقَّ بذلك صاحبها أشنعَ العقوبة وأسوأها.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾

كمال شناعة المشَاقَّة والمخالفة

جاء التَّعبير بلفظ الرَّسول؛ لإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا إليه منَ المشَاقَّة، والمخالفة للّه ورسوله ﷺ.

اقتصار نسبة المشاقَّة للرَّسول دون لفظ (الله) مع ورودها في مواطن أخرى:

جعل له مقام التَّشريع والطَّاعة

اقتصر على نسبة المشاقَّة للرَّسول ﷺ لبيان علوِّ قدره ﷺ وأنَّ الله جعل له مقام التَّشريع والطَّاعة، فمَن يشاققه كمَن يشاقق الله.

فائدة الإتيان بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن تَفَعَّلَ:

تصوير شدَّة وضوح الأمر والحقِّ

جاء الفعل الماضي ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفَعَّلَ)؛ لتعميق معنى الاستهجان، مع تصوير شدَّة وضوح الأمر والحقِّ وبيانهما، وموجبات الإيمان، فقال: ﴿تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ إذ علم أنَّ الهداية مع الرّسول، وباتّباع سبيل المؤمنين، لكنَّه مع ذلك كان له طريق غير طريقهم، وشقَّ له سبيلًا غير سبيل الرَّسول.

وأيضًا؛ لأنَّ الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ يقيم الحجَّة على مَن يشاقق الرَّسول بأنَّ فعله هذا لم يكن جهلاً أو لعدم معرفة؛ لأنَّ التَّبيّين يحمل معنى الظّهور والوضوح، وهذا لا يكون إلَّا عن علم ومعرفة، ويؤكّد ذلك وجود لفظ ﴿بَعْدِ﴾ الَّذي يدلّ على وجود فترة زمنيَّة مع الإسلام.

وجه تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

إفـــادة معنى الاختصاص

أفاد تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ معنى الاختصاص؛ فأصل العبارة: من بعد ما تبيَّن الهدى له، فقدَّم الجارَّ والمجرور للاختصاص أيضًا، فضلًا عن كون الهدى معرَّفة باللَّام العهديَّة الَّتي تزيد الموقف على هؤلاء استهجانًا وتقبيحًا.

دلالة الإتيان بـ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

لَمَّا كانت مهمَّة الرَّسول ﷺ واضحة في سياق تعليم الشَّريعة الَّتي لم تكن معلومة قبل الإيحاء بها إليه، أتى بـ ﴿مِنۢ﴾ تقييدًا للتَّهديد بما بعد الإعلام بذلك، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا﴾، ولو حذفَت لفهم اختصاص الوعيد بمنِ استغرق زمان البعد بالمشاققة.

دلالة الاحتراس في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

هدي النبيّ ﷺ في غاية الظّهور

فائدة الاحتراس؛ بيان أنَّ ما جاء به النَّبيّ ﷺ في غاية الظّهور؛ لذلك عَبَّر عنه بالهدى في قوله: ﴿تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: الدَّليل الَّذي هو سببه[1]، فيحتمل قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أن يكون أراد به من بعد ما آمن بالرَّسول، فتكون الآية وعيدًا للمرتدِّ.

ومناسبتها هنا أن طعمة بن أبيرق صاحب القصَّة المتقدِّمة؛ لَمَّا افتضح أمره ارتدَّ، ولحق بمكَّة، ويحتمل أن يكون مرادًا به من بعد ما ظهر صدق الرَّسول بالمعجزات، ولكنَّه شاقَّه عنادًا ونواء للإسلام[2]، فإنَّه قد شاقَّ الرَّسول، واختار سبيل الضَّلال، واتَّخذ له سبيلًا غير

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/402.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200 - 201.

سبيل المؤمنين، مع ما تبيَّن له أنَّ سبيل الرَّسول هو سبيل الهداية والصَّلاح، وتكون هذه الجملة احتراسًا أنَّ مَن لم تصله الرِّسالة فلا يقع تحت هذه العقوبة، وإنَّما يكون أمره إلى اللّه.

سرّ التّعقيب بقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة السَّابقة:

التَّــلازم بين مشاقَّة الرَّسول واتِّباع غير سبيل المؤمنين

عقَّب بها لتأكيد الجملة قبلها؛ للتَّلازم بين مشاقَّة الرَّسول واتِّباع غير سبيل المؤمنين؛ ولإخراج اتِّباع غير سبيل المؤمنين في غير الكفر، مثل اتِّباع سبيل يهود خبير في غراسة النَّخيل، أو بناء الحصون، فلا يحسن أن يقال فيه: اتَّبع غير سبيل المؤمنين(1).

ومن فوائد التَّعقيب: الحيطة لحفظ الأمَّة الإسلاميَّة بعد الرّسول ﷺ.

سرّ التَّعبير بقوله: ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإيـمـان صار صـفـة راسـخـة للمؤمنين

عبَّر به لأنَّ المراد طريق ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: الَّذين صار الإيمان لهم صفة راسخة، وسبيل كلِّ قوم طريقتهم الَّتي يسلكونها في وصفهم الخاصِّ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، فذكر المشبَّه به، وحذف المشبَّه، وهو الأعمال الصَّالحة الَّتي تدلّ في عمومها على الإيمان، فالسَّبيل مستعارٌ للاعتقادات، والأفعال، والعادات على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الَّتي يلازمها، ولا يبتغي التَّحوّل عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقًا يبلغه إلى قصده، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، ومعنى هذه الآية نظير معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمد: 32].

دلالة الكناية في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تفهم على أنَّها كناية عنِ الدِّين الحنيفيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.

جمْع الأمر كلّه في مفهوم واضح هو دين الإسلام

الّذي يكون عليه المؤمنون اعتقادًا، وتشريعًا، وأخلاقًا... بمعنى: أنَّ ذلك المشاقق يتَّبع غير الدِّين الحنيفيِّ، وفائدة هذه الكناية: جمْع الأمر كلِّه في مفهوم واضح هو دين الإسلام، بما فيه الإيمان وأركانه، والعمل بموجب التَّشريع، فبهذه الكناية يختصر الأمر كلَّه.

وجه الجمع بين قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع مشاقَّة الرَّسول:

الجمع للتَّوكيد والتَّشنيع

جمع بينهما على سبيل التَّوكيد والتَّشنيع، وإلَّا فمَن يشاقِق الرَّسول؛ هو متَّبع غير سبيل المؤمنين ضرورة، ولكنَّه بدأ بالأعظم في الإثم، وأتبع بلازمه توكيدًا(1).

ومن فوائد الجمع: أنَّ الشَّافعيَّ وغيره استدلَّ بهذه الآية على أنَّ الإجماع حجَّة، وقال الزَّمخشريّ: هو دليل على أنَّ الإجماع حجَّة لا يجوز مخالفتها، كما لا يجوز مخالفة الكتاب والسّنَّة؛ لأنَّ اللّه تعالى جمع بين اتِّباع سبيل غير المؤمنين، ومشاقَّة الرَّسول في الشَّرط، وجعل جزاءه الوعيد الشَّديد، فكان اتِّباعهم واجبًا كموالاة الرَّسول(2).

ومن فوائده - أيضًا - أنَّه استدلَّ بهذه الآية على وجوب عصمة الرَّسول ﷺ، وعلى أنَّ كلَّ مجتهد يسقط عنه الإثم.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ليس مغايرًا لقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، بل هو أمرٌ لازمٌ لمشاقَّة الرَّسول، وذلك على سبيل المبالغة والتَّوكيد، وتفظيع الأمر وتشنيعه.

والآية بعد هذا كلِّه هي وعيد الكفَّار، فلا دلالة فيها على جزئيَّات فروع مسائل الفقه(3).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597 - 598.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.

دلالة الالتفات في قراءة قوله ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾:

تعدَّدتِ القراءات في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾، فقرئ: ﴿وَنَصۡلِهِۦ﴾ بفتح النّون من صَلاه، وقرأ ابن أبي عَبْلَة: "يولِّه ويصله" بالياء فيهما، وهي قراءة شاذَّة؛ جريًا على قوله: (فسوف يؤتيه) بالياء، وفيها التفات منَ الحاضر ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ إلى الغائب (يولّه).

وفائدة هذا الالتفات: أنَّه لمَّا ذكر: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ تناجى بالخير ممَّا فيه صدقة ومعروف وإصلاح؛ بيَّن أنَّ أجره مضمون، وثابت عند اللّه، فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وحاضر أجره.

ولكنَّه لمَّا ذكر من يتَّبع غير سبيل المؤمنين، قال: (يولِّه) و(يؤته) على الغائب؛ لبيان إعراض اللّه تعالى عن أفعال هؤلاء في شقاقهم الرَّسول، واتِّباع غير هدى اللّه، فأعرض عنهم سبحانه، وتوعَّدهم مع ذكر ضمير الغيبة[1].

بلاغة التَّقابل بين الأفعال في قوله: ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾، ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾:

مشاققة الرسول تعني التَّخلِّي عـن الـهـدى، وتؤدِّي إلى أسوأ العواقب وأرداها

قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾ فعلان مضارعان يبتدئان بنون العظمة، ويختمان بهاء الغائب؛ للتَّعبير عن عقابين: أوَّلهما: في الدّنيا، والآخر: في الآخرة، فتصوِّر نون العظمة والمضارع جاهزيَّة ذلك الجزاء والعقاب، وأنَّه مرتبط ارتباطًا تلازميًّا بالفعلين المضارعين السَّابقين: ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾، ومقابلة الفعلين بالفعلين ممكنة هنا؛ لأنَّ ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ مسندان إلى الغائب المفرد، والفعلان: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾ مسندان إلى المتكلِّم المعظَّم، ثمَّ إنَّ الفعلين ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ يدلّ الأوَّل منهما على الصّعوبة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.

ويدلّ الثّاني على السّهولة على عكس الفعلين: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾؛ فيدلّ الأوَّل على سهولة الأمر تركًا وإيكالًا للنَّفس، ويدلّ الثّاني على الصّعوبة لقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾، وما في ذلك من معنى القوّة والشِّدَّة في إصلاء جهنَّم.

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

مــشــاقــقــة الرَّسول مصيرها الــخــســران في الدّنيا، والعذاب في الآخرة

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا لفٌّ؛ لأنَّ الله تعالى جمع بين اتِّباع غير سبيل المؤمنين، ومشاققة الرَّسول في الشَّرط، وجعل جزاءه الوعيد الشَّديد، فكان اتِّباعهم واجبًا كموالاة الرَّسول[1]، ثمَّ قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ وهذا نَشْره؛ لأنَّ ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ تضمَّن مشاققة الرَّسول، واتِّباع غير سبيل المؤمنين.

وفائدة هذا الفنِّ هنا تذكير بما تولَّى؛ لبيان استحقاق الجزاء بقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، وبيان إطلاق الحرِّيَّة في اتِّخاذ القرار، وأنَّ العقاب يكون في الآخرة، وبيان رفع يد الله عنه، ومنع رحمته وكرمه.

بلاغة التَّدلِّي في الآية:

مشاققة الرَّسول عواقبها أليمة في الدّنيا والآخرة

الآية بأسرها تندرج في معنى التَّدلِّي؛ لأنَّ مشاققة الرَّسول لابدَّ أن تؤدِّي إلى الانحدار والهبوط، فكان التَّدلِّي بأمور منها اتِّباع غير سبيل المؤمنين، والتَّولية للنَّفس وإصلاء الجحيم، فقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾؛ فذكر الفعل الأوَّل المؤدِّي إلى الانحدار، والانحدار هنا قد يكون فرديًّا، وقد يكون مجتمعيًّا، وقد يكون أمميًّا أيضًا، فالمجتمع الَّذي يشاقق الرَّسول،

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/396.

هو كالفرد الَّذي يفعل هذا الفعل؛ لكنَّه ذكر المفرد؛ لبيان الأنموذج الَّذي تبدأ منه المعضلة المجتمعيَّة، ولبيان الأنموذج القريب منَ الأذهان والفهم، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ هذا فضلًا عن كون الآية نزلَت في حادثة معيَّنة، ثمَّ عمَّمَ المعنى على الجميع، وبيَّن بعدها الدَّرجة الثَّانية في الانحدار، فقال: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية؛ لكون إجماع علماء الإسلام على حكم منَ الأحكام حجَّة.

ثمَّ قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ لبيان تخلِّي العناية الإلهيَّة عنه، وتركه في ظلمات التَّخبّط والعتوِّ الَّتي اختارها لنفسه؛ عتوًّا وعلوًّا، وهذه هي المرحلة الثَّالثة منَ التَّدلِّي، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]، وقوله: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ [مريم: 84]، ثمّ قال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، أي: يوم القيامة، فيكون له ما اختاره، وما تمكَّن من تحصيله في الدّنيا، وتكون له النَّار يوم القيامة، وهي المرحلة الأخيرة من فنِّ التَّدلِّي؛ إذ ستكون له فرصة التَّولِّي لَمَا يشاء، والتَّمتّع بما يشاء في الدّنيا ممَّا قدِّرَ له في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشّورى: 20]، ثمَّ تكون العبرة في الآخرة أنَّه سبحانه سيصليه عذابَ جهنَّم، فتكون هذه المحطَّة الأخيرة، والموضع الأسوأ الَّذي يمكن أن ينحدر إليه إنسان، فأشارت الآية إلى ذلك بقوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

احتراس ثانٍ في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حاجة الفرد إلى أن يكون ضمن فئة مؤمنة

كأنَّ فائدة عطف اتِّباع غير سبيل المؤمنين على مشاقّة الرَّسول: الحيطة لحفظ الجامعة الإسلاميَّة بعد الرَّسول، فقد ارتدَّ بعض العرب بعد الرّسول ﷺ، وقال الحطيئة - وَهوَ مخضرم أَدْرك الْجَاهِلِيَّة وَالْإِسْلَام، فَأسلم ثمَّ ارْتَدَّ، وَقَالَ فِي ذَلِك[1]:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا***فيا لعباد الله ما لأبي بكر[2]

فكانوا ممَّن اتَّبع غير سبيل المؤمنين، ولم يشاقّوا الرَّسول في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.

(2) المبّرد، الكامل: 1/307، والصفدي، الوافي بالوفيات: 11/54.

حياته، لكنَّهم شاقّوه بعد مماته[1]، فجاءت أهمِّيَّة الاحتراس في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ كي لا يتوهَّم أنَّ مشاقَّة الرَّسول تكون في حياته فحسب، وإنَّما هي قائمة إلى يوم القيامة؛ إذ إنَّ اتِّخاذ غير سبيل المؤمنين هي امتدادٌ لمشاقَّته ﷺ.

دلالة الكناية في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

عـظـيـم سـوء حـال هـؤلاء لمَا أصـابـهـم مـنَ الإثم

لعلَّ من أعظم النَّوازل على الفرد أن يوكَلَ إلى نفسه... فإن رجع إلى الله؛ نجا... وإلَّا فقد ساء مصيرًا.

ومعنى قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الإعراض عنه، أي: نتركه وشأنه لقلَّة الاكتراث به[2]، و﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: بعظمتنا في الدّنيا والآخرة نكله إلى ما اختار لنفسه، وعالج فيه فطرته الأولى خِذْلانًا منَّا له[3].

وفي العبارة ما فيها من عظيم سوء حال هؤلاء لَمَا أصابهم منَ الإثم العظيم؛ وهو مشاقَّة الرَّسول، فانحدر بهم إلى أسوأ حالٍ وأرداها في الآخرة، وهي دار القرار.

وجه إتْباع الجملة الأولى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ بقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾:

ظهور المقابلة في قوله ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾

أتبع الجملة الأولى بالجملة الثَّانية؛ لبيان حال من شاقَّ الرَّسول، واتَّبع غير سبيل المؤمنين في الدّنيا، فذكر حاله فيها، وحاله في الآخرة، أمَّا حال الدّنيا؛ فإنَّ الله تعالى يتخلَّى عن رعايته، فيخسر العناية الإلهيَّة الَّتي هي محطّ التَّوفيق والسَّداد في الأقوال والأفعال، وهي سابغة بفضل الله وكرمه على عموم خلقه، ثمَّ أتبع ذلك ببيان الوجه الثَّاني منَ المقابلة، وهي حاله في الآخرة، فقال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾؛ فعطف التَّولية على إصلاء النَّار؛ لبيان أنَّ الثَّاني هو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/402.

النَّتيجة الحتميَّة للأوَّل، وهو زوال كلِّ ما كان يتصوَّر أنَّه خيرٌ له، فبيَّن أنَّه أسوأ ما يمكن أن يصل إليه إنسانٌ في دركات الشّرِّ؛ فقال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

فائدة جناس الاشتقاق في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

الجـزاء يكـون باختيار الإنسان نفسه

في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ جناس اشتقاق بين ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿تَوَلَّىٰ﴾، وفائدته: بيان أنَّ الجزاء يكون باختيار الإنسان نفسه، فهو يختار ما يشاء منَ الجزاء والمصير، وهذا من صميم العدل الإلهيِّ في حسابهم وجزائهم على ما فعلوا، فقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: ندعه وَفْق ما قدَّرناه من السّنن الكونيَّة الَّتي خلقناها، يتفاعل معها كيف يشاء، ثمَّ يأتي يوم القيامة، فيأخذ جزاءه في جهنَّم؛ لمشاقَّته الرَّسول، واتِّخاذه غير سبيل المؤمنين سبيلًا.

بلاغة التَّذييل في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾:

وتظهر بلاغة التَّذييل في قوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ حيث جاءَت جملة خبريَّة تقريريَّة موقعها منَ الآية التَّذييل؛ بفعلها الدَّالِّ على الذَّمِّ، وتمييزها بلفظة ﴿مَصِيرًا﴾، كلّ ذلك للتَّنفير من هذه الفعلة المشينة، فصارت العبارة كالمختصر لِمَا قبلها من مشاقَّة الرَّسول، واتِّباع غير سبيل المؤمنين.

فائدة الإطناب في قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾:

الوعيد الشَّديد للمتَّخذِ غير سبيل المؤمنين، والتَّخويف للنَّاس

جاء قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ بعد قوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، وهي كافية في بيان العذاب؛ لكنَّ أسلوب القرآن أطنب، وتوسَّع في وصف حال من يصلى جهنَّم، وبيَّنَ حالها في ذلك، فقال: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

وفائدة هذا الإطناب: الوعيد الشَّديد أوَّلًا لِمَن اتَّخذ له سبيلًا غير سبيل المؤمنين، والتَّخويف الشَّديد ثانيًا للنَّاس عمومًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يشاقق) و(يعارض) أو (يحادد):

قال: ﴿يُشَاقِقِ﴾، ولم يقل: (يحادد)؛ لأنَّ المشاققة هي التَّفريق بين الله ورسوله في الاعتقاد، كأن يدَّعي الإيمان بالله دون الرَّسول، أو أن يعمل بالقرآن دون السّنَّة، أمَّا قوله: (يحادد) فهو رفض التَّشريع بأكمله، ومعاداته، قصدًا وعمدًا، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾ [المجادلة: 20].

وقد وردت ﴿يُشَاقِقِ﴾ في الأنفال، في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، ووردَت (يحادد) في التَّوبة، فقال: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ [التّوبة: 63].

(نصليه جهنم) و(ندخله جهنَّم):

الصِّلَى: يكون بالنَّار، وأحسن منَ الصِّلاء في الشِّتاء، وصلي النَّار، وصلي بها، قال تعالى: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى: 12]، وتصلَّاها، وتصلَّى بها، وشاة مَصليَّة: مَشويَّة[1]، ففي قوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ بيان لجانب العذاب فيها، وتخويف ووعيد لمَا سيصيب جلودهم ولحومهم منَ الحرق والشِّواء، فتكون أبلغ من قوله: (وندخله جهنّم)، فالإصلاء أنسب مع ذكر جهنَّم لمَا في جهنَّم منَ الشِّدَّة، ووردَت في القرآن موصوفة بالشِّدَّة، كقوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] أو قوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾، ولو قال: (وندخله جهنَّم)؛ لم يظهر تخيّل معنى العذاب وصورة الصَّلي على أجسادهم، ولم ترد في القرآن الكريم (ندخله جهنَّم)، وورد قوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ [النّساء: 14].

السَّبيل والطَّريق:

السَّبيل في اللّغة: الطَّريق، وسمِّي بذلك؛ لامتداده، فأصل مادَّة (سَبَلَ) الدَّلالة على الامتداد، وكثر استعماله في الطَّريق الَّذي فيه سهولة، أمَّا الطَّريق في اللّغة فهو المسلك؛ لأنَّ الأقدام تتركه، أي: تطؤه، والبعض يعبِّر بالسَّبيل على الطَّريق، والطَّريق على السَّبيل، ولكنَّ النَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ كلمة سبيل وردَت في القرآن كثيرًا، وجاءَت في أكثر مواضعها مضافة إلى لفظ الجلالة، ولعلَّ ما رشَّحها لهذا هو ملمح السّهولة،

---

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صلي).

حيث تعبِّر عن وضوح المسلك إلى اللّه، وسهولته على السَّالكين؛ كما جاءَت مضافة إلى المؤمنين للإشارة إلى السّهولة والوضوح في سبيل المؤمنين، بخلاف الطَّريق فقد ورد في القرآن في مواضع قليلة، وهو يدلّ على المسلك الَّذي يسلكه الإنسان، محمودًا كان أم مذمومًا، فوصف في القرآن بالطَّريق المستقيم، وهو طريق محمود، وجاء وصفًا لطريق جهنَّم، وهو طريق مذموم، وعلى هذا فالطَّريق أعمّ منَ السَّبيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النّساء: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر اللّه مشاققة الرَّسول، ومصيرَ من يشاقق الرَّسول، ويتَّبع غير سبيل المؤمنين؛ علَّل في هذه الآية جزاء هذه المشاقَّة، المتضمِّنة للشِّرك، والنَّاشئة عنه؛ بيانًا لفظاعة الشِّرك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ممَّا يَشِي إلى أنَّ مشاققة الرَّسول تؤدِّي إلى الشِّرك؛ لأنَّ مَن ترك ما جاء به الرَّسول ﷺ وهو توحيد اللّه وطاعته، فقد أشرك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُ﴾: جِذر الكلمة هو: (غَفَر)، غفره يغفره غفرًا وغفرانًا: ستره، وصفح عنه، وأصل الغفر: السِّتر[1]، والمغفرة اسم منه، والعرب تقول: اصبغ ثوبك بالسَّواد، فهو أغفَر لوسخه، وغفر الشَّيب بالخضاب، واغْفِره، والغفر والمغفرة: التَّغطية على الذّنوب، والعفو عنها[2]، والغَفر: إلباس الشَّيء ما يصونه منَ الدَّنس، واستغفرت اللّه: سألته المغفرة، واغتفرت للجاني ما صنع، والغفران والمغفرة منَ اللّه: هو أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذاب[3].

2) ﴿يُشۡرَكَ﴾: جِذر الكلمة هو: (شرك)، والمعنى المحوريّ: لزوم الشَّيء الشَّيءَ إمساكًا بجامع دقيق أو لطيف، كما يمسك الشِّراك النَّعلَ، والشَّرَك الصَّيدَ[4]، وأشرك باللّه تعالى، وهو من أهل الشِّرك[5]، والشِّرْك اسمُ من أشرك باللّه، وهو أن يعبد المخلوق كما يعبد اللّه، أو يعظَّم كما يعظم اللّه، أو يصرف له نوعٌ من خصائص الرّبوبيَّة، أو الألوهيَّة، مثل: عبادة الأصنام[6].

---

(1) الحمويّ، المصباح المنير: (غفر).
(2) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرك).
(5) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(6) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 13/19، وابن القيم، إعلام الموقعين: 1/413.

3) ﴿ضَلَّ﴾: جذر الكلمة هو: (ضلَّ)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدلّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهوَ ضَيَاع الشَّيْءِ وَذَهَابه في غَيْرِ حَقِّه، يقَال: ضَلَّ يَضِلّ وَيَضَلّ، لغَتَانِ، وَكلّ جَائِرٍ عَنِ الْقَصْدِ ضَالٌّ[1]، وضلَّ في الأمر ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ له، والضَّلال: العدول عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادّه الهداية.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الـشِّـرك أعظم الـذّنـوب وأنـواعِ الضَّلال

يخبر اللّه تعالى أنَّه لا يغفر لِمَن أشرك به، ومات على ذلك؛ لتضمّنه القدح في ربِّ العالمين وفي وحدانيَّته، ويغفر ما دون ذلك منَ الشِّرك لِمَن يشاء من أهل التَّوحيد، وهذه المشيئة في حقِّ مَن لم يتب من ذنوبه، أمَّا من تاب: إن شاء؛ غفر له، وإن شاء؛ عذَّبه، ثمَّ بيَّن جزاء مَن يشرك باللّه بأن ضلَّ عنِ الحقِّ ضلالًا بعيدًا؛ لأنَّه ذهب عن طريق التَّوحيد، فحرِم الخير كلَّه؛ لأنَّ الشِّرك أعظم أنواع الضَّلال[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه عدم عطف هذه الجملة على ما سبق:

اسـتـئـنـافـيَّـة تمهيدٌ لمَا بعدها

لم تعطف هذه الجملة؛ لأنَّها استئنافيَّة، إذ جعلت تمهيدًا لمَا بعدها من وصف أحوال شركهم، ولبيان أنَّ المراد باتِّباع غير سبيل المؤمنين، هو اتِّبَاع سبيل الكفر من شركٍ وغيره، وللتَّحذير منَ الشِّرك بكلِّ صوره[3].

دلالة التَّوكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾:

تـوكـيـد الـخـبر وقــصــد دفـع احتمال المجاز

جاءَت ﴿إِنَّ﴾ في أوَّل الآية؛ لتوكيد الخبر، لقصد دفع احتمال المجاز أو المبالغة في الوعيد، والغرض: التَّشنيع على الَّذين فضَّلوا الشِّرك على الإيمان.

(1) الخليل، العين: (ضلل)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.

فائدة تقديم لفظ الجلالة (الله) على حرف النَّفي:

التَّوحيد هو الأصل والشِّرك أمر طارئ عليه

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مسند إليه، جاء بعد التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾، وتقدَّم على حرف النَّفي ﴿لَا﴾، ثمّ أخبرتِ الآية عنه بجملة فعليَّة، فأفاد ذلك تقوية حكم الإسناد، فزاد التَّعبير توكيدًا وقوَّة، وهذا هو الحال ومقتضاه؛ إذِ المقام مقام جدٍّ ومفاصلة بين الإيمان وعدمه، وممَّا يذكر في ذلك أنَّ تقديم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ يدلِّل على أنَّ التَّوحيد هو الأصل، وأنَّ الشِّرك أمر طارئ على الأصل، وفيه إشارة إلى تربية المهابة في قلوب السَّامعين؛ لأنَّ لفظ الجلالة يجمع صفات الجلال والجمال والكمال، بخلاف الشِّرك فهو نقصٌ وضعفٌ وباطل، ثمَّ أتبع ذلك بصورةٍ بديعيَّةٍ نشأت عن طباق السَّلب.

التَّشابه بين الآيتين:

السِّرّ في اتِّفاق الآيتين في صدرهما واختلافهما في عَجزهما

يجد النَّاظر في هذه الآية أنَّها اتَّفقَت في صدرها مع الآية السَّابقة في السّورة نفسها - الآية (48) - وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]؛ إذ تشابهتِ الآيتان في مطلعيهما وموضوعهما، واختلفتا في التَّذييل، ويرجع ذلك إلى سياق الآيتين، واختلاف المخاطَبين فيهما، فالآية الثَّامنة والأربعون كانت تخاطب أهلَ الكتاب، وهم قومٌ عرفوا الإيمان بالله؛ إذ ذكر قبلها قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النّساء: 44]، وقوله بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ [النِّساء: 47]، فنبَّههم على أنَّ شركهم بالله هو افتراءٌ منهم، أمَّا في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ

﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فإنَّ الخطاب فيها قصِدَ منه ابتداءً المنافقون الَّذين عاشوا مع المؤمنين، وعرفوا رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: 115]، فهؤلاء ضلّوا بشركهم وانضمامهم إلى مجتمع الكفر والشِّرك ضلالًا بعيدًا، فهم قد عرفوا طريق الحقِّ وسبيل المؤمنين، ولكنَّهم شاقّوا الرَّسول، واختاروا غير سبيله، فضلّوا فلا يرجى صلاحهم، فقال: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[1].

التَّوكيد بالتَّكرار، وبـ﴿إِنَّ﴾:

الآية استئناف ابتدائيٌّ، جعل تمهيدًا لما بعده من وصف أحوال شركهم، وتعقيب الآية السَّابقة بهذه مشير إلى أنَّ المراد باتِّباع غير سبيل المؤمنين اتِّباع سبيل الكفر من شركٍ وغيره، فَعَقَّبَه بالتَّحذير مِنَ الشِّرك، وأكَّده بـ﴿إِنَّ﴾ للدَّلالة على رفع احتمال المبالغة أو المجاز، غير أنَّ الآية السَّابقة ذيَّلها بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النِّساء: 48]، وذيَّل هذه بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، وإنَّما قال في السَّابقة: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾؛ لأنَّ المخاطَب فيها أهل الكتاب، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النِّساء: 47]، فنبِّهوا على أنَّ الشِّرك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم مِنَ الافتراء، وتفظيعًا لجنسه.

الشِّرك بالله افتراءٌ عليه سبحانه، وكذب على النَّفس، وعدوانٌ على الخلق

وأمَّا في هذه الآية؛ فالكلام موجَّهٌ إلى المسلمين فنبِّهوا على أنَّ الشِّرك مِنَ الضَّلال؛ تحذيرًا لهم من مشاقَّة الرَّسول وأحوال المنافقين[2].

فائدة تكرار صدر الآيتين:

في تكراره فائدتان؛ الأولى: أنَّ عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة في القرآن الكريم، وأنَّه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرَّتين، وقد أعاد هذه الآية دالَّةً على العفو والمغفرة بلفظ

الدَّلالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/404، وابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/202.

واحد في سورة واحدة[1]، وقد جاء التَّكرير للتَّأكيد[2]، فهذا يدلّ على أنَّه تعالى خصَّ جانب الوعد والرَّحمة بمزيد التَّأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد[3].

والأخرى: أنَّ الآيات المتقدِّمة قبلها إنَّما نزلَت في سارق الدِّرْع، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ إنَّما نزلَت في ارتداده، ولمَّا ارتدَّ؛ كفر، وأشرك بالله فصار محرومًا من رحمة الله، وأكَّد ذلك بشرحه لأمر الشِّرك، وجعله عظيمًا عند الله[4].

وممَّا يذكر في فوائد التَّكرار أنَّ قتل النَّفس وقع بين الآيتين، وهذا دليل على أنَّ القاتل له توبة.

دلالة التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾:

كلّ ذنب قابل للغفران إلَّا الشِّرك بالله

اختار في وصف الغفران ﴿مَا﴾ - وهي اسم موصول مبنيٌّ في محلِّ نصب مفعول به - لأنَّها تفيد العموم، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ما دون الشِّرك، وإنكار الرِّسالة يكون تحت غفران الله تعالى، وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنَّ الله يغفر ذنوبهم مهما عظمَت؛ لذلك عَدَّ بعض العلماء هذه الآية أنَّها أرجى آية في القرآن الكريم.

سرّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ دون الصَّريح:

لا يغفر الله ذات الشِّرك، ويغفر للمشرك؛ إذا تاب

للدَّلالة على أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر ذات الشِّرك، ولكن يغفر للمشرك؛ إذا تركه، وتاب عنه؛ لذلك أضيف نفي الغفران إلى الشِّرك لا إلى من تَلَبَّس به.

دلالة اختيار ﴿دُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾:

تبشيع المعاصي وذمّها

لَمَّا كان لفظ ﴿دُونَ﴾ يحمل معنى: التَّحقير والتَّقليل؛ فأطلقه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/36 - 37.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/599.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/36 - 37.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/45.

على المعاصي الَّتي تحت الشِّرك؛ لأنَّ الشِّرك معناه إلغاء الوحدانيَّة، وأيضًا لذمِّ المعاصي؛ فلفظ الـ(دون) يبَشِّع المعاصي، فيجعل العاصي دون الطَّائع.

دلالة تأكيد الخبر بحرف (قد):

أكَّد الخبر هنا بحرف (قد) اهتمامًا به؛ لأنَّ المواجه بالكلام هنا المؤمنون[1]. وهم لا يشكّون في تحقّق ذلك، ولَمَّا كان الشِّرك من أعظم الكبائر كان الضَّلال النَّاشئ عنه بعيدًا عن الصَّواب؛ لأنَّ غيره منَ المعاصي، وإن كان ضلالًا لكنَّه قريب من أن يراجع صاحبه الحق؛ لأنَّ له رأس مال يرجع إليه؛ وهو الإيمان، بخلاف المشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾[2] [الحج: 12]، وناسب هنا ذكر الضَّلال لتقدّم الهدى قبله.

الاهتمام بأمر الشِّرك وما ينتج عنه

طباق السَّلب في قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ﴾:

في الآية طباق السَّلب في قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ الَّتي ابتدأ بها الخبر؛ إذ نفى المغفرة عن كلِّ أحوال الإشراك به سبحانه، لكنَّه وسَّع مساحة مغفرته سبحانه، فجعلها ما دون الشِّرك من أفعال الإثم رحمة منه بعباده، فقال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فاشتمل الخبر على طباق السَّلب الَّذي أفاد إظهار عظيم شأن اللّه سبحانه، والإيمان به، وأنَّ الإيمان باللّه وحده هو سرّ القبول وأساسه، ثمَّ بيَّن سعة رحمته سبحانه لعباده ممَّن يقترفون الآثام دون الإشراك باللّه شيئًا، فبيَّن أنَّ رحمته ومغفرته وسعَت كلَّ إنسان لا يشرك به شيئًا.

أخطر ما يفعله الإنسان الإشراك بالله سبحانه

دلالة الالتفات منَ المبنيِّ لمَا لم يسمَّ فاعله إلى المبنيِّ للمعلوم:

قوله تعالى: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ثمَّ قال: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فتحوَّل من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/68.

البناء لَمَا لم يسمَّ فاعله، وهو (يشرَك) إلى البناء للمعلوم الغائب في قوله: ﴿لِمَن﴾، بمعنى: للَّذي يشاء، ودلالته على المعلوم واضحة.

تجاهل المشاققين للرَّسول والالتفات إلى مَن لا يشرك بالله

وفائدة هذا الالتفات: تجاهل ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ﴾ والصَّدّ عنه، والالتفات إلى مَن لا يشرك باللّه، حتَّى وإنِ ارتكب الآثام والأخطاء، فإنَّ اللّه يغفرها له؛ لبيان أنَّ مسألة التَّوحيد مفصليَّة، وأن لا مغفرة قطعًا مع مَن يشرك باللّه.

دلالة الاحتراس في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾:

مشيئة الله هي المِفصَل في كلِّ مغفرة سوى الإشراك

احترس بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّه لو اكتفى بقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ لفهم المعنى أنَّه سبحانه يغفر كلَّ ما دون ذلك للجميع، فلا يبقى شيء يحاسِب عليه اللّه ممَّا يفعله الخلق سوى الإشراك باللّه، لكنَّه احترس عن هذا المعنى بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ فتكون مشيئته سبحانه هي المِفصَل في كلِّ مغفرة لَمِن ارتكب إثمًا دون الإشراك.

الإيجاز بأساليب منوّعة من جميل البديع القرآنيّ:

الآية فيها لفٌّ ونشر خفيٌّ

ذكر الإشراك وعاقبته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وذكر ما دونه وإمكان مغفرته، فقال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فهذا اللَّفّ، وأمَّا النَّشر؛ فقد بيَّن الإشراك وحاله، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فعلم محذوف لوصف مَن لا يشرك باللّه، وتقديره: لَمن لا يشرك، وتقديره: ومَن لا يشرك؛ فهو قريب إلى الإيمان والهداية، وبهذا التَّقدير يكتمل النَّشر في الآية.

حكمة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار في: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾:

حفاوة الله بعباده كبيرة والمشرك حَرَمَ نفسَه منها

أظهر لفظ الجلالة؛ لأنَّه لو قال: (ومَن يشرك به) على إضمار لفظ الجلالة لفهم المعنى من السِّياق، لكنَّه صرَّح به، وأظهره في موضع الإضمار، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾؛ لبيان عظيم شأن ذلك الإثم، والتذكير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾، فاندرج في النَّصِّ الوعيد والتَّهديد.

دلالة الإتيان بهذه الآية بعد الآية السَّابقة:

التَّعظيم لأهل الإسلام، وتوعّد مَن نابذهم

عقَّب القرآن بهذه الآية؛ لأنَّه لَمَّا كان فاعل الشِّرك باللّه بعد بيان الهدى هم أهل الكتاب، ومَن أضلّوه منَ المنافقين، بما ألقَوْه إليهم منَ الشّبه، فردّوهم إلى ظلام الشِّرك والشَّكِّ بعد أن علموا حقيقة التَّوحيد؛ حسن إيلاؤه قوله ﷻ معلِّلًا تعظيمًا لأهل الإسلام، وحثًّا على لزوم هديهم، وذمًّا لَمَن نابذهم، وتوعّدًا له، إشارة إلى أنَّ مَن خرق إجماع المسلمين صار حكمه حكم المشركين، فكيف بمَن نابذ المرسلين، ثمَّ دلَّ على نفوذ أمره بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1].

سرّ التَّعبير بالفعل المضارع في: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾:

المشرك يوقع هذا الفعل الشَّنيع مداومًا على تجديده

عبَّر بالفعل المضارع لدلالة التَّجدّد والاستمرار، أي: إنَّ المشرك يوقع هذا الفعل الشَّنيع مداومًا على تجديده[2]، ولذلك فهو راكب متن الضَّلالة، فلن يغفر له إلَّا إذا أقلع عن شركه.

وعلى هذا يفهم منَ الآية أنَّ مَن يتوقَّف عن هذا الفعل الشَّنيع، ويؤمن، فإنَّ اللّه يغفر له.

فائدة جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلَۢا﴾:

زيادة التَّوكيد في وصف الضَّلال

في قوله: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلَۢا﴾ جناس اشتقاق، أفاد زيادة التَّوكيد في وصف الضَّلال؛ لبيان عظيم الإثم الَّذي وقع فيه مَن جعَل للّه نِدًّا، وهو الإشراك الَّذي لا مغفرة فيه، وكأنَّ الضَّلال قد أحاط بالمشرك، فلا مفكَّ له منه، إلَّا بإنابة صادقة.

الاستعارة في قوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

الموغل في طريق البعد موغل في ضلاله وإشراكه

تكون الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ ذلك أنَّ (البعيد) أريد به القويّ في نوعه الَّذي لا يرجى لصاحبه اهتداء، فاستعير له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/403.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/404.

البعيد؛ لأنَّ البعيد يقصي الكائن فيه عنِ الرّجوع إلى حيث صدر[1]، فكلَّما أوغل في طريق البعد أوغل في ضلاله وإشراكه.

دلالة التَّذييل في: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

الـشِّـرك يـأخذ صاحبه في سبل المتاهة والضَّياع

فبعد أن بيَّن خطورة الإشراك بالله، وأنَّه لا مغفرة مع الإشراك قطعًا، ذيَّل ببيان مصير مَن يشرك، ولا يعتبر بمقدِّمات الآية الكريمة، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فأخبر بأنَّ الشِّرك ضلال بعيد، يأخذ صاحبه في سبل المتاهة والضَّياع.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لَا يَغفِر) و(لا يعفو):

اختار القرآن الكريم مادَّة (الغفران) دون غيرها، وذلك لما تحمله من معانٍ:

أولاً: يأتي الغفران بمعنى التّجاوز في الدّنيا عنِ المؤاخذة باتِّباعهم غير سبيل المؤمنين، إذا عادوا إلى حظيرة الإيمان.

ثانيًا: ولأنَّ الغفران يحمل معنى التَّسامح، ولا سيَّما إذا كانتِ الآية على رأي بعض المفسِّرين أنَّها في المنافقين من أهل الكتاب.

ثالثًا: ولأنَّ الغفران من معانيه: التَّجاوز عنِ المعاصي في الآخرة طالما أنَّها بعيدة عنِ الشِّرك.

رابعًا: ولأنَّها بشارة للعصاة؛ لأنَّ الله يغفر ذنوبهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ [النِّساء: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر الشِّرك وأهلَه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ثمَّ ذكر مآلهم، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، ذكر هنا سفاهة ما يعبدون من دون اللّه تعالى، فقال: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾، وبذلك تكون الآية ذكرَت ما آلَت إليه تلك العقول منَ الانحطاط؛ لأنَّهم تركوا عبادة اللّه، ولجؤوا إلى عبادة الأوثان أو الشَّياطين، وبعد أن حذَّر منَ الشِّرك، وبيان عواقبه، ذكر هنا صورًا من ضلال المشركين، وهي: عبادة مَن لا يتصوَّر عبادته عاقل مدرك إدراكًا خاليًا منَ التَّأثّر بالباطل، وخضوعهم المطلق للشَّيطان(1).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدۡعُونَ﴾: الدّعاء من (دعوته) إذا سألته، وإذا استغثته، قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 70]، أي: سَله، وقال تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 41]، أي: لم تفزعوا إلَّا إليه(2)، وهذا من الشِّرك في عبادة اللّه؛ لأنَّه دعاء غير اللّه مع اللّه فيما لا يقدر عليه إلَّا اللّه، والالتجاء إليه، والاستغاثة به؛ لكشف الشَّدائد، أو جلب الفوائد(3)، والمعنى هنا: ما يعبد المشركون.

2) ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾: مشتقٌّ من شَطَنَ، أي: تباعد، ومنه: بئرٌ شَطون، أو من: شاط يشيط؛ إذا احترق غضبًا، فالشَّيطان مخلوقٌ منَ النَّار، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرَّحمن: 15]، ويطلق الشَّيطان على كلِّ عارمٍ منَ الجنِّ والإنس والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: 112](4).

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1862.

(2) الرّاغب، المفردات: (دعو).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/159، وابن القيم، مدارج السالكين: 1/375.

(4) الرّاغب، المفردات: (شطن).

3) ﴿مَّرِيدًا﴾: جذر الكلمة هو (مَرَد)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدلّ عَلَى تَجْرِيدِ الشَّيْءِ مِنْ قِشْرِهِ أَوْ مَا يَعْلوه مِنْ شَعْرِهِ، ويلزم من هذا الأصل عدم التَّمكّن من الإمساك بالشَّيء، فيخرج عن الطَّاعة، كالمَرود والمارد من الخيل: الَّذي يجيء، ويذهب نشاطًا، أي: من شدَّته، والمارد من الرِّجال: العاتي الشَّديد، ومَرَد على الشَّرِّ وتمرَّد: عتا وطغى، تمرَّد علينا: عتا، والمارد والمريد: الخبيث المتمرِّد الشِّرِّير، فهذا كلّه من لازم المعنى الأصليِّ[1]، ومعنى المرود: أن يبلغ الغاية الَّتي يخرج بها من جملة ما عليه في ذلك الصِّنف[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

عبادة فاقد صفات الكمال

ما يعبد المشركون، ولا يتَّجهون في عبادتهم، وضراعتهم من دون اللّه تعالى ذي الجلال والإكرام إلَّا إلى إناثٍ قد استبدلوهنَّ بعبادة اللّه؛ فهم قد تركوا عبادة القويِّ القادر إلى عبادة العاجز الَّذي لا يستطيع حماية نفسه، ورفْع الضّرِّ عنه، وما يعبدون إلَّا شيطانًا قد عتى، وتجرَّد مِنَ الخير، وبلغ في الفساد والإفساد حدًّا كبيرًا، وبذلك لا يكون منه إلَّا الشَّرّ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الكناية بالدّعاء عنِ العبادة في قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾:

الدّعاء هو العبادة

جاء التَّعبير القرآنيّ بقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ﴾، بمعنى: يعبدون[4]، ويكون المراد ما يعبدون من دون اللّه، ويتَّخذونه إلهًا إلَّا مسمَّيات تسمية الإناث، وكنَّى بالدّعاء عنِ العبادة؛ لأنَّ من عبد شيئًا دعاه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرد).
(2) ابن سيده، المحكم: (مرد).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1862.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/472.

عند حوائجه ومصالحه، والدّعاء أبلغ العبادة ومخها وأسها؛ لأنَّ فيه معنى التَّوسّل والتَّضرّع، وطلب تحقيق الغايات، ثمَّ إنَّهم ما يعبدونه إلَّا لغاية دعائهم في تحقيق الحاجات، ويدعونهم ساعة الملمَّات، فكنَّى بالدّعاء عنِ العبادة؛ لشمول ذلك كلِّه.

سرّ التَّعبير عنِ العبادة بالدّعاء في قوله: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

ذكر العامِّ وهو الدّعاء ليشمل الخاصَّ معه، وهو العبادة

ورد الدّعاء في القرآن الكريم بمعنى: العبادة في مواضع عديدة، وذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 71]، يعني: أنعبد من دون اللّه، وقال في سورة يونس: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 106]، يعني: لا تعبد من دون اللّه، وقال في سورة الإسراء: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾ [الإسراء: 67]، أي: تعبدون، وقال في سورة الشّعراء: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ﴾ [الشعراء: 213]، يعني: لا تعبد مع اللّه إلهًا آخر، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: 68]، يعني: لا يعبدون، وقال فيها أيضًا: ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [الفرقان: 77]، أي: لولا عبادتكم.

وسبب ورود الدّعاء بمعنى العبادة؛ أنَّ كثيرًا منَ المشركين لا يعبدون أصنامهم إنَّما يدعونهم، فذكر العامَّ؛ وهو الدّعاء، وشمل الخاصَّ معه، وهو العبادة، ولو ذكر العبادة لتوهِّم أنَّ مَن يدعون غير اللّه تضرّعًا وتوسّلًا يخرجون عن دائرة الإشراك أو عبادة الشَّيطان.

الكناية ومعنى التَّبكيت في قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾:

ذكر العلماء لذلك بعض التَّعليلات:

معاني التَّعبير عنِ الآلهة الَّتي يعبدونها بالإناث

منها: أنَّ العرب كانت لهم أصنام يعبدونها، وكانوا يحَلّون الأصنام بأنواع الحليِّ، ويسمّونها أنثى، وإناث جمع أنثى، قال ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة: المراد الخشب والحجارة، فهي مؤنِّثات لا تعقل، فتكون ﴿إِنَٰثٗا﴾ كناية عنها، فمنها يصنعون أصنامهم، فيخبر عنها، كما يخبر عنِ المؤنَّث منَ الأشياء، فيجيء قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾

عبارة عنِ الجمادات، وفيه تبكيت لهم، وقال أبو مالك والسّدّيّ وابن زيد وغيرهم: كانتِ العرب تسمّي أصنامها بأسماء مؤنّثة كاللّات والعزّى ومناة ونائلة، كما كانت تسمَّى - أيضًا - بأسماء مذكّرة: كهبل، وذي الخلصة، وقال الحسن: لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلّا ولهم صنم يعبدونه، يسمّونه أنثى بني فلان، وفي هذا تعبيرهم بالتّأنيث؛ لنقصه وخساسته.

ومنها: أنّهم كانوا يقولون عن أصنامهم: (بنات اللّه)، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنها: للتّحقير من شأنها؛ لأنّها منفعلة، وليست فاعلة، وأكثر ما عبدته العرب منَ الأصنام كانت أشياء منفعلة غير فاعلة، فبكّتهم اللّه تعالى، أنّهم مع كونهم فاعلين من وجه، يعبدون ما ليس هو إلّا منفعلًا من كلّ وجه، وعلى هذا نبّه إبراهيم - عليه السلام - بقوله: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم: 42][1].

وجه اصطفاء كلمة ﴿إِنَٰثٗا﴾:

تقبيح الإشراك باللّه تعالى

هذه اللّفظة تقبّح الشّرك والمشرك باللّه؛ لأنّه أشرك مع اللّه ما هو كالإناث الّتي تحتاج إلى من يحميها، ولا تحمي أحدًا، وتشير إلى الضّعف والعجز؛ فكيف بعاقل يعبد أو يشرك مع اللّه مَن يحتاج إلى مَن يحميه؟

الالتفات في القراءات:

دلالة الالتفات في تعدّد القراءات

أفاد هذا الالتفات؛ أنّه لا ينبغي الدّعاء إلّا للّه تعالى؛ لأنّ الدّعاء له شرط لصحّة الإيمان والاعتقاد، ويلزم الإعراض عن دعاء كلّ واحد إلّا اللّه.

وقرأ أبو رجاء: (إن تدعون) بالتّاء على الخطاب[2]، وهي قراءة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/68 - 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/69.

شاذَّة، فيكون في الآية على هذه القراءة التفات من الغائب في قوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ﴾ إلى الخطاب في قوله: (تدعون).

أمَّا على قراءة الجمهور ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ فلا التفات فيها.

وفي مصحف عائشة ﷺ: (إلَّا أوثانًا)، جمع وثن، وهو الصَّنم.

وقرأ بذلك أبو السِّوار والهنائي، وقد اجتمعَت في هذا اللَّفظ ثماني قراءات[1].

وجه تكرار أسلوب الحصر مرّتين في: ﴿إِن يَدۡعُونَ﴾:

كلّ ما يدْعى من دون الله أنموذجٌ لشيطان

دلَّ الحصر على أنَّ كلَّ ما يدعوه الإنسان من دون اللّه، هو أنموذج لشيطان يكون معه الخسران المبين.

قوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾، الحصر الثَّاني بعد قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾، وهو الحصر الأوَّل، والمراد به إبليس، قاله: الجمهور، وهو الصَّواب؛ لأنَّ ما قاله بعد ذلك مبيِّن أنَّه هو، وقيل: الشَّيطان المعيَّن بكلِّ صنم أفرد لفظًا، وهو مجموع في المعنى الواحد، يدلّ على الجنس، فذكر الواحد، وأراد الكلَّ، ويحتمل أن يكون لعنه اللّه صفة، وأن يكون خبرًا عنه، وقيل: هو دعاء، ولا يتعارض الحَصران؛ لأنَّ دعاء الأصنام ناشئ عن دعائهم الشَّيطان، لمَّا عبدوا الشَّيطان أغراهم بعبادة الأصنام.

علَّة تأخير ذكر الشَّيطان وعبادته عن عبادة الأصنام:

عبادة الشيطان تدعو إلى عبادة الأصنام

أخَّر ذكر الشَّيطان وعبادته على عبادة الأصنام الإناث؛ لأنَّهم لمَّا عبدوا الشَّيطان؛ أغراهم بعبادة الأصنام، وعلى هذا المعنى يكون الكلام التفاتًا منَ الجمع إلى المفرد.

دلالة عودة الضَّمير في قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾:

يعود الضّمير على مشركي العرب، ودلَّ الحصر على التَّعجّب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.

القصر الادّعائيّ الذي فيه تعجيبٌ من أحوال المشركين

منهم، وقد علم النَّاس حال المرأة بينهم، وقد حرموها من حقوق كثيرة، واستضعفوها، فالحَصر في قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ قصر ادِّعائيٌّ؛ لأنَّه أعجب أحوال إشراكهم.

وكانتِ العزَّى لقريش، وكانت مناة للأوس والخزرج، ولا يخفى أنَّ معظم المعاندين للمسلمين يومئذٍ كانوا من هذين الحيَّين: مشركو قريش، هم أشدّ النَّاس عداء للإسلام، ومنافقو المدينة ومشركوها، هم أشدّ النَّاس فتنة في الإسلام.

نسبة الدّعاء إلى الأصنام

نسب الدّعاء إلى الأصنام على طريق المجاز، وليس على الحقيقة؛ لأنَّ دعاء الأصنام ناشئ عن دعائهم الشَّيطان، لمَّا عبدوه؛ أغراهم بعبادة الأصنام.

الاستعارة في: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾:

الاستعارتان تعكسان حالات التَّنوّع والتَّجدّد في الاستجابة للشَّيطان

في الآية استعارتان في الدّعاءين؛ فالأوَّل: عبادة، والآخر: طواعية، فدعاء الشَّيطان هنا: استعارة تصريحيَّة، بمعنى: الاستجابة والطَّاعة، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿مَّرِيدٗا﴾، يعني: عاتيًا صلبًا في غَوايته، مغاليًا في انحرافه، متجرِّدًا للشَّرِّ والغَواية، فدلَّ على حالة تمرّدهم؛ لمَّا استجابوا له[1].

ونسبة دعائهم الأصنام هو على سبيل المجاز، وأمَّا في الحقيقة؛ فهم يدعون الشَّيطان[2]، والمجاز هنا استعارة تصريحيَّة، وفائدة الاستعارتين في كلمة ﴿يَدۡعُونَ﴾ واختلافهما: أنَّهما تعكسان حالات التَّنوّع والتَّجدّد في الاستجابة للشَّيطان، وتصوِّران حالات النَّاس من غير المؤمنين، وطريقة انصياعهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/114.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.

إلى مصدر الشَّرِّ كلِّه؛ وهو الشَّيطان المريد، واللّجوء إليه في جميع أحوالهم، وأفعالهم، وأقوالهم:

دلالة ذكر: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ مع أنَّ المعنى يفهم دونها:

المناسبة في ذكر العبادة والدّعاء

دلَّ قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على أنَّ الَّذي يدعو من دون اللّه، هو من سفَّه عقله، وقوَّض طاقاته، وانحدر في غياهب الضَّلال والجهل.

ولمَّا كان المنافقون هم المقصودين بالذَّات بهذه الآيات، وكان أكثرهم أهل أوثان؛ فناسب التَّعبير لعبادة الأوثان عنِ العبادة بالدّعاء إشارة إلى أنَّ كلَّ معبود لا يدعى في الضَّرورات، فيسمع، فعابده قد سفَّه عقله، وانحدر في غياهب الجهل.

ولمَّا كان كلّ شيء دونه ﷻ؛ لأنَّه تحت قهره؛ قال محتقرًا لَما عبدوه: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وهو الرَّحمن، كون أنَّ من يدعوهم لا يسمعون دعاءهم، قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: 14]، ولمَّا كانت معبوداتهم أوثانًا متكثِّرة، وكلّ كثرة تلزمها الفرقة والحاجة والضَّعف، مع أنَّهم كانوا يسمّون بعضها بأسماء الإناث، ويقولون في الكلِّ: إنَّها بنات اللّه، قال: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾، أي: فجعلوا أنفسهم للإناث عبادًا، وهم يأنفون من أن تولد لهم البنات.

هذا مع أنَّ مادَّتي (أنث) و(وثن) يلزمهما في نفسهما الكثرة والرَّخاوة والفرقة، وكلّ ذلك في غاية البعد عن رتبة الإلهيَّة[1].

بلاغة قصر القلب في الآية:

آلهتهم لا تستحقّ أن تسمَّى آلهة لنَقْصها وانحطاطها

تظهر بلاغة هذا القصر في قوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾، وأنَّ هذا قصر قلب؛ لاعتقادهم أنَّها آلهة، ومعنى القصر: ما هي إلَّا غير آلهة لما لها منَ النَّقص، فقد قلب وعكس عليهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/405.

اعتقادهم، ثمَّ أتمَّ ذلك ببيان حقيقة ما يعبدون، فقال: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾؛ أي: ما يعبدون في الحقيقة ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾، أي: لأنَّه هو الآمر لهم بذلك، المزيِّن لهم، ﴿مَّرِيدٗا﴾، أي: عاتيًا صلبًا عاصيًا ملازمًا للعصيان، مجرَّدًا من كلِّ خير، محترقًا بأفعال الشِّرِّ، بعيدًا من كلِّ أمن، من: شاط وشطن، ومرد: بفتح عينه وضمِّها[1].

دلالة التَّعبير عن إبليس بالشِّيطان:

المبالغة وتقرير صفته المنَفِّرة بالتَّنكير

جاء التَّعبير عن إبليس بالشَّيطان؛ لأنَّ أذاه تعدَّى إلى غيره حيث أضلَّ النَّاس، فعبدوا من دون الله أوثانًا، وكان هو الآمر لهم، وجاء نكرة للدَّلالة على تقرير هذا الوصف؛ لأنَّ النَّكرة إذا وصفت؛ تعلَّق هذا الحكم فيها بالوصف، فيكون تنكيرها ووصفها لتقرير هذا الوصف في الذِّهن، والمراد به هنا: إبليس، ذكر هنا باسم الشَّيطان؛ لما لهذا الاسم من مدلول منفِّر[2].

علَّة وصْفِ الشَّيطان بالمَرِيد:

تقرير من لا لَبْس في شَرِّه

المَريد: على وزن (فعيل) مأخوذٌ من (مَرَدَ)، ويطلق في اللّغة على معانٍ عدَّة:

منها: مَرَد على الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التّوبة: 101].

ومنها: من يخرج على الطَّاعة، ومن ذلك: مارد، ومتمرِّد.

ويطلق على من ظهر شرّه، وتجرَّد مِنَ الخير، من قولهم: شجر أمرد؛ إذا تعرَّى مِنَ الورق، ومنه الأمرد؛ لتجرّده مِنَ الشَّعر[3].

لكلِّ هذه المعاني وصف الشَّيطان بالمريد؛ لأنَّها تصدق عليه، فهو قد تعوَّد الشَّرَّ، وهو قد عتى، وقد خرج عنِ الطَّاعة للّه تعالى، وقد تجرَّد من كلِّ خير.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/405.
(2) الرّاغب، المفردات: (شطن).
(3) الرّاغب، المفردات: (مرد).

وعلى هذا؛ فالمريد هو المتمرِّد العاتي، والتَّعبير هنا بقوله: ﴿مَّرِيدًا﴾؛ عبَّر بصيغة (فعيل)، فهو صفة مشبَّهة مشتقَّة من (مَردَ) - إذا عتا في العصيان - الَّتي هي للمبالغة في سياق ذمِّهم؛ تنبيهًا على أنَّهم تعبَّدوا لما لا إلباس في شرارته؛ لأنَّه شرٌّ كلّه(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدّعاء والنِّداء:

ذهب البعض إلى عدم التَّفريق بينهما، وقال: الدّعاء كالنِّداء، لكن بالبحث والتَّدقيق تبيَّن أنَّ النِّداء يختلف عنِ الدّعاء من نواحٍ عديدة:

أولاً: النِّداء قد يقال بـ(يا) أو (أيا)، ونحو ذلك من غير أن يضمَّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يقال إلَّا إذا كان معه الاسم.

ثانيًا: يستعمل النِّداء استعمال التَّسمية نحو: دعوت ابني زيدًا، أي: سمَّيته، والدّعاء يأتي بمعنى السّؤال والاستغاثة، ويأتي بمعنى: الحثِّ على قصد الشَّيء.

ثالثًا: النِّداء رفع الصَّوت وظهوره، بخلاف الدّعاء قد يكون سرًّا وعلانية.

رابعًا: ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ الدّعاء طلب الفعل، والنِّداء إجابة الصَّوت.

خامسًا: أنَّ الدّعاء للقريب، والنِّداء للبعيد.

سادسًا: أنَّ الدّعاء يكون في التَّضرّع والعبادة، بخلاف النِّداء؛ فيكون فيهما وفي غيرهما، بدليل نداء فرعون في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ [الزّخرف: 51] فهو لمجرَّد النِّداء(2).

الشَّيطان وإبليس:

أوَّلًا: من ناحية الاشتقاق: إبليس مشتقٌّ من أبلس، أي: يئس وندم، أو من أبلس، بمعنى: سكت؛ لانقطاع حجَّته، أمَّا الشَّيطان؛ فمشتقٌّ من شيط أو شطن، أي: بعد عن رحمة اللّه، فبينهما فرق من ناحية مأخذ الكلمة.

ثانيًا: من ناحية الاستعمال القرآنيِّ؛ نجد أنَّ إبليس يطلق على المخلوق الَّذي رفض

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/406.
(2) الرّاغب، المفردات: (دعا - ندا).

السّجود لآدم، أمَّا الشَّيطان؛ فيطلق على من أغوى غيره بالشَّرِّ والفساد، سواء كان منَ الجنِّ أم منَ الإنس، وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ القرآن في قصَّة طلب السّجود لآدم، وامتناع هذا المخلوق عنِ السّجود، سمَّاه القرآن (إبليس)؛ لأنَّ شرَّه هنا على نفسه، ولم يتعدَّ إلى غيره؛ حيث عاقبه الله باللَّعن والطَّرد إلى يوم القيامة، وهذا ظاهر في مشهد طلب السّجود لآدم منَ الملائكة، وامتناع إبليس من ذلك في العديد من سور القرآن، وكلّها بلفظ إبليس، ولم يرد بلفظ الشَّيطان.

لكن لمَّا تعدَّى شرّه إلى غيره بالإغواء والإغراء لآدم، وهذا واضح في إغرائه لآدم وزوجه لمَّا وسوس لهما بالأكل منَ الشَّجرة، وأزلَّهما، قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ [البقرة: 36]، وقال: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، فهنا عبَّر بالشَّيطان دون إبليس؛ لأنَّ أذاه تعدَّى إليهما.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ [النّساء: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكر في الآية السَّابقة ما يعبدون من دون اللّه، فقال: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾؛ ناسب أن يتبعها بلعنة ما يعبدون من دون اللّه، وهو الشَّيطان الرَّجيم؛ إذ هو الَّذي سوَّل للمشركين عبادتها، كما حكى تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّعَنَهُ﴾: اللّعن: الطَّرد والإبعاد على سبيل السّخط، وهو منَ اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومنَ الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ [النّور: 7]، واللّعَنَة: الَّذي يلعَن كثيرًا، والتَعَنَ فلان: لعن نفسه، والتَّلاعن والملاعنة أن يَلْعن كلّ واحد منهما نفسَه أو صاحبَه[1].

2) ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾: جِذر الكلمة هو: (فَرَض)، والفَرض: الإيجاب، تَفرِض على نفسك فَرضًا، والفريضة: الاسم، وفرائض اللّه: حدوده[2].

وفرضت الشَّيء أفرضه فرضًا، وفرَّضته للتَّكثير: أوجبته، وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النّور: 1][3]، والفرض: ما أوجبه اللّه تعالى، وسمِّي بذلك؛ لأنَّ له معالمَ وحدودًا، والمِفرَض: الحديدة الَّتي يحزّ بها[4].

ومعنى قوله تعالى: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾، يعني: مقتَطَعًا محدودًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(2) الخليل، العين: (فرض).
(3) ابن سيده، المحكم: (فرض).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فرض).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سعي الشَّيطان في إغواء العباد وتزيين الشَّرِّ لهم

يبيِّن اللّه ﷻ أنَّه لَعَنَ الشَّيطان وطرده من رحمته؛ لتمرّده على اللّه وعلى أوامره، وذكر ما يدلّ على استحقاقه لهذا اللَّعن أنَّه يسعى لإبعاد العباد عن رحمة اللّه، وأعلن ذلك صراحة، وقال لربِّه حين لعنه: واللّه لأتَّخذنَّ من عبادك نصيبًا في إغوائهم قولًا وعملًا أجعلهم أولياء لي، ويكونون من حزبي، وحزبه من أصحاب السَّعير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

لعنة الله على الشَّيطان قديمة قدم خلق آدم

دلالة الفعل الماضي في قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾:

الفعل الماضي دلالته على القدم والثَّبات ورسوخ اللَّعنة؛ إذ لا تبديل لحكم اللّه فيه، ثمَّ بيَّن سبب استحقاقه لهذا اللَّعن ما فيه من كفر وجرأة على اللّه.

التَّحذير الشَّديد من اتِّباع الشَّيطان

دلالة البدء بقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾:

هذا البدء له دلالة لغويَّة ومعنويَّة؛ فمن ناحية اللّغة تعدَّدت وجوه الإعراب له، فإمَّا أن يكون صفةً وإمَّا خبرًا أو دعاءً، وهذا يدلِّل على جزالة استخدام الجملة في بدء الآية، ومن ناحية المعنى: تفيد التَّحذير الشَّديد ليعلم من اتَّبعه، ومن اتَّخذه وليًّا، أنَّ مصيره كمصيره.

إصرار الشَّيطان على العداوة والإضلال

فائدة عطف قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ **على ما سبق:**

عطفتِ الجملة على ما سبق للدَّلالة على إصراره على العداوة والإغواء لبني آدم؛ فكان المعنى: وعزَّتك لأجتهدنَّ في إبعاد عبادك كما أبعدتني، وأكَّد ذلك بالقسم الوارد في قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾.

استخدام الشَّيطان المقال والفِعال في جذب ذرِّيَّة آدم إلى الشَّرِّ

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿وَقَالَ﴾:

لَمَّا طرده اللّه تعالى من جنَّته ورحمته؛ بسبب معصيته جعل إبليس عمله في الحياة مصادمة الخير، وجذب ذرِّيَّة آدم إلى الشَّرِّ، واستخدم في ذلك المقال والفِعال.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾:

يدلّ هذا التّعبير بهذا التَّأكيد على سيطرته على من اتَّبعه، وتمكّنه منهم في فعل ما يريد؛ لأنَّ الأخذ معناه: حوز الشَّيء وتحصيله؛ فكأنَّهم صاروا في ملكيَّته يتصرَّف فيهم كيف يشاء.

إقسام الشَّيطان على إضلال بني آدم

وجه قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾:

اختار لفظ ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾ دون (من خلقك)؛ لأنَّ الخلق أعمّ، فيشمل آدم وذرِّيَّته، وغير ذلك منَ المخلوقات، وعداوة إبليس مقصورة على آدم وذرِّيَّته.

حرص الشَّيطان على إضلال الصَّالحين

ولم يقل: (من عبيدك)؛ لأنَّ العباد هم هدف غوايته وإضلاله؛ لأنَّهم آمنوا وأسلموا للّه ربِّ العالمين طواعيةً وحبًّا؛ فأطاعوا أوامر اللّه، واجتنبوا نواهيه، أمَّا العبيد الَّذين لم يسلموا؛ فهم من جنوده أصلًا، فلا يحتاجون إلى إغواء أو إضلال.

دلالة التَّعبير بـ"النصيب" في قوله: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾:

النَّصيب: هو المقدار المعيَّن، والمراد أن يأخذ جزءًا من عباد اللّه، وهذا واضح في دلالة التَّعبير بالنَّصيب، وأنَّه يحاول أخذ قدرٍ كبيرٍ منَ الخلق، ويجعلهم من أتباعه كأنَّهم من نصيبه، وهو بذلك يريد أن يظهر نفسه في صفة الملك والقوَّة، ويجوز أن يكون المراد أنَّه يأخذ نصيب الشَّرِّ الموجود في الإنسان، من قوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10].

محاولة الشَّيطان إظهار نفسه في صفة الملك والقوَّة

وجه وصف النَّصيب بقوله: ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾:

اختار وصف (الفَرْض) الَّذي يشير إلى القطع؛ فكأنَّه قطعهم عن أصلهم الَّذي ولدوا عليه، وهو الفِطرة الإيمانيَّة، وهذا يشير إلى الجهد الَّذي فعله الشَّيطان في قطع جزءٍ منَ العباد عن أصلهم، وأيضًا يشير إلى معنًى مفاده تحقيق وظيفة إبليس، وكأنَّها واجبةٌ عليه.

قطع الشَّيطان العباد عن أصل فطرتهم

وفيه إشارة إلى أنَّ الَّذين أخذهم إبليس لديهم استعداد واضح؛ لأنَّهم انحازوا إليه؛ لأنَّ معنى (الفرض): المنحاز[1].

التوفيق بين ﴿نَصِيبًا﴾ المشعر بالقلَّة، وظاهر الآيات المفيدة كثرة أتباعه:

لا يوجد تعارض بين دلالة (النَّصيب)، وظاهر الآيات الَّتي تدلّ على الكثرة من نحو قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسراء: 62]، وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ: 20]؛ لأنَّ المراد "أنَّ التَّفاوت إنَّما يحصل في نوع البشر، أمَّا إذا ضممتَ أنواع الملائكة مع كثرتهم إلى المؤمنين؛ كانتِ الكثرة للمؤمنين، وأيضًا فالمؤمنون وإن كانوا قليلين في العدد؛ نصيبهم عظيمٌ عند اللّٰه تعالى، والكفَّار والفسَّاق وإن كانوا كثيرين؛ فهم كالعدم[2]"، ولكنَّ أبا حيَّان لا يرى ذلك، ويقول: "إنَّ لفظ (نصيب) لا يدلّ على القليل ولا الكثير، بدليل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النِّساء: 7] "[3].

دلالة تكرار قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ في سورة النِّساء:

وقد ورد قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ في موضعين منَ القرآن الكريم، وكلا الموضعين في سورة النِّساء، أوَّلهما قوله في وصف الميراث: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النِّساء: 7]، والنَّصيب: النِّسب الَّتي شرَعها اللّٰه تعالى في الميراث مثل: السّدس، والثّلث، والنِّصف، والثّلثين، وغيرها، فهي أنصبة ثابتة معلومة ومفروضة، وأمَّا الموضع الثَّاني؛ فهي هذه الآية، وموضوعها: خطاب إبليس للّٰه ﷻ قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، أي: ليكونَنَّ ممَّن يتَّبعني منَ الإنس والجنِّ نصيبًا لي أتَّخذهم أولياء، فيتركون ولاية اللّٰه، ويلجؤون إلى ولاية الشَّيطان.

ولو نظرنا إلى الموضعين من منطلق واحدٍ؛ لوجدنا أنَّ الشَّيطان يقسم بأنَّه سيكون له ميراثٌ معلومٌ من عباد اللّٰه، كما أنَّ ميراث النَّاس من أمواتهم معلوم، وأنَّه نصيب وحِصَّة منَ النَّاس، كما أنَّ النَّاس لهم أنصباء من مواريث أوليائهم المتوفِّين، ووجه الشَّبه بين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/352.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/352.

الحالتين أيضًا: يدلّ على أنَّ هؤلاء الَّذين أقسم الشَّيطان على أن يكونوا نصيبًا له: أموات، والشَّيطان وليّهم ووارثهم، كما أنَّ النّاس يرثون أمواتهم تمامًا.

تأكيد إبليس على نصيبه المفروض من بني آدم:

جلافة الخطاب النَّاشئة عن خبث التَّفكير

الشَّيطان - لعنه الله - قال: لأتَّخذن من عبادك حظًّا مقدَّرًا معيَّنًا، وهم الَّذين يتَّبعون خطواته، ويقبلون وساوسه[1]، وذلك عن طريق العلم الَّذي خلقه الله في الشَّيطان الَّذي أيقن بمقتضاه أنَّ فيه المقدرة على فتنة البشر وتسخيرهم، وكانت في نظام البشر فرص تدخل في خلالها آثار فتنة الشَّيطان، فذلك هو النَّصيب المفروض، أي: المجعول بفرض الله وتقديره في أصل الجبلَّة، وليس قوله: من عبادك إنكارًا منَ الشَّيطان لعبوديَّته لله، ولكنَّها جلافة الخطاب النَّاشئة عن خباثة التَّفكير المتأصِّلة في جبلَّته، حتَّى لا يستحضر الفكر منَ المعاني المدلولة إلَّا ما له فيه هوى، ولا يتفطَّن إلى ما يحفّ بذلك منَ الغلظة، ولا إلى ما يفوته منَ الأدب والمعاني الجميلة، فكلّ حظٍّ كان للشَّيطان في تصرّفات البشر من أعمالهم المعنويَّة: كالعقائد والأفكار الشِّرِّيرة، ومن أعمالهم المحسوسة: كالفساد في الأرض، والإعلان بخدمة الشَّيطان: كعبادة الأصنام، والتَّقريب لها، وإعطاء أموالهم لضلالهم، كلّ ذلك منَ النَّصيب المفروض[2].

وجه: ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾ دون: (نصيبًا معلومًا):

الإيجاب يقال اعتبارًا بوقوعه وثباته

قال: ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾؛ أي: فرضه هو لنفسه، ويمكن أن يكون المعنى: (نصيبًا كثيرًا)، ولو قال: (نصيبًا معلومًا)؛ لكان المعنى أنَّه نصيب محدَّد، يعلمه الجميع، ولا ينكرونه، لكنَّ الإيجاب يقال اعتبارًا بوقوعه وثباته، والفرض بقطع الحكم فيه، قال تعالى:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/204.

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النّور: 1]، أي: أوجبنا العمل بها عليك، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القصص: 85]، أي: أوجب عليك العمل به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللّعن والطَّرد:

اللّعن: الطَّرد والإبعاد على سبيل السّخط، وهو منَ اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومنَ الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ [النّور: 7].

الطَّرد: هو الإزعاج والإبعاد في جفاءٍ وغلظة على سبيل الاستخفاف[2].

ويؤكِّد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من ذكر اللّعن مع الشَّيطان، ومع الَّذين يكتمون ما أنزل اللّه منَ البيِّنات والآيات في هذا كثيرة؛ أمَّا الطَّرد؛ فجاء في حديث القرآن عن طلب المشركين منَ الرَّسول ﷺ طرد ضعفاء المؤمنين عن مجالسهم، وجاء النَّهي في القرآن عن ذلك؛ لعظم فضلهم، وعلوِّ منزلتهم، والآيات في هذا كثيرة.

الحظّ والنَّصيب:

ذهب البعض إلى عدم الفرق بينهما؛ فقال: الحظّ في اللّغة: النَّصيب والجدّ، وهو النَّصيب منَ الفضل والخير.

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ لفظ (الحظِّ) في استعمالاته جاءَت في سياق الفضل والخير منَ الثَّواب.

أمَّا النَّصيب في اللّغة: الحظّ منَ الشَّيء، يقال: هذا نصيبي، أي: حظّي، فهو يستعمل في الخير والشَّرِّ، ولذلك يكون أعمَّ منَ الحظِّ، وآيات القرآن شاهدة على ذلك، فمنِ استعماله في الخير، قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، ومنِ استعمالاته في الشَّرِّ قول اللّه تعالى عن أهل النَّار: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47][3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: 1/630.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (طرد) - (لعن).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظظ) - (نصب)، والرّاغب، المفردات: (حظ) - (نصب).

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النّساء: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أقسم الشَّيطان على اتِّخاذ نصيبٍ منَ العباد لإضلالهم في الآية السَّابقة؛ ناسب أن يذكر في هذه الآية أساليبه في تحقيق ذلك النَّصيب المفروض، فذكر طرقه في الإضلال والوسوسة والانحراف عن شرع اللّه وفطرته، ثمّ حذَّر اللّه منِ اتِّخاذه وليًّا؛ ومنَ الخسران المبين الَّذي سيصيب من والاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو (ضلَّ)، وضَلَّ يَضِلّ، إذا ضاعَ، يقال: ضَلَّ يَضِلّ[1]، والضَّلال: العدول عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، وضلَّ في الأمر ضلالًا؛ إذا لم يهتد له، وضلَّ في الأرض ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ إلى السَّبيل، ويقال الضَّلال لكلِّ عدول عنِ المنهج عمدًا كان أم سهوًا، يسيرًا كان أم كثيرًا[2].

2) ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (منى)، والتَّمنِّي: تقدير شيء في النَّفس، وتصويره فيها، وذلك يكون عن تخمين وظنٍّ، فلمَّا كان أكثره عن تخمينٍ؛ صار الكذب له أملك، فأكثر التَّمنِّي تصوُّر ما لا حقيقة له، قال: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤﴾ [النّجم: 24]، وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [البقرة: 94]، ولمَّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له، وإيراده باللَّفظ؛ صار التَّمنِّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أن يعبَّر عنِ الكذب بالتَّمنِّي، ومنه قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]، قال مجاهد: معناه إلَّا كذبًا[3]. والأمنيَّة واحدة الأمانيِّ، تقول: تمنَّيت الشَّيء، ومنَّيت غيري تمنيةً، وفلانٌ يتمنَّى الأحاديث، أي: يفتعلها، وهو مقلوب منَ المَين، وهو الكذب[4].

---

(1) الخليل، العين: (ضلل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(3) الرّاغب، المفردات: (منى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (منا).

3) ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: جِذر الكلمة هو: (بَتَك)، والبَتّك: قطع الشَّيء، وأصله: قبضك على الشَّيء على شعر أو ريش، أو نحو ذلك، ثمَّ تجذبه إليك فينبَتِك من أصله، أي: ينقطع، وينتتف، وكلّ طاقة من ذلك في كفِّك: بِتكةٌ[1]، وبَتَك الحبلَ: قطعه، وسيفٌ باتِكٌ وبَتوكٌ: قاطعٌ[2].

4) ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: جذر الكلمة: (غَيَر) له أصلان: أحدهما: سِوى الشَّيء وَخِلَافه، والمعنى المحوريّ: تحوّل الشَّيء لحدَة تخالطه تحوّلًا تامًّا أو كالتَّامِّ[3]، والتَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتُها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو: غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[4]، وللعلماء في هذا التَّغيير نحو عشرة أقوال، يشمل أكثرَها تغيير الأبدان عمَّا خلقها اللَّه عليه، وإفساد الفطرة التي فطر اللَّه النَّاس عليها.

5) ﴿خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾: والخلق يقال: في معنى المخلوق، والخَلق والخلق في الأصل واحد، لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصّور المدرَكة بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجايا المدرَكة بالبصيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم: 4][5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللَّه تعالى عن صور غَواية الشَّيطان لعباد اللَّه؛ وذلك بطرق عديدة، وهي كما قال: ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحقِّ، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة والباطلة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لِما أزيِّنه لهم من الباطل، وهو ما كانوا يفعلونه بالأنعام من وَسْمها لأصنامهم وخرافاتهم، وذلك بشقٍّ مخصوص في الآذان، أو قطع مخصوص لبعضها، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق اللَّه في الفِطْرة، وهيئة ما عليه الخَلْق، ومن يستجب للشَّيطان، فينحدر مع غَوايته، ويترك هداية اللَّه، ويتَّخذه ناصرًا له من دون اللَّه القويِّ العزيز؛ فقد هلك هلاكًا بيِّنًا في معاشه ومعاده[6].

(1) الخليل، العين: (بتك).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بتك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غير).
(4) الرّاغب، المفردات: (غير).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/128 - 129، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه عَطْف الجملة على ما قبلها

بيانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة

عطفتِ الجملة على ما قبلها؛ لأنَّ الآية بيانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة، من أنَّه سيتَّخذ نصيبًا من بني آدم، وطريق ذلك هو الإضلال والأماني الكاذبة.

دلالة توالي لامات القسم:

إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس

توالَت لامات القسم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لإظهار إصراره على إضلال النَّاس، واعتَبر ذلك هدفَه الوحيد؛ فعدَّد أساليبه، ونوَّع طرقه من أجل هدفه، وجميعها في معنى التَّحدِّي والإصرار على فعلها، وجميع ما أقسم عليه الشَّيطان هنا من قبيل الشِّرك بالله، أو ما يؤدِّي إليه؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

بيان سرِّ التَّرتيب في هذه الأساليب:

وسائل الشَّيطان في إحكام سيطرته على نصيبه من بني آدم

بدأ بالإضلال، وذلك في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، أي: عن طريقك السَّويِّ بما سلَّطتني به منَ الوساوس، وتزيين الأباطيل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، يعني: كلَّ ما أقدر عليه منَ الباطل من عدم البعث وغيره من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، منَ الدّنيا والآخرة، بالرَّحمة والعفو والإحسان، ونحوه ممَّا هو سبب للتَّسويف بالتَّوبة.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: الَّذي له الحكمة الكاملة، وذلك بأنواع التَّغيير من تغيير الفطرة الأولى السَّليمة إلى ما دون ذلك من فقء عين الحامي، ونحو ذلك، وهو إشارة إلى ما حرَّم أهل الجاهليَّة على أنفسهم بالتَّقريب للأصنام منَ السَّائبة وما معها، المشار إلى إبطاله في أوَّل المائدة بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، المصرَّح به في آخرها

بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، ويكون التَّغيير بالوشم والوشر، ويدخل فيه كلّ ما خالف الدِّين، فإنَّ الفطرة الأولى داعية إلى خلاف ذلك حتَّى أدخلوا فيه تشبيه الرِّجال بالنِّساء في التَّخنّث، وما يتفرَّع عنه في تشبيه النِّساء بالرِّجال في السَّحق، وما نحا فيه نحوَه[1]، فضلًا عمَّا طوَّره اليوم أهل الاختصاص، وما أحدثوه من تغيير في الجينات الوراثيَّة، وما أطلقوا عليه بالهندسة الوراثيَّة[2].

الكناية في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

آثـر التَّعبير بالبتك لكونه أخصّ من القطع

عبَّر بالبتك، وإن كان بمعنى القطع، إلَّا أنَّ القطع أعمّ؛ إذِ البتك يستخدم في تشقيق آذان الأنعام، كما ذكر القرآن في شأن البَحِيرة والسَّائبة ونحوها ممَّا كانوا يثبتون فيه حكمًا؛ بسبب آلهتهم، وبغير ذلك[3]، ولمَّا كان قد علم ممَّا طبعوا عليه منَ الشَّهوات والحظوظ الَّتي هيَّأتهم لطاعته، وكانت طاعته في الفساد عند كلِّ عاقل في غاية الاستبعاد؛ أكَّد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾؛ أي: يقطِّعن تقطيعًا كثيرًا ﴿ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ويشقِّقونها؛ علامة على ما حرَّموه على أنفسهم[4].

دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصّ:

أشكال صور التَّغيير في خلق الله سبحانه

ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ وهو من قبيل ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، فذكر الأنموذج والمثال الَّذي كان كثيرًا في فترة من فترات المجتمعات العربيَّة، ثمَّ عمَّم، فذكر القاعدة الشَّاملة لكلِّ عمل فيه تغيير لخلق الله الَّذي يشبه تبتيك آذان الأنعام، وهي كثيرة، وقد دخل في عمومه ما جعله الله تعالى للإنسان من شهوة الجماع؛ ليكون سببًا للتَّناسل على وجه مخصوص،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/407.

(2) فتمكّنوا من إحداث تغييرات في النّتائج، فما كان لأغراض البحث العلمي فلا حرج، وما كان بهدف التّلاعب ومحادّة الخالق سبحانه، فهو من قبيل ما ذكرته الآية في هذه الأقسام، فنتج عن أفعالهم كائنات غير متوازنة في خلقها، وشكلها، وقدرتها على الاستمرار في الحياة الطّبيعيّة، بسبب تلاعب الإنسان بكتاب الخلق، بلا حكمة، ممّا اكتشفوه منَ الجينات، ومسؤوليتها في طبيعة الوراثة.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/114.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/406.

فاستعان به في السِّفاح واللِّواط، فذلك تغيير خلق اللّه، وكذلك المخنَّث وتشبّهه بالنِّساء، والفتاة إذا ترجَّلَت متشبِّهة بالفتيان، وكلّ ما حلَّله اللّه، فحرَّموه، أو حرَّمه تعالى، فحلَّلوه، وعلى ذلك: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ [يونس: 59]، وإلى هذه الجملة أشار المفسِّرون، ولهذا قالوا: هو تغيير أحكام اللّه، وقيل: معاقبة الولّاة بعض الجناة بقطع الآذان، وشقّ المناخر، وكَلِّ العيون، وقطع الأنثيين، ومن فسَّر بالوشم، أو الخصاء، أو غير ذلك ممَّا هو خاصٌّ في التَّغيير، فإنَّما ذلك على جهة التَّمثيل لا الحصر[1].

وفي حديث عيَّاض المجاشعيِّ: "وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّ الشَّياطين أتتهم، فاجتالتهم عن دينهم، فحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي، ما لم أنزِّل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيِّروا خلقي"[2].

علَّة البدء بأمر التَّبتيك مع اندراجه في عموم التَّغيير:

الاستـــدراج لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامِّ

بدأ بالأمر بالتَّبتيك، وإن كان مندرجًا تحت عموم التَّغيير؛ ليكون ذلك استدراجًا لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامِّ، واستيضاحًا من إبليس طواعيتهم في أوَّل شيء يلقيه إليهم، فيعلم بذلك قبولهم له، فإذا قبلوا ذلك أمرهم بجميع التَّغييرات الَّتي يريدها منهم، كما يفعل الإنسان بمَن يقصد خداعه: يأمره أوَّلًا بشيء سهل، فإذا رآه قد قبل ما ألقاه إليه من ذلك؛ أمره بجميع ما يريد منه، وإقسام إبليس على هذه الأشياء ليفعلنَّها يقتضي علم ذلك، وأنَّها تقع: إمَّا لقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 85]، وإمَّا لكونه علم ذلك من جهة الملائكة، وإمَّا لكونه لمَّا استنزل آدم علم أنَّ ذرِّيَّته أضعف منه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) مسلم، الحديث رقم: (7309).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72 - 73.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

سرعة إجابة أصحاب الأهواء لأوامر الشَّيطان

قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ مفعول (آمرَ) الثَّاني محذوف، أي: ولآمرنَّهم بالتَّبتيك، فيبتِّكنَّ، ولآمرنَّهم بالتَّغيير، فليغيِّرنَّ، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وفيه إيجازٌ، ودلالة على سرعة إجابة هؤلاء لأوامر الشَّيطان، فهم منساقون في برنامجه، منفِّذون لأوامره، قابلون بأفكاره، عازمون على تحقيقها، وقرأ أبيٌّ: وأضلنَّهم وأمنِّينَّهم وآمرنَّهم، فتكون جملًا مقولة، لا مقسمًا عليها[1].

سرّ وجود لام الأمر في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

تمكّن الشَّيطان من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره

دلَّ وجودها بعد قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ على تمكّنه من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره بأن يبتِّكوا آذان الأنعام؛ فأمرهم فامتثلوا، وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ العرب في جاهليَّتهم كانوا يقطعون آذان الأنعام الَّتي يجعلونها لطواغيتهم علامة على أنَّها محررَّة للأصنام، فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، فكان هذا الشَّقّ من عمل الشَّيطان؛ إذ كان الباعث عليه غرضًا شيطانيًّا[2].

دلالة تكرار قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس

تكرَّرت جملة ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ في موضعين هما: في تغيير خلق اللّه، فذكر الخاصَّ أوّلًا، وهو تبتيك آذان الأنعام، وهو يدخل في تغيير خلق اللّه، ثمَّ ذكر العامَّ، وهو قوله: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾، وفائدة ذلك بيان إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس بإغوائهم وارتكابهم الأفعال الشَّنيعة الَّتي تشتمل على تحدِّي اللّه تعالى في خلقه، وتغييره، وهي من أخطر الأعمال الَّتي تؤكِّد مرجعيَّة هؤلاء إلى الشَّيطان وولايتهم له.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

دلالة اختيار التَّعبير بـ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ دون فطرة الله:

الخلق أعمّ: ليشمل الأشكال، والسَّجايا

اختار التَّعبير بـ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ دون فطرة اللّه؛ لأنَّ خلق اللّه أعمّ، فيشمل ما كان بالهيئات والأشكال والصّور، وما كان بالقوى والسَّجايا، بخلاف الفطرة، فهي مقصورة على الدِّين والإيمان، وما فعله أتباع الشَّيطان لم يقف عند حيِّز الشَّكل والهيئة، بل شمل الجانب الماديَّ والمعنويَّ، وما فعله العرب في الجاهليّة بالأنعام دليل على ذلك؛ فهو فاقدٌ الأخلاقَ والرَّحمة.

ففي الجانب الماديِّ وقع التَّغيير لدواعٍ سخيفة مردّها إلى عبادة الأصنام مثل: فقء عين الحامي: وهو البَعير الَّذي حمى ظهره منَ الرّكوب لكثرة ما أنسلَ، ومثل: قطع آذان الأنعام؛ فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم؛ إذ أرادوا به التَّزيّن، وهو تشويهٌ، ووسم الوجوه بالنَّار، ويدخل في معنى تغيير خلق اللّه المعنويِّ وضع المخلوقات في غير ما خلقها اللّه له، وهو منَ الضَّلالات الخرافيَّة، كجعل الكواكب آلهة، وجعل الكسوفات والخسوفات دلائل على أحوال النَّاس، ويدخل فيه تسويل الإعراض عن دين الإسلام الَّذي هو دين الفطرة، والفطرة خلق اللّه، فالعدول عنِ الإسلام إلى غيره تغيير لخلق اللّه[1].

بيان بلاغة فنِّ التَّدلّي في الآية:

الانحدار في دركات الآثام تبدأ مِنَ الرِّضا بأقلّها

تظهر بلاغة فنِّ التَّدلِّي في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ في الأقسام الَّتي أقسم إبليس عليها: أوّلها: اتِّخاذ نصيب من عباد اللّه، وهو اختياره إيَّاهم. والثَّاني: إضلالهم، وهو صرفهم عنِ الهداية وأسبابها. والثَّالث: تمنِيَته لهم، وهو التَّسويل؛ لأنَّ صاحب الأمانيِّ يشغل عقله وفكره في استخراج المعاني الدَّقيقة والحيل والوسائل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

اللَّطيفة في تحصيل المطالب الشَّهوانيَّة[1]، ولا تنحصر الأمانيّ في نوع واحد؛ لأنَّه يمَنِّي كلَّ إنسان بما يناسب حاله، من طول عمر، وبلوغ وطر، وغير ذلك، وهي كلّها أمانيّ كواذب باطلة، أو الأمانيّ: تأخير التَّوبة، أو هي: اعتقاد أن لا جنَّة ولا نار، ولا بعث ولا حساب،[2] والرَّابع: أمره إيَّاهم النَّاشئَ عنه تبتيك آذان الأنعام، وهو فعلهم بالبحائر؛ إذ كانوا يشقّون آذان النَّاقة؛ إذا ولدت خمسة أبطن[3]. والخامس: أمره إيَّاهم النَّاشئَ عنه تغيير خلق اللّه تعالى.

وعمدة أمر الشَّيطان إنَّما هو بإلقاء الأمانيِّ في القلب، وأمَّا تبتيك الآذان وتغيير الخلقة؛ فذاك من نتائج إلقاء الأمانيِّ في القلب، ومن آثاره، فلا جرم أنْ نبَّه اللّه تعالى على ما هو العمدة في دفع تلك الأمانيِّ، وهو أنَّ تلك الأمانيَّ لا تفيد إلَّا الغرور، والغرور هو أن يظنَّ الإنسان بالشَّيء أنَّه نافع ولذيذ، ثمَّ يتبيَّن اشتماله على أعظم الآلام والمضارِّ، وجميع أحوال الدّنيا كذلك، والعاقل لا يلتفت إلى شيء منها[4].

ويظهر واضحًا فنّ التَّدلِّي في ترتيب هذه الجمل المقسم عليها في غاية منَ الفصاحة، وعلى طريقة أسلوب التَّدلِّي، فبدأ أوَّلًا باستخلاص الشَّيطان نصيبًا منهم، واصطفائه إيَّاهم، ثمَّ ثانيًا بإضلالهم، وهو عبارة عمَّا يحصل في عقائدهم منَ الكفر، ثمَّ ثالثًا بتمنِّيهم الأمانيَّ الكواذب والإطماعات الفارغة، ثمَّ رابعًا بالأفعال، بتبتيك آذان الأنعام: هو حكم لم يأذنِ اللّه فيه، ثمَّ خامسًا بتغيير خلق اللّه، وهو شامل للتَّبتيك وغيره منَ الأحكام الَّتي شرعها لهم، فيكون بين تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق اللّه كالعلاقة بين الخاصِّ والعامِّ.

دلالة جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾:

ولَمَّا كان القسم المحوريّ هو قسم الشَّيطان باتِّخاذه نصيبًا مفروضًا، من عباد اللّه، أي: من خلقه المكلَّفين، وسمَّاهم بعباد اللّه؛ لأنَّه كان منَ الأَولى أن يكونوا كذلك عبادًا للّه لا عبادًا للشَّيطان، ثمَّ عدَّد في هذه الآية أساليب هذا الاتِّخاذ، فذكر الإضلال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/600.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/71.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.

والأمانيَّ والأوامر، وقال بعدها: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فجعل اتِّخاذ الشَّيطان وليًّا يكون باتِّباع هذه الأفعال، فأفاد جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾ بيان محاور الاتِّخاذ الَّتي ذكرناها آنفًا منَ الإضلال والأمانيِّ والأوامر، والتَّنبيه عليها، والتَّحذير منها، فقال: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ﴾، أي: من تابعه في ذلك؛ لأنَّه صار للشَّيطان وليًّا.

الإصـــرار مـن الشَّـيطان على اتِّـخـاذ الـنَّـاس أولياء

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَتَّخِذِ﴾:

جاء التَّعبير بالاتِّخاذ في قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾ في مقابلة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ﴾؛ لأنَّه لمَّا اصطفاهم لنفسه؛ فكأنَّهم قبلوا ذلك الاتِّخاذ، وانفعلوا له، وامتثلوا أمره، فرضوا بعبادته، واتَّخذوه وليًّا.

المطيع للشَّيطان يـرضى بـالـذِّلَّـة والمهانة

وجه التَّعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيد لازم؛ لأنَّه لا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا إلَّا إذا لم يتَّخذِ اللّه وليًّا، ولا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا، ويتَّخذ اللّه وليًّا؛ لأنَّهما طريقان متباينان، لا تجتمعان هدًى وضلالة.

لا يجتمع حبّ الله والشَّيطان في قلب واحد

سرّ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾:

جاءتِ الجملة الشَّرطيَّة للتَّحذير منِ اتِّباع الشَّيطان، وبيان فظاعة ما يفعله هؤلاء منَ الضَّلال، وبيان ما يفعلونه من كبار الإثم منطلقين من أصلٍ واحدٍ، هو الشَّرك باللّه سبحانه، واتِّخاذ الشَّيطان وليًّا.

الـتَّـحـذيـر مـنِ اتِّباع الشَّيطان وبـيـان فظاعة صنيعه

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾:

هذا الأسلوب دالٌّ على أنَّ الشَّيطان لا يرضى من أتباعه إلَّا بالكفر والاتِّباع لدعوته، فلمَّا دعاهم إلى تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق اللّه، إنَّما دعاهم إليه لِمَا يقتضيه منَ الدِّلالة على استشعارهم

من اتَّخذ ولاية الشَّيطان خسر ولاية الرَّحمن

بشعاره، والتَّديّن بدعوته، وإلَّا فإنَّ الشَّيطان لا ينفعه أن يبتك أحدٌ أذن ناقته، أو أن يغيِّر شيئًا من خلقته، إلَّا إذا كان ذلك للتَّأثّر بدعوته[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ من فعل ما أمره الشَّيطان به، وترك ما أمره الرَّحمن به، صار كأنَّه اتَّخذ الشَّيطان وليًّا لنفسه، وترك ولاية اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير بالخسران دون غيره:

طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة

عبَّر به؛ لأنَّ طاعة اللّه تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة الخالصة من شوائب الضَّرر، بخلاف طاعة الشَّيطان، فالمنافع فيها مشوبة بالهموم والأحزان والآلام الغالبة، فمَن رغب في ولاية الشَّيطان؛ فاته أشرف المطالب وأجلّها، وهذا هو الخسران المطلق.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّغيير والتَّبديل:

التَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[2].

أمَّا التَّبديل؛ فهو جعل شيء مكان آخر، وهو أعمّ منَ العِوَض؛ فإنَّ العِوَض هو أن يصير لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل، والتَّبديل قد يقال للتَّغيير مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، والآيات ظاهرة في ذلك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/206.
(2) الرّاغب، المفردات: (غير).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).

﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النّساء: 120]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر القرآن دعاوى الشَّيطان في الإغواء، وبيَّن فظاعة ما يفعله الشَّيطان في إضلال النَّاس عن عبادة الله وحده، وبيَّن إصرار الشَّيطان على أن يأخذ نصيبه منهم، وبيَّن لهم الخسران المبين الَّذي سيصيب منِ اتَّبع أهواءه، وانقاد إلى وساوس الشَّيطان، نبَّه هنا على أنَّ أساليب الشَّيطان هي الوعود والأمانيّ فحسب، وأنَّ وعوده غرور وأكاذيب، كأن يخوِّفهم بالفقر حتَّى لا يصلوا رحمًا، ولا ينفقوا في خير.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعِدُهُمۡ﴾: جِذر الكلمة هو: (وعد)؛ الوَعد والعِدَة يكونان مصدرًا واسمًا. والموعِد: موضع التَّواعدِ، وهو الميعاد. والمَوعِد مصدر وَعَدته، وقد يكون الموعِد وقتًا للعِدَة[(1)]، والوعد يستعمل في الخير والشَّرِّ[(2)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: 268]، فإذا أسقطوا الخير والشَّرَّ قالوا في الخير: الوعد والعِدَة، وفي الشَّرِّ: الإيعاد والوَعيد[(3)].

2) ﴿غُرُورًا﴾: جِذر الكلمة هو: (غَرَر)؛ وغرَّة المال: الجمال والخيل والعبيد، أي: خياره، وعيش غرير، كما يقال: عيش أبله، وأقبل السَّيل بغرَّاته، وهي نفَّاخاته[(4)]، يقال: غررت فلانًا: أصبت غِرَّته، ونِلت منه ما أريده، والغِرَّة: غفلةٌ في اليقظة، والغِرار: غفلةٌ مع غفوة، وأصل ذلك منَ الغرِّ؛ وهو الأثر الظَّاهر منَ الشَّيء، وغَرّ الثَّوب أثر كسره، وقيل: اطوه على غَرِّه، وغرَّه كذا غرورًا: كأنَّما طواه على غَرِّه[(5)]، قال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6]، وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، وقوله: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112].

(1) الخليل، العين: (وعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (وعد).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غرر).
(5) الرّاغب، المفردات: (غرر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّن الله في هذه الآية إغراءَ الشَّيطان لأوليائه بوعوده الباطلة، بأن يكون لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوء، ويعدهم بأنَّهم إذا أنفقوا في سبيل الله؛ افتقروا، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: 268]، ولم يقف عند ذلك، بل يفتح لهم الآمال الكاذبة والأمانيَّ الباطلة بالظَّفر على أعدائهم، والفوز في الآخرة، وكلّ ذلك وهم وباطل لا حقيقة له.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستعارة في قوله: ﴿يَعِدُهُمۡ﴾:

تأثير الوعد بالباطل في النّفوس الضَّعيفة

اختيار الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ يحمل أهمَّ أساليب الشَّيطان الخبيثة في التَّأثير في النّفوس الضَّعيفة، والأفئدة الصَّاغية إليه، وهذا واضح في إيحاءات الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾، فمعناه: أن يخيِّل إليهم ما يصل إلى قلوبهم بالوسوسة في شيءٍ منَ الأباطيل، ويكون ذلك في التَّأثير بالنَّفس بما يؤدِّي إلى الإحساس بأنَّ ذلك الأمر قريب المنال، فيكون ذلك كالوعد، وهو استعارة تصريحيَّة؛ أنَّه قريب الحصول، وأنَّه لا درك في تحصيله، وأنَّه إن لم يحصل كان في فواته ضرر، فيسعون في تحصيله، فيضيع عليهم في ذلك الزَّمان، ويرتكبون فيه ما لا يحلّ منَ الأهوال والهوان، ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾، أي: يزيِّن لهم تعليق الآمال بما لا يتأتَّى حصوله[1]، ثمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فتمَّم المعنى بما يناسب المشبَّه، فتكون الاستعارة تصريحيَّة مجرَّدة، وفائدتها: ردّ الفكر الَّذي أصابه التَّصديق بالوعد إلى حقيقة التَّخييل الَّذي نهجه الشَّيطان في وعوده وإغوائه.

عدم عطف هذه الجملة على ما سبق:

كثرة وعود الشَّيطان لأتباعه

جاء قوله: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ استئنافًا لبيان أنَّه أنجز عزمه، فوعد ومنَّى، وهو لا يزال يَعِد ويمنِّي، فلذلك جيء بالمضارع، وإنَّما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/407.

لم يذكر أنَّه يأمرهم فيبتِّكون آذان الأنعام، ويغيِّرون خلق اللّه؛ لظهور وقوعه لكلِّ أحد[1].

ويمكن أن يكون معنى (يأمرهم) كثرة وعوده لهم فيشوِّقهم لتحقّقها لهم، فيستجيبون، فيكون وعدهم له كالأمر لاشتراكهما في ضمان تحقّق الطلب، فتكون على سبيل الاستعارة.

دلالة الفعل المضارع:

استمرار متابعة الشَّيطان لأوليائه

عبَّر بالفعل المضارع ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾؛ لإفادة التَّجدّد والاستمرار في متابعة الشَّيطان لأوليائه حتَّى يظلّوا في ولايته، ولا يخرجوا من حزبه.

دلالة التَّعبير بالأمانيِّ بعد الوعد في: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾:

الأماني طعم الشَّيطان للانغماس في الشَّهوات

جاء التَّعبير بالأمانيِّ بعد الوعد؛ لأنَّه العمدة عند الشَّيطان، وذلك بإلقاء الأمانيِّ في القلب، وبها يصل إلى الغرور؛ لأنَّ فتح باب الأمانيِّ يوقع الإنسان في الحرص وطول الأمل؛ فبذلك ينال منَ الدّنيا وأهلها، وينغمس في شهواتها.

فضح اللّه أساليبَ الشَّيطان

لمَّا كان الوعد والتَّمنِّي من أمور الباطن أخبر اللّه عنه بها؛ فبيَّن أنَّ ما يعدهم به منَ الأمور الباطلة والزَّخارف الكاذبة ما هو إلَّا من باب الغرور.

دلالة طباق السَّلب في ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ و﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾:

وعود الشَّيطان مزيَّفة كلّها، فلا تحتمل الصَّدق قطعًا

بين قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾ طباق سلب أفاد ذلك الغرور الَّذي هو يعدهم به فعلًا، فلا يعدهم حقًّا، إنَّما يعدهم تزيينًا وغرورًا، فمِثل ذلك وعود الشَّيطان، إذ جعلها كلَّها من قبيل الغرور والتَّزييف.

دلالة التَّضمين في الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾:

بلاغة التَّضمين

ضمِّن الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ معنى يغرّهم، وفائدته: أنَّ وعود الشَّياطين لا حقيقة لها؛ لذلك فهي على سبيل الإغراء فحسب، ولا شيء أكثر من ذلك.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/206.

بلاغة الاستثناء والحصر في قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

وعود الشَّيطان غرور كامل

أفاد الحصر أنَّ الغرور الكامل يكون في وعوده لأتباعه، فلا يكون فيها صدقٌ؛ لأنَّ ما يراه أتباعه صدقًا سيؤول جزاؤه يوم القيامة عذابًا وسعيرًا، ثمَّ يقول لهم يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار في: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

التَّنبيه على مزيد النّفرة من الشَّيطان

أظهر في موضع الإضمار تنبيهًا على مزيد النّفرة، فقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ ولزيادة البيان والتَّذكير بأنَّ الشَّيطان لا يحقِّق لهم شيئًا ممَّا يعدهم به، إلَّا أنَّه يغريهم بزخرف منَ الحياة الدّنيا، وذكر (الشَّيطان) فيه مناسبة لذكر (الغرور)[1].

التَّعبير بـ ﴿غُرُورًا﴾، ولم يقل: (كذبًا):

تضمّنه معنى تزيين الباطل والخداع والمكر

أتى بقوله: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ لأنَّه يحمل معنى تزيين الباطل خداعًا، ومكرًا، وتلبيسًا، وإظهارًا لما لا حقيقة له، أو له حقيقة سيِّئة، فيزيِّنها له، ويغريه بها، فيجعلها في أبهى الحقائق وأشرفها، وألذِّها إلى النَّفس، وأشهاها إلى الطَّبع، فإنَّ مادَّة: (غر) و(رغ) تدور على الشَّرف، والحسن، ورفاهة العَيش[2]. فيدخل في الغرور التَّزيين، فيكون معنى الغرور: كذبًا مزيَّنًا، قال تعالى: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112].

بينما يصف الكذب في القرآن في صريحه، كفعل الكافرين من تكذيب المرسلين، أو تكذيب الرِّسالات، فقال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 157]، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]، فيأتي التَّكذيب ممَّن جهر بالعداوة، بينما يأتي الغرور ممَّن خبَّأ العداوة، وأعلن المودَّة والقرب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/408.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/408.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾ [النّساء: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّن أنَّ وعود الشَّيطان كلَّها من قبيل الكذب والغرور؛ ناسب أن يذكر هنا مصير مَن لا يأبهون إلى ذلك كلِّه من تحذيرات الله لهم، فيتَّبعون الشَّيطان، ويصغون إليه ابتغاء زخرف القول غرورًا، ومستجيبين لما يعدهم به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: جِذر الكلمة هو: (أوى)، المأوى: مصدر أوى يأوي أويًا ومأوى، وهو كلّ مكان يأوي إليه شيء ليلًا أو نهارًا[1]، تقول أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: 197]، اسم للمكان الَّذي سيأوون إليه[2].

2) ﴿مَحِيصًا﴾: جِذر الكلمة هو: (حَيَص)، حاص عنه يحيص حيصًا، وحيوصًا ومحيصًا، أي: عدل وحادَ، يقال: ما عنده محيص، أي: مَحِيدٌ ومَهرَبٌ[3]، يقال: هو يَحيص عنِّي، أي: يحيد، وهو يحايصني، وما لك من هذا الأمر مَحِيص[4]، وحاص عنِ الشَّرِّ: حاد عنه، فسلم منه.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

مصير من أطاع الشَّيطان

سجَّل القرآن مصير هؤلاء المغرورين، فقال: هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطان وليًّا من دون الله، مصيرهم الَّذي يصيرون إليه نار جهنَّم، ولا يجدون عنها ملجأ ولا مفرًّا، بل هم فيها خالدون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الإتيان باسم الإشارة:

الخسران الأكبر أن يحشر الإنسان مع الظَّالمين

جيء باسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لتنبيه

(1) الجوهري، الصِّحاح: (أوى).
(2) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(3) الجوهري، الصِّحاح: (حيص).
(4) الخليل، العين: (حيص).

السَّامعين إلى ما يَرِد بعد اسم الإشارة منَ الخبر، وأنَّ المشار إليهم أحرياء به عقب ما تقدَّم من ذكر صفاتهم[1]، فكان الخبر عظيمًا: أنَّ مأوى هؤلاء الَّذين تحدَّثت عنهم الآية السَّابقة مآلهم خطير، فليحذر أهل العقول.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾:

تخصيص حال أهل النَّار الَّذي لا يشبهه حال

قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾؛ تخصيصًا لحالها الَّذي لا يشبهه حال قطعًا، والمحيص: المراغ والملجأ، من حاص، إذا نفر وراغ، وفي حديث هرقل "فَحَاصوا حَيصَةَ حمرِ الوَحشِ إلى الأبوابِ"[2]، والمحيص: المَعدِل والمفرّ، وهذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أنَّه لا بدَّ لهم من ورودِها، الثَّاني: التَّخليد الَّذي هو نصيب الكفَّار، وهذا غير بعيد؛ لأنَّ الضَّمير في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ عائد إلى الَّذين تقدَّم ذكرهم، وهم الَّذين قال الشَّيطان فيهم: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ [النّساء: 118]، والأظهر أنَّ الَّذي يكون نصيبًا للشَّيطان هم الكفَّار[3].

سرّ العدول منَ المصدر إلى الفعل المضارع في: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾، ومنَ الإثبات إلى النَّفي:

التَّجدّد في أنواع العذاب لأهل النار

انتقل في قوله: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ منَ المصدر إلى الفعل المضارع، في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾، ومنَ الإثبات إلى النَّفي في الموضعين نفسيهما، وفي ذلك معنى التَّجدّد في أنواع العذاب النَّاتج عن معنى الفعل المضارع، وأنَّهم كلَّما بحثوا عن مأوى وموضع راحة وتخفيف منَ العذاب تناوب عليهم تجدّد العذاب، ولا يجدون محيصًا ومخرجًا ومفرًّا منَ العذاب، فتتناوب عليهم هذه الحال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/206.
(2) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 7.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/41.

التَّعبير بقوله: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ دون (مستقرِّهم أو مقامهم):

خـــــــــداع استقرارهم

عبَّر بالمأوى هنا؛ لأنَّه المكان الَّذي يلجأ إليه الإنسان، طلبًا للسَّكينة والرَّاحة، ليلًا أو نهارًا[1]، فكلَّما ظنّوا أنَّهم سيلجؤون إلى مكان منها، ليكون مأوًى لهم منَ العذاب؛ وجدوا في مأواهم ذلك أشدَّ العذاب، وهذا مناسب لوصف ﴿مَحِيصٗا﴾.

ختم التَّذييل بقوله: ﴿مَحِيصٗا﴾:

تـنـاكـر أهـل الـنَّـار وخِـذلان بعضهم

لمَّا أخبر تعالى أنَّ المكان الَّذي يأوون إليه، ويستقرّون فيه، هو جهنَّم، وأنَّهم لا يجدون عنها مراغًا يروغون إليه؛ جاء قوله: ﴿مَحِيصٗا﴾ لبيان حالهم الّتي هم فيها، كأنَّهم حمر الوحش الَّتي حاصت، إذا اشتدَّ بها الأمر، وضاق بها المكان، فيتناكرون بعضهم لبعض، ويخذل بعضهم بعضًا.

(1) الجوهري، الصِّحاح: (أوى).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النِّساء: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر سبحانه حال الَّذين اتَّخذوا الشّيطان وليًّا، وما سيؤول إليه حالهم يوم القيامة، وأنّهم سيدخلون جهنَّم، ولا يجدون عنها محيصًا؛ أردف مصيرهم بمصير المؤمنين الَّذين يعملون الصّالحات، فبيّن استكمالًا لنهج القرآن في المقابلة أنّ جزاءهم الجنان يوم القيامة، وأنَّهم سيخلدون فيها أبدًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: جذر الكلمة هو: (وَعَدَ)، والمعنى المحوريُّ: الاحتواء على ما يوجد مستقبلًا زائدًا عن الحال؛ أَخْذًا من قولهم: أرض واعدة؛ إذا رُجي خَيْرُها من المطَر والأَعْشاب، وسَحَابٌ واعدٌ: كأنه يَعِد بالمطر، ومنه: وعده بالأمر: قال له: إنَّه يُجْريه له، أو يُنيلُه إيَّاه[1]، والوَعْدُ يكون في الخير والشّرِّ[2]، فإذا أسقطوا الخير والشَّرَّ؛ قالوا في الخير: الوَعدُ والعِدَةُ، وفي الشَّرِّ: الإيعاد والوعيد[3]، يُقال: وعدته بنفع أو ضُرٍّ وعدًا وموعدًا وميعادًا، والوعيد في الشَّرِّ خاصّة، قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا﴾ [القصص: 61]، ومن الوعد بالشّرِّ قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: 47]، وذلك وعيد[4].

2) ﴿أَصۡدَقُ﴾: جذر الكلمة هو: (صدق)، والمعنى المحوريُّ: صلابةٌ أو قوّةٌ في باطن الشّيء مع شِدَّة تماسُك جِرْمه؛ أَخْذًا من قولهم: رُمْح صَدْق بالفتح: صُلْب، وصَدْقُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وعد).
(2) الجوهري، الصّحاح، والراغب، المفردات: (وعد).
(3) الجوهري، الصّحاح: (وعد).
(4) الراغب، المفردات: (وعد).

الكعوب (وهي عُقَد الأنابيب)، أي: صُلْبها، وسَيْفٌ صَدْقٌ: صُلب، وثوبُ صِدْق بالكسر والإضافة، أي: جَيِّد، وعين صَادقة: صُلبة صحيحة[1]، وصَدَقْتَه: قلتَ له: صِدْقًا، وكذلك من الوعيد إذا أوقعتهم؛ قلت: صَدَقْتَهم، وهذا رجلُ صِدقٍ، بمعنى: نِعمَ الرَّجلُ هو[2]، والصَّدقُ: الكامل من كلِّ شيء، والصِّدِّيق من يُصَدِّقُ بكلِّ أمرٍ للّه والنّبيِّ ﷺ، لا يتخالجه شكٌّ في شيء[3]، والصّديق: المصدِّق، وفي التّنزيل: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]، أي: مبالغة في الصِّدق[4].

3) ﴿قِيلًا﴾: جذر الكلمة هو: (قَوَلَ) القاف والواو واللَّام: أصل واحد صحيح، وهو القول من النُّطق، يقال: قال يقول قولًا، والمقولُ: اللِّسان، ورجل قولة وقوَّال: كثير القول[5]، القول: الكلام، ويقال: إنّ لي مقولًا، ما يسرُّني به مقول، وهو لسانه.

والقيل مصدر كالقول.

المعنى العامُّ للآية:

بعد أن توسّع في ذكر الوعيد في القطعة القرآنيَّة السّابقة؛ أردف هنا بالوعد، كما هو نهج القرآن وسنَّته المعهودة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فأتبع الإيمان بالعمل، وقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ وعدٌ من اللّه جزاء إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قد تعدّدَ ذكر أنهار الجنَّة في القرآن الكريم ووصفها، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، فدلَّ الخلود على الدَّوام في طول المكث المطلق، ثم أتبعها بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾؛ ليفيد التّأبيد، وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ تأكيد لصدق الوعد وحقيقته، ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، أي: لا أحد أصدق من اللّه قولًا ووعدًا، أمّا أولئك المغرورون المُعرضون عن شريعة اللّه؛ فقد اغترُّوا بخداع الشّيطان، ووقعوا في أحبولته[6].

وعن سبب نزول الآية: فقد رُوي عن أبي صالح قال: جلس أهل الكتب أهل التَّوراة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صدق).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّمخشري، أساس البلاغة: (صدق).
(3) الخليل، العين: (صدق).
(4) ابن سيده، المُحكم: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/131.

والإنجيل وأهل القرآن، كلٌّ صنفٍ يقول لصاحبه نحن خير منكم، فنزلت: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقال مسروق وقتادة: احتجَّ المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبيُّنا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضي على الكتب الَّتي قبله، فنزلت، ثم أظهر الله حجَّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وبقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ الآيتان[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة المقابلة واقتضاء الوصل:

تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطف على جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النِّساء: 121]؛ جريًا على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد[2]، ويكون في ذلك مقابلة بين فريقين: الأوَّل: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾ [النِّساء: 121]، والثَّاني: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وشتّان بين الفريقين، وأنّ كُلًّا منهما استوفى حقَّه ونصيبه ممَّا قدّم في الحياة الدُّنيا، ويمكن أن تكون الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافيَّة؛ لأنَّ العطف يشرك المعطوف عليه في المعنى والإعراب، فلمّا كان ما قبله بيانًا لمصير الَّذين اتخذهم الشَّيطان أولياء ونصيبًا؛ فإنَّ بين المعنيين مقابلة بيِّنة.

ومقتضى هذه المُقابلة أنَّه لمَّا ذكر ما للكافرين ترهيبًا؛ أتبعه ما لغيرهم ترغيبًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: بوعد لا خُلف فيه ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[3].

(1) النِّيسابوري، غرائب القرآن: 2/501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/408.

التَّرغيب في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لتطمئنَّ له قلوبهم، وتنشط نفوسهم في أعمال الصّالحات

لَمَّا أخبر تعالى عن الكفَّار الَّذين اتَّخذوا الشَّيطان وليًّا من دون اللّه، وأنَّهم إلى جهنَّم صائرون؛ اقتضى ذلك كلُّه التَّحذير، فذكر هنا حالة المؤمن والتَّرغيب فيها، وأنَّ المؤمنين سيدخلهم اللّه تعالى جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ولعلَّ ذلك غاية التَّرغيب بحالهم[1]، وذلك من مقتضيات الدِّعاية إلى الدِّين الحقِّ، وإلى حفاوة اللّه بالمؤمنين يوم القيامة، وبيان أنّ جزاءهم سيكون من لدن خالق الكون، وأنَّ ذلك الخبر هو من قبيل الغيب الَّذي يُهدى للمؤمنين في الدُّنيا؛ لتطمئنَّ له قلوبهم، وتنشط أرواحهم في أعمال الصَّالحات.

إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

للاختصار، وإفادة العموم، وللجمع بين الإيمان والعمل الصَّالح دون فاصل

في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجاز بالحذف؛ فقد حُذفت متعلَّقات الإيمان، وهي أركان الإيمان: الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ودليل ذلك: أنّه ذكر أركان الإيمان كلّها أو بعضها في مضمون النَّص، فقد سُبقت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 116]، وبذكر مشاقة الرَّسول ﷺ، كما أنّ ذكر جهنَّم والجنَّة والاعتقاد بهما، هو من قبيل الإيمان باليوم الآخر، وذكرهما من قبيل الغيب والإيمان به، وسيأتي بعد هذه الآية ذكر إبراهيم كرمزٍ للرُّسُل، وذكر الكتاب وأهل الكتاب، ثمَّ إنَّ فحوى جميع ما ذُكر يُعزِّز قضيَّة الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، وحُذِفَ الموصوفُ، واكتُفي بالصِّفة، في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقدّم الإيمان على العمل، وهو من قبيل تقديم الأصول على الفروع؛ إذ الإيمان شرط لضمان الثَّواب على الأعمال، ولا ينفع العمل بلا إيمان.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/115.

بلاغة الإطلاق والتَّقييد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيـــمـــان هـو أساس الأعمال الصَّالحات

فالوعد بالجنَّة، والرَّحمة في الآخرة، والسَّلامة من العذاب عُلِّقَت باسم الإيمان المطلق، والمقيَّد بالعمل الصالح ونحو ذلك، وهذا أنَّ المطلق يدخل فيه فعل ما أمر اللّه به ورسوله[1]، والمؤمن؛ إذا آمن باللّه، فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان.

بلاغة الوصف بصيغة الماضي:

الـــدِّلالـــة على القبول والثَّبات

وقد وصفت الآية الكريمة تلك البشرى للمؤمنين إيمانًا وعملًا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وبصيغة الماضي الدّالَّة على القبول والثَّبات، فرتَّب العمل الصّالح على الإيمان إقرارًا وتصديقًا، ويمتدُّ الوصف إلى أولئك الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات قبل الإسلام، ففي الأمم السَّابقة مؤمنون وعاملون وأنبياء ومرسلون.

السِّرُّ في الاستغناء بالصِّفة عن الموصوف في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

تـنـبـيـهٌ إلى أنَّ المهمَّ في الأعمال كونُها صالحةً

وفي حذف الموصوف: وهي الأعمال، والاكتفاء بالصِّفة: وهي الصَّالحات؛ تنبيهٌ إلى أنَّ المهمَّ في الأعمال كونُها صالحة، وهو ما يستدعيه السِّياق.

كما أنَّ حذف الموصوف والاستغناء بالصِّفة إشارة إلى تنوُّع هذه الأعمال وكثرتها.

والعمل إنَّما يكون صالحًا؛ إذا توافر فيه شرطان: الأوَّل: الإخلاص للّه ﷻ، قال ﷺ: "قال اللّه ﷻ: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملًا أشرَكَ معي فيه غيري؛ ترَكتُه وشِركَه"[2]، والشَّرط الثَّاني: متابعة الرَّسول ﷺ قال ﷺ: "من عمل عملًا ليس

(1) ابن تيميّة، الإيمان: 273.
(2) مسلم، الحديث رقم: (2985).

عليه أمرُنا؛ فهو ردٌّ"[1]، وفي لفظ: "من أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ"[2].

ويجمع الشَّرطين قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: ومن أحسن دينًا ممَّن أخلص العمل للّٰه، وهو متَّبِع لرسول اللّٰه ﷺ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22].

وسمِّيت الأعمال الصَّالحة بهذا الاسم؛ لأنَّ بها صلاحَ أمر الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، وبها يكون صالحًا لدخول الجنَّات وجوار اللّٰهِ ربِّ العالمين.

أهمِّيَّة تكرار الخبر في الوعد والوعيد:

توكيدًا وتذكيرًا

ورد هذا خبرًا عمَّا سيؤول إليه أمر الموحِّدين؛ لاكتمال الصُّورة لدى المتلقِّين بعد أن علموا ما سيؤول إليه حال الكافرين، فقد أخبر اللّٰه سبحانه في القرآن في مواضعَ عديدةٍ سبقت هذا الموضع، إلَّا أنَّه أعاده هنا توكيدًا وتذكيرًا، فهو سبحانه يُدخل العباد الجنَّة بالإيمان والعمل في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 25]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 227]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران: 57]، وفي النِّساء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النِّساء: 57]، وكما هو بَيِّنٌ، فإنَّ هذه الآية مكرَّرة في هذه السُّورة، وقد أعاد هذه الآية دالَّة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة، وقد اتَّفقوا على أنَّه لا فائدة في التَّكرير

---

(1) مسلم، الحديث رقم: (1718).

(2) البخاريّ، الحديث رقم: (2697).

إلَّا التَّأكيد، فهذا يدلُّ على أنَّه تعالى خصَّ جانب الوعد والرَّحمة بمزيد التَّأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد[1].

دلالة نون العظمة في قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾:

تشريفًا لهم وتعظيمًا لمنزلتهم عند الله

أسند الفعل إلى نون العظمة؛ اعتناء بأنَّه تعالى هو الَّذي يتولَّى إدخالهم الجنَّة، وتشريفًا لهم، فهو المالك، وهو الضَّامن سبحانه... ولمَّا رتَّب تعالى مصير من كان تابعًا لإبليس إلى النَّار لإشراكه وكفره وتغيير أحكام الله تعالى؛ رتَّب هنا دخول الجنَّة على الإيمان وعمل الصّالحات[2]، وقال: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ باعتبار ولائهم لله ولرسوله، فقابل موالاة الشَّيطان وما يلحقها من الخسران في الدّارين، بموالاة الله ورسوله، وما يتبعها من خيري الدُّنيا والآخرة، وقد وردت هذه الجملة الفعليَّة خبرًا عن الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، وممَّا قوَّى حكم الإسناد في الجملة، وزادها تمكينًا: وجودُ السِّين، ونون العظمة في الفعل.

سرُّ التَّنكير والجمع لقوله: ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

للتَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثير

أدَّى التَّنكير للجنَّات إلى أن يمنحها معنى التَّعدُّد والتَّنوُّع؛ تفخيمًا لتلك الجنّات وتعظيمًا لمن وُعد بها، ومن ستكون داره يوم الجزاء، فيتَّسع المعنى مع التَّنكير؛ ليشمل ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ قوله: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[3]، وقد ورد وصف الجنَّات في مواضع عديدة من القرآن الكريم.

دلالة المضارع في قوله: ﴿تَجۡرِي﴾:

في قوله: ﴿تَجۡرِي﴾ استحضار لصورة السُّرعة، والتَّجدُّد، وما يحدثه فعل الجريان من النّقاء الدَّائم، ومعلوم - بحسب ما هو

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/220.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(3) الإمام أحمد، المسند: 8143.

الـتِّـجـدُّد والاسـتـمـرار واسـتـحـضـار الصُّورة

عالق في أذهان المُخاطبين - أنَّ رداءة الماء تنتج عن ركوده، وإن كانت أنهار الجنان بحال غير حال الدُّنيا، إلَّا أنَّ أوصاف القرآن تأتي لما اعتاده النَّاس في سُنن الحياة الَّتي يعيشون؛ لتبقى صور التّشبيهات فعَّالة ومؤثِّرة في الجواهر والقُلوب، وقد ورد وصف أنهار الجنَّة في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد: 15]، فهذه الأنهار مُتجدِّدة العطاء مستمرَّة التَّدفُّق، لا ينفدُ ماؤها، ولا يكدَّر صفاؤها، بل يبقى متجدّدًا غير آسنٍ، كما ذكر القرآن الكريم.

بلاغة الإجمال في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

تُـتِـيـح فـرصـة التَّأمُّل وتنشيط الخيال؛ ليذهب القلبُ فيه كلَّ مذهب

فالوصف مجمل في كلِّ الجنَّات الَّتي تجري من تحتها الأنهار، وما يُخيَّل للسّامع من روعة الصُّورة من الأشجار والظِّلال والنَّعيم والثِّمار والتَّنوُّع والجمال، وقل: ما شئت في وصف هذا الحال، وما لذلك كلِّه من آثار الرّاحة النَّفسيِّة الَّتي تُرافق حال القارئ، أو السّامع للآية، ثُمّ حال السّعادة والرَّفاه التي يعيشها أهل الجنَّة.

المجاز العقليّ[1] في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

المـبـالـغـة في جـريـان المـاء، وإيـجـاز القول، وإثارة الخيال

في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أُسند الجري إلى الأنهار، وهذا من المجاز العقليّ؛ لأنَّ الفاعل الحقيقيَّ هو الماء، لكنَّه جعل الأنهار هي الجارية، فقد أسند الفعل إلى غير فاعله، وعلاقته المكانيَّة، وفائدة هذا المجاز: أنَّه خُيِّل للسَّامع أنّ الأماكن هي الَّتي تجري، والإعلام بعذوبة الماء الَّذي يجري، فمعلوم أنَّ الماء الجاري يزداد عذوبة بجريانه؛ إذ يطرد الزَّبد عنه، وقرَّبَ وبعَّضَ بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: لريِّ أرضها، فحيثما أجرى منها نهر؛ جرى[2].

(1) هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقة، مع وجود قرينة تمنع إرادة الإسناد الحقيقي.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/409.

سرُّ التَّعبير بالأبديَّة مع الخلود في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾:

زيــادة تـأكـيـد لبقاء أهل الجنَّة في الجنَّة

قوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾ بعد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ زيادة تأكيد لبقاء أهل الجنَّة في الجنَّة، وإنَّهم ما هم منها بمُخرجين[1]، فأكَّد الخلود، ودلَّ على أنَّه لا ينتهي عند حدٍّ بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾، وقد تكرَّر هذا الوعد في القرآن الكريم مرَّات كثيرة، وأهمُّها قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النِّساء: 57]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة: 22]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التّغابن: 9].

قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ولمَّا كان الخلود يطلق على مجرَّد المكث الطَّويل؛ دلَّ على أنَّ الخُلود المقصود هو خلود دائميٌّ، فقال: ﴿أَبَدٗاۖ﴾، ثمَّ أكَّد ذلك بأنَّ الواقع يطابقه، وهو يطابق الواقع، فقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾، أي: يطابقه الواقع، فلا يكون إلَّا ما وعد الله به صدقًا[2].

التَّأكيد والتَّقديم في قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾:

التَّصديق بوعد الــلــه طـمـأنـة لقلوب المؤمنين

وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران: الأوَّل: مؤكِّدٌ نفسه، والثَّاني: مؤكِّدٌ غيره؛ لأنَّ قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ وعدٌ منه تعالى، ومضمونه هو مضمون وعد الله، وأمَّا ﴿حَقّٗاۚ﴾؛ فمضمونه أخصُّ من مضمون الوعد؛ لأنَّ الوعد من حيث هو وعدٌ يحتمل أن يكون حقًّا، وألَّا يكون، فمضمونهما متغايران تغاير الجنس والنَّوع[3].

سرُّ التَّأكيد في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ القيل والقول واحد، أي: لا أحد أصدق قولًا من الله، وهي جملة مؤكِّدة أيضًا لما قبلها، وفائدة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/501.

هذا التَّوكيد المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين، بخلاف مواعيد الشَّيطان وأمانيه الكاذبة المخلفة لأمانيه[1]، وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾: لَمَّا ذكر أنَّ وعد الشَّيطان هو غرور باطل؛ ذكر هنا أنَّ هذا الوعد منه تعالى هو الحقُّ الَّذي لا ارتياب فيه، ولا شكَّ في إنجازه، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، و﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ الخبر، وانتصب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ على أنَّه مصدر مؤكِّدٌ غيره، فوعد اللّه مؤكِّدٌ قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾، و﴿حَقّٗاۚ﴾ مؤكِّدٌ وعد اللّه[2].

المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ﴾:

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ استفهامٌ بمعنى: النَّفي، أي: لا أحد أصدق منه، وهو تأكيد ثالث، وفائدة هذه التّوكيدات: مقابلة مواعيد الشّيطان الكاذبة لقرنائه بوعد اللّه الصّادق لأوليائه[3].

بمعنى النَّفي، أي لا أحد أصدق منه

ذكر ابن عاشور هنا: أنَّ الاستفهام إنكاريٌّ، والقيل: القول، وهو اسم مصدر بوزن فعل يجيء في الشَّرِّ والخير[4]، ويصدق ذلك؛ إذْ جاء الاستفهام معارضًا لمواعيد الشّيطان.

نكتة التَّقديم في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وأصل الجملة: ومن أصدق قولًا من اللّه؟ فقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على التَّمييز﴿قِيلٗا﴾، وفائدتها: توكيد وقوع وعد اللّه، وافتضاح وعود غير اللّه؛ فلا يكون إلَّا ما يريد اللّه سبحانه.

التَّذييل في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وجملة: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تذييل للوعد وتحقيق له، أي: هذا من وعد اللّه، ووُعود اللّه وعود صدق؛ إذ لا أصدق من اللّه قيلًا، فالواو: اعتراضيَّة؛ لأنَّ التَّذييل من أصناف الاعتراض، وهو

ترغيبًا في تحصيل وعده الكريم، وتحذيرًا من مواعيد الشّياطين الكاذبة

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(3) النسفي، مدارك التّنزيل: 1/398.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.

اعتراض في آخر الكلام، وانتصب ﴿قِيلًا﴾ على تمييز نسبة من أصدق من الله[1]؟ قال أبو السُّعود: "والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشّياطين الكاذبة لقُرنائه، بوعد اللّه الصّادق لأوليائه، والمبالغة في تأكيده ترغيبًا للعباد في تحصيله"[2].

فجملة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ مؤكّدة غاية في البلاغة، أتت تذييلًا لما سبق؛ لتضيف إليه مزيدًا من التَّوثيق[3].

الاستعارة التَّمثيليّة في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾:

رسوخ الإيمان بصدق وعد الله، واستقرار ذلك في الذِّهن

وجملة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جارية مجرى المثل، وهي على سبيل الاستعارة التَّمثيليَّة، فيكون مورد المثل قديمًا بقدم وعد اللّه تعالى، وتكون العبارة القرآنيَّة مثلًا لكلِّ حدث يُذكِّر بصدق وعد اللّه تعالى، فيقول القائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، فهي استعارة تمثيليَّة، أفادت رسوخ الإيمان بصدق وعد اللّه، واستقرار ذلك في الذِّهن، والتَّذكير كذلك بوعود اللّه في القرآن الكريم والسُّنَّة الصّحيحة بأنَّها جميعها من قبيل أصدق الوعود، فلا يتخلَّف وعد عن ذلك قطعًا.

وكَانَ الْأَصْلُ تكرارَ الصِّدقِ بِلَفظهِ، فَاستُثقلَ التَّكرَارُ لِلتَّقارُبِ، فَعُدِلَ إِلى مَا يُجَاريهِ خِفَّةً، ولتُجرى المصادر الثَّلاثة مجرًى واحدًا خِفَّةً وَوَزنًا؛ إحرازًا للتَّنَاسُبِ[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القيل والحديث:

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأنَّ حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصِّدق، بل أعلاها، فكلُّ ما قيل في العقائد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/235.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/115.
(4) الزّركشي، البرهان: 2/395.

والعلوم والأعمال، ممَّا يناقض ما أخبر اللّه به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصّادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا[1].

وقد ورد نظير الآية في سورة النّساء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾ [النِّساء: 87]، وهذه الآية مطلعها قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾ [النساء: 87]، ثم تكرَّر هنا الأسلوب نفسه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، فجاء في الأولى ﴿حَدِيثًا ٨٧﴾ [النساء: 87]: عندما شمل الخطاب النَّاس جميعًا، فلمّا توجَّه الخطاب إلى المؤمنين؛ ذكر ﴿قِيلًا﴾، وقد ورد (القِيلُ) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ [الزّخرف: 88]، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ٢٦﴾ [الواقعة: 26]، وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦﴾ [المزمل: 6].

والحديث: هو الخبر المُتوارد بين النَّاس؛ فذكر قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ [النساء: 87]، وهو خطاب للنَّاس جميعًا، وهذا الخبر أكثر انتشارًا وتساؤلًا بين النَّاس، فهو من قبيل الحديث بينهم، وكلُّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السّمع، أو الوحي في يقظته أو منامه، يُقال له: حديثٌ[2].

أمَّا القول؛ فتسمَّى القصيدة والخُطبة ونحوهما: قولًا، كما يقال للمتصوّر في النَّفس قبل الإبراز باللَّفظ: قولٌ، فيقال: في نفسي قول لم أظهره، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ﴾ [المجادلة: 8]، فجعل ما في اعتقادهم قولًا، كما أنَّه يُقال للعناية الصّادقة بالشَّيء[3]، والمِقْوَلُ: اللِّسان[4]، والقيل: اسم للجمع[5]، أمَّا سبب ورود (قيلًا) في الآية؛ فذلك لاشتمالها على أخبار مؤكَّدة تأكيدات متوالية، فذكْرُ ﴿قِيلًا﴾ مرتبط بسبب التَّكثير من التَّأكيد؛ لأنَّه في مقابلة وعد الشّيطان، ووعد الشّيطان موافق للهوى الَّذي طُبعت عليه النُّفوس، فلا تنصرف عنه إلَّا بعسر شديد[6].

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/191.
(2) الراغب، المفردات: (حدث).
(3) الراغب، المفردات: (قول).
(4) الخليل، العين: (قيل).
(5) ابن سيده، المُحكم: (قيل).
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.

﴿لَيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النِّساء: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكر مآل المؤمنين في الآية السَّابقة، وما هم فيه من الخير والخلود؛ ناسب في هذه الآية أن يذكر أنَّ هذا الوعد الكريم إنَّما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيِّ، فقال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾؛ إذ كانوا يرون أنفسهم أنَّهم شعب اللّه المختار، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، فذكرهم هنا بقوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾.

وما أشدّ التئام الآية بما سبق من الآيات المحذِّرة منهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النِّساء: 44] إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾ [النِّساء: 45]، إشارة إلى أنَّ مقصود المنافقين من مشايعة أهل الكتاب ومتابعتهم إنَّما هو الولاية والنُّصرة، وأنَّهم قد ضيَّعوا منيتهم، فاستنصروا بمَن لا نصرة له، وتركوا من ليست النُّصرة إلَّا له[1]، ثمّ قال هُنا: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾: المِيمُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ الْقَضَاءِ بِهِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ المَاني، أَيْ: قَدَّرَ الْمُقَدِّرُ[2]، وامتنيتُ الشّيء: اختلقته، والمَنَى: القصد، وتَمَنَّى الشَّيءَ: أرادَه، ومَنَاه إيَّاه وبه: وهي المُنْيَة، وتمنَّى الكتاب: قرأه، وكتبه، وفي التَّنزيل: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قرأ، وتلا، وقال الشَّاعر:

تَمَنَّى كتابَ اللّهِ أوَّلَ لَيْلِه *** وآخِرَه لاقَى حِمامَ المَقادِرِ[3]

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).

(3) الزّجّاجيّ، الأمالي: 1/20، والبيت من الكامل، أنشده في اللِّسان والمقاييس: (منى)، وسيرة ابن هشام، ص: 370، من دون نسبة، وهو لحسَّان بن ثابت في تفسير أبي حيان: 6/382، وليس في ديوانه.

وأنا راضٍ بِمَنَى اللّه: بقدره، وتقول: ساقه المَنَى إلى دَرْكِ المُنَى[1]، والتَمَنِّي: تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، والأُمْنِيَّةُ: الصُّورة الحاصلة في النَّفس من تمنِّي الشَّيء، وتَمَنَّى: كَذَب، وَتَمَنَّى الحديثَ: اخترعه[2]، ولمّا كان الكذِبُ تصوُّرَ ما لا حقيقةَ له وإيراده باللّفظ؛ صار التَّمنِّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أن يُعبّر عن الكذب بالتَّمنِّي[3].

2) ﴿سُوٓءًا﴾: جذر الكلمة هو: (سوأ)، والسُّوء نعت لكلِّ شيء رديء، والسُّوء: اسم جامعٌ للآفات والدَّاء، وتقول: ساء ما فعل فلان صنيعًا يسوء، أي: قَبُح صنيعُه صنيعًا، والسَّيِّئ والسَّيِّئة: عملان قبيحان، يصير السّيِّئ نعتًا للذَّكَر من الأعمال، والسَّيِّئة للأنثى[4]، وساءَهُ ضدُّ سَرَّه، وقُرِئ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح: 6] بالضَّمِّ[5]، أي: الهزيمة والشَّرُّ، وقُرئ بالفتح[6] من المَساءة[7].

والمفتوح غَلَب في أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه، وأمَّا (السُّوء) بالضَّمِّ؛ فجارٍ مجرى الشَّرِّ الَّذي هو نقيض الخير[8].

3) ﴿يُجۡزَ﴾: جذر الكلمة هو (جزي)، جزى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة، وتَجازيتُ ديني: تقاضيته[9]، واللّه يجزيك عنِّي، ويجازيك، قال لبيد[10]:

وإذا جُوزيت قرضًا فاجْزِه *** إنَّما يَجْزِي الفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

ومنه جزية أهل الذِّمَّة؛ لأنَّها تقضي عنهم، يقال: أدُّوا جزيتهم وجزاهم[11]، ومن المجاز: جزتك الجوازي، أي: أفعالك، أي: وجدت جزاء ما فعلت، أو ألطاف اللّه وأسباب رحمته[12].

---

(1) الزّمخشري، أساس البلاغة: (مني).
(2) ابن سيده، المُحكم: (مني).
(3) الراغب، المفردات: 1/780.
(4) الخليل، العين: (سوأ).
(5) وهي قراءة الجمهور، ينظر: ابن الجزري، النَّشر: 2/280.
(6) وهي رواية شاذَّة، قرأ بها هارون عن أبي عمرو، ومجاهد والحسن، ينظر: ابن خالويه، المختصر: 142.
(7) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (سوأ).
(8) الزمخشري، الكشاف: 3/136.
(9) الخليل، العين: (جزي).
(10) البيت من بحر الرَّمل، وهو للبيد بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص: 123.
(11) الزّمخشري، أساس البلاغة: (جزي).
(12) الزّمخشري، أساس البلاغة: (جزي).

المعنى العامُّ للآية:

لَمّا أخبر تعالى عمَّا أعدَّ للكافرين ولمن أضلَّهم من العقاب، وعمَّا أعدَّ للمؤمنين من الثَّواب، وكان الكافرون يمنُّون أنفسهم الأمانيَّ الفارغة من أنَّه لا تبعة عليهم في التَّلاعب بالدِّين، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، ويشجِّعهم على ذلك أهل الكتاب، ويدَّعون أنَّهم أبناء اللّه وأحبَّاؤه، لا يؤاخذهم بشيء، ولا يدخل الجنَّة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، أو من شفعوا فيه[1]؛ بيّن تعالى أنَّ هذا الوعد الكريم إنَّما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيِّ، فقال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، ثمَّ قرَّر الحقَّ في ذلك بصورة قاعدة عامّة، فقال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ الجزاء بحسب سنَّة اللّه تعالى أثر طبيعيٌّ للعمل، فإن كان سيِّئًا يصيب روح صاحبه، ويُكيِّفها بكيفيَّة سيِّئة تنال بها العقاب، فيعود عليه بالوبال والنّكال، من أيِّ مِلَّة أو عنصر كان، ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، ولا يكون أحد وليًّا أو ناصرًا لأحد يوم القيامة غير اللّه تعالى، ولا تنفعهم ولاية أحد أو نصره يوم القيامة إلَّا ولاية اللّه ونصره[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف الابتدائيّ:

للتَّنويه بفضائل الأعمال

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾: "استئناف ابتدائيٌّ للتَّنويه بفضائل الأعمال، والتَّشويه بمساويها، وأنَّ في ﴿لَّيۡسَ﴾ ضميرًا عائدًا على الجزاء المفهوم من قوله: ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾، أي: ليس الجزاء تابعًا لأمانيِّ النَّاس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدَّر من اللّه تعالى تقديرًا بحسب الأعمال، وممَّا يؤيِّد أن يكون قوله:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.

(2) الموصلّيّ، أولى ما قيل: 3/131.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا: أنَّه وقع بعد تذييل مشعر بالنِّهاية، وهو قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، وممَّا يرجِّحه: أنَّ في ذلك الاعتبار إبهامًا في الضَّمير، ثم بيانًا له بالجملة بعده، وهي: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وأنَّ فيه تقديم جملة: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ عن موقعها الَّذي يُتَرَقَّبُ في آخر الكلام، فكان تقديمُها إظهارًا للاهتمام بها، وتهيئةً لإبهام الضَّمير، وهذه كلُّها خصائص من طرق الإعجاز في النَّظم"[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾:

دلالـــة البـاء الملابسة

الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ للملابسة، أي: ليس الجزاء حاصلًا حصولًا على حسب أمانيِّكم، وليست هي الباء الَّتي تزاد في خبر ليس؛ لأنَّ أمانيَّ المخاطبين واقعة لا منفيَّة، والأمانيُّ موجودة لدى المُخاطبين، وقد تلبَّست الأمانيُّ بهم، وأصبحت جزءًا من حيِّز حياتهم وتفكيرهم.

والأمانيُّ: جمع أمنيَّة، وهي اسم للتَّمنِّي، أي: تقديرُ غيرِ الواقعِ واقعًا، وكأنَّ ذكر المسلمين في الأمانيِّ لقصد التَّعميم في تفويض الأمور إلى ما حكم اللّه ووعد، وأنَّ ما كان خلاف ذلك لا يُعتدُّ به، وما وافقه هو الحقُّ، والمقصد المهمُّ هو قوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، على نحو: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]، فإنَّ اليهود كانوا في غرور: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، وقد سمّى اللّه تلك أمانيّ عند ذكره في قوله: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ [البقرة: 111]، أمَّا المسلمون؛ فليس في عقيدتهم مثل ذلك[2].

دلالة الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾:

عدالة التَّشريع الإلهيِّ

قال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، فذكر فئتين، وهو من قبيل طباق الشُّمول؛ إذ شمل بهذا الطِّباق النَّاس جميعًا، فعدل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.

عن التَّعبير: ليس بأمانيِّ أحدٍ ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، إلى الفصل بذكر المُخاطبين من المؤمنين على الأرجح، والفئة الأخرى من أهل الكتاب.

وقال الزَّمخشريُّ في ﴿لَّيۡسَ﴾: ضمير وعد اللّه، أي: ليس ينال ما وعد اللّه من الثَّواب بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، والخطاب للمسلمين؛ لأنَّه لا يتمنَّى وعد اللّه إلَّا من آمن به، ولذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان، وعن الحسن قال: إنَّ قومًا ألْهَتْهُم أمانيُّ المغفرة[1]، حتَّى خرجوا من الدُّنيا، ولا حسنة لهم، وقالوا: نُحسن الظَّنَّ باللّه، وكذبوا، لو أحسنوا الظَّنَّ به؛ لأحسنوا العمل.

ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء؛ لنكوننَّ خيرًا منهم وأحسن حالًا: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم: 77]، ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصِّلت: 50][2].

والرَّأي الَّذي نميل إليه: "أنَّ الآية الكريمة تخاطب النَّاس جميعًا، سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب؛ لأنَّ الآية الكريمة تضع لهم جميعًا قاعدة عامَّةً، وهي أنَّ الوصول إلى ثواب اللّه ورضاه لا يُنال بالأمانيِّ والأحلام، وإنَّما يُنال بالإيمان والعمل الصَّالح"[3].

السِّرُّ في حذف اسم ﴿لَّيۡسَ﴾:

تقوية الخبر المنفيِّ، وأنَّ المدار على العمل

في حذف اسم ﴿لَّيۡسَ﴾ وإضمارِ ما يعود عليه إشارةٌ إلى أهمِّيَّة الخبر المنفيِّ، وهو عدم نفْع الأمانيِّ لأصحابها.

هذا، وقد وقع الاختلاف فيما يعود الضَّمير عليه: فمنهم من جعله عائدًا على الوعد بدخول الجنَّة، أي: ليس دخول الجنَّة بأمانيِّكم، أو يعود على الإيمان المفهوم من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النِّساء: 122][4]، كما ذهب إليه الحسن، أو يعود على ما وقعت فيه محاورة المؤمنين وأهل الكتاب، أو ما قالته قريش وأهل الكتاب، وقال الحوفيُّ: اسم ﴿لَّيۡسَ﴾ مضمر فيها

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/600.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/320.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.

على معنى: ليس الثَّواب عن الحسنات ولا العقاب على السَّيِّئات بأمانيِّكم؛ لأنَّ الاستحقاق إنَّما يكون بالعمل، لا بالأمانيِّ، وقال أبو البقاء: ﴿لَّيۡسَ﴾ مضمر فيها، ولم يتقدَّم له ذكر، وإنَّما دلَّ عليه سبب الآية، وذلك أنَّ اليهود والنَّصارى قالوا: نحن أصحاب الجنَّة، وقال المشركون: لا نبعث، فقال: ليس بأمانيِّكم، أي: ليس ما ادَّعيتموه بأمانيِّكم(1).

الفصل لشبه كمال الاتِّصال في قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

بيانٌ للنَّفي المُجمل قبله

جملة: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن جملة: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾؛ لأنَّ السَّامع يتساءل عن بيان هذا النَّفي المجمل.

ولهذا الاستئناف موقع من البلاغة، وخصوصيَّة تفوت بغير هذا النَّظم الَّذي فسَّرناه، وجعل صاحب "الكشاف" الضَّمير المستتر عائدًا على وعد اللّه، أي: ليس وعد اللّه بأمانيِّكم؛ فتكون الجملة من تكملة الكلام السَّابق حالًا من وعد اللّه، وتكون جملة ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا محضًا(2).

التَّعميم في قوله: ﴿سُوٓءٗا﴾:

الخطاب بذكر السُّوء يكون لأهله ممَّن اعتادوا على أفعاله

ردَّ اللّه تعالى على الفريقين بقوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، ثُمَّ ابتدأ الخبر الصَّادق من قبله بقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وجاء هذا اللَّفظ عامًّا في كلِّ سوء، فاندرج تحت عمومه الفريقان المذكوران، واختلف المتأوِّلون في تعميم لفظ هذا الخبر، ولكن على العموم؛ فقد أفاد شمول كلِّ من يعمل سوءًا، ولا يظنُّ أنَّ أحدًا معصومٌ عن عمل السُّوء إلَّا الأنبياء عليهم السلام.

دلالة العموم في الآية الكريمة: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

الكافر والمؤمن مجازًى بالسُّوء يعمله

قال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿يُجَٰزَىٰٓ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/208.

﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(1)[سبأ: 17]، قال: والآية يعني بها: الكفَّار، ولا يعني بها: أهل الصَّلاة، وقال: والله ما جازى أحدًا بالخير والشَّرِّ إلَّا عذَّبه، ولكنَّه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾: وعد الله المؤمنين أن يكفِّر عنهم سيِّئاتهم، ولم يَعِد أولئك، يعني: المشركين، وقال الضَّحَّاك: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ يعني بذلك: اليهود والنَّصارى والمجوس وكفَّار العرب(2).

وفي قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ هذا تخصيصٌ للَّفظ في الآية، قال ابن عبَّاس وسعيد بن جبير: "قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾، معناه: من يكُ مشركًا"، والسُّوء هنا: الشِّرك، فهو تخصيص لعموم اللَّفظ من جهة أخرى؛ لأنَّ أولئك خصَّصوا لفظ ﴿مَن﴾، وهذان خصَّصا لفظ السُّوء، وقال الجمهور: لفظ الآية عامٌّ، والكافر والمؤمن مجازًى بالسُّوء يعمله، فأمَّا مجازاة الكافر؛ فالنَّار، لأنَّ كفره أوبقه، وأمَّا المؤمن؛ فبنكبات الدُّنيا، قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: لمَّا نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؛ قلت: يا رسول الله، ما أشدّ هذه الآية! فقال: يا أبا بكر، أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللَّأواء؟ فهذا بذلك، وقال عطاء بن أبي رباح: لمَّا نزلت هذه الآية؛ قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظَّهر، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّما هي المصيبات في الدُّنيا، وقالت بمثل هذا التَّأويل عائشة(3) رضي الله عنها.

المسائل المهمَّة تطلب زيادة تأكيد وتنبيه

فائدة زيادة التَّأكيد:

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فعموم العبارة وقعت في مقام زيادة تأكيد، لردِّ عقيدة من يتوهَّم أنَّ أحدًا يغني عن

---

(1) ورواية حفص عن عاصم بالنُّون وكسر الزَّاي، ونصب الكفور هكذا: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: 17]، وأمَّا هذه، فبضمِّ الياء وفتح الزَّاي، مبنيًّا للمفعول، والكفورُ بالرَّفع، وهي قراءة متواترة، نُسبت إلى نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر عن عاصم وأبي جعفر، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 529، وابن الجزري، النشر: 2/350.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/116.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/116.

عذاب الله[1]، وتقديم قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ زيادة تأكيد على أنَّ الولاية والنُّصرة يوم القيامة لا تكون إلَّا بالله، ومن الله سبحانه، وأنَّ ما تُعقد عليه الأمانيُّ عند أولئك الَّذين يُمنِّيهم الشَّيطان، ويعدهم، فإنَّما يعدهم الكذب والزُّور، قال تعالى حكايةً عن الشَّيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22].

التَّناسب في قوله: ﴿وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾:

قطع الأمل في النَّجاة

والوليُّ هو المولى، أي: المشارك في نسب القبيلة، والمراد به المدافع عن قريبه، والنَّصير الَّذي إذا استنجدته؛ نصرك، أو الحليف، وكان النَّصر في الجاهليَّة بأحد هذين النَّوعين[2]، وقد ناسب هنا ذكر الوليِّ والنَّصير لهدف إفهام النّاس أن لا ناصر يومها ولا معين إلَّا الله سبحانه، فأفاد التَّناسب ما يخطر على البال في سُبُل النُّصرة والإعانة، فإنّها جميعها مُلغاة، إلَّا بإذن الله وبفضله سبحانه.

دلالة المجاز في قوله: ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

الجزاء من جنس العمل

قال: ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وهو يُجزى بالعقاب، وفيها مجازٌ بين السُّوء والعقاب، وهي علاقة السّببيَّة، وفائدته: بيان أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّه ليس ثمَّة بشر إلَّا وسيجزى بما قدّم من الخير خيرًا، ومن الشّرِّ شرًّا، وهذه قاعدة عامَّة شاملة تجري على النَّاس جميعًا، أو تكون على سبيل المشاكلة.

المُشاكلة في قوله: ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

العدل الإلهيُّ المُطلق المنسجم مع قوانين الحياة والنَّفس الإنسانيَّة

قال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وهو في الحقيقة لا يُجزى بالسُّوء نفسه، وإنَّما يُجزى بما يستحقُّه، فمن يعمل السَّيِّئة؛ يُجزَ بها، ومن عمل الحسنة؛ يُجز بها، أي: يُجزَ بما يستحقُّ من السُّوء أو الحُسن على حسب أعماله، وفائدة فنِّ المشاكلة: هو بيان الجزاء العادل،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/209.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.

فإنَّه يُجزى المُسيءُ بالسُّوء على السّيِّئة بالمقدار الَّذي يستحقُّه، فالسَّيِّئة من الكبائر يُجازى عليها عقابًا كبيرًا، والسّيِّئة من الصَّغائر يُحاسب على قدر ما فعله، وهكذا ضمن أسلوب المُشاكلة المقياس الدّقيق، لكلِّ عقوبة أو إثابة.

دلالة المضارع في قوله: ﴿يَجِدۡ﴾:

الاستمرار والتَّجدُّد المُوحيان بالحَيرة وخيبة الأمل

صيغة المضارع في الفعل المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ﴾ دلَّت على الاستمرار والتَّجدُّد اللَّذين يوحيان، ويصوِّران حالة البحث الدَّؤوب عن الوليِّ النّاصر، فقال: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، فلا يجدون من دون اللّه أحدًا وليًّا أو ناصرًا إلَّا اللّه[1].

دلالة قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

تنهار يوم القيامة جميع قوى المخلوقات

ولَمَّا كان كلُّ أحد قاصرًا عن عظيم شأن اللّه وقدرته سبحانه؛ عبَّر بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الَّذي حاز جميع العظمة، ﴿وَلِيّٗا﴾ أي: قريبًا، يفعل معه ما يفعل القريب من المدافعة عنه والنُّصرة والتَّأييد، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾، أي: ينصره في وقت طلب النُّصرة منه[2]، والتَّقديم للاهتمام؛ لبيان عظيم الموقف يوم القيامة، حيث تُنصب الموازين في موقف عظيم، فلا يجد المُسيء له وليًّا ولا نصيرًا.

سرُّ العدول عن: (أولياء وناصرين) إلى: ﴿وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾:

نفيُ الجنس نفيٌ لأفْرادِه

يختصر إفراد الوليِّ والنَّاصر المشهد في كلمات: إذ إنَّهم لَمَّا استدعوا الأولياء والنُّصراء، فلم يجدوا أحدًا؛ عُلم أن لا وليَّ ولا ناصر إلَّا اللّه، فمن أقرَّ قانون القبول والجزاء هو الوليُّ وحده، وهو النَّاصر وحده، فأفرد لفظ الوليِّ والنَّاصر استغراقًا لنفي جنسه قاطبةً.

بلاغة تذييل الآية الكريمة:

تأكيد المعنى

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ تذييلٌ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/76.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

قُصد به تأكيد ما قبله: من أنَّ ثواب اللّٰه لا يُنال إلَّا بالإيمان والعمل الصَّالح، وأنَّ عقابه سيحلُّ بمن يعمل السُّوء.

أي: إنَّ من يعمل السُّوء، سيجازى به، ولا يجد هذا المرتكب للسُّوء أحدًا سوى اللّٰه سبحانه يلي أمره، ويحامى عنه، ولا نصيرًا ينصره، ويحاول إنجاءه من عقاب اللّٰه تعالى[1].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/321.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن النِّظامَ العامَّ في عمل السُّوء وجزائه، فقال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾؛ بيَّن في هذه الآية النِّظام العامَّ في عمل الصّالحات وجزائها، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، وهي الأعمال الَّتي تصلح بها النُّفوس ممَّا جاء عن اللّه ﷻ في الأوامر والنَّواهي[1]، وقد جمعت الآيتان شروط صحَّة العمل، فالعمل لا يكون صحيحًا مقبولًا عند اللّه إلَّا إذا توافرت فيه هذه الشُّروط: وهي الإيمان والتَّوحيد والإخلاص، فيقصد بعمله وجه اللّه تعالى، ثم أن يكون متابعًا للنَّبيِّ ﷺ فيكون عمله مهتديًا بشريعته ﷺ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡمَلۡ﴾: الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[3]، وهو كل فعل يكون من الحيوان بقصدٍ، فهو أخصُّ من الفعل[4]:

2) ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الصَّادُ وَاللَّامُ وَالْحَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ، يُقَالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلَاحًا، وَيُقَالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللَّامِ[5]، والصَّلاح: ضدُّ الفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال:

3) ﴿ذَكَرٍ﴾: الذَّكر: ضدُّ الأنثى، قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 36][6]، والذَّكر محرَّكة، والذَّكير من الحديد: أَيْبسُه وأشدُّه وأجوده، وبذلك سُمِّيَ السَّيف:

---

(1) الموصلّيّ، أولى ما قيل: 3/131.

(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/542.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل).

(4) الراغب، المفردات: (عمل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).

(6) الراغب، المفردات: (ذكر).

مُذَكَّرًا، أي: شَفْرتُه حديدٌ ذَكر، والمعنى المحوريُّ: قوَّة الشَّيء وصلابة مادَّته بحيث ينفذ: كالحديد الفولاذ، يُزاد في السَّيف وغيره؛ لينفذ، ولا ينثني، والذَّكر خلاف الأنثى أصْلب وأخشن منها[1].

4) ﴿أُنثَىٰ﴾: الْأُنْثَى: خِلَافُ الذَّكَرِ، وَيُقَالُ: سَيْفٌ [أنيثُ] الْحَدِيدِ؛ إِذَا كَانَتْ حَدِيدَتُهُ أُنْثَى، وأرض مِئْناث وأَنِيثَة: سهلة مُنْبِتَة خليقة بالنَّبات ليست غليظة بَلَد (أي: قطعة أرض خالية) أنيث: ليّن سهل.

والمعنى المحوريُّ: لِيْنٌ أثناء الشَّيء وعدم غلظها وصلادتها، كالأرض السَّهلة المتسيِّبة التُّربة اللَّيِّنَتُها، ومنه: حديد أنيث: غير ذكير، فالأنيث من الحديد: هو الَّذي يُسمَّى الحديد المطاوع، والذَّكير منه: هو الصُّلب[2].

5) ﴿نَقِيرًا﴾: جذر الكلمة هو: (نقر)، والنَّقيرُ: نكتة في ظهر النَّواة، منها تنبت النَّخلة، والنَّقيرُ: أصل خشبة ينقر، فينبذ فيه، والنَّقْرُ: ضرب الرَّحى ونحوه بالمنقار، والنَّقَّارُ: الَّذي ينقش الرَّكب واللَّجم والرَّحى[3]، وفائدة هذا المعنى: أنَّ هذا العمل مهما صغُر حتَّى لو كان بمقدار نُقرة، فإنَّهم لا يُظلَمُونَه:

المعنى العامُّ للآية:

والآية في معرض الرَّدِّ على فرية: أنَّهم أبناء الله وأحبَّاؤه[4]؛ إذ أبان اللَّه حُجَّةَ الْمُسلمينَ عَلَى مَنْ نَاوأَهم من أَهلِ الْأَدْيَانِ بقولهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وَبِقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الْآيَتانِ[5]، وجعل منها قاعدة عمَّمها في الجزاء للنَّاس جميعًا، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾، فذكر العمل الصَّالح، ثم أتبعه بشرط الإيمان، فقال: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، فإن كان الإيمان قد اختلَّ منه بعض ما جاء به الدِّين الحقُّ؛ فهو كالعدم، فعقَّب هذه الآية بقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾، والمعنى:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أنث).
(3) الخليل، العين: (نقر).
(4) الزّرقاني، مناهل العرفان: 2/271.
(5) النيسابوري، أسباب نزول القرآن: 182.

أنَّ الفوز في جانب المسلمين؛ لا لأنَّ أمانيَّهم كذلك، بل لأنَّ أسباب الفوز والنَّجاة متوافرة في دينهم[1]، فقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، أي: ولا يُنقصون شيئًا منها، وإن كان في القلّة، مثل: نقير النَّواة، وفي هذه الآية وما قبلها من الموعظة ما يهدم صروح الأمانيِّ من جهلاء المسلمين الَّذين يعتمدون على الشَّفاعة والقرابين، والَّذين يظنُّون أنَّ مجرَّد الانتماء إلى الإسلام أو الصُّلحاء كفيل بالنَّجاة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

اكتمال اللَّفِّ والنَّشر مع الآية السَّابقة:

العمل الصّالح جوهرة الإيمان، والإخــــلاص ضمانه

هذه الآية بأكملها جزء من النَّشر الَّذي أقرَّته الآية السَّابقة، فقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ هذا لفٌّ، وقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهذا هو النَّشر، وفائدة هذا اللَّفِّ والنَّشر: الإعلام بأنَّ النَّجاة لا تكون بأمانيِّ النَّاس منكم أو من أهل الكتاب، فالتَّقدير: ليس النَّجاة بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، ثم تستكمل الآية الكريمة المعنى إيضاحًا في بيان ما يوجب العقاب، فيقول: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، ثم يبيِّن سبل الثَّواب، فيقول: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

الْعَكْسُ[3] بين الآيتين:

الآية في عموم الإيمان والعمل الصَّالح[4]، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.
(2) الموصلي، أولى ما قيل: 3/132.
(3) العكس: هُو أَنْ يُؤْتَى بِكلامٍ يُقَدَّمُ فيه جُزء، ويُؤَخَّرُ آخر، ثمَّ يقدَّم المؤَخَّر، وَيؤخَّر المقدَّمُ، ينظر: الزّرقانّي، مناهل العرفان: 2/283.
(4) الزّرقانّي، مناهل العرفان: 2/283.

الـتَّـلازم بين الإيمان والعمل الـصَّــالــح في الواقع

﴿ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ قُدِّم العمل الصالح على الإيمان، وفي الآية التَّالية: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ عكس نظم الأُولى؛ لتقدِيم العملِ فِي الأُولى عَلى الإيمان، وتأْخيره في الثَّانية عن الْإِسلام(1).

الجناس غير التَّامِّ بين ﴿وَمَن﴾ و﴿مِن﴾:

الإيــحــاء بمشاكلة العمل الصَّالح لصاحبه

قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، بين ﴿وَمَن﴾ و﴿مِنَ﴾ الأولى أو ﴿مِن﴾ الثَّانية جناس، فـ﴿وَمَن﴾: اسمٌ يدلُّ على الإنسان العامل للصَّالحات، سواءٌ أكان شرطًا أم موصولًا، و﴿مِنَ﴾: حرفٌ يشير إلى العمل الصَّالح، سواءٌ أكان لابتداء الغاية أم للجنس، فإنَّ كلًّا منهما مركَّب من حرفين الميم والنُّون، وتشابه جِرْمهما يشير إلى مشاكلة العمل الصَّالح لصاحبه، وكلُّ إناء بالَّذي فيه يرشح، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ [الإسراء: 84].

دلالة ﴿مِن﴾ في موضعيها في الآية الكريمة:

الرِّفق بالعباد

﴿مِنَ﴾ الأولى: هي للتَّبعيض، فائدتها: الرِّفق بالعباد؛ لأنَّ الصّالحات على الكمال لا يطيقها البشر، واشترط مع فعلها الإيمان؛ لأنَّه لا يُقبَل عملٌ إلَّا به(2).

وأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّن من عمل كلِّ الصَّالحات، وإنَّما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكم مُكلَّف لا يلزمه زكاة ولا حجٌّ ولا جهاد، وسقطت عنه الصَّلاة في بعض الأحوال على بعض المذاهب، وذكر الطَّبريُّ: أنَّ ﴿مِنَ﴾ زائدة، أي: ومَنْ يعمل الصَّالحات، وزيادة (مِن) في الشَّرط ضعيف، ولا سيَّما بعدها معرفة، و﴿مِن﴾ الثَّانية لتبيين الإبهام في: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾.

(1) السيوطي، الإتقان: 3/319، والسيوطي، معترك الأقران: 1/308.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/307.

وعندي أنَّ ﴿مِنَ﴾ الأُولى لم تخرج عن معناها الأصليِّ، وهو ابتداء الغاية، أي: ومن يعمل شيئًا من بداية ما يُقال له: عملٌ صالحٌ، وهذا تعظيمٌ لكلِّ عملٍ صالحٍ؛ وإن كان صغيرًا، ويؤكِّده قولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الأرض، وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ؛ فَلَا تَسُبَّهُ، فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ، وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ، وَمَا سَرَّ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاعْمَلْ بِهِ، وَمَا سَاءَ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاجْتَنِبْهُ"[1].

دلالة الفعل المضارع ﴿يَعۡمَلۡ﴾:

المُـداومـة على الأعـمـال الصَّالحة

الفعل المضارع ﴿يَعۡمَلۡ﴾ معناه: طلب المداومة على العمل، وتجدُّد أنواع الأعمال، ثمّ بيّن أنَّ الأعمال هي من قبيل الصَّالحات، فحسب، فقال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فأفاد أنواع الصَّالحات الَّتي لا يمكن حصرها... وجعل ركيزة الإيمان هي الفاصل والحَكَم.

ولمَّا أبدى جزاء المسيء تحذيرًا؛ أولاه أجر المحسن تبشيرًا، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾، وخفَّف تعالى عن عباده بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولمَّا عمَّمَ بقوله: ﴿مِنَ﴾؛ صرَّح بما اقتضته في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾، وقيَّد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحال أنَّه ﴿مُؤۡمِنٞ﴾؛ ليكون بناؤه الأعمال على أساس الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: العالُو الرُّتبة[2].

العدول من المبنيّ للفاعل إلى المبنيّ للنَّائب عن الفاعل في قراءة ﴿يُدۡخَلُونَ﴾:

وقرأ الجمهور ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتح التَّحتيَّة وضمِّ الخاء[3]، من الثُّلاثيِّ (دخل)، وقرأه بعضُهم بضمِّ التَّحتيَّة وفتح الخاء[4] على

---

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (15955).

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

(3) وهي قراءة ابن عامر ونافع وحمزة والكسائيّ وعاصم برواية حفص، وخلف، ينظر: الداني، التيسير، ص: 97، وابن الجزري، النشر: 2/252.

(4) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب وروح، ينظر: ابن الجزري، ، النشر: 2/252.

البناء للنَّائب من (أُدْخِلَ)، وفيها إشارة إلى أنَّ دخولهم الجنَّة محض كرم، وعظيم فضل من اللّه تعالى، لا بأعمالهم الصَّالحات؛ وإن كانت أعمالهم سببًا فيه، وفي رفع درجاتهم، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ"[1].

وقراءة الجمهور ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل تشير إلى تصوير هذا الإكرام، وذاك الفضل العظيم في دخولهم الجنَّة؛ حيث ذلَّل لهم الصِّعاب، ويسَّر لهم الأسباب، فعملوا الصَّالحات، فكانت تلك الأعمال سببًا في دخولهم الجنَّة، والْمُنْعِم واحدٌ في الحالين، وهو الرَّحمن ذو الجلال والإكرام.

دلالة الطِّباق في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾:

العـــمـــوم والمساواة

قوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ تأكيد للعموم المفهوم مِن ﴿مِن﴾، فضلًا عن دلالة المساواة عند اللّه بين الذَّكر والأنثى، والرَّدُّ على من حَرَمَ المرأة حظوظًا كثيرة من العمل والخير والتَّفاعل في المجتمع، فقد جاء القرآن متبنِّيًا قضيَّة المساواة أمام اللّه في تقديم الصَّالحات والخير.

وكثيرًا ما أردف القرآن ذِكْرَ الأنثى مع الذَّكَرِ، أو المرأة مع الرَّجُلِ، والآيات في ذلك كثيرة.

الحَمْل على اللَّفظ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

يــوزن الإيــمــان بعيدًا عن جنس صاحبه

جملة: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ حال من الضَّمير المستتر في ﴿يَعۡمَلۡ﴾ العائد على ﴿وَمَن﴾، وهو في اللَّفظ مفرد؛ ولذلك جاء الضَّمير في صدر الجملة الحاليَّة مفردًا؛ لنكتة بلاغيَّة، وهي الإشارة إلى هذا العمل المؤسَّس على الإيمان، ولا قيمة لإنسان مهما يكن قدره من دون إيمان، كما أنَّه لا التفات إلى جنس أو لون أو لغة.

---

(1) الطبراني، الأوسط: 6/332.

الإيمان هو المرآة العاكسة الشّاهدة على أعمال كلِّ ذكر أو أنثى

الاختصاص والتّتميم في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

وردت هذه العبارة القرآنيَّة أيضًا في سورة النَّحل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الآية 97]، كما أنَّ العبارة تكرَّرت في سورة غافر في قوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الآية 40].

والتَّتميم: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، فتكرَّرَ التَّتميم هنا مرَّتين، الأولى: في قوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ (مَن) الشَّرطيَّة تفيد العموم، فكان لا بدَّ من تتميمها بذلك للتَّأكيد، وإزالة وهم التخصيص، جريًا على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذَّكر على الأنثى وإيثاره بكلِّ ما هو خير(1)، والثَّانية: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ جملة حاليَّة، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميم في غاية الحُسن(2)، وقيد في عمل الإنسان؛ لأنَّه لو عمل من الأعمال الصَّالحة ما عمل، فلا ينفعه إلَّا إذا كان مؤمنًا، قال الزَّمخشريُّ: وإذا أبطل الله الأمانيَّ، وأثبت أنَّ الأمر كلَّه معقود بالعمل الصَّالح، وأنَّ من أصلح عمله، فهو الفائز، ومن أساء عمله، فهو الهالك؛ تبيَّن الأمر، ووضح، ووجب قطع الأمانيِّ، وحسم المطامع، والإقبال على العمل الصَّالح، ولكنَّه نُصْحٌ لا تَعِيْه الآذان، ولا تُلْقَى إليه الأذهان(3)، والَّذي تدلُّ عليه الآية أنَّ الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل؛ لأنَّ العمل شرط في صحَّة الإيمان(4).

فالجملة اعتراضيَّة مؤكِّدة أنَّ أسباب الفوز والنَّجاة متوقِّفة على الإيمان، وجاءت كلمة الإيمان هنا مجملة لمعنى أركان الإيمان كلِّها؛ إذ لا يصحُّ تجزئة الإيمان، والجملة اسميَّة تدلُّ على الثَّبات.

---

(1) صافي، الجدول: 14/384.

(2) الزّركشي، البرهان: 3/70، والسّيوطي، معترك الأقران: 280.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/600.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/76.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

استحضار صورة سعادتهم حين يدخلون الجنَّة

اسم الإشارة (أولئك) مبتدأ، والخبر جملة فعليَّة ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لتقوية حكم الإسناد، والجمع يدلُّ على كثرة الدّاخلين، والمُضارع يدلُّ على تجدُّد الدُّخول مجاميع وزرافات، ويُصوِّر فرحتهم حين يدخلون الجنَّة، ومن تمام سعادتهم أنَّهم يُوفَّون أجورهم أضعافًا مضاعفة، ويوقنون بعدالة المَلِك ﷻ، ثم يبيّن أنَّه على الرَّغم من كثرتهم وتواليهم إلَّا أنَّه سبحانه أعلم بكلِّ دقيقة في أفعالهم وحياتهم، فلا يُظلمون شيئًا، فتُجدَّد ضمان الحقوق مهما صغُرت بقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

السِّرُّ في تخصيص الصَّالحين بأنَّهم لا يُظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك:

نفيُ النُّقصان في الفضل دليلٌ على نفيه في العدل

مجازاة الصَّالحين تكون بإثابتهم على أعمالهم، وما يتبعُها من إخلاص وإتقان وغير ذلك ممَّا لا يُقدِّره المَلَكان، وإنَّما يجزيهم اللّٰه عليه بفضله، ولن يُنقصهم شيئًا ممَّا لم يَطَّلِع عليه أحدٌ غيره، وهذا المعنى ممَّا يُحَسِّن تخصيصهم بنفي النقصان عنهم، وينتفي عن غيرهم من باب أولى.

وقد ذكر الزَّمخشريُّ لذلك وجهين، أحدهما: أن يكون الرَّاجع في: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ لعمَّال السُّوء وعمَّال الصَّالحات جميعًا، والثَّاني: أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالًّا على ذكره عند الآخر؛ لأنَّ كلا الفريقين مجزيَّان بأعمالهما لا تفاوت بينهما، ولأنَّ ظلم المسيء أن يُزاد في عقابه، وأرحم الرَّاحمين معلوم أنَّه لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنًى عنه، وأمَّا المحسن؛ فله ثواب، وتوابع للثَّواب من فضل اللّٰه، هي في حكم الثَّواب، فجاز أن ينقص من الفضل؛ لأنَّه ليس بواجب، فكان نفي الظُّلم دلالةً على أنَّه لا يقع نقصان في الفضل[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/568.

تصوير المعنويّ بـالـمـحـسـوس لتوضيح كمال العدل

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿نَقِيرًا﴾:

﴿نَقِيرًا﴾، أي: عملًا قليلًا كالنَّقير، والنَّقير: ما في ظهر النَّواة من تلك الوقبة الصَّغيرة جدًّا، ﴿نَقِيرًا﴾، فهو فعيل، بمعنى: مفعول[1]، فشبَّه القليل من العمل الصَّالح بأقلِّ ما يمكن أن يتصوّره إنسان على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذ صرَّح بالمشبَّه به: وهو (النَّقير)، وحذف المشبَّه: وهو (العمل القليل)، وفائدة هذه الاستعارة: استحضار ما يمكن أن يمرَّ بخاطر السَّامعين من صغر حجم العمل المُتقبَّل عند اللّه سبحانه في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كي لا يستهين، وينكر أحد صغر العمل ما دامت النِّيّة صحيحة، وحاكمها الإيمان باللّه سبحانه.

عظيم العدل الإلهيّ

بلاغة الكناية عن العدم في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾:

وعموم قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾ كناية عن عظيم العدل الإلهيِّ، والإحاطة بكلِّ مخلوقاته سبحانه تقديرًا وعلمًا، و﴿نَقِيرًا﴾: نائب مفعول مطلق، أي: ظلمًا مقدار نقير[2]، أي: لا يظلم اللّه المطيع منهم بنقص شيء ما، ولا العاصي بزيادة شيء ما، كنَّى بها عن العدم، وهذا على ما يتعارفه النَّاس، وإلَّا فاللّه تعالى له أن يفعل ما يشاء، فإنَّ مِلكه - ومُلكه عامٌّ - لا يتصوَّر منه ظلم كيفما فعل[3]، فالمراد هنا: المعنى المجازيُّ كناية عن الضَّئيل الحقير والتَّافه الَّذي لا قيمة له[4].

التَّـفـضُّـل والإنعام

الحمل على المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جاء اسم الإشارة مجموعًا، والمشار إليه معنى (مَن) الشَّرطيَّة؛ لأنَّه لفظ عامٌّ، يدخل فيه المفرد

(1) صافي، الجدول: 5/181.
(2) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/412.
(4) بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن: 487.

والمثَّنى والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، فحُمِل هنا على المعنى، وعُبِّر عنه بالجمع؛ للإشارة إلى الفرق بين مقام العمل وإيمان صاحبه، ومقام الإنعام ودخول الجنَّة، فالأوَّل: يناسبه التَّعبير بالمفرد، والحمل على اللَّفظ كما سبق، والآخر: يناسبه التَّعبير بالجمع، والحمل على المعنى؛ لأنَّ دخول الجنَّة محض فضل وكرم، ولأنَّ السَّعادة كلَّ السَّعادة في دخولهم الجنَّة زُمَرًا زُمَرًا، فالتَّعبير بالجمع أنسب في الجزاء، وسُبۡحَانَ مَنۡ إِذَا وَعَدَ؛ وَفى، وَإِذَا تَوَعَّدَ؛ عَفَا!

سرُّ العدول عن (شيئًا) إلى ﴿نَقِيرًا﴾:

آثر التَّعبير هنا بالنَّقير، وفي مواضع أخرى بالشَّيء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾ [مريم: 60].

وقد تكرّر ﴿نَقِيرًا﴾ هنا بعد أن وردت قبلها في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النِّساء: 53]، والنّقير بحسب ما ورد في معاجم اللُّغة: هي نقرة النّواة، أو البؤرة الّتي نتجت عن فعل دقيق، فالنَّقيرُ: نكتة في ظهر النَّواة منها تنبت النَّخلة، أو البؤرة الّتي تتضمَّن، وتكمن فيها طاقة، كنقرة النَّواة الّتي تتضمَّن طاقة كامنة تخرج منها حياة نخلة باسقة، أو هي أثر من طاقة تفعَّلت، فأنجزت هذا النَّقير، فالنَّقيرُ كذلك: أصل خشبة ينقر، فينبذ فيه، والنَّقْرُ: ضرب الرَّحى ونحوه بالمنقار، وهذا متوافق مع دقَّة الأعمال وصِغرها وكوامنها في النَّفس، فهي تشمل نيَّات البشر الخفيَّة، مثل: الطّاقة الكامنة في نواة التَّمرة، أو نقرة طائر وما بذل من طاقة.

أمَّا (شيئًا)؛ فإنَّها لا تحوي من تلك المعاني، سوى أنَّها تدلُّ على الشَّيء القليل الدَّقيق مهما يكن، فهي أعمُّ؛ إذْ إنّها جاءت في سياق يشمل كثيرًا من المستثنين الدَّاخلين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، فناسب شمول السِّياق عموم (شيء)، كما ناسب مكيَّة السُّورة.

وناسب أن يذكر النَّقير في معرض الحديث عن الأفعال والأقوال والأعمال للدَّلالة على أقلِّ طاقة يمكن أن تبذل في حسنة أو سيِّئة، فيكون الجزاء من جنس العمل، فأفعال النَّاس يمكن تشبيهها بالنَّقير لاحتواء الطَّاقة والحركة والفعل الكامن في النَّقير، كما ناسب ذكرُه مدنيَّةَ السُّورة؛ حيث السِّياقُ الخاصُّ من جهة، وشُيُوعُ النَّخيل من جهة أُخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّقير والفتيل والقطمير:

تجتمع حقيقة هذه الثَّلاثة في النَّواة، فالنَّقير: النُّقرة في ظهر النَّواة الَّتي تنبت منها النَّخلة، والفتيل: هو الخيط الأبيض الدَّقيق في شقِّ النَّواة، والقطمير: هو الغشاء الرَّقيق الملتفُّ حول النَّواة، وقد خصَّ القرآن الكريم كلًّا منها في السِّياق المناسب لها على النَّحو الآتي:

أوَّلًا: ذكر النَّقير في القرآن الكريم في سورة النِّساء مرَّتين: أولاهما في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النساء: 53]، والأخرى: هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

ثانيًا: وذكر الفتيل ثلاث مرَّات على النَّحو الآتي:

1- في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النِّساء: 49].

2- وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النِّساء: 77].

3- وفي قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ۝٧١﴾ [الإسراء: 71].

ثالثًا: وذكر القطمير في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر: 13].

ومن خلال تدبُّر السِّياقات المختلفة لهذه الآيات الكريمات يتَّضح لنا سرُّ اصطفاء كلِّ لفظة في سياقها، فالنَّقير يعبِّر عن نقص شيء من الخير بمقدار هذه النُّقَيْرة الَّتي في ظهر النَّواة، وهو مناسب لسياق آيتي سورة النِّساء، حيث إنَّه جاء في الآية الأولى في سياق الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب (وهم بعض أهل الكتاب من اليهود)، لو أنَّهم - فرضًا -

أُعطُوا نصيبًا من الملك؛ فلن يؤتوا النَّاس منه شيئًا، ولو بمقدار النُّقَيْرَة في ظهر النَّواة لشدَّة بخلهم وحرصهم، أي: إنَّهم لن يُنفقوا ممَّا عندهم شيئًا.

وفي الآية الَّتي معنا الخاصَّة بالمؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحات لن يُظلموا ممَّا قدَّموا من الخير، ولو بمقدار النَّقِير؛ فناسب في الآيتين لفظ (النَّقير) السِّياق من وجهين:

الأول: أنَّ النَّقير أثرٌ دائمٌ في النَّواة، وهؤلاء اليهود لن ينفقوا شيئًا ذا أثرٍ، ممَّا يُرجى من صاحب المُلك، على فرض إتيانهم الملك، وكذا المؤمنون الَّذين يعملون الصَّالحات يدخلون الجنَّة، ولا ينقصون من حسناتهم شيئًا.

الآخر: هو مثل يُضرب للشَّيء الضَّئيل، ولكن يُرجَى منه الخير، كما تنبت من النَّقير النَّخلة، كما في عمل المؤمنين، أو يفترض منه الخير، كما في أهل الكتاب.

وقد يكون النَّقير مثَلًا ضُرِب للشَّيء القليل ممَّا يُكال، ولو بمقدار ما يوضع في هذه النُّقَيْرَة.

وناسب لفظ (الفتيل) سياق كلِّ آية من آياتها الثَّلاث، وذلك من وجهين:

الأول: أنَّ الفتيل ملتفٌّ حول نفسه بامتداد شقِّ النَّواة، وهذا مناسب لنظر المزكِّي لنفسه، فإن كان له حقٌّ - ولو بمقدار الفتيل - لن يُنقصَه، وكذا من أخذ من متاع الدُّنيا القليل، ولبس لباس التَّقوى، لن يُظلم حقُّه، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، وكذا مَن أوتي كتابه بيمينه يوم القيامة يقرؤون كتابهم، ولا يظلمون شيئًا، ولو بمقدار الفتيل، وما أشبهه بالكتاب الملفوف.

والآخر: مناسبة ذكر الفتيل في نفي الظُّلم عمَّن هو في الدُّنيا أو في الطَّريق إلى الآخرة؛ لما في الفتيل من معنى الامتداد في شَقِّ النَّواة، ومناسبة ذكر النَّقير في نفي الظُّلم عمَّن يدخلون الجنَّة؛ لما في أعمالهم من أثرٍ دائم؛ إذْ إنَّهم صاروا في دار التَّشريف لا التَّكليف.

وقد يكون الفتيل مثلًا ضُرِب للشَّيء القليل مِمَّا يوزن، ولو بقدر هذا الفتيل الخفيف اللَّطيف؛ ولذا فسَّره كثيرٌ منهم[1] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النِّساء: 40].

(1) كأبي حيان، في البحر المحيط: 3/673.

كما ناسب لفظ القطمير سياقَ الآية الكريمة من وجهين:

أوَّلهما: أنَّ القطمير هو الأنسب للمثل المضروب في نفي امتلاك الأصنام شيئًا، حيث إنَّه يُمْكن فصْلُه عن النَّواة وحوزُه، وهو معنى المِلْك، ولا يُمكن فصل النَّقير عن نواته، كما يَصعب نزع الفتيل غالبًا، وسُمِّيَ بهذا الاسم؛ لأنَّه إذا أراد الإنسان استخراجَه؛ انفتل.

والآخر: أنَّ المُلْك كلَّه للّه، فكيف يعبدون أصنامًا لا تملك شيئًا، ولا تخلُق شيئًا، ولو بقدر الغِشاء الرَّقيق الَّذي حول النَّواة؟ وهذه اللُّفافة الرَّقيقة الَّتي خلقها اللّه، وجعلها حول النَّواة، بينها وبين الثَّمرة، كأنَّها كُسوة لها، وأمَّا الأصنام الَّتي مِن صُنْعهم يعبدونها من دون اللّه؛ فهي لا تملك ما تملكه تلك النَّواة المخلوقة للّه تعالى.

كما أنَّ ذكرَ القطمير مناسب لقدرة اللّه المطلقة، وعجز المخلوق عن خَلْق شيء، ولو قطميرًا، فناسب ذلك اسم السُّورة (فاطر)، كما ناسب أهدافها، من آثار القدرة الإلهيَّة، وآيات اللّه الكونيَّة؛ فهذه النَّواة من آيات اللّه الدَّالَّة على قدرته وحكمته وربوبيَّته.

وما أجملَ قولَ الشَّاعر[1]:

فيا عجبًا كَيْفَ يُعْصى الإلـ *** ـهُ أمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وللّهِ في كلِّ تحرِيكَةٍ *** وفي كـلِّ تَسكينَةٍ شاهِدُ
وَفِي كُـلِّ شَيءٍ لَـهُ آيَـةٌ *** تَـدُلُّ عَلَى أنَّهُ الْوَاحِـدُ

(1) نسبت إلى أبي العتاهية، من البحر المتقارب، وهي في ديوانه، ص: 45، وقد نسبت إلى لبيد بن ربيعة، وهي غير موجودة في ديوانه المطبوع.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: 125]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولمّا بيَّن تعالى أنَّ أمر النَّجاة منوطٌ بالعمل الصَّالح والإيمان معًا؛ ناسب هنا أن يتبعه ببيان درجة الكمال في ذلك، وهو الدِّين القيِّم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(1)، فليس أحد أحسن دينًا ممَّن أسلم وجهه للّه، فيخلص له التّوجُّه، واتَّبع ملّة إبراهيم، منحازًا إليها حنيفًا مائلًا عن الوثنيَّة أو ما شاكلها من دروب الإشراك وطرائقه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعَ﴾: جذر الكلمة هو: (تبع) التَّابع: التَّالي، ومنه التَّتبُّعُ والمتابعة، والاتِّباع، يتبَعه: يتلوه، والتَّتَبُّعُ: فعلك شيئًا بعد شيء، تقول: تتبَّعتُ علمه، أي: اتَّبعت آثاره، قال سيبويه: تَتَبَّعَه اتِّباعًا؛ لأنَّ (تَتَبَّعْت) في معنى: اتَّبَعت(2)، وقال القطَّامي:

وخيرُ الأمرِ ما استَقبَلْتَ مِنْهُ *** وَليس بأن تتبَّعه اتِّباعا(3)

وفي التَّنزيل: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: 89]، ومعناها: تبع، أي: لحق، وأدرك(4).

2) ﴿حَنِيفًاۗ﴾: جذر الكلمة هو: (حنف) الحَنَفُ: مَيْلٌ في صدر القدَم، ورجلٌ أَحْنَفُ، ورِجلٌ حَنْفاءُ، ويقال: تَحنَّفَ فلان إلى الشَّيء تحنُّفًا؛ إذا مال إليه، والحَنيفُ - في قولٍ - المُسلمُ الَّذي يستَقبِل قِبْلَةَ البَيت الحَرام على مِلَّةِ إبراهيم حَنيفًا مُسْلِمًا(5)، والقول الآخر: الحنيفُ كلُّ من أسْلَمَ في أمر اللّه، فلم يلتوِ في شيءٍ منه، وأحَبُّ الأديان إلى اللّهِ الحَنيفيَّة السَّمْحة، وهي مِلَّة النَّبيِّ ﷺ لا ضيقٌ فيها ولا حرج(6).

(1) رضا، تفسير المنار: 5/375.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/82، وفيه: "لأنَّ تَتَبَّعْتُ واتَّبَعْتُ في المعنى واحدٌ".
(3) الدّينوري، الشّعر والشّعراء: 2/714.
(4) ابن سيده، المُحكم: (تبع). وهي قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والزّمخشري، أساس البلاغة: (تبع).
(6) الخليل، العين: (تبع).

3) ﴿خَلِيلًا﴾: جذر الكلمة هو: (خلل)، واخْتُلَّ إلى فلانٍ، أي: احتيج إليه، من الخَلَّة، وهي الحاجة، والخَلَّةُ: الخَصْلَةُ، والخِلُّ: الرَّجلُ الخليل[1]، والخِلُّ والخَليل وَاحِد، وَكَذَلِكَ الخلَّة أَيْضًا، والخُلَّة: المَوَدَّة[2]، والخليل في كلام العرب: الصَّاحب الملازم الَّذي لا يخفى عنه شيء من أمور صاحبه، مشتقٌّ من الخِلال، وهو النَّواحي المتخلِّلة للمكان، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف: 33]، هذا أظهر الوجوه في اشتقاق الخليل، وتطلق الخُلَّة - بضمِّ الخاء - على الصُّحبة الخالصة، قال تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: 254].

المعنى العامُّ للآية:

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ومن أحسن دينًا: أحكم دينًا، دلَّ على الدِّين المقبول عند الله تعالى، ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوَّض أمره إلى الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: موحِّد، فتوجَّه إلى الله، ولم يتوجَّه إلى غيره، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، يعني: دين إبراهيم عليه السلام، حنيفًا: مسلمًا مخلصًا، قال ابن عبَّاس: ومن دين إبراهيم: الصَّلاة إلى الكعبة، والطَّواف بها، ومناسك الحجِّ، وإنما خصَّ بها إبراهيم؛ لأنَّه كان مقبولًا عند الأمم أجمع، وقيل: لأنَّه بعث على ملَّة إبراهيم، وزيدت له أشياء[3]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: صفيًّا، والخُلَّة: صفاء المودَّة، أي: اصطفاه لتوحيده وإقامة دينه، وكان كامل الحُبِّ لله، وقد تخلَّل ذلك الحُبُّ روحَه؛ ولذلك عادى أباه وقومه في حبِّه تعالى والإخلاص له، وقيل: المعنى: أنَّه خصَّه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾:

الواو: استئنافيَّة، "لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ الجنَّة لمن يعمل من الصَّالحات، وهو مؤمن؛

---

(1) الخليل، العين: (خلل).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلل).

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/705.

(4) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/132 - 133.

استئنافيَّة شرحًا للإيمان وبيان فضله

شرح الإيمان، وبيَّن فضلَه، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾، يعني: ومن أحكم دينًا"[1].

"والأظهر أنَّ الواو للحال من ضمير يدخلون الجنَّة الَّذي (ماصَدَقُهُ)[2] المؤمنون الصَّالحون، فلمَّا ذكر ثواب المؤمنين؛ أعقبه بتفضيل دينهم"[3].

الإيجاز بالقصر في الآية الكريمة:

جمعت المقاصد والأغراض في الاعتقاد والعمل

حيث عبّرت الآية الكريمة عن دين الإسلام تعبيرًا مختصرًا، ولكنَّه يشمل كلَّ ما فيه، فهو مبنيٌّ على أمرين: الاعتقاد والعمل، أمَّا الاعتقاد؛ فإليه الإشارة بقوله: ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾؛ لأنَّ الإسلام هو الانقياد والخضوع، والوجه أحسن أعضاء الإنسان، فالإنسان إذا عرف بقلبه ربَّه، وأقرَّ بربوبيَّته وبعبوديَّة نفسِه؛ فقد أسلم وجهه لله، وأمَّا العمل؛ فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾، ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السَّيِّئات، فتأمَّلْ في هذه اللَّفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض[4].

فقد اشتملت هذه الكلمات العشر على الدِّين كلِّه أصلًا وفرعًا مع التَّرغيب بالمدح الكامل لمتَّبعه، وإفهام الذَّمِّ الكامل لغيره[5]، وهذا من جميل الإيجاز في الآية الكريمة.

جناس الاشتقاق بين ﴿أَحۡسَنُ﴾ و﴿مُحۡسِنٞ﴾:

للحُسْنِ والإحسان جوهر واحد يدور فلكه حول الإيمان

جناس الاشتقاق أو التَّجنيس المغاير[6] في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾، وفائدة هذا الاشتقاق: بيان أنَّ الإحسان يؤدِّي

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/431.
(2) الماصدق عِنْد المناطقة: الْأَفْرَاد الَّتِي يتَحَقَّق فِيهَا معنى الْكُلِّيّ، المعجم الوسيط: باب الصاد.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/210.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/45.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/413.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

إلى أحسن الدِّين بعد إسلام الوجه للّه، فيكون الإحسان هنا: حسن الأخلاق ومكارمها، وأنَّ الأخلاق الَّتي منبعها الإسلام هي شطر الدِّين، ومن ذلك قوله ﷺ: "إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ؛ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا؛ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَرِيضٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟[1] قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ؛ فَأَنْكِحُوهُ، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"[2]، فالدِّين والأخلاق متلازمان للأمثل من الأحوال ممَّن استحقَّ المدح من اللّه، والتّشريف بأحسن السُّبل الَّتي يمكن أن يختارها الإنسان.

الاستفهام الإنكاريُّ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾:

مدح من فعل ذلك على أتمِّ وجه

والاستفهام إنكاريٌّ، وهو في معنى النَّفي، والمقصود مدح من فعل ذلك على أتمِّ وجه،[3]، فلمَّا ذكر ثواب المؤمنين؛ أعقبه بتفضيل دينهم، فقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾، ويدلُّ على استبعاد أن يكون أحدٌ أحسن دينًا ممَّن ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾، وفي هذا الاستفهام تنبيهٌ على أنَّ ذلك منتهى ما تبلغه القوَّة البشريَّة[4]، فذلك أسمى ما يمكن أن يحقِّقه الإنسان في صحَّة التَّديُّن والتَّعبُّد، ومع ذلك فهو ممكنٌ مُتاح لجميع النَّاس، أن يلتزموا هذا الأسلوب المُرغَّب فيه الَّذي مدحه اللّه تعالى في كتابه، فيكون الفرد على أتمِّ وجه وأكمله، كما جاءت بهم الرُّسل عليهم السلام.

الكناية في قوله: ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾:

نبّهث على شَرَفِ المَنبَع وفوزِ المُتّبِع

لمَّا كان المُرادُ الإخلاصَ الَّذي هو أشرف الأشياء، عبَّر عنه بالوجه الَّذي هو أشرف الأعضاء، فقال: ﴿وَجۡهَهُۥ﴾، أي: قياده، أي: الجهة الَّتي يتوجَّه إليها بوجهه، أي: قصده كلُّه الملازم للإسلام نفسه للّه،

(1) أَيْ: شَيْءٌ مِنْ قِلَّةِ المَالِ أَوْ عَدَمِ الْكَفَاءَةِ، ينظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي: 3/151.

(2) عبد الجبار، الجامع الصحيح للسُّنن والمسانيد: 34/374.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/148.

(4) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 2/99.

فلا حركة له، ولا سكنة إلَّا فيما يرضاه؛ لكونه الواحد الَّذي لا مثل له، فهو حصر بغير صيغة الحصر، فأفاد فساد طريق مَن لفت وجهه نحو سواه باستعانة أو غيرها[1].

وإسلام الوجه له تعالى: توجُّه القلب إليه، وعبَّر عنه به؛ لأنَّ الوجه أعظم مظهر لما في النَّفس من الإقبال أو الإعراض، والسُّرور أو الكآبة إلى نحو أولئك، وتوجيهه له: جعله يتوجه إليه وحده في طلب حاجته، وإخلاص عبوديَّته؛ إذ هو المستحقُّ للعبادة القادر على الأجر والثَّواب[2].

وإسلام الوجه كناية عن صفة تمام الطَّاعة والاعتراف بالعبوديَّة، وهو أحسن الكنايات؛ لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنسانًا، وفي القرآن ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: 20]، والعرب تذكِّر أشياء من هذا القبيل كقوله: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥﴾ [العلق: 15]، ويقولون: أخذ بساقه[3]، أي: تمكَّن منه، وكأنَّه تمثيل لإمساك الرُّعاة الأنعام، ويقولون: ألقى إليه القياد، وألقى إليه الزِّمام، وقال زيد بن عمرو بن نفيل: يقول: أنفي لك عانٍ راغم، ويقولون: يدي رهْن لفلان، وأراد بإسلام الوجه الاعتراف بوجود اللّٰه ووحدانيَّته[4].

وخصَّ الوجه بالإسلام للّٰه تعالى؛ لِمَا يشتمل عليه من السّمع والبصر والتَّذوُّق والشّمِّ، فهو مجمع الحواسِّ، وهو بمنزلة المقود للإنسان، فإذا أسلم هذا العضو؛ فبقيَّة الأعضاء تبع له ومنقادة لأوامره ونواهيه، وهذا من أسرار البلاغة والبيان والدِّقَّة المتناهية في التَّعبير القرآنيِّ الكريم[5].

دلالة التَّقييد في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾:

ولمَّا كان هذا ينتظم مَن كان على دين أيِّ نبيٍّ كان قبل نسخه؛ قيَّده بقوله: (واتَّبع) أي: بجهد منه ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الَّذي اشتهر عند جميع الطَّوائف أنَّه ما دعا إلَّا إلى اللّٰه ﷻ وحدَه، وتبرَّأ ممَّا سواه من فلك وكوكب وصنم وطبيعة وغيرهم، قال تعالى: ﴿إِنِّي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/323.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/426.

(3) وفي الحديث: «يَا أَيُّهَا النَّاس، مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَه، ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ»، أي: الطَّلاق حقُّ الزَّوج الَّذي له أن يأخذ بساق المرأة لا حقُّ المولى، ينظر: ابن ماجه، سُنن ابن ماجه، الحديث رقم: (2081): 1/672.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/210.

(5) صافي، الجدول: 5/184.

وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [الأنعام: 79]، حال كون ذلك المتَّبع ﴿حَنِيفًاۖ﴾ أي: ليِّنًا سهلًا ميَّالًا مع الدَّليل، والمِلَّة: ما دعت إليه الفطرة الأولى بمساعدة العقل السَّليم من كمال الإسلام بالتَّوحيد[1]، ويحتجُّ بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ﴾ من يرى شرعه لازمًا لنا؛ ما لم يرد ناسخٌ في شرعنا[2].

بذل الجهد وصرف الطَّاقة للوصول إلى الحقِّ

التَّرقِّي وتصعيد المعاني في قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾:

الإحسان هو أرقى درجات الإيمان

قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الواو للحال، والجملة حاليَّة، من الضَّمير المستتر في (أسلَمَ)، وقُصِد منها اتِّصافُه بالإحسان حين إسلامِه وجهَه لله، أي: خلع الشِّرك قاصدًا الإحسان، أي: راغبًا في الإسلام؛ لما رأى فيه من الدَّعوة إلى الإحسان، وقد ذكر قبل ذلك في الآية السَّابقة جملة حاليَّة مثلَها، وهو قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وصاحب الحال هو الضَّمير المستتر في ﴿يَعْمَلْ﴾، وقد ترَقَّى من الإيمان إلى الإحسان؛ للتَّنبُّه على أنَّه في أعلى درجات الإيمان، والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنَّه يراك.

ثُمَّ الترقِّي إلى الاتِّباع، فهو ترقٍّ تصعيديٌّ، يدلُّ على كمال الدِّين، وشموله كلَّ ما يُصلِح الحياة، ولعلَّ هذا النَّوع من التَّرقِّي نادر مهمٌّ.

ومعنى ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ﴾: أنَّه اتَّبَعَ شريعة الإسلام الَّتي هي على أسس ملَّة إبراهيم، فهذه ثلاثة أوصاف، بها يكمل معنى الدُّخول في الإسلام، ولعلَّها هي: الإيمان، والإحسان، والإسلام، ولك أن تجعل معنى أسلم وجهه لله: أنَّه دخل في الإسلام، وأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مخلص راغب في الخير، وأنَّ اتِّباع ملَّةِ إبراهيم عُني به التَّوحيد[3]، وهذا الفهم يفيد التَّرقِّي أيضًا.

(1) صافي، الجدول: 5/413.
(2) السّيوطيّ، الإكليل: 101.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/211.

وتقدَّم أنَّ حنيفًا معناه: مائلٌ عن الشِّرك أو متعبِّدٌ، يقال: حنف في الطَّريق؛ إذا استقام عليه، فكلُّ من سلك طريق الاستقامة؛ فهو حنيف(1).

العدول عن (مستقيمًا) إلى ﴿حَنِيفًاۗ﴾:

إبــــراز دور مجاهدة النَّفس

قوله: ﴿حَنِيفًاۗ﴾، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة كلِّها: من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والوثنيَّة إلى الدِّين الحقِّ السَّمح الَّذي هو التَّوحيد، وهو حال من المضاف إليه، وهو إبراهيم، فيكون الفعل دالًّا على مجاهدة النَّفس، وكفِّ نشاطها عن الميل والإصغاء إلى الشَّيطان ووسوسته.

كما أنَّ وصفه بالحنيفيَّة يدلُّ على عِظَم مكانة التَّخلِّي قبل التَّحَلِّي، فقد نشأ إبراهيم في بيئة تصنع الأصنام، وتعبدها، وموافقة الرُّشد الَّذي آتاه اللّه إيَّاه مع الفطرة السَّليمة الممنوحة له ولغيره، وكذلك حال كلِّ مؤمن يقتدي بإبراهيم عليه السلام أنَّه يكون حنيفًا، متجدِّد الميل، مستمرَّ المُتابعة للنَّفس، أمّا "مستقيمًا"؛ فإنَّ الاستقامة هي استقامة الدِّين، وأنَّ المؤمن يخطو خطوات مرسومة له في خطوات الدِّين وتشريعاته وحدوده، فيذهب إبراز دور النَّفس هنا، والمُجاهدة والتَّفاعل مع المُغريات، ورفضها والميل عنها.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ عطف ثناء إبراهيم على مدح من اتَّبع دينَه زيادةَ تنويه بدين إبراهيم، فأخبر أنَّ اللّه اتَّخذ إبراهيمَ خَلِيلًا(2).

الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

لتفخيم شأنه، والتَّنصيص على أنَّه الممدوح

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، إظهار في موضع الإضمار، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ ولم يقل: اتّخذه اللّه خليلًا، على

(1) أبو الحسن القيرواني، النُّكت في القرآن: 193.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/211.

أنَّ المراد بالخليل لازم معنى الخُلَّة، وليست هي كخُلَّة النَّاس مُقتضية المساواة أو التَّفضيل.

وإظهاره - عليه السلام - في موضع الإضمار؛ لتفخيم شأنه، والتَّنصيص على أنَّه الممدوح[1]، والتَّصريح بالمقصود، والاحتراس من الإبهام، ولإعلاء قدره، والتَّنويه بذكره[2].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

التَّرغيب في اتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام

ولمَّا كان التقدير ترغيبًا في هذا الاتِّباع، فقد جعل اللّه سبحانه وتعالى مِلَّة إبراهيم أحسن الملل، وخلقه يوم خلقه حنيفًا؛ عطف عليه قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾، أي: الملك الأعظم أخذ من معين بذلك مجتهد فيه ﴿إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾؛ لكونه كان حنيفًا، فالجملة كُلُّها كناية عن التَّرغيب في اتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام.

والمراد بالخليل في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النِّساء: 125] مجاز عن اصطفائه، واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله[3]، والجمهور: على أنَّها من الخُلَّة، وهي المودَّة الَّتي ليس فيها خلل[4].

أو المراد منها الكناية عن عبوديَّة إبراهيم في جملة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فأطلق الخليل، وأريد لازم معنى الخُلَّة، وليست هي كخلَّة النَّاس مقتضية المساواة أو التَّفضيل[5].

نوع الجملة ودلالتها في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

اعـتراضـيَّـة؛ لتأكيد وجوب اتِّباع مِلَّته

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ هي جملة اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب، كنحو ما يجيء في الشِّعر من قولهم: والحوادث

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/236.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/414.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/569.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/77.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/264.

جَمَّةٌ[1]، وفائدتها: تأكيد وجوب اتِّباع مِلَّته؛ لأنَّ من بلغ من الزُّلفى عند اللّه أن اتَّخذه خليلًا؛ كان جديرًا بأن تُتَّبع مِلَّته وطريقتُه[2].

مناسبة التَّذييل في الآية الكريمة:

التَّرغيب العظيم في هذا الدِّين

جاء قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ تذييلًا للآية الكريمة، وفيها أنَّه لَمَّا ذكر مِلَّة إبراهيم، ووصفه بكونه حنيفًا، ثم قال عَقِيبَه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أشعر هذا بأنَّه سبحانه إنَّما اتَّخذه خليلًا؛ لأنَّه كان عالمًا بذلك الشَّرع آتيًا بتلك التَّكاليف، وممَّا يؤكِّد هذا قوله: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: 124]، وهذا يدلُّ على أنَّه سبحانه إنَّما جعله إمامًا للخلق؛ لأنَّه قد أتمَّ تلك الكلمات.

وإذا ثبت هذا؛ فنقول: لَمَّا دلَّت الآية على أنَّ إبراهيم عليه السلام إنَّما كان بهذا المنصب العالي، وهو كونه خليلًا للّه تعالى بسبب أنَّه كان عاملًا بتلك الشَّريعة؛ كان هذا تنبيهًا على أنَّ من عمل بهذا الشَّرع لا بدَّ أن يفوز بأعظم المناصب في الدِّين، وذلك يفيد التَّرغيب العظيم في هذا الدِّين[3]، فالتَّذييل جيء به للتَّرغيب في اتِّباع مِلَّته عليه السلام، والإيذان بأنَّه نهاية في الحُسن[4].

---

(1) وردت هذه الجملة كثيرًا في الشِّعر، ومنه قول كُثَيِّر عزَّة:

فَيَا لَيْتَ شِعْري والحَوَادِثُ جَمّةٌ *** مَتَى تَجْمَعُ الأيَّامُ يوماً بها شَملا

وهو من البحر الطويل، وهو في ديوانه، ص: 125، قوله: والحوادث جَمَّة، أي: كثيرة، جملة اعتراضيَّة.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/602.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/46.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/148.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أوعد المشركين بعذاب النَّار خالدين فيها، ووعد المؤمنين بالنَّعيم الدَّائم في الجنان خالدين فيها؛ ناسب هنا أن يُذكِّر بقدرته سبحانه على إنجاز وعده ووعيده، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي شبهة المناسبة أو المقاربة في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡءٖ﴾: جذر الكلمة هو (شيأ)، الشَّيء: قيل: هو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَر عنه كثير من المتكلِّمين، هو اسم مشترك المعنى؛ إذ استُعمل في الله وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وهو عبارة عن الموجود، وأصله: مصدر شاء، وإذا وُصف به تعالى؛ فمعناه (شاء)، وإذا وصف به غيره؛ فمعناه: المَشِيءُ، وعلى الثَّاني قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والشيء هنا بمعنى: المفعول، وقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [الأنعام: 19]، فهو بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14][1].

2) ﴿مُّحِيطٗا﴾: جذر الكلمة هو: (حوط)، حاط يَحُوطُ، والاسم: الحِيطة، يقال: حاطَهُ حيطةً؛ إذا تعاهده[2]، والحائط الجدار الَّذي يحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحطَّ بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصِّلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته، وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلا أن تُمنعوا، والثَّاني: في العلم نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، والإحاطة بالشَّيء علمًا هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيَّته وعرضه المقصودَ به، وبإيجاده وما يكون به ومنه وذلك ليس إلَّا لله تعالى[3].

(1) الراغب، المفردات: (شيأ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حوط).
(3) الراغب، المفردات: (حوط).

❁ المعنى العامُّ للآية:

ختمت الآيات السَّابقة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾؛ للتَّذكير بقدرته على إنجاز وعده ووعيده، في الآيات الَّتي قبلها، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي ما ربَّما يسبق إلى الأذهان من اللَّوازم العادية، في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا، كأن يتوهَّم أحد أنَّ هنالك شيئًا من المناسبة أو المُقاربة، فبيّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السّموات والأرض ملكٌ له ومن خلقه[1]، وهو مع ذلك قادر على ما يريد من إقرار وتبديل، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّـهُ﴾، أي: المَلِك الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾، أي: منهما ومن غيرهما ﴿مُّحِيطًا﴾ علمًا وقدرة، فمهما زاد؛ كان في وعده ووعيده للمطيع والعاصي، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعجزه شيء[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾:

الكونُ كلُّه لله تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصَرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها

من الأمور الدَّاخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكِّنة فيهما من أولي العلم وغيرهم، أي: كلُّها له تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها بوجه من الوجوه[3]، أي: كلُّها مِلك له تعالى، ومختصَّة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحدٍ أن يقول: المال مالي أتصرَّف به كيف شئتُ[4].

وتقديم اسم الجلالة المجرور باللَّام مفيد للقصر، أي: له لا لغيره، فيفيد قصرها على كونها للّه لا لغيره، من باب قصر الصِّفة على الموصوف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾:

تغليب غير العقلاء على العقلاء، وتقرير لكمال قدرته تعالى

وعبَّر بـ﴿مَا﴾ - وإن كان ثَمَّ من يعقل - لأنَّ الغالب إنَّما هو جماد،

(1) رضا، تفسير المنار: 5/395.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/272.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/62.

ويقلُّ من يعقل من حيث قلَّةُ أجناسه؛ إذْ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجنٌّ، وأجناس الآخرين كثيرة[1].

وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاء على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيان لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا[2].

طباق الشُّمول في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

الإحاطة بما في السّموات وما في الأرض

لَمَّا أخبر بمن يحبُّه، ومن يبغضه، وبما يرضيه، وما يغضبه، وكان ربَّما توهَّم عدم القدرة على أخذه لغير ما أخذ، وجعله لغير ما جعل، أو تعنَّت بذلك متعنِّت، فظنَّ أنَّ في الكلام دخلًا بنوع احتياج إلى المحالة أو غيرها؛ قال: ﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: والحال أنَّه للمختصِّ بالوحدانيَّة، فلا كفُوء له، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمَّا كان السِّياق للمنافقين والمشركين؛ أكَّد، فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ من إبراهيم -عليه السلام- ومن غيره إشارة إلى أنَّه التامُّ المُلك العظيم المِلك، فلا يعطي إلَّا من تابع أولياءه، وجانب أعداءه، ولا يختار إلَّا من علمه خيارًا[3]، والعبارة طباق بين السّموات والأرض، تدلُّ على السِّعة والشُّمول، فإنَّه سبحانه له كلُّ شيء، وهو خالقه.

التَّذييل في الآية الكريمة:

العالَم مملوك لله، وعلى المملوك طاعة مالكه

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ تذييل لما قبلها؛ فقد حملت التَّبكيت للَّذين ادَّعوا الخيريَّة والأفضليَّة عند اللَّه سبحانه، وما قدروا اللَّه حقَّ قدره؛ إذ إنَّ للَّه ما في السَّموات وما في الأرض، وأنَّه سبحانه محيط بكلِّ شيء، فلا يغيب عن علمه أمر، فلمَّا تقدَّم ذكر عامل السُّوء وعامل

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/389.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/414.

الصَّالحات؛ أخبر بعظيم مُلكه ومِلكه بجميع ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالم مملوك له، وعلى المملوك طاعة مالكه، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لما ذكرناه، ولما تقدَّم ذكر الخلَّة؛ فذكر أنَّه مع الخلَّة عبد اللّه، وأنَّ الخلَّة ليست لاحتياج، وإنَّما هي خلَّة تشريف منه تعالى لإبراهيم - عليه السلام - مع بقائه على العبوديَّة[1].

التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾:

تقرير مضمون امتلاك الله تعالى للكون كلّه

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله؛ فقد أحاط سبحانه كلّ شيء علمًا، وأحاطت قدرته بكلِّ شيء تسييرًا لأقدارها، وضمانًا لأحوالها، فلا يخرج شيء عن إرادته أو عن اختياره، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ سبحانه، فهو سبحانه يخلق، ويُبدع، ويُعلِّم، "وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسَّموات، وقهر بعزِّه وقهره كلَّ مخلوق، ودانت له جميع الأشياء"[2].

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

عموم الإحاطة بكلِّ شيء

كلمة (كلِّ) الدّالَّة على العموم والإحاطة، وأكَّد ذلك، وعمَّق معناه: كلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ بمدلولها وتنكيرها، فمقتضى القدرة المُطلقة أن يكون كلُّ شيء في محطِّ قدرته وعلمه سبحانه.

الاستعارة في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾

وفي: ﴿مُّحِيطٗا﴾ عبَّر به عن العلم بالشَّيء من جميع جهاته، والحذف في عدَّة مواضع[3]، فشبَّه العلم بالإحاطة، وهي استعارة مكنيَّة، وفائدتها: بيان سعة علمه، وأنَّه حائز على كلِّ الأثر في الحياة، وأن لا شيء يخرج عن دائرة حكمته سبحانه.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

(2) السّعدي، تفسير الكريم الرحمن: 1/206.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النِّساء: 127]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قال الإمام الرَّازيُّ في بيان صلة هذه الآية بما قبلها:

"اعلم أنَّ عادة الله تعالى في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أن يذكر شيئًا من الأحكام، ثُمَّ يذكر عَقِيبَه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آيات دالَّةً على كبرياء الله وجلال قدرته، ثم يعود مرَّة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع التَّرتيب وأقربها إلى التَّأثير في القلوب؛ لأنَّ التَّكاليف بالأعمال الشَّاقَّة لا يقع في موقع القبول، إلَّا إذا كان مقرونًا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثِّر في القلب، إلَّا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أنَّ هذا التَّرتيب أحسن التَّرتيبات اللَّائقة بالدَّعوة إلى الحقِّ.

إذا عرفت هذا؛ فنقول: إنَّه سبحانه ذكر في أوَّل هذه السُّورة أنواعًا كثيرة من الشَّرائع والتَّكاليف، ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين، واستقصى في ذلك، ثُمَّ ختم تلك الآيات الدَّالَّة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ إلى آخر الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: جذر الكلمة هو (فتي)، والفُتيا والفتوى: الجواب عمّا يشكل من الأحكام، ويقال: استفتيته فأفتاني بكذا، قال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ [الصّافات: 11]،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/233.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ [الصَّافات: 149]، وقوله: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ [النَّمل: 32][1]، وأفتاه في الأمر: أبانه له، والفتيا والفتوى: ما أفتى به الفقيه[2]، وأصل فَتْوَى: فتيا، الْيَاء مَقْلُوبَة عَن الْوَاو للخفَّة، وأفتى يُفْتِي إِفْتَاء واستفتى يستفتي استفتاء، والإفتاء: تَبْيِين الْمُبْهم، والاستفتاء: السُّؤَال من الإفتاء[3].

2) ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾: جذر الكلمة هو: (رغب)، تقول: إنَّه لوَهُوبٌ لكلِّ رَغيبةٍ، أي: مَرْغُوب فيها، وجمعها: رَغائِبُ، ورَغِبَ رَغْبةً ورَغْبَى على قياس شكوى، ورجل رغيبٌ: واسع الجوفِ أكولٌ، وقد رَغُبَ رَغابةً ورُغْبًا[4]، وأصل الرّغبة: السّعة في الشَّيء، يُقال: رَغُبَ الشَّيءُ: اتَّسع، وحوض رغيب، والرَّغبة والرَّغبُ والرَّغبى: السّعة في الإرادة، قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التَّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه؛ اقتضى صرف الرَّغبة عنه والزُّهد فيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130].

3) ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: جذر الكلمة هو (ضعف)، ضَعُفَ يضعُفُ ضَعْفًا وضُعْفًا: خلاف القوّة، قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، ويقال: الضَّعْفُ في العقل والرَّأي، والضُّعْفُ في الجسد، ويقال: هما لغتان جائزتان في كلِّ وجهٍ، تقول: رأيت به ضَعْفًا، وفَعَلَ ذاك من ضُعْفٍ شديد[5]، ورجل مضعوف: ضعيف الرَّأي، وقد ضعف ضعفًا[6]، والضّعف قد يكون في النَّفس وفي البدن وفي الحال[7]، قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: 66]، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [القصص: 5].

4) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: جذر الكلمة هو: (قسط)، والإقْساطُ: العدل في القِسمة والحُكم، وتقول: أَقسَطْتُ بينهم، وأَقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحصّة الَّتي تنوبه، وتقسَّطوا بينهم الشّيء، أي: اقتسموه بالتَّسوية، فكلُّ مقدارٍ قَسْطٌ في كلِّ شيء، والقِسطاسُ والقُسطاسُ:

---

(1) الراغب، المفردات: (فتي).
(2) ابن سيده، المحكم: (فتي).
(3) الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 3/12.
(4) الخليل، العين: (رغب).
(5) الخليل، العين: (ضعف).
(6) الزَّمخشري، أساس البلاغة: (ضعف).
(7) الراغب، المفردات: (ضعف).

أقوم الموازين[1]، قَالَ اللّه تعَالَى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وَهُوَ من المَصادِرِ المَوْصُوفِ بهَا كالعَدْلِ، يُقال: مِيزانٌ قِسْطٌ ومِيزانانِ قِسْطٌ، ومَوازِينُ قِسْطٌ، يَسْتَوِي فيهِ الواحدُ والجَمِيعُ، وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، أَي: العَدْل، وَفي أَسْمَائِه تَعَالَى الحُسْنَى: المُقْسِطُ: هُوَ العادِلُ، ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ في القِسْمَة فَقَط، أَقْسَطْتُ بَينهم، وأَقْسَطْتُ إِليهم، فَفِي الحَدِيث: "إِذا حَكَمُوا؛ عَدَلُوا، وإِذا قَسَمُوا؛ أَقْسَطُوا" أَي: عَدَلُوا في القسمة[2].

❁ المعنى العامُّ للآية:

يُطلب النَّاس منك - أيُّها النَّبيُّ - أن تبيّن لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النِّساء وأحكامهن، قل: اللّه تعالى يبيِّن لكم أمورهنَّ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النِّساء اللَّاتي لا تعطونهنَّ ما فرض اللّه تعالى لهنَّ من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتحبُّون نكاحهنَّ، أو ترغبون عن نكاحهنَّ، ويبيِّن اللّه لكم أمر الضُّعفاء من الصِّغار، ووجوب القيام لليتامى - وهم الَّذين مات آباؤهم، وهم دون سنِّ البلوغ - بالعدل، وترْكِ الجور عليهم في حقوقهم، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، لا يخفى عليه شيء منه ولا من غيره[3].

وفي البخاريِّ عن عائشة ﵂ عن سبب نزول قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ الآية: "قالت: هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله، حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عموم التَّناسب بين الأحكام والوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب:

هذه الآية الكريمة أنموذج لما كان ﷻ قد رتَّب هذا الكتاب عليه من ذكر أحكام

(1) الخليل، العين: (قسط).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(3) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر: 98.
(4) البخاريّ، الحديث رقم: 4600.

أجدر بالتَّأثير في القلوب وأقرب إلى القبول

من الأصول والفروع، ثُمَّ يفصِّلها بوعد ووعيد وترغيب وترهيب، وينظِّمها بدلائل كبريائه وجلاله وعظيم برِّه وكماله، ثُمَّ يعود إلى بيان الأحكام على أبدع نظام؛ لأنَّ إلقاء المراد في ذلك القالب أقرب إلى القبول، والنَّظم كذلك، فالتَّكليف بالأعمال الشَّاقّة لا تنقاد له النُّفوس إلَّا إذا كان مقرونًا ببشارة ونذارة، وذلك لا يؤثِّر إلَّا عند القطع بغاية الكمال لمن صدر عنه ذلك المقال، ولا ينتقل مع ذلك من أسلوب إلى آخر إلَّا على غاية ما يكون من المناسبة بين آخر كلِّ نوع وأوَّل ما بعده بكمال التَّعلُّق لفظًا ومعنًى، وفعل ﷻ في هذه السُّورة في أحكام العدل الَّذي بدأ السُّورة به في المواصلة الَّتي مبناها النِّكاح والإرث وغير ذلك ممَّا اتَّصل به - كما بيّن - إلى أن ختم هنا بالإسلام المثمر لقبول ذلك[1].

نكتة ردِّ العجُز على الصّدر:

الاستعانة بالماضي في استشراف المستقبل

هذه الآية إشارة إلى ما مضى في صدر هذه السُّورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ [النِّساء: 4]، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النِّساء: 2]، وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية - تعني: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾- أوّلًا، ثُمَّ سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النِّساء، فنزلت: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾[2]، وهي من قبيل ردِّ العجز على الصَّدر؛ لما تضمَّنته من علاقة في المعنى وسبب النُّزول.

الإجمال في قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾:

الشُّمول في السُّؤال والفُتيا مؤشِّر قدرة التَّشريع على توحيد المجتمع

ومن الآيات المناظِرة قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، والاستفتاء ليس في ذوات النِّساء، وإنَّما هو عن شيء

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/83.

من أحكامهنَّ، ولم يبيِّن، فهو مجمل، ومعنى يفتيكم فيهن: يبيِّن لكم حال ما سألتم عنه وحكمه[1]، وفائدة هذا الإجمال: شمول النِّساء جميعًا وأحكامهنَّ.

تقديم المسند إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾:

تخصيصٌ له، وتكريمٌ للنِّساء

يأتي جواب هذا الاستفتاء في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، فجاء الأمر إلى رسول الله ﷺ بـ ﴿قُلِ﴾: إنَّ الله تعالى سيفتيكم فيهنَّ، فقدّم فيها المسند إليه لفظ الجلالة (الله)؛ تمييزًا وتخصيصًا له، وما ذاك إلَّا تكريمٌ للنِّساء ولشأنهنَّ، وتنبيهٌ للرِّجال إلى إعادة النَّظر فيما يفعلونه من غمط حقوقهنَّ والتَّجاوز عليهنَّ، فيظهر عِظَم هذا الأمر، فتقديم اسم الجلالة للتَّنويه بشأن هذه الفتيا[2]، ولمَّا كان المقام بكثرة الاستفتاء محتاجًا إلى زيادة الاعتناء؛ قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ آمرًا معبِّرًا بالاسم الأعظم منبِّهًا على استحضار ما ذكر أوَّل السُّورة ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾، أي: يبيِّن لكم حكمه ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: الآن لأن تقوموا لهنَّ بالقِسط[3].

وفي تقديم اسم الجلالة على الفعل المضارع عدول من الجملة الفعليَّة (يفتيكم الله) إلى الجملة الاسميَّة ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الثُّبوت والدَّوام هو الأنسب للمقام؛ لأنَّ الله هو الخالق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلك: 14]، فهو يعلم ما يَصلُح لخلقه، وما يُصلِح خلْقَه.

دلالة المضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾:

شـرعة الله شاملة متجدِّدة العطاء صالحة لكلِّ عَصْرٍ ومِصْر

مع إفادة تقديم اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ من تقوية حكم الإسناد، فقد حمل الفعل المضارع معنى: الوعد المستمرّ، ليرجع بالمؤمنين إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/417.

كتاب اللّه تعالى، في أحكام النِّساء الَّتي يسألون عنها، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ ليمتزج هذا الإكرام بجميع ما يُتلى على المؤمنين من آيات اللّه البيِّنات، فيستحضر عظيم شأن تلك الفُتيا، ودلالتها على الشُّمول لشؤون النِّساء كلِّها.

دلالات إعراب﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

وردت في إعراب ﴿وَمَا﴾ في الآية عدَّة وجوه:[1]

1- في محلِّ جرٍّ، معطوفة على الهاء في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، وأجاز الزمخشريُّ أن يكون مجرورًا على القسم، كأنَّه قيل: قل اللّه يفتيكم فيهنَّ، وأقسم بما يُتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضًا لمعنى التَّعظيم، وليس بسديد أن يعطف على المجرور في: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ لاختلاله من حيث اللَّفظ والمعنى.

وعلى هذا الوجه تظهر بلاغة إعرابها في دلالة القسم على التَّأكيد، وتعظيم ما يتلى عليهم.

2- مفعول به لفعل محذوف تقديره: ونبيِّن لكم ما يُتلى عليكم.

وفي إعرابه مفعولًا لفعل محذوف إشارة إلى وضوح الفتوى، وتجلية وجه إشكالها.

3- في موضع الرَّفع، وهو أقوى الوجوه، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: معطوفة على ضمير الفاعل في يفتيكم، أي: وكذلك يفتيكم الَّذي يُتلى عليكم، ويفتي بمعنى: يبيِّن، وإسناد الفُتيا لما يتلى على سبيل المجاز.

والثاني: معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، وهو بمعنى الوجه الأول.

والثالث: مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: وما يُتلى عليكم في الكتاب يبيِّن لكم.

وحُذف لدلالة ما قبله عليه، وعلى هذا التَّقدير يتعلَّق في الكتاب بقوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أو تكون في موضع الحال من الضَّمير في ﴿يُتۡلَىٰ﴾[2].

وعلى كلٍّ فإنَّ هذا التنوُّع في أوجه إعراب (ما) يُضفي ضوءًا على أثر الإعراب في فهم معاني القرآن الكريم، وعِظم إعجازه، وبلاغة إيجازه.

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569، وصافي، الجدول: 5/189.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿يُتۡلَىٰ﴾:

تجدُّد تلاوته، وتفعيل معانيه إلى قيام السّاعة

﴿وَمَا﴾، أي: مع ما ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: تتجدَّد فيكم تلاوته إلى آخر الدَّهر سيفًا قاطعًا وحكمًا ماضيًا جامعًا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: فيما سبق أوّل السُّورة في قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وغير ذلك ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: في شأن اليتامى من هذا الصِّنف ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ﴾، أي: بسبب التوقُّف في ذلك، وتكرير الاستفتاء عنه، وقد تكرَّرت صيغ المضارع في الآية، فقال: ﴿يُتۡلَىٰ﴾، و﴿تُؤۡتُونَهُنَّ﴾، ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾، و﴿تَقُومُواْ﴾، و﴿تَفۡعَلُواْ﴾.

الإسناد المجازيُّ في إسناد الإفتاء إلى التِّلاوة:

ما يُتلى من الكتاب بمنزلة إفتاء الله تعالى

وقوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ عطف على اسم الجلالة، أي: ويفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي: القرآن، وإسناد الإفتاء إلى ما يُتلى: إسناد مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاء الله، فهو سبب فيه، فآل المعنى إلى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، بما يُتلى عليكم في الكتاب، والمراد بذلك بما تُلي عليهم من أوَّل السُّورة، وما سيتلى بعد ذلك، فإنَّ التذكير به وتكريره إفتاء به مرَّة ثانية، وما أتبع به من الأحكام إفتاء أيضًا.

وضع المضارع موضع الماضي:

التَّراسل بين الماضي والحاضر يُسهم في تحقُّق المستقبل

قوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، فعلى ما قاله المفسِّرون وما نُقل عن عائشة؛ يكون ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾ و﴿يُتۡلَىٰ﴾ فيه وضع المضارع موضع الماضي؛ لأنَّ الإفتاء والتِّلاوة قد سبقت، وفي ذكر المُضارع هنا فائدة تجديد الانتباه إلى ما يُتلى في الكتاب في يتامى النِّساء.

دلالة لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأثره في المعنى:

حقوق اليتامى من عظائم الأمور

الكتاب بمعنى: القرآن[1]، وقيل: المراد بالكتاب اللَّوح المحفوظ؛ تعظيمًا للمتلوِّ عليهم، وأنَّ العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدَّرجات عند اللّه، الَّتي يجب مراعاتها والمحافظة عليها، والمخلُّ ظالم متهاون بما عظَّمه اللّه.

إضافة الخاصّ إلى العامِّ:

الإشـــارة إلى أهمِّيَّة قضايا النِّساء لاسيَّما اليتامى

والإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ من باب إضافة الخاصِّ إلى العامِّ؛ لأنَّ النِّساء ينقسمن إلى: يتامى وغير يتامى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: الإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ هي بمعنى: إضافة الشَّيء إلى جنسه[3]، وفائدة ذلك: توجيه النَّظر إلى مسائل اليتامى من النِّساء، مع الإشارة إلى أهمِّيّة قضايا النِّساء جميعًا.

ويجوز الفصل وإتباع الجنس لما قبله، والَّذي يظهر في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنَّها إضافة على معنى اللّام، ومعنى اللَّام: الاختصاص.

قراءة شاذة في قوله تعالى ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

قرأ أبو عبد اللّه المدنيُّ: في (ييامى النِّساء) بياءين[4]، وخرَّجه ابن جِنِّي على أنَّ الأصل: أيامى، فأبدل من الهمزة ياء، كقولهم: باهلة بن يعصر، وإنَّما هو ابن أعصر[5]، و(أيامى) جمع: أيِّم، على وزن (فَعِيل)، وهو مِمَّا اختصَّ به المعتلُّ، وأصله: أيايم كَسَيَايد جمع: سَيِّد، قُلبت اللَّام موضع العين، فجاء أيامى، فأبدل من الكسرة فتحة، انقلبت الياء ألفًا لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، وقال ابن جنِّي:

(1) السِّيوطيّ، معترك الأقران: 3/265.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/84.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.
(4) هي قراءة شاذة، قرأ بها الضَّبِّيُّ عن أبي عبد الله المدنّي، كما في ابن خالويه، المختصر، ص: 29، وابن جنِّي، المحتسب: 1/200.
(5) ابن جنِّي، المحتسب: 1/200.

ولو قال قائل: كسر أيِّم على أَيِّمَى على وزن سَكْرَى، ثم كسر أَيِّمَى على أَيَامَى؛ لكان وجهًا حسنًا[1].

ويظهر أثر هذه القراءة في معنى الآية الكريمة، حيث إنَّها من جذر آخر، وهو (أيِّم) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النُّور: 32]، والأيِّم من النِّساء: الَّتي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيِّبًا، وهي أوسع دائرة من ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

بلاغة الكلام المُوجَّه:

وصف الواقع، وردع الظَّالم، وتعظيم حقِّ النِّساء

في هذه الآية الكلام الموجَّه: وهو الَّذي يحتمل معنيين متضادَّين، وذلك في قوله: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، فهنَّ إمَّا جميلات أو دميمات، حسب تقدير حرف الجرِّ المحذوف: (في) أو (عن)[2]، قال أبو عبيدة: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، هذا اللَّفظ يحتمل الرَّغبة والنُّفرة: فالمعنى في الرَّغبة: في أن تنكحوهنَّ لمالهنّ أو لجمالهنَّ، والنُّفرة: ترغبون عن أن تنكحوهنّ لقبحهنَّ، فتمسكوهنَّ رغبةً في أموالهنَّ، والأوَّل قول عائشة - رضي الله عنها - وجماعة، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأخذ النَّاس بالدَّرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الوليَّ عن وليَّته، فقيل: هي غنيَّة جميلة؛ قال له: اطلب لها من هو خيرٌ منك، وأعْوَدُ عليها بالنَّفع، وإذا قيل: هي دميمة فقيرة؛ قال له: أنت أولى بها، وبالسَّتر عليها من غيرك، و﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ معطوف على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والَّذي تُلي فيهم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 11] الآية، وذلك أنَّ العرب كانت لا تورِّث الصَّبيَّة ولا الصَّبيَّ الصَّغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنَّما يرث من يحمي الحوزة، ويردُّ الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض اللّٰه تعالى لكلِّ واحد حقَّه[3].

---

(1) ابن جني، المحتسب: 1/200.

(2) صافي، الجدول: 5/181.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

ويجوز أن يكون خطابًا للأوصياء، كقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النِّساء: 2] وقيل: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هنا: العبيد والإماء[1].

بلاغة إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾:

جـبْرُ الخـاطر، وتهذيب النَّافر

هذه العبارة تضمَّنت على إيجاز حذف، فتقدير المعنى: وترغبون عن أن تنكحوهن[2]، وهو حرف (عن) مركَّب من حرفين، فلا ثِقل فيه من جهة اللَّفظ، ولكنَّه أثقل من الجبال على قلب اليتيمة من النِّساء؛ إذا سمعته، فراعى القرآن الكريم ذلك، فعدل عنه إلى المصدر المؤوَّل من (أن والفعل) الَّذي يحتمل معنى (في)؛ ليفتح باب الأمل، والتَّفاؤل لهنَّ؛ ولو احتمالًا، وفي الوقت ذاته فيه تهذيب لهذا النَّافر من نكاح اليتيمة؛ حتَّى لا يظلمَها بأكل حقِّها الماديِّ، أو بكسر خاطرها تصريحًا أو تلميحًا، مستندين على ما جاء في حديث السَّيِّدة عائشة ، قالت: "هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[3]، وفي هذا الحذف عدم ذكر الرَّغبة عنهُنَّ رأفة بهنَّ.

ولحذف حرف الجرِّ بعد ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ هنا موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهن، وفي نكاح البعض الآخر.

الاستعارة في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟﴾:

أهـمِّيَّة شـؤون هـؤلاء اليتامى من النِّساء

جعل الاستعداد النَّفسي والذِّهنيَّ والحرص على أداء الحقوق: كمن يقوم واقفًا متأهِّبًا مستعدًّا لأداء مهمَّة مفصليَّة، فذكر المشبَّه به، وحذف المشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدتها:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/195.
(3) البخاريّ، الحديث رقم: (4600).

إبانة أهمِّيَّة شؤون هؤلاء اليتامى من النِّساء، وجعل ذلك كفعل دائم مستمرٍّ لدلالة الفعل المضارع على التَّجدُّد والاستمرار.

ردُّ العجُز على الصّدر في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

التَّـهـويـل من ظلم اليتامى

قال: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾، وتوالت الآي بَعْدُ على هذا المعنى، فقدّم القِسط ليناسب ما ذكر[1]، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ هو في موضع جرٍّ عطفًا على ما قبله، أي: وفي أن تقوموا، والَّذي تُلي في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 2] إلى غير ذلك ممَّا ذُكِر في مال اليتيم، والقِسط: العدل، فتكون العبارة: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ من قبيل ردِّ العجز على الصّدر، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون منصوبًا بمعنى: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمَّة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم[2]، ولا يخلُّوا أحدًا يهتضمهم، ويحتمل أن يُرفع، ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ بالابتداء، وخبره محذوف، أي: خير لكم، وإذا أمكن حمله على غير حذف بكونه قد عطف على مجرور؛ كان أولى من إضمار ناصب، كما ذهب إليه الزَّمخشريُّ، ومن كونه مبتدأ قد حُذف خبره[3].

دلالة الاقتصار على فعل الخير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

الخير هو الذي رغَّب فيه

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ لمَّا تقدَّم ذكر النِّساء، ويتامى النِّساء، والمستضعفين من الولدان، والقيام بالقسط؛ عقَّب ذلك بأنَّه تعالى يعلم ما يفعل من الخير بسبب من ذكر، فيجازي عليه بالثَّواب الجزيل، واقتصر على ذكر فعل الخير؛

(1) السّيوطي، معترك الأقران: 3/142.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/570.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

لأنَّه هو الَّذي رغَّب فيه، وإن كان تعالى يعلم ما يفعل من خير ومن شرٍّ، ويجازي على ذلك بثوابه وعقابه[1]. فلمَّا كان التَّقدير: فما تفعلوا في ذلك من شرٍّ، فإنَّ اللّه كان به عليمًا وعليكم قديرًا؛ عطف عليه قوله ترغيبًا: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾، أي: في ذلك أو في غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، أي: فهو جدير - وهو أكرم الأكرمين وأحكم الحاكمين - بأن يعطي فاعله على حسب كرمه وعلوِّ قدره، فطيبوا نفسًا، وقرُّوا عينًا[2].

بلاغة التَّنكير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

تعميم أفعال الخير وتمييزها من غيرها

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾: جمع كلَّ أنواع الخير مهما تكن كثيرة، وحصرها في علم اللّه تعالى وإحاطته سبحانه، وفائدته: طمأنة العاملين أنَّ ما يفعلونه سيُجازَون به؛ لأنَّه - سبحانه - قد أودع أعمالهم في علمه، ثم ما في ذلك من جانب الكرامة لهم والتَّشريف لأعمال الخير أن جعلها اللّه في رعايته وعلمه.

فقوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ للتَّبعيض يدلُّ على القلَّة، فمهما يكن العمل قليلًا إلَّا أنَّ النِّيَّة فيه موجبة له الجزاء الحسن على حُسنه، أو السَّيِّئ على إساءته.

التَّقديم في قوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

الحثُّ على عمل الخير، والإعلام بأهميَّته مهما يكن

في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾: قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ للاهتمام، بما يقدِّمون من خير وترغيب فيه، وأصل الجملة: (كان عليمًا به)، وفائدة هذا التَّقديم الحثُّ على عمل الخير والانصراف عن أعمال السُّوء، فإنَّ كلَّ ما يقدِّمه الإنسان سيدخل في حيِّز العلم الإلهيِّ، فكان جديرًا بالنَّاس الحرص على متابعة النَّفس والأعمال، والقيام على ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/418.

ردُّ العجز على الصَّدر:

قد ألَّمت الآية بخلاصة ما تقدَّم من قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَـٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء: 6]، وكذلك أشارت هذه الآية إلى ما تقدَّم بقوله هنا: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فأشار إلى قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ [النِّساء: 3][1].

تأكيد المعاني المتقدِّمة

التَّكميل والإدماج:

كلُّهم ضُعَفاء، فألحقوا بالنِّساء

وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على يتامى النِّساء، وهو تكميل وإدماج؛ لأنَّ الاستفتاء كان في شأن النِّساء خاصَّة، والمراد المستضعفون والمستضعفات، ولكن صيغة التَّذكير تغليب، وكذلك الولدان، وقد كانوا في الجاهليَّة يأكلون أموال مَن في حجرهم من الصِّغار[2]، والنِّساء والمستضعفون والولدان جميعًا مشتركون في الضَّعف وقلَّة الحيلة.

حسن الانتقال في الآية الكريمة:

الالتئام والتَّوافق بين موضوعات الآية والعناية بها

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ ذِكْرُ الله تعالى، ثُمَّ انتقل إلى ذكر الكتاب، فقال: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ثم انتقل إلى فعل الخير، فقال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، وقد انسجم هذا الأسلوب مع معاملة النِّساء بالإحسان فضلًا عن إكرامهنَّ؛ لما في حسن الانتقال من الاستمرار على الكرم، والتَّنويع فيه، والتَّلطُّف في إكمال الخير حتَّى التَّمام.

التَّذييل في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

فعل الخير لا يفنى أثره، والله يضاعف لمن يشاء

فبعد أن رغَّب في فعل الخير فيما استفتوا فيه رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، ثُمَّ فصَّل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

أفعال الرِّجال مع يتامى النِّساء؛ ذيّل الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾؛ لبيان عظيم الجزاء الَّذي يجزيه اللّه تعالى عليه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يستفتونك) و(يسألونك):

الاستفتاء في موضوع يقتضي وجود قانون سابق في الموضوع نفسه، ولكن أُشكل على المستفتين أمره، فهم يطلبون الفَتوى، فجاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

أمَّا ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ [مثلا: البقرة: 189]؛ فذلك لأنَّ السُّؤال على خلاف الاستفتاء، لا يحتاج قبله إلى تشريع سابق، بل هو طلب لمعرفة قد تقتضي تشريعًا جديدًا.

والاستفتاء: طلب الفَتْوى أو الفُتْيَا، وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواصِّ، وفيه تبيين المُشْكِل، ولمَّا كان المسؤول عنه أمرًا محتاجًا إلى إعمالِ نظرٍ؛ أُطلق على الاستفهام عنه فعلُ الاستفتاء(1).

القسط والعدل:

إنَّ الْقِسْط هُوَ العدْل البيِّن الظَّاهِر، وَمِنْه سُمِّي الْمِكْيَال: قِسطًا، وَالْمِيزَان: قِسطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك الْعدْل في الْوَزْن، حَتَّى ترَاهُ ظَاهرًا، وَقد يكون من العدْل مَا يخفى، وَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ الْقِسْط: هُوَ النَّصِيب الَّذِي بُيِّنت وجوهُه(2).

وقد ناسب لفظ ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ دون (العدل)؛ لأنّ العدل عامٌّ، ويكون على الغالب مرتبطًا بين عموم النّاس، وفي شؤون حياتهم كلِّها، أمَّا القسط؛ فهو واقع في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلِّها؛ لتستمرَّ على ديمومتها، وهذا مثاله: القيُّوميَّة للّه تعالى على هذا الكون، فالقسط يحتاج إلى قيُّوميَّة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، فذكر ارتباط القسط بالقيام؛ للتَّرغيب في تحرِّي العدل، وإظهاره لليتامى؛ ليعرفوا حقوقهم، ولا يمنع الإقساط في ذلك من الإعلان عن استيفاء اليتامى حقوقَهم، حتَّى ينفي الرِّيبة عن نفسه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعقيبُ الإفتاء السَّابق بإفتاء لاحق يُجلِّي الأمر في حال التَّنافر والتَّباغُض

لَمَّا صار النَّاس يَتزوَّجون ذواتِ الأموالِ من اليتامى ويُضاجِرون بعضَهنَّ، عقَّبَ تعالى ذلك بالإفتاءِ في أحوالِ المشاقَقةِ بين الأزواج[1]، فهذه الآيةُ عَطفٌ لبقيَّةِ إفتاء اللّٰه تعالى؛ وهي من جُملة ما أخبَر اللّٰه تعالى أنَّه يفتيهم به في النِّساء ممَّا لم يتقدَّمْ ذِكرُه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعۡلِهَا﴾: زوجها؛ فالبَعْلُ هو الزّوجُ، يقُال: بَعَلَ يَبْعَلُ بَعْلًا وبُعولة فهو بَعْل، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ، وبَعْلُ الشَّيْء: سيِّدُه ومالكه، ويدلُّ على القوَّة؛ ولهذا سمِّيَ الذكر بعلًا لقوّتِه وفحولتِه؛ وذلك أنَّهم تَصوَّروا من بعل المرأة لَمَّا كان مستوليًا عليها ومستعليًا لقوّتِه أنَّه مالكُها القائم عليها[3].

2) ﴿نُشُوزًا﴾: بُغضًا وجفاء، من نشز الشَّيءُ ينشُز نشوزًا، أي: ارْتَفَعَ، ويُقال: نَشَزْتَ نُشُوزًا، إذا أَشْرَفْتَ على نَشَازٍ من الأَرْض وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ وظهَرَ، وأَصلُ النَّشْزِ: الارتفاعُ والعُلوُّ، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفَعَتْ عليه، ونَشَزَ عليها زَوْجُها: إذا ضَرَبَها وجفَاها[4].

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/421.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/235، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/214.

(3) الخليل، العين، باب العين واللّام والباء، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بعل)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 122، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 110.

(4) الخليل، العين، (باب الشِّين والزَّاي والنُّون)، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبَّاد، المحيط، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نشز)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 472، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 138، والكَفَويّ، الكليات، ص: 915.

3) ﴿إِعۡرَاضٗا﴾: صدودًا، يُقال أَعْرَض عَنْهُ إِعْرَاضًا: أي صَدَّ، ووَلاَّهُ ظَهْرَه، وأصل (عرض) يَدُلُّ على العَرْضِ الَّذي يُخَالِفُ الطُّولَ، وعليه تدور اشتقاقاته، فالإعراض: هو أن تولِّيَ الشَّيء عُرْضَكَ، أي: جانبَك، ولا تُقبِلَ عليه[1].

4) ﴿جُنَاحَ﴾: يدور معنى جنح على الميلِ والعدوانِ والعدولِ عن القصد، وسمي الجناحان جناحين لِميلهما في الشِّقَين، وجِنْحُ القوم: ناحيتهم، وجَنَحت السفينة جُنوحًا: انتهت إلى الماء القليل فلزِقَتْ بالأرض فلم تمض، والجوانح الأضلاع؛ لأنها مائلة، والجُناحُ: الميلُ عن الجادةِ الصَّواب المستقيمةِ إلى الإثم، ثمَّ أُطلِقَ على الجناية والإثم، ونفي الجُناح بمعنى نفي الإثم[2].

5) ﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾: أي: أُلزمت، وجُعِلتْ حاضرةً له مطبوعةً عليه، كأنَّه مُلازِمٌ لها لا يُفارقها؛ لأنَّها جُبلت عليه، وأصل (حضَر) يدل على إيراد الشَّيء، ووُرودِه ومشاهدتِه[3]، فيكون معنى إحضار الأنفس الشُّحَّ جعلَها حاضرة له مَطبوعةً عليه[4].

6) ﴿ٱلشُّحَّۚ﴾: الإفراطُ في الحِرص، وهو بُخلٌ مع حِرص، يُقال: شَحِحْتَ تَشَحُّ، وشَحَحْتَ تَشُحُّ وتَشِحُّ، ورَجُل شَحيحٌ وقَوْمٌ شِحاحٌ وأَشِحَّةٌ، وأصلُ (شحح) يدلُّ على المَنْعِ؛ يُقَالُ: تَشاحَّ الرَّجُلان على الأَمر، إذا أراد كُلُّ واحد منهما الفَوْزَ بِهِ ومَنْعَهُ من صاحبه[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيان خيريَّة التَّصالح عند حدوث التَّباغض بين الزَّوجين

وإن امرأةٌ عَلِمَتْ من زوجها تَرَفُّعًا عنها، وعَدَمَ رغبة فيها فلا إثم عليهما أَنْ يتصالحا على ما تَطيبُ به نفُوسُهُما من القسمة أو النَّفقة، والصُّلح أولى وأفضل، وقد جُبِلت النُّفوس على الحرص

(1) ابن سيده، المحكم، وعياض، مشارق الأنوار، والرَّازي، مُختار الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عرض)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 111، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 291، والكَفَويّ، الكليات، ص: 28.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ووجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنح).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (حضر)، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/482، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/316.

(4) البيضاويّ: أنوار التَّنزيل: 2/101.

(5) الجوهري، الصِّحاح: مادَّة: (شحح)، والرّاغب، المفردات، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شحَّ)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 469، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 73.

والبُخل، وإن تُحسنوا مُعاملة زَوْجاتِكُمْ وتخافوا اللّه فيهن بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنَّ اللّه خبيرٌ بأعمالكم لا يخفى عليه شيء، وسيُجازيكم عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة التّعبير بأداة الشّرط (إن):

نشوز الزّوجِ أو إعراضُه أو التّخوُّفُ منهما ممّا ينبغي أن يكونَ نادر الوقوع

لمّا كانت ﴿وَإِنِ﴾ تستعمل لما هو نادر الوقوع؛ لأنَّ الأصلَ في (إنْ) الخلوُّ عن الجزم بوقوعِ الشّرط[2]، دلَّ مجيئها هنا على أنَّ الكلامَ على خلاف مقتضى الظّاهر للجزم بوقوعِ النّشوز أو الإعراضِ في الواقعِ، كما هو في العادة؛ ولهذا عبّر بالفعل الماضي ﴿خَافَتْ﴾ للإشعارِ بتحقّق وقوعه في العادةِ، وفائدة التّعبير بـ﴿وَإِنِ﴾ في مقام تحقُّق الوقوع أمرانِ: أحدهما بيان أنَّ نشوز الزّوجِ أو إعراضه أو التّخوُّفَ منهما ممّا ينبغي أن يكونَ نادر الوقوع، والثّاني تصوير أنَّ نشوزَ الزّوجِ أو إعراضه لا يصلحُ إلّا لمجرَّد الفرضِ والارتياب، وكأنَّه واجبُ الانتفاء؛ لمخالفتِه مقتضى الصّواب، فالأصلُ ألّا يقع من الزّوجِ ما يجعل المرأةَ تخاف من نشوزه أو إعراضِه، إكرامًا للزّوجة وتقريرًا لمكانتِها، وللإشعارِ بأنَّ نشوز الزّوجِ خروج عن الأصل الذي يقوم به نظام الفطرة، وتطيب به المعيشة.

دلالة حذف المُسْنَد بعد (إن) الشَّرطيَّة:

الصُّلحُ بسببِ تحقُّقِ التّخوّف من النشوز أو الإعراضِ وليس على أساس الوسوسة

لمّا كانت (إنْ) الشّرطيةُ لا تدخل إلّا على فعل أفاد دخولُها على الاسم ومجيء الفعل في حيّزه تقويةَ الحكم وتقريرَه؛ لما يدلُّ الكلامُ عليه من تقدير تكرار الجملة، أي (إنْ خافَت امرأةٌ خافَتْ)؛ لتأكيدِ وقوعِ التّخوّف وتحقُّقِه؛ للاحتراس من بناء الحكم على أساس

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 240، والتفتازاني، المطول، ص: 319 - 320.

الوسوسة التي تكثر عند النساء، أو الوهمِ الذي يقع بسبب انشغال الرّجلِ بالمعيشة، وهو من إيجاز القرآن البديع[1].

دلالة مجيء النكرة في سياق الشّرط في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾:

جميعُ النّساء سواءٌ في وجوب الإصلاح عند نشوز الزّوج

دلَّ مجيء النّكرة في سياق الشّرطِ على عمومِها، بمعنى أيِّ امرأة كانت غنيَّةً أو فقيرةً كبيرةً أو صغيرةً، أيْ بأيِّ وصفٍ كانت.

سرُّ التَّعْبيرِ بِالخَوْفِ فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾:

المبادرة إلى حلِّ النِّزاعاتِ الزَّوجيَّة عند ظهور أماراتِها

لمّا كانَ الخوف هو تَوَقُّعَ أمرٍ مُحزن أو مُسيءٍ؛ دلَّ على ضرورةِ المُبادرةِ بِعِلاجِ النُّشوزِ بالصّلحِ بِمجرَّدِ ظُهورِ أَماراتِهِ؛ لأَنَّ الخوفَ لا يحصل إلا عند ظهور الأماراتِ الدالة على وقوعِ المخوِّف؛ لِيكونَ قطعًا للأمرِ قبلَ حصولِه بتلافي أسبابه؛ فإنَّ الأسبابَ إنْ وقعت ربّما استعصى عليه تَدارُكُها[2][3].

سِرُّ التَّعبير بـ(البعل) بدل الزَّوجِ:

النّشوز قطعٌ لرابطةِ الزّوجية

يحتمل أن يكون سبب التّعبير بالبعل هنا لِمَا يدلُّ عليه من معنى الذُّكورة والقوَّة لمناسبتِه نشوز الزّوج لقوَّته؛ ليشعرَ بضعفِ المرأةِ مقابل نشوزه أو إعراضِه، كما يحتمل أن يقالَ إنَّه كانَ البعل مأخوذًا من المُباعلة والبِعال بمعنى القوة والفحولة كنايةً عن الجماع والملاعبة، دلَّ على أنَّ المرادَ هنا هو الرَّجُلُ المُتهيئ لنكاح الأنثى المتأتي له ذلك[4]، عبَّر بالبعل هنا للتّذكير بتَعَطُّل تلك الصِّفة بين الزّوجين بسببِ النُّشوز والإعراض، ولما كان البعل هو الرجل المُتهيئ للمرأة صَحَّ اقترانه مع تَزَيُّن المرأة؛ لأنَّه في مقابلِه؛ إذ تهيؤ الرَّجُل للملاعبة يقابله تهيؤ المرأة بالزِّينة؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النُّور: 31].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/363.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/298، والزمخشري، الكشاف: 1/507، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

(3) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 5/2682.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

الإرشـــادُ إلى المبادرة والإسراعِ إلى الإصلاح

نكتة التّقديم والتّأخير في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾:

قدّم الجار والمجرور على المفعول به للعناية والاهتمام به، وليكون المفعول ﴿نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ معقَّبًا بطلب الإصلاحِ من غيرِ فاصلٍ، للإرشادِ إلى المبادرة والإسراعِ إلى الإصلاح.

وقـــوعُ واحـدٍ من النُّشوز أو الإعـراض كـافٍ في المـبادرةِ إلى الصُّلحِ

مناسبة العطفِ بين النّشوز والإعراض في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾:

لمّا كان المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول أو الفعل أو فيهما، والتَّجافي عن الزّوجةِ كراهةً لها ومنعًا لحقوقها، وكان المراد من الإعراض أن يقِلَّ مجالستها ومحادثتها ومؤانستَها، دلَّ العطف بـ﴿أَوۡ﴾ على التّقابل بينهما، وعلى أنَّ وقوعَ واحدٍ منهما كافٍ في المبادرةِ إلى الصُّلحِ، فكيف إذا اجتمعا!؟، وقدّمَ النّشوزَ الذي هو أشدُّ على الإعراضِ الذي هو أخفّ، لتهويلِ أمرِ النّشوز وتعظيمِه[1].

دلالة وقوع الفاء في جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾:

أفادت الفاء الحثَّ على التّعقيب من غيرِ مهلةٍ في الإصلاحِ بين المرأة وزوجها.

لفتُ الانتباه إلى خيريَّةِ الصُّلح للمُبادرة إليه

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾:

صيغةُ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ إمّا أن تكونَ من صيغ الإباحة، والمعنى على الظاهرِ، فهي إذنٌ للزَّوۡجَيۡنِ في صُلح يقع بينهما، وقد عُلِمَ أنَّ الإباحة لا تُذْكر إلا حيث يُظَنُّ المنع، وإمّا أن تكون استعارةً تمثيليَّةً حيث شُبِّهت هيئة من ترك الصُّلح واستمر في النُّشوز والإعراض بهيئة من ترك الصُّلْحَ عن عمد لظنِّه أنَّ في الصُّلح جُناحًا، والغرضُ من مجيء الكلامِ على سبيلِ الاستعارة التَّحريضُ على الصُّلح، ولفتُ الانتباه إلى خيريَّته؛

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/101، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

للمُبادرة إليه، والأخذِ في أسبابِه، من الإغضاء عن الهفوات، ومُقابلة الغلظة باللِّين(1).

نُكتةُ النَّفي بلا النَّافية للجنس في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾:

بيان أنَّ الحقوق المُتنازَل عنها بَيْنَ الزَّوجين للإصلاح ليس فيها جناح ولا إثم

عبَّر عن نفي الإثم بصيغة (لا) النّافية للجنسِ، والمعنى نفي أي نوعٍ من أنواعِ الجُناح؛ لكيلا يَتوهَّم أحدُ الزَّوجينِ أنَّ في التَّساهل عن بعض حَقِّه باقتطاعِه للآخرِ إثمًا، والصُّلح يقتضي أن يتسامح أحد الفريقين في جزءٍ من حقِّه؛ لينال خيرًا أكثر ممَّا تسامح فيه، فإذا تركت المرأةُ بعض حقِّها لتدوم العشرة بالمعروف فذلك لَا إثم فيه بل فيه الخير(2).

فائدة ذكر المُسند ﴿يُصۡلِحَا﴾:

إرادة تجديد الصُّلح واستمراره بتجدُّد مُقتضاه

أفادَ مجيءُ المسندِ بصيغة المضارعِ الحثَّ على الصلحِ بين الزّوجينِ واستمرارِه حالًا فحالًا، للإشعارِ بأنَّ تجدُّدَ الخلافات الزّوجيَّة فيما هو من طبيعةِ البشرِ، لايمنعُ من المبادةِ إلى الصُّلحِ بل يُحَثُّ عليه.

دلالة التَّعبير بالظَّرف (بين) في قوله تعالى: ﴿أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾:

التَّنبيه على أنَّ الصُّلح ينبغي أن يكون سرًّا بين الزَّوجين ابتداء

في ذِكرِ الظَّرف ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الأحسنَ أن يكونَ التَّصالحُ بالرِّضا منهما وبانشراح صدرهما لا بالإكراهِ من غيرهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّه ينبغي أن يكون الصُّلْحُ المُبْرَمُ سرًّا بين الزَّوجين، لا يُطلِعان النَّاس عليه، بل يَستُرانه عنهم(3).

مناسبة تتابع التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾:

إظهار أهميَّة الصُّلح، وتأكيد خصوصيَّته وخيريَّته

دلّت الآية على شدَّة التَّرغيب في هذا الصُّلح بتتابعِ المؤكّداتِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/215.
(2) أبو زُهرة، زَهرة التَّفاسير: 4/1883.
(3) القونوي، حاشية البيضاوي: 7/319، والآلوسي، روح المعاني: 3/156.

لأهميَّته، وهي ثلاثُ مؤكِّدات: المَصْدرُ المُؤكِّدُ في قوله: ﴿صُلۡحٗاۚ﴾، والإظهارُ في مقام الإضمارِ في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾؛ لتمييز الصُّلح من غيرِه ولتعظيمِه، والإخبارُ عن الصُّلحِ بالخيرِ الذي يدلُّ على فعل سجية أخبرَ عنه بأنَّه خير(1).

القراءات القرآنية وتكثير المعنى:

قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿يُصۡلِحَا﴾ بضم الياء وكسر اللام وحذف الألف، وهو من الإصلاح، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿يَصَّٰلَحَا﴾ بفتح الياء وشدِّ الصاد وألف بعدها، وهو من التصالح، ويَصَّالَحا في الأصل هو يتصالحا، سُكِّنَت التَّاء وأدغمتْ في الصَّاد، ومَن قرأ ﴿يُصۡلِحَا﴾ فوجهه أن الإصلاح يكون عندَ التنازع، كما يقال: أصلحت ما بين القوم، وضدُّه الإفساد، ويكون الفعل متعدِّيًا ومفعوله محذوف، وتقدير الكلام: أن يصلحا الأمرَ أو الحالَ بينهما صلحًا، وكأنَّ النّشوز والإعراض إفسادٌ ينبغي إصلاحه، ومن قرأ ﴿يَصَّٰلَحَا﴾ وهو الاختيار عند الأكثرين قال: أن يصَّالحا معناه يتوافقا، والفعل لازمٌ، وهو أليق بالسِّياق؛ لأنَّ المعنى بأنْ تسقِطَ له بعضَ المهر أو كلَّه أو مؤنة النفقة، أو القَسْم، أو تهبَ له شيئًا تستميله به(2).

نكتةُ التّعبير باسم المصدرِ المؤكّد ﴿صُلۡحٗاۚ﴾:

الحثُّ على أيِّ صلحٍ كان وإن تكرَّر

أفاد التّعبيرُ باسم المصدرِ المؤكِّدِ نكرةً من غيرِ وصفٍ ولا إضافةٍ ولا تقييدٍ بعددٍ - الإيذانَ بالتّحريضِ على أيِّ صلحٍ كانَ والحثِّ عليه، فيتناولُ أقلَّ ما يطلقُ عليه صلحٌ وأعظمَه وأكملَه، وأيضًا يتناولُ الصلحَ مرَّةً أو أكثرَ من غيرِ حصرٍ بعددٍ.

براعة الإطناب بالاعتراض في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾:

الصُّلحُ خيرٌ بمنزلةِ المثل لعمومِ المعنى

أفادت جملة الاعتراض تأكيد التّرغيب في المصالحة، وجاءت جملةً اسميَّةً؛ للدَّلالة على ثبات خيريَّة الصُّلح سواء أكان المراد منه الصُّلح المعهود في الآية بين الزَّوجين أو الصُّلح مطلقًا، كما تؤذن

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/217.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 238، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/135، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/101، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

هذه الجملة بوصف التّذييل لتكون بمنزلةِ المثَلِ لإمكانِ استقلالِها في المعنى وعمومِها وكلّيَّتها.

دلالة (أل) في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ بين العهدية والجنسية:

كلُّ صلحٍ خيرٌ

تحتمل (أل) في ﴿وَٱلصُّلۡحُ﴾ أن تكون عهديَّة؛ لسبقِها بلفظِ ﴿صُلۡحٗاۚ﴾، فلمّا أعادَ اللَّفظ معرَّفًا دلَّ على أنّه عينُ الأول، والمعنى: الصلح بين الزوجين خيرٌ من الفرقة، وتحتمل أن تكون للعمومِ، والمعنى كلّ صلحٍ خيرٌ على الإطلاقِ، فهو الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلافُ، ويدخل فيه الصلح بين الزّوجين دخولًا أوّليًّا لمناسبة ورودِه في السياق[1].

دلالة لفظ ﴿خَيۡرٞۗ﴾ بين الصِّفةِ المشبَّهةِ والتّفضيل:

التَّرغيبُ في الصُّلح، والحثُّ عليه

يحتمل لفظ ﴿خَيۡرٞۗ﴾ أن يكون وصفًا فلا يرادُ منه التّفضيل، أي بيان أنَّه من الخيور كما أن الخصومة من الشُّرور، وهو يناسبُ مجيء (أل) في الصلح على معنى العمومِ، ويؤيّده مجيء الجملة اعتراضيَّةً وفي مقام التّذييل؛ ليكون الكلامُ عامًّا في الصلح وفي الخير، أي كلُ صلحٍ خيرٌ، تنبيهًا أنَّ ما ذكر في سياق الكلامِ منه فهو إذَنْ خيرٌ، ويحتمل أن يكون اسم تفضيل، والمفضَّل عليه، وهو النُّشوز والإعراض أو الفرقة، إذْ جُعلَ له خيريَّةٌ على سبيل الفرضِ والتَّقديرِ، أي: إنْ أمكنَ أن يكونَ فيه خيرٌ فهذا أخيرُ منه، وإلَّا فلا خيريةَ فيما ذكر، فيكون التّعبيرُ بمنزلةِ الاستدلالِ على نفي أيِّ خيرٍ في النّشوز أو الإعراضِ فيما قد يتوهّمه الأزواج، وهو يناسبُ مجيء (أل) بمعنى العهد، أي الصّلح بين الزوجين خير من الفرقة بينهما؛ ولكونِه في سياق التّذييل جاريًا مجرى المثلِ؛ لاستقلالِه بالإفادَة، فيدلُّ على العمومِ استلزامًا[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/571، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/120، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/236.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 4/182، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/111، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/216.

براعة الإطناب بالاعتراض في قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾:

تمهيد العذر في المماكسة والمشاحّة بعدَ الصُّلحِ

قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، وأفاد هذا التَّعبيرُ أنَّ الأنفسَ مطبوعةٌ على الشحِّ لا تنفكُّ عنه أبدًا، وفي جعلِ الأنفس حاضرةً للشحِّ دونَ العكسِ مبالغةٌ في الوصفِ؛ ولكون الفعلِ من أفعال الجبلَّة بُني فعله للمجهول على طريقة العرب في بناء كلّ فعل غير معلوم مِن الفاعل للمجهول، كقولهم: شُغف بفلانة، واضطُرّ إلى كذا، وأصل الكلام أحضرَتِ الأنفسُ الشحَّ، والمراد أن الأنفسَ جعلت الشحَّ كالأمر المجاور لها الحاضر بين يديها اللّازم لها، والغرض من هذا الاعتراض تمهيدُ العذر في المماكسةِ والمشاقَّة بعدَ الصُّلحِ، فإنَّه لا تكاد نفسُ المرأةِ تسمح بالتّقصيرِ بحقِّها، ولا تكاد نَفْسُ الرَّجلِ تسمح بأن يُمسِكَها ويقومَ بحقِّها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها[1].

سِرُّ تغيير النَّظم بين الجملة الاسميَّة والجملة الفعليَّة في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾:

ثبات خيريَّة الصُّلح بجميع وُجوهه، وبيان تحقُّق الشُّحّ ورسوخه في النَّفس

جاءت الجملة الاعتراضيَّة الأولى اسميَّةً ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾، لبيانِ ثباتِ هذا الوصفِ وديمومتِه، في حينَ جاءت الجملة الاعتراضية الثَّانية: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ فعلية ماضوية؛ للإشارة إلى أن الأنفس مجبولة على الشح أي البخل والحرص، وأن هذا أمر محقَّقٌ في النفس الإنسانية إلَّا من عصمه اللّه تعالى، والجامع بينهما هو التّرغيب في المصالحة واستمرارِها وتجاوز العثراتِ فيها.

براعة الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

الخطاب هنا للأزواجِ فيكون التفاتًا من خطابِ الزَّوجاتِ إلى خطاب الأزواج، بطريق الالتفات؛ لقصد استمالتهم وترغيبهم في

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/571، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/236، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/423، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/217.

ترغيب الأزواج في الإحسانِ إلى نسائهم وسلوك طريق الصُّلح معهن

حسن معاملة نسائهم، وللإشعارِ بأن سلوك طريق الصُّلح معهن يكونُ بالإحسانِ والتّقوى، مع ما في هذا الالتفات من التَّعريض بالشَّحيح في كونه ليس مُحسنا ولا مُتَّقيا، ويحتمل أن يكون الخطابُ للرّجالِ والنّساء فيكون في الخطاب التفاتٌ وتغليبٌ بسببِ إيرادِ ضميرِ المذكَّر. ونكتة مجيء التّغليبِ التَّنبيه أنَّ الزوجَ أخصُّ بالإحسانِ والتّقوى من المرأةِ لتسبّبه بالنّشوز أو الإعراضِ، ويستفاد من النّظم بطريق الاقتضاء أنّه لو خاف الرّجل نشوز زوجته أيضًا فلا جناحَ عليهما في الإصلاح[1].

مناسبة تقديم الإحسان على التقوى:

في الإحسان تحصيلُ الصُّلحِ وفي التّقوى منعُ حصول النُّشوز أو الإعراضِ مرةً أخرى

لمّا كان الصّلح ودوامُه يقتضي الإنعامِ والعطاء قبل اتقاء النقصِ وترك النّشوز والإعراض ناسب تقديم الإحسان على التّقوى لتمكّن الإحسان في تحصيلِ الصُّلحِ وتأثير التّقوى في منع حصول النُّشوز أو الإعراضِ مرةً أخرى. كما أنَّ لفظ التَّقوى منبئٌ عن كون النُّشوز والإعراض ممَّا يُتوقَّى منه[2].

سرُّ تخصيص العمل بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

بيان أنَّ العمل مناط الحساب

قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: فيه اختصاصٌ؛ حيث خَصَّ الْعَمَلَ بالذِّكر[3]؛ إذ هو مناطُ الحساب، وأيضًا فالعَمَلُ يَشمَلُ الفِعلَ والتَّرك؛ إذ التَّرْكُ فِعلٌ.

دلالة الكناية عن الموصوف في قوله: ﴿خَبِيرًا﴾:

الوعيد الأكيد لمن أساء في فعله بالشُّحِّ وتَرْكِ الصُّلحِ

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾: فيه كنايةٌ عن وعيدٍ؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعلِ السُّوء - وهو قَديرٌ - لا يُعوِزُه أن يُعذِّبَه على ذلك، وقد أُكِّدَ هذا الوعيد بـ﴿فَإِنَّ﴾، و﴿كَانَ﴾، مع ما في ذكر الاسم الجليل من تربية المهابة في النُّفوس[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/237، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/423، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/321.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/106.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/228.

الوعد الكريم لمن أحسن واتّقى في عمله

نكتة المجاز المُرسل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

لمّا كان الجزاءُ على الإحسانِ والتّقوى يكون بالثَّواب كانَ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من إقامة السَّبب مقام المُسَبَّبِ بطريقِ المجاز المرسلِ، بمعنى: إن تحسنوا وتتقوا فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتةَ؛ لاستحالة أن يُضيِّعَ أجرَ المحسنين. ونكتة التّعبير بطريق المجاز المرسلِ هي الإشعار بأهميَّة السَّبب في تربية الإحسان والتّقوى واستدامتهما لتحصيلِ الثوابِ الحسن، وأيضًا لتعظيم الثَّواب وتفخيمه وكأنَّه مما لا يكادُ يوصف، وترتيبُ الوعد الكريم على ذلك من لُطْفِ الاستمالة والتَّرغيب في حسن المعاملة[1].

المتشابه اللفظي:

لمّا كان ما يقع بين الزّوجين ربما دقَّ علمه عن إدراك غير العليم الخبير وخفي على غير الزّوجين، قال هنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾، فهو أشدُّ مبالغةً من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾، [المائدة: 8]، لأنّ الآية الأخيرة في سياق الحمل على قصدِ العدل مع من بين قومهم وبين المسلمين شدة عداوة، فالأمر يكون ظاهرًا في الغالب[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعل وَالزَّوْج:

الزَّوج يُقال لكلِّ واحدٍ من القرينين من الذّكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجةِ زَوْجٌ، ولكلّ قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلٍ له أو مضادٍّ: زوج[3]، قال تعالى:

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239، والآلوسي، روح المعاني: 3/157.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 6/42.

(3) الرَّاغب: المفردات، ص: 384.

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقال: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: 40]، أَنَّ الرَّجُل لَا يكون بَعْلًا للمرأَة حَتَّى يدْخل بهَا؛ وذلك أن البِعال النِّكَاح والمُلاعبة، وأَصْلُ الكَلِمَة القيام بِالأَمر، ومنه يُقال للنَّخل إِذا شَرِبَ بعُروقه ولم يحتج إِلى سَقْي: بعلٌ، كأنَّه يقوم بمصالح نفسه(1).

الجُناح والإثم والذَّنب:

الجناح مُطلق الميل، والإثمُ الذَّنب الذي عليه تَبِعَةٌ، ومن الذُّنوب ما لا تَبِعَةَ فيه

الجناح هو الإثم والجناية، ولم يرد في القرآن الكريم إلَّا منفيًّا بـ(لا) أو بـ(ليس)، بمعنى نفي الإثم أو الجنايةِ، ويُسلَكُ به مع مَن يتوهَّم الإثم في فعلٍ أو قولٍ لما يوحي به ظاهرُه، فيأتي بنفي الجناحِ لنفيِ الإثم عن الفعلِ أو القولِ وإفادة جوازِه، أي بالمعنى العامِّ للجواز سواءٌ أكان إباحةً أو ندبًا أو وجوبًا، ولمّا كان المراد في هذه الآية دفع توهّم المنع من إعطاء المرأة شيئًا لِزوجها أو دفعَ توهّم الإثم في أخذِ البعلِ ذلك العطاء عبَّر بـ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لإفادة نفي الإثم، أي ليس ذلك رشوةً(2)، فاختلف سياق التّعبير بنفي الجناحِ عن نفي الإثم أو الذنب، وقد تقدَّم بيان الفرق بين الإثم والذَنبِ قريبًا في تفسير الآية 111 من هذه السُّورة بِما يغني عن إعادته.

البخل والشُّحّ:

الشُّحُّ شِدَّة الحرص على الشَّيء، والبُخْل ثمرة الشُّحِّ

الفرق بينهما أن الشح الحرص على منع الخير، ففيه معنى اللؤم، والبخل منع الحق، فلا يقال لمن يؤدي حقوق اللّه تعالى: بخيل. أو يقال: الشُّحُ شِدَّة في الحرص على الشَّيْءِ وطلَبه، وجَشَع النَّفس عَلَيْه، كما أنَّ البُخْل بالمال: منعُ إنفاقِه بعد حصوله، وحُبُّه، وإمسَاكُه، فيكون المرء شحيحًا به قبلَ حصوله، بخيلا بعدَ حصُولِه، فالشُّحُّ يدعو إلى البخل فهو أشدُّ منه، والشحُّ كامِن في النَّفْسِ، فمَنْ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 283، والكفويّ: الكليَّات، ص: 249.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

بَخِلَ فقد أطاعَ شحَّه، ومَن لَمْ يَبْخَل فقد عَصَى شُحَّه ووُقِيَ شرَّه، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]؛ فالبخل ثمرةُ الشُّحِّ[1]، فلمّا كان الشُّحُّ بمعنى الحرصِ على منعِ الخير، وكان الصلح هو الخير، عبَّر عن مانعِ الصُّلحِ بإحضار الأنفس الشحِّ دون البخل.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 176، وابْنُ القَيِّم، الوابل الصيب، ص: 33.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾ [النساء: 129]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر بعض أحوال الرِّجال مع زوجاتهم حال الجمع بَيْنَهُنَّ بعد ذكر أحوالهم مَعَهُنَّ حال الإفراد

لَمَّا ذكَر ﷻ أنَّ الوقوفَ على الحقِّ فضلًا عن الإحسانِ - وإنْ كانت المرأةُ واحدةً - متعسِّرٌ، أتبَعَه أنَّ ذلك عند الجمعِ بين أكثرَ مِن واحدةٍ أعسرُ، فقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ﴾، وأيضًا هذه الآية فتوى أخرى غير الفتاوى المبينة في الآيتين قبلها، والمستفتون عنها هم الذين كان عندهم زوجتان أو أكثر، لبيانِ عذرِ النّاس في النِّساء[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَصْتُمْۖ﴾: الحِرْصُ: شدَّة الْإِرَادَة والشَّرَه إِلى المطلوب، وقد حَرَصَ على الشَّيء يحرِص، فهو حَريصٌ؛ إذا اشتدَّت إِرَادَته لَهُ، وأصل الحِرْصِ يَدُلُّ على الإفراط في الرَّغبة والإرادةِ للشَّيْءِ، يُقال: حَرَصَ على كذا يحرِص عليه إذا أَفْرَطَ في محبَّتِه وإمساكِه[2].

3) ﴿فَتَذَرُوهَا﴾: فتتركوها، من وذر يذر، وقد أماتت الْعَرَب ماضيه ومصدره فَإِذا أُرِيد الْمَاضِي قيل تركته فَلَا يَقُولُونَ وَذَرْتُهُ، وَلَا يسْتَعْمل مِنْهُ اسْم فَاعل، ويَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ يتخلَّى عنه مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، ومنه الوذرة: قطعة من اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقلَّة الاعتداد بها[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/424، ورضا، تفسير المنار: 5/365.
(2) الجوهري، الصِّحاح: (حرص)،، وابن سيده، المحكم،، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ،، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرص).
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).

4) ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾: المُعَلَّقةُ من النّساءِ: الَّتِي فُقِدَ زوجُها، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، يُقال عَلِقَ الشَّيء بالشَّيء، والخَصْمُ بالخصم عُلوقا: تشبّث، وأصلُه: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي، والمعنى هنا تشبيه المرْأة التي لَا يُنصِفها زوجُها ولا يُحسِن مُعاشرتَها وَلَا يخلِّي سبيلَها، بذلك، فَهيَ لا أيِّمٌ وَلا ذاتُ بعل؛ كأنَّ أمرها ليس بمُستَقِرٍّ[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الـدَّعــوة إلى الإصــــلاح والـتَّـقـوى حال حـصـول الميـلِ والجفوة

ولن تَقْدِروا - أيُّها الأزواج - على تحقيق العدل التَّامِّ بين الزَّوجات في الميل القلبيِّ، مهما بذلتم في ذلك من الجُهد؛ فلا تُعرِضوا عن المرغوب عنها كلَّ الإعراض، فتتركوها كالمرأة التي ليست بذات زوج ولا هي مُطلَّقة فتأثموا، وإن تُصلحوا أعمالكم فتعدلوا في قَسْمكم بين زوجاتكم، وتُراقبوا اللّه تعالى وتخشَوه فيهن، فإن اللّه يغفر لكم ويَرحمكم؛ إذْ من شأنه المغفرةُ والرَّحمة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ إيثار النَّفي بـ ﴿وَلَن﴾ دون غيرها من حروف النَّفي:

المبالغة في انتفاء الـعــدل مـن جميع وجوهه

تدلُّ (لن) على نفي استطاعة العدل بين النّساء والمبالغة فيه، ولمّا كانت (لن) لنفي المستقبل أفادت أنَّه كلَّما تزوَّج الرجل زوجتين فأكثر عسُر عليه العدلُ بينهنَّ.

سرُّ التّعبير بالمصدر المؤول في قوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

عبَّر بالمصدر المؤول لتأكيد نفي استطاعة العدل بين النساء في المستقبل بعد أن نُفيَ بـ(لن)، ولإفادة دلالتِه على نفي العدل مطلقًا من غيرِ أيِّ معنى زائدٍ عليه من الهيئات المصاحبةِ له، أي

(1) الرّاغب، المفردات، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علق)، وابن الحدَّاد، كتاب الأفعال: 1/220، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 74.

(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

العدل المستوي في الأفعال والأقوال والمحبة حتى لا يقع ميل البتَّة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، وهو متعذر، كما أن ورود الفعل هيَّأ لدخول ضمير الجمع (الواو) عليه لتأكيدِ النّفي عن جميعِ المخاطبين[1].

العدلُ الكاملُ هو الاستواء في الأفعال والأقوال والمحبة بينَ الزّوجات

بلاغة التّعبير بضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

لمّا كان أصل الخطاب أن يكون لمعيَّن ويترك لغيرِ معيَّن لقصدِ العموم، دلَّ على أنَّ المرادَ في الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ عمومُ الرِّجالِ، فجاء على خلافِ مقتضى الظّاهر، فلا يريد به مخاطبًا معيَّنًا؛ قصدًا إلى أنَّ بيانِ أنَّ كلَّ مَن له أكثر من امرأة لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ، وأنَّ الأمر لا يختصُّ بزوجٍ دونَ زوجٍ آخر[2].

كلُّ مَن له أكثر من امرأة لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ

نكتة التّعبير بنفي الاستطاعة في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

عبَّر بنفي الاستطاعة لدلالة الفعل ﴿تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾، على معانٍ مجتمعة تناسب العدلَ بين النّساء ممّا هو في سياق الكلام، فالاستطاعة تفيد معنى اللين والانقياد والقدرة[3]، فأشعر التّعبير بالاستطاعة إلى أنَّ العدل بين النساء يقتضي انقياد الزّوج بقلبه وجوارحه للعدلِ بين زوجاته، مع لينِه في الأمر لمناسبة التعامل مع النساء وقدرته على هذا الأمر، فعبَّر بـ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ دون (لن تقدروا) لمناسبةِ المقام والسّياق.

العدل بين النساء يقتضي انقياد الزّوج بقلبه وجوارحه للعدلِ بين زوجاته

براعة التّعبير في قوله: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾:

جاءت ﴿وَلَوۡ﴾ الوصليَّة هنا لوصل ما بعدها بما قبلها لتقوية نفي الاستطاعة وتقريرها، فهي تأتي لاستقصاء جميعِ الأحوال

الحرصُ على العدلِ لا يناسب تعدّد الزوجات لصعوبته

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/572، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/92.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوع).

التي يقع فيها توخّي العدل[1]، لتدلَّ على أنَّ المرادَ امتناعُ استطاعة إظهار العدل بين النّساء في كلِّ الأحوالِ حتَّى في حالةِ حرصكم عليه لانتفاء الاستطاعة عليه؛ ولإشعارِها بالتّقليل أفادت قلّةَ حرصِ الرّجالِ على العدل بين النّساء، فكأنَّ الحرصَ على العدلِ لا يناسب تعدّد الزوجات لصعوبته.

دلالة النَّهي الوارد بعد النَّفي:

الإرشــــاد إلى تـحـرِّي الـعـدل وتعويد النَّفس عليه

لمّا كان النّهي يَرِدُ لِما هو في الإمكانِ والمقدور دلَّ على أنَّ المراد بالنّهي عن كلِّ الميلِ هو أن يفعل فعلا يقصده من التَّفضيل وهو يقدر ألّا يفعله، فهذا هو كُلُّ ٱلۡمَيۡلِ، وإن كان في أمر حقير، وأيضًا لمّا كان النّهي موجّهًا إلى ﴿كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ دلَّ على أنَّ مطلق الميل غير مقدور على تركه فلم يُكلَّفْ به، ولمّا توجّه النّهي إلى الذوات في قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ﴾ دلَّ على أنَّ المعنى أنَّكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي؛ لأنَّ ذلك خارج عن وسعكم، ولكنَّكم منهيُّون عن إظهار ذلك التَّفاوت في القول والفعل، فكأن الكلام بتقدير: فَلا تَمِيلُوا النَّوعَ الذي هو كلُّ الميل وهو المقصود من قول أو فعل،[2].

دلالة نفي الشّمول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾:

إمكـانُ وقـوعِ بعض الميلِ إلى المحبوبة الذي لا يوجبِ أن يجعلَ الأخرى كالمعلَّقة

لمّا كان النّهي بمعنى النّفي، وكان وقوع ﴿كُلَّ﴾ في حيِّز النفي أو النّهي يفيدُ أنَّ النَّفي أو النّهي موجَّهٌ إلى الشُّمول خاصَّةً ويفيدُ بمفهومه ثبوت الفعل لبعض الأفراد، دلَّ هنا على أنَّ النّهي موجّهٌ إلى كمالِ الميلِ وجميعِه؛ ليفهم منه إمكانُ وقوعِ بعض الميلِ إلى المحبوبة الذي لا يوجبِ أن يجعلَ الأخرى كالمعلَّقة، وفي النّهي ضربٌ من التّوبيخ لِمن يميلُ كلَّ الميلِ[3].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/121، والبقاعي، نظم الدرر: 5/424، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/89.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/572، وابن هشام، مغني اللبيب: 1/265.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

من بديع الإيجاز وروعة التّعبير في القرآن الكريم

في الجملة من بديع الإيجاز وروعة النَّظم ما لا يخفى، فإنّه لمّا كان السّياق في بيان أمرِ مَنْ لا يقعُ العدلُ معها، طوى ذكر المحبوبةِ لحصولِها على ما تريدُ وأظهرَ ذكرَ ما قد يقع الظُّلمُ عليها اهتمامًا بشأنها، فقال ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾، والتّقدير: فَلا تميلوا كُلَّ الميل إلى إحداهنَّ فتُعرضوا بذلك عن الأخرى فتَذَروها كالمُعَلَّقَةِ، فطوى الجار والمجرور (إلى إحداهنَّ) وجملة (فتعرضوا بذلك عن الأخرى)، أو يكون التّقدير: فَلا تميلوا كُلَّ الميل إلى إحداهنَّ فتذروا الأخرى كالمُعَلَّقَةِ، فيكون مُتعلَّق تميلوا مُقدَّرًا بإحداهن، وضمير فتذروها المنصوب يعود على الميلِ عنها لِدلالة السياق عليه[1].

دلالة الفاء في الموضعين من قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا﴾:

لا تميلوا كلَّ الميلِ لأنَّه سيكون سببًا لأن تذروا الزّوجة كالمعلّقة

أفادت الفاء الأولى ترتُّبَ ما بعدها على ما قبلها، أي ترتُّب النّهي على الإخبار بنفي الاستطاعة في أن يعدل الأزواج بين زوجاتهم، والمعنى لأنّكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء فلا تميلوا كلَّ الميل. وتحتمل أن تكون الفاء الفصيحة بتقدير شرطٍ من سياق الكلام، وتقديره: إن لم تعدلوا بين النّساء فلا تميلوا كل الميل، وأما الفاء الثانية فتحتمل أن تكون سببيَّةً بمعنى ترتّب ما بعدها على ما قبلها، ويكون الفعل ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ منصوبًا بـ(أن) مضمرة أي: لا تميلوا كلَّ الميلِ؛ لأنَّه سيكون سببًا لأن تذروها كالمعلَّقة. وتحتمل أنْ تكون عاطفة لجملة على جملة بمعنى التشريك في النّهي؛ ليكون النّهي موجّهًا إلى قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا﴾، والمعنى لا تميلوا كلَّ الميلِ ولا تذروها كالمعلَّقة، ففي الأول نَهْيٌ عن الجمع بينهما، وفي الثاني نهيٌ عن كلٍّ على حِدَتِه وهو أبلغُ[2].

(1) السمين، الدر المصون: 4/111، ورضا، تفسير المنار: 5/365، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/218.
(2) العكبري، التبيان: 1/396، والسمين، الدرّ المصون: 4/111.

الإيماء إلى حال من تركها زوجها ومال إلى غيرها على الوصف المذكور

سِرُّ التَّعبير بـ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ دونَ(فتتركوها):

يَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ أي يتخلَّى عنه مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، والفعل الماضي من يذر لم يستعمل في العربية، ويُقال: فلان يذر الشَّيء، أي: يَقْذِفُه لقلَّة اعتداده به، ومنه الوَذْرَةُ: القطعة من اللَّحم، وتَسْمِيتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بها[1]؛ فكأنَّ الرَّاغب عن زوجته على هذه الصِّفة قد تَركها تَرْكَ المُهْمِل لها وهو غير مُبالٍ ولا معتدٍّ بها؛ لاهتمامه وشغله بِغَيرها.

تصوير اضطراب المرأة المتروكة وعدمِ استقرارها تنبيها للرَّجل لترك الظُّلم ونهيه عنه

بلاغة التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾:

وردَ هنا التَّشبيه المركَّب الذي تكون صورته منزوعةً من متعدّدٍ؛ فذكرَ الزَّوجة التي يُؤْثِر زوجُها عليها ضرَّتها ويتركُها مُهملة غيرَ معتدٍّ بها لا هي مطلَّقةٌ فتتزوّج ولا هي ذات زوج فيوفّيها حقَّها بالوطء؛ ليشبّهها بالشَّيء المعلَّق من شيء؛ لأنَّه في حالٍ لا على الأرض استقرَّ ولا على ما علَّق منه[2]، ووجه الشّبه نفيُ الاستقرارِ والخطر الذي يصيب الزّوجةَ والمعلَّقَ، والغرضُ من التّشبيه تصويرُ اضطرابِ المرأةِ وقلقِها بتركِها من غيرِ قيامٍ بحقوقِها، وفيه توبيخٌ للزوجِ لكي يتركَ ظلمَها ويُحسنَ إليها رحمةً بها.

حذف المفعول لإفادة العموم

مناسبة حذف المفعول في قوله: ﴿تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

حُذِفَ المفعول في الفعلين لإفادة العموم، ليشملَ كلَّ أمرٍ من أمورِ الإصلاحِ مادِّيًّا ومعنويًّا، وليشمل التّحقُّق بالتقوى في جميع الشؤون والأحوال، لمنعِ الظّلم.

مناسبة التّعبير في قوله: ﴿تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿تُصۡلِحُواْ﴾ للإشعارِ بأنَّ كلَّ الميلِ عن الزوجة وانتفاء العدل في القسم أو ترك الزوجة معلَّقةً كلُّ هذا فيه إفسادٌ، والمعنى

---

(1) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/121، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/106.

(إنْ تُصلحوا ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتَّوبة)، وعبَّر بـ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ لما تؤذن به التّقوى من استمرارِ الإصلاحِ ودوامِه، والمعنى (وإن تتَّقوا الجورَ أو كلَّ ما يمنع الإفساد في المستقبل)، وعُبِّرَ بصيغة المضارع لتصوير حالة الإصلاحِ والاتِّقاء ولإفادة استمرارهما حالًا فحالًا(1).

الإصــلاح ضدُّ الإفساد والتّقوى تؤذن باستمرارِ الإصلاح

مناسبة الجزاء للشّرط في قوله: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

عُبِّر بـ﴿وَإِن﴾؛ للإيذانِ بصعوبةِ الإصلاحِ والاتِّقاء بعد كلِّ الميلِ، وكأنَّه في مقام ما هو نادرُ الحصولِ، ففيه إشعارٌ بالحثِّ على ترك كلِّ الميلِ من أوّلِ الأمر لئلَّا يقع فيما يصعب تحصيلُه، ولمّا كان المرادُ من الجزاء أنْ ينال الزَّوج مغفرةَ اللّه ورحمتَه بسببِ الإصلاحِ والاتِّقاء كان التّعبير بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ دالًّا على عظيم المغفرة وسعة الرّحمة التي ينالها من يصلح ويتقي، فجاء بوصف اللّه الجليل للتّعبيرِ عن تحصيل المغفرة والرّحمة، وعُبِّر بـ﴿كَانَ﴾ للإشارة إلى ظهور آثارِ الوصفين على مَنْ يصلحُ ويتّقي، ودوامِ اتّصافِ اللّه تعالى بهما.

مَــن يـصلـح ويـتَّـقـي يـنـالُ عظيم المغفرة وسعةَ الرّحمة

توجيه المتُشابه اللَّفظي بين قوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ **وقوله:** ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

مقام الآية الأولى فيما كان بين المرأة وزوجها إذا رأت تعاليًا منه وإعراضًا عنها بترك حديثها أو مؤانستها أو مضاجعتها لأي أمرٍ من أمورها، وأرادت استمالتَه إليها وبقاءَه معها، وكينونتها في عصمته فلا جُناح عليها أن تعطي شيئًا من نفسها، وتترك بعض حقِّها كي تُؤثِرَ ضرَّتها في القسمة، أو تترك هي حظَّها كما فعلت السَّيدة سودة

مـنـاسـبـة ذكـر عـلـم الـلـه بعد ذكـــر أعــمــال عباده

(1) البِقاعي: نظم الدُّرر: 5/425، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/237، والهرري: حدائق الرُّوح والرَّيحان: 6/394.

- رضي الله عنها - بإيثارها السَّيدة عائشة بليلتها، أو تهب له من مالها شيئًا لا جناح عليها في هذا، ولا على زوجها في قبول ذلك منها، وإن كان الطَّمع يأتي من إسقاط حقٍّ أو تَنَقُّصه؛ لما جُبلت عليه النُّفوس، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ فندب كلًّا منهما إلى الإحسان والتَّقوى، والزَّوج أخصُّ بذلك وأولى، وأن يحتمل كلٌّ منهما من صاحبه ويصبر فإنَّ اللّه مُطَّلعٌ عليه خبير بما يُكِنُّه ويُخفيه؛ ولأنَّ مَقصود هذه الآية ما ذُكِرَ كان من المُلائم أن تُخْتَمَ بما خُتِمت به من أنَّ اللّه تعالى خبيرٌ بأفعال عباده الظَّاهرة والباطنة.

مناسبةُ ذكر مغفرة الله تعالى ورحمته بعد ذكر ما لا يستطيعون تحقيقه من العدل

أمَّا الآية الثَّانية فمَقامها أنَّ العدل التَّام بين الزَّوجات لا يُستطاع؛ لأنَّ الإنسانَ لا يملكُ قلبَه، فإنْ عَدَلَ في القسمة والمحادثة والإنفاق والنَّظر وبشاشة الوجه وجميل المُلاقاة وفرضنا اجتهاده في هذا كُلِّه حتَّى تحصل المساواة لم يقدر أن يميل بقلبه إلى كُلِّهنَّ على حال سواء: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بل على الإنسان أن يجتهد؛ ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ لا مُمسَكة ولا مُطَلَّقَة، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ والمُراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فإنَّ اللّه يغفر لكم ما سوى ذلك فإنْ لم تكن المغفرة هَلَكَ المكلَّف؛ لذا من المناسب أن تُخْتَمَ بما خُتِمت به من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، فورد أعقاب كل آية بما يُناسِبُ[1].

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

(يذر) و(يدع):

يدع: هو أن يترك الشيء مع الاهتمام به والحرص عليه، و(الوديعة) عند الشخص المؤتمن حرصا عليها؛ ويذر: هي أن

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/110.

الـــــودع تــرك الـــــشيء مـع الاهـــتـــمـــام والإذراء تركه مع إهماله

يتخلى عن الشيء مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، يقال: فلان يذر الشَّيء، أي: يقذفه لقلة اعتداده به ومنه الوَذْرَةُ: قطعة من اللَّحم، وتَسْمِيتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بِها[1].

(1) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾

[النساء: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـرُ الـفُـرْقَـةِ وجـوازِها بعد تَعَذُّرِ الصُّلح بن الزَّوجين

لمَّا ذكر الله تعالى جواز الصُّلح - إن أراد الزَّوجانِ ذلك -، ذكر في هذه الآية قسيمَه وهو جوازُ المفارقةِ إنْ رَغِبَا فيها، ووعَدَ أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ منهما من سَعتِه، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَتِهِۦۚ﴾: إفضاله وغِناه، وتدور اشتقاقات (وسع) على انفساح وانبساط، يُقال: وَسِعَهُ الشَّيْءُ يَسَعُهُ سَعَةً، وَاللهُ الْوَاسِعُ أي الْغَنِيُّ، وَيُقَالُ: (أَوْسَعَ) اللهُ عَلَيْكَ أَيْ أَغْنَاكَ، والسَّعة: نقيض الضِّيق وَالْعُسْرِ، والمعنى هُنا: يُغْنِ اللهُ الزَّوجَ والمرأةَ المُطَلَّقة من سَعَةِ فضله[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إذا افْـــتَرَقَ الـزَّوجـان بعد تَـعَـذُّرِ الصُّلح بينهما يُـوَسِّـع الله عليهما من فضله ورِزْقِهِ

وإنْ وقَعَتِ الفُرقة بين الرَّجُل وامرأته بطلاقٍ أو خُلْعٍ أغْنَى الله كُلًّا منهما من فضله الواسع، فإنَّه ﷻ واسع الفضل والمِنَّة، حكيم فيما يقضي به بين عباده يضع الأمور في مواضعها[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقييد الشَّرط بـ(إن) من بين أدوات الشَّرط:

لمّا كانت (إنْ) تَدُلُّ على عدم الجزم بوقوع الشَّرط في الزَّمن

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/238.
(2) الرَّاغب، المفردات، وابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة، والرَّازي، مُختار الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وسع)، وابن جرير، جامع البيان: 9/294.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

المستقبل، عُبِّرَ بـ(إنْ) التي عُلِّقت بالفعل المضارعِ الدالِّ على احتمالِ الوقوعِ، وأنّه ينبغي أن يكونَ نادرَ الحصولِ؛ ليكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بمعنى الحثِّ على عدم الاستعجالِ في طلبِ التّفريق، ترغيبًا في الصُّلحِ واستدامةِ الزّواجِ.

الدّعوة إلى وجوب التّريُّث وعدم الاستعجال في اتخاذ الزّوجين قرار المفارقة

دلالة التّعبير بلفظ ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بدل يتطلّقا:

لمّا كانَ التّفريقُ يشعرُ بالتّشتُّتِ والوحشة عُبِّرَ به للتّنبيه على وجوب التَّريُّث والتَّفكُّر قبلَ الإقدام على التّفريق، وأيضًا لمّا نُسِبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمَا دلَّ عَلَى أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَدْخَلًا في التَّفَرُّقِ(1).

تأكيد الدّعوة إلى التّريُّث في قرار التّفرُّق المُشعر بالوحشة والتّشتُّت

نكتة التّعبير بصيغة التفعّل في قوله تعالى: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾:

عبِّر بصيغة تفعّل للإشعارِ بأنَّ تفرُّقَ الزّوجين فيه تكلّف ومشقّة، والأولى تركُه.

دلالة الحذف والتّنكير في قوله: ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا﴾:

حذف المضاف إليه من ﴿كُلّٗا﴾ للإيجاز، وللإشعارِ بنفي وجودِ أيِّ علاقةٍ بينهما بعدَ التّفريقِ؛ ولهذا لم يقل كلًّا منهما، والمعنى يغني اللّه كلَّ واحدٍ منهما من سعته.

تسلية من الله لكلٍّ من الزّوجين بعد الطّلاق بالسّعة بعد الضّيق والحرج

براعةُ التّعبير في قوله: ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾:

قيّد قوله: ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ﴾ بقوله: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فتوسّع المعنى بالتّقييد، وهذا من بديع نظم القرآن، وبراعةِ بلاغته، والمعنى: يغني اللّه كلًّا من سعة رحمته أو من سعةِ قدرته أو من سعةِ غناه أي يغني اللّه كلًّا عيشًا أهنأ من عيشه؛ لأنَّه تعالى واسعُ الغنى، فجاء الوعدُ بإغنائهما من سعته تسليةً لكلٍّ منهما بعد التّفريقِ، ويحتمل أن يكون المعنى يجعلُ كلَّ واحدٍ منهما مستغنيًا عن الآخر بفضله ويكفيه مُهمّاته، إذا قصدَا الفرقَةَ تخوُّفًا مِنْ تركِ حقوقِ اللّه الَّتِي أَوجبَها(2).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/90.

(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/534، والزمخشري، الكشاف: 1/573، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/238، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/240.

حسنُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾:

1. هذه الجملةُ تذييلٌ وتَنْهِيَةٌ للكلام في حكم النِّساء[1].

2. أفادت جملة التّذييل دوام اتّصاف اللّه بالوصفَين الجليلين وظهور آثارِهما في النّاس.

3. ورد في الآية الجناس النّاقص بين قوله تعالى ﴿سَعَتِهِۦۚ﴾ و﴿وَٰسِعًا﴾، والواسع وصفٌ عامٌّ في الغنى والقُدرة والعلم وسائر الكمالات[2].

4. كما ناسب السياقُ ذِكْرَ وصفِ الحِكمة، وهو وضع الشَّيء موضع ما يُناسِبُ؛ للإشعارِ بأنَّ التّفريقَ قد يكون مناسبًا لكلٍّ منهما[3].

5. لمّا كانت جملةُ التّذييل على معنى العمومِ والكلّية ناسب أن تكون كالمثل في حكايتها والتّمثل بها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراق والتفرق:

التَّفَرُّق للأبدان، والافـــتراقُ في الكلام

الافتراق خِلاف الجماعة والاجتماع، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران: 103]، أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع[4]، ومن علماء اللُّغة من يجعل التَّفَرُّقَ للأبدان، والافتراقَ في الكلام؛ فيُقال: فَرَّقتُ بين الكلامَين فافترقا وفرَّقت بين الرَّجلين فَتَفَرَّقا[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/90.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 4/186.
(4) ابن منظور: لسان العرب، والجوهري، الصحاح: (فرق).
(5) الخطابي، غريب الحديث: 2/207، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/217.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾

[النساء: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعقيب ذِكْر الفُرقة بين الزَّوجين بذكر سَعَةِ مُلك الله ترغيبًا في سؤاله وتذكيرًا بعظيم إفضاله

لَمَّا ذكر تعالى آية التّفرُّق وختمها بذكر صِفتَي السَّعة والحكمة وكرر الحث على التقوى في هذه الجمل في سياق الشرط بقوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: 128] ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: 129] ناسب أن تأتي هه الآية ببيان سعة ملك اللّه تعالى، وأنَّ وصيَّته بالتَّقوى مؤكَّدة، فالذي له ما في السَّماوات وما في الأَرض قادرٌ على أن يُغنيَ كلَّ أحدٍ من سَعَتِهِ فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة، فجاءت هذه الآية للتَّنبيه على كمال سعة ملك اللّه وعظم قدرته وعلى أنَّ الأهمَّ هو التّقوى(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَّيۡنَا﴾: أمرنا وعهدنا، يُقال: وصّيتُه توصية، وأوصيته إيصاءً: عَهِدّت إليه، والوصيَّة التَّقدُّم إلى الغير بما يَعمل به مُقترنًا بوعظٍ، والوصيَّة من اللّه فَرْضٌ لأنَّها عهد وتكليف وإلزام، وأصل (وَصى) يدلُّ على وَصْلِ شيءٍ بشيءٍ، والوصيَّة من هذا القياس، كأنَّه كلام يُوصَى أي يُوَصَلُ، والمعنى هنا: ولقد أمرنا أهل الكتاب، وأمرناكم وقلنا لكم ولهم(2).

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/426، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219.
(2) ابن سيده، المحكم: (وأص)، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصى)، وابن جرير، جامع البيان: 9/295.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللہ سبحانه هو المالك لخلقه، متصرِّفٌ فيهم بالأمر والنَّهي، غَنِيٌّ عنهم ومع غناه عنهم يَحْمَدُ إيمانهم

ولِلّه وحدَه مُلك ما في السَّماوات وما في الأرض ومُلك ما بينِهما، ولقد عَهِدنا إلى أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، وعَهِدنا إليكم بامتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه، وبيَّنَّا لكم أنَّكم إن تجحدوا وحدانيَّة اللّه تعالى وشرعه فإنَّه سبحانه غني عنكم، لأنَّ له جميع ما في السَّموات والأرض، وكان اللّه غنيًّا عن خَلْقِهِ، حميدًا في صفاته وأفعاله ومع كونه غَنِيًّا عنكم يَحْمَدُ لكم إيمانكم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة واو الاستئناف في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾:

بيان عظم سلطان الله الموجب لطاعته وتقواه

لمّا كانت الواو استئنافيَّةً دلَّت على أنَّ الجملة مستأنَفةٌ، فهي منبِّهةٌ على كمالِ سَعتِه، وعِظَم قُدرتِه، وهذا تمجيد للّه تعالى، وتذكير بأنّه ربّ العالمين، وكناية عن عظيم سلطانه واستحقاقِه للتَّقوى[2].

بلاغة التّغليبِ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾:

تغليب غير العاقل من المخلوقات لِكونهم أكثر الموجودات

جاء بلفظ ﴿مَا﴾ التي لغيرِ العاقل تغليبًا لما لا يعقل على مَنْ يعقل؛ لأنَّ الغالب فيما حوته السَّماوات والأرض إنَّما هو جماد وحيوان، لا يعقل، وأجناس ذلك كثيرة، وأما العاقل فأجناسه قليلة إذ هي ثلاثة: إنسٌ وجنٌّ وملائكة[3].

بلاغة تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تدلُّ اللَّام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ على الاختصاص بطريق الخلق والمُلْكِ[4]، وقد أُكِّدَ هذا الاختصاص بتقديم المسندِ (للّه)؛

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/240، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219 - 221.

(3) ابن عطِيَّة المحرِّر الوجيز: 1/389، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 2/750.

(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/165، والقونويّ، حاشية القونويّ: 5/494.

الذي يُفيد الحصر، فهي للّه خَلْقًا ومُلكا، لا لغيره أصلا؛ لا استقلالا ولا اشتراكًا، وأكَّده أيضا بالتَّكرار في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تفصيلًا وتنبيهًا وتوكيدًا[1]، وبالطِّباق بين لفظتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

تأكيد قصر واختصاص الملك والخلق لله رب العالمين

نكتة التّعبير بـ﴿مَا﴾:

لمّا كانت ﴿مَا﴾ اسمًا موصولًا أعمَّ من (الذي) عُبِّر بها لمناسبة سَعَةِ ملكِه تعالى وعظمتِه.

دلالة تخصيص ذكر السَّماوات والأرض دون سائر المخلوقات:

خَصَّ النَّظمُ الكريم السَّماوات والأَرض بالذِّكر من بين المخلوقات؛ لأنَّها أعظم ما يُرَى من المخلوقات، وقَدَّمَ السَّماوات لعِظَمِهَا[2].

التَّخصيص والتَّقديم للدّلالة على التَّعظيم

بلاغة الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾:

سُلِكَ الكلامُ أوَّل الآية على الغيبة فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للإشعارِ بأنَّ الملك متعلّق بالألوهيَّة، ثمَّ عدلَ إلى التكلّم فقال: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾ بنونِ تعظيم المتكلِّم؛ لاستدرارِ سمع المخاطبين، ولبيانِ عظم الوصيَّة، وللمبادرة إلى العملِ بها، ثمَّ عاد إلى الغيبة فقال: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ التَّقوى متعلِّقةٌ باللّه وحده وأنّها من أمرِ الألوهيَّة، أي الذي لا يطاق انتقامه؛ لأنَّه لا كفؤَ له، ففي ذكر الاسم الجليل مع التّقوى إجلالٌ وتعظيمٌ وتخويف.

تعظيمُ أمرِ الوصيّة بالتّقوى والمبادرةُ إلى العمل بها

دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾:

أكّد الكلامَ بـ(اللام) الموطِّئة للقسمِ و(قد)؛ للإشعارِ بأنَّه لم يزل يوصي بفعل الخير، ولتأكيد العهد بالوصيّة، ولكيلا يتوهّمَ أحدٌ أنَّ ما تقدَّم من أحكامِ النّساء ليس فيه خيرٌ، وأنَّ أداء الحقوقِ والواجبات من التّقوى.

أداءُ حقوقِ النِّساء من التَّقوى

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 2/767.
(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/750.

سِرُّ التَّعبير بالوصيَّة بَدَلَ الأمر بالتَّقوى:

الوصيَّة تتضمَّنُ جـوامـعَ الخير الكثير

جعل الأمرَ بالتَّقوى وصيةً؛ لأنَّ الوصيَّة قولٌ يتضمّنُ جوامعَ الخير الكثير، معَ إيجازِ القول مع الاهتمامِ بحفظها وأدائها؛ إذْ يُقصد منها وَعْيُ السَّامع، واستحضارُه كلمة الوصيَّة في سائر أحواله، والتَّقوى تجمع الخيرات؛ لأنَّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تَكَرَّرَ لفظٌ - غير الأعلام كاسم اللّه - في القرآن ما تكرَّر لفظ التَّقوى[1].

دلالة التّعبيرِ بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

إيـتـاءُ الـكـتـاب مـن الـلـه سببٌ للتَّقوى

عُبِّر بالاسم الموصول؛ لِيكون إحضاره في ذهن السّامعِ بوساطة جملة الصِّلة ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ التي يُعلمُ انتسابُها إلى معيَّن؛ للإيماء إلى وجه الأمر بالتّقوى، والمعنى إيتاءُ الكتاب من اللّه سببٌ للتَّقوى، والكتابُ اسم للجنس يتناول الكتب السماوية كلَّها[2].

دلالة تقديم ذكر أهل الكتاب بالوصيَّة:

إلـهـاب هِـمَـمِ الـمـسـلـمـين لـلإقـبـال عـلى الـتَّـقـوى وتحقيقها أسوة بمن سبقهم

الإخبار بأنّ اللّه أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبلُ بالتَّقوى مقصودٌ منه إلهاب هِمَمِ المسلمين للتَّهمُّم بتقوى اللّه؛ لئلَّا تَفْضُلَهُم الأممُ الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإنَّ لِلتَّأسِّي أثرًا بالغًا في النُّفوس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: 183]؛ لأنَّ العلم بالمُشاركة في الأمر يَكون أدعى للقبول، وأهون على النَّفس[3].

فائدة بناء الفعل للمفعول في إيتاء الكتاب:

بُنِيَ الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القصد بيان كونهم أهلَ علم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/573.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220، والبِقاعيّ، نظم الدرر: 5/426.

الاعتناء بشأن العلم في كونه مُحققًا للتّقوى

ليُرغِّبَ فيما أوصوا به، ودلالة على أنَّ العلم في نفسهِ مُهَيِّئٌ للقبول، ولإفادة أنَّ وصيتهم أعمُّ من أن تكون في الكتاب، أو على لسان الرَّسول من غير كتاب[1].

نكتة العطف في قوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾:

الوصيَّة بالتَّقوى قديمة ما زال يوصى اللّٰهُ بها عباده

للإشعارِ بأنّ الوصيَّةَ بالتَّقوى قديمة ما زال يوصى اللّٰه بها عباده، فلستم بها مخصوصين، والمعنى: ووصَّيناكم مثلَ ما وصَّيناهم؛ لأنَّ النّاسَ بالتَّقوى يُسعدون عنده، وبها ينالون النَّجاة في العاقبة[2].

دلالة ﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

تأكيدُ العمل بالتّقوى

لمّا كانت التَّوصيةُ في معنى القول دلَّ على أنَّ (أنْ) مفسِّرةٌ للإجمالِ الذي تضمّنه لفظ ﴿وَصَّيۡنَا﴾[3]، فكأنَّ تقوى اللّٰه مضمّنةٌ في لفظ ﴿وَصَّيۡنَا﴾، ثمَّ ذكرها مرَّةً أخرى تفصيلًا، لزيادة تقريرِ المعنى وتأكيده.

سِرُّ بناء الشَّرط بـ﴿وَإِن﴾ الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

استبعاد تَصَوُّر الكفر ممَّن أدرك سَعة ملك الله وغِناه

بُنِيَ الشَّرط بـ (إنْ) لاستبعاد تَصَوُّر الكفر عن أي إنسان عاقل يُدرك بوعيه وحِسِّه أنَّه - سبحانه - مالك الملكوت الغَني عن عباده الذي لا يَضُرُّه كُفْرُ خلقه ولا معاصيهم، والذي تصريف أمور خَلْقِهِ بيده - سبحانه - وله ما في السَّماوات وما في الأرض.

بلاغة التّعبير بين التّخصيص والتّغليب في قولِه: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

أمّة القرآن هي الأولى بالتّقوى

يُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطاب لِمَنْ وَقَعَ لَهُ الْخِطَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾، وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ، فيفيد تخصيص الخطاب بالمخاطبين من أمّة تنزيل القرآن وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ شَامِلًا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَلِلْمُخَاطَبِينَ،

(1) البِقاعيّ، نظم الدرر: 5/427.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/574، والبِقاعيّ، نظم الدرر: 5/427.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/574.

فيكون فيه بلاغة التّغليب؛ لتنبيه أمّة التّنزيل بأنّهم هم الأولى بأنْ يتّقوا اللّه[1].

نكتة التّعبير بالكفر في مقابلة التّقوى في قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

أساسُ التّقوى الإيمـانُ باللهِ ورسلِه

لمّا قابل الكفر بالأمر بالتّقوى، دلَّ على أنَّ التّقوى المأمورَ بها هنا منظورٌ فيها إلى أساسِها، وهو الإيمانُ باللّه ورُسُله وما فيها من جوامعِ الخير، أي باعتبارِ المجموع؛ للإشعارِ بأنَّ تركَ العملِ بالتّقوى بمجموعِها موجبٌ للكفرِ، وأنَّ أساسَ التّقوى الإيمانُ باللّه وبرسلُه.

بلاغة الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الاكتفاء بتعليل الجواب كناية عن كمال غناه عن خلقه

تقدير الجواب المحذوف: (وإن تكفروا فإن اللّه غني عن تقواك وإيمانكم، فإنَّ له ما في السَّماوات وما في الأرض)، ولكن اكتُفِيَ في الآية بتعليل الجواب: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عنه؛ لتهويل الجزاء وتفخيمه، وللإيذان بأنّه تعالى لا يتضرَّرُ بعصيان من يعصونه، والتّقدير إن تكفروا فاعلموا أنَّ للّه ما في السماوات وما في الأرض، ولم يذكر (فاعلموا) لإثبات الوصف سواءٌ علموا أو لم يعلموا، ليكون في مقام الزّجرِ عن الكفر، ويؤيد ذلك القصدُ بتذييلِها بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾[2].

حسنُ التّذييل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾:

تأكيد كمال غنى اللـه عـن خلقه واستـحـقـاقـه للمحامد سواء شكر النّاس أم كفروا

1. أفادت جملة التّذييل ثبات اتّصاف اللّه بكونه غنيًّا حميدًا، وظهور آثار هذين الوصفين في النّاس.

2. ذُكِرَ هذان الوصفان الجليلان مقترنين هنا؛ للإيذان بأنَّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على أن يغني كلَّ أحد من سعته، وأنّ مِن تمامِ غناه أنَّه تعالى كاملُ الأوصاف، وللإيذانِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/91.
(2) التحرير والتنوير: 5/220.

بأنه تعالى محمودٌ في ذاتِه حمِدوه أو لم يحْمَدوه؛ فلا يتضرَّر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم، وإنما وصّاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته، وهذا تمجيد لله تعالى، وتذكير بأنَّه رب العالمين[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والوصية:

الإنذار زجر وتخويف للغير، والوصية أعمُّ

الْإِنْذَار معناه التَّخويف في الإبلاغ، وأَصل الإنذار الإعلام. يُقَالُ: أَنذَرْتُه أُنْذِرُه إِنْذارًا إِذا أَعلمته، فأَنا مُنْذِر ونَذير أَي مُعْلِم ومُخوِّف ومُحذِّر[2]، فالإنذار لا يكون إلا بالزَّجر عن القبيح وما يعتقد المنذر قبحه، ولا يكون إلا من المرء لغيره وتكون الوصية منه لنفسه ولغيره، فيقال: أوصيت نفسي كما يقال: أوصيت غيري، ولا يقال: أنذرت نفسي، والوصية تكون بالحسن والقبيح؛ لأنه يجوز أن يوصي الرَّجلُ الرَّجل بفعل القَبيح كما يوصي بفعل الحسن، ولا يجوز أن ينذره إلا فيما هو قبيح، كما أن النَّذارة نقيض البشارة وليست الوصية نقيضة البشارة[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 78.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

[النساء: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَكرار تذكير العِباد بشمول مُلك الله لمخلوقاته بعد ذِكرِ غِناه عنهم

أعادَ اللّه سُبحانه وتعالى تذكيرَ عبادِه بكونِه مالكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ أي: العوالمِ كلِّها؛ ليتمثَّلوا عظمتَه، ويستحضروا الدَّليلَ على غناه وحمدِه؛ فيعلَموا أنَّه إذا كان قد توكَّل بإغناءِ كلٍّ مِن الزَّوجين إذا أقامَا حدودَه في تفرُّقِهما، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما أنَّه قادرٌ على إنجازِ كلِّ ما وعَد وأوعَد به، فيجبُ أن يكتفوا به في التَّوكُّلِ لهم(1).

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَكِيلًا﴾: كفيلا قيِّما بِجَمِيع مَا خَلَقَ؛ مُشْتَقٌّ من (وكل) تقول ووكلتُ فلَانا الى كذا أَكِلُه وكلًا ووُكولًا، وَتقول: كِلْني إِلى كذا أَي دَعْني أقِم بِهِ، وأصل (وكل) يدلُّ على اعتمادِ غيرك في أمرك، وعلى هذا المعنى تدور اشتقاقات هذه الكلمة، ومنه التَّوَكُّل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان: إذا ضَيَّعَ أمره مُتَّكِلًا على غيره، والوكيلُ في أسماء اللّه جل جلاله: القَيِّم الكَفيل بأَرْزَاقِ العِباد، وسُمِّيَ الوكيل لأنَّه يُوكل إليه الأمر كُلُّه، وحقيقتُه أنَّه يستقلُّ بأمر المَوكول إليه(2).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إلى الله يُوكل الأمر كُلُّه

اللّه وحده المالك لكلِّ المخلوقات، الكفيلُ بها والقَيِّمُ عليها، وله وحدَه ملك ما في السَّماوات وما في الأرض، فهو المُسَيْطِرُ والمُسَيِّر

(1) رضا، تفسير المنار: 5/369.
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النِّهاية: (وكل).

والمدبّر، المُستَحِقُّ أن يُطاع، وكفى به سُبحانه قائمًا بشؤون خلقه حافظًا لها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة مجيء الواو الاستئنافية في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لّما كانت الواو استئنافيَّةً دلَّ على أنَّ الكلام مستأنف مسوقٌ للمخاطبين توطئةً لما بعده من الجملة الشرطية وتمهيدًا لما يحكمُ بها[2].

بلاغة إيجازِ القصر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لـلـه مـا في السماوات وما في الأرض خلقًا ومُلكًا يتصرف فيهم كيفما يشاء

في الجملة تخصيص ما في السماوات وما في الأرض للّه تعالى، بمعنى أنَّ له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقًا ومُلكًا يتصرف فيهم كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة[3].

مناسبة الإطناب في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

إفادة التّمييز الإطناب في الكلام لتقرير المعنى

لّما كان قوله ﴿وَكِيلًا﴾ تمييزًا، فالكلامُ على معنى الإطناب لتوخّي الإجمال والتّفصيل، فإنَّ المسند إليه موصوفٌ بكونه وكيلًا؛ لأنَّ الاسم الجليل (اللّه) متّصف بجميع كمالات صفات الجلال والجمال، فلمّا جاء التّمييز ﴿وَكِيلًا﴾ كأنَّه فصّل ما أجمله في الاسم الجليل من وصفِ الوكيل[4].

بلاغةُ التّذييل في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

الاكتفاء بالله في التّوكّل

لّما كان اللّه مالك السماوات والأرض، أي العوالم كلها، فإنَّه قادر على إنجاز كلِّ ما وعد وأوعد به، فيجب أن يكتفوا به في التَّوكل لهم، بحفظهم وتدبيرِ أمورِهم، ويُستعمل الوكيل بمعنى المهيمن والمسيطر

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.

والرَّقيب، وفي جملة التّذييل معنى العمومِ والكلّيَّة فهي في مقامِ المَثَلِ لإمكانِ التَّمثُّلِ بها[1].

نكتة تَكرار جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

تقريرُ لِمَا هو موجِبُ تَقْواه ليتَّقوه، فيُطيعوه ولا يعصُوه، وتأكيد ذلك

تكررت جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي كلٍّ مرَّة لها دلالة مقصودة تختلف عن الأخرى، فكُرِّرتِ العبارةُ ثلاث مرات وسبقتها جملة نظيرتهن: وهي ما تقدم من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: 126]. فحصل تكرارها أربع مرات في كلام متناسق.

فأما الأولى السابقة فهي واقعة موقع التعليل لجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 116]، ولقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: 116]، والتذييل لهما، والاحتراس لجملة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: 125] وذكرت الثَّانية في بدايةِ الآية (131) تسليةً للإنسان عما فاته، وتنبيهًا على موضع الرجاء لهذين المفترقين، وذكرَت الثَّالثة: لبيانِ أنَّ وصيَّته لرحمته لا لحاجته وأنَّهم إنْ كفروا به لا يضروه شيئًا، ففيه تنبيهٌ على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه غنيًّا حميدًا، وذكرَت الرّابعة للدَّلالة على كونه غنيًّا وليكونَ مقدِّمةً للوعيد، وبيانُ وجه الإعادة عمومًا أنَّه وإذا كان الدليل الواحد دليلا على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به على الثاني، ثم يذكره ثالثا ليستدل به على المدلول الثالث، والمرجعُ في تعيين المراد هو السِّياق، وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأنه عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فكان العلم

(1) رضا، تفسير المنار: 5/369.

الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى، فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن والكمال(1).

أَسْرارُ ختم الآيات الثَّلاث بما خُتِمَتْ به من أوصاف الله تعالى:

بيـان تمـام إحسـان الله تـعالى لخلقه وتفضُّله عليهم وحفظه لهم مع غناه عنهم في كل ذلك

في الآية الأولى إذنٌ للرَّجل والمرأة في أنْ يتفرّقا بطلاق بعد عدم انقيادهما لحُسن المعاشرة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ أي: يرزقُه زوجًا خيرًا من زوجه وعيشًا أَهْنأ من عَيْشِهِ(2)، ولمَّا قال: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ ناسب هذا ذِكْرُ ما يقتضي من صفاته عموم وجوه الإحسان، وأنَّه هو الذي يغني المحتاج منهما؛ لأنَّه لا نفاد لما عنده - سبحانه - فإنّهما بعد الفرقة يَرْجُوان الغنى من عنده؛ لأنَّه سُبحانه واسعُ الرِّزق وواسع المقدرة فإنَّ لله ما في السَّماوات وما في الأرض وأرزاق العباد من جملتها، وأنَّه سبحانه المُنفرد بِعِلْمِ وَجْهِ الحكمة في تآلُفهم وتفرُّقهم؛ لذا كان من المناسب أن تُختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ عَقَّب ما تقدَّمه من قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ فهو سُبحانه كثير العطاء، جَمُّ الإحسان عليم بخفيات مصالح العباد، ثُمَّ أتبع بما يُلائِمُ ذلك ويزيده وضوحًا من إخباره تعالى من أنَّ السَّماوات والأرض وما فيهما ملكه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾، ثُمَّ أتبع سُبْحانه بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدَّم من المخاطبين بِكُتُبِهِ المُنَزَّلة رحمةً لعباده وإحسانًا كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، وَأَعْلَمَ - سُبحانه - أنَّه مُحْسِنٌ بذلك إليهم؛ لأنَّ تقواهم إيَّاه تعالى تُثْمِرُ لهم السَّلامة من عذابه، والنَّجاة من أليم عقابه، وأنَّه ليس به إلى تقواهم من حاجة، ولا تعود إليه سبحانه من ذلك منفعة

(1) الراغب، تفسير الراغب: 4/187، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/239، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/92.
(2) الزَّمخشريّ، الكشاف: 1/573.

إذ هو الغنيُّ عنهم وعن عبادتهم فقال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فهو الغنيُّ عنكم وعن عبادتكم، والكُلُّ ممن في السَّماوات والأرض مُلكٌ له سبحانه وتحت قهره، وفي قبضته يفعل فيهم ما يشاء ولا يكون منهم إلا ما يشاؤه ويريده وهو الغني الحميد، ثُمَّ أَكَّدَ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لِمَا بُنِيَ عَلَيْهِ من قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي حافظًا لجميع ذلك، مُنفردًا بتدبيره، فختام الآيات بهذا هو المناسب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحفيظ والوكيل:

الحفيظ أعمُّ من الوكيل من جهة الشَّيء المحفوظ

الوكيل في صفات الله بمعنى المُتولِّي القائم بتدبير خلقه؛ لأنَّه مالك لهم رحيم بهم، مهيمنٌ عليهم[2]، والحفيظ: الحارس ومن يُجعل إليه نظر غَيْرِه وحفظه، وهو بمنزلة الوكيل إلَّا أنَّ الوكيل يكون مجعولًا له الحِفظ من جانب الشَّيء المحفوظ، والحفيظُ أعمُّ؛ لأنَّه يكون من جانبه ومن جانب مواليه، ولكلٍّ وصفٍ جليلٍ سياقُه ومقامُه[3].

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/110.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 577.
(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 7/421.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾ [النساء: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كمال تصرُّف الله في مخلوقاته بعد بيان كمال ملكه لهم

لَمَّا تَقرَّر في الآية السَّابقة شمول ملك اللّه وتمام قدرته أنتجَ قولَه: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾[1]، فإذا علمتم أيُّها النَّاس أنَّ لله ما في السَّماوات وما في الأرض يَتصرَّف فيه كيف شاء، فاعلموا أنَّه إن يشأ يُذهبكم بعذاب ينزله بكم، أو أمَّةٍ قوية يُسلِّطها عليكم، فإنَّه يُذهبُكم ويأتي بآخرين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: يُفنيكم ويُهْلِكُكم، والذَّهاب المُضيُّ يُقال ذهب الشَّيء يذهب ذهابًا وذهوبًا، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، ويُعَبَّرُ به عن الموت، وأصل(ذهب) يدلُّ على انتقال الشَّيء من مكان إلى آخر ومضيِّه والمُراد هُنا هو المعنى الكنائي وهو الإفناءُ والإهلاك[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

كمال تَصَرُّف الله تعالى في مخلوقاته حَسب مَشيئته وقُدرته

إن يشأ اللّه يُهلكُّم أيُّها النَّاس ويأت بآخرين غيركم يُطيعون اللّه ولا يعصونه، وهو ذو الجلال، قدير على ذلك وعلى كلِّ شيءٍ[4].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/429.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/369.
(3) الأصفهانّي، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذهب)، والكفوي، الكُلِّيَّات، ص: 993، وابن جرير، جامع البيان: 9/298.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

البُّعد عن مواجهة المُخاطَبين بلفظ الإفناء والإهلاك الشَّديد

حُذِفَ مفعول ﴿يَشَأۡ﴾ لعلمِ السّامعِ أنَّ ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكونَ أو ألّا يكون، والتقدير (إنْ يشأ إفناءَكم وإيجادَ آخَرين يذهبْكم)، فيقدَّرُ المفعولُ بما دلَّ عليه جواب الشّرط، ومن البلاغةِ أنْ يأتيَ المفعولُ في مثلِ هذا الأسلوبِ محذوفًا، فإنَّ البيانَ إذا وردَ بعدَ الإبهام وبعدَ التّحريكِ له أبدًا لطفًا ونبلًا لا يكونُ إذا لم يتقدَّم ما يحرِّكه[1].

نكتة التّعبير بقوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

دلالة الفعل (يُذْهِبْكُمْ) على معنى الإبعاد والاستبدال

عُبِّر بالفعل ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ دون (يُفنِكُم) أو (يَسْتأصِلْكُمْ) لما يؤذنُ به لفظ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ من معنى الإبعاد والاستبدال؛ للإشعار بأنَّه إنّما يذهبكم بسبب كفركم باللّٰه ورسله، ولهذا عطف عليه ما يدلُّ على الاستبدال في قوله: ﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾.

سِرُّ الاعتراض بالنِّداء في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

تخويف وتنبيه لجميع النَّاس على خطر مُخالفة أمر الخالق ﷻ

لمّا جاء الاعتراض بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بين متعاطفين متلازمين دلَّ على العنايةِ به وبالخبرِ، ولأنَّ النّداء بصيغة (النّاس) دلَّ على تعميم الكلام الذي جاء على سبيل الخطاب، ولتنبيه المخاطبين وتوقيفهم لتحضر أذهانهم، ولتخويفهم بأنَّ اللّٰه تعالى قادر على إفنائهم وإيجاد ناس آخرين يكونون خيرًا منهم في تلقي الدِّينِ[2].

نكتة العطف في جواب الشّرط في قوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

عطف ﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ على ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ على معنى أنَّ الإتيان

---

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163 - 164، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/221.

بآخرين لا يكون حتّى يكونَ إذهابُكم؛ ليكون الشّرط في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ سببًا للإتيان بآخرين بوساطةِ كونه سببًا لإذهابِكم، بمعنى جَعْلِ جزاءِ الشّرط المعطوف عليه سببًا في المعطوف، فلا يكون إتيانٌ بآخرين قبل إذهابِكم، ففيه تخويفٌ وتهويلٌ للمُخالفين لأوامر الله[1].

لا يكون إتيانٌ بآخرين قبل إذهابِكم

بديع المقابلة بين قوله تعالى: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

لمّا كان الإذهاب سببًا في الإتيان بآخرين جاء الفعلان على طريق المقابلة لتنبيه السامعين على عظم الخيرِ الذي هم فيه، بالمقارنة بين ما هم فيه وما سيحرمونه لو أذهبهم الله وأبعدهم، وأنَّهم إنْ لم يشكروا هذه النّعم أبدلهم الله بآخرين، ويكون المعنى إن استمررتم على الشِّرك أو كان منكم الكفر بعد الإيمان، فإنَّ الله تعالى بمقتضى سننه في الفطرة الإنسانيَّة يفنيكم بإذهاب قوتكم وسيطرة الفساد عليكم، ويجيء من بعدكم من ينصر الحق، ويكون النَّص كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2].

توبيخ المشركين وتهديد المرتدين عن الدِّين

نكتة التّعبير بقوله: ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

لمّا كان مدلولُ (آخر) هو من مدلولِ جنس ما تقدّمه، فَلَوْ قُلْتَ: جَاءَ زَيْدٌ وَآخَرُ مَعَهُ، أَوْ مَرَرْتُ بِامْرَأَةٍ وَأُخْرَى مَعَهَا، أَوِ اشْتَرَيْتُ فَرَسًا وَآخَرَ لم يكن (آخر) إلَّا بعضًا من جنسِ ما عطفَ عليه، فلا يجوز أن يُوصَف بكلمة آخر موصوفٌ لم يتقدمه ذكر مقابل له أَصْلًا، فلا تقول: جاءني آخر، من غير أن تتكلَّم بشيءٍ قبل؛ لأنَّ معنى آخر

مناسبة اللّفظ لسياق الكلام

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 234.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1892.

معنى مُغاير في الذَّات مجانس في الوصف لمّا كان ما قابله الضمير في ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ وصرّح بالمرادِ في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دلَّ على أنَّ المقصود من ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ هو ناس آخرون. ولو قال: (ويأتِ بغيركم) لاحتمل أن يكون بناسٍ غيركم أو بخلقٍ غير خلقِ بني آدم غيركم، لأنَّ (غَيْرًا) تَقَعُ عَلَى الْمُغَايِرِ فِي جِنْسٍ أَوْ فِي صِفَةٍ، فَتَقُولُ: اشْتَرَيْتُ ثَوْبًا وَغَيْرَهُ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ثَوْبًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ثَوْبٍ[1].

سِرُّ تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾:

الاهـتـمـام بمَوْضِعِ الحكم وتـمـكـيـنـه في النَّفس

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله (عَلَى ذَلِكَ)؛ لمَوْضِعِ الاهتمام وهو التَّغييرُ والتَّبديل، الذي يستبعدونه لفرط إحساس المشركين بقوَّتهم، وغرورهم بدولتهم، واستضعافهم لشأن المؤمنين الصَّادقين[2].

دلالة التَّذييل بوصف القُدْرة مع المُبالغة:

بـيـان اقـتـدار الـلـه تـعـالى عـلى الـتَّـغـيـير والتَّبديل تخويفًا للمخالفين

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، قديرًا على إذهابكم والإتيان بآخرين، وأتى بصيغة المُبالغة في القُدرة؛ لأنَّه تعالى لا يمتنع عليه شيء أراده، وهذا وعيدٌ لهم وتخويفٌ[3]، فالتَّعبير بصيغة (فعيل)؛ للمبالغةِ وتبيينِ بليغِ القدرةِ، وأنَّه سبحانه لا يُعجِزُه مُرادٌ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/93، والتحرير والتنوير: 5/222.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1892.

(3) البحر المحيط في التفسير: 4/93.

(4) الزمخشري: الكشاف: 1/574، والبيضاوي: أنوار التنزيل: 2/102، وأبو حيان: البحر المحيط: 4/93.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ١٣٤﴾ [النساء: 134]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كمال ملك الثواب في الدارين بعد بيان سعة الملك وكمال التصرف

لَمَّا كان في سياق الكلام السَّابق تهديدٌ بليغٌ وتعريفٌ بِسعة المُلك وكمال التَّصرف، وكان مدار أحوال المُتشاحِّين في الإرث وحقوق الأزواج وغيرِها الأمرَ الدُّنيويَّ[1]؛ استعجالًا لمنافعِ الدُّنيا على خيراتِ الآخرة، نبَّهَهم اللّه تعالى إلى أنَّ خيرَ الدُّنيا بيده، وخير الآخرة أيضًا، فإنِ اتَّقَوه نالُوا الخَيْرَيْنِ، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَوَابَ﴾: جزاء، يُقَالُ: أَثابَه يُثِيبه إِثابةً، وثوابا: جازاه، فالثَّواب هو الجزاء على العمل، ويكون في الخير والشَّرِّ، وأصل (ثوب) يدلُّ على العَوْدِ وَالرُّجوع، فسمي ما يرجع من الجزاء إلى العامل من خير وشر ثوابا[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثواب الدارين بيد الله فليُطلَب منه وحده

من كان منكم - أيُّها النَّاس - يُريد بعمله ثواب الدُّنيا فقط، فَلْيَعْلَمْ أنَّ اللّه عنده ثواب الدُّنيا والآخرة، فليَطلب ثوابُهما من اللّه وحدَه، وهو وحده الذي يملك النَّعيمَين، وكان اللّه سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم، وسيجازيكم عليها[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/430.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/223.
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ثوب)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 60.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أسرار إيجاز الحذف في جواب الشَّرط عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

تعليم للمؤمنين ألّا يصدَّهم الإيمان عن طلب ثواب الدُّنيا فالكلُّ من فضل الله

جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ محذوف تدلُّ عليه علَّته؛ وحُذِفَ لقصد أن يذهب السَّامع كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوبا ولا مكروها، يكون عليه من يريد الحياة الدنيا إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه، بخلاف ما لو اقتصر على ذكر شيءٍ من الجزاء، فربما خف أمره عنده، فأفاد الحذف مع التّخويف والتّعظيم والتّفخيم عمومَ التّقدير[1].

بلاغة قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

تذكير المؤمنين بألّا يُلهيهم طلب خير الدُّنيا الفانية عن طلب الآخرة الباقية

إنّما عُبِّر بهذا الجواب الذي هو على خلاف مقتضى الظّاهر ليكونَ تَبْكِيتًا لِلْإِنْسَانِ وتوبيخًا له؛ حَيْثُ اقْتَصَرَ عَلَى أَحَدِ السُّؤَالَيْنِ مَعَ كَوْنِ الْمَسْئُولِ وهو اللّه تعالى مَالِكًا لِلثَّوَابَيْنِ، وَحَثَّ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ مَطْلُوبِه، فَمَنْ طَلَبَ خَسِيسًا مَعَ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْلُبَ نَفِيسًا فَهُوَ دَنِيءُ الْهِمَّةِ، فجاء الجواب تعريضًا بمن يريدُ الأخسَّ ومدحًا لمن يريد الآخرة، والمعنى: مادام عند اللّه ثواب الدنيا والآخرة فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أخسُّهما، وأيضًا وَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ آتَاهُ اللّه مِنَ الدُّنْيَا مَا أَحَبَّ وَجَزَاهُ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ[2]، وفي الآية تذكيرٌ للمؤمنين بألّا يلهيهم طلب خير الدنيا الخسّيسة الفانية عن طلب الآخرة النفيسة الباقية، إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند اللّه، وأيضا تعليمٌ للمؤمنين ألّا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإن في الحلال سعة لهم ومندوحة، إذ الخير كلُّه بيد اللّه[3].

---

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/593.

(2) البَغَويّ، معالم التنزيل: 1/712، والزمخشري، الكشاف: 1/574، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/93.

(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 5/223، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1893.

دلالة فاء الجواب في قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

قد يقال: عنده تعالى ثوابُ الدنيا والآخرة، سواء حصلت هذه الإرادة أو لم تحصل، فلِمَ وقعت الفاء جوابًا للشّرط؟ والجواب أنّه جاء للتّذكير بما عنده تعالى لتعظيمه وتفخيمه، والتقدير، فعند اللّه ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده(1).

بلاغة التَّذييل بذكر السَّمع والبصر على سبيل المبالغة:

استحضار مراقبة الله في سائر الأقوال والأفعال

وردت جملة التّذييل لإفادة ثبات الوصفين الجليلين للّه تعالى وظهور آثارهما في النّاس، ولمناسَبتهما لسياق الآية، فيجب على النّاس أن يعلموا أن اللّه سميعٌ بالغ السَّمع لكلِّ قولٍ وإنْ خفي، نَفْسيًّا كان أو لسانيًّا لأقوال العباد في مخاطباتهم ومناجاتهم، ﴿بَصِيرٗا﴾ أي بالغ البصر بجميع أمورهم في جميع حالاتهم، فيجب عليهم أن يراقبوه في أقوالهم وأفعالهم، فذلك الذي يعينهم على تزكية نفوسهم، والوقوف عند حدود العدل والفضيلة التي يستقيم بها أمر دنياهم، ويستعدون به للحياة الأبدية في آخرتهم(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجر والثواب:

الأجر ثواب وزيادة عوض

الأجر هو جزاء العمل الذي يكون فيه عقد أو ما يجري مجراه، والشَّاهد أنَّك تقول: ما أَعْمَلُ حتَّى آخذ أجري ولا يصحُّ أن تقول حتى آخذ ثوابي، أمَّا الثَّواب فقد اشتهر في الجزاء على الحسنات، والأجرُ يُقال في هذا المعنى، ويُقال فيما معناه المعاوضة بالانتفاع(3).

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/574، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/240.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/370، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/431.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 10/25.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا سَبَقَ الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ مَعَ النِّسَاءِ فِي مُعَامَلَتِهِنَّ؛ أُتْبِعَ بِالْعَدْلِ الْعَامِّ فِي الْأَحْكَامِ كُلِّهَا

في مناسبَةِ هذه الآيةِ لمَا قبلَهَا وجهانِ:

أوَّلُهَا: إنَّ الله سُبحانَهُ لَمَّا مَنَعَ النَّاسَ عَن أَن يُقَصِّرُوا عَن طَلَبِ ثَوَابِ الدّنيَا، وأَمَرَهُم أَن يَكُونُوا طَالِبِينَ ثَوَابَ الآخِرَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: 134]؛ ذَكَرَ عَقِيبَهُ هَذِهِ الآيَةَ، وَبَيَّنَ أَنَّ كَمَالَ سَعَادَةِ الإنسَانِ في أَن تَكُونَ جميعُ أحوَالِهِ للّه تعالى، فقال سُبحانَهُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

ثَانيهَا: أَنَّهُ تَقَدَّمَ في هَذِهِ السُّورَةِ أَمرُ النَّاسِ بالقِسطِ، فقَالَ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وأمرَهُم بالإشهاد على دَفعِ أَموَالِ اليَتَامَى إِليهم، وأَمَرَهُم بَعدَ ذَلِكَ بِبَذلِ النَّفسِ والمَالِ في سَبيلِ اللّه، فجاءَت هَذِهِ الآيةُ بمنزِلَةِ التَّأكيدِ لِكُلِّ مَا جَرَى ذِكْرُهُ في هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهِي[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: (قوم) أصلٌ يَدُلُّ على انْتِصَابٍ أَوْ عَزْمٍ[2]، و(قوّام) صِيغَةُ مبالغةٍ مِن (قَائِمٍ)، والقائمُ بالشّيءِ هو الكَفِيلُ بِهِ الذي يَأْتِي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/240 - 241.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

بِهِ علَى وَجْهِه[1]، وقولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ "أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ بِأَنْ يَكُونُوا مُبَالِغِينَ فِي اخْتِيَارِ الْعَدْلِ وَالِاحْتِرَازِ عَنِ الْجَوْرِ وَالْمَيْلِ"[2].

2) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: (قسط) أَصْلٌ يَدُلُّ على الْعَدْلِ، ومِنْهُ: أَقْسَطَ الرَّجلُ؛ فهو مُقْسِطٌ[3]، أي: عادِلٌ، و"القِسْطُ والإقساطُ: العَدْلُ، يُقَالُ: أقسط الرَّجُلُ يُقسِط إقساطًا؛ إذا عدل وأتَى بالقسطِ"[4].

3) ﴿غَنِيًّا﴾: (غ ن ي) أَصْلٌ يدُلُّ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَالْغِنَى: ضدُّ الفقْرِ، والغَنِيُّ: الذي لا يَحْتَاجُ إلى أحَدٍ في شَيْءٍ[5]. والغِنَى: "عَدَمُ إِلَى الاحْتِيَاجِ إِلَى شَيْءٍ، وَهُوَ مَقُولٌ عَلَيْهِ بِالتَّفَاوُتِ، فَيُعْرَفُ بِالْمُتَعَلِّقِ، كَقَوْلِهِ:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ ***.....................

وَيُعْرَفُ بِالْعُرْفِ، يُقَالُ: فُلَانٌ غَنِيٌّ، بِمَعْنَى لَهُ ثَرْوَةٌ يَسْتَطِيعُ بِهَا تَحْصِيلَ حَاجَاتِهِ مِنْ غَيْرِ فَضْلٍ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، فَوِجْدَانُ أُجُورِ الْأُجَرَاءِ غِنًى، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَأْجِرُ مُحْتَاجًا إِلَى الْأُجَرَاءِ؛ لأنّ وِجْدَانَ الْأُجُورِ يَجْعَلُهُ كَغَيْرِ الْمُحْتَاجِ، وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ تَعَالَى"[6].

4) ﴿فَقِيرًا﴾: (ف ق ر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْفِرَاجٍ في شَيْءٍ، ومِنْهُ: فقَارُ الظَّهْرِ، وتقولُ العرَبُ: رجلٌ فقيرٌ منَ المالِ؛ إذا كان لا شَيْءَ لَهُ[7]، وهُوَ "الْمُحْتَاجُ، إِلَّا أَنَّهُ يُقَالُ: افْتَقَرَ إِلَى كَذَا، بِالتَّخْصِيصِ، فَإِذَا قِيلَ: هُوَ فَقِيرٌ؛ فَمَعْنَاهُ فِي الْعُرْفِ: أَنَّهُ كَثِيرُ الِاحْتِيَاجِ إِلَى فَضْلِ النَّاسِ، أَوْ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى الْحَاجَةِ؛ لِقِلَّةِ ثَرْوَتِهِ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَقِيرٌ فَقْرًا نِسْبِيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمّد ﷺ: 38]"[8].

5) ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾: الْعَيْنُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ كَالْمُتَضَادَّيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى اسْتِوَاءٍ،

(1) الواحدي، البسيط: 7/140.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/241.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/117.
(5) الجوهري، الصحاح: (غنى)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني)، وابن منظور، لسان العرب: (غنا).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/227.
(7) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فقر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/227.

وَالْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى اعْوِجَاجٍ[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ معناهُ: "أَنْ تَعْدِلُوا عَن إِقَامَتِهَا لِمَن تُؤَدُّونهَا له أو عَلَيْهِ"[2]. وجمهورُ أهل التَّفسيرِ على أنّ قولَهُ تعالَى: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ مِنَ العُدُولِ؛ وهُوَ المَيْلُ والجَوْرُ[3].

6) ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾: (لوي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِمَالَةِ لِلشَّيْءِ، يُقَالُ: لَوَى يَدَهُ يَلْوِيهَا، وَلَوَى بِرَأْسِهِ؛ إذا أَمَالَهُ[4]، وهُوَ من اللّيّ في الشّهادَةِ والمَيْلِ إلَى أحَدِ الْخَصْمَيْنِ[5]، والمرادُ: (تَحْرِيفُ الكَلَامِ، أَيْ: تَلْوُوا عَنِ الحُكْم بالعَدْلِ، أو عَنِ الشّهادة بالحقِّ، أو تُعْرِضُوا عن صاحِبِ الحقِّ، أو عَنِ المَشْهُود لَهُ بالحَقِّ)[6].

7) ﴿تُعْرِضُوا۟﴾: (عرض) أصل يدلّ على العرضِ الذي يخالف الطول، ومِنهُ قولهم: أعرضْتُ عَنِ الْأَمْرِ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ؛ أي: صدَّ عَنْهُ وولّاه عرضَه[7]. والْإِعْرَاضُ في قوله تعالى: ﴿تُعْرِضُوا۟﴾ يُرادُ به "الامْتِنَاعُ مِنَ الْقَضَاءِ وَمِنْ أَدَاءِ الشّهَادَةِ، وَالْمُمَاطَلَةُ في الْحُكْم مَعَ ظُهُورِ الْحَقِّ"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

التّجرد عن كلّ حظ وهوى لإقامة العدالة

يا أيُّها الذين آمَنُوا باللّه واتَّبَعُوا رَسُولَهُ ﷺ، كُونُوا قَائِمين بالعَدْلِ في جميعِ أَحْوَالِكُمْ، مُؤَدِّين الشّهادَةَ بالْحَقِّ مع كلّ أحد، ولَوِ اقْتَضَى ذلكَ أن تُقِرُّوا على أنفُسِكُم بالحَقِّ أو علَى وَالِدِيكُم أو الْأَقْرَبِينَ مِنْكُمْ، وَلَا تُرَاعُوا الغَنِيَّ لِغِنَاهُ، ولا الفَقِيرَ رَحْمَةً لَهُ بزعْمِكُمْ، بَلِ اشْهَدُوا بالحقِّ على مَن كَانَ، فاللّه سُبحانَهُ أَوْلَى بالْفَقِيرِ والغَنِيِّ مِنْكُمْ وأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمَا، فلا تَتَّبِعُوا الأَهْوَاءَ في شَهَادَتِكُم؛ لِئَلَّا تَمِيلُوا عنِ الحقّ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (عدل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/142.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوي)، والرّاغب، المفردات: (لوى).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 118.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 7/142، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/712، والنّيسابوري، إيجاز البيان: 1/257، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، وابن جزي، التسهيل: 1/213.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/228.

فِيهَا، وإن حَرَّفْتُمُ الشّهادَةَ بِأَدَائِهَا على غَيْرِ وَجْهِهَا، أو أَعْرَضْتُم عَن أدَائِهَا؛ فإنَّ اللّه تعالَى كان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[1]، وهذه الآيَةُ قد جمعَتْ أصْلَي التَّحاكُم: القضاء والشَّهادَة[2].

الْإِيْضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ النِّدَاءِ بِـ (يَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَةُ خِطَابِهِ

جَاء التَّعْبِيرُ في النِّداءِ بـ (يَا) في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهي أَكْثَرُ حُرُوفِ النِّدَاءِ اسْتِعْمَالًا، وهِي أَصْلُ حُرُوفِ النِّدَاءِ، وإذا حُذِف حَرْفُ النِّداءِ لَا يُقدَّرُ غَيْرُ (يا) وَلِكَوْنِه أَصْلًا مُشْتَرِكًا لِنِدَاءِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيد.

ونِداءُ اللّه سبحانه لعبادِه بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ نِدَاءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلُوقِ؛ فَحقيقٌ أَنْ يَكُونَ بأداةِ النِّداء التي لِلْبَعِيد.

وَفِي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعِيد نِكاتٌ:

أُولاهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْجَمْعِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْحَادِثَةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ.

ثَانِيها: افْتِتَاحُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ لِلاهْتِمَامِ بِمَا سَيُلْقَى إِلَى الْمُخَاطَبِينَ قَصْدًا لِإِحْضَارِ الذِّهْنِ لِوَعْيِ مَا سَيُقَالُ لَهُمْ، فَنَزَّلَ الْحَاضِرَ مَنْزِلَةَ الْبَعِيدِ، فَطَلَبَ حُضُورَهُ بِحَرْفِ النِّدَاءِ الْمَوْضُوعِ لِطَلَبِ الْإِقْبَالِ.

ثالثها: عِظَمُ شأن جواب النِّداءِ؛ وهو الأمر بالعدلِ وإقامَةِ الشَّهادَةِ على وَجْهِهَا والبُعْدِ عَن كِتْمَانِهَا.

والنِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ضَرْبٌ مِنْ تَقْوِيةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلك: أَنَّ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنْهَا إلّا باسمٍ بعدَهَا يُزِيلُ غُموضَهَا، فجاء

(1) ابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 208، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

بالاسم الموصول منادى بعدها، وَجُعِلَ طَرِيقُ تَعْرِيفِ الْمُنَادَى طَرِيقَ الْمَوْصُولِيَّةِ لِمَا تُؤْذِنُ بِهِ الصِّلَةُ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ اللّٰه تَعَالَى، لِأَنَّ ذَلِكَ أَخَصُّ صِفَاتِهِمْ تِلْقَاءَ أَوَامِرِ اللّٰه تَعَالَى وفي هذا انتقالٌ مِنَ الْإِبْهَامِ إلى الْإِيضَاحِ والْبَيَانِ، وفي هذا نَوْعُ تَوْكِيدٍ.

وفي اقترانِه بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إِذِ النِّداءُ في الأَصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِالنِّدَاءِ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

فِي النِّدَاءِ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ إِيذَانٌ بِمَشَقَّةِ التَّكْلِيفِ، وَفِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ مَا يُخَفِّفُ مَشَقَّةَ الطَّاعَةِ

افتُتِحَتْ هذه الآيةُ بالنِّداءِ، فقالَ جلّ شَأْنُهُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وجاء المُنادى بهذا الوصفِ إيذانًا منه ﷻ على أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّلَةِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَتَقَبَّلُوا مَا سَيُؤْمَرُونَ بِهِ، بما يليه من مشقّةِ التّكليفِ، فيكونُ النّداءُ بعنوانِ الإيمانِ تخفيفًا لمشقّةِ الطّاعةِ، والمعنى: ليكُنْ إيمانُكم مقتضيًا مِنْكُمُ المبالغَةَ والاجتِهَادَ في الْقِيَامِ بالعَدْلِ والاِسْتِقَامَةِ[1].

وكيفما قلَّبت كتابَ اللّٰه تعالَى فستجدُ أنّ النّداءَ بهذا الوصفِ يكُونُ تخصيصا بالمؤمنين وتذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه من صبر على مشقّةِ التّكليفِ، ولذا أُعْقِبَ بالأمْرِ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهُو تكليفٌ شديدٌ، كما قال العارفُونَ: لذّةُ النّداءِ خفّفتْ مشقّةَ الطّاعةِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْإِيمَانِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ مُسْتَقِرَّةٌ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ مُقِرُّونَ بِجَمِيعِ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو الْمُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكَانِ:

أحدُها: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلْإِيمَان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطْلِقَ لفظُهُ؛ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، من غَيْرِ احتياجٍ إلى التَّنصيص على الْمُتَعَلّقِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 3/368.

والآخر: إرادةُ العمُوم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المعمول مؤذِنٌ بالْعُمُوم، والمعنى: آمَنُوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شَرْعًا.

ويصحُّ إرادةُ الوجهين معًا؛ لعدم التَّنافي بينَهُما؛ فمعنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: الذين جاؤوا بالإيمانِ المشهورةِ دِلَالتُه، المَعْرُوفَة أفرادُهُ؛ وهي كلُّ ما يَجِبُ الإيمَانُ بِهِ شَرْعًا.

سِرُّ التّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المُبَالَغَةِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾:

وُجُوبُ لُزُومِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْقِيَامِ بِهِ

قولُهُ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾: جاء خَبَرُ كان بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ؛ للدِّلَالَةِ على الْأَمْرِ بتَكْرَارِ الْقِيَام وَدَوَامِه[1]، فَـ "صِيغَةُ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دَالَّةٌ عَلَى الكَثْرَةِ المُرَادِ لَازِمُهَا، وهُوَ عَدَمُ الإخلَالِ بهَذَا القِيَام في حَالٍ مِنَ الأَحوَالِ"[2]، فلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ جَوْرٌ مَا[3]؛ وذَلِكَ ممّا زادَ التّكليفَ مشقّةً، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كُونُوا قَائِمِينَ بالقِسْطِ)، أَيْ: مُقْتَضَى إيمَانِكم الْمُبَالَغَةُ والاجتهادُ في القيام بالعَدْلِ والِاسْتِقَامةِ؛ إِذْ بِهِ انْتِظامُ أَمْرِ الدّارَيْنِ الْمُوجِبِ لثَوَابِهما[4].

وفي التَّعبير بالجَمْعِ إيماءٌ إلى ضَرُورةِ التَّعاونِ والتَّآزُرِ، وفيه معنَى التَّوزيعِ؛ لأنَّ الخطَابِ للذينَ آمنُوا وهُمْ جَمْعٌ، فكانَ في جَمْعِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دِلَالَةٌ على أن كلَّ واحدٍ مَأْمُورٌ بالعَدْلِ؛ لأنَّ مقابلَةَ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ تَقْتَضِي الْقِسْمَةَ آحَادًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقِسْطِ دُونَ العَدْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾:

الْقِسْطُ أَخَصُّ مِنَ الْعَدْلِ؛ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ

وقعَ التَّعبيرُ بلفظ القِسْطِ دُونَ العَدْلِ في قولِه تعالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لأنَّ لفظَ القِسطِ مختصٌّ في الدِّلَالَةِ عَلى العَدلِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/410، والقنّوجي، فتح البيان: 3/261.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/224.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 3/368.

في الحُكم، بخِلاف العَدلِ؛ فَهُوَ أَعَمُّ مِن ذَلِكَ، فاختِيرَ لكونِهِ الأنسَبَ لسياقِ الآيةِ، وَيَدُلُّ على ذلك تَعْقِيبُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّرشِيحِ لِلَفْظِ القِسْطِ؛ لكونِ الشّهَادَةِ مِنْ عَلَائِقِ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ[1].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ الْأَخْبَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

الحُكْمُ بِالعَدْلِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِكَوْنِ الشَّهَادَةِ للهِ تَعَالَى

تكرَّرَ الخَبَرُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فإنَّ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ خبرٌ أوَّل، و﴿شُهَدَآءَ﴾ خبرٌ ثانٍ، وكان الخبرُ الثَّاني متمِّمًا لِلأمْرِ بالْقِيَام بِالْعَدْلِ، وذلك لأنَّ الحكمَ بالعَدْلِ لا يَكْمُلُ حتَّى تكونَ الشَّهادةُ للّه خالصَةً لوجهِه.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الشَّهَادَةِ بِكَوْنِهَا لله سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

عِظَمُ شَأْنِ الشَّهَادَةِ، وَالتَّحْرِيضُ عَلَى تَحْصِيلِ الإِخْلَاصِ فِيهَا

قُيِّدَتِ الشَّهادةُ بكونِهَا للّه تعالى في قولِه جلَّ شَأْنُهُ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾؛ تذكيرًا لَهُمْ بعَظَمَتِه ﷻ، تَعْظِيمًا لأمرِ العَدْلِ، وأنَّهُمْ بحِفْظِهِمْ لهُ يكُونونَ مِن شُهَدَاءِ اللّه تعالَى[2]، وفي هذا إِنْهَاضٌ لَهُمْ وإِلْهَابٌ لِتَحْصِيلِ الإِخْلَاصِ، وفيهِ بَيَانُ عِظَم الشّهادَة.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْأَمْرِ بِالْقِسْطِ عَلَى جَعْلِ الشَّهَادَةِ لله تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

الشَّهَادَةُ قَوْلٌ، وَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ قَوْلٌ وَفِعْلٌ

قُدِّمَ الْأَمْرُ بِالْقِسْطِ عَلَى جَعْلِ الشَّهَادَةِ للّه سُبحانَهُ في قولِه ﷻ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾؛ لوجهَيْنِ:

أحدُهمَا: أنّ القِيَامَ بِالقِسطِ أَعَمُّ، والشّهَادَةَ أَخَصُّ.

والآخَرُ: أَنَّ القِيَامَ بِالقِسْطِ فِعلٌ وقَولٌ، والشّهَادَةَ قَولٌ فَقَط[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/192.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾:

دِقَّــةُ الْـبَـيَـانِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ مَرَاتِبِ الْأَلْفَاظِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

قالَ الله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [المائدة: 8]، فرُوعِيَ في آية النِّساءِ لفظُ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، فناسبهُ اقترَانُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، ورُعِيَ في المائدة الاسم الأحسن؛ فقُدِّمَ[1].

وذكر ابن الزُّبير: أنَّ آيةَ النِّساء سيقتْ مع آياتٍ فيهَا الْأَمْرُ بالعَدْلِ والقِسْطِ، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾ [النساء: 123]، وقال بعدَها: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾، ثم توالت الآيات على هذا المعنى، فكان الأنسب تقديم قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾.

بخلاف آية المائدة؛ فإنَّ قبلها الأمرُ بالطَّهارة، ثم أمر الله تعالى بتذكُّر نِعَمِهِ على عبادِه والوقوفِ مع ما عهد به سُبحانه إليهم، وأمر بتقواهُ، فكان الأنسب أن يرِدَ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، ثمَّ أتبعَ ذلك بما بُنِيَ عليه من الشهادةِ بالقِسْطِ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

الْإِقْرَارُ وَالشَّهَادَةُ كِلَاهُمَا طَرِيقٌ لِإِقَامَةِ الْحُقُوقِ

الإقرارُ: هُوَ إضافَةُ الإنْسَانِ لغيرِهِ شيئًا على نفسِه، وهو عكسُ الشَّهادَة؛ فإنَّها إضافَةُ الإنسَانِ شيئًا لغَيْرِه على غيرِه، وتخالِفُهُمَا الدَّعْوَى؛ فهي إضافةُ الإنسَانِ شيئًا لنفسِه على غيرِه[3]، ففي قولِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/61.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/111.
(3) ابن عثيمين، الشَّرح الممتع، 15/473.

اللّه تعالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ذِكرٌ للإقرَارِ بلفظِ الشَّهادَةِ؛ وإنَّما عُبِّر عن الإقرارِ بكونِهِ شهادةً لأحدِ وجهين:

أوَّلُهما: اشتراكُ الإقْرَار والشَّهادَةِ في كونهما سبيلًا لإقامَةِ الْحُقُوق، فأمَرَ اللّه تعالى المؤمنَ أَن يَشْهَدَ على نفسه بالحقّ؛ بأَنْ يُقِرّ على نَفْسه، وسُمِّيَ شهادةً لكونِهِ موجبًا لِلْحَقّ عَلَيْهِ، ولأنّ الإقرَارَ في مَعْنَى الشّهادَةِ عَلَيْهَا بِإِلْزَام الحَقِّ لَهَا[1]. "فكأنّه قيل: ولو كان لأحدٍ عَلَيْكُم حَقّ فَأَقِرّوا به عَلَى أَنْفُسِكُم"[2].

والآخَرُ: أن يكون ذلك تَغْليبًا؛ إذْ قد ذُكِرَ مع الأنفُسِ الوالدَانِ والأقرَبُون، فقال سُبحانه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَلَوۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

وُجُوبُ إِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ مَا يُشْهَدُ فِيهِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَوۡ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ لكونِ الغالبِ في شهادَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يُقيمُها؛ وذلكَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ العَبْدُ مِنْ مُحَابَاةِ نَفْسِهِ وَمُرَاعَاتِهَا؛ فلأجْلِ ذلك نُصَّ على هذهِ الحالِ ونُبِّهَ عليهَا[3]، فإنَّ المَرْءَ إذَا أقَامَ الحقَّ على نفسِهِ؛ فهو لإقامَةِ الحقِّ عَلَى غيره أقدَرُ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

مَشَقَّةُ الْإِقْرَارِ عَلَى النَّفْسِ وَشِدَّتُهُ عَلَيْهَا

المعنى المركزي لحرفِ الجرِّ (عَلَى): هو الاستعلاءُ، وهنا جاءت للاستعلاء المجازي الذي يفيد وجوب فعل الشيء في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مشعرٌ بأنَّ

---

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/191، والزمخشري، الكشاف: 1/575، والخازن، لباب التأويل: 1/437.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/140، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122 - 123، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/241، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94 - 95.

متعلَّقَهُ فيه شدَّةٌ وكُلفةٌ عَلَى المَجْرُورِ بِهِ، والمَعْنَى: "وَلَوْ كَانَ قَضَاءُ القَاضِي مِنْكُمْ وَشَهَادَةُ الشَّاهِدِ مِنْكُمْ بِمَا فِيهِ ضُرٌّ وَكَرَاهَةٌ لِلْقَاضِي والشّاهِدِ، وَهَذَا أَقْصَى مَا يُبَالغُ عَلَيْهِ في الشِّدَّةِ وَالْأَذَى؛ لأنّ أَشَقَّ شَيْءٍ عَلَى المَرْءِ مَا يَنَالُهُ مِنْ أَذًى وَضُرٍّ في ذَاتِهِ"[1]، فأفادَ حَرْفُ الاسْتِعْلَاءِ أنَّ الشّهادَةَ علَى النَّفْسِ واجِبَةٌ وإِنْ لَحِقَهَا ضرَرٌ بالشَّاهِدِ وكانَتْ وَبَالًا عَلَى نفسِهِ في ظاهِرِ الحالِ[2].

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

مِنَ التَّفَنُّنِ فِي القَوْلِ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِالحَذْفِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِمَقْصُودِهِ

الجارُّ والمَجْرُورُ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ في قَوْلِهِ جلّ شَأْنُهُ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ متعلّق بِمَحذُوف، والتَّقدير: (وَلَوْ كانَت الشَّهَادَةُ على أَنْفُسِكُم أو آبائكُم أو أَقارِبِكُم)[3]، فحُذِفَتْ كانَ مع اسمِهَا، وهذا الحذفُ بعد (لَوْ) كَثِيرٌ في لغةِ العربِ، ومنهُ: ائْتِنِي بِتَمْرٍ وَلَوْ حَشَفًا، أَيْ: ولَوْ كَانَ التَّمْرُ حَشَفًا[4].

في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ حذْفٌ آخَرُ - على بعض آراء أهل العلم - وهو حذفُ جوابِ (لَوْ)، والتَّقدير: ولو كانتِ الشَّهادةُ على أنفسِكُمْ؛ فاشهَدُوا بِهَا. لوجبت الشهادة عليكم.

والتَّصرُّفُ في الكلامِ بالحذفِ مِن غَيْرِ إِخْلَالٍ بالمعنَى مِنْ بَلِيغِ القَوْلِ وأعلاهُ.

بَلَاغَةُ الوصل فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

ذهبَ بَعضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ (لو) في مِثلِ هذِهِ المواضعِ لا يُقصَد مِنها الشرطُ، وإنَّما يُقصَدُ منها المُبالغةُ والإتيانُ بالفعلِ على كُلِّ حالٍ، فجَعلَها وصليّةً، كقوله ﷺ: التَمسْ ولو خاتمًا مِنْ حَديدٍ. والتَّقديرُ: ولو كان المُلتمَسُ خاتمًا... وليس المعنى ههنا للشرطِ وإنما المعنى المبالغة في حَضّ الرّاغبينَ بالزَّواجِ بِتَقديمِ هَديةٍ للنّساءِ قبل استحلالِهِنَّ بالزّواج

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/140، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/512.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/575.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/95.

مَهما افتَقَروا وضاقَتْ ذاتُ أيدهِمْ، على أنّ تَقديمَهم شَيئًا أثمَنَ مِنَ الحديدِ أولى إذا كانَ يسرًا.

والذي يَبدو لنا أنّ تذوُّقَ المَعنى بها على أنَّها وصلية يُحلّقُ بخَيالِ المُخاطبِ إلى أبعادٍ كبيرة، فكأنَّهُ يأمُرُ المُؤمنينَ بأداءِ الشَّهادةِ ويَأمرُهُمْ بالعَدلِ وإقامةِ القِسطِ مَهما ثَقلَ الأمرُ عَليهِمْ أو كَلّفَ مِنْ ثمن. قالَ ابنُ عاشورٍ في (لو) في مَوضعٍ ما من سورةِ البَقرة: "وَ(لَوْ) وَصْلِيَّةٌ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَقْصَى الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ مَظِنَّةُ تَفْضِيلِ الْمُشْرِكَةِ، فَالْأَمَةُ الْمُؤْمِنَةُ أَفْضَلُ مِنْهَا حَتَّى فِي تِلْكَ الْحَالَةِ وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِي مَوْقِعِ لَوْ الْوَصْلِيَّةِ وَالْوَاوِ الَّتِي قَبْلَهَا وَالْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [البَقَرَة: 170]"[(1)].

والمعنى في سورةِ النِّساءِ على ما قَدّمناهُ في مِنْ قَبلُ وهُو المُبالغةُ المُستفادةُ مِنْ (لو) الوَصليّةِ، فكأنّهُ يقولُ: "وَلَو على قيبلتكم أَوْ وَالِدَيْكُمْ وَقَرَابَتِكُمْ. وَمَوْقِعُ الْمُبَالَغَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ (لَوْ) الْوَصْلِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَنْتَصِرُوا بِمَوَالِيهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ وَيَدْفَعُوا عَنْهُمْ"[(2)].

نُكْتَةُ التَّدَلِّي فِي تَرْتِيبِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾:

لَا يَجُوزُ أَنْ يَحُولَ دُونَ الْعَدْلِ صِلَاتُ الْقُرْبَى وَالْعَصَبِيَّةِ

جَاء اسْتِقْصَاءُ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِم فِي قَوْلِه: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، في منتهَى البلاغةِ والحُسْنِ؛ إذْ بُدِئَ بالأنْفس، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، فإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَعَزُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، ثُمَّ ثُنِّيَ بِالْوَالِدَيْنِ وَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَسَبَبُ نَشْأَتِه، وَقَدْ أُمِرَ بِبِرِّهِمَا وَتَعْظِيمِهِما، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالْأَقْرَبِينَ وَهُمْ مَظِنَّةُ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعَصُّبِ، وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ أُمِرَ بِالْقِسْطِ والشّهَادَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحقِّ، فغيرُهُمْ من الأجانبِ أَوْلَى وأحْرَى[(3)]، فَتَرْتِيبُ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِم جَاءَ علَى طَرِيقَةِ التَّدلِّي.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/362.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/95، وابن جزي، التسهيل: 1/213، والقنّوجي، فتح البيان: 3/261.

والغرض من ذلكَ الحثُّ والتَّحريضُ عَلَى حِفْظِ الحُقُوقِ فِي الْأَمْوَالِ وغيرِهَا[1].

سِرُّ التَّنْصِيصِ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَقْرَبِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾:

وُجُوبُ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَلَى الْوَالِدَيْنِ، وَلَا يَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُقُوقِهِمَا

ظاهرُ التَّصريحِ بِوُجُوبِ الشَّهادةِ على النَّفْسِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يُغْنِي عن ذِكْرِ الآباءِ والأَقْرَبِينَ؛ لأنَّه إذا وَجبَتِ الشَّهادةُ على النَّفْسِ؛ فالشَّهادةُ علَى الآباءِ والأقْرَبِين أَوْلَى بالوجُوبِ، إلَّا أنَّهُ نُصَّ عليهِمَا مِن بابِ الاحْتِرَاسِ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ إقرارَ العبْدِ على نفسِهِ إنَّما جازَ لكونِهِ حقًّا لهُ، فهو أميرُ نفسِه فيه، بخلافِ الآباءِ والأَقْرَبِينَ؛ فقد يتوهَّمُ عدمَ جوازِ ذلكَ؛ لما يَلْحَقُهُ بسببِ ذلك مِنَ الملامَةِ والمسبَّةِ والمعرَّةِ[2].

فَقَوْلُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ داخِلٌ في حيّزِ المُبَالَغَةِ بإِقَامَةِ الشّهادةِ والإِقْرَارِ، ولا عِبْرَةَ بِغَضَبِهِمَا إِذَا كانَتِ الشّهَادَةُ عَلَيْهِمَا بِحَقٍّ[3]، فَتقَعُ نَفْسُ المُؤمِنِ في حَرَجٍ بينَ حقّيْنِ: حَقِّ البِرِّ بالوَالِدَيْنِ، وحقِّ إقامَةِ الشّهادَةِ، فجَاءَ قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ لرفعِ هذَا الحَرَجِ، ولبيَانِ أنَّ الشَّهادةَ عليهِمَا لا ينافِي البِرَّ بهِمَا؛ إذِ اللّه تعالى هو الآمِرُ بالشَّهادةِ عليهما والآمِرُ ببرِّهِمَا، ولا يأمُرُ اللّه ﷻ بالأمرَيْنِ المتضادَّيْنِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

لَا اعْتِبَارَ فِي إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِلَى حَالِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا واقعًا موقعَ العلّةِ لِمَجْمُوعِ الجُملةِ قبلَهُ، وهي قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/226.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وفي ذلكَ دَفعٌ للدَّاعِي إلى عَدَمِ إقامةِ الحقِّ في الشّهادةِ؛ فإنّ الدّاعِيَ لذلك أَمْرَانِ: الخوفُ أَوِ الشّفقةُ، فالخوف سَبَبٌ للتّساهُلِ في الشَّهادة على الغَنِيِّ، والشَّفقَةُ داعٍ للتَّغاضِي في الشَّهادَةِ على الفقيرِ.

سَبَبُ اختيار الشرط بـ﴿إن﴾ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

اللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بالنَّاسِ مِنْ أنْفسِهِمْ

استعمَلَ البَيانُ القُرآنيُّ الشَّرطَ بـ ﴿إن﴾ لِما فيها مِنْ عَدمِ القَطعِ والجَزمِ في الحُكمِ الذي بَعدَها، وإنَّما يكونُ استخدامُها فيما قَدْ يَقعُ وفيما قَدْ لا يَقعُ فَقالَ تعالى: ﴿إِن يَكُنْ﴾، وقَدْ أشارَ أبو حَيّان إلى خُصوصيّةِ الشَّرطِ بـ(إنْ) في قَولِه تَعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الأعراف: 131] فقال: "وَأَتَى الشَّرْطُ بِـ إِنْ في إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ وَهِيَ لِلْمُمْكِنِ إِبْرَازًا أَنَّ إِصَابَةَ السَّيِّئَةِ مِمَّا قَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا يَقَعُ وَجْهُهُ رَحْمَةُ اللّه أَوْسَعُ"[2] فلمَّا كانَ اللّه أعلَمُ بعبادِهِ وما يَكونُ مِنهُمْ، وعَلِمَ بسابِقِ علمِهِ أنَّ مِنهُمْ مَنْ يَحيدُ عَنِ الحَقِّ والقِسطِ عَصبيّةً ومِنهُم غيرَ ذَلك استخدَمَ لذلِكَ ما يُفيدُ الشَّيءَ وعَدمَهُ.

نُكْتَةُ إِضْمَارِ اسْمِ كَانَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

اللهُ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِالْخَلْقِ وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ

في حذفِ اسْمِ (كانَ) من قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ توسيعٌ لِلْمُرَادِ؛ ليشملَ كلَّ مَنْ له صِلَةٌ بإقامةِ الشّهادة، والمَعْنَى: إن يكن المشهودُ عليه غنيًّا؛ فلا يُخَافُ مِنْهُ فيُراعَى لأجل غِنَاهُ، وإن يكُنْ المشهودُ عليه فقيرًا؛ فلا يُشفقُ عَلَيْهِ فيُراعَى من أجل فقْرِه[3]؛ فإنَّ اللّه تعالَى هو الآمِرُ بشهادَةِ الحقِّ عليْهِم، وهو سُبحانَهُ أعلَمُ بمصالِحِ الخَلْقِ وأرْحَمُ بهِمْ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/226.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/147.
(3) الواحدي، البسيط: 7/141، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/413، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، والعكبري، التبيان: 1/397.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

اسْتِقْصَاءُ الْأَوْصَافِ الَّتِي هِيَ مَظِنَّةٌ لِعُدُولِ الْمَرْءِ عَنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ

بين ﴿غَنِيًّا﴾ و﴿فَقِيرًا﴾ في قولِه تَعالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ طِباقٌ، وهو طباقُ إيجابٍ، وله أثرٌ بالغٌ في اسْتيفاءِ المَانعَيْن مِن الشَّهادةِ بالحقِّ؛ وهُمَا الخَوْفُ والشّفقَةُ، فإنَّهُ لَمّا اسْتَقْصَى جَميعُ ما يُشْهَدُ عليهِ، بالنَّصِّ على النّفسِ والوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ؛ اسْتَقْصَى بالطّباقِ الصِّفَاتُ التي هِيَ مظنّةٌ لِعُدولِ المَرْءِ عَن إقامة الحقِّ.

وَذكر سُبحانَهُ صِفتَي الفَقْرِ والْغِنَى لِنَهْيِ الشُّهَداءِ عَنِ التّأثُّرِ بأحْوالِ مَن يُشهَدُ عَلَيْه، والتّقديرُ: (إن يَكُن المشهُودُ عَلَيْهِ غَنيًّا فلا يمنَعُ الشّهادةَ عليهِ لِغنَاه طلبًا لرضَاه، أو فَقيرا فلا يَمْنَعُهَا ترحّمًا عليْه)[1]، فَلَمَّا أَبْطَلَت الآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا التَّأَثُّرَ لِلْحَميَّة؛ أبطلَتْ هذه الآيَةُ التّأَثُّرَ بِالْمَظَاهِرِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ التَّحْذِيرُ مِنَ التّأَثُّرِ بِأَحْوَالِ المشْهُودِ عَلَيْهِ[2].

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

وُجُوبُ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ وَتَحْرِيمُ كَتْمِهَا

﴿إِن﴾ في قولِه سُبحانَهُ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، والتّقدير: (إن يَكُنِ المَشْهُودُ عليه غنيًّا؛ فلا تَمْتَنِعْ مِنَ الشّهادةِ تَعْظِيمًا له، وإن كان فقيرًا؛ فلا تَمْتَنِعْ مِن الشّهادة عَلَيْهِ إشفاقًا عَلَيْه؛ فإنّ الله أَوْلَى بالغنيّ والفقير)[3]، وفي حذفِ جوابِ الشّرطِ إيمَاءٌ إلى أنّه لا يَنْبَغِي أن يكُونَ الامتناعُ عن الشّهادةِ كائنًا في واقعِ النّاسِ، فكانَ حَذْفُهُ مِنَ اللَّفْظِ إشعَارًا بِتَحَتُّمِ إعدَامِهِ في الوَاقِعِ.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ دَلِيلِ الْجَوَابِ مُقَامَ الْجَوَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾:

لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي أَحْوَالِ الْعِبَادِ صَارِفًا عَنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ

قولُ اللّه تَعالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ لا يَصِحّ أن يكُونَ جَوَابًا للشّرط في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾؛ لكونِ الشّرطِ سِيقَ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/404، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/61.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/226.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/213.

لإيجَابِ الشّهادَةِ علَى الصِّنفَيْنِ المَذْكُورَيْن، فقولهُ تعالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ ليس جوابَ الشَّرْط، وإنّما هو دليلٌ على الجَواب وعِلَّةٌ لَهُ، والتَّقدير: إن يكُن غنِيًّا أو فقيرًا؛ فلا تَهْتَمُّوا لأمرِهِمَا حالَ التَّقاضِي؛ إذْ إنَّ اللّه تعالى أَوْلَى بالنَّظَرِ في حالِهِمَا، والواجب عليهم النَّظَرُ إلى ما كُلِّفْتُمْ به وهو الحقُّ[1].

نُكْتَةُ دلالة الضمير العائد على المثنى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾:

الضميرَ في "بهما" ليس عائدًا على الغني والفقير المذكورين أولًا، بل على جنسَيِ الغني والفقير المدلولِ عليهما بالمذكورَيْن، تقديرُه: وإنْ يكنِ المشهودُ عليه غنيًا أو فقيرًا فليشهد عليه، فاللّه أَوْلى بجنسَيِ الغني والفقير، ويَدُلُّ على هذا قراءة أُبَيّ: (فاللّه أَوْلى بهم) أي بالأغنياء والفقراءِ مراعاةً للجنس"[2].

دِلَالَةُ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾:

دَوَامُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ فِي الْخَلْقِ وَالشَّرْعِ

جاءَ دليلُ الجوابِ - وهو قولُه تَعالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ - معبَّرًا عنه بالجملةِ الاسْميَّة؛ للدِّلالةِ على ثُبُوتِ هذه الأَوْلَويَّة واسْتِمْرَارِهَا مِنَ اللّه تعالَى لعبادِه بِمَا يُغنِيهِمْ عن نظْرَةِ العبَادِ لَهُمْ خوفًا مِنْهُمْ أو عليهِمْ.

دِلَالَةُ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ:

مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْحَامِلَةِ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ اتِّبَاعُ الْهَوَى

الْأَمرُ بالعدْلِ في صدْرِ الآيةِ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يستلزمُ النَّهْيَ عن الجَوْرِ والظُّلْم؛ لِمَا عُلِمَ من أنَّ الأمرَ بالشَّيءِ يستَلْزِمُ النَّهْيَ عَن ضدِّهِ، فقولُهُ سُبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ تصريحٌ بذلكَ المفهوم، ونكْتَةُ هذا التَّصريح: بيانُ السَّببِ الحاملِ على تَرْكِ إقامةِ العدلِ والدّافع له، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الهَوَى وكَراهِيَّةَ العَدْلِ قَرِينَانِ؛ ولهذا لَمَّا أَمَرَ اللّه سُبحانَهُ بِالقِيَامِ بِالعَدْلِ وَبِالشَّهَادَةِ لِقصْدِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.
(2) السمين، الدر المصون: 4/116.

مَرْضَاةِ اللّه تعالَى؛ نَهَى عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى[1]، ولَمّا قالَ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ (فَرَّعَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾، فَجَعَلَ الْمَيْلَ نَحْوَ الْمَوَالِي وَالْأَقَارِبِ مِنَ الْهَوَى، وَالنَّظَرَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْغِنَى مِنَ الْهَوَى)[2].

دِلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾:

الْحَذْفُ طَرِيقٌ لِتَوْسِيعِ الْمَعَانِي وَتَكْثِيرِهَا

جاءَ التَّركيبُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ مُحْتَمِلًا لمعانٍ عدّة؛ إذْ يجُوزُ أن يكونَ في الْكَلَامِ حذفٌ، والتَّقديرُ: فلا تتّبعُوا الهَوَى، واتّقُوا ألاّ تعدِلُوا، ويكون النَّهْيُ دليلًا على الأمرِ المحذوفِ.

ويحْتَمِلُ أن يكُونَ المصدرُ المؤوّلُ مفعولًا لأجله، ويكونُ التّقديرُ: فلا تتّبعُوا الهوى كَرَاهِيَّةَ العدلِ، أو: اتركُوا الهَوَى لأجلِ تحقيق العَدْلِ، أو انتهُوا خوفَ أن تجُوروا أو محبّةَ أن تُقْسِطُوا[3]، وهذا المصدرُ وقعَ تعليلًا للنّهي.

ولا تعارُضَ بين هذه التّقديرَاتِ، بل إنَّ احتمالَ التَّركيبِ القرآنيِّ لهَا يُفيدُ توسيعَ المَعَاني مع وجازَةِ اللّفظ.

دِلَالَةُ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾:

الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ضِدِّهِ عَامٌّ لِكُلِّ الْعِبَادِ

الأصلُ في الخِطَابِ أن يكونَ لمعيَّنٍ، والخطابُ في قولِه: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ لا يُرادُ به قومٌ معيَّنُونَ، وإنَّما المرادُ به عمومُ العِبَادِ، فيكون الخِطَابُ خرجَ عن أصلِه في إرادةِ المعيَّن قصدًا لإفادَةِ الشُّمولِ.

والآيَةُ تشمَلُ "القضاءَ والشَّهادَة، والتَّوسُّطَ بين النَّاسِ، وكلّ إنسان مأخوذٌ بأنْ يَعْدِلَ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/96.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.
(3) الواحدي، البسيط: 7/142، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/191، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/123، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/512، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/315 - 316.
(4) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/316، وابن جزي، التسهيل: 1/213.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الْفِعْلَيْنِ ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ وَ﴿تُعْرِضُوا۟﴾:

شُـمُـولُ النَّـهْيِ لِـكُـلِّ مَـيْـلٍ عَـنِ الْحَقِّ

حُذِفَ متعلّق الفِعْلَيْنِ ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ و﴿تُعْرِضُوا۟﴾ لإفادَةِ العُموم؛ إذْ إنَّ حذفَ المتعلَّق مؤذِنٌ بذلك، فيكون صالحًا لتقْدِيرِ متعلّقِه المَحْذُوفِ مَجْرُورًا بِـ (عَن)، أو مجرورًا بِـ (علَى)، فَيَشْمَلُ مَعَانيَ العُدُولِ عن الحقِّ في الحُكْم، والعدولِ عن الصّدقِ في الشّهادةِ، أو التّثاقلِ في تَمْكِينِ المُحِقِّ مِن حقِّه، وأداءِ الشّهادةِ لطالِبِهَا.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ الشَّرْطِ وَنُكْتَةُ حَذْفِ جَوَابِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أَحْـكَــامُ الـلـهِ تَعَالَى عَهْدٌ بَيْنَهُ وَبَـيْـنَ الْـعِـبَادِ؛ فَمَنْ أَخَلَّ بِشَيْءٍ مِـنْـهَـا اسْـتَـحَـقَّ الْعُقُوبَةَ

قولُ اللّه جلّ وعلَا: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ يُرادُ بها التَّهديدُ، وصيغَتْ بصورةِ التّعليق، لإبرازِهَا في صورةِ العَقْدِ، فمن أَخَلَّ بالشَّرطِ فلَوَى أو أعرضَ؛ فإنَّ جزاءَهُ ثابتٌ مُسْتَمِرٌ بما دلَّ عليهِ جوابُ الشّرطِ المَحْذوفُ؛ إذِ التَّقدير: يعاقِبُكُم على ذلك؛ لأنَّ اللّه كان بما تعلَمُون خَبِيرًا[1].

التَّهْدِيدُ بِالْمُبْهَمِ أَشَدُّ فِي الْوَعِيدِ؛ إِذْ إِنَّ النَّفْسَ تَذْهَبُ فِي تَصَوُّرِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ

وحُذِفَ جواب الشّرط؛ لما في حذفه في سياق التَّهديد من زيادةٍ في الوعيدِ؛ حيث إنّ التّهديد بالمُبْهَم الذي يخفَى على المخاطَب يجعل النَّفس تؤوِّله بأنواعٍ من السّوء كثيرةٍ، فتستدعي صورًا متعدِّدةً من العذاب، فيتحقّق التّهديد بأتّمِ صُورةٍ.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ دَلِيلِ جَوَابِ الشَّرْطِ مُقَامَ جَوَابِ الشَّرْطِ الصَّرِيحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

لَيُّ الشَّهَادَةِ أَوِ الْإِعْـرَاضُ عَنْهَا مُوجِبٌ لِلْعُقُوبَةِ

قولُ اللّه تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ليسَ هُوَ جوَابَ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾، وإنَّما هُوَ دَليلٌ على الجَوَابِ المَحْذُوف، والتّقديرُ: وإن تلْوُوا أن تعرضُوا يُعَاقِبْكُم؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ كان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[2]، وإنَّمَا حُذِفَ الجوابُ وسِيقَ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.

(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.

الْإِخْبَارُ بِعِلْمِ اللّه تَعَالَى دَليلًا عليه؛ لِتأكيدِ مَا جَاءَ الشّرطُ لِأَجْلِهِ - وَهُوَ التّهْدِيدُ - وَالْمُبَالَغَةُ فِيه.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

الجملةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ إخبارٌ مِنَ اللّه تَعَالَى بأنّه يَعْلَمُ جميعَ مَا يَفْعَلُونَ، وهو لفظٌ يُرادُ به لازِمُ هذا العِلْمِ يومَ القِيامَةِ؛ وهو المجازاةُ على هذه الأعمالِ[1]، فالجملة خرجَتْ مخرجَ الكنايةِ عن الوعيدِ والتّهديد؛ إذِ الخبيرُ بفاعلِ الشَّرِّ والسُّوءِ وهو قديرٌ، لَا يُعجِزُهُ أَنْ يعاقبَهُ عَلَى ذَلِكَ[2].

فكَان في إِتْبَاعِ جُمْلَةِ الشّرطِ بهذِهِ الجُمْلَةِ زيادةٌ في التّهديدِ والْوَعِيد.

وعُبِّرَ عن هذا الوعيدِ بالجملةِ الاسميَّةِ إشعارًا بِثُبُوتِ عِلْمِهِ ﷻ ودوامِه، وتَقْوِيَةً لِلْخَبَرِ؛ إِعْلَامًا بقوّةِ عِلْمِه علَى وَجْهِ الحَقِيقَةِ.

وفي تصديرِ الجملةِ بـ (إِنَّ) تقويةٌ لهذا المعنَى.

> عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ يَقْتَضِي مُجَازَاتَهُمْ عَلَيْهَا

> فِي التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ تَقْوِيَةٌ لِلْمَعْنَى وَتَأْكِيدٌ لَهُ، وَإِشْعَارٌ بِقُوَّةِ التَّهْدِيدِ

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّة، فجيءَ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مِنْ قولِهِ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾؛ لِمَا يتضمَّنُهُ الاسمُ الأحسنُ من صفاتِ الجلالِ والكمَالِ، فالتَّعبيرُ به أبلَغُ في التَّهديدِ وتأكيدِ الوَعِيد، وإدخالِ الرَّهبَةِ في قلوبِ المخاطَبِينَ، فضلا عمّا يفيدُهُ استخدامُ العلمِ مِنَ قصرٍ واختِصاص.

> مُنَاسَبَةُ اسْمِ (الله) لِمَقَامَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ؛ لِتَضَمُّنِهِ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَمَالِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنْ مُتَعَلَّقِ عِلْمِ الله تَعَالَى بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

(مَا) في ﴿بِمَا﴾ مِنْ قولِ اللّه جَلّ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/437، وابن جزي، التسهيل: 1/213.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/228.

عُمُومُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالِهِمْ

﴿خَبِيرًا﴾ اسمٌ موصولٌ، ووقعَ التَّعبيرُ بِهِ لإفادَةِ العمولِ والشُّمولِ، فعِلْمُهُ سُبحانَهُ متعلّقٌ بجميعِ أعمال العبَادِ، ومِنْ جُملَتِهَا مَا تقدَّمَ ذِكْرُ ما له صِلَةٌ بتحريفِ الشَّهادةِ والإعراضِ عَنْهَا[1]، فلا يَخْفَى عَلَيْهِ مِمَّا عَمِلُوا شيءٌ.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

دِقَّةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَشِدَّةُ إِحَاطَتِهِ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ

والبَاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ دالَّةٌ على الملابَسَةِ، وذلك مُفيدٌ أنَّ علْمَهُ سُبحانَهُ مُتَلبِّسٌ بِمَا عَمِلُوا؛ إيماءً على دقَّةِ عِلْمِهِ، وشِدّتِهِ في الإحاطَةِ بِمَا اجْتَرَحُوا.

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

عَظَمَةُ الْعَدْلِ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِ

قُدِّمَ معمولُ الخبرِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الخبَرِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، والأَصْلُ: (كانَ خَبيرًا بِمَا تَعْمَلُونَ)؛ لإرادَةِ الاهتمامِ لا لإرادَةِ التَّخصيصِ، فإنَّ علمَهُ سُبحانَهُ يشمَلُ كلَّ معلومٍ وليس مختصًّا بأعمالِ العبَادِ.

ووجهُ الاهتمامِ كونُ السِّياقِ في بيانِ شأنِ لَيِّ الحقِّ والإعراضِ عن الإقرارِ بِهِ أو الشَّهادَةِ عليهِ، وهي مِنْ جُملةِ أعمالِ العبادِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى تعظيمِ العَدْلِ وإعلاءِ مَكَانَتِهِ.

كما أنَّ في التَّقديمِ مراعاةً للتَّناسُبِ اللَّفظِيِّ لأواخرِ الآيِ؛ إذْ لو جرَى الكلامُ على أصلِهِ في التَّرتيبِ؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿كَانَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

ثُبُوتُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى أَزَلًا وَأَبَدًا

في التَّعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إِشْعَارٌ بأنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالعِلْمِ دائمٌ ثابتٌ في الأزَلِ، ويُقوِّي تأكُّدَهُ وثبوتَهُ مجيءُ الفعْلِ بصِيغَةِ المَاضِي.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/242.

وإذا أُكِّدَ العلمُ ههنا؛ تأكَّدَ ما سيقَت الجملةُ لأجلِهِ وهو التَّهديدُ والوَعيدُ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلَينِ الماضي ﴿كَانَ﴾ والْمُضَارِعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

اللـــه يعلــم بسابــق علمه أعـمالَ البشر وما يقترفون من عمل

جاء التعبير القرآني بالجملة الاسمية الكبرى التي وقع خبرها جملة فعلية فعلها ماض للدلالة على الماضي الزمني الذي يفيده الفعل الناقص (كان) بصيغة الماضي، وليقطع شكّ المتشككين وتردد المترددين أكّده بـ(إنّ) وهو بذلك يخبرنا أن اللّه سبحانه يعلم من الأزل ما تعملون من عمل.

وجاءَ الفعلُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ بصيغةِ المُضارِعِ لإفادة التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذْ إنَّ أفعالَ العبادِ ليسَتْ منقطِعةً، وإنَّما تصدُرُ منْهُم الأعمالُ المقصودَةُ حالًا بعدَ حالٍ، ومن جُملة أعمالهم ما له صِلَةٌ بما سيقَتْ الآيَةُ لَهُ، وهو الشَّهادَةُ وتوابِعُها؛ فإنَّها متجدِّدَةٌ في العبادِ؛ فهم يشهدُونَ، ويَلْوُون الحقَّ، ويُعرِضُونَ؛ فكانَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ أَنْسَبَ للتّعبير عَن هذه الأحوَالِ.

سِرُّ إِيثَارِ اسْمِهِ سُبْحَانَهُ الْخَبِيرِ دُونَ الْعَلِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

اسْمُ اللهِ تَعَالَى (الْخَبِيرُ) أَخَصُّ مِنِ اسْمِهِ (الْعَلِيمِ)؛ إِذِ الْخَبِيرُ الْعَالِمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ باسمِهِ تعالَى (الخَبِير) في قولِهِ جلَّ وعلَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ دونَ اسمِهِ (العليم)؛ لأنَّ "الخُبْرَ هو العلمُ بِكُنْهِ المَعْلُومَاتِ على حقائِقِهَا، ففيهِ معْنًى زائدٌ على العِلْمِ... و(خَبِيرٌ) مِن قَوْلِكَ: خَبَرْتُ الشَّيءَ؛ إذا عرفْتَهُ مبالغَةً"[1]، فدلّ اسمُ (الْخَبِيرِ) على المُبَالَغَةِ في العِلْمِ؛ لأنّه يتعلّق بالمعرفَةِ الدَّقيقَةِ،

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.

والخبيرُ أيضًا هو العالِمُ ببواطنِ الأمورِ، وهذا أنسَبُ لسياقِ التَّهديد والوعيدِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْقِسْط وَالْعَدْل:

الْقِسْطُ أَخَصُّ مِنَ الْعَدْلِ مُطْلَقًا؛ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ الظَّاهِرِ الْبَيِّنِ فِي الْحُكْمِ

الفرقُ بين القِسْطِ والعدْلِ مِنْ وجهين:

أحدهما: أنَّ الْقِسطَ هُو العَدْلُ البيِّنُ الظّاهِرُ، ومِنْهُ سُمِّيَ كُلُّ مِنَ الْمِكْيَالِ والميزَانِ: قِسْطًا؛ لكونِهِ يُصوِّرُ العدْلَ حتَّى يُرَى ظاهرًا، بخلافِ العَدْلِ فقد يكون خفيًّا[1].

والآخَرُ: أنَّ القِسطَ مختصٌّ في الدِّلَالَةِ عَلى العَدلِ في الحُكمِ، بِخلاف العَدلِ؛ فَهُوَ أَعَمُّ مِن ذَلِك.

ومن هذين الوَجْهَيْنِ يتبيَّنُ أنَّ القِسْطَ أخصُّ مطلقًا من العَدْلِ، فكلُّ قِسْطٍ عدلٌ، وليس كلُّ عدلٍ قِسْطًا.

ومن هُنا أوثِرَ لفظُ القِسْطِ في قوله سُبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لكون القِسْطِ مختصًّا بالعَدلِ في الحُكم، وهو أنسبُ لمقامِ ذِكْرِ الشَّهادةِ، ولِيَكُونَ العدلُ مُحَقَّقًا على وجه الظّهورِ.

الْخَبِير وَالْعَلِيم:

اسْمُ اللهِ الْخَبِيرِ أَخَصُّ مِنِ اسْمِهِ الْعَلِيمِ؛ لِكَوْنِ الْخُبْرِ أَخَصَّ مِنَ الْعِلْمِ

اسمُ اللّٰه الخَبِيرِ أخصُّ من اسمِهِ العليمِ؛ وذلك أنَّ العليم يدلُّ على الْعِلم المطلق فَقَط، بخلافِ الخَبِيرِ؛ فإنَّهُ يدلُّ على عِلْمِهِ ببواطنِ الْأُمُورِ[2]، والخُبْرُ هو العلمُ بِكُنْهِ المَعْلُومِ عَلَى حَقيقَتِهِ، فَكانَ فيهِ مَعْنًى زائِدٌ على مطلَقِ الْعِلْمِ.

إذ إن الخبير هو العالم بالخبر والمطّلع على حقيقته، الذي لا تخفى عليه خافية، والخبر هو الكلام الذي يفيد به المتكلم السامع

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234، والرازي، مفاتيح الغيب: 9/485.
(2) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 41.

واقعة من الواقعات، فلمّا كان البيان القرآنيّ يتحدَّثُ عن أفعالكم التي حدَثت منكم أيها الناس استخدم لتلك الدلالة اسم اللّه الخبير الذي لا يخفى عليه شيء مما جرحتموه آناء الليل وأطراف النهار فإذا علمتم ذاك فلا تكتموا الشهادة في الدنيا لأنَّ اللّه يعلمها ويحاسبكم عليها في الآخرة. وهو الأنسبُ لِسياق التّهديد والْوَعِيدِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنْ أعْظَمِ مَا يَحْمِلُ عَلَى الْقِسْطِ الرُّسُوخُ فِي الْإِيمَانِ

لَمَّا أمَرَ اللّه تعالَى بالقِسْطِ في الآية السابقة؛ أمَرَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ بالْحَامِلِ علَى ذلكَ وهو الإيمانُ[1]، فلا يكونُ الإنسانُ قائمًا بالقسْطِ إلَّا إذا كان راسخًا في الإيمانِ، ولهذا أُرْدِفَ ما ذُكِرَ بقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[2].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الْحَثُّ عَلَى دَوَامِ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ

يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اثْبُتُوا علَى إيمَانِكُمْ باللّه تعالَى وبرَسُولِهِ ﷺ، وبالْقُرْآنِ الذي أنزلَهُ عَلَى رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، وبالْكُتُبِ المنزلَةِ علَى الرُّسلِ من قَبْلِهِ، ومَنْ يَكْفُرْ بما يجبُ الإيمانُ به؛ من الإيمانِ باللّه تعالَى وبمَلَائِكَتِهِ وبكُتُبِهِ وبرُسُلِه وبيوْمِ القِيامَةِ؛ فَقَدْ بَعُدَ عَنِ الطَّريقِ المُسْتَقِيمِ بُعْدًا عَظيمًا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ افْتِتاحِ الْآيَةِ بِالنِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الافتتاحُ بالنّداءِ تنبيهٌ إلى عظيمِ الأمـرِ المذكورِ بعدَه

افْتُتِحَت الآيةُ الكريمةِ بالنِّداءِ في قولِه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا في هذا النّداءِ من اللَّذَّةِ المخفِّفَةِ مشقّةَ الطَّاعَةِ؛ ولِهَذَا افْتُتِحَت الآيةُ به.

وفيهِ تنبيهٌ وطلبُ إقبالٍ بعنايةٍ واهتمامٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/434.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/512 - 513، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/97 - 98.
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

الوَصْفُ بالإيمَانِ إلْـهَـابٌ عَـلَى الاسْتِمْسَاكِ بِهِ

نُكْتَةُ النِّدَاءِ بِوَصْفِ الإيمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

وَصْفُ المُنَادَى بالإيمانِ في قولِهِ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع أنّه يتحقّقُ بالمطلوبِ بعدهُ فِيهِ إلهابٌ وتهييجٌ على الاسْتِمْسَاكِ بالْوَصْفِ، والْحِرْصِ على تَحْصِيلِه، وَفِي النّداءِ بعنوانِ الإيمانِ تَعْجِيلٌ بالْبِشَارةِ وتكريمٌ للمخاطَبِينَ.

الأَمْــرُ بِـلُـزُومِ الإيمَانِ وَالدَّوَامُ عَلَيْهِ

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

في قولِهِ جَلّ شَأْنُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أُعْقِبَ النّداءُ بوصفِ الإيمانِ: بطلبِ الإيمانِ، ظاهرُ ذلك مُشْعِرٌ أنّه أمرٌ بتحصيلِ الحَاصِلِ، وتحصيلُ الحاصلِ محالٌ.

والأمرُ في قولِهِ تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ له مسْلَكَانِ:

أحدُهُمَا: أن يكون الخطاب لغَيْرِ المُسْلِمِينَ، منافقِينَ كانُوا أم أهلَ كتابٍ، فلا إشْكَالَ حينئذٍ في أَمْرِهِم بالإيمَانِ.

فأمَّا المنافقُونَ؛ فلأنَّ إيمَانَهُمْ الذي أظهرُوُه لا عبرَةَ به؛ لعدمِ الصِّدْقِ فيه، ولكونِهِ قولًا باللِّسانِ فحسبُ حالَ لقائِهِم بالمؤمنِينَ، ولا وجودَ له في نفسِ الأمْرِ، فكان أمرُهُم بالإيمَانِ على ظاهِرِهِ من طلبِ تحصيلِهِ.

وأمَّا أهل الكتابِ، فوُصِفُوا - على هذا الوجهِ - بالإيمَانِ؛ لأنَّهم آمنُوا بِمُوسَى وعِيسَى عليهما السلام، والمعنَى: يا منْ آمنَ بِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنبِيَاءِ، آمِنُوا بمحمّدٍ ﷺ، ويُشكِلُ عليه العطفُ في قولِهِ: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾، إلّا أن يُجَابَ عَنْهُ، بأنَّ المعنى: آمِنُوا بِمَا لَم تُؤمنوا بِهِ؛ لكونِهِمْ كانُوا يُؤْمِنُون ببعضِ الكتابِ ويكفُرُون ببعضٍ(1).

والقولُ بأنَّ الخِطَابَ لغيرِ المسلمينَ مخالِفٌ لظاهِرِ النِّداءِ في

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/145، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/124، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/194 - 195، والخازن، لباب التأويل: 1/437.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ فإنَّ هذا الوصفَ مختصٌّ بأهلِ الإيمَانِ الشَّرعِيِّ المعتدِّ به.

والمسلَكُ الآخرُ: أن يكونَ الخطابُ للمُسْلِمينَ، وهو الذي يُؤيِّدُهُ السِّياقُ وطَريقةُ القرآنِ الكريمِ في استعمالِ وصفِ الإيمَانِ، ويكون المعنى: "أقيمُوا واثبُتُوا ودُومُوا عليه"[1]، كقولِه تعالَى خطابًا للنَّبِيِّ ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: اثبُتْ على عملك[2]، ويجُوزُ أن يكونَ معنَى قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾: آمِنُوا تَفْصِيلًا بَعْدَ إيمانِكُم إجمالًا، ويؤيّدُه تفصيلُ المطلوب ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾.

وكلُّ هذه المَعَاني أثارَهَا النّظمُ بمَجيئِه على هذا النّمطِ، وهِيَ معانٍ غيرُ متعارضةٍ، وكلُّ معنًى له نوعٌ مِنَ المُخَاطَبين، فإذا جُمِعَتْ هذه المعاني؛ اتّسعَ عددُ المُخَاطَبين، فما أعظمَه مِنْ إيجازٍ، ومَا أغزَرَهُ مِنْ معنًى.

عِلَّةُ إِفْرَادِ الرَّسُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

بَيَانُ عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَرَفِهِ

أُفْرِدَ لَفْظُ الرّسُول في قولِه جلّ شأْنُهُ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ المرادَ به نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، ويُقوِّي ذلك: أنَّه نُصَّ على القرآنِ الكريمِ في قولِه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فإنَّه هو المرادُ بالكتابِ، وأُفرِدَ النَّبيُّ ﷺ بالذِّكْرِ تشريفًا له وتعظيمًا، كما أنَّه زِيدَ تعظيمًا وتشريفًا لقَرْنِ اسمِهِ باسمِ اللّه تعالى.

سِرُّ مُغَايَرَةِ صِيغَةِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾:

عُبِّرَ بِالْفِعْلِ المضعّفِ ﴿نَزَّلَ﴾ في الْقُرْآنِ الكريمِ، فقال تعالى:

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/145، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/194.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/146.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لِنُزُولِهِ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا حسَبَ الوَقَائِعِ.

بخلافِ الكتُبِ السَّابقةِ، فقد عُبِّرَ عنها بالْفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾، فقال سُبحانه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ وذلكَ لِنُزُولِ كُلٍّ مِنْهَا جملةً واحدةً.

قال الزّمخشريُّ: "فإن قلت: لم قيل: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وَ﴿أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؟ قلتُ: لأنّ القرآنَ نَزَلَ مفرّقا منجّمًا في عِشْرينَ سنَةً، بخِلَافِ الكتُبِ قَبْلَهُ"(1).

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾:

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ جميعِها

اللّامُ في (الْكِتَابِ) من قولِه تعَالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ يُرادُ بها استغراقُ الجنسِ، فتشمَلُ أفرادَهُ الْمُنْدَرِجَةَ تحتَه، فهو مفردٌ في اللَّفْظِ، ولكنَّه في المعنَى جمعٌ، فقولهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ يُرادُ به كلُّ كتابٍ أنزلَهُ على الأنبياء، وإنَّما صلُحَ اللَّفظُ لإفادةِ العمُومِ؛ لكونِ الكتابِ اسمَ جنسٍ(2)، ويُؤيِّدُ ذلكَ ورُودُهُ مَجْمُوعًا بعدُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ﴾:

فِي تَوَلِّي اللهِ تَعَالَى عِقَابَ الْمُخَالِفِينَ إِدْخَالُ الْمَهَابَةِ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ

افتتحتِ الآيةُ بالنّداءِ ثُمّ الطّلب، وخُتمت بالتّهديدِ والوعيدِ لِمَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ، فاتَّسقَ المطلعُ والمقطَع.

وجَاءَت جملةُ التّهديدِ بأُسْلُوبِ الشّرطِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَن

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/576.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/146، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/244، والزمخشري، الكشاف: 1/575، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/405، والخازن، لباب التأويل: 1/437، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/98.

﴿يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، ليكونَ التَّركيبُ مفيدًا ضربًا من ضُروبِ التَّعاقُدِ بين العبدِ وبين ربِّهِ تعالَى، فالمُعَاقِبُ عَلَى ارتكابِ الشّرطِ هُو اللهُ ﷻ، وفي ذلكَ مِنْ إدخالِ المهابَةِ على قلوبِ العبادِ مَا فِيهِ.

عِلَّةُ تَغَايُرِ أَفْرَادِ الْإِيمَانِ بَيْنَ الطَّلَبِ وَالْوَعِيدِ:

الْكُفْرُ بِوَاحِدٍ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ كُفْرٌ بِهَا جَمِيعِهَا

لمَّا أمَرَ اللهُ - ﷻ - بالْإيمَانِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ ذكَرَ ثلاثَةً من أركانِهِ، إلَّا أنَّه لمّا توعَّدَ على الكُفْرِ؛ ذكَرَ خَمْسَةً من أركانِ الإيمَانِ، فقال سبحَانَهُ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وذلك أنَّه اكْتُفِيَ أوَّلًا بالثّلاثةِ؛ لمَا يلزمُ منهَا مِنَ الإيمانِ بالملائكةِ وباليوم الآخر، ولأنه قد يدّعي إنسانٌ مَا أنّه يُؤمنُ بالثّلاثة، ثمّ إنّه ينكرُ الملائكةَ واليومَ الآخرَ لتأويلاتٍ فاسدةٍ؛ نُصَّ على أنّ مُنكرَ الملائكةِ والقيامةِ كافرٌ باللهِ تعالَى[1].

نُكْتَةُ تَغَايُرِ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، **وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:** ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾:

الرُّتَبُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الِاعْتِبَارَاتِ

قُدّمَ في الْأَمْرِ بالإيمان بالرسولِ ﷺ على الْكِتَابِ، فقال تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي الْوَعِيدِ عُكِسَ ذلك، فقُدِّمَ الكتابُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ونكتةُ هذَا القَلْبِ: أنّ الكتابَ مقدّمٌ على الرَّسُولِ في مَرْتَبَةِ النّزولِ مِنَ الْخَالِقِ إلى الخَلْقِ، بخلافِ حالِ العُروجِ فإنَّ الرّسولَ مقدّمٌ على الْكِتَابِ[2].

سِرُّ إِيثَارِ الْجَمْعِ عَلَى الْمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾:

جاءَ لَفْظُ الرَّسُولِ والْكِتَابِ مجموعَيْنِ في قَوْلِهِ ﷻ ﴿وَكُتُبِهِۦ

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/98 - 99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243.

وَرُسُلِهِۦ﴾ وقد سبقَ ذِكْرُهُمَا مُفْرَدَيْنِ في قولِهِ تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنّ الكُفرَ بوَاحِدٍ منهَا كُفْرٌ بالجميعِ[1]، والسّياقُ اللّغويُّ يُنَاسِبُ كلّ موضعٍ؛ فقد ذُكِرَ الرَّسُولُ أوَّلًا لِذِكْرِ الكتابِ الذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وذُكِرَتِ الرُّسُلُ ثانيًا لِذِكْرِ الكتُبِ جُمْلَةً، فنَاسَبَهُ الجمعُ[2].

التَّــفَــنُّنُ فِي التَّصَرُّفِ بِاللَّفْظِ إِفْـرَادًا وَجَمْعًا لِمُرَاعَاةِ السِّيَاقِ

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ جَوَابِ الشَّرْطِ عَلَى الْإِفْرَادِ لَا عَلَى مَجْمُوعِ الْأَرْكَانِ:

جواب الشّرطِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ليسَ مُرَتَّبًا على الْكُفْرِ بمَجْمُوعِ قولِه تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، بَل المَعْنَى: ومَنْ يَكْفُرْ بوَاحِدٍ مِنْ ذَلك، فالْكُفْرِ بِوَاحِدٍ منْهَا كَافٍ في اسْتِحْقَاقِ الوَعِيدِ؛ إذِ الإيمَانُ بكلِّ واحدٍ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وركنٌ من أركانِ الإيمَانِ[3]، فالإخلالُ بواحدٍ بمنزلةِ الإخلالِ بالجَميعِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: المبالَغَةُ في الوَعِيدِ والتّحذيرِ مِنَ التّهاوُنِ في أَمْرِ الإيمَانِ بهَذِهِ الْأَرْكَانِ جميعها.

الْكُفْرُ بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَـانِ الْإِيـمَـانِ بِمَنْزِلَةِ الْكُفْرِ بِهَا جَمِيعِهَا

ويُقوِّي دِلالةَ المُبَالَغَةِ تأكيدُ جملةِ جوابِ الشَّرْطِ في قولِه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، بـ (قَدْ)، والتّعبيرِ بالفعلِ المَاضِي الدَّالِّ على تَحقُّقِ الوقوعِ، وبالتَّأْكِيدِ بالمفعُولِ المُطْلَقِ المبيِّنِ للنوعِ.

دِلَالَةُ وَصْفِ الضَّلَالِ بِالْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾:

وُصِفَ الضَّلَالُ بالْبُعْدِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ لِلدِّلَالَةِ أنّه بُعدٌ عَنِ الحقِّ؛ بِحَيْثُ يتعذَّرُ العَوْدُ مِنْهُ إلَى سَوَاءِ السَّبيلِ[4]، فجَاءَ الوصْفُ تَبْيِينًا لبشَاعَةِ الضَّلَالِ، وإشَارَةً إلى اسْتِحَالَةِ عَوْدِهم إلى الإيمَانِ.

تَبْشِيعُ ضَلَالِ مَنْ كَفَرَ بِأَصْلٍ مِـنْ أُصُـــولِ الْإِيمَانِ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 3/264.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/98، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/103، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [النساء: 137]

لَيسَ بَعدَ الإيمَانِ إلَّا الضَّلَالُ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا رغَّبَ اللّه سُبحانَهُ في الْإيمَانِ والدَّوام عليه في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ بيَّنَ فسَادَ طَريقَةِ مَن يَكْفُرُ بَعْدَ إيمانِه، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾: مِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُه الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُه لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

والهدايةُ شَرْعًا ضربَانِ:

أحدُهما: هدايةُ إرشَادٍ ودِلالَةٍ.

والآخَرُ: هدايةُ توفيقٍ وإلهامٍ[3].

والمُرَادُ بالهدايَةِ المنفيَّةِ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ هدايةُ التَّوفيقِ، وإلَّا فإنَّ هدايةَ الإرشَادِ والدِّلالَةِ حَاصِلَةٌ لَهُم، وبِهَا تَقُوم الحُجَّةُ عَلَيْهِم[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُخْبِرُ اللّه تَعالَى أنَّ مَن تكرّر مِنْهُمُ الكُفْرُ بعدَ الْإيمَانِ، بِأَنْ آمنُوا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(3) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

عَاقِبَةُ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ الْحِرْمَانُ مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

ثمّ ارْتَدُّوا عَنْهُ إلى الكفرِ، ثمّ آمَنُوا، ثمّ ارتدّوا عَنْهُ، وأصَرُّوا على كفرهِمْ ومَاتُوا عَلَى هذا الكفرِ؛ لَم يَكُنِ اللهُ تعالَى ليغفرَ لَهُمْ ذُنُوبَهم، ولا ليُوفِّقهم إلَى الطّريق المُسْتَقِيم المُوَصِّل إليهِ سُبحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تَعْلِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ؛ لِتَخْرُجَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ

وفي التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ توسِيعٌ للمعَاني القرآنِيَّة، فَيَصْدُقُ على اليهودِ الّذين تقدَّمَ ذِكْرُهُم في سورتَي البقرةِ وآلِ عمران، وعلى خصوصِ مَن آمنَ ثمّ عَبَدَ العِجْلَ، ثمّ عَبَدَ العُزَيْرَ، وعلى المنافقين[2]، وكلُّ ذلك لا يمتنعُ ولا يَتَعَانَدُ، فكلُّ منْ صَدَقَتْ عليهِ جملةُ الصّلة؛ كان داخلًا في استحقاقِ العقوبةِ، وهذا مِن الإيجازِ البديع.

سِرُّ عَطْفِ الْجُمَلِ بِـ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

بَيَانُ أنَّ انْحِرَافَ الْمُرْتَدِّينَ كَانَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ لِلضَّلَالِ

عُطِفَت جُملُ الصِّلَةِ في قولهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ وهو حرفٌ دالٌّ على التَّراخِي الزّمني يُخبِر عن حال المنافقين في أمم متعددة، وكأنه يقول (إنَّ الذِينَ آمَنُوا بالتوراة وبموسى ثُمَّ كَفَرُوا من بعد مُوسى ثُمَّ آمَنُوا بعيسى - ﷺ - وبالإنجيل ثُمَّ كَفَرُوا من بعده ثُمَّ ازْدادُوا كُفْرًا بمحمد - ﷺ - وبالقرآن لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ على ذلك)

لِلإيمَاءِ إلى ثبات حال المنافقين على اختلاف الأزمان والأمم

وجاءت الأفعَالُ في هذه الآيةِ بصيغةِ الْمُضِيِّ؛ للدّلالةِ على تَحَقُّقِ وقُوعِهَا مِنْهُمْ.

وفي بِنْيَةِ الجُمْلَةِ بِهَذَا البِنَاءِ إعلانٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْحُكْمَ، فمعنَى

---

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/147، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/124 - 125، والنّيسابوري، إيجاز البيان: 1/258، وابن جزي، التسهيل: 1/213، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/316.

قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾، أنّ "مَن تكرّرَ منه الإيمانُ بَعْدَ الكفرِ، والكفرُ بعدَ الْإيمَانِ مرّاتٍ كثيرةً؛ يدلُّ على أنّه لا وَقْعَ لِلْإيمَانِ في قَلْبِه، ومَن كانَ كذَلِكَ لا يَكُونُ مُؤْمِنًا باللّه إيمانًا صَحيحًا"[1].

جَمَالِيَّةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾:

زِيَــادَةُ تَبْشِيعِ صُورَةِ المُرْتَدِّينَ

بين قولِهِ تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، وَتَكْرَارُ الطِّباقِ بينَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾ يُصَوِّرُ تذبذبَهم في الدِّين، وذَلِكَ مِمَّا يُسْهِمُ في زِيَادَةِ تَبْشِيعِ صُورَتِهم وقُبْحِ فِكْرَتِهِم.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾:

مِنْ أَسْبَابِ الرِّدَّةِ عَدَمُ الرُّسُوخِ فِي الإِيمَانِ

وُصِفَ المتنقِّلُون بينَ الإيمانِ والكفْرِ بالازدِيادِ في الكفْرِ، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ ازدِيَادَهُمْ في الكفْرِ هُوَ اسْتِهْزَاؤُهم وتَلَاعُبُهم بالْإيمَانِ قَصْدًا[2].

والْمُرَادُ مَنْ تكرّرَ مِنْهُمُ الكفرُ بعدَ الإيمانِ، وليس المقصودُ بيانَ عدَدٍ خاصٍّ، وإنَّما المرادُ مطلقُ التَّكرارِ، وفي ذلك إيماءٌ بتردُّدِهم وتمرُّدِهم على الحقِّ[3].

وفي وصفِهِمْ بالازدِيادِ والكفْرِ إشارَةٌ إلى الشُّبه التي تغتَالُهُمْ بعدَ كُلِّ إيمَانٍ؛ لعدَمِ رسوخِهِمْ فيه، فَهُم يَكْفُرُونَ بأسبَابٍ جَدِيدَةٍ، فيَزِيدُ كُفْرُهُم في كلِّ مرَّةٍ.

نُكْتَةُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ دُونَ (زَادُوا):

زِيَــادَةُ كُفْرِهِمْ مَعَ كُلِّ رِدَّةٍ عَنِ الإِيمَانِ

أُوثِرَ التّعبيرُ بالفِعْلِ (ازْدَادَ) في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾ بِصِيغَةِ الافْتِعَالِ الدّالّةِ علَى الْمُبَالَغَةِ في إتيانِ الفعل، دونَ التَّعبيرِ بالفعلِ (زَادَ)؛ للدِّلالَةِ علَى مبالغتِهم في كُفْرِهِمْ وتَردُّدُهِمْ، وهُو

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/438.

(2) الخازن، لباب التأويل: 1/438.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.

مشْعِرٌ بأنّ هذا الازدِيادَ في الكفْرِ حاصِلٌ معَ كُلِّ رِدَّةٍ عَنِ الإيمَانِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اسْتِمْرَارِهِم علَى الْكُفْرِ واطّرَادِ ازْدِيَادِهِمْ فِيه.

سرُّ نفي الْكَوْنِ دُونَ نَفْيِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ عَنْهُمْ نَفْيًا مُؤَكَّدًا مُبَالَغًا فِيهِ؛ بِسَبَبِ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ

دخولُ النّفي على فعل الكَوْنِ في قولِه تَعالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فيهِ مبالغةٌ في النّفْي.

وَاللّامُ في ﴿لِيَغْفِرَ﴾ لامُ الجحودِ، والجحودُ أبلغُ النّفْي، فالنّفيُ داخلٌ على إرادةِ المغفرةِ وإرادةِ الهدَايَة، ونفيُ إرادتِهمَا أبلغُ من نَفْي المغفرةِ والهداية، "فَفرقٌ بَينَ: لَم يَكُن زَيدٌ يَقُومُ، وبَينَ لَم يَكُن زَيدٌ لِيَقُومَ؛ فَالأَوَّلُ لَيسَ فِيهِ إلّا انتِفَاءُ القِيَام، والثَّاني فِيهِ انتِفَاءُ الإِرَادَةِ والإِيتَاءِ لِلقِيَام، ويَلزَمُ مِنَ انتِفَاءِ إِرَادَةِ القِيَام نَفيُ القِيَام"[1]، وعليه فقولُهُ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يقتضِي "أنَّ هؤلاءِ مختومٌ عليهِم منْ أوَّلِ أمرِهم؛ ولذلك تردَّدوا، ولَيسَتْ هذه العبارةُ مثلَ أن يقول: لاَ يَغفِرُ اللّه لَهُم، بل هي أشَدُّ، فتأمَّل الفرقَ بينَ العبارَتَين؛ فإنّه من دقيقِ غَرَائِبِ الفَصَاحَةِ الَّتي في كتابِ اللّه سبحانه"[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الرِّدَّةِ

هذا الحسمُ والحَتْمُ في النّظْمِ اقْتَضَى عندَ جُمْهُورِ العلماءِ تقديرَ محذوفٍ في قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ثمَّ ماتُوا على الكفرِ، استنادًا إلى ما هُوَ "مَعلُومٌ من هَذهِ الشّرِيعَة؛ أَنَّهُ لَو آمَنَ وَكفَرَ مِرَارًا، ثُمَّ تَابَ عَنِ الكُفرِ وَآمَنَ وَوَافَى تَائِبًا، أَنَّهُ مَغفُورٌ لَهُ مَا جَنَاهُ في كُفْرِهِ السَّابِق، وإِنْ تَرَدَّدَ فِيهِ مِرَارًا"[3]، وحُذِفَ من الكلامِ ما يُفيدُ ترتُّبَ الجزاءِ على الموتِ على الكفْرِ؛ للمبالَغَةِ في التَّنفيرِ من الرِّدَّةِ، حتَّى كأنَّ شأنَ المرتدِّ أن يموتَ على كُفْرِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.

ويجُوزُ حَمْلُ الْجُمْلَةِ على قوم مُعَيَّنِين عَلِمَ اللّه تعالَى مِنْهُمْ عدَمَ الهدايةِ؛ لأنّ مَن كانَ هذا حالَه؛ لا يُرجَى مِنْهُ الثّباتُ على الْإيمَانِ.

تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾:

انْتِفَاءُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ وَالْجَزْمِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

عُرِّف المسنَد إليه بالعلميَّةِ في قوله تعالَى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ فجيءَ بالاسم الأحسَنِ (اللّه) لما فيه معنى الألوهيَّةِ، وفي التَّصريح بعُنْوَانِ الألوهيّةِ إضْفَاءُ الْهَيْبَةِ والعَظَمَةِ على هذَا الحُكْمِ.

نُكْتَةِ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾:

لَا مَطْمَعَ لِلْكَافِرِ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

جاءَ المسندُ في قولِه جلّ شأنُهُ: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ جملةً فعليةً فِعْلُها مُضارِعٌ مَسْبُوقٌ بـ (لَمْ) النّافيةِ.

دِلَالَةُ نَفْيِ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾:

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ مَلْزُومِهِمَا وَهُوَ الْإِيمَانُ الْخَالِصُ

عُبِّر بنفي المغفرَةِ والهدايَةِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ عن نَفْيِ مَلْزُومِهِمَا؛ وهو الإيمَانُ الخالِصُ الثّابِتُ، والمرادُ: إنّ مَنْ تكرّرَتْ مِنْهم الرِّدَّةُ، وعُهِد مِنْهُمْ الازْدِيَادُ فِي الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهِ، فهؤلاء يُسْتَبْعَدُ مِنْهُمْ أَن يصْدُرَ مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ مغفرةَ اللّه تعالَى وهدايتَهُ[1]؛ لأنَّ اللّه تعالى يَغْفِرُ لكلّ مُسْتَغْفِرٍ ويَقْبَلُ التّوبةَ عَنِ عِبَادِه، ولكنَّ الآيةَ خرجت مخرجَ الغالب؛ وهو أنَّ من كانَتْ حاله الاضطرابَ وكثرة التَّنقُّلِ من الإسلَام إلى الكُفْرِ؛ لم يكُنْ للإيمَانِ في قلبِه وقْعٌ ورُسوخٌ، وأنّه يَمُوتُ علَى الْكُفْرِ، وَلَيْسَ المَعْنَى أنّه لو أتَى بالإيمَانِ الصَّحِيح لَم يَكُنْ مقبولًا، بل المرادُ الاسْتِبْعَادُ والاستِغْرَابُ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/103.

وهذا كحال الفَاسِق الذِي يَتُوبُ، ثُمّ يَرْجِعُ إلى الفِسْقِ، ثُمَّ يَتُوبُ ثمّ يَرْجِعُ؛ فإنّه غالبَ حالِهِ أن يموت على الفِسْقِ ولا يُرْجَى له الثَّباتُ[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (السَّبِيلِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

مَنْ تَـرَكَ الثَّبَاتَ عَـلَى الإِيـمَـانِ؛ أَوْكَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فَيَضِلُّ

نُكِّرَ لفظُ السَّبيلِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ للدِّلالَةِ عَلَى تَخْلِيَتِهِمْ وأَنْفُسَهُم بالكلّيَّة؛ فهُوَ لا يَهْدِيهم أيَّ سَبِيلٍ فيه هِدَايَةٌ؛ لكون السَّبيلِ واردًا في سياقِ النَّفْيِ، فقَدْ أَوْكَلَهُم إلَى أَنْفُسِهِم؛ مبالغَةً في نَفْيِ الْهِدَايَةِ عَنْهُمْ.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/514.

﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [النساء: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصْرِيحُ بِاسْمِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ ذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ

لَمَّا كانت الصِّفاتُ التِي تقدَّم ذِكْرُهَا في الآيات السَّابقة تصدُقُ على المنافِقِينَ؛ بيَّن اللّه تعالى جزاءَهُمْ في هذه الآيةِ، فقال سُبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾(1).

والآيةُ استئنافٌ، سيقَتْ تعقيبًا على الآيةِ السّابقةِ، وتأكيدًا لنيلِ هؤلاءِ المتردّدين بينَ الإيمانِ والكفرِ أشدَّ أنواعِ العذابِ.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بَشِّرِ﴾: الْبَاءُ والشِّين والرَّاء تدورُ اشتقاقَاتُهَا على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمَال(2).

و﴿بَشِّرِ﴾ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ مِنَ البِشارةِ، وبَشَّرَ النَّاسَ: أنبأهم بخبر سارٍّ فأسعدهم. وقد تستخدم البشارة فيما يسيء من قبيل التهكم. كقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وكقوله تهكما من الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾.

قال الشريف الجرجاني: إنَّ البِشَارة هِيَ الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمَالُه في غيرِهِ من بابِ التَّهَكُّم(3).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بشِّر أيُّها الرَّسُولُ الْمُنَافِقينَ الذين يُظهِرُونَ ما لا يُبْطِنُونَ؛

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/437 - 438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(3) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والْمُناويّ، التَّوقيف، ص: 78.

جَزَاءُ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فيظهِرُونَ الإيمانَ ويُبطِنُونَ الكُفرَ؛ بأنَّ لَهُمْ عندَ ربِّهِمْ يومَ القِيَامَةِ عَذَابًا شديدَ الإيلَامِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

التَّنْدِيدُ بِأَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالتَّهَكُّمُ بِهِمْ

فُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقُوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وهو المسمَّى: شبهَ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الجملةِ قبلَهُ، كأنَّ سائلًا سألَ بعد أن سمعَ أوصافَهُمْ: ما جزاءُ هؤلاءِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِضْمَارُ الْكُفْرِ تَهَكُّمٌ مِنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَلَاءَمَهُ التَّهَكُّمُ بِهِمْ

جاء أسلوبُ التّهكم بالمُنَافِقِينَ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ لقاءَ استهزائِهم بالمؤمنين على حدّ فضح اللّه لَهُمْ بقَوْلِه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14]، وفي ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ؛ حيثُ استعارَ البِشَارةِ للنِّذارةِ بجامِعِ ضدِّ المشابهَةِ، ثُمَّ اشتُقَّ من البِشارةِ بمعنى النِّذارةِ الفعلُ ﴿بَشِّرِ﴾، ونكتةُ الاستعارة: ملاءمَةُ حالِهم؛ إذْ كانُوا يستهزئُون بإظهارهم ضِدَّ ما يُضمِرُونَ[3]، وهذا أنسبُ ما يكونُ لحالِ المخاطَبين، كما أنّه خطابٌ يَشْفي صدورَ قوم مُؤْمِنِينَ.

وقرينَةُ الاستعارةِ ذِكْرُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، فذلك الذي أَوْجَبَ حَمْلَها على التَّهَكُّم، فكان إطلاقُ البِشَارةِ على ما هو شرٌّ خالصٌ لهم: تهكّمًا بِهِمْ[4].

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/437.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/233.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 3/267.

المُبَالَغَةُ فِي تَحْقِيقِ التَّهَكُّمِ بِأَهْلِ النِّفَاقِ

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

أُكِّدَ قولُه تعالَى: ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بـ (أَنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، وبناءِ الجملةِ على القَصْرِ؛ مبالغةً في تحقيقِ التَّهَكُّمِ بهم الواردِ في صدْرِ الآيَةِ، وتأكيدًا لسوءِ مآلِهِمْ.

بُلُوغُ الْعَذَابِ الَّذِي يَنَالُ الْمُنَافِقِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا

سِرُّ تَقْدِيمِ مُتَعَلّقِ المُسْنَدِ عَلَى المُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا﴾:

قُدِّمَ متعلّق المسنَدِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ على المسنَدِ إِلَيْهِ؛ لإفَادَةِ القصْرِ، فقُصِرَ العذابُ الأليمُ علَيْهِم، وهو مِنْ قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا ادِّعائيًّا؛ لأَنَّ اللّه سُبحانَهُ توعَّد غيرَهُمْ بالعذابِ الأليم، ونكتةُ القصرِ: إفادَةُ أَنَّ إيلامَ هذا العذاب قد بلغَ الغايةَ، حتَّى كأَنَّ غيرَهُ بالنِّسبةِ إليهم ليس بمؤلِمٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾ [النساء: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحْذِيرُ المُؤْمِنِينَ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ المُنَافِقِينَ

في هذهِ الآيَةِ اسْتِمْرَارٌ لِسَرْدِ صِفَاتِ المُنَافِقِينَ؛ فإنَّ اللّه تعالَى لمّا بيّنَ صفاتِ المُنافقين بتَرَدُّدِهم في الإيمَانِ، وأعقَبَ ذلك ببيانِ مآلِهِمْ مُتَهَكّمًا بِبِشَارَتِهِم بالعَذَابِ الأليم؛ بيّنَ في هَذهِ الآيةِ أَبْرَزَ مَا يتّصِفُون به، وهُوَ مُوَالاةُ الكافِرين تَكْمِلَةً لِبَيَانِ ضَلَالِهِمْ، وتحذيرًا لأهل الإيمَان أن يسلكُوا مَسْلَكَهُمْ، فيُوَالي بعضُ ضُعَفَائِهِمُ الكفَّارَ دُونَ المُؤْمِنِينَ؛ لأجل المنفعَةِ العاجلَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾: العَيْنُ والزَّاي تدلُّ اشتقاقَاتُهُ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، والعِزَّةُ: حالَةٌ مانعة للإنْسَانِ مِنْ أَنْ يُغلَبَ، مِن قَوْلِهم: أرضٌ عَزَازٌ، أَيْ: صُلْبَةٌ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

القُوَّةُ وَالعِزَّةُ لله تَعَالَى وَحْدَهُ

استحقَّ المنافقونَ العذابَ الأليمَ؛ لكونِهم اتَّخذوا الكفّار أولياءَ وأَنْصَارًا وأعوانًا من دُونِ المُؤمِنِينَ، أَيَطْلُبُونَ بموالاتِهم القُوَّة والمَنَعَةَ عِنْدَهُمْ لِيَرْتَفِعُوا بهَا؟! فإنَّ القُوّةَ والمَنَعَةَ كُلّها للّه تعالَى[3].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/416.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عز)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 4/198.

(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 100.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الْوَصْفِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

بَيَانُ عِلَّةِ اسْتِحْقَاقِ الْمُنَافِقِينَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ في محلِّ نصب صِفَةٌ لـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من قولِه سُبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، حيثُ "نصَّ سبحانه مِنْ صفات المنافِقِينَ على أشدِّها ضررًا، وهي موالاتُهُم الكافِرِينَ، واطّراحهم المُؤْمنينَ، ونبَّه على فسادِ ذلكَ؛ لِيَدَعَهُ مَنْ عسَى أَنْ يَقَعَ في نَوْعٍ منه مِنَ المُؤْمنين غَفْلَةً أَوْ جهالةً أَوْ مسامحةً"[1]، وإنَّمَا جاءَ وصفُهم ذَلِكَ بالاسْمِ الْمَوْصُولِ "لِإِفَادَةِ تَعْلِيلِ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، أَيْ: لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَتَّخِذُونَ﴾:

تَقْبِيحُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ وَتَشْنِيعُهَا

جَاءَ الفعْلُ في جملَةِ الصِّلَةِ في قولِهِ تعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ فعلًا مضارعًا؛ تَقْبيحًا لحالهم إذْ تلبَّسُوا باتّخاذِ أَوْلِيَاء مِن دُون المؤمنينَ، فأفادَ الْمُضَارِعُ إحضارَ حَالِهِمُ الشَّنِيعة في أذهَانِ المخاطَبِينَ؛ لتَنْفِير أهْلِ الإيمَانِ من سُلُوكِهَا.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ بَيْنَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وَ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

اخْتِيَارُ الضِّدِ الْقَبِيحِ آيَةٌ عَلَى فَسَادِ الْعَقْلِ وَرِقَّةِ الدِّينِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ طباقُ إيجاب بينَ الْكَافِرِينَ والمُؤْمِنِينَ، وكان يصحُّ المعنَى لو اكتُفِيَ بذِكْرِ الوَلِيِّ الْمُتَّخَذِ، بأن يقال: (الّذين يتّخذُون الكافرين أولياءَ)، وفيه من القُبْحِ ما فيه، ولكنَّ التّصريحَ بالمتروكِ كانَ أبينَ لقُبْحِهم، وأفضحَ لِسُوءِ صَنيعِهم، وآكدَ في استحقاقِهم أشدَّ العذابِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/234.

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾:

تَوْبِيخُ مَنْ طَلَبَ الْعِزَّةَ عِنْدَ مَنْ لَا يَمْلِكُهَا

الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ تَوْبِيخيٌّ، يُرادُ بِهِ تَقْرِيعُهم ولَوْمُهم على سُوءِ اختيارِهم[1]، "وفي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إلى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَم تَكُن مُوَالَاتُهُم لِلمُشرِكِينَ لِأَجلِ الْمُمَاثَلَةِ في الدِّينِ والعَقِيدَةِ؛ لأنّ مُعظَمَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ اليَهُودِ، بَل اتَّخَذُوهُم لِيَعتَزُّوا بِهِم على الْمُؤمِنِينَ، وإِيمَاءٌ إلى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ شَعَرُوا بِالضَّعفِ فَطَلَبُوا الاعتِزَازَ، وفي ذَلِكَ نِهَايَةُ التّجهيلِ والذَّمِّ"[2].

وفي هَذا الاستِفهَامِ أيضًا إشعارٌ بأَنَّهُم لَا عِزَّةَ لَهُم، فكَيفَ تُبتَغَى العِزَّةُ عندَ من لا يملكُهَا؟ وفيه دلالَةٌ على خُبثِ مَقصدِهِم، وهُو طَلَبُ العِزَّةِ بِالكفَّارِ والاستِكثَارِ بِهِم[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَتَوْبِيخِهِمْ

قُدِّم الظَّرْفُ (عِنْدَ) من قولِ اللّه تعالَى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾، وأصل الكلام: (أَيَبْتَغُونَ العزّةَ عِنْدَهُم)، وفي تقديم الظَّرفِ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المَفْعُولِ بِهِ ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ دلالة على التّخصيص، كأنّهم ظنّوا أنّ العزّةَ لا تكُونَ إلَّا عِنْدَ هؤلاءِ، ولهذا طلبُوهَا مِنْهُمْ دونَ غيرِهِمْ، وفيهِ هذَا مبالغَةٌ في ذمِّهم وتوبيخِهِمْ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾:

مَهْمَا طَلَبَ الْمَرْءُ الْعِزَّةَ؛ فَلَنْ يَجِدَهَا إِلَّا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

قُرِنَتِ الجملةُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التّفريعِ؛ إذْ نشأَتْ عَنِ الاسْتِفْهَامِ، فالجملةُ "تعليلٌ لما يفيدُه الاستفهامُ الإنكاريُّ من بُطلانِ رأيِهم وخَيْبَةِ رجائِهم؛ فإنّ انْحِصارَ جميعِ أفرادِ العزّةِ في جَنَابِه عزّ وعَلَا؛ بحيث لا ينالُها إلّا أَوْلِيَاؤُه الّذين كُتِبَتْ لَهُمُ العِزّةُ والغَلَبَةُ، قال تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/237.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/234.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101.

﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يَقْضِي بِبُطْلَانِ التّعزُّزِ بِغَيْرِهِ ﷻ، واستحالةِ الانتفاعِ به"[1].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ بِالْحَالِ ﴿جَمِيعًا﴾:

إِثْبَاتُ الْعِزَّةِ للهِ تَعَالَى فِي حَالِ الِاسْتِقْصَاءِ؛ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ

قُيِّدَ قولُهُ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ بِالْحَالِ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لِنَفْيِ جميع أفرادِ العزَّة عن الكَافرِينَ، فكيفَ يطلُبُها المنافقُونَ عِنْدَهُمْ؟! والمرادُ: "أنَّه لا تُطْلَقُ صفةُ العزّةِ إلّا للّه ﷻ؛ لأنّه لا يُعتدّ بعزّة أحدٍ مع عزّته تعالى، لصغرها واحتقارها في صفةِ عزّته، ولأنّه المقوِّي لجميعِ مَن لَهُ القوّةُ مِنْ خلقه، فجميعُ العزّةِ له؛ لأنّه عزيزٌ بعزِّه، ومُعِزٌّ مَن عزَّ مِن عبادِه، فلَهُ العزّةُ جميعًا من كلّ وجهٍ"[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

ثُبُوتُ الْعِزَّةِ للهِ تَعَالَى ثُبُوتًا دَائِمًا

جَاءَتِ الْجُمْلَةُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ اسميَّةً؛ للدّلالةِ على ثُبُوتِ العزّةِ ودوَامِهَا عندَ اللّه تعالى؛ "والمَقصُودُ مِنْ هَذَا التَّهييجُ على طَلَبِ العِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللّه، والالتِجَاءُ إلى عُبُودِيَّتِه، والانتِظَامُ في جُملَةِ عِبَادِهِ المُؤمنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ النُّصرَةُ في هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا، ويومَ يَقُومُ الأَشهَادُ"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقنّوجي، فتح البيان: 3/267.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/153.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/435.

﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّن اللّه تعالَى سَبِيلَ المُنَافِقِينَ في التّذَبْذُبِ بيْنَ الإيمَانِ والكُفْرِ، وحذَّرَ مِن اتّخاذ الكافرينَ أولِياءَ لِلاعْتِزَازِ بِهِم، وبيَّنَ أنَّ العزّةَ للّه تعالَى وَحْدَهُ؛ بيَّنَ سُبحانَهُ في هذهِ الآيَةِ تَحْرِيمَ مُجَالسَةِ الخَائِضِينَ في آياتِ اللّه تعالَى كُفْرًا واسْتِهْزَاءً؛ لأنَّها طَرِيقُ الكُفْرِ والنِّفَاقِ.

سَدُّ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ طُرُقَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ بِتَحْرِيمِهَا

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخُوضُواْ﴾: الخاءُ والواوُ والضّادُ تدلُّ اشتقَاقَاتُهَا عَلَى تَوَسُّطِ شَيْءٍ وَدُخُولٍ، يُقَالُ: خُضْتُ المَاءَ وَغيْرَهُ، وخاضَ القومُ في الحَدِيثِ وتخاوَضوا، أي: تَفاوَضوا فيه، وأكثَرُ مَا في القُرآنِ الكريمِ وَرَدَ فِيمَا يُذَمُّ الشُّروع فيه[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ معناهُ: "حتَّى يَشْرَعُوا في كلامٍ غَيْرِ الكُفْرِ والاسْتِهْزَاءِ بالقُرآنِ"[2].

"أصْلُ الخَوْض المشيُ في الماءِ وتحريكه ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في التَّلَبُّسِ بالأمر والتَّصَرُّفِ فيه، أي رُبَّ مُتَصَرِّفٍ في مالِ اللّه تعالى بما لا يَرْضاهُ اللّه، والتَّخَوُّضُ تفعُّل منهُ، وقيلَ: هُوَ التَّخْلِيطُ في تَحْصِيلِهِ مِن غَيْرِ وجْهِهِ كَيْفَ أمكن. وفي حَدِيثٍ آخَرَ: يَتَخَوَّضُونَ في مالِ اللّه تَعالى. والخَوْضُ: اللَّبْسُ في الأمر. والخَوْضُ مِنَ الكَلامِ: ما فِيهِ

(1) الجوهري، الصحاح: (خوض)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خوض)، والرّاغب، المفردات: (خوض).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/406.

الكَذِبُ والباطِلُ، وقَدْ خاضَ فِيهِ. وفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: وإذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا"[1].

قال الراغب: الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه. ويُستعار في الأمور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذَم الشروع فيه[2].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

النَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَةِ الطَّاعِنِينَ فِي آيَاتِ اللهِ تَعَالَى

وقد نَزَّل اللّه عَلَيْكُمْ - أيُّها الْمُؤْمِنُونَ - في كتَابِهِ العزيزِ أنَّكُم إذَا كنتُمْ في مَجْلِسٍ، وسَمِعْتُم فِيهِ مَن يَكْفُرُ بآياتِ اللّه تعالَى ويَسْتَهْزِئُ بها؛ فيجِبُ عَلَيْكُم مُفَارَقَتُهُمْ والانْصِرَافُ عَن مُجَالَسَتِهِم، حتَّى يَتَحَدَّثُوا في حديثٍ غَيْرِ الكُفْرِ بآياتِ اللّه سُبحانَهُ والاستهزاء بهَا، إنَّكُمْ إذا جَالَسْتُمُوهُم حالَ كفرهِم واستهزَائِهِمْ بعْدَ سمَاعِكُم ذَلِكَ مِثْلُهُم في مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللّه تعالَى؛ لأنَّكُم عَصَيْتُم اللّه تعالَى بِجُلُوسِكُم كمَا عصَوُا اللّه سُبحانَهُ بِكُفْرِهِمْ، إنَّ اللّه سَيَجْمَعُ الْمُنَافِقِينَ الذينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلامَ ويبطِنُونَ الْكُفْرَ معَ الكَافِرِينَ في نَارِ جهنّمَ في الآخرَةِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

شُمُولُ الْخِطَابِ لِكُلِّ مَنْ أَظْهَرَ الإِيمَانَ صَادِقًا أَوْ مُنَافِقًا

الخِطَابُ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لِكُلِّ مَنْ أظهَرَ الْإِيمَانَ مِن محقّق ومنافِقٍ؛ لأنّه إذا أظْهَرَ الإيمَانَ؛ فقَد لَزِمَهُ أن يمتَثِلَ أوامِرَ كتابِ اللّه تعالَى بحسَبِ ظاهِرِ حالِهِ[4]، ويكونُ القرآنُ الكريمُ قد التفتَ عَنِ الحديثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ إلى الحديثِ عَنْهُمْ وعنْ غَيْرِهِم.

ويجُوزُ أن يكونَ الخِطابُ لِلْمُسْلِمِينَ، فيكون خطابَ تشريفٍ؛ إذْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 100.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/125، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/417، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/102.

"فيه دِلالةٌ على أنّ المنزّلَ على النّبيِّ ﷺ وإنْ خُوطِبَ به خاصّةً منزّلٌ على الأمّة"[1].

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي خِطَابِ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخ بِطَرِيقِ الْخِطَابِ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ وَأَشَدُّ عَلَيْهَا.

يجُوز أن يكونَ الخطَابُ في الآية للمنافِقِينَ وَحْدَهُمْ، فيكون في الآيَةِ التفاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ في قوله تعالَى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ إلى الْخِطَاب: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وفي هذا الالتفَاتِ تشديدٌ لتوبيخِهِمْ الذي يقتَضِيهِ تَعْدَادُ جِنَايَاتِهِم وجرائِمِهم[2]، وذلك أَنَّ الإنكَارَ والتَّوبيخَ بطريقِ الخِطاب أوقَعُ في النَّفْسِ وأشدُّ عليهَا.

ويجُوزُ أن تكون الجملةُ ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، فَيَكُونُ ضَميرُ الْخِطَابِ في قَوْلِه: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ خِطَابًا للمذكُورينَ في صِلَةِ الموصولِ مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَات، "كَأَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ أُجْرِيَتْ عَلَيْهِمُ الصِّلَةُ صَارُوا مُعَيَّنِينَ مَعْرُوفِينَ، فَالْتُفِتَ إِلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الصِّلَةِ، فَلَعَلَّهُمْ أَنْ يُقْلِعُوا عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ. وَعَلَيْهِ فَضَمِيرُ الْخِطَابِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ لِلْكَافِرِينَ"[3]، وكلُّ ذلك له في السّياقِ ما يؤيّدُه، وهو من لطائف مَوْقِعِ الآيةِ الكريمةِ؛ ليتّجه النَّهْيُ إلى الْفِعْلِ نفسِه بصَرْفِ النَّظَرِ عمَّنْ يَصْدُرُ مِنْهُ هَذَا الفعلُ القَبِيحُ.

الْوَظِيفَةُ التَّرْكِيبِيَّةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بَـيَـانُ قُـبْـحِ فِـعْـلِـهِـمْ؛ إِذْ عَـرَفُـوا الـنَّـهْـيَ وَأَصَـرُّوا عَـلَـى الْمُخَالَفَةِ

جاءَ التَّعبيرُ بِالْجُمْلَةِ الحَالِيَّةِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لبيَانِ عِلْمِهم بِحُرْمَةِ ذَلِكَ وأنّهُمْ قد نُهُوا عنْهُ، فهي مُفيدةٌ "لِكمَالِ قباحة حالِهم ونهاية اسْتِعْصَائِهم عليْهِ سُبْحَانَه؛

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/234.

ببَيَانِ أنّهم فعلُوا ما فعلُوا مِن مُوالاةِ الكَفَرَةِ مع تحقُّق ما يَمْنَعُهُم مِن ذَلِك، وهُوَ وُرُودُ النَّهْي الصَّرِيحِ عَن مُجَالَسَتِهِم الْمُسْتَلْزِم لِلنَّهْي عن مُوالَاتِهم عَلَى أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كأنّه قيلَ: تَتَّخِذُونَهُمْ أولياءَ والحالُ أنَّه تعالَى قد نزّل عليكُمْ قَبْلُ هَذَا بِمكّةَ"[1]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلَى إصْرَارِهِم عَلَى الْمُخَالفَةِ وَاجْتِرَاحِ الْإِثْمِ بالمخالطَة.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾:

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا

اللّامُ في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ، ويجُوزُ أن يكون العهدُ حضوريًّا، أي: في هذا الكتابِ الحاضِرِ أمامَكُمْ، والمعنَى: ما أنزلناهُ فيمَا تقدَّمَ تَنْزِيلُهُ مِنَ الكتابِ، وهو نَهْيُ اللّه تعالى الْمُسْلِمِين عن القعودِ مع الذينَ يكفُرُون بآياتِ اللّه تعالَى ويستهْزِؤُونَ بهَا، وهو الواردُ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: 68]، وهذه الآيةُ من سورةِ الأنعام، وهي مكيَّة، فامتنعَ الْمُسْلِمُون عن القعودِ معهم، ولمّا قدمُوا المدينةَ كانُوا يجلِسُون مع اليهودِ والمنافِقين، وكانَ اليهودُ يَسْتَهْزِئُون بالقرآنِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[2].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾:

الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ تُلَائِمُ اخْتِلَافَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَالْأَحْوَالِ

قال اللّه تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، وقال في آية الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: 68]، فذكَرَ الحكمَ في سورةِ النِّساءِ وأنَّ مخالِطَهُم على الوجه

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

المذكورِ مثلُهم، ولم يُذْكَر ذلك في سورة الأنعامِ، ووجه التَّغايُرِ بينهما: أنَّ كلَّ موضعٍ ملائمٌ لحالِ المسلمينَ وقتَها، فما أُنزل بمكّة لاءَمَ حالَ المسلمين حينَهَا، وما أُنزل بالمدينةِ لاءَمَ حالَ المسلمين وقتَها، وهذا هو الأوفَى في الخطابِ القرآنيّ الّذي يُلائم الأحوالَ والأزمنةَ والأمكنةَ؛ وذلك أنَّ الله تعالى "لم يَحْكُمْ بكفرِ المسلمين بمكّةَ لمجالسةِ المشركين الخائِضِين، وحَكَمَ بنفاقِ هؤلاء بالمدينةِ لمجالسةِ أحبارِ اليهودِ الخائضين؛ لأنّ مجالسةَ أولئكَ المسلمين كانت للضّرورة، وفي أوانِ ضَعفِ الإسلامِ، ولم يردْ نهيٌ بعدُ، ومجالسةَ هؤلاءِ المنافقين كانت في وقتِ الاختيارِ، وقوّةِ الإسلامِ، وبعدَ وُرودِ النَّهيِ"[1].

وَبَيْنَ الآيَتَيْنِ المتقدِّمتين - آية النِّساء وآية الأنعام - فرقٌ في الفعلِ المستعمَلِ فيها، ففي سورة النِّساء: ﴿أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾، وفي الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، وهذا الاختلافُ يتكاملُ في بيانِ أنّ "مدارَ الإعراضِ عنهم هو العلمُ بِخَوْضِهِم في الآيات؛ ولذلك عبّر عن ذلك تارةً بالرّؤيةِ، وأخرى بالسّماعِ"[2].

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾:

الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الْكَافِرِينَ حَالَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْآيَاتِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾ للدّلالةِ على النّهيِ الحازِمِ القَطعِيّ فإنَّ الشَّرطَ بـ (إذا) يُفيدُ القَطعَ بوجوبِ فِعلِ جَوابِ المشروطِ على المُخاطبِ، فَضلًا عمّا في (إذا) مِنْ دلالةٍ زمنيةٍ يُستفاد منها مَعنى (وَقْتِ السَّمَاعِ)، وعُلِّقَ بِهِ النَّهْيُ عنِ القُعُودِ مَعَهُمْ، والمَعْنَى: قومُوا عَنْهُم وقتَ سَمَاعِكُم الكُفْرَ، وذلك ليتَّجهَ الأمرُ إلى تنفيذِ الإعراضِ عَنْهُم علَى وَجْهِ القطعِ والحزمِ والجزمِ، كمَا تُعْلِنُ عَنْهُ الفاءُ في صَدْرِ الجَوابِ.

سِرُّ إِضَافَةِ الْآيَاتِ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تَعْظِيمُ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَتَهْوِيلُ شَأْنِ الْكُفْرِ بِهَا

في إضافَةِ الآياتِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿إِذَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/515.
(2) أبو السعود، إرشاد العقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

﴿سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تشريفٌ للمضافِ وهو الآياتُ، وفيه بيانٌ لخطَرِهَا وعظيم شأنِهَا، وتهويلُ أمرِ الكُفْرِ بهَا[1]، وفي الإضافَةِ أيضًا: تربيةٌ لِلْمَهَابَةِ، وتَشْنِيعٌ لكلِّ فعلٍ أو قولٍ يُخالفُ مقتضَى هذه المَهابةِ.

نُكْتَةُ جَمْعِ ضَمِيرِ الْخِطَابِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تَشْرِيفُ الْأُمَّةِ بِنِسْبَةِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِمْ

أنزلَ اللهُ سُبحانَهُ القرآنَ الكريم على نبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ، كما ورد في آياتٍ كثيرةٍ، منها قولُهُ: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: 3]، وفي آية النِّساءِ جاءَ ضميرُ الخِطابِ جمعًا، فقال سُبحانهُ: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي ذلكَ دِلالةٌ على أنّ ما أُنْزِلَ على النّبيّ ﷺ وإنْ خُوطِبَ بِهِ خاصّةً؛ فهو مُنَزَّلٌ عَلَى الْأُمّةِ[2]، وفي هذا تَشْرِيفٌ لِلْأُمّةِ بِنِسْبَةِ التّنزيلِ عَلَيْهم؛ إذ هُمْ مقْصُودُونَ بوجوبِ امتثالِ الأَحْكامِ.

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ ﴿يُكۡفَرُ﴾ وَ﴿وَيُسۡتَهۡزَأُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾:

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالذَّوَاتِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُكۡفَرُ﴾ وَ﴿وَيُسۡتَهۡزَأُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾ للمفعولِ؛ اهتمامًا بِالْحدَثِ بقطْعِ النّظر إلى صدورِهِ مِنْ مُعَيَّن، مُبَالَغَةً في إظهارِ قبح الفعل بصرف النظر عن الفاعل كائنا من كان، وبيانًا بأنَّهُ نَهيٌ عامٌّ عن مخالطة كلِّ مَنْ صدرَ مِنْهُ هذا الفعلُ.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾:

وُجُوبُ إِظْهَارِ الْغَضَبِ للهِ تَعَالَى

جاء جوابُ الشَّرْطِ مُقْتَرِنًا بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾؛ لكَوْنِ الجوابِ طلبًا، وقد توجّهَ النَّهيُ إلى القُعودِ، والمرادُ به الرِّضا بصنيعِهم؛ ليكونَ النّهيُ أبلغَ، فالنّهي عنِ القعُودِ معَهُم على

---

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

الرِّضا بِمَا هُم عليْهِ[1]، ووجهُ أبْلَغِيَّتِهِ: أنَّه لو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا ترضوا بما يقولون)؛ لَمَا اقتضَى ذلك مفارقَتَهُمْ، بخلاف ما ورد في الآيةِ، فإنَّ الأمرَ بِمُفَارقَتِهِمْ وعدم الرِّضَا بصنيعِهِمْ، وذلك دالٌّ علَى وُجُوبِ إظهارِ الْغَضَبِ للّه تعالَى، فخرج قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾ مخرجَ الكنايَةِ عن عدمِ الرِّضا.

دِلَالَةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾:

طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَوْجِيهُ النَّهْيِ لِلْأَفْعَالِ لَا لِخُصُوصِ الْفَاعِلِينَ

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ يُرادُ بها الغايةُ، وفي ذلكَ كَشْفٌ عَن نَهْجِ الْإِسلَامِ في أنَّ النَّهيَ موجّهٌ لِلْفِعْلِ، لا لِخصوصِ الْفَاعلِينَ، فـ ﴿حَتَّىٰ﴾ "غَايةٌ لِتَركِ القُعُودِ مَعَهُم، ومَفهُومُ الغَايَةِ: أَنَّهُم إِذَا خَاضُوا فِي غَيرِ الكُفرِ والاستِهزَاءِ؛ ارتَفَعَ النَّهيُ، فَجَازَ لَهُم أَنْ يَقعُدُوا مَعَهُم"[2].

براعةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾:

كَـلَامُ الْكُفَّارِ قَبِيحٌ فِي الْعَادَةِ، وَاسْتِهْزَاؤُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى أَقْبَحُ كَلَامِهِمْ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ استعارَةٌ مكنيَّةٌ، وهذه الاستعارةُ تصوِّرُ قبحَ الكافرينَ والمُنَافقين؛ حيث شُبِّهَ الْمَخُوضُ فيهِ (الحديثُ) بالوَحْلِ، ثمّ حُذِفَ المشبَّهُ بهِ، ورُمِزَ له بشيءٍ من لوازمِه وهو ﴿يَخُوضُواْ﴾، وفيها مِن تَجْسيدِ القُبحِ ما فيها، كما أنَّ هذه الاستعارةَ شنّعت عَلَيْهِم في كفرِهِمْ واستهزائِهم بآيَاتِ اللّه تعالَى، فإذا كانت أحاديثُهم كلُّها تُشْبِهُ الوَحْلَ، فكَيْفَ يكونُ قُبْحُ أحاديثِهم في الكفرِ بآياتِ اللّه سُبحانَهُ والاستهزاءِ بها؟!!

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ يُخَفِّفُ مَشَقَّةَ التَّكْلِيفِ

فُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّها سيقَتْ مساقَ التَّعليلِ للنَّهي والأمرِ بِخِطابِ الْعَقلِ بِمَا يُلائِمُه؛ لأنّ الأمرَ ثقيلٌ، والنَّهيَ أثقلُ، فيخفّفُهما التّعليلُ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الإقناعِ بالنَّهي،

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/155.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/235.

والمعنَى: "إنّكم إنْ فعلتُم ذلكَ، وقعدتُم معهُم، ولم تنتَهُوا، فأنتُم مثلُهم في الكفرِ واستتباعِ العذابِ"[1]،

بَلَاغَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾:

الـرَّاضِي بِالْمُنْكَرِ يَـأْخُـذُ حُـكْـمَ فَاعِلِهِ

في التّشبيهِ الواردِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ تَهْديدٌ ناتجٌ ممّا يترتّبُ على التّلبس بصُورَةِ المشبّه به منَ العذابِ الشّديدِ المتوعَّدِ به في القرآن الكريم لمَنْ نافقَ وكفرَ باللهِ تعالَى؛ ذلك أن حُكمَ الرّاضِي بالمُنكرِ يأخذُ حكمَ فاعلِه، فقد "حَكَمَ تَعَالَى بِأَنَّهُم إِذَا قَعَدُوا مَعَهُم وهُم يَكفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ويَستَهزِئُونَ بهَا، وهُم قَادِرُونَ على الإنكَارِ مِثلُهُمَ في الكُفرِ؛ لأَنَّهُم يَكُونُونَ رَاضِينَ بالكُفرِ، والرِّضَا بالكُفرِ كُفرٌ"[2].

وواضِحٌ أنّ "هَذِهِ المُمَاثَلَةَ لَهُم خَارِجَةٌ مَخرَجَ التّغليظِ والتَّهدِيدِ والتَّخويفِ، ولَا يَصِيرُ المُؤمِنُ مُنَافِقًا بِجُلُوسِهِ إلى المُنَافِقِينَ، وأُرِيدَ المُمَاثَلَةُ في المَعصِيَةِ، لَا في مِقدَارِهَا، أَي: أَنَّكُم تَصِيرُونَ مِثلَهُم في التَّلَبُّسِ بالمَعَاصِي"[3]، فالمُمَاثَلَةُ لَيسَت من جميعِ الوجوهِ في جَمِيعِ الصِّفَاتِ، ولَكِنَّهُ من بابِ الإلزَامِ، فشُبِّهَ بِحُكمِ الظَّاهِرِ مِنَ المُقَارَنَةِ، كَمَا قَالَ: فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي[4].

دِلَالَةُ ﴿إِذٗا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾:

ثُبُوتُ المُمَاثَلَةِ بِالمُشَارَكَةِ فِي الأَفْعَالِ

بُنِيَتِ المماثلةُ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ علَى الإِيجَازِ البَلِيغِ، وذلكَ بيّنٌ من تَنْوِين ﴿إِذٗا﴾؛ فقد «جُعِلَ جَوَابُ القُعُودِ مَعَهُمُ المَنهِيُّ عَنهُ أَنَّهُم إِذَا لَم يَنتَهُوا عَنِ القُعُودِ مَعَهُم يَكُونُونَ مِثلَهُم في الاستِخفَافِ بِآيَاتِ اللهِ؛ إِذْ قَالَ: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ فَإِنَّ ﴿إِذٗا﴾

---

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245، والقنّوجي، فتح البيان: 3/269.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/154 - 155، والزمخشري، الكشاف: 1/578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، والخازن، لباب التأويل: 1/439، والقنّوجي، فتح البيان: 3/270.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/418، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/236.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/126.

حَرْفُ جَوَابٍ وَجَزَاءٍ لِكَلَامٍ مَلفُوظٍ بِهِ أَو مُقدَّرٍ، والمُجَازَاةُ هُنَا لِكَلَامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيهِ النَّهيُ عَنِ القُعُودِ مَعَهُم، فَإِنَّ التّقدِيرَ: إِن قَعَدتُم مَعَهُم إِذَن إِنَّكُم مِثلُهُم"(1).

نُكْتَةُ إِفْرَادِ الْمِثْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾:

زِيَادَةُ تَغْلِيظِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَتَقْبِيحِهِ

إفرادُ لفظِ المثلِ في قولهِ تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾، وَوُرُودُ المشبَّهِ والمشبَّهِ به مجموعَيْنِ إشعارٌ بالاتّحادِ بينَ الفِعْلِ والرّضَا به، وفي ذلك زيادةُ تغليظٍ وتخويفٍ وتهديدٍ، وحثٌّ على الإسراعِ في امتثالِ النَّهْيِ، وإظهارِ الغضَبِ للّٰه تعالَى.

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُمَاثَلَةِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾:

تَحْقِيقُ الْمُمَاثَلَةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ حَالَ مُجَالَسَتِهِمْ

سِيقَتْ جملةُ المماثلَةِ في قَوْلِهِ جَلّ شأنُهُ: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ اسميَّةً للدّلالَةِ على لزومِ وصفِ المماثَلَةِ لهُمْ ما داموا مجالِسينَ لهُمْ حالَ صدورِ الباطِلِ مِنْهُمْ؛ مِنَ الكُفْرِ بالآياتِ والاستهزاءِ بهَا.

وصُدِّرت الجملةُ بـ (إنَّ) المؤكِّدَة؛ للدّلالَة علَى تحقُّقِ هذهِ المماثَلَة.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْمُمَاثَلَةُ فِي الْفِعْلِ تَقْتَضِي الْمُمَاثَلَةَ فِي الْعِقَابِ

فُصِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه موقعَ الجوابِ عَن سؤالٍ أثَارَتْهُ الجملةُ السّابقةُ، فبينَها وبينَ مَا قبلَها شبهُ كَمَالِ الاتّصَالِ، فإنَّ اللّٰه تعالى لَمَّا قال: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا عمَّا تتحقَّقُ بهِ المماثلةُ، وعَنْ سبَبِها؟؛ فجاءَ الجوابُ في قوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، والمعنَى: "اجتماعُكُم بِهِمْ هُنا سببٌ في اجتماعِكُم بِهِم في جهنّم"(2). فالجوابُ: "تعليلٌ لكونهم

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/236.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 3/374.

مثلَهم في الكفرِ ببَيَانِ مَا يَسْتَلْزِمُه مِنْ شِرْكِتِهم لَهُم في العذابِ"[1]، وفيه زيادةُ تأكيدٍ على التَّحذيرِ من مجالستِهم وقتَ الاستهزاءِ، فالآية سيقت مساقَ الوعيدِ؛ تأكيدًا للتَّحذير مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ[2].

وجاءت هذه الجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ اسميَّةً؛ إشعارًا بلزوم جَمْعِهِمْ ودَوامِه، وإيمَاءً إلى خلودِ المنافقِينَ كخلودِ الكافرِينَ؛ إذ لو لم يكونُوا خالدِينَ ما استمرَّ جَمْعُهُمْ.

وأُكِّدَ مضمونُ الجملةِ بـ (إنَّ) تقويةً لهذا المعنَى وترشيحًا لهُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿جَامِعُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

تَحَقُّقُ جَمْعِ اللهِ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

جاءَ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ دونَ الْفِعْلِ؛ لدِلَالَةِ ذلك علَى تَأْكِيدِ الجَمْعِ وحُصُولِه بالتَّعبيرِ بِمَا يفيدُ مَعْنَى المُضِيِّ بدلَ الاستقبالِ، فإضافَةُ اسْمِ الفاعِلِ دليلٌ عَلَى المُضِيِّ، ولمّا كانَ الحَدَثُ مُسْتَقبلًا؛ فإنَّ الْإِخْبَارَ عَنْهُ بالمَاضِي يَدُلّ على تحقّقِ وقوعِه،

والمعنى (إنَّ اللّه جامعٌ المنافقين والكافرين) وطرح التنوين استخفافا، وذلك كثير في لغة العرب وفي القرآن الكريم،

وأراد (جامعٌ) بالتّنوين؛ لأنّه لم يجمعهم قبل، ولكن حذف التّنوين استخفافًا من اللّفظ، وهو مراد في المعنى[3].

واستُعمِلَ اسمُ الفاعلِ مِنْ دونِ الفعلِ للدِّلالةِ على هذا المَعنى لِما في اسمِ الفاعِلِ من دِلالةٍ على المُطلقِ مِنْ دونِ اقترانِه بقرينةٍ زمنيّةٍ، ولا سيَّما أنَّ معناهُ مَعنى النَّكرةِ التي تُفيدُ الإطلاقَ أيضًا، وكأنَّهُ يقولُ: إنَّ اللّه قادرٌ على أن يَجمعَهُم في كلِّ زمانٍ ووَقتٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/104، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/156، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/247، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/418.

وصُرِّحَ بمكانِ الجَمْعِ في قوله تعالَى: ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ زيادةً في التَّخْوِيفِ والتَّرهيب.

وفي تقييد الجَمْعِ بالحالِ ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيدٌ لِجَمْعِهِم، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ في الحَشْرِ، ولكنَّهُ يَجْعَلُهُم في النّارِ قُرَنَاءَ جَمْعًا خاصًّا؛ إشعارًا بمَزِيدٍ مِنَ العَذَابِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾:

لَمَّا كَانَ الْمُنَافِقُونَ مَعْدُودِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ؛ قُدِّموا تَشْدِيدًا عَلَيْهِمْ

قُدِّمَ ذِكْرُ المُنَافِقِينَ على الكافرينَ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾؛ تشديدًا للوعيدِ والتَّهديدِ على المخاطبِينَ[1]. كأنَّ المُنَافقين هُمُ المَقْصُودُون بالجَمْعِ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّ الكَافِرينَ في النّار، ثُمَّ أُلْحِقَ بِهِمُ المُنَافِقُونَ، فكان الجَمْعُ مقصُودًا لَهُمْ.

سِرُّ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

النِّفَاقُ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ

وُضِعَ الظّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، وكان مقتضَى الظّاهِرِ: (إنّ اللّه جامِعُهُم والكافرين)؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّسجيل عليهِمْ بنفاقِهِم، وتعليلُ الحُكْمِ بخلودِهِم وقَرْنِهِمْ بالكافرينَ[2]، فاللّه تعالى لَم يَحْكُمْ عَلَيْهِم بذَلِكَ الجَزَاءِ إلّا لِنِفَاقِهِمْ وليسَ لِذَوَاتِهِمْ.

جَمالُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾:

تَأْكِيدُ قَرْنِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

بينَ ﴿جَامِعُ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ جناسُ اشْتِقَاقٍ؛ وفي هذا تَقْوِيَةٌ لِلْمَعْنَى بإِيقَاعِهِ على السَّمْعِ مرّتين؛ لفتًا لِلنّظرِ إِلَيْهِ، فإنّه المقصُودُ بالإِخْبَارِ في النّصِّ، وهُوَ جَمْعُهُمْ في جهنَّمَ لِلعذابِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقة بعضَ الصِّفات القلبيَّةِ للمنافقين، من التَّردد والتَّذَبْذُب بين الإيمانِ والكُفر، وتعزُّزهم بالكفر، ووَلايتهم للكافرين - بيَّن هنا بعضَ أحوالهم الفعليَّة الدالَّةِ على بعض ما تُكنُّه صدورُهم؛ لعلهم بها يُعرفون، فيحذرَهم المؤمنون، فإن خَفِيتْ عَلَيْهِمْ؛ فاللّه يحكم بينكم في الدارينِ، ولن يَخذُلَ اللّه أولياءَه أبدًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: (رَبَصَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْتِظَارِ، التّربّص: الانتظار بالشّيء، سلعة كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله[1]، وينتظر به يومًا[2]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ أي "ينتظرون بكم دوائر الزمان"[3]، وهو ما "يتجدّد لكم من ظفر أو إخفاق"[4].

2) ﴿فَتۡحٞ﴾: أصل يدل على خلاف الإغلاق. الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، ويقال فتح القضية فتحًا: فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فإنه يحتمل النُّصْرَةَ والظفر والحكم[5]. والمراد هنا: الظفر والظهور على العدوّ.

3) ﴿نَصِيبٞ﴾: (نصب) أصل يدلّ على إقامة شيء وإهداف في استواء. والنّصيب:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ربص).

(2) الواحدي، البسيط: 7/156.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/214.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتح).

الحظّ من الشّيء، كأنّه الشّيء الذي رُفع لك وأُهدف، الحظّ المنصوب، أي: المُعَيَّن[1]، والمعنى المراد هنا، كما قال ابن عباس: يريد ظفرًا على المسلمين، يعني دَولة وظهورًا عَلَيهم[2].

4) ﴿نَسۡتَحۡوِذۡ﴾: (حَوَذَ) أَصْلٌ مِنَ الْخِفَّةِ وَالسُّرْعَةِ وَانْكِمَاشٍ فِي الْأَمْرِ، استحوذ العير على الأتان، أي: استولى على حَاذَيْهَا، أي: جانبي ظهرها[3]، يقال أحوذ الشيء، إذا جمعه وضمَّه، ومنه يقال: استحوذ على كذا، إذا حواه، هذا هو الأصل، ثم جعلوا الاستحواذ بمعنى الاستيلاء على الشيء؛ لأنَّ المستولي على الشيء بمنزلة المحيط به"[4]، فقالوا للكفرة: "ألم نغلبكم ونتمكّن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم"[5].

5) ﴿وَنَمۡنَعۡكُم﴾: أصل واحد هو خلاف الإعطاء، ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منعة: أي عزيز ممتنع على من يرومه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾[6]، والمعنى المراد هنا أَيْ بِتَخْذِيلِنَا إِيَّاهُمْ عَنْكُمْ، وَتَفْرِيقِنَا إِيَّاهُمْ مِمَّا يُرِيدُونَهُ مِنْكُمْ"[7].

6) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) أصل يدلّ على امتداد شيء، السّبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه (سُبُل)، ويستعمل لكلّ ما يتوصّل به إلى شَيْءٍ خيرًا كان أو شرًّا، ويعبّر به عن المحجّة؛ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾[8]، والمراد به هنا الحجّة[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّ من صفات المنافقين أنّهم "ينتظرون ما يحصل لكم من خير أو شرّ، فإن كان لكم نصر من الله وغنمتم، قالوا لكم: ألم نكن معكم؟ شهدنا ما شهدتم! لينالوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نصب).
(2) الواحدي، البسيط: 7/157، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حوذ).
(4) الواحدي، البسيط: 7/157، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/203.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/104.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(7) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/419.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/324.

من الغنيمة، وإن كان للكافرين حظّ قالوا لهم: ألم نتولّ شؤونكم ونُحِطْكم إحاطة العناية والنّصرة ونحمِكم من المؤمنين بإعانتكم وتخذيلهم؟! فاللّه يحكم بينكم جميعًا يوم القيامة، فيجازي المؤمنين بدخول الجنّة، ويجازي المنافقين بدخول الدّرك الأسفل من النّار، ولن يجعل اللّه بفضله للكافرين تسلّطًا على المؤمنين، بل سيجعل العاقبة للمؤمنين"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة كمال الاتصال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

تربص المنافقين بالمؤمنين وترقب الحوادث

لم تعطف هذه الجملة على الآية السابقة؛ لشدة الاتصال بينهما، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ الآية بدلٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾. ويجوز أن تكون نعتًا للمنافقين على اللفظ؛ فتكون مجرورة المحل[2].، وكونها صِفَةً لِلْمُنَافِقِينَ فقط أولى إذ هم المتربّصون دون الكافرين"[3]، وفيه "إشارة كاشفة لموقف المنافقين، وهو موقف التربّص والانتظار لما ينجلي عنه الموقف فيما يدور بين المؤمنين والكافرين من صراع"[4].

نكتة تلوين الخطاب:

في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى المؤمنين، بتعديد بعضٍ آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم[5].

دلالة التّربّص في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

التربصّ هو المكث في المكان، ويدلُّ على الِانْتِظَارِ وَتَرَقُّبِ الْحَوَادِثِ

معنى التّربص هو المكث في المكان، ويدلُّ على حال المنافقين وفعلِهم، فهم جاثمون في أماكنهم، ثابتون فيها، لا يقدِّمون للمسلمين نفعًا، ولا

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(2) السّمين، الدر المصون: 4/123.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(4) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(5) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

يدفعون عنهم ضرًّا، وفي الوقت ذاته يترقَّبون الحوادث، فهم في توتُّر دائم، فعبّر عن انتظارهم مآلات الصّراع بين المؤمنين والكافرين بالتّربّص دلالة على ترقّبهم ذلك وعلى إثره يحدّدون وجهتهم.

سر التعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ عبّر عن المنافقين بالاسم الموصول؛ للترهيب من تعاطي هذا السلوك من المنافقين، ولتحذير المؤمنين منهم، ولتعيين المُتَحدث عنهم.

عـــبّر عـنـهـم بالموصول إظهارًا لقبائح سلوكهم في الصّلة

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ عبّر عنهم بالفعل المضارع؛ لأنّ هذا الفعل يدل على صفات سلوكية تمكنت من المنافقين في عداوتهم للمؤمنين وخبث بواطنهم، وذلك واضحٌ في تعبير القرآن عنهم بالفعل (يتربصون) الذي يشير إلى أنهم في موقف المنتظر للشماتة بالمسلمين والترقب لهزيمتهم دائمًا وأبدًا؛ ففي كل غزوة أو معركة يتربصون بالمسلمين مترقبين هزيمتهم.

عبّر عن سلوكهم بالفعل المضارع دلالة على تجدّد خبثهم وسوء طويتهم

سرُّ العدول عن الفعل (ينتظرون) إلى ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

آثر القرآن الكريم التعبير بالفعل (يتربصون) هنا دون ينتظرون، مع استعمال (ينتظرون) في سياق آخر، يناسب الوعيد الشديد للكافرين، في نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102]؛ وذلك لوجود فرق بينهما؛ فالتّربّص فيه طول انتظار، بخلاف الانتظار فزمنه قصير وطويل، ومن ثمَّ يسمَّى المتربّص بالطّعام وغيره متربّصًا؛ لأنّه يطيل الانتظار لزيادة الربح[1].

عـــبّر بـالـفـعـل يتربّصون لما فيه مـن دلالـــة على طـول الانتظار، إظـهـارًا لـشدّة انتظارهم

ويضاف إلى ذلك أنَّ التربُّص أشدُّ من الانتظار؛ لأنَّه أثقل لفظًا منه، يؤكِّد هذا أنَّ المواطن التي ورد فيها التربُّص في القرآن الكريم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

يلمح فيها الثِّقل على النَّفس والتَّرقب، كقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، فهذا أمر فيه ثقل على المرأة وطول انتظار، و في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ عبّر بذلك؛ فإنّ عداء المنافقين للمسلمين دفين؛ فمن أجله يتربّصون بالمؤمنين ويتحملون ثقل الانتظار من أجل تحقيق مآربهم في هزيمة المسلمين.

كما نلحظ أنَّ المنتظِر غير مقيَّدٍ بمكان أو بحال؛ لأنَّ اشتقاقه من النَّظر، فالانتظار من الترقُّب والتفحُّص والتأمُّل، فالزمن بالنسبة للمنتظِر لازم عن ترقُّبه مرادَه، وليس كذلك المتربِّص؛ لأنَّ الأصل فيه الجثوم والمُكث في المكان، على حال معيَّن، لا يخلو من التوتُّر والقلق، فهو مُقَيَّدٌ بمكان وزمان وحال.

وعلى هذا فالملاحظ أن التربص يفترق عن الانتظار؛ لأن الانتظار قد يكون أمده قصيرًا أو طويلًا بخلاف التربص فيحمل في الغالب معنى الأمد الطويل أو الثَّقيل، ويكون غالبًا في غير المحبوب.

دلالة حرف الجر (الباء) في قوله ﴿بِكُمْ﴾:

الباء للإلصاق للدّلالة على شدّة تربُّص المنافقين بالمسلمين

دل حرف الباء على أنَّ المنافقين ملاصقون للمسلمين، ويعيشون معهم ولا يستطيع المسلمون فصلهم عن المجتمع؛ لأنهم متداخلون فيه.

كما يشير إلى حرص المنافقين على إظهار الصفات التي بها يَنْضَوُونَ إلى المجتمع الإسلاميّ؛ حتى لا ينكشف أمرُهم، أو يَفْتَضِحَ حالُهم، فهم يقْبَعُون في أماكن المسلمين، ويجْثُمون مترقِّبينَ مآلات الأمور.

دلالة (كاف) الخطاب في قوله ﴿بِكُمْ﴾ بدلًا من التعبير بالمؤمنين:

دلّ كاف الخطاب على إرادة المسلمين زمان البعثة، وإشارة إلى علوّ رتبتهم عند الله تعالى

دلّ كاف الخطاب على أنّ المراد بالمخاطبين المؤمنون في زمن النّبيِّ ﷺ، وهذا ما تؤكّده الأحداث التي وقعت للمسلمين في زمنه ﷺ في غزوة أحد و غيرها، إذْ لمّا تغلّب المشركون على المسلمين؛ فرح

المنافقون وشمتوا بالمسلمين، وهذا لا يمنع أن يكون هذا السلوك مع المؤمنين على العموم. وفيه إشارة إلى علو قدر المؤمنين عند ربهم فهم محل خطابه.

كما يشير ضمير الخطاب هنا إلى دقَّة معرفة المنافقين بالمؤمنين الخُلَّص، بحيث لا يلتبس عليهم واحد منهم؛ وذلك مستفاد من أنَّ الضَّمائر أعرف المعارف، لأنَّها لا تفتقر إلى أن توصف كغيرها من المعارف، وهو قول سيبويه(1).

وفي وضع المنافقين موضعَ اسم الموصول المفتقر إلى صلته مواءمة لحالهم من التستُّر والخفاء والضعف، كما أنَّ التعبير عن المؤمنين بضمير المخاطبين إشعار بظهورهم و قوّتِهم.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٌ﴾:

تفصيل بعد إجمال، وإفصاح عن غرضهم من التّربّص

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ "لترتيب مضمونِه على ما قبلها؛ فإنّ حكايةَ تربُّصِهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك، كما أنّ نفس التّربُّص يستدعي شيئًا ينتظر المتربّصُ وقوعَه"(2). و"هذه الجملة والتي بعدها حكاية لتربّصهم"(3). ويضاف إلى ذلك أنَّ هذه الفاء تفصيليَّة(4)؛ لسبقها بمُجمل.

السّرّ في التّعبير بـ (إن) الشّرطيّة دون (إذا):

صرّح بـ (إنْ) للدّلالة على أنّ المنافقين يستبعدون ظفر المسلمين، إظهارًا لخبث طويّتهم

اختار التعبير القرآني (إن) بدلًا من (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لوجود فرق بينهما؛ فـ (إذا) تفيد تحقّق الوقوع، ولا تدخل إلا على الشّيء المتيقّن، ووقوعه كثير بخلاف (إن) فَهِيَ تفيد الشّك في الوقوع، وتشير إلى أنّه قليل، وهذا المعنى واضحٌ في سلوك المنافقين؛ فكأنهم يشكّون في وقوع النّصر للمسلمين

(1) ابن الأنباري، أسرار العربيّة، ص: 244.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/271.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/435.

ويستبعدونه؛ لأنّهم يرون أنّ المسلمين في وضع الضّعف والهزيمة، وفي هذا دليل على كراهِيَةِ أهل النّفاق للإسلام وأهله.

تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

قـدّم المسـند لـلـدّلالـة على سلوك المنافقين فـــي حـالـة اختصاص الفتح بالمسلمين

قدم الخبر ﴿لَكُمْ﴾، وأصل الكلام: (فإن كان فتحٌ من الله لكم)؛ للدّلالة على اختصاص الفتح بالمسلمين لتفصيل الشّرط، وَ تبيينِ موقفهم منه، ويشير إلى سلوك نفسيٍّ لدى المنافقين؛ فهم يخادعون المؤمنين ويتربّصون بهم، ومع ذلك يريدون أن يكون لهم موقف إذا انتصر المسلمون، وظهر ذلك في تقديم الخبر ﴿لَكُمْ﴾ في الذّكر.

سرّ التّعبير عن النّصر بالفتح في جانب المؤمنين:

تـعـظـيـمًـا لأمـر الإيـمـان وأهـلـه، فـهـو فـصـل بـين الحق والباطل

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبّر عن النّصر في جانب المؤمنين بأنّه فتحٌ؛ "لأنّ الفتح فصل بين الحقّ والباطل، ولأنّه من وراء نصر المؤمنين فتح الطّريق لكي يدرك النّاس الإسلام، ويدخل فيه من أراد، ولأنّ النّصر للمؤمنين دائم، وقد عبّر سبحانه عن الفتح أنّه يجيء من اللّه وفي ذلك معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو اللّه القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بقيت الأسباب التي تُتّخذ للنّصر"[1]، ويضاف إلى ذلك أنّه عبّر بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم.

فعبّر البيانُ القرآنيُّ بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم، وفيه إشارة إلى أنّ هذا النّصر هو فتح لأبواب الخير وطرق الهداية، وعبر عمّا يحدث للكافرين بالنّصيب؛ فلم يقل إنّ انتصارهم فتحٌ، ولكنّه قدرٌ من النّصر قلّ أو كثر، ولا يمكن أن يكون فتحًا؛ لأنّه لا ينصر الباطل نصرًا دائمًا؛ تنبيهًا على أنّ الذي حصل للكافرين من نصرٍ في معركة من المعارك هو من الدَّوْلَةِ في طبيعة الحرب؛ لأنّها سِجال.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

دلالة التنكير في قوله: ﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

نكّر الفتح؛ لأنّ سلوك المنافقين كان يتكرّر مع كلّ فتح، فالتّنكير للتّكثير

دل التنكير على أن المنافقين يستغلون الفرص، ويريدون النّفع لأنفسهم، ولو كان الأمر صغيرًا، وليس كبيرًا، وفيه دلالة على أنّ سلوكهم لم يكن ليتوقّف عن فتح واحد بعينه، بل كانوا يفعلون ذلك مع كلّ غزوة، ويصدّق ذلك الفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ فهو تربّص مستمرّ متجدّد مع كل موقعة ينتج عنها فتح للمؤمنين أو نصيب للكافرين.

ولا مانع من إفادة التَّنكير - هنا - التعظيمَ مع التَّكثير، باعتبارين مختلفين؛ فعلى اعتبار أنّ فتح أيِّ بلد للإسلام يعدُّ فتحًا عظيمًا، كما أنَّ وصفه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يكفي في اكتسابه العظمة، وباعتبار أنَّ الفتوحات كثيرة يفيد التكثير، وليس تنكير ﴿نَصِيبٌ﴾ كتنكير ﴿فَتْحٌ﴾؛ لاحتمال دلالة (نصيب) على القلة، أو التحقير.

دلالة التعبير بالفتح دون النصر:

الفتح أعَمُّ من النّصر، لتعلّقه بالمادّيات والمعنويّات

عبّر بالفتح دون النّصر؛ لأنّ معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

سرّ وصف الفتح بكونه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

وصف الفتح بكونه من الله تعالى تعظيمًا له، وإشارة إلى دوامه

دلّ هذا التّعبير على عظمة هذا الفتح، وأنّه يحمل معانيَ عديدة؛ لأنّه من اللّه؛ فهو "مُقَدِّرُهُ وَمُرِيدُهُ بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَيِّنَةٍ"[2]. "وفيه تذكير للمؤمنين بأنّ ما كان لهم من نصر فهو من عند اللّه،

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/237.

بتأييده لهم، وإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين"[1]. وفيه إشارة إلى معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو الله القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بَقِيَتِ الأسباب التي تتّخذ للنّصر[2].

حكاية القرآن لقولهم التّقريري: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

إعلان لقبيح طويّتهم، فطبيعة النّفاق، القول بلا عمل

هذا القول يشير إلى فضح وجه المنافقين الكالح؛ لأنّهم كانوا مع المؤمنين في المعركة بأجسادهم يمشون بها في تثاقل وانحراف، والحرب دائرة، والقتال مستعر؛ فلا عمل يصدر منهم، بل يقفون عند حيِّز القول الأجوف[3].

سرُّ العدول عن الإخبار إلى الإنشاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ بدلًا من قولهم: (كنا معكم):

عبّروا عن غرضهم بأسلوب التّقرير لتأكيده وزيادة الإيهام

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ "معناه أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾"[4]، فجاء التّعبير بهذا التركيب الإنشائيِّ؛ ليشير إلى أنّهم يحاولون تَأۡكِيدَ وجودهم الجسديِّ؛ فكأنّهم أدركوا أنّ المؤمنين أنكروا وجودهم لعدم تقديمهم ما يدلّ على الأثر الفاعل؛ فحاولوا إزالة هذا الشّعور بهذا الأسلوب المؤكِّد على كينونة وجودهم.

دلالة التعبير بالمصاحبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

اختار القرآن الكريم التّعبير بالمصاحبة التي يدلّ عليها (مع) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ للإشارة إلى سلوك المنافقين في مثل

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 3/940.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

هذه المواقف؛ فهم يريدون الاستفادة في مواطن النّصر من الغنائم؛ لأنّ الغنيمة لا تكون إلّا لمن حضر؛ فأرادوا إثبات حضورهم ليتحقق شرط الأخذ من الغنيمة. وفيه إشارة إلى سماحة الإسلام أنّه يعامل المنافق بظاهره فيعامل معاملة المسلم؛ فيأخذ حظّه من الغنيمة.

دلّت المصاحبة على أنّ الحضور في المعركة شرط لأخذ الغنيمة

بلاغة العطف:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها وما قبلها تفصيل لتربّص المنافقين المذكور.

عطف الجملة على ما قبلها لأنّها تفصيل للتّربُّص

دلالة التعبير بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

دلّ التّعبير بـ (إن) على موقف المنافقين إذا دارت معركة بين المسلمين والكافرين؛ فإنَّهم يحاولون أن يقفوا موقفًا يخدم مصالحهم، ولا يحسمون النّتائج لصالح الكافرين؛ لأنّهم يعلمون قوَّة المسلمين وتأييد اللّه تعالى لهم؛ فلا يريدون الظّهور بالعداء للمسلمين مع وجودهم فيهم، بل يقفون موقفًا انتهازيًّا.

عبّر بأداة الشّرط (إن) الدّالّة على الشّك لما علموا من قوّة المسلمين

سرّ تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

قدّم خبر كان على اسمها، فلم يقل: (وإن كان نصيب للكافرين)؛ لمزيد الاهتمام من المنافقين بالكافرين؛ وكأنّهم يريدون أن يعلنوا من طرف خفيٍّ أنّهم مع الكافرين ويوالونهم.

قدّم خبر كان (للكافرين) لبيان زيادة المنافقين بهم

الغرض من الاستفهام:

عبّر بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ لتقرير معيّتهم، أي" أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾"(1).

عبّر بالاستفهام التّقريريّ لتأكيد معيّتهم للمؤمنين، وزيادة الإيهام

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/237.

علة تسمية ظفر المسلمين فتحًا وظفر الكافرين نصيبًا:

تعظيمًا لأمر الإيمان وأهله، وذمًّا لشأن الكفر وأهله

سمّى ظفرَ المسلمين فتحًا، وظفر الكافرين نصيبًا "تعظيمًا لشأن المسلمين، وتخسيسًا لحظِّ الكافرين؛ لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السّماء حتّى ينزل على أوليائه. وأمّا ظفر الكافرين، فما هو إلا حظٌّ دنيّ، ولمظة من الدّنيا يصيبونها"[(1)]؛ "فإنّه مقصور على أمر دُنيويّ سريعِ الزّوال"[(2)].

سر التعبير بنصيب دون الحظ:

عبّر عن ظفرهم بالنّصيب دون الحظّ، لأنّ النّصيب يقع في الخير والشّرّ

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والنّاظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير وجانب الشّرّ، قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنّصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيِّ بين النّصيب والحظّ؛ فيرد النصيب في الشرِّ، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾:

أكّدوا امتنانهم على الكافرين بأسلوب التّقرير

عبّروا بأسلوب الاستفهام التّقريريّ إظهارًا لمنّتهم على الكافرين، وتأكيدًا لما كانوا يُبْدونَهُ في سلوكهم مع الفريقين، "ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنّة على الكافرين، أي: فاعرفوا لنا الحقَّ في هذا عليكم"[(3)].

دلالة الإخبار بالمعيّة مع المؤمنين دون الكافرين:

النّاظر في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ يجد مغايرة في قول المنافقين مع

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/578 - 579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406 - 407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.

(3) الواحدي، البسيط: 7/158، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

المؤمنين، حيث قالوا ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، وقالوا مع الكافرين ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، فاختلف التّعبير القرآني الصّادر عن المنافقين مع الكافرين؛ لاختلاف المواقف؛ فهم مع المؤمنين لهم وجود ومعايشة، ومساكنة، بل ويصلّون معهم إذا لزم الأمر؛ فالمعيّة ظاهرة، لذلك وظّفوها في طلب منفعتهم، بخلاف الأمر مع الكافرين فهو مختلف؛ لأنّهم لا يستطيعون إعلان المعيّة الظّاهرة، وإن كانوا مؤيّدين لهم في الباطن حتّى لا ينكشف أمرهم ويَفْتَضِحَ وجوههم.

عـبّروا بالمعيّة لأنّ حياتهم مع المؤمنين فيها مُساكَنةٌ

سر التّعبير بالاستحواذِ دون غيره:

عبّر في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ بفعل الاستحواذ، إشارة إلى معنى الاستيلاء والتّمكن من فعل الشيء؛ فالمنافقون يمنّون على الكافرين، وأنّ ما نالوه من نصيب هو بسبب ما فعلوه معهم. وفيه إشارة إلى قيادة المنافقين للكافرين أخذًا من المعنى اللُّغويّ الذي يدلّ على السَّوق العنِيف لِحادي الإبل؛ فالكافرون في نظرهم بمنزلة الإبل التي تساق بعنف، وممّا يدلّ على ذلك وجود الجار والمجرور (عليكم) فهو يحمل معنى الاستعلاء، ويؤكّد هذا ما ذكره الشيخ أبو زهرة: "أن كلمة استحوذ معناها: أحطنا بحاذيكم أي جانبيكم، وهذا كناية عن الإحاطة بهم للحماية والمنع"[(1)].

عبّر بالاستحواذ للدّلالة على الاستيلاء والتّمكّن من الفعل

كيفية الاستحواذ:

تعدّدت آراء العلماء في كيفية استحواذ المنافقين، وخلاصتها ما ذكره الرَّازي بأنّ معناه: أَلَمْ نَغْلِبْكُمْ وَنَتَمَكَّنْ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرِكُمْ، ثُمَّ لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ ثَبَّطْنَاهُمْ عَنْكُمْ، وَخَيَّلْنَا لَهُمْ مَا ضَعُفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَانَيْنَا فِي مُظَاهَرَتِهِمْ عَلَيْكُمْ، فَهَاتُوا لَنَا نَصِيبًا مِمَّا أَصَبْتُمْ[(2)].

تظاهر المنافقين لكل طائفة بأنهم معهم دون الأخرى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

صـدّ المنافقين للـكـفـار عن الإسلام

يظهر هذا الصّدّ في تفسير استحواذ المنافقين في تنفير الكفّار واليهود من الإسلام، وهذا المعنى ذكره الإمام الرازي فقال: "الْمَعْنَى أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ وَالْيَهُودَ كَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ حَذَّرُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَبَالَغُوا فِي تَنْفِيرِهِمْ عَنْهُ وَأَطْمَعُوهُمْ أَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَسَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ لَهُمْ صَوْلَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: أَلَسْنَا غَلَبْنَاكُمْ عَلَى رَأْيِكُمْ فِي الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمَنَعْنَاكُمْ مِنْهُ وَقُلْنَا لَكُمْ بِأَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُهُ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَلَمَّا شَاهَدْتُمْ صِدْقَ قَوْلِنَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَمُنُّونَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِأَنَّا نَحْنُ الَّذِينَ أَرْشَدْنَاكُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَصَالِحِ، فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ"[1].

إيثار التعبير بالمؤمنين دون المسلمين:

آثـر التّـعـبير بعنوان الإيمان دون الإسـلام إخـراجًا للمتظاهرين بالإسلام

في قوله تعالى: ﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ آثر القرآن الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ دون المسلمين؛ لإخراج المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، كما فعل هؤلاء من خلال سياق هذه الآية، حيث قالوا للمؤمنين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾.

بلاغة العطف المنع على الاستحواذ:

وصـل بين الجملتين لكمال الاتّصال؛ لأنّهما من قائل واحد

عطف قوله تعالى: ﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ على قوله: ﴿نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لشدّة الاتّصال بينهم؛ لأنّهما مقول المنافقين، ولأنّ المنع جزءٌ من الاستحواذ؛ فهو من باب عطف الخاصّ على العام.

سرّ التعبير بالمنع دون الكف:

عبّر بالمنع دون الكفّ؛ لأنّ المنع يقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وفلانٌ ذو منعة، أَيْ: عزيز ممتنع على من يرومه، بخلاف الكفّ فهو بالدّفع على أيٍّ وجهٍ كان، بالكفّ كان أو بغيره، ولذلك

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

فالكفّ أعمّ من المنع؛ لأنّ المنع الأصل فيه الحماية، وقد لا تصل إلى المواجهة، بخلاف الكفّ؛ فقد يصل إلى المواجهة بالقتال، وعلى ذلك فالكفّ أقوى من المنع، ولذلك نجد أن المنافقين استخدموا التعبير بالمنع؛ لأنّه يراد به هنا "إِمَّا مَنْعٌ مَكْذُوبٌ يُخَيِّلُونَهُ الْكُفَّارَ وَاقِعًا وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَإِمَّا مَنْعٌ تَقْدِيرِيٌّ وَهُوَ كَفُّ النُّصْرَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّجَسُّسُ عَلَيْهِمْ بِإِبْلَاغِ أَخْبَارِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَإِلْقَاءُ الْأَرَاجِيفِ وَالْفِتَنِ بَيْنَ جُيُوشِ الْمُؤْمِنِينَ، وكلّ ذلك ممّا يُضْعِفُ بَأْسَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ وَقَعَ، وَهَذَا الْقَوْلُ كَانَ يَقُولُهُ مَنْ يَنْدَسُّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَزَوَاتِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ جُيُوشُ الْمُشْرِكِينَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ مِثْلَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ"(1).

الأصل في المنع الحماية ولو في الظاهر، والكف يحتمل المواجهة

سر التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَنَمۡنَعۡكُم﴾:

عبّر بالمضارع للإشارة إلى زعم المنافقين بأنّهم يمتلكون القوّة في منع المؤمنين عنهم في الحال والمستقبل.

عبّر بالمضارع للدّلالة على التّجدّد والاستمرار، تنزيلًا على زعم المنافقين

سر الجمع بين الاستحواذ والمنع:

جمع القرآن الكريم بينهما؛ للدّلالة على شدة ميل المنافقين إلى الكفار، فلم يكتفوا بواحدة منهما، بل أرادوا تأكيدَ شدة ميلهم إلى الكافرين، كأنّهم يقولون لهم نحن الذين صنعنا لكم هذا النّصر، وذلك بأن أرخينا لكم العنان، وثبّطنا المؤمنين عنكم، وهذا يؤكد شدة ميلهم إلى الكفار، حيث اكتفوا مع المؤمنين بالمعيَّة فقط ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾.

صلة المنافقين بالكفار وثيقة

التّعبير عن الحكم بالفعل المضارع:

عبّر عن حكمه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾بالفعل المضارع الدّالّ على الحدوث والتّجدّد اعتباريًّا "أي باعتبار ظهور الحكم وبروز متعلّقه، وإلّا فالحكم قديم أزليٌّ"(2).

الحكم تقدير قديم، وظهوره حادث عند تعلّقه بالنّاس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/237.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/63.

الغرض من الإخبار بالحكم بينهم يوم القيامة:

تسلية المؤمنين وتأنيسهم، وإنذار المنافقين وتحذيرهم

قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ جاءت هذه الجملة تسلية للمؤمنين وتحذيرًا للمنافقين؛ ذلك أن اللّه يحكم بينكم جميعًا "حكمًا يليق بشأن كل منكم من الثّواب والعقاب؛ فلا يغترّ المنافقون بحقن دمائهم في الدّنيا لتلفّظهم بالشّهادة؛ لِما له تعالى في ذلك من الحكمة؛ فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم"[(1)]، وإنما أجّل اللّه الحكم ليوم القيامة؛ لإنصاف المؤمنين من المنافقين "ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضّمائر، وإنْ حقنوا في الدّنيا دماءهم وحفِظوا أموالَهم بالتّكلم بكلمة الإسلام نفاقًا"[(2)]؛ واللّه سبحانه وليّ المؤمنين "سيقطع ما بين الفريقين، وسيكون المؤمنون في النّعيم، وأولياء الشّيطان في الجحيم"[(3)].

سر الاكتفاء بقوله ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ دون (وبينهم):

اكتفى بذكر ضمير المؤمنين إشارة انتفاء أهليتهم بالذّكر

الأصل في التحكيم أن يكون بين طرفين، والمراد هنا بين المؤمنين والمنافقين، لكن التعبير القرآني لم يشر إلى المنافقين على رأي من يقول إنّ الضّمير في قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ يعود إلى المؤمنين، والسبب في عدم ذكر المنافقين والكافرين، الإشعار بأنهم ليسوا أهلًا للذكر، ولا وزن لهم؛ كما قال ربنا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105]، وإنما الشأن في هذا اليوم للمؤمنين وحدهم؛ فهم أصحاب هذا اليوم يجنون ما به من ثمرات[(4)].

سرّ التّعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

عبّر عن حكمه تعالى بالجملة الاسميّة للدّلالة على ثبوت حكمه، تأكيدًا لطمأنة المؤمنين

جاءت الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبوت الحكم للّه ﷻ؛ فلا حكم إلا له، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: 57]، وفيه إشارة إلى زجر المنافقين والكافرين، وطمأنة المؤمنين بأنه لا معقّب لحكمه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 3/376.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 3/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/904.

إيثار تعليق الحكم بيوم القيامة:

علّق إجراء الحكم بيوم القيامة لأنّ الدّنيا دار بلاء لا دار جزاء

آثر التّعبير بالحكم، والمراد لازمُه؛ فيثيب أحبّاءه، ويعاقب أعداءه، وأمّا في الدنيا فأنتم وهم سواء في العصمة، "﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ حكمًا يليق بشأن كلٍّ منكم من الثّواب والعقاب، وأمّا في الدّنيا فقد أُجْرِيَ على من تفوَّه بكلمة الإسلام حُكمُه، ولم يضع السّيفَ على من تكلّم بها نفاقًا"[1].

سرُّ التعبير بيوم القيامة دون غيره من الأوصاف:

عبّر عن يوم البعث بالقيامة لأنّه الاسم العلم لذلك اليوم

أسماء يوم القيامة في القرآن كثيرة؛ كالحاقّة والقارعة والصّاخة والطّامّة وغير ذلك، وهي ليست مترادفة؛ لأنّ اسم يوم القيامة هو الاسم الأصل لهذا اليوم، وما عداه أوصاف له؛ يؤكّد ذلك أنّه ورد فيما يقرب من سبعين آية، بخلاف الأوصاف الأخرى فلم ترد إلا قليلًا؛ إذ كلّ واحد منهما يصف اليوم من جانب خاصّ، بخلاف اسم يوم القيامة فهو الاسم العلم، والباقي له صفات. وفيه إشارة إلى أنه البداية لما بعده، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6] للحساب وللجزاء.

بلاغة عطف الوعد على الحكم:

وعد الله للمؤمنين بأن تكون يدهم هي العليا ويد الكافرين هي السّفلى

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها لشدّة الاتّصال بينهما؛ فَهِيَ بمثابة بيان نتيجة الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، فحكم بأنَّه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

دلالة مجيء الوعد في فاصلة الآية:

ختم الآية بقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بهذا الوعد؛ لتثبيت المؤمنين، ودحضِ أوهام المنافقين

(1) أبو السعود، إرشاد العقْل السّليم: 2/245.

والكافرين؛ لأنَّ المؤمنين يعيشون بين "عَدُوٍّ مُجَاهِرٍ بِكُفْرِهِ. وَعَدُوٍّ مُصَانِعٍ مُظْهِرٍ لِلْأُخُوَّةِ، سالكًا مسلك النّفاق فأظهر أقصى درجات المكر والحيلة، وهذا يُثِيرُ مَخَاوِفَ في نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ يُخَيِّلُ لَهُمْ مَهَاوِيَ الْخَيْبَةِ في مُسْتَقْبَلِهِمْ. فَكَانَ مِنْ شَأْنِ التَّلَطُّفِ بِهِمْ أَنْ يُعْقِبَ ذَلِكَ التَّحْذِيرَ بِالشَّدِّ عَلَى الْعَضُدِ، وَالْوَعْدِ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، فَوَعَدَهُمُ اللّه بِأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ، وَإِنْ تَأَلَّبَتْ عِصَابَاتُهُمْ. وَاخْتَلَفَتْ مَنَاحِي كُفْرِهِمْ، سَبِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[1].

ختم الآية بوعد المؤمنين بنفي ظهور الكافرين عليهم تثبيتًا لهم وتلطّفًا بهم

إيثار النَّفي بـ (لن):

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾

آثر النّفي بـ (لن) الدّالّ على المستقبل قطعًا لآمال المنافقين، وتثبيتًا للمؤمنين

آثر القرآن الكريم النّفي بـ (لن) لِما تحمله من ردّ على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين، وفيه تثبيت للمؤمنين، ووعد كريم بأنّ اللّه تعالى لن يسلّط الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكليّة. وإن حصل لهم ظفر حينًا ما، وهذا التّأويل روعي فيه سابق الآية ولا حقها.

توجيه نفي ظهور الكافرين على المؤمنين:

المنفيّ هو غلبتهم باستئصال شأفتهم واستباحة بيضتهم

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هذا خبر بوعد اللّه الكريم، والخبر من اللّه ﷻ حاصلٌ لا محالة، والواقع أنّنا نرى أن الكافرين يتسلّطون على المؤمنين في بلادهم وأبدانهم، أجاب ابن العربيّ على ذلك بأنّ المراد لَنْ يَجْعَلَ اللّه لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا يَمْحُو بِهِ دَوْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبُ آثَارَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ[2].

ذهب بعض العلماء إلى أنّ المنفيّ الحجّة في الآخرة؛ لأنّه عطف على قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[3]، "قال يسيع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/238.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/510.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الحضرمي: كنت عند عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانًا؟ فقال عليّ (رضي الله عنه): معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال أهل التّأويل"[1]. وذهب بعضهم إلى أَنَّ ذلك في الدُّنْيَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ غَالِبَةٌ عَلَى حُجَّةِ الْكُلِّ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَغْلِبَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ[2]، ولعل هذا هو الأوفق.

المنفيّ هو ظهورهم عليهم بالحجّة والغلبة في الاحتجاج

سر التعبير بالجعل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عبّر بالجعل دون غيره لإفادة معنى المنّة على المؤمنين؛ لأنّ (جعل) بمعنى (صيّر وحوّل)؛ فالأصل أن تكون الغلبة والنّصر للمؤمنين، لكن قد يتعرّض المسلمون للغلبة من الكافرين في موقعة ما؛ فهذا أمر طارئ بسبب المعاصي، وعدم الأخذ بالأسباب، ولن يحوّل الله تعالى وعده للمؤمنين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: 47].

عبّر بالجعل دون غيره للدّلالة على محض الامتنان

دلالة إسناد الجعل إلى الله تعالى في هذه الآية:

أسند الجعل إلى الله تعالى؛ لإفادة طمأنة المؤمنين، وتثبيتهم في معاركهم مع الكافرين؛ لأن اسم الجلالة يجمع صفات الجمال والجلال ومن معانيها، قهر الكافرين، مع ما فيه من المهابة والتّعظيم.

أسند الجعل المنفيّ لله تعالى للمهابة والتّعظيم، طمأنة للمؤمنين

السّرّ في نفي غلبة الكافرين دون إثبات غلبة المؤمنين:

نفى سبيل الكافرين على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ دون إثبات السّبيل للمؤمنين، بأن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/324، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/126.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/248، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

لم يصرّح بغلبة المؤمنين؛ لأنّه الأصل وانتصار الكافرين طارئ

يقول: (ويجعل اللّه السّبيل للمؤمنين على الكافرين)؛ لأنّه هو الأصل، أمّا وجود سبيل للكافرين على المؤمنين فهو طارئ موقوت وعارض إلى زوال، وفيه إشارةٌ إلى قوّة الكافرين، وأنّهم يملكون من القدرة على النّصر والتّمكّن من المؤمنين، وهذا ما حدث في غزوة أحد وغيرها من الغزوات، وهذا لا يعني وجود سبيل للكافرين على المؤمنين.

سر المقابلة بين الكافرين والمؤمنين في فاصلة الآية:

التّصريح بالصّفتين، إظهارًا لسبب امتناع ظهورهم على المؤمنين

قابل بين الوصفين في قوله تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إشارة أنّ سبب انتفاء الجعل هو هذا الوصف، فإنّ اللّه تعالى لن يجعل للكافرين بوصف الكفر سبيلًا للظّهور على المؤمنين بوصف الإيمان. إذًا الوصف بالكفر مقابل وصف الإيمان هو السّبب في نفي ولاية الكفّار على المؤمنين الذين تحقّقت فيهم صفة الإيمان، الذي يترتّب عليه نصر اللّه للمؤمنين.

إيثار التّعبير بلفظ السبيل دون غيره:

أثر التّعبير بلفظ السّبيل لأنّه عامّ يطلق على ما يتوصّل به إلى الحجّة والظّفر وغيره

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ اختار ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره؛ لأنه عام يطلق على كل ما يتوصل به، ومنه القهر والحجة، "وَالْمُرَادُ بِالسَّبِيلِ طَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَزِيمَةِ وَالْغَلَبَةِ"(1).

فائدة التّنكير في لفظ السّبيل:

جاء لفظ السّبيل نكرة؛ ليشمل كلّ أنواع السّبل المؤدّية إلى الظّهور معنويًّا أو مادّيًّا

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ جاء لفظ السّبيل نكرة للتّعميم، فيشمل كلّ سبيل يؤدّي إلى الظّهور معنويًّا أو مادّيًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/238.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتح والنّصر:

الـفـتـح أعـمُّ مـن الـنّـصـر، لتعلّقه بالمادّيّات والمعـنـويّـات، وهـــو أنـسـب لمقام الآية حيث طمع المنافقون في الغنائم وهي تقع في الفتح

عبر بالفتح دون النصر؛ لأن معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

"النّصر: الإغاثةُ والإظهارُ على العدوّ. ومنه: نصر اللّه الأرض غاثها. والفتح: فتح البلاد"[2]، والذي يناسب الآية (الفتح) لأنّه يتحقّق بفتح البلاد كثير من الغنائم والفَيْءِ، وهذا أدعى إلى طمع المنافقين في التَّربُّصِ والمطالبةِ بسهم من تلكم الغنائم.

الحظّ والنّصيب:

النّصيب يكون في الشرّ والخير، والــحـــظّ في الـخـيـر، وذكـر الـنّـصـيـب في الآية؛ لأنّه جاء مع الكافرين

النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، يقال: وفّاه اللّه نصيبه من النّعيم أو العذاب، ولا يقال حظّه من العذاب؛ لأنّ أصل الحظّ هو ما يحظّه اللّه تعالى للعبد من الخير، والنّصيب: ما نصب له ليناله سواءٌ كان محبوبًا أو مكروهًا[3].

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والناظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير، كقوله تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/810.

(3) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 186.

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النساء: 85]، و يأتي في الشر كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيّ بين النصيب والحظ؛ فيرد النصيب في الشر، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

الانتظار والتّربّص:

التّربّص انتظار يطول، فناسب الآيـــة لـطـول انتظار المنافقين

"التَّرَبُّص: طولُ الِانْتِظَار، يكون قصير المدَّة وطويلها وَمن ثمَّ يُسمّى المتربّص بِالطَّعَام وَغَيره متربّصًا؛ لِأَنَّهُ يُطِيل الِانْتِظَار لزِيَادَة الرِّبْح، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: 25] وَأَصله من الرّبصة وَهِي التلبّث يُقَال مَا لي على هَذَا الْأَمر ربصة أَي تلبّث فِي الِانْتِظَار حَتَّى طَال"[1]. وفي الآية الكريمة دلّت على أنّ انتظار المنافقين يطول؛ فأنْ يحيق بالمؤمنين دائرة من دوائر السّوء يلزمه الانتظار حتّى يطول؛ لأنّ القتال لا يقع إلّا قليلًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما زال الحديث موصولًا عن صفات المنافقين؛ فذكر في الآيات السابقة أنّهم يتربّصون بهم الدّوائر، ويريدون أن ينالوا من الغنائم من غير أن يعملوا، وقلوبهم مع الكافرين، ثم جاءت هذه الآية لتذكر وصفًا آخر لأهل النّفاق، وهو أنّهم يظنّون أنّ أعمالهم مستورة، وأنّ النّاس عنهم غافلون، بل إنّه ليصل بهم فرط غرورهم إلى أن يظنّوا أنّ اللّه تعالى لَا يعلم ما يسرّون وما يعلنون، ويعاملوا النّاس على أساس هذه الخديعة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: (خدع) أصل واحد وهو إخفاء الشّيء، مأخوذٌ من خدع الضّب: أي استتر في جحره[2]، و"الخداع أن يحاول المخادع حمل الغير على تغيير اعتقاده فيه، بحيث يعتقد فيه الخير، وليس أهلًا لهذا الاعتقاد، فيوهمه أنّ أمره على ما يحبّ، وهو على ما يكره، أو أن يُظهرَ من الأفعال ما يُخْفِي أمرَه، ويستر حقيقتَه، بغية تضليل من يعامله"[3].

2) ﴿كُسَالَىٰ﴾: (كَسَلَ) أَصْلٌ وَهُوَ التَّثَاقُلُ عَنِ الشَّيْءِ الذي لا ينبغى التثاقل عنه وَالْقُعُودُ عَنْ إِتْمَامِهِ، وَالْفُتُورُ عنه[4]، ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، أي "يقومون متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئًا على كُرْه، لا عن طيب نفس ورغبة"[5].

3) ﴿يُرَآءُونَ﴾: "﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ معنى الرّياء: إظهارُ الجميل ليراه النّاس، لا لاتّباع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خدع).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(4) أ ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسل)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/108.
(5) الواحدي، البسيط: 7/160، والزمخشري، الكشاف: 1/579.

أمر الله"[1]، "وهو من الرّؤية البصرية التي جاء بها غالب مواضع هذا التركيب في القرآن "[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّ المنافقين يخادعون الله بإظهار الإسلام وإضمار الكفر، والحقيقة أنّه تعالى هو خادعهم؛ لأنّه عصم دماءهم مع علمه بكفرهم، وأعدّ لهم أشدّ العقوبة في الآخرة، ومن صفاتهم أنّهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى كارهين لها، وهم لا يذكرون الله إلا قليلًا؛ لأنّهم يذكرونه إذا رأوا المؤمنين وحسب[3].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل الآية عمّا قبلها وعدم عطفها:

فصل الجملة لأنّها جاءت جوابَ سؤالٍ عن الدّافع من تربّصهم

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها؛ لأنها جاءت جوابًا لسؤال نشأ عن سلوك المنافقين في الآية السابقة من الحالة المضطربة والقلقة في سلوك المنافقين؛ فيقولون للمؤمنين عند الفتح والنصر ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، ويقولون للكافرين عندما يكون لهم نصيب من النّصر ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية؛ فكانت هذه الآية بمثابة الجواب عن هذا السؤال، إنهم يفعلون ذلك مخادعة للمؤمنين وجهلًا منهم بصفات العليم الخبير.

دلالة الاستئناف:

استئناف لبيان فيه مزيدٌ من كشفِ قبائحهم

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ استأنف لبيان "طرف آخرَ من قبائح أعمالِهم أي يفعلون ما يفعل المخادِعُ من إظهار الإيمانِ و إِبْطانِ نقيضِه"[4].

(1) الواحدي، البسيط: 7/160، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/422.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رأى).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245 - 246.

سر التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ في بدء الآية:

بيّن ابن عرفة الغرض من التّأكيد بـ (إنّ)؛ فقال: "إنّما يصحّ إذا كان المخاطب منكرًا وطرأت عليه مخايل الإنكار، والتّأكيد هنا مصروف إلى ظنّهم أنّ خداعهم مؤثّر ونافع لهم"[1]. "وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِحَرْفِ (إِنَّ) لِتَحْقِيقِ حَالَتِهِمُ الْعَجِيبَةِ وَتَحْقِيقِ مَا عَقَبَهَا مِنْ قَوْلِهِ: وَهُوَ خادِعُهُمْ"[2].

أخبر بالجملة المؤكّدة لتحقيق حالتهم العجيبة

السّرّ بالتّعبير عن النّفاق بالخداع:

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ وصف ما يقومون به بأنّه خداع، والعلاقة بينهما ظاهرة؛ لأنّ المخادع يظهر خلاف ما يبطن، والمنَافِقَ يظهر الإيمان ويبطن الكفر، "والمعنى: أنهم يعملون عمل الُمخادع بما يظهرونه ويبطنون خلافه من النفاق"[3].

لمّا أبطنوا الكفر وأظهروا خلافه من الإيمان كان ذلك خداعًا

علّة التّعبير في المسند بالفعل المضارع:

أخبر عن خداعهم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ بالفعل المضارع ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ للدّلالة على التّجدّد والحدوث والاستمرار، فهم لا يفعلون ذلك مرّة واحدة، بل يكرّرونه مستمرّين به، مبالغة في تقبيح فعلهم.

أخبر بالفعل المضارع للدّلالة على الاستمرار، وإصرارهم على تكرار الخداع، مبالغة في تقبيح فعلهم

دلالة اختيار صيغة يخادعون دون يخدعون:

اختار القرآن صيغة المفاعلة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ التي تفيد المشاركة في الفعل دون صيغة (يخدعون)؛ لأنّ المفاعلة تأتي للمغالبة والمنافسة، ومن المعلوم أنّ الفعل إذا كانت فيه منافسة لمن يقوم به كان أبلغ وأحكم منه إذا مارسه وحده من غير منافسة، وذلك بزيادة قوّة

عبّر بصيغة المفاعلة للدّلالة على المبالغة في إحداث الفعل

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/239.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الدَّاعي إليه والتّنافس فيه، و في هذا إشارة أيضًا إلى مبالغة المنافقين في أمر الخداع.

أضاف الخداع لله تعالى وأراد أنّهم يخدعون المؤمنين:

نسب خداع المؤمنين لله تعالى تشريفًا لهم، وتعظيمًا لشأن المقصود بالخداع

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لا يجوز أن يتصوّر الخداع للّه رب العالمين؛ لأنه يعلم الباطن والظاهر، ولا يخفى عليه شيء، فإنّما هم يخادعون النّبي ﷺ "بإظهارهم له الإيمانَ وإبطانِهم الكفْرَ، فجعل اللّه ﷻ مخادعة النّبي ﷺ مخادعة له"[1]، وفي جعل ذلك خداعًا للّه تنبيه إلى: "فظاعة فعلهم فيما تحرّوه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرّسول إنّما يخادعون اللّه، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول ﷺ، وأنّ معاملته بذلك كمعاملة اللّه به"[2]، وتقدير الكلام: "يخادعون رسُولَ اللّه ويخادعون أولياءَ اللّه، فإن أريد الأوّل فالتّشريف من جهة واحدة وهو التّعبير باسم اللّه عن اسم رسول اللّه، وإن أريد الثّاني فالتّشريف من جهتين، لأنّه تشريف لأولياء اللّه، والتّشريفُ لأوليائه تشريف لرسوله من باب أحرى"[3].

دلالة تسمية فعل المنافقين خداعًا لله:

أطلق الخداع على فعلهم إظهارًا لقباحة سلوكهم

سمى اللّه ذلك خداعًا؛ لبيان فظاعة فعلهم فيما صنعوه وتحروه من الخديعة. والمراد به إظهارهم الإيمانَ وإبطانهم الكفرَ؛ ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويفوزوا بسهم من الغنائم، فسمّى فعلهم هذا خداعًا؛ لأنّ صورته صورة الخداع، ولا يجوز حمله على الحقيقة؛ لأنّ اللّه ﷻ لا يخفى عليه صنع المنافقين، بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء[4].

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122 - 123، والواحدي، البسيط: 7/159.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/424، والخازن، لباب التأويل: 1/440.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64، والصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.

(4) الطّنطاوي، الوسيط: 1/55.

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف:

حذف المضاف (رسول) وأقيم المضاف إليه (الله) مقامه تفظيعًا لعملهم

نسب خداعهم للّه تعالى وهو خداع للنّبيّ ﷺ؛ إذ "نسق الكلام: يخادعون رسول اللّه، فحذفت كلمة الرّسول، وأقيم المضاف إليه وهو اللّه تعالى مقام المضاف تفظيعًا لعملهم، وإعلاء لقدر الرّسول والمؤمنين"[1]. "ومخادعَةُ المنافقين: هي لأولياءِ اللّه، ففِي الكلام حَذْفُ مُضَافٍ؛ إذْ لا يقصد أحَدٌ من البشر مخادَعَةَ اللّه سبحانه"[2].

المجاز بإسناد الخداع لله تعالى:

ذكر الخداع وأراد المجازاة، فتركهم معصومي الدّماء في الدّنيا، وأعدّ لهم سوء المنقلب يوم القيامة

نُسب الخداع للّه تعالى في الآية من باب الاستعارة، حيث استعار اسم الخداع للمجازاة[3]؛ فالمراد بقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي "مجازيهم بالعقاب على خداعهم"[4]. "وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدّماء والأموال في الدّنيا وأعدّ لهم الدّرك الأسفل من النّار في الآخرة، ولم يُخْلِهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم"[5]. ويجوز أن يكون الكلام من باب الاستعارة التّمثيليّة على استدراج اللّه إياهم، والمعنى: أَيْ فَقَابَلَهُمْ بِمِثْلِ صَنِيعِهِمْ، فَكَمَا كَانَ فِعْلُهُمْ مَعَ الْمُؤْمنِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَمْرَ اللّه وَرَسُولِهِ خِدَاعًا للّه تَعَالَى، كَانَ إِمْهَالُ اللّه لَهُمْ في الدُّنْيَا حَتَّى اطْمَأَنُّوا وَحَسِبُوا أَنَّ حِيلَتَهُمْ وَكَيْدَهُمْ رَاجَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، و في هذا تشبيهٌ بفعل المخادع جَزاءً وِفَاقًا. فَإِطْلَاقُ الْخِدَاعِ عَلَى اسْتِدْرَاجِ اللّه إِيَّاهُمُ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1916 - 1917.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/319.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/443.
(4) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/239.

الجناس الاشتقاقيّ في: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾:

جماليّة الجناس في الألفاظ، وتأكيدُ المعنى إيقاظًا لهم

وفيه دلالة على جمال التّعبير اللّفظيّ بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة، ولكن المراد في كل منهما مختلف. مع تَأكيدِ اللّفظ المكرّر الثّاني، فيقع التّنبيه عليه فيهتمّ به السّامع، إيقاظًا لهم وردعًا عن سوء فعلهم.

دلالة التّعبير بصيغة الفعل مع المنافقين، وبالاسم مع الله تعالى:

عبّر عن خداعهم بالفعل لحدوثه وزواله، وبصيغة الاسم في جزائهم لثبوته وتحقّقه

عبّر عن خداعهم بالفعل على صيغة المفاعلة في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾، وعبّر عن الخداع المسند للّه تعالى بالاسم الدّالّ على الثّبوت فقال جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ "للدّلالة على الغلب، وأنّ اللّه تعالى لَا محالة كاشف أمرهم ومزيل مغبّة خداعهم، ومحاسبهم لَا محالة على ما يرتكبون"[(1)].

دلالة عطف ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ما قبلها:

عطف كسلهم في الصّلاة على خداعهم لأنّهما أبرز صفاتهم، وبيانٌ لوجه من وجوه خداعهم

عطف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ لاشتراكهما في كونهما من صفات المنافقين، وفيه إشارة إلى تفسير خداعهم للمسلمين بالتظاهر بإقامة الصلاة معهم.

دلالة اختيار ﴿وَإِذَا﴾ بدلًا من (إن) في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عبّر بـ (إذا) لتحقّق وقوع الحدث، فقيامهم إلى الصّلاة بكسلٍ حقيقة لا مجاز

عبر بـ ﴿وَإِذَا﴾ التي تفيد تحقّق الوقوع إلى أداء المنافقين لصلاة الفرض من باب التّظاهر للمسلمين، وخداعهم بأنّهم يصلّون معهم، بخلاف (إن) التي تفيد الشّك في الوقوع؛ فلو قال: وإن قاموا إلى الصّلاة، لفهم أنّهم يصلّون بعض الصّلوات دون الأخرى، وعند ذلك ينكشف أمرهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.

دلالة تخصيص الصلاة بالذّكر دون غيرها من العبادات:

الـصّـلاة أظـهـر شرائع الإسلام

عبّر عن خداعهم وأعقبه بذكر شريعة من شرائع الإسلام ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، وهي الصّلاة؛ وإنّما خصّها بالذّكر؛ لأنّها العنوان الأكبر الذي به يعرف إسلام المرء من عدم إسلامه؛ فلو لم يصلّوا وتركوها جحودًا لكان ذلك كفرًا صريحًا.

إيثار التّعبير بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ دون (اللام):

نـهـايـة فـعـل المـنـافـقـين هـو الـقـيـام إلى الـصّـلاةِ ولا يـبـتـغـون من ورائها أجرًا

آثر القرآن الكريم التعبير بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ الذي يفيد انتهاء الغاية، بخلاف (اللام) التي تفيد معنى الاستحقاق والعلّة، فلو قال: (وإذا قاموا للصلاة)، لفهم أنّهم قاموا من أجل الصلاة نفسها، والواقع أنّهم لا يفعلون ذلك لأجل الصّلاة، بل يريدون أن يكونوا مشاركين للمؤمنين في حضور الصلاة للمراءاة؛ فغايتهم تنتهي عند حضورها فقط.

دلالة (ال) في الصلاة:

كان كسلهم في كلّ صلاة فرضًا ونفلًا

دلّت (ال) في الصّلاة على العموم؛ فلم تحدّد صلاة بعينها، لذلك كان رياؤهم على العموم يدخل الفرض والنّفل، يؤكّد هذا ما قاله بعض العلماء أنّ الآية "دلّت على أَنَّ الرِّيَاءَ يَدْخُلُ الْفَرْضَ وَالنَّفْلَ، لِقَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ فَعَمَّ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّمَا يَدْخُلُ النَّفْلَ خَاصَّةً، لِأَنَّ الْفَرْضَ وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَالنَّفْلُ عُرْضَةٌ لِذَلِكَ. وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْتِ بِالنَّوَافِلِ لَمْ يؤاخذ بها"[1].

سرُّ العدول عن (أقاموا الصلاة) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

لَمَّا كان إقامُ الصلاة معناه أداؤها في وقتها على وجهها الصحيح

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/424.

إثبات انفصالهم عن صفة المؤمنين، وانقطاعهم عن حقيقة الصلاة

بخشوع، وكان ذلك ديدن المؤمنين الخُلَّص، عدل البيان القرآني المعجز عن ذلك، واكتفى بصفتهم حال قيامهم متكاسلين؛ لينفي عنهم صفة الإيمان، وليثبت أنَّ قيامهم رئاء الناس حائلٌ بينهم وبين الصلاة، كما حالت (إلى) بين قيامهم والصلاة، فكأنَّ قيامهم في جانب، والصلاة في جانب آخر.

وإذا تأمَّلت (أقاموا الصلاة) المعدول عنها، علمت اتصال الإقامة بالصلاة، ورأيت المؤمنين المتمثِّلين في (واو الجماعة) هم الذين أقاموها، وظلوا ضميرًا مجموعًا.

وشتَّان بين من يُقيم الصلاة ولا يكاد يُرى، ومن قام بجسده إلى الصلاة؛ ليراه النَّاس، وهو أبعدُ النَّاس عن إقامتها!

دلالة تكرار الفعل ﴿قَامُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

كرّر فعل القيام، وقرَنَهُ بصفة الكسل نفيًا بأن يكون صفة ثناء

لما كان التّعبير بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يفهم منه أنه صفة مدح؛ لأنّ القرآن يثني على المؤمنين بهذا الوصف، فأعاد ذكره في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لتحديد صفة القيام ودفع اللّبس الذي قد يرد من تخصيص الإقامة بالثّناء على المؤمنين.

العدول عن (صلّوا) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عدل السّياق عن قوله: (وإذا صلَّوا) مع أنَّه أخصر؛ لئلَّا يُثبت لهم صلاةً أصلًا، وليُبعِد شُبهة كون الكسل ناشئًا عن إرهاق بدنيّ، فهذا يعتري الإنسان السَّويّ، وإنَّما هو ناشئٌ عن مرض قلبيّ، ووهن عقديّ.

وصفهم بالكسل للدّلالة على أنّهم لا يحتسبون الأجر عند الله تعالى؛ لفقدانهم الإيمان

سرّ وصف المنافقين بصفة الكسل في الصّلاة:

سرُّ ذلك أنَّهم يستثقلونها في الحال، ولا يرجون بها ثوابًا، ولا من تركها عقابًا، ولا يوجد داعٍ للفعل في نظرهم إلا خوف الناس، لذلك وقع فعلهم على وجه الكسل والفتور(1).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/79.

دلّ هذا الوصف على مظهر المنافقين في أداءِ الطاعات عمومًا والصلاة خصوصًا؛ فهم لا يقومون بِأداء الطاعات إلا كسالى متثاقلين؛ فلا إيمان يبعثهم ولا نشاط يحركهم لأداءِ الصلاة على حقيقتها، بل يريدون مظهرًا يحفظون به وجودهم مع المسلمين[1]. "أي لا يرجون لها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا"[2]. فوصفهم بالكسل عن الصّلاة لعدم الدّاعية في قلوبهم، وأنّ مقصدهم من ذلك النّجاة من النّبيّ ﷺ وأصحابه[3].

دلالة الحال اللازمة في قوله: ﴿كُسَالَىٰ﴾:

من صفات المؤمنين إقامة الصلاة بنشاط وحب

الأصل في المؤمن أن يقيم الصلاة بنشاطٍ؛ لأنّه مقبل على ربّه بحبّ وعزيمة، ولذلك ذمّ اللّه المنافقين؛ لأنّهم يأتون الصلاة متململين كارهين، وأصبح ذلك حالهم، فقوله تعالى: ﴿كُسَالَىٰ﴾ "حَالٌ لَازِمَةٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿قَامُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّ ﴿قَامُوٓاْ﴾ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَقَعَ وَحْدَهُ جَوَابًا لِـ ﴿وَإِذَا﴾ الَّتِي شَرْطُهَا ﴿قَامُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَقَعَ مُجَرَّدًا لَكَانَ الْجَوَابُ عَيْنَ الشَّرْطِ، فَلَزِمَ ذِكْرُ الْحَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان: 72]"[4].

إيثار التّعبير بالاسم ﴿كُسَالَىٰ﴾ دون يتكاسلون في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

أثر التّعبير عن الكسل بالاسم للدّلالة على ثبوت هذا الوصف فيهم مع الصّلاة، ونفيًا لأن يكون كسلًا طارئًا

آثر القرآن وصف كسالى بالاسميّة؛ للإشارة إلى لزومهم الكسل والفتور في قيامهم إلى الصلاة سواء كانوا في حالة جهد وتعب أو في دعة وراحة؛ فالكسل والفتور ليس ناتجًا عن ضعف بدني، وإنّما هو ضعف إيمانيّ ملازم له.

فائدة الفصل والاستئناف في: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها للإشارة إلى أنّها جواب

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.
(2) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.
(3) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.

استـأنـف لأنّ مضمون الجملة جواب عن سبب كـسلـهـم في الصّلاة

لسؤال نشأ من الجملة السّابقة، فقيل: ما الدَّاعي لقيامهم إلى الصّلاة كسالى؟ فكان الجواب: يراءون الناس، فهي جملة مستأنفة "لِبَيَانِ جَوَابِ مَنْ يَسْأَلُ: مَاذَا قَصْدُهُمْ بِهَذَا الْقِيَامِ لِلصَّلَاةِ وَهَلَّا تَرَكُوا هَذَا الْقِيَامَ مِنْ أَصْلِهِ، فَوَقَعَ الْبَيَانُ بِأَنَّهُمْ يُرَاءُونَ بصلاتهم النَّاس"[1].

السّر بذكر الرّياء بعد ذكر الكسل:

أخبر بالرّياء بعد الكسل تأكيدًا لانتفاء إيمانهم

قوله جلّ شأنه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أخبر بأنهم "لا يقومون إلى الصّلاة إلّا لأجل الرّياء والسّمعة، لا لأجل الدّين ولا يرون أنّها واجبة عليهم"[2]، فهم يقصدون النّاس بصلاتهم ولا يريدون بها وجه الله[3]. وَ لمّا أخبر عن كسلهم بالصّلاة، كان ذلك إيماء إلى حقّ لديهم وإن كان قليلًا، فكونهم يصلّون - في ظاهِرِ الأَمْرِ - فضيلةٌ وإن كانوا متّصفينَ بالكسل، فجاء الإخبار بأنّهم يراءون في الصّلاة لتأكيد انتفاء إيمانهم، وكون صلاتهم خالية من أيِّ فضيلةٍ، فهو تعقيبٌ للتّأكيد.

دلالة التعبير عن الرياء بصيغة المفاعلة:

المـــرائي يُــري الـنّـاسَ عملَه، وهــم يُـرُونَـهُ اسْتِحْسَانَ فعلِه

اختار القرآن الكريم هذه الصيغة؛ لإفادة وقوع المفاعلة من الجانبين؛ فالْمُرَائِي يُرِي النَّاسَ تَجَمُّلَهُ بِأَفْعَالِ الطَّاعَةِ، وَهُمْ يُرُونَهُ اسْتِحْسَانَ ذَلِكَ الْعَمَلِ"[4].

سر العدول عن الاسميَّة في وصف المنافقين إلى الفعليَّة: ﴿يُرَآءُونَ﴾:

آثر التّعبير بالفعل ﴿يُرَآءُونَ﴾ بدلًا من الاسمية (مراءون)؛ للإشارة إلى تجدد هذا الفعل لأنّ الصّلاة متكرّرة، وما تعلّق بها فإنّه يتكرّر كذلك، ولمّا كان الرّياء أمرًا نفسيًّا يدلّ على مرض

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) الواحدي، البسيط: 7/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/109.

صاحبه من طلب ثناء النّاس بعمله؛ عبّر بالفعل الدّالّ على تجدّد طلب هذا الثّناء من النّاس مع كلّ عمل يعملونه.

آثر التّعبير بالفعل المضارع إشارة إلى تجدّد فعلهم، لأنّ الصّلاة متكرّرة وما تعلّق بها فإنّه يتكرّر أيضًا

دلالة لفظ الناس في قوله ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

المراءاة تدلّ على أنّ المقصود بالعمل النّاس، وإنّما أظهر لفظ النّاس في النصِّ على أنّهم يقصدون النّاس بعملهم، وفي ذلك زيادة من تأكيدِ انتفاء الإيمان، فغايتهم النّاس، وليس اللّه تعالى، وَ فيه إشارة إلى أن المرائي لما كان يبحث عن الشهرة؛ أرادَ إطلاع الناس جميعهم على كل عمل يعمله بشتى الوسائل بغية الشّهرة.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

الوصل عطفًا على الجملة قبله لبيان كيفيّة كسلهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معطوف على قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾[(1)]، وذلك لشدة الاتصال بينهما؛ فالأعمال التي تفعل رياء، لا يذكر اللّه فيها، وإنّما يذكر النّاس، وبذلك تكون هذه الجملة مؤكّدة للمعنى السّابق، وفيه بيان لصفة الكسل، فهو قلّة ذكرهم اللّه تعالى.

سر التعبير بنفي الذكر عنهم إلا القليل:

الإخبار بالحقيقة كما هي، فِيهِ إنصافُ القرآن ولو مع عدوه وخصمه

عبر بنفيِ الذّكر عنهم إلا قليلًا من باب الإنصاف، وبيان الواقع؛ فمع نفاقهم لم ينفِ عنهم الذّكر مطلقًا، بل أثبت لهم القليل، ولعلّ ذلك في الصّلاة الفرضية فقط.

سر التّعبير بالذّكر مكان الصلاة:

الذّكر شامل لكلّ أنواع الذّكر، والصّلاة على الأخصّ لأنها أهمّ موضع للذّكر

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عبّر بالذّكر من باب العموم؛ ليشمل كلّ أنواع الذّكر فرضها ونفلها، والصّلاة من الذّكر؛ فتدخل فيه دخولًا أوّليًّا.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.

دلالة التعبير بالفعل المضارع المنفيّ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

عــبّر بالفعل المضارع المنفيّ لـلـدّلالـة على استمرار انتفاء الـذّكـر الكثير، فحالهم لا يتغيّر

قوله جلّ شأنه ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نفى الذّكر عنهم بالفعل المضارع، للدّلالة على استمرار النّفي لصفة كثرة الذّكر، فهم وإن ذكروا اللّه في الصّلاة مواطن الشّدّة، فإنّهم لا يزيدون على موجب الاضطرار.

السّرّ في إثبات قلّة ذكرهم بالحصر دون الإخبار بالقلّة:

عــبّر عـن قـلّـة ذكرهم بالقصر لـبـيـان أنّـهـم يـفـعـلـون ذلك اضطرارًا لا حبًّا لله تعالى

عبّر عن إثبات صفة القلّة في ذكرهم بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فعدل إلى أسلوب القصر لإفادة عدم حبهم للذّكر والطاعة، ولم يقل: (ويذكرون اللّه قليلًا)؛ فهم إنّما يذكرون اضطرارًا وخوفًا؛ حتّى لا ينكشف أمرهم، بخلاف التّعبير بالذّكر القليل؛ فهو صفة مدحٍ للذّاكر وإن كان قليلًا، وقد يعذر في قلّة ذكره لأسباب لا قِبَلَ له بها؛ كمرض ونحوه، لكن هذا القليل فيه حبّ للّه واعتراف بفضله.

دلالة حذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

حذف الموصوف لـلـدّلالـة على العموم، فالذّكر نـفـسُـهُ قـلـيـلٌ وكذلك وقته

حُذف الموصوف في الآية؛ لإفادة العموم فقد يراد به الذّكر القليل، أو الزّمن القليل، والمعنى المراد أنّهم لَا يَذْكُرُونَ اللّه فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ إِلَّا حَالًا قَلِيلًا أَوْ زَمَنًا قَلِيلًا[1].

سر وصف ذكرهم لله تعالى بالقلة:

ذكرهم اللهَ تعالى قـلـيـلٌ، بحسب مـا يـقـتـضـيـه حـضـورهـم مع النّاس

وصف القرآن ذكرهم للّه تعالى بالقلة؛ لأنّهم لا يذكرون اللّه إلا ذكر رياء، "ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسّباء وسلبَ الأموال، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد اللّه، مخلص له الرّبوبيّة. فلذلك سمّاه اللّه ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنّه غير مقصود به اللّه، ولا مبتغًى به التّقرّب إلى اللّه، ولا مرادٌ به ثواب اللّه وما عنده"[2]، فهم يذكرون الأذكار التي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/331.

يُضطرُّون إليها "من نحو التّكبير وما يظهر، دون القراءة والتّسبيح؛ لأنّهم يعملونه للنّاس"[1].

السّرّ في عدم مدحهم بهذا الذّكر:

لم يمدحهم اللّه على ذكرهم هذا؛ "لأنّه لا يجري على قلوبهم إلَّا قليلًا، لَا يلبث أن يطفئه النّفاق، وإذا قامت في قلوبهم شعلة من الإيمان باللّه لَا تلبث أن تخبو لغلبة أهوائهم؛ وذلك لأنّ هؤلاء المنافقين يعرفون اللّه تعالى، ويدركون معاني الإيمان، ولكن غلبت عليهم شِقْوَتُهم، فكفروا به إذ عرفوه، ومن كانت هذه حاله يعتريه أحيانًا تذكّر للّه تعالى وعظمته، ولكنّه تذكّر لَا يكون معه إيمان مثمر، ولا تصديق مذعن، فلا خير فيه، ولا ثواب عليه، ولا يمدحون بذلك القدر من الذّكر، الذي لَا يجدي"[2].

لم يمدحهم الله على ذكرهم هذا؛ لأنه لا تُجْنى منهُ ثَمرةُ الإيمان ولا حبّ الله

دلالة الاستثناء:

دل الاستثناء على أن زمان الذكر قليل؛ لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو أنّ الذّكر ذاته قليل في الصّلاة، ويكون "الِاسْتِثْنَاءُ إِمَّا مِنْ أَزْمِنَةِ الذِّكْرِ، أَيْ إِلَّا وَقْتًا قَلِيلًا، وَهُوَ وَقْتُ حُضُورِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ يَقُومُونَ إِلَى الصَّلَاةِ مَعَهُمْ حِينَئِذٍ فَيَذْكُرُونَ اللهَ بِالتَّكْبِيرِ وَغَيْرِهِ، وَإِمَّا مِنْ مَصْدَرِ يَذْكُرُونَ، أَيْ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ الَّتِي يُرَاءُونَ بِهَا، وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِي لَا مَنْدُوحَةَ عَنْ تَرْكِهِ مِثْلَ: التَّأْمِينِ، وَقَوْلِ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَالتَّكْبِيرِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ لَا يَقُولُونَهُ مِنْ تَسْبِيحِ الرُّكُوعِ، وَقِرَاءَةِ رَكَعَاتِ السِّرِّ"[3].

دلالة الاستثناء على قلة زمان الذكر لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو على قلة الذكر فيها

دلالة اختلاف التعبير بين موضع سورة البقرة وموضع سورة النساء:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:

(1) الواحدي، البسيط: 7/161.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1918 - 1919.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/240.

9]، وقال في سورة النساء ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ فالملاحظ في سورة البقرة عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] على لفظ الجلالة بخلاف موضع النساء؛ فلم يرد فيه ذلك؛ ولعل السبب في عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] في سورة البقرة أنَّها سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: 8] الآية، ومعلوم من السياق أنَّ هذا القول صادر من المنافقين للذين آمنوا خداعًا لهم؛ فناسب في موضع البقرة ذكر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] بخلاف موضع سورة النساء؛ فسبقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]، ولم يرد ذكر الخداع صراحة للمؤمنين، لذلك لم يرد ذكرهم في الآية.

ومما يذكر في هذا المقام أنَّ موضع سورة النساء عُبر فيه بالاسمية في جانب خداع الله لهم.

ويضاف إلى ما ذكر سابقًا أنَّه لَمَّا كان الجزاء من جنس العمل، وكان خداع الله لهم - بمعنى مجازاتهم ومعاقبتهم - أمرًا ثابتًا لا شك فيه، ناسب التعبير بالاسمية التي تدل على الثبوت والاستمرار.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّياء والنّفاق:

الـرّيـاء أعـمّ مـن الـنّـفـاق، وهـو أنسب في السّياق لأنّه ذكر الـصّـلاة، فهم أظهروا العمل الجميل ابتغاء الثّناء

"النِّفَاق إِظْهَار الْإِيمَان مَعَ إسرار الْكفْر. والرّياء إِظْهَار جميل الْفِعْل رَغْبَة في حمد النَّاس، لَا في ثَوَاب اللّه تَعَالَى، فَلَيْسَ الرِّيَاء من النِّفَاق في شَيْء فَإِن اسْتعْمل أَحدهمَا في مَوضِع الآخر فعلى التَّشَبُّه وَالْأَصْل مَا قُلْنَاهُ"[1] فالرّياء كالنّفاق، ولكنّه أعمّ[2]، لكونه يقع في الأعمال وفي العقائد.

وغالب استعمالات الرياء في القرآن الكريم وردت في مواطن الإنفاق، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264] ونحو

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 228 - 229.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/205.

ذلك من الآيات؛ فالمرائي لا ينفق ماله طلبًا لرضا الله وثواب الآخرة، بل ليقول الناس إنه سخي كريم، أمّا النّفاق فقد ورد في كثير من آيات القرآن، وكلّها تدور حول إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولذلك يشتركان في الإظهار والإبطان مع اختلاف متعلّق كل منهما.

والرّياء ناسب الآية لأنّهم وإن كانوا منافقين إلّا أنّهم أظهروا العمل الجميل وَأَرَوا النّاس ما يستحسنونه ابتغاء تحقيق رِضَا النّاس عنهم.

﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النساء: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بينت الآيات السابقة أن المنافقين أمرهم عجيب؛ فمرة يدَّعون أنهم مع أهل الإيمان و في ولايتهم إن وجدوا لهم الغلبة والنصر على الكافرين، وينتمون إلى الكفرة إن وجدوا أنهم غلبوا المسلمين، وكان لهم نصيب من الغنائم، جاءت هذه الآية لتصف هذه الحالة للمنافقين فهم في اضطراب دائم، أيخرجون من الكفر إلى الإيمان، أم يبقون على ما هم عليه من هذا النفاق؛ فكان وصف القرآن دقيقًا لهم بقوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾: (ذَبَّ) أصلٌ يدلّ على الاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ[2]. الذَّبْذَبَةُ: نَوْسُ الشَّيْءِ الْمُعَلَّقِ فِي الْهَوَاءِ. ذَبْذبه: جعله يضطرب، وَالرَّجُلُ الْمُذَبْذَبُ: الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ[3]، وحقيقة المذبذب الذي يُذبُّ عن كلا الجانبين، أي يذاد ويُدفع فلا يقرّ في جانب واحد، إلّا أنّ الذّبذبة فيها تكرير ليس في الذّبّ، كأنّ المعنى: كلّما مال إلى جانب ذُبَّ عنه"[4]، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾، أَيْ: مُتَرَدِّدِينَ مُتَحَيِّرِينَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى أنّ هؤلاء المنافقين "متردّدون في حَيرة، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا مع الكافرين، بل ظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين، ومن يضلل اللّه فلن تجد له طريقًا لهدايته من الضلال"[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1919.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذبّ).
(3) الواحدي، البسيط: 7/161، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/205.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/580، والصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(5) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/715.
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة كمال الاتِّصال في قوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

فصل لبيان مزيد من أحوال المنافقين وصفاتهم

جاء قوله تعالى مفصولًا عمّا سبق: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ فلم تعطف؛ لأنّها في موقع الحال من فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾، فهي من تمام صفات المنافقين؛ فوصفوا بأنهم كسالى وبأنهم مراؤون ومذبذبون.

دلالة صيغة المفعول:

سلّط عليهم ما جعلهم يسقطون في الحيرة

المُذبذب بفتح الذال هو الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين، أي: يرد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، والصيغة التي وردت هنا ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾، إذِ المفعولُ " يَقْتَضِي فَاعِلًا قَدْ ذَبْذَبَهُمْ وَصَيَّرَهُمْ مُتَحَيِّرِينَ مُتَرَدِّدِينَ وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الذَّبْذَبَةُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ فَاعِلٍ، وَثَبَتَ أَنَّ فَاعِلَهَا لَيْسَ هُوَ العبدَ ثَبَتَ أَنَّ فَاعِلَهَا هُوَ اللَّه تَعَالَى، فَثَبَتَ أَنَّ الْكُلَّ مِنَ اللَّه تَعَالَى"[1].

علم اللّه أنَّ في قلوبهم مرضًا، فزادهم اللّه مرضًا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108]

السّرّ في التّعبير عن النّفاق بقوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾:

أثر وصف المنافق بالتّردّد لبيان اضطرابه وأنّه فاقد للطمأنينة والاستقرار

هذا اللفظ من فرائد القرآن الكريم، ولم يُشْتَقَّ من مادته (ذ ب ب)، إلا لفظ (الذُّباب) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73] ولم يرد (مذبذبين) إلا في هذا الموضع من القرآن في حديثه عن المنافقين وطباعهم؛ فهم لا يحملون عقيدة، لا الإيمان ولا الكفر الذي هو من اعتقادهم الخاطئ؛ فهم يتردّدون بينهما لا اعتقادًا

(1) الرازي، التفسير الكبير: 11/250.

فيهما ولا اعتناقًا لهما، وإنّما يتخفّون فيهما عن أعين النّاس؛ لأنّ قلوبهم مطبوع عليها عدم الإيمان فهي شاذّة في طبيعتها، وهذا التّفرد في اللّفظ مناسبٌ لهذا السّلوك الشّاذّ.

وما أقبح أن يتّصف الإنسان بوصف لم يُسَمَّ به إلا الذُّبابُ، يسقط في الطعام " (هكذا عرّفوه) فقد لَحَظُوا فيه دِقّته وحِدَّة اندفاعه ولَدْغَه أحيانًا، والاشمئزازَ منه[1].

إيثار هذه المادة ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ دون متردّدين:

آثار الوصف بالذّبذبة لما فيه من الذمّ بدلالته على الاضطراب

آثر القرآن ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ دون مترددين؛ لأنّ الذّبذبة سلوك مذموم في كلّ أحواله، فطبيعة صاحبه التّطفل على الآخرين بحثًا عن مصالحه وحسب؛ فلا هو صريحٌ في كفره، ولا ملتزمٌ بدعواه، بخلاف التّردّد فهو سلوك ينبئ عن ضعف العزيمة، وقلّة الخبرة في اتّخاذ القرار، لكنّه لا يذمّ في كلّ أفعاله.

والتذبذب من صفات المنافقين الأصيلة، حالة قلبيَّة مَرَضيَّة، وما ينتج عنها من سلوكٍ شاذٍّ هو لازمٌ لهذا المرض، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور: 48 - 50]، وقوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة: 45].

وعلى كلٍّ فالتَّذبذب ليس من شيم المؤمن، فينبغي أن يكون المُسْلم ذا يقينٍ قلبيّ، وعقلٍ رشيدٍ، وعزْمٍ قويّ، وتوكُّلٍ على الحيِّ الذي لا يموت، فإن اعتراه تردُّد في أمرٍ فعليه بالمشورة والاستخارة.

الدّلالة الصوتية لهذه الصيغة:

ذبذب على وزن فعلل، مكوَّنٌ من مقطعين؛ فكأنّ كلّ مقطع

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبب).

منهما يشير إلى طرف من الطّرفين؛ فكلّما مال إلى جانب ذبّ عنه، وفيه إشارة أخرى إلى ذمّ هذا السّلوك؛ لدلالته على عدم الاستقرار والاضطراب.

تكرار المقطع الصّوتيّ (ذَبْ ذَبْ) يدلّ على التّناوب، إلماحًا إلى سلوك المنافقين

فائدة التّعبير بالظّرف في قوله: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾:

عبّر تعالى عن توسّطهم بالذّبذبة في قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ فالتّعبير بكلمة ﴿بَيۡنَ﴾ "الدّالّ على المكان الذي يكون بين أمرين مؤدّاه أنّهم يكونون في مكان متوسّط بين الأمرين، وهذا التّوسّط معنويّ، من حيث إنّهم يدركون الحقّ ويعرفونه، ولكن لَا يدخلون في وسط أهله، ولا يعرفون اللّه تعالى حقّ معرفته"[1].

توسّطهم معنويّ، فهم في حالة متردّدة بين الإيمان والكفر

دلالة التعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾:

المنافقون متردّدون بين الإيمان والكفر، "وذلك إشارةٌ إلى الإيمان والكفرِ المدلولِ عليهما بمعونة المقام"[2]، فأشار إلى المؤمنين والكافرين، أخذًا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾، "وإذا جرى ذكر الفريقين فقد جرى ذكر الكفر والإيمان"[3].

أشار إلى الإيمان والكفر المفهومين من السّياق

السرُّ في توحيد اسم الإشارة، مع أنَّ المشار إليه أمران:

توحيد اسم الإشارة - مع أنَّ المشار إليه أمران - على تأويل: ما ذكر، وما تقدّم؛ للاختصار في الكلام، كما جعلوا "فَعل" نائبًا عن أفعال جمَّةٍ تُذكر قبله: تقول للرجل: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ، وقد ذكر لك أفعالًا كثيرة وقصةً طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك[4].

المشار إليه مؤول بـ (ما ذُكر) اختصارًا، ولفت انتباهِ المخاطب إلى حالهم

على أنَّ (ذا) موضوع لجنس ما يشار إليه، والذي موضوع لجنس

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1919 - 1920.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(3) الواحدي، البسيط: 7/162.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/149.

ما عُرف بصلة، فهو صالح للإطلاق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وإنَّ ما يقع من أسماء الإشارة والموصولات للمثَّنى نحو: (ذان) وللجمع نحو (أولئك)، إنَّما هو اسم بمعنى المثنى والمجموع، لا أنَّه تثنية مفرد، وجمع مفرد، فذا يشار به للمثَّنى والمجموع، ولا عكس؛ فلذلك حسن استعمال المفرد منها للدلالة على المتعدد[1].

كما في قوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 68]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ [النساء: 150]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110].

تكرار اسم الإشارة في قوله: ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾:

إشارة إلى ما تقدّم ذكره، وهما المؤمنون والكافرون، لبيان معنى التّذبذب

تكرّر اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ "إشارة إلى الفريقين اللذين تقدّم ذكرهما، وهما: الكافرون والمؤمنون"[2]. "وَالْمُرَادُ بِأَحَدِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَبِالْآخَرِ الْكَافِرُونَ"[3]، والمراد بيان حقيقة تذبذبهم، "أي لَا مع المؤمنين ولا مع المنافقين بأنّ المراد لَا هم مع المؤمنين في الحقيقة ولا هم مع الكافرين في ظاهر الأمر"[4]، والقصد من ذلك التّذبذب في قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[5].

السّرّ في التّعبير عن المؤمنين والكافرين باسم الإشارة:

عبّر عن الفريقين بالإشارة دون الوصف، اهتمامًا بنفي معيّتهم لأحد غير أهوائهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ كرّر اسم الإشارة للفريقين من غير تعيين المراد بالأوّل وبالثّاني، ولم يقل: (لا إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين)؛ لأنَّهُ أراد الاهتمام بنفي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/512.
(2) الواحدي، البسيط: 7/163.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/111.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/65.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/241.

انتمائهم ومعيّتهم لأحد بغض النّظر عن حقيقته؛ إظهارًا لخبث أنفسهم وطويّتهم.

السّرّ في تكرار النّفي في قوله سبحانه ﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

كـــرّر الـنّـفـي لــلــدّلالــةِ على إضاعةِ الأمرين، تـحـقـيرًا لـهـم، وتــنــفــيرًا مـن صحبتهم

تكرّر حرف النّفي للدّلالة على نفي انتساب المنافقين إلى المؤمنين وإلى الكافرين؛ لأنّهم "لَا يَعْتَقِدُونَ الْإِيمَانَ فَيُعَدُّوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى إِظْهَارِ الْكُفْرِ فَيُعَدُّوا مَعَ الْكَافِرِينَ"[(1)]. "يعني ليسوا من المؤمنين حتّى يجب لهم ما يجب للمؤمنين، وليسوا من الكفّار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفّار"[(2)]، فدلَّ تكرار النّفي على بيان أنهم أضاعوا الأمرين لبيان اضطرابهم، و"الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَضَاعُوا الْإِيمَانَ وَالِانْتِمَاءَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَضَاعُوا الْكُفْرَ بِمُفَارَقَةِ نُصْرَةِ أَهْلِهِ، أَيْ كَانُوا بِحَالَةِ اضْطِرَابٍ وَهُوَ مَعْنَى التَّذَبْذُبِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَحْقِيرُهُمْ وَتَنْفِيرُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ صُحْبَتِهِمْ لِيَنْبِذَهُمُ الْفَرِيقَانِ"[(3)].

واعلم أنَّ نفي وصفين بحرف "لا" قد يستعمل في إفادة إثبات وصف ثالث، هو وسط بين حالَي ذينِك الوصفين، مثل ما في هذه الآية، ...وقد يستعمل في إرادة مجرَّد نفي ذينك الوصفين؛ لأنَّهما مما يطلب في الغرض الواردين فيه ولا يقصد إثبات وصفٍ آخرَ وسطٍ بينهما، وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: 42 - 44][(4)].

بلاغة حذف متعلّق حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾:

حـذف متعلّق حــرف الـجـرّ لـدلالـة المقام عليه، إيجازًا في اللفظ

جاء الحرف (إلى) في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِۚ﴾ بلا متعلّق، فحذف متعلّقه، وهو معنى الذّهاب، وهو المراد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/111.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/241 - 542.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/532، 533.

بالنّفي وقد حُذِف "أَيْ لَا ذَاهِبِينَ إِلَى هَذَا الْفَرِيقِ وَلَا إِلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ"[1]، وإنّما حذفه إيجازٌ في العبارة، وهو لبّ البلاغة.

مناط الذمّ في نفي كونهم من الكافرين:

النّفاق أشرّ من الكفر؛ لأنه كفر وزيادة من الخداع، وسوء الأخلاق، وخبث الطّويّة

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ نفى كونهم من الكافرين، وهذه صفة مدح، فكيف يذمّهم على كونهم غير كافرين؟ وجوابه "إِنَّ طَرِيقَةَ الْكُفَّارِ وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً إِلَّا أَنَّ طَرِيقَةَ النِّفَاقِ أَخْبَثُ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى ذَمَّ الْكُفَّارَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي آيَتَيْنِ، وَذَمَّ الْمُنَافِقِينَ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ طَرِيقَةَ النِّفَاقِ أَخْبَثُ مِنْ طَرِيقَةِ الْكُفَّارِ، فَهُوَ تَعَالَى إِنَّمَا ذَمَّهُمْ لَا لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْكُفْرَ، بَلْ لِأَنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَخْبَثُ مِنْهُ"[2].

دلالة التّعقيب على تذبذبهم بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

اتّصال الكلام أنّ الذّبذبة متعلّقة بفعل الله تعالى؛ لأنّ المنافقين ليسوا أهلًا لهداية الله تعالى

جاءت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ عقب قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ لاتّصالها بما قبلها، وللدّلالة على أنّ فاعل هذه الصفة (الذّبذبة) هو الله تعالى.

دلالة التّعقيب بالشّرط ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

عبّر بالشّرط للدّلالة على تعلّق انتفاء سبل الهداية بانتفاء أسبابها من الله تعالى

عبّر بالشّرط لبيان أنّ الهداية متعلّقة بالله تعالى، فمن شاء الله تعالى له الضّلال انتفت عنه سبل الهداية على وجه القطع، فجاء ذلك تفسيرًا لكونهم متذبذبين، فإنّ الهداية غير متحقّقة لهم؛ لأنهم تقلبوا في وجوه النفاق، وفَسادِ وجودهم الدينيّ؛ فلم يعودوا صالحين للعودة إلى الطبيعة البشرية السليمة.

دلالة نسبة الإضلال إلى الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أسند الله الضّلال إلى ذاتهِ الجليلة؛ لبيان ضلال المنافقين، وذلك من " قبيل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/241.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/250.

المجاز؛ من حيث إنّه تركه في غيّه، ولم يسدّ عليه طريق الشّرّ؛ لأنّه استمرأ الرّذيلة، وسار في طريق الضّلال إلى النّهاية، فكان ضلاله بعيدًا، واللّه تعالى يهدي من أراد لنفسه الخير، وسلك سبيل الرّشاد، فإنّ اللّه تعالى يوصله إلى طريق النّجاة"[1]، فاللّه تعالى علم انتفاء استعدادهم لقبول الهداية؛ فخلاهم وغيهم.

فقدوا الاستعداد للهداية فخلّاهم وغيَّهم

دلالة النفي بـ (لن) في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

دلّ الإتيان بـ (لن) في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ في جواب الشّرط، و لن تفيدُ نفي المستقبل؛ فدلّ ذلك على أنّ من شاء اللّه له الضّلال فإن الهداية منتفية عنه على طول الزّمان إلّا أن يشاء اللّه تعالى.

عبّر بحرف النّفي الدّالّ على الاستقبال دلالة على استمرار انتفاء سبل الهداية

إيثار التّعبير بلفظ السبيل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ اختار ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره؛ لأنه عام يطلق على كل ما يتوصل به، فالذي كتب اللّه عليه الضلال؛ لعلمه الأزلي بأنه يستحق ذلك، لن يفتح له سبيلًا يوصله إلى الهداية.

ولأنَّ السبيل يدلُّ على الامتداد، وهو مناسب للمقام؛ حيث إنَّ هؤلاء الضالِّين في تيه يعمهون، لن يصلوا إلى الهداية، ولو امتدَّ بهم المسير، ففيه ما فيه من التيئيس وخيبة الأمل.

آثر التّعبير بلفظ السّبيل لأنّه الطّريق الذي يتوصّل به إلى الهداية

فائدة التّنكير في لفظ السّبيل:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ عبّر عن سبل الهداية نكرة؛ والمراد تعميم النّفي، فيشمل كلّ سبل الهداية، وفي ذلك تأكيد لتحقّق الضّلال وانتفاء الهداية عنهم.

جاء لفظ السّبيل نكرة؛ ليشمل كلّ أنواع السّبل التي تحقّق الهداية للدّلالة على تأكيد الضّلال

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1920.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾

[النساء: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ في الآية السابقة بِأَنَّهُمْ مَرَّةً إِلَى الْكَفَرَةِ، وَمَرَّةً إِلَى الْمُؤمنين مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَقِرُّوا مَعَ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ نَهَى الْمُؤمنين في هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"[1]، أي: لا تتخلَّقوا بأخلاق المنافقين؛ فلا تتولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النَّار من المنافقين"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: (أخذ) أصل يدلّ على حَوزِ الشّيء وجبيه وجمعه، خلاف العطاء، وهو التّناول. والاتخاذ، افتعال منه، ويعبر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[3].

2) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: السلطان، (سلط) أصل يدلّ على القوة والقهر، والسّلطان: الحجّة، وسمّيت الحجة سلطانًا؛ وذلك لما يلحق من الهجوم على القلب، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾[4]، والمقصود: الحجة البينة، والمعنى: أَتُرِيدونَ أَن تَجۡعَلُواْ للّٰه عَلَيۡكُمۡ في عقابكم حجّة بموالاة الكفّار، أي: أنّكم إذا واليتموهم صارت الحجّة عليكم في العقاب"[5].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/250.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلط).
(5) الواحدي، البسيط: 7/164 - 165.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

"يقول لهم جلّ ثناؤه: يا أيّها الذين آمنوا باللّه ورسوله، لا توالوا الكفَّار فتؤازروهم من دون أهل ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النّار من المنافقين. ثمّ قال جلّ ثناؤه: متوعدًا من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، إنْ هو لم يرتدع عن موالاته، وينزجر عن مُخَالَّته أن يلحقه بأهل ولايتهم من المنافقين الذين أعدَّ اللّه لهم عذابًا أليمًا، ثم قال سبحانه محذرًا ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أيّها المتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾، حجّة، باتّخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا منه ما استوجبه أهلُ النفاق الذين وصف لكم صفتهم، وأخبركم بمحلّهم عنده"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾:

استـئـنـاف للتّحذير من موالاة الكافرين

لمّا انتهى بيان حال المنافقين استأنف بخطاب المؤمنين، فالجملة مستأنفة؛ "لِأَنَّهَا تَوْجِيهُ خِطَابٍ بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِطَرِيقِ الْغَيْبَةِ"[2]، للتّحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النّفاق.

دلالة افتتاح الجملة بالنّداء:

افتتح الجملة بالنّداء لزيادة التّنبيه على مضمون الخطاب

نبّه المؤمنين على مضمون الجملة؛ لأنَّها أندى وأنفذ في تنفيذ المراد، وتشير إلى أهميّة الأمر المنادى به؛ فهو مهم وخطير، فعليكم أن تجمعوا قلوبكم وعقولكم لتلقيه وتنفيذه مهما كلفكم من المصاعب.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/242.

بلاغةُ التّعبير بالنّداءِ بصفة الإيمان:

قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ جاء المُنادى بهذا بصفة الإيمان، فلا شيء أعلى من الإيمان، وهذا الأسلوب تكرَّر في القرآن كثيرًا، وذلك في الأوامر والنواهي والوعد والوعيد إلى غير ذلك، ومنه ما هو معنا في هذه الآية من النَّهي عن أن يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ لذلك ناداهم ربّنا بهذا النّداء بكلّ ما فيه من عناصر التّوكيد؛ لتحمّل الأعباء التي يكلّفون بها، ومنها عدم اتّخاذ الكفار أولياء.

ناداهم بصفة الإيمان، لما في التّكليف من مشقّة، تخفيفًا لها بوازع الإيمان

دلالة إيثار استعمال الاسم الموصول:

عبّر عنهم بالاسم الموصول "الذين" لإظهار صفة الإيمان في سياق النّهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء، فقد "نادى بالموصول للإشارة إلى أن الإيمان يقتضي ألا يكون ولاء المؤمن لغير المؤمنين"[(1)].

عبّر عنهم بالموصول إشارة إلى مضمون الصّلة، ليبني النّهي عليه

دلالة النهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

جاء هذا النّهي من الله لعباده المؤمنين عن " أن يتخلَّقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه"[(2)]، وبذلك يستحقون العقاب إن هم فعلوا ذلك.

الغرض من التّعقيب بالنّهي عن موالاة الكافرين، بعد ذمّ ذلك لكونه من صفات المنافقين

إيثار التّعبير بالاتخاذ:

اصطفى القرآن الكريم مادة الاتخاذ في قوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ في هذا المقام؛ لأنها على وزن افتعال؛ فهي تدل على التكلف للمبالغة في تحصيل المطلوب، وهذا له دلالة مهمة في تكوين إيمان الفرد وإيمان الأمة، ذلك أن المؤمن قد يتعرض لموقف يضطر فيه إلى موالاة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.

الكافرين؛ فطلب القرآن منك أيها المؤمن أن تبذل كل الوسع في عدم اتخاذهم أولياء مهما يكلفك من مشاقّ إلا عند حد الاضطرار.

أثر التّعبير بصيغة الاتّخاذ لما فيها من دلالة على التّكلف والاجتهاد

دلالة التعبير بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بدلًا من لا توالوا الكافرين:

قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهى عن اتّخاذ الكافرين أولياء، ولم ينهَ عن مولاتهم بعبارة مباشرة فلم يقل: (لا توالوا الكافرين)؛ للمبالغة في النّهي، فالمنهيّ عنه هو الاتّخاذ بما فيه من دلالة على التّكلف والاضطرار والتّصنع، فنهى عن ذلك السّلوك وهو غير سلوك الموالاة.

مبالغة في النّهي، بالنّهي عن أسباب الموالاة

سر التعبير بالأولياء دون نصراء:

عبر بالأولياء؛ لأن المراد بالولاية هنا النّصرة والانتماء إلى جماعة الكافرين، وبهذا المعنى جاء النّهي عنه، وهو التبعية والنصرة، وذلك أمر منهيٌّ عنه باتفاق، ولوجود فرق بين الوليِّ والنصير؛ فالولاية تكون بإخلاص المودّة، والنصرة تكون بالمعونة والتقوية[1].

نهى عن الولاية دون النّصرة لأنّها تدلّ على الانتماء والودّ

بلاغة الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا﴾ استئناف لبيان الجزاء المعدّ لمن لم ينتهِ عن موالاة الكافرين، "لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِمَّا يَبْعَثُ النَّاسَ عَلَى مَعْرِفَةِ جَزَاءِ هَذَا الْفِعْلِ"[2]، وفيه تشهير بسلوك المنافقين، ويحمل معنى التّهديد لهم بتسليط مقت الله وعقابه.

الاستئناف لبيان جزاء النّهي عن الموالاةِ، وَالتّشهير بالمنافقين

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

هذا الاستفهام يتضمن إنكارًا للوقوع أي لَا يقع منهم، ولا يصحّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/243.

الاستفهام للإنكار والتّوبيخ والتّحذير والإنذار

أن يقع، ويتضمّن التّحذير والإنذار[1]، والمعنى: "إنّكم إن فعلتم ذلك فقد جعلتم لله حجّة في عقابكم، وتسليط ذنوبكم عليكم وتخلّيه عن نصركم؛ فإنّ نصر الله لا يكون إلّا لمن يطلب النّصرة من الله وحده، ولن ينصر الله من يستنصر بغير الله كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد ﷺ: 7]"[2].

السّرّ في توجيه الإنكار إلى الإرادة دون الفعل:

توجيهُ الإنكار إلى الإرادة، مبالغةٌ في إنكار ولاية الكافرين، وتهديدٌ لهم

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ تسلّط الإنكار على الإرادة "دون متعلّقها بأن يقال: (أتجعلون) للمبالغة في إنكارِه وتهويلِ أمرِه ببيان أنَّه مما لا يصدُر عن العاقل إرادتُه فضلًا عن صدور نفسِه كما في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ﴾"[3]، فالتّعبير بالإرادة يدلّ على أنّ هذا السلوك منهم في موالاة الكافرين ليس من باب الهمّ ولا من باب الخواطر، إنما هو عزم منهم وصل إلى درجة الوقوع، وفيه تهديد وردع لهم عن تلك الموالاةِ.

سرُّ ذكرِ السّلطان في سياق النّهي عن الموالاة:

ذكر السّلطان في سياق التّهديد، للدّلالة على أنّ استحقاق العذاب حتميٌّ إذا وقعت الموالاةُ

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ ذكر السّلطان في سياق التّهديد والرّدع عن موالاتهم؛ إشارة إلى أنّ استحقاقهم العذاب بسبب الموالاة أمر حتميٌّ لا شكّ فيه، "وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَأْخُذُكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُ الْكُفَّارَ بِانْتِقَامٍ مِنْهُ، وَلَهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ؛ إِذْ قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ أَحْوَالَهُمْ وَنَهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ"[4].

إيثار التّعبير بالسلطان دون الحجّة في قوله تعالى: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 3/277.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.

(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.

آثر التّعبير بالسّلطان دون الحجّة؛ لكونه أبلغ في الدّلالة على قوّة الحجّة، فهو يحمل معنى زائدًا عن الحجّة؛ لأنّه مأخوذ من السّلطة بمعنى القوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1]. فآثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ للمبالغة في التّهديد.

آثـر التّعبير بالسّلطان لكونه أبلغ في الاحتجاج، مبالغة في التّهديد

دلالة اختيار التذكير على التّأنيث في: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾:

يجوز في لفظ (السلطان) التّذكير والتّأنيث، فمن ذكَّر ذهب به إلى البرهان والاحتجاج، ومن أنَّث ذهب به إلى الحجَّة، واختير التّذكير في الآية "لِأَنَّهُ وَقَعَ الْوَصْفُ فَاصِلَةً، فَهَذَا هُوَ الْمُرَجِّحُ لِلتَّذْكِيرِ عَلَى التَّأْنِيثِ"[2]، والتّذكير هو الأشهر وهي لغة القرآن[3].

يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، وذُكِّر للنّسق الصّوتي، وحفاظًا على الفاصلة

دلالة التعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن تَجۡعَلُواْ﴾:

عبّر بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَجۡعَلُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ والمصدر المؤوّل يراعى فيه مع الحدث الإشارةُ إلى الزمن، بعد فعل الإرادة، للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة، وكأنّهم تجدّدت موالاتهم للكافرين؛ فالعقوبة تأتي على هذه الموالاة المتجدّدة، وفي هذا إشارة إلى إخراج حكم الضّرورة التي تلجئ الإنسان إلى الموالاة ظاهرًا مع أعدائه.

عبّر بالمصدر المؤوّل للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة

دلالة الجار والمجرور في قوله ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

أفاد الجار والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ بما فيه من دلالة على الاستعلاء على قوّة تمكّن السّلطان منهم، إيغالًا في التّهديد، وزيادة في التّرهيب.

عبّر بحرف الجرّ (على) للدّلالة على قوّة الحجّة إيغالًا في التّهديد

---
(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/277، والهرري، حدائق الروح والريحان: 6/441.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحجّة والسّلطان:

السّلطان أخصّ من الحجّة، فهي قوّة الحجّة والتّنفيذ

أصل السّلطان من السّلطة وَالقوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1].

أما الحُجّة فهي البرهان؛ لأنّ الحجّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلّصًا، وعلى هذا فالسّلطان أقوى من الحجّة؛ لأنّه يحمل معنى زائدًا على الحجّة، وهو القوّة في التّنفيذ، ولذلك آثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ لبيان قدرته ﷻ في تنفيذ عقابه؛ فلا يمنعه مانع.

وفيه إشارة إلى أن موالاة الكافرين ظاهرة وواضحة؛ لأنها استنصار بغير المؤمنين، يترتب عليه العقاب الأليم؛ فكأنهم قدَّموا حجَّة قويَّة على عقاب اللّه.

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا نهى اللّه ﷻ في الآية السابقة عن أفعال المنافقين، والتَّحذير من الاتصاف بصفاتهم، وما تحمله من خطورة على المؤمنين، بيَّن في هذه الآيات الجزاء المعدَّ للمنافقين بأنَّهم في أسفل طبقات جهنم جزاءً وفاقًا على كفرهم وخداعهم للمؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّرۡكِ﴾: كالدَّرج، لكن الدرج يقال اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالحدور "وَالدَّرَكُ: اسْمُ جَمْعِ دَرَكَة، ضِدُّ الدَّرَج اسم جَمْعِ دَرَجَةٍ. وَالدَّرَكَةُ الْمَنْزِلَةُ في الْهُبُوطِ. فَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ أَسْفَلُهُ تَكُونُ مَنَازِلُ التَّدَلِّي إِلَيْهِ دَرَكَاتٍ، وَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ أَعْلَاهُ تَكُونُ مَنَازِلُ الرُّقِيِّ إِلَيْهِ دَرَجَاتٍ"[(1)]، و﴿ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ﴾ الطّبق الذي في قعر جهنّم، والنّار سبع دركات؛ سمّيت بذلك لأنّها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض"[(2)]، "وكلّ طبَق من أطباق جهنم دَرَك"[(3)].

2) ﴿نَصِيرًا﴾: (نَصَرَ): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[(4)]، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أي "مانعًا يمنعهم من عذاب اللّه، من جهة شفاعة أو غير ذلك من وجوه النصر المتوهّم أنّه ينفعهم"[(5)].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أخبر اللّه تعالى عن الجزاء المعدّ للمنافقين؛ لسوء أعمالهم، وفساد أرواحهم، فهم كائنون يوم القيامة في الدّرك الأسفل من النّار، فهي دَرَكات، وهم في أسفلها، ولا شكّ

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/581.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/338.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

(5) الواحدي، البسيط: 7/167، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/715.

أنّهم يستحقّون ذلك، ولن يُغْنِيَ عنهم موالاتهم للكافرين؛ فلن ينفعوهم يوم القيامة، ولن يَدْفَعُوا عنهم العذاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

السّرّ في فصل الجملة عن سابقتها:

فصل الجملة عن سابقها للرجوع في الحديث إلى المنافقين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ جاءت الجملة مفصولة ولم تعطف على ما قبلها؛ لأنها جملة مستأنفة...؛ فهي عود على أحوال المنافقين، والعذاب المُعَد لهم[1].

التعريض بالمنافقين غير المصرَّح بهم:

تصفية المؤمنين وتخلية قلوبهم مما قد يعرض لها من ولاية الكافرين

الانتقال من نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء إلى الإخبار المؤكَّد بأنَّ المنافقين هم أشدُّ عذابًا من الكافرين تعريض بمن اتَّصف بصفات المنافقين، وتحذير لهم من الوقوع في براثن النفاق.

كما أنَّ فيه تلوينًا للخطاب؛ فإنَّه انتقل من نداء المؤمنين، ونهيهم عن موالاة الكافرين، إلى الإخبار المؤكَّد عن شدة عذاب المنافقين.

"فإنَّ الانتقال من النَّهي عن اتِّخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يُؤْذِنُ بأنَّ الذين اتَّخذوا الكافرين أولياءَ معدودون من المنافقين، فإنَّ لانتقالات جُمَل الكلام معانيَ لا يُفيدها الكلامُ؛ لِما تدلُّ عليه من ترتيب الخَواطر في الفكر"[2].

الإخبار بالجملة الاسميّة المؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾:

أخبر بالجملة الاسميّة المؤكّدة دلالةً على قوّةِ الخبر وتأكيدِ تحقّقه

عبّر عن مصير المنافقين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بالجملة الاسميّة الدّالّة على ثبوت المعنى وتأكيده؛ دلالة على قوّة الخبر وتأكيد تحقّقه، وأضاف له مزيدًا من التأكيد بالافتتاح بـ (إنّ). "وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِـ (إِنَّ) لِإِفَادَةِ أَنَّهُ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهُ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/244.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/243.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/244.

دلالة الألف واللّام في: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

الـخـطـاب يتناول المنافقين المعهودين، وكلّ من سلك مسلكهم

تعددت الأقوال في المراد بالألف واللام في (المنافقين) بين العموم والخصوص، "قال ابن عرفة: الألف واللّام إمّا للعهد، فلا يتناول منافقي الجنس، وإمّا للجنس فتتناولهم، والظّاهر عدم تناول اللّفظ لهم؛ لأنّ أولئك معصيتهم أشدّ لمشاقتهم رسول الله ﷺ واستهزائهم به"(1).

نكتة العدول عن تعريف المنافقين بالموصوليّة إلى الاسم الصريح:

إثبات الحكم المذكور لمن ظلّ على نفاقه إلى الممات ولم يتب منه

نلحظ ذكر المنافقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالاسم الصريح، ولم يُعرِّفْهم باسم الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: 166 - 167]، فتأمَّل كيف عرَّف المؤمنين بـ (ال)، وذكر المنافقين باسم الموصول وصلته؟!

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [الحشر: 11]؛ وذلك لأنَّ الاسم الموصول (الذين) مفتقر إلى صلته، وجملة الصلة فعليَّة، تدلُّ على التجدُّد والحدوث، فيتناسب مع آيتي (آل عمران والحشر)؛ لعلَّهم يثوبون ويرجعون، ولا يتناسب مع الحكم عليهم بالعذاب في الدرك الأسفل من النَّار إلا الاسم الصريح، وتعريفهم بـ (ال)، فالاسم يدل على الثُّبوت والدَّوام، فمن ثبت منهم على نفاقه، ولم يتب منه، كان داخلًا في الحكم المذكور.

السّرّ في تعيين عذاب للمنافقين:

لبيان أنّ عذابهم أشدّ، تغليظًا عليهم

ذكر القرآن الكريم مكان العذاب المُعدّ لهم؛ للتّغليظ عليهم فعذابهم أشدّ من الكفّار؛ "وإنّما كان كذلك لأنّهم أخبث الكفرة؛ إذ ضمّوا إلى الكفر استهزاء بالإِسلام وخداعًا للمسلمين"(2)، وهم

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/66.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/105، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/381.

بنفاقهم وتستّرهم أَشَدُّ تَمْكِينًا مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ"[1]؛ حيث كانوا أقدر على الاطّلاع "عَلَى أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يُخْبِرُونَ الْكُفَّارَ بِذَلِكَ فَكَانَتْ تَتَضَاعَفُ الْمِحْنَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، فَلِهَذِهِ الْأَسْبَابِ جَعَلَ اللَّه عَذَابَهُمْ أَزْيَدَ مِنْ عَذَابِ الْكُفَّارِ"[2].

السّرّ في اختيار الدّرك الأسفل في عقاب المنافقين:

جعلهم أسفل النّار لبيان أنّهم في غاية البعد ونهاية الطّرد عن رحمة الله تعالى

اختار الدرك الأسفل؛ لبيان أنّ المنافقين في غاية البعد؛ "فهم فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من نار جهنّم، وهي (أدراك) بعضها فوق بعض طبقة على طبقة، أعلاها هي جهنّم وقد يسمى جميعها باسم الطّبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النّار؛ لأنّهم أسوأ غوائل من الكفّار وأشدّ تمكّنًا من أذى المسلمين"[3]. ومما يذكر في سر اختيار الدرك الأسفل للمنافقين أنه أخفى ما في النار، وأستره وأخبثه؛ كما أن كفر المنافقين أخفى الكفر وأخبثه.

ولأنّهم طلبوا العزّة من غير اللّه، فأذلّهم اللّه، فالدَّرك الأسفل مع كونه أشدَّ النَّار عذابًا، هو أعظمه إذلالا وتنكيلًا، فالجزاء من جنس العمل.

الدّرجات والدّركات:

الـدّرك باعتبار الهبوط، أطلق على منازل النّار والدّرج باعتبار الصّعود أطلق على منازل الجنّة

عبّر القرآن الكريم عن منازل أهل الجنّة بالدّرجات، وعن منازل أهل النّار بالدّركات، " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الدَّرْكُ لِأَهْلِ النَّارِ كَالدَّرَجِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّ الدَّرَجَاتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَالدَّرَكَاتِ بَعْضُهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ"[4]. فقوله جلّ شأنه: ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/113.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/251.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.

يعني منازل أهل النار[1]؛ فأطلق الدّركات على منازل النّار، لأنّ العرب قالوا: "لِكُلِّ مَا تَسَافَلَ أَدْرَاكٌ. يُقَالُ: لِلْبِئْرِ أَدْرَاكٌ، وَلِمَا تَعَالَى دَرَجٌ، فَلِلْجَنَّةِ دَرَجٌ، وَلِلنَّارِ أَدْرَاكٌ"[2]. "

دلالة إمساس الألفاظ أشباهَ المعاني:

يتجلّى إمساس اللفظ شبهَ معناه هنا في أمرين:

الجيم في (درج) تشبه التجمُّع الخفيف المنتقل شيئًا بعد شيء، والكاف في (درك) تشبه التسفُّل المنضغط الغائر

أولهما: توالي الحركات المفتوحة في اللفظين، "وذلك أنَّهم لمَّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني؛ فأقوى اللَّفظ ينبغي أن يقابَل به قوَّة الفعل"[3]، فتوالي الحركات في (درجات ودركات) لتوالي الأفعال، الأُولى في ترقٍّ وصعود، والأخرى في تسفُّل وانحدار.

والآخر: مقابلة اللفظ بما يشاكل صوتَه من الحدث، وفيه يقول ابن جني:

"فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتَها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج مُتْلَئِبٌّ[4] عند عارفيه مأموم؛ وذلك أنَّهم كثيرًا ما يجعلون أصواتَ الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدِّلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[5].

فكلٌّ من (درك ودرج) يتماثلان في الحرفين الأوَّلَيْن (در)، وهذا الفصل منهما يعبِّر عن جريان المائع ونحوه بتوالٍ واسترسال، ويختلفان في الحرف الأخير؛ فالجيم مجهورة، تشير إلى تجمُّع خفيف أو لطيف، له حدَّة ما، وتركيب حروف (درج) تعبِّر عن الانتقال اللطيف شيئًا بعد شيءٍ في ترقٍّ، والكاف من (درك) مع

(1) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/425.
(3) ابن جني، الخصائص: 2/157.
(4) الطريق المُتْلَئِبّ: هو المستقيم الممتدّ.
(5) ابن جني، الخصائص: 2/159.

أنَّها أضعف من الجيم، فهي مهموسة والجيم مجهورة، إلا أنَّ صوتَ الكاف يدلُّ على ضغط غَئُوريّ، يؤدِّي هنا إلى اللُّصوق، ويعبِّر التركيب معها عن الاسترسال حتَّى اللِّحاق بشيء أو الالتحام به[1].

دلّ وصف الدّرك بالأسفل على أنّهم في نهاية قعر جهنّم، إسفارًا عن شدّة عذابهم

دلالة الوصف بالأسفل:

معنى قوله جلّ شأنه: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي هم في أقصى قعرها[2]، فدلّ وصف الدّرك بالأسفل على أنّه أقساها عذابًا؛ لأنّه يتكاثف عليه ما فوقه من طبقات؛ ولأنّ أعمق النّيران أشدّها توهجًا وأكثرها لهيبًا، وهذا هو المناسب للمنافقين الذين مردوا على النّفاق واستمرؤوه حتى صار وصفًا لهم[3].

صرّح بمكانهم وباسم النّار، للنّص على ذلك؛ وللتّهويل في سوء مصيرهم

دلالة التّصريح بالنَّار دون وصف من أوصاف جهنم:

آثر التّصريح عن عذابهم بكونه في الدّرك الأسفل وبكونه في النّار، دون سائر الأسماء للنّص على أنّهم في الطبقة السّفلى من النّار؛ تهويلًا لسوء مصيرهم، وتهديدًا لهم، وهذا الأنسب للمنافقين؛ لأنَّهم أوغلوا في إفساد المجتمع وفي الكفر بالله وبرسوله ﷺ.

ذيّل الآية بما يؤكّد سوء مصيرهم، فلا محيص لهم عن العذاب

بلاغة التّذييل:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ تذييل صُدّر بالنّفي الذي يلمح فيه التّأبيد (لن) للدّلالة على تقطع الأسباب بينهم وبين من والوهم من الكافرين؛ فلا ينصرونهم، ولا يملكون لهم شفاعة، ففي التّذييل "تَأْكِيدٌ لِلوَعِيدِ، وَقَطْعٌ لِرَجَائِهِمْ، لِأَنَّ الْعَرَبَ أَلِفُوا الشَّفَاعَاتِ وَالنَّجَدَاتِ فِي الْمَضَايِقِ. فَلِذَلِكَ كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ تَذْيِيلُ الْوَعِيدِ بِقَطْعِ الطَّمَعِ فِي النَّصِيرِ وَالْفِدَاءِ وَنَحْوِهِمَا"[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درك)، (درج).
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1923.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

بلاغة نفي النّصير عن طريق نفي وجوده، في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾:

ليس المقام مظنّة وجود نصراء، فلا تجدهم ولو تكلّفت طلبهم

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أخبر بنفي وجدان النّصير؛ للدّلالة على انتفائه بعد الطّلب مبالغة في انتفائه، فهو "موضع لَا ينفع فيه النّصير؛ فلذلك لم يقل: (ولم يكن لهم نصير)"[(1)]، فدلّ هذا الفعل على نفي وجود للنّصير، فضلًا عن نفي النّصير؛ فكأنّهم يبحثون عن النّصير فلا يجدون؛ لأنَّ المقام ليس مظنّة لوجود نصراء، ولو تكلّفوا طلبهم بالبحث والتنقيب، لذلك "نفَى اللّه تعالى عنهم نفيًا مؤكّدًا، أن يكون لهم نُصراء"[(2)]، أو شفيعٌ "يخلّصهم من ذلك الدرك"[(3)].

الغرض من النّفي:

التّهديد والتَّأييس بنفي من ينصرهم من عذابه، وبيانٌ لتقطّع الأسباب بينهم

الغرض من نفي ذلك تهديدُ المنافقين[(4)]، وتأييس من وجود ناصر ينصرهم وينقذهم من عذاب اللّه، "فإنّه يعني: ولن تجد لهؤلاء المنافقين، يا محمّد، من اللّه إذا جعلهم في الدَّرك الأسفل من النّار ناصرًا ينصرهم منه، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليمَ عقابه"[(5)].

دلالة الخطاب في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾:

تسلية النبي ﷺ بنفي ظهور المنافقين

الخطاب في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ للنّبي ﷺ، وهو الذي ذاق آثار نفاقهم، وذاق المؤمنون معه مرارة ذلك النّفاق؛ لأنّ في ذلك تثبيتًا للمؤمنين، حتّى لَا يتزلزل أحدٌ منهم بعمل المنافقين الذي مردوا عليه، ولم يتراجعوا عنه، ولأنّهم أرادوا بالنّفاق الاستنصار بغير دولة الحقّ، لتفوز دولة الباطل على النّبيّ ﷺ، فذكر اللّه تعالى لنبيّه أنّه لن يجدهم منصورين عليه أبدًا لأنّهم لَا ناصر لهم[(6)].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/66.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/278.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/251.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/339.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.

دلالة تنكير ﴿نَصِيرًا﴾:

نفي النّصرة عنهم في يوم القيامة على وجه الاستقصاء

جاء ذكر النّصير في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ بصيغة التّنكير؛ للدّلالة على نفي النّصرة عمومًا عن المنافقين، فلن ينصرهم أحدٌ ممّن كانوا يستنصرون بهم، ولن يجدوا من يبحث لهم عن نصير في هذا الموقف؛ لأنّ النُّصْرَةَ تكون للّه وحده.

ونفي النُّصرة عن المنافقين يشمل الدُّنيا والآخرة، وإن كان السِّياق دالًّا على الآخرة، بقرينة ذكر قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، "وإنَّ هؤلاء لن يكون لهم نصيرٌ يوم القيامة؛ لأنَّه للّه وحده، ولن يجدوا نصيرًا يُخْلِصُ في النُّصرة لهم في الدُّنيا؛ لأن النِّفاقَ يسلب الثِّقة عنهم، فلا ينصرهم أحد ممن يستنصرون بهم، بل إنَّهم يستخدمون شرَّهم، ولا يعطونهم خيرًا، وما وجدنا منافقًا في الماضي أو الحاضر يخون قومَه، ويَنال نُصرةً صحيحةً ممَّن ينافق لأجلهم، فتلك سنة اللّه تعالى في المنافقين"[1].

سر تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾:

للدّلالة على الاختصاص، نفيًا لوجود من يختصّهم بالنّصرة في ذلك الموقف

قوله: (لهم) جار ومجرور متعلِّق بـ ﴿نَصِيرًا﴾، وهو في الأصل صفته، فلمَّا قدِّم عليه أُعرب حالًا، ويبدو أنَّ سرَّ تقديمه هو الدلالة على اختصاصهم بهذه العقوبة المعنوية، وهي فقدان النَّصير، فضلًا عن العقوبة الحسيَّة بأنَّهم في الدرك الأسفل من النار، وفي هذا تبكيت وتقريعٌ للمنافقين، وتحذيرٌ لمن تسوِّل له نفسه أن يسلك مسلكهم.

دلالة اختيار (نصير) بدلًا من (الولي):

النّصير أعم من الوليّ، فنفي النّصير أبلغ في التّقريع

اختار النصير دون الولي؛ لوجود فرق بينهما؛ فالولي هو القريب والحليف، أما النصير: فكل من يعين أحدًا يُراد به ضُرٌّ، وأيضًا؛ لأن الولي قد يضعف عن النُّصرة، والنَّصير قد يكون أجنبيًّا عن

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.

المنصور، كما يكون من أقربائه، وعلى ذلك فالنَّصير أعمُّ من الولي، وبذلك تكون الآية نفت عن المنافقين الولاية والنصرة معًا.

السرُّ في ذكر النَّصير وحدَه، ولم يجمع معه الولي:

مراعاة لخطاب النبي ﷺ، وتسلية له عمَّا فعلوه معه من جرائم

قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه نفي النصير بـ ﴿وَلَن﴾، وبصيغة الخطاب ﴿تَجِدَ﴾ للنبيّ ﷺ، وذلك تسلية له وتسرية عمَّا فعلوه معه من جرائم وخيانة ومؤامرات؛ فكم استعزُّوا بموالاة الكافرين، وكم استنصرهم المسلمون، فخذلوهم.

وفي غير هذه الآية الكريمة جاء النفي بـ(لا)، وبصيغة الخبر، فالسِّياقُ في غيرها إخبار عن خِزيهم وخيبة رجائهم، فهم يبحثون عن وليٍّ؛ ليخلّصهم ولو بفداء، فلم يجدوا، فيبحثون عن نصير؛ ليدافع عنهم، أو ينقذهم، فلم يجدوا، فالجمع بين الولي والنصير في غير الآية التي معنا يناسب المقام؛ للدلالة على استنفادهم كلّ الحيَل، واليأس من نجاتهم كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾ [النساء: 123]، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧٣﴾ [النساء: 173]، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧﴾ [الأحزاب: 17]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾ [الأحزاب: 65]، وقوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ [الفتح: 22].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾ [النساء: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّه ﷻ في الآية السَّابقة أنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النَّار، بما أركسوا من الشرِّ، وأغلقوا باب الهداية عليهم، حتَّى إنَّ رجوع المشرك عن شركه أقرب من رجوع المنافق عن نفاقه، ومع كلِّ ذلك لم يغلق اللّه الباب أمامهم، إن أرادوا العودة والأوبة إلى اللّه، فجاءت هذه الآية لإعلان فتح باب التوبة للمنافقين الذين التزموا بشروط التوبة فأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم للّه إذا فعلوا ذلك قبل اللّه منهم وأثابهم أجرًا عظيمًا(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: أصلٌ يدلّ على خلاف الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56](2).

2) ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: (عَصَمَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِمْسَاكٍ وَمَنْعٍ وَمُلَازَمَةٍ. العِصْمَةُ: أَنْ يَعْصِمَ اللّه تعالى عَبْدَهُ مِنْ سُوءٍ يَقَعُ فِيهِ. اعْتَصَمَ الْعَبْدُ باللّه تَعَالَى، إِذَا امْتَنَعَ. وَاسْتَعْصَمَ: الْتَجَأَ(3). "﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به والتجأوا إليه"(4). "وثقوا به كما يثق المؤمنون الخُلَّص"(5)، "﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: وتمسَّكوا بعهد اللّه"(6).

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).
(4) الواحدي، البسيط: 7/167.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/581.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/340.

3) ﴿وَأَخۡلَصُواْ﴾: (خلص) أصل يدلّ على تنقيةِ الشّيء وتهذيبه، الخالص مازال عنه شوبه بعد أن كان فيه، قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾ [البقرة: 139][1].

4) ﴿دِينَهُمۡ﴾: يقال: دِنتُ الرجل: أخذت منه دينا، وأدنته جعلته دائنًا وذلك بأن تعطيه دينًا، والدين، يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنَّه يقال باعتبار الطَّاعة والانقياد للشريعة[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فتح اللّه تعالى في هذه الآية باب التوبة للمنافقين الذين رجعوا إلى اللّه بالتوبة من نفاقهم، وأصلحوا باطنهم، وتمسَّكوا بعهد اللّه، وأخلصوا عملهم للّه بلا رياء، فأولئك المتَّصفون بهذه الصِّفات مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وسوف يعطي اللّه المؤمنين ثوابًا جزيلًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستثناء:

فتح باب الأمل والرجاء للمنافقين

دل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ على فتح باب الأمل والرّجاء في النّجاة من المصير الذي ذكره اللّه تعالى للمنافقين الذين فيهم بقية من خير، حثًّا لهم على التّوبة والنّدم.

السّرّ في التّعبير بالموصول دون الوصف:

عبّر عنهم بالموصول للتّنبيه على المعنى المضمّن في الصّلة وهي شروط التّوبة

لو قال: (إلّا التّائبين والمصلحين والمعتصمين والمخلصين) لدلّ على أنّهم أربعة أصناف، وهذا ليس مرادًا، بل المراد أنّ من نافق وأراد التّوبة فعليه أن يأتي بهذه الشّروط الأربعة المعبّر عنها بالأفعال الأربعة، فعبّر بالموصول لإظهار شروط توبتهم المعبّر عنها في الصّلة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خلص).
(2) الراغب، المفردات: (دين).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.

ذكر الإصلاح شرطًا لأنّهم قد أفسدوا في وقت نفاقهم

دلالة إِتْبَاعِ التوبة بالإصلاح:

أتبع التوبة بالإصلاح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ لإيجاب أن يصلحوا "ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النّفاق"[1]، وذلك بالتوجيه إلى الأعمال الصالحة التي هي مظهر الإذعان والتوبة؛ فليست التوبة كلامًا باللسان، ولكنها طهارة للوجدان، وهذا لا يتأتى إلا بإصلاح النفس، وتقوية عزيمتها بعدم الإفساد بين الناس[2].

آثر التّعبير بالإصلاح لأنّ النّفاق فيه إفساد والتّوبة عنه تتحقّق بإصلاح الفاسد

إيثار التّعبير بالإصلاح دون الصّلاح:

آثر التّعبير القرآنيُّ الإصلاح دون الصّلاح؛ لأنّ الصّلاح أمر ذاتيٌّ لا يتعدى إلى الغير، وما فعله المنافقون من خداع للمؤمنين وموالاة للكافرين تعدّى أذاه إلى المؤمنين؛ فأراد القرآن لكي يضمَّهم إلى المؤمنين أن يقيموا الدّليل على أنّهم أصلحوا أنفسهم، وذلك بإصلاح ما أفسدوه، وترك ما اكتسبوه من موالاتهم الكافرين وخداعهم المؤمنين.

عبّر بصيغة الافتعال عن العصمة دلالةً على وجوب الاجتهاد وبذل الوسع

السّرّ في التّعبير بصيغة الاعتصام:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ عبّر عن اعتصامهم في قوله: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ﴾ بصيغةِ الافتعال؛ لأنّ الاعتصام يعني التمسُّك بالشيء، وذكر ذلك ضمن الشّروط لما فيه من تكلّف الاعتصام والاجتهاد فيه، ليكون نقيضًا لتذبذبهم المذكور سابقًا.

دلالة جعل الإخلاص من شروط التوبة:

لأنّ أعمال النّفاق رياء يخلو من الإخلاص، فأمرهم بنقيض الرّياء" وأخلصوا طاعتَهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها،

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/409.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1926.

ولم يعملوها رئاءَ النّاس، متقرِّبين بها إلى اللّه، مريدين بها وجه اللّه. فذلك معنى إخلاصهم للّه دينهم[1].

لما كانوا مرائين في صلاتهم اشترط عليهم الإخلاص لصحّة توبتهم

وجه اشتراط التّوبة والإصلاح والاعتصام والإخلاص على المنافقين:

دلالة هذا الاشتراط في توبة المنافقين مناسبة لجرمهم؛ لأنه "لَمَّا كَانَ الْمُنَافِقُ مُتَّصِفًا بِنَقَائِصِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنَ الْكُفْرِ وَفَسَادِ الْأَعْمَالِ وَالْمُوَالَاةِ لِلْكَافِرِينَ وَالِاعْتِزَازِ بِهِمْ وَالْمُرَاءَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، شَرَطَ فِي تَوْبَتِهِمْ مَا يُنَاقِضُ تِلْكَ الْأَوْصَافَ وَهِيَ التَّوْبَةُ مِنَ النِّفَاقِ، وَهِيَ الْوَصْفُ الْمُحْتَوِي عَلَى بَقِيَّةِ الْأَوْصَافِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى. ثُمَّ فَصَّلَ مَا أَجْمَلَ فِيهَا، وَهُوَ الْإِصْلَاحُ لِلْعَمَلِ الْمُسْتَأْنَفِ الْمُقَابِلِ لِفَسَادِ أَعْمَالِهِمُ الْمَاضِيَةِ، ثُمَّ الِاعْتِصَامُ بِاللهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ الْمُقَابِلُ لِمُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَاضِي، ثُمَّ الْإِخْلَاصُ لِدِينِ اللهِ وَهُوَ الْمُقَابِلُ لِلرِّيَاءِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ فِي الْمَاضِي"[2].

لما كانت إساءتهم وكفرهم وضررهم أشدّ زاد عليهم في شرائط التّوبة

السّرّ في ذكر الإخلاص ضمن شرائط توبتهم:

الناظر في الآية يجد أنّ الذي يتوب ويصلح ويعتصم باللّه يكون قد استوفى أركان الصّلاح؛ فلماذا خصّ الإخلاص بالذّكر؟ جوابه إنّما خصّه بالذّكر ليؤكّد ضرورة الإخلاص في التّوبة عن النّفاق، والإخلاص محله القلب؛ فتوبة القلب غير توبة الجوارح؛ لأنّ توبة الجوارح تكون بكفِّها عن المعاصي، وتوبة القلب بأن يكفَّ عن مجال نفاقه بأن يخلص قلبه للّه[3].

خصّ الإخلاص بالذّكر لأنّ مقرّه القلب، تنقيةً للقلب من النفاق

دلالة الإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أتى باسم الإشارة (أولئك) إشارة إلى الصّفات الواردة ضمن صلة الموصول؛ إيماء إلى أنّها السّبب في التّوبة عليهم، فجيء "بِاسْمِ

الإشــارة إلى الموصول للتنبيه على المعنى المضمّن في الصّلة، وصيغة البعد لبيان علوّ المنزلة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/341.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/113.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوى، ص: 2757.

الْإِشَارَةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ لِزِيَادَةِ تَمْيِيزِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَابُوا، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِمَا سَيَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ"[1].

الإشارة بصيغة البعد:

وصيغة البعد لبيان علوّ المنزلة

جاء باسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ دالًّا على البعد، للإيذان ببعد المنزلة وعلوّ الطبقة. أي: "لعلوّ رتبتهم بهذه الأمور لا يكونون في درك من النّار فضلًا عن الأسفل، بل مع المؤمنين المستمرّين على الإيمان بلا نفاق. أي: معهم في درجات الجنان"[2]، وأفاد ذلك التعظيم لتلك الدّرجة المشار إليها بالعد التّحريضَ على التّوبة، والتّرغيب فيها[3].

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

عبّر بالفاء الرّابطة للدّلالة على أنّ المتّصف بالصّفات السّابقة قد كمل إيمانه

عبّر بالفاء الرّابطة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ للدّلالة على أنّ مَنْ أوفى بالشّروط المذكورة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ وحصّلها؛ فقد كمل إيمانه؛ فقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من باب تأكيدِ الأداءِ والالتزام، فهي ربطت بين السّبب والنّتيجة.

دلالة (ال) في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾:

من عهد منهم الإيمان وشهروا به ولم يشبهم من النّفاق شيء

الألف واللام للعهد، والمراد بهم المؤمنون المعهودون "الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا، وإلَّا فهم أيضًا مؤمنون، أي معهم في الدرجات العالية من الجنة"[4].

دلالة ذكر المعيّة مع المؤمنين:

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ ذكر جزاء من يأتي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/244، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقنّوجي، فتح البيان: 3/279، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/381.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.

(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.

بالشّروط المذكورة في الآية بأنّه ينال صحبة أخيار النّاس فذكر "اللّه ﷻ هذه المعيّة للمؤمنين لشرف الصّحبة مع الأخيار الأبرار، بعد طلبهم النّصرة من الأشرار الكفّار، فهذا دليل على الرّفعة في الصّحبة بعد الانخفاض فيها، كما ارتفعوا عند اللّه"[1]، وفيه إشارة إلى أنّ المؤمنين مُتَّبعون وهذا تشريف لهم، وأنّ المنافقين بعد تحقيق شروط التّوبة هم تبع للمؤمنين[2].

الجزاء الحسن للمؤمنين أصل ولمن تاب من المنافقين تبعٌ

سر التعبير بمعيّتهم للمؤمنين دون وصفهم بالمؤمنين:

عبّر تعالى عن قبول توبتهم بقوله جلّ شأنه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، ولم يقل: (أولئك من المؤمنين) أو: (أولئك هم المؤمنون)؛ فلم يحكم عليهم بصفة الإيمان مع أنّهم آمنوا "تنفيرًا مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، وتعظيما لحال من كان ملتبسا بها"[3]، وفيه تشريف للمؤمنين وتبكيت للمنافقين[4].

أعرض عن مباشرتهم بالخطاب تَنْفِيرًا من حالهم، وتشريفًا للمؤمنين

دلالة التّعبير بحرف التّنفيس (سوف) دون السّين:

عبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ عن جزاء المؤمنين يوم القيامة بحرف التّنفيس (سوف) الدّالّ على المستقبل؛ "لِأَنَّ إِيتَاءَ الْأَجْرِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ زَمَانٌ مُسْتَقْبَلٌ لَيْسَ قَرِيبًا مِنَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ. وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ سَوْفَ أَبْلَغُ فِي التَّنْفِيسِ مِنَ السِّينِ"[5]. وفيه إشارة إلى ترغيب المنافقين في التوبةِ؛ بالإشارة إلى الجزاء الموعود.

لـمّا كان إيتاء الأجر مستقبلًا في الدّنيا أو الآخرة عبّر عنه بالتّنفيس

الإظهار في مقام الإضمار:

أخبر عن المؤمنين بالاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ

أظهر الاسم للتّنبيه على أهمِّيَّة صِفَةِ الإيمان وتوكيدها

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/581، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/429.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

﴿ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقال: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلًا من الضمير (هم)، فلم يقل: (وسوف يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا)؛ للتّنبيه على أهميّة صِفَةِ الإيمان وتأكيدها، وليتناول عموم المؤمنين؛ فكلُّ مؤمن موعود بالأجر العظيم، وفيه تلطّف بالمنافقين الذين تابوا وألحقوا مع المؤمنين بأنَّهم عند إعطاء الأجر ينادون بالمؤمنين. وممَّا يذكر في ذلك، الإشارة إلى أنّه "أخلص ذلك الأجر للمؤمنين وهُمْ رُفَقَاؤُهُمْ، فَيُشَارِكُونَهُمْ فِيهِ وَيُسَاهِمُونَهُمْ"[1].

دلالة تنكير الأجر:

عـظّـم الأجـر بـالـتّـنـكـيـر وبـالـتّـصـريـح بصفة العظمة

نكّر الأجر، والتّنكير هنا للتّعظيم، فكأنّه قد أكّد عظم هذا الأجر مرّتين؛ مرّة بما تضمّنه معنى التّنكير، ومرّة أخرى بالتّصريح بوصف العظم، وإنّ جزاء الله لعظيمٌ أيَّ عِظَم"[2].

المراد بوصف الأجر بالعظمة:

الـجـنّـة دار الرّحمة وكلّ ما فيها فهو أجرٌ عظيم، كالخلود والرّضوان

وصف الأجر بكونه عظيمًا، لمقابلة وصف عذاب المنافقين بكونه في الدّرك الأسفل، فالأجر العظيم "درجات في الجنّة، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاق منازل في النّار، وهي السّفلى منها؛ لأنّ الله جلّ ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه"[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجر والجزاء:

الأجـــر لـعـمـل سابق، والجزاء تعويضٌ مساوٍ،

الأجر في اللغة له معنيان: جزاء العمل، وجبر العظم المكسور، ويجمع بين المعنيين أنّ أجرة العامل بمنزلة تعويض يتلقّاه جزاء ما بذله من كدٍّ وجهد؛ فهذا التّعويض كأنّه شيءٌ يُجبر به كما يجبر العظم المكسور.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/341 - 342، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.

أمّا الجزاء: فهو المقابلة على الخير بالثّواب وعلى الشّر بالعقاب، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمجزي عنه؛ لأنّ أصل الجزاء في كلام العرب، القضاء والتّعويض.

والأجر لابد أن يسبقه عمل وجهد وبذل، ولا يكون إلا في الخير غالبًا، أما الجزاء فيأتي ليدلّ على المقابلة. فعبّر بالأجر لأنّه لن يكون مساويًا ولا مكافئًا لسعة كرمه تعالى، ولأنّهم قدّموا الإيمان والتّوبة التي استحقّوا بها أن ينالوا هذا الأجر.

فعبّر بالأجر لسبق ما قدّموا من إيمان وتوبة، ولأنّ أجرَ اللّه تعالى أعلى من استحقاق عملهم.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء للأشياء الكثيرة، والإعطاء للقليل منها

الإيتاء يُستعمل في الشيء الكثير وعظيم الشأن، كالملك والحكمة، وللرحمة والقرآن العظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28]، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87] بينما يستعمل الإعطاء في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلًا وَأَكۡدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النجم: 34]، مع ملاحظة أنّه لم يرد العطاء دالًّا على الشّيء الكثير إلا إذا وُجد ما يدلّ على ذلك، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20] وقوله ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، فأسند فعل الإعطاء فيهما إلى اللّه سبحانه، ولما كان الإيتاء فيه قوة ليست في الإعطاء، آثر التّعبير به هنا.

﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر جزاء المنافقين في الآية السابقة واستثنى التّائبين، بيّن هنا أنّه لا يعذبهم؛ لأنَّه لا ينتفع من عذابهم بشيء؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، فإنّه لا حاجة للّه ﷻ في أن يعذّبكم؛ لأنّ ذلك لا يجلب لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنه ضرًّا؛ فهو غنيٌّ عن عذاب خلقه؛ إذا قاموا بالشّكر والإيمان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾: (شكر) أصل الشّكر: الثَّناءُ على الإنسان بمعروف يوليكه، وهو الرّضا باليسير، وإظهار النّعمة، وَدَابَّةٌ شَكُورٌ إِذَا أَظْهَرَتْ مِنَ السِّمَنِ فَوْقَ مَا تُعْطَى مِنَ الْعَلَفِ، ويضاده: الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها[1].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

"ما يصنع اللّه، أيها المنافقون، بعذابكم، إن أنتم تُبتم إلى اللّه ورجعتم إلى الحقّ الواجب للّه عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نِعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالَكم لوجهه، وترك رياء النّاس بها، وآمنتم برسوله محمّد ﷺ فصدَّقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟ فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعةٍ له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيّكم، ولم تبلغه آمالكم "[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شكر)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/342 - 343.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل والاستئناف:

الجملة في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ فصلت عمّا قبلها؛ لأنّها "استئناف مسوق لبيان أنّ مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنّما هو كفرهم لا شيء آخر؛ فيكون مقرّرًا لما قبله من إثابتهم عن توبتهم"(1).

استئناف لبيان أن علّة التّعذيب إنما هي مجازاة الكفر

دلالة الاستفهام:

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ على معنى التّقرير والنفي، والمراد: لا يعذب الله شاكرًا ولا مؤمنًا؛ فالاستفهام "أُرِيدَ بِهِ الْجَوَابُ بِالنَّفْيِ فَهُوَ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَا يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا"(2)؛ حيث حسنت توبتكم، "وإنّما المقصود حمل المكلّفين على فعل الحسن، وترك القبيح؛ لينالوا السّعادة العظمى، فمن امتثل وأطاع فكيف يليق بكرمه تعذيبه"(3).

استفهام معناه التّقرير والنّفي، فهو يقرّر انتفاء عذاب المؤمنين الشّاكرين

السّرّ في نفي الكلام بالاستفهام دون الإخبار:

دلّ الاستفهام على النّفي في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ ولم يأت النّفي بصيغة الإخبار، فلم يقل: (إنّ الله لا يعذّبكم)؛ لأنّ النّفي بالاستفهام مفيد "للنّفي على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، أيْ أيُّ شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيَتَشَفَّى به من الغيظ، أم يُدرك به الثّأر، أم يستجلب به نفعًا، أم يستدفع به ضررًا؟ كما هو شأن الملوك وهو الغنيّ المتعالي عن أمثال ذلك"(4).

جاء النّفي بأسلوب الاستفهام للمبالغة

خصوص المخاطب وعمومه:

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ

الخطاب عامّ للنّاس، وقد يُخصُّ به المنافقون

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/245.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.

﴿وَءَامَنتُمۡۚ﴾ صالحًا أن يكون للأمّة جميعًا، أو خاصًّا بالمنافقين "قال الكلبي: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ يعني المنافقين. وقال ابن عباس في رواية عطاء: ما يريد الله بعذاب خلقه"[(1)].

بلاغة الالتفات:

وقد يُخَصُّ به المنافقون على الالتفات رفقًا بهم ودعوة لهم

إذا كان المراد بالخطاب في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ خصوص المنافقين، فإنّه يكون "عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ ارْتِفَاقًا بِهِمْ"[(2)]، فقد خاطبهم في الآية السابقة بصيغة الغائب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ما لحقه، فتوجيه الخطاب لهم بقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ يكون من الالتفات، رفقًا بهم ودعوة لهم.

دلالة تقديم الشكر على الإيمان:

الشّكر يؤدّي إلى الإيمان، لأنّ النّعمة تبعث على التّفكّر وشكرها، وهذا يقود إلى الإيمان

تقديم الشّكر على الإيمان، في قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، فإن قيل ما علّة ذلك؟ "قيل: لأنّه عَنَى به معرفة النّعمة التي يتوصّل بها إلى معرفة المنعم، ومعرفة المنعم هي الإيمان، فإذًا الشّكر على هذا الوجه مقدّم على الإيمان؛ لأنّه أرفع منه وهو لا ينفكُّ عن الإيمان، والإيمان قد ينفكُّ عنه"[(3)]، ولأنّ من له عقلٌ ينظر إلى ما عنده من النّعم العظيمة في خَلقه وخُلقه؛ فيشكر على ذلك؛ "فهذا الشّكر المجمل مُقَدَّمٌ عَلَى الْإِيمَانِ، فَلِهَذَا قَدَّمَهُ عَلَيْهِ فِي الذِّكْرِ"[(4)]. ومن دواعي تقديم الشكر على الإيمان "أنّ العبد ينظر إلى النّعم فيشكر عليها ثم يؤمن بالمنعم فكان الشّكر سببًا للإيمان: متقدِّمًا عليه"[(5)].

(1) الواحدي، البسيط: 7/169.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/245.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/209، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/252 - 253.
(5) ابن جزي، التسهيل: 1/214.

دلالة عطف ﴿وَءَامَنتُمۡۚ﴾ على ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾:

عطف الإيمان على الشّكر في قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، من باب "عطف خاصٍّ على عامٍّ، أو مسبَّب على سببٍ، لأن الشّكر سبب في الإيمان، فإنّ الإنسان إذا تذكّر نعم اللّه حملته على الإيمان"[1].

عطف الإيمان على الشّكر عطفَ العامّ على الخاصّ، والمسبَّب على السّبب

وفيه إشارة إلى منزلة الشكر؛ إذ إنَّه صَرْف القلب بالكليَّة إلى المنعم، واعتقاد بأنَّه وليُّ النعم ومُوليها، واعتراف باللسان، وعمل بالأركان، كما قال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

الإيجاز بحذف جواب الشّرط:

الحذف تعويلًا على دلالة السّياق على المحذوف

قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ شرط، ولكنّه حذف جوابه؛ حيثُ "يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ أَيْ: إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ فَمَا يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ"[2]، فلمّا دلّ عليه الكلام حذفه إيجازًا، والإيجاز معدن البلاغة ولبّها.

بلاغة التّذييل:

تذييل ببيان صفات الله تعالى إزاء شكر عباده وإيمانهم

ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾ تذييلًا "بما يدلّ على الثّواب والنّعيم لأهل الإيمان، ومن ينضمّ إليهم من التّائبين"[3]. وذكر الصّفة الأهم لمضمون الآية في التّذييل وهي أنّ شأن اللّه تعالى الدّائم أنّه مثيب الطّائع، عليم بموضع طاعته.

السّرّ في وصف الله تعالى بالشّكر، والشّكر من صفات العباد:

وصف الله تعالى بالشّكر للدّلالة على أنّه يقبل القليل من عباده، ويجازي عليه الأجر الكثير

وصف اللّه تعالى نفسه بأنه شاكر؛ لأنه يقبل القليل من عباده، ويجازي عليه الأجر الكثير، "فَالشُّكْرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هُوَ الرِّضَا

(1) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.

بِالْقَلِيلِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِضْعَافُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، وَالشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ: الطَّاعَةُ، وَمِنَ الله: الثواب"[1].

استعار الشكر للدّلالة على الثّواب:

عبّر عن ثوابه تعالى بالشّكر تشريفًا للطّاعة والمطيع، وبيان منّته وفضله

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ذكر الشّكر وأراد أنّه يثيب عباده، فسمّى " ثواب الطائعين شكرًا منه، وذلك إجلال للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنّة وفضل منه سبحانه فوق منته وفضله، وأنَّ هذا تعليم لنا لنشكر للمحسن"[2]، فالمراد من ذكر صفة الشّكر "فِي حَقِّهِ تَعَالَى كَوْنُهُ مُثِيبًا عَلَى الشُّكْرِ"[3].

إيثار التّعبير بصيغة الفاعل على المبالغة:

أعرض عن صيغة المبالغة ليبيّن أنّه يقبل أقلّ العمل تفضّلًا منه

عبّر تعالى عن شكره باسم الفاعل دون صيغة المبالغة، فلم يقل: (شكورًا)؛ " لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ يَتَقَبَّلُ وَلَوْ أَقَلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ، وَيُنَمِّيهِ"[4].

الجناس الاشتقاقيّ في: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾:

جمال التّعبير اللّفظيّ بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة

جاء في الآية لفظان من جذر واحد وهما قوله: ﴿شَكَرْتُمْ﴾، و﴿شَاكِرًا﴾ على طريقة الجناس الاشتقاقيّ، تأكيدًا لِمَعْنَى الشّكر بتكرار مادّته اللغوية.

دلالة وصفه ﷻ بالعلم:

دعوة للإخلاص لعلمه بالسّرائر

وصف نفسه بالعلم؛ لتربية المهابة، ولأخذ الحيطة في العمل؛ فهو سبحانه عليم بما تصنعون، يعلم جميع الجزئيَّات قبل الكليَّات؛ فهما عنده سواء؛ فليحذر المنافقون والذين يخالفون أمره بأنَّ العقاب بهم موصول، فإنّ الله تعالى عليم "بمن آمن وشكر فيجازيه، ومن كفر فيعاقبه"[5].

(1) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/716، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/253، والخازن، لباب التأويل: 1/441.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/115، والهرري، حدائق الروح والريحان: 6/431.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.

إيثار التّعبير بصفة ﴿عَلِيمًا﴾ بدلًا من (عالم):

آثر التّعبير بـ (عليم) للدّلالة على المبالغة في علمه سبحانه؛ فهو يعلم "جميع المعلومات التي مِنْ جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.

الجُزْءُ السَّادِسُ

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النِّساء: 148]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ بيانُ اللَّه تعالى في الآية السَّابقة أنَّ اللَّه - جَلَّ - لا يتشفَّى بعذابِ عبادِه، ولا يَنتفعُ بعقابِهم، بلِ العاصي لا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَه، والمطيعُ هو الَّذي ينتفعُ بطاعته؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتُقرِّرَ أنَّ اللَّه تعالى يبغُضُ من يجْهرُ بالسُّوءِ من الأقوال، فذلكَ يُنافي شكرَ اللَّه وشكرَ عبادِه، إلَّا من ظُلِم، فإنَّه يجوزُ أنْ يجهرَ بالسُّوءِ لمن ظلمَه، وجَهرَ بالسُّوءِ في حقِّه، دونَ أن يَزيدَ على مَظْلمته، أو يتعدَّى على غيرِ ظالمِه، فاللَّه ﷻ سميعٌ لكلِّ ما يمكنُ سماعُه من جَهْرٍ وغيرِه، عليمٌ بكلِّ ما يمكنُ أنْ يُعلَم، فسيُحاسبُ المُسيء، وينتصرُ للمظلوم[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْجَهْرَ﴾: الجِيمُ والهاءُ والرَّاء أصلٌ واحدٌ: ضدُّ السِّرِّ، وهو إعلان الشَّيء وكشفه، وإظهاره، وعلوُّه، وهو من قولهم: وجهٌ جهيرٌ، أي: ظاهرُ الوضاءة، ويقال: جهرتُ بالكلام أعلنت به، وأبديته، ورجلٌ جهير الصَّوت، أي: عاليه[2]، فهو "يُقال لظهور الشَّيء بإفراطِ حاسَّة البصر أو حاسَّة السَّمع"[3]، فالمراد بالجَهر في الآية: ما يبلغ إلى أسماع النَّاس[4]، برفع الصَّوت بالدُّعاء على الظَّالم أو ذكر ما فيه من السُّوء تظلُّمًا منه[5]، فهو "إعلان لَا خفاء فيه، ونشر هذا الكلام بين النَّاس، وإذاعته بين ربوعهم"[6].

2) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: هي من بابِ القُبْح، تقولُ: رجلٌ أَسْوَأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سَوْءَاءُ، أي:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/447 - 448.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جَهَرَ).

(3) الرّاغب، المفردات: (جهر).

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/6.

(5) البروسوي، روح البيان: 2/312.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1930.

قبيحةٌ، ولذلكَ سُمِّيتِ السيِّئةُ سيِّئة، وسُمِّيتِ النَّارُ سُوْءَى، لقُبحِ منظرِها[1]. والسُّوء في الآية: الفضائح، والقبائح[2]، أو هو الأمر المؤلم المذموم[3]، وكلُّ ما يمسُّ المجتمع، ويترتَّب عليه شرٌّ وأذى، فهو من السُّوء[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عبادَه بأنَّه لا يُحبُّ أن يَدْعُوَ أحدٌ على أحدٍ إلَّا أن يكون مظلومًا، فإنَّه قد أرْخَصَ له أنْ يَدعُوَ على مَنْ ظَلَمه، واللّه ﷻ يسمعُ أقوالَهم، ويعلمُ أحوالهم، فلْيحذَروا أنْ يتكلَّموا بما يُغضبُ ربَّهم، فيعاقبهم[5]، وترشد الآيةُ العِبَادَ إلى التَّخلُّق بأخلاق اللّه تعالى من الإغضاء عن الجاني والتعطُّف فيما بين الإخوان[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة النَّفي بـ(لا):

النَّهي عن الجَهْر بسوء القول حكمٌ مستمرٌّ، ومتجدِّد

تدخل (لا) على الفعل المضارع، فلا تقيِّده بزمن على الأرجح، أو أنَّها تخلِّصه للاستقبال، وقد تكون للاستمرار، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: 148][7]، وتخليصه للاستقبال دلالة استمراره حكمًا يحثُّ عليه، ويوجِّه إليه.

بلاغة الكناية في الآية:

وجه الكناية التَّعبيرُ عن السُّخطِ بعدمِ المحبَّةِ لقولِ السُّوء

قولُه تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عدمُ محبَّته تعالى لشيءٍ كنايةٌ عن سَخَطِه[8]، ودلالة السَّخط أقوى في الرَّفض، وأشدُّ في عدم الرِّضا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/113، وابن منظور، لسان العرب: (سَوَءَ).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/253.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1929.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/508، والسَّعدي، تفسير الكريم الرَّحمن، ص: 168.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 5/209.
(7) السامرائي، معاني النحو: 4/206.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

بيان معنى الباء:

الجهر يتعدَّى بما يتعدَّى به الرَّفع

الباءُ في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: للتَّعدية، مُتعلِّقةٌ بالجَهْر، وفي موضعِهما وجهان: أحدُهُما: نصبٌ، تقديرُه: لا يُحبُّ أنْ تجهرُوا بالسُّوء، والثَّاني: رفعٌ، تقديرُه: أن يُجهَرَ بالسُّوء؛ ولأنَّ معنى جهرَ: رفَعَ صَوته بِهِ؛ عُدِّيَ بما يتعدَّى به؛ لأَنَّهُ في مَعْنَاهُ[1].

دلالة ﴿مِنَ﴾ في الآية:

سوءُ القول عامٌّ يشملُ الإعلان عن كلِّ فعل فاحش

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: "بيانيَّة، وهي بيان لنوع السُّوء بأنَّه من القول، وذلك يشمل كلَّ إعلانٍ للأعمال القبيحة، والتَّرامي بها، فيشمل القذف والسِّباب وإعلان المعاصي والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها، ولا إقامة حقٍّ في إعلانها، فإنَّ ذلك كلَّه من سوء القول وفاحشه"[2].

التَّقييدُ بالجَهرِ بالسُّوء وبالقول:

دَلالةُ التَّقييد بالجَهْر وبالقول، الصِّلةُ بحدوثِ الضُّرِّ من عدمِه، وما يترتَّب عليه من أذى

ذكرَ بيانُ الله الجهرَ دونَ السِّرِّ؛ لأنَّ الجهرَ هو الَّذي يَبْلُغُ إلى أسماعِ النَّاس؛ لدلالته على علوِّ الصَّوت؛ إذْ ليس السِّرُّ بالقولِ في نَفْسِ النَّاطق ممَّا ينشأُ عنه ضُرٌّ.

وذكرَ التَّقييدَ بالقولِ لا بالفعل؛ لأنَّ قولَ السُّوء أضعفُ من فعلِه والقيامِ به في حقِّ النَّاس؛ ولذلكَ كان السُّوءُ بالفعلِ أشدَّ تحريمًا من غيرِه[3].

دَلالةُ الاسْتثناءِ في الآية:

قولُه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، في هذا الاسْتثناءِ قولان، أحدُهما: أنَّه متَّصل، والثَّاني: أنَّه مُنقطِع، وإذا قيلَ: بأنَّه مُتَّصل؛ فقيل: هو مستثنَى من (أحَد) المقدَّرِ الَّذي هو فاعلٌ للمصدر، فيجوزُ أنْ تكونَ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286 - 287.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1930.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/6.

أفادَ الاستثناءُ حصرَ الجهرِ بالسُّوءِ من القولِ بمَنْ ظُلِمَ

﴿مَن﴾ في محلِّ نصبٍ على أصلِ الاسْتثناء، أوْ رفع على البَدَلِ من (أحَد)، وهو المختار، ولو صُرِّحَ به؛ لقيل: لا يُحِبُّ اللّه أنْ يجهرَ أحدٌ بالسُّوءِ إلَّا المظلومُ رفعًا، أوِ المظلومَ نصبًا.

والوجه الثَّاني: أنَّه اسْتثناءٌ مُنقطِع، تقديرُه: لكنْ مَنْ ظُلِمَ؛ له أنْ ينتصِفَ من ظالِمِه بما يُوازي ظُلامتَه، فتكونُ ﴿مَن﴾ في محلِّ نصبٍ على الاسْتثناءِ المنقطِع[1]، وأيًّا كان؛ فإنَّ الاستثناءَ حصَرَ إباحة الجَهرِ والشِّكاية بالمظلوم.

وقُرِئَ: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾[2] بفتح الظَّاءِ واللَّام، على معنَى: لكنَّ الظَّالمَ اجْهروا له بالسُّوءِ من القول، ويكونُ موضعُه النَّصبَ فقط على الاسْتثناء، وهو وجهٌ حَسَن[3].

نكتة إظهار الاسم الأعظم:

في إظهار الاسم الأعظم ترغيبٌ، وترهيبٌ

إظهار اسمه الأعظم - جلَّ في علاه - في مواطن القدرة والتَّمكين من عادات القرآن، "ولمَّا كان القول ممَّا يُسمع، وكان من الظُّلم ما قد يخفى، قال مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾، أي: الذي له الإحاطة الكاملة"[4]، وسُبِق بـ﴿وَكَانَ﴾ إمعانًا في تحقُّقه، ووقوعه.

فاصلةُ الآيةِ ومفادُ ما أوحتْ به:

في الفاصلة تقريرُ الوصفين للهِ تعالى مع تحذيرِ الظَّالمين

في قولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ عطفٌ على ﴿لَّا يُحِبُّ﴾، وهو تَذْييلٌ مُقرِّرٌ؛ لما يُفيدُه الاسْتثناء، أي: إنَّ اللّه سميعٌ لجميعِ المسموعاتِ، فيندرجُ فيها كلامُ المظلوم والظَّالم، وعليمٌ بجميعِ المعلوماتِ الَّتي من جُملتِها حالُ المظلوم والظَّالم[5].

(1) العكبري، التبيان: 1/200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/134 - 135.
(2) وهي قراءة شاذَّة، ذكرتُها لإفادة المعنَى، ينظر: ابن جنّي، المحتسب: 1/203، وابن خالويه، مختصر في شواذّ القرآن، ص: 29- 30.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/126، وقال رحمه الله: "لا أعلمُ النَّحْويين ذكروه".
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 5/447.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

سرُّ تقديم العليم على السَّميع:

في التَّذييلِ، وتقديم العلم تحذيرٌ من سوء الظَّنِّ بالله

في هذا التَّذييلِ تحذيرٌ للظَّالمِ بأنَّ اللّه يسمعُ ما يصدُرُ منه، ويعلمُ به[1]، وذكرَ ﴿عَلِيمًا﴾ بعد ﴿سَمِيعًا﴾ لقصْدِ التَّعميم في العِلْم؛ تحذيرًا من أنْ يظنُّوا أنَّ اللّه غيرُ عالمٍ ببعضِ ما يصدُرُ منهم[2].

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المحبَّة، والرِّضا، والإرادة(3):

الحبُّ أبلغ الرِّضا، وأقصى درجاته، ويكون في مرتبة الغضب بغضًا لسوء القول

المحبَّة: أكثر من الرِّضا، والرِّضا: أكثر من الإرادة، فهذه كلُّها صفات للذَّات العليَّة مرتَّبة في القوَّة، فالإرادة: تتعلَّق بالخلق والتكوين، فما أراده اللّه تعالى يقع، وما لا يريده لا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع من أفعال الإنسان ما لَا يريده ربُّ العالمين، ولا يمكن أن يفعل الإنسان شيئًا لَا يريده العليم الخبير الَّذي لَا تخفى عليه الأنفس، وما تكنُّ الصُّدور، أمَّا الرِّضا؛ فمعناه بالنسبة للذَّات العليَّة أن يكون العمل أو القول محلَّ قبوله ﷻ والمجازاة عليه؛ ولذلك لا يُتصوَّر أن يفعل العباد ما يغضبون اللّه به ﷻ وقد جاءت في القرآن الكريم عبارات صريحة بأنَّ اللّه تعالى يغضب على عباده لأفعال فعلوها، وأنَّه تعالى لَا يرضى عن بعض أفعال عباده، كالكفر، والرِّضا: لَا يكون إلَّا لأعمال المتَّقين، وهو أعلى أنواع الثَّواب الَّذي يثيب اللّه تعالى به عباده؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

والحُبُّ: مرتبة فوق الرِّضا، أو هي أبلغ الرِّضا، وقد وعد اللّه تعالى أهل الإيمان الحقِّ الصَّادق بأنَّهم ينالون محبَّته، وهي أقصى درجات الرِّضا، ومع أنَّ المحبَّة من النَّاحية الإيجابيَّة أقصى درجات

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/838.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/7.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1929.

الرِّضا، هي من النَّاحية السَّلبيَّة تكون في مرتبة الغضب، فمعنى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾: أنَّ الله تعالى يبغض الجهر بالكلام الَّذي هو سوء في ذاته، ويسيء النَّاس، ويؤذي الفضيلة، فإنَّ ذلك إعلان سيِّئ الأعمال، وقبيح الأقوال.

الإفشاء، والإِظْهَار، والجَهْر، والكشف، والإعلان[1]:

الجهر مبالغة في إظهار الشَّيء وفشوِّه، وإعلاء الصَّوت

الإفشاء: كَثْرَة الْإِظْهَار، وَمِنْه أفشى الْقَوْم؛ إِذا كثر مَالهُم، ومنه يُقَال: فَشَا الخَيْرُ فِي الْقَوْم أَو الشَّرُّ؛ إِذا ظهر بِكَثْرَة، والإظهار: يسْتَعْمل فِي كلِّ شَيْء، والإفشاء لَا يَصحُّ إِلَّا فِي مَا لاتصحُّ فِيهِ الْكَثْرَة، وَلَا يَصحُّ فِي غير ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: هُوَ ظَاهِرَة الْمُرُوءَة، وَلَا تَقول: كثير الْمُرُوءَة.

والجَهْر: عُمُوم الْإِظْهَار وَالْمُبَالغَة فِيهِ، ألا ترى أَنَّك إِذا كشفت الْأَمر للرَّجل وَالرَّجلَيْن؛ قلتَ: أظهرتُه لَهما، وَلَا تَقولُ: جهرتُ بِهِ، إِلَّا إِذا أظهرته للْجَمَاعَة الْكَثِيرَة، فيزول الشَّكُّ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، أَي: عيَانًا لَا شكَّ مَعَه، وَأَصله: رفع الصَّوْت، يُقَال: جَهَرَ بِالْقِرَاءَة؛ إِذا رفع صَوته بهَا، وَفِي الْقُرْآن: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: 110]، أَي: بِقِرَاءَتِك فِي صَلَاتك، وَصَوت جهير: رفيع الصَّوْت.

والْكَشْفُ: مضمَّن بالزَّوال، وَلِهَذَا يُقَال لله ﷻ: كاشف الضُّرِّ، وَلم يجز فِي نقيضه: سَاتِر الضُّرِّ؛ لِأَنَّ نقيضه من السَّتْر لَيْسَ متضمِّنًا بالثَّبات، فيجري مجْرَاه فِي ثبات الضُّرِّ، كَمَا جرى هُوَ فِي زَوَال الضُّرِّ، والجهر غير مضمَّن بالزَّوال.

والإعلان: خلاف الكتمان، وَهُوَ إِظْهَار الْمَعْنى للنَّفس، وَلَا يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، والجهر يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، وَمِنْه: يقال: رجل

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286 - 287.

جهير وجهوريٌّ؛ إذا كَانَ رفيع الصَّوْت، وممَّا عُرِضَ: فإنَّ اختيار لفظ (الجهر) أنسب لسياق الآية بوصف المظلوم قد نفد صبره، فتراه يلجأ إلى رفع الصَّوت مبالغةً تناسب ما وقع عليه من أذى، ولا يناسب هذا المعنى: الإفشاءُ، ولا الكشف، ولا الإظهار، ولا الإعلان.

السُّوء والقُبْح:

الــسُّــوءُ قــريــن الأقوال، والقبح قرين الأفعال

السُّوء: المكروه، يُقالُ: ساءَه يَسوؤه سوءًا؛ إذا لقيَ منه مَكروهًا، وهو مأخوذٌ من أنَّه يسوءُ النَّفسَ بما قرَّبه لها، وأمَّا القَبيحُ؛ فقد تلتذُّ نفسُ صاحبِه به، كالزِّنا وشُربِ الخمرِ والغَصْب[1].

والقُبْحُ: بالضَّمِّ والفتحِ ضدُّ الحُسْن، وقبَّحَهُ اللّه: نَحَّاهُ عن الخَيْر، وأَقْبَحَ: أتَى بِقَبيح، واسْتقْبحَه: ضدُّ اسْتحسَنَه، وقَبَّحَ عليه فِعْلَهُ تقبيحًا: بَيَّنَ قُبْحَه[2]، وَضُحَ من بيانِ الفرقِ بين كلمتي (السُّوء) و (القَبيح): أنَّ الثَّانيةَ أوسعُ مَدلولًا من الأولى، وأنَّ (القَبيحَ) قد تتلذَّذُ النَّفْسُ به بخلافِ (السُّوء).

والبيانُ الإلهيُّ يحدِّثُنا عن أمرٍ خاصٍّ: وهو الجهرُ بالسُّوء من القول، وقد يجهرُ صاحبُ قولِ السُّوء به، وهو لا يجدُ لذَّةً به، كما في القَبيح، وكأنَّ القبيحَ يَنحدِرُ بمعناه للأفعالِ أكثرَ من الأقوال، والسُّوءَ يتوجَّه بمعناه للأقوالِ أكثرَ من الأفعال.

(1) العسكري، الفروق: 1/287.
(2) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قَبُحَ).

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النِّساء: 149]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لَمَّا كانت معاقد الخيرات على كثرتها منحصرة في قسمين: إيصال النَّفع إبداء وإخفاء، ودفع الضَّرر، فكان قد أشار ﷻ إلى العفو، وختم بصفتي السَّمع والعلم؛ قال مصرِّحًا بالنَّدب إلى العفو والإحسان، فكان نادبًا إليه مرَّتين: الأولى: بطريق الإشارة لأولي البصارة، والثَّانية: بطريق العبارة للرَّاغبين في التِّجارة"[1]، أي: بعدَ أنْ نَهَى عنِ الجَهرِ بقولِ السُّوء، ورخَّصَ للمظلومِ أنْ يجهرَ رادًّا ظُلامَتَه؛ ندَبَ هنا المُرَخَّصَ لهم إلى العَفْوِ وقولِ الخَيْرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُواْ﴾: بَدَا الشَّيءُ بُدُوًّا وبَدَاءً، أي: ظهَرَ بيِّنًا، قالَ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزُّمر: 48]، وكما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ أي: تُظهِروه[3].

2) ﴿تَعۡفُواْ﴾: العَفْوُ: القَصْدُ لِتناوُلِ الشَّيء، يُقالُ: عَفاهُ واعْتفاه، أي: قَصدَه مُتناولًا ما عندَه، وعَفَوْتُ عنه: قَصَدتُ إزالةَ ذَنْبه صارفًا عنه، فالعَفْوُ: هو التَّجافي عنِ الذَّنْب[4]، كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُوجِّهُ اللَّه تعالى عبادَه، ويُربِّيهم على خُلُق التَّسامح قائلًا لهم: إنْ تُظهِروا خيرًا، أو أَخْفيتُموهُ، أو عفوتُم عمَّن أساءَ إليكم؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يُقرِّبُكم عندَ اللَّه، ويُجزِلُ ثوابَكم لدَيْه، فإنَّ من صفاتِه ﷻ: أن يَعفُوَ عن عبادِه مع قُدرتِه على عقابِهم[5]، فالآية الكريمة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/448.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/7.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 113.
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 574.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509.

ترشدُ إلى أنَّ "معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صِدْقٍ مع الحَقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْقِ، والَّذي يتعلَّق مع الخَلْقِ محصورٌ في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النَّفع إليهم، وقوله: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ﴾ إشارةٌ إلى دفع الضَّرر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البرِّ"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّرقِّي في الخِطاب:

إظهارُ الإحسان لمن ظلمَ أعلى من إخفائه، والعفو عنه

في الآية الكريمة ترقٍّ في الخطاب بخصوص معاملة الظَّالم الَّذي يكون إبداءُ الخير إليه، وإظهارُهُ أعلى من إخفائه، ثم إخفاؤه أعلى من العفو عن السُّوء، فالإحسان العامُّ في الظَّاهر لمن ظلمك أعلى، ثم الإحسان إليه في السِّرِّ، ثم العفو عن الظُّلم الَّذي هو أنبلُ الخير[2]، فحثَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأحبِّ إليه، والأفضل عنده، والأدخل في باب الكرم: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾، أي: من قول أو غيره، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، أي: تفعلوه خفية ابتداء، أو في مقابلة سوء فعل إليكم؛ ولمَّا ذكر فعل الخير أتبعه نوعًا منه هو أفضله، فقال: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾ أي: فعل بكم[3].

دلالة العطفِ وتكراره:

أفادَ العطفُ التَّرغيبَ في إظهارِ الخيرِ وإخفائه على سواء

عطفَ بيانُ الله: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ على: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾؛ لزيادةِ التَّرغيبِ حتَّى لا يَظنَّ العبادُ أنَّ الثَّوابَ على إبْداءِ الخيرِ خاصَّة، كقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271][4]، فالضَّميرُ المنصوبُ في ﴿تُخۡفُوهُ﴾

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/254.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/448.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/7.

عائدٌ على ﴿خَيْرًا﴾، والمرادُ به أعمالُ البِرِّ كلُّها، ويمكنُ أنْ يعودَ ضميرُ ﴿تُخْفُوهُ﴾ على ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، أي: أو تُخْفوا السُّوء، ولكنَّ هذا العَوْدَ بعيد[1].

دلَّ عطفُ العَفْوِ عن السُّوءِ على ما قبلَه على بيانِ منزلةِ العفوِ العالية

عطفَ بيانُ اللّه قولَه تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ على إبداءِ الخيرِ وإخفائِه اعْتدادًا به وتنبيهًا على مَنْزلتِه، وأنَّ له مكانًا في بابِ الخيرِ وسيطًا، والدَّليلُ على أنَّ العفْوَ هو الغرضُ المقصودُ بذكرِ إبداءِ الخيرِ وإخفائِه قولُه تعالى في ذَيْلِ الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن الجانينَ مع قُدرتِه على الانْتقام، فعليكُم أنْ تقتدوا بسُنَّةِ اللّه العَفُوِّ القدير[2].

وجه المغايرة في عطف (العفو):

ما زادَ عبدٌ بعفوٍ إلَّا عِزًّا

غاير في حرف العطف(الواو)، فعطف (العفو) بـ (أو) مع دخوله في الخير بقسميه: الإظهار والخفاء؛ للاعتداد به، والإعلاء من شأنه، والتَّنبيه على منزلته، والحثِّ عليه بوصفه من الخير بمكان مرتفع[3].

التَّعبير عن الفاصلة بجملة جوابِ الشَّرط:

الاتِّصافُ بصفةِ العفوِ تخلُّقٌ بكمالاتِ صفةِ الباري

إيرادُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ في مَعْرِضِ جوابِ الشَّرطِ؛ يدلُّ على أنَّ العُمدةَ هو العفوُ معَ القُدرة، أي: كانَ مبالِغًا في العَفْوِ معَ كمالِ قُدرتِه على الانْتقام، فالعفوُ تخلُّقٌ بالكمال؛ لأنَّه من صفاتِ اللّه، وصفاتُ اللّه غايةُ الكمالات[4]، ويمكنُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ دليلَ جوابِ الشَّرط، وهو عِلَّةٌ له، وتقديرُ الجواب: يعفو عنكم عندَ القُدرةِ عليكم، كما أنَّكم فعلتُمُ الخيرَ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/138.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 3/387.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

جَهرًا وخُفيةً، وعَفوتُم عندَ المقدرةِ على الأخذِ بحقِّكم؛ لأنَّ المأذونَ فيه شرعًا يُعَدُّ مقدورًا للمأذون[1].

سرُّ الختام بصفتي العفو والقدرة:

الإنسان قرين الذَّنب لضعفه؛ فهو أولى بأن يتخلَّق بالعفو

لَمَّا كان تركُ العِقاب لا يُسمَّى عفوًا إلَّا إذا كان من قادرٍ؛ قال تعالى مذكِّرًا العبادَ بذنوبهم إليه وقدرته عليهم: ﴿قَدِيرًا﴾، أي: بالغ العفو عن كلِّ ما يريد العفو عنه من أفعال، والقدرة على كلِّ ما يريد، ومَنْ يريد، فالَّذي لا ينفكُّ عن ذنبٍ وعجزٍ أولى بالعفو طمعًا في عفو القادر عنه، وخوفًا من انتقامه منه، وتخلُّقًا بخلقه العظيم، والاقتداء بسنَّته[2]، وصيغةُ المبالغة من القُدْرة، وهي كلمة (قدير) هي الَّتي تدلُّ على إجزال المثوبة، وعلى التَّرغيب في العفو[3].

بيان المتشابه اللَّفظي:

اختيارُ كلِّ لفظ يناسب السِّياق والمعنى

قال تعالى هنا: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾، وفي الأحزاب: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ [الأحزاب: 54]، وذلك أنَّ آية النِّساء وردتْ بعد قوله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، فذكر أنَّ الله لا يحبُّ الجهر بالسُّوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ [النِّساء: 149] أي: إن تُظهروا خيرًا، هو عكس الجهر بالسُّوء، فالله سبحانه لا يُحبُّ السُّوء ولا الجَهْر به بخلاف الجَهْر بالخير.

وأمَّا في آية الأحزاب؛ فالسِّياق يتعلَّق بعلم الله بالأشياء الخافية والظَّاهرة، فقد قال قبلها: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: 51]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: 52]، وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤﴾ [الأحزاب: 54]، ومعنى الآية: إنَّه يستوي عنده السِّرُّ والجهر، فناسبَ أن يقول: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ [الأحزاب: 54]، لا أن يقول: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ [النِّساء: 149].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/7.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/449.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/6.

فضلًا عن ذلك؛ فإنَّ لفظة (شيء) ناسبت ما وقع قبلها وبعدها، فوضع كلَّ لفظة في مكانها المناسب لها، ويزادُ على ذلك أنَّ الجوَّ التَّعبيريَّ لكلِّ سورة في هاتين السُّورتين يقتضي وضعَ كلِّ لفظة من هاتين اللَّفظتين في موضعها، ذلك أنَّ كلمة (خير) تردَّدتْ في سورة النِّساء اثنتي عشرة مرَّة، ولم ترد في سورة الأحزاب إلَّا مرَّتين، وأنَّ كلمة (شيء) تردَّدتْ في سورة النِّساء اثنتي عشرة مرة، وتردَّدت في سورة الأحزاب ستَّ مرَّات، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللَّفظتين لكلِّ آية؛ فمن الواضح أنْ تختار كلمة (خير) لآية النِّساء، وكلمة (شيء) لآية الأحزاب، فاقتضى التَّعبير اختيار كلِّ لفظة من جهتين: جهة المعنى والسِّياق، وجهة اللَّفظ.

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

البُدُوّ والظُّهور:

الظُّهورُ: يكونُ بقصدٍ وبغيرِ قصد، تقولُ: اسْتتَرَ فُلان، ثمَّ ظَهَر، ويدلُّ هذا على قصدِه للظُّهور، ويُقالُ: ظهرَ أمرُ فُلان، وإن لم يقصدْ لذلك، فأمَّا قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرُّوم: 41]، فمعنَى ذلكَ: الحدوث، وكذلكَ قولُك: ظهرتْ في وجهِه حُمرة، أي: حدثتْ، ولم يَعْنِ أنَّها كانتْ فيه، فظهرتْ[1].

والبُدُوُّ: هو الظُّهورُ البيِّن[2]، أي: الَّذي لا يَعْتَريه أيُّ خَفاء، فهو كالشَّمسِ عندَ إشراقِها، ويُضافُ إليه أنَّه يكونُ بغيرِ قصد، فعندما تقولُ: بدا البرقُ، وبدا الصُّبحُ وبدا لي في الشَّيء؛ لأنَّكَ لم تَقصِدْ للبدوِّ[3]، ولمَّا كان الحديث عن شأن ظاهرٍ، ومخفيٍّ؛ فالبُدُوُّ أنسبُ له؛ لكونه ظهورًا بيِّنًا، مبالغًا فيه.

التَّدرُّجُ في التَّغاضي من الحَسَنِ إلى الأحْسنِ حكمةٌ جليلةٌ لتعامُلِ العبادِ فيما بينَهم

العَفْو والصَّفح:

العَفْوُ: تركُ عقوبةِ المُذْنب، والصَّفحُ: تركُ لومِه، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] تَرقِّيًا في الأمرِ بمكارمِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 344.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 113.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 344.

الأخلاقِ من الحَسَنِ إلى الأَحْسن، ومن الفَضْلِ إلى الأَفْضَل، والصَّفحُ باعتبارِه تركُ اللَّومِ والتَّثريب، فهو أَبْلَغُ من العَفْوِ، وقد يَعفُو الإنسانُ، ولا يَصْفَح[1].

والبيانُ الإلهيُّ يُحفِّزُ العبادَ على العَفْوِ عن السُّوء، كما قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾، وذلكَ بتركِ العقوبةِ فيما بينَهم بعدَ التَّجافي عن الذَّنبِ القائم، فإذا حصلَ ذلكَ الأَدْنَى؛ فحَسَن، ليُرجَى بعد ذلكَ الأَعْلى بالصَّفحِ، وهو الأَحْسن.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 362، والكفوي، الكليّات: 3/120، 183، 240.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النِّساء: 150 - 151]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا ندبَ بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقةِ إلى العفوِ وقولِ الخَيْر، وخَتَمها بصفتي العفوِ والقُدرة؛ شرعَ في بيانِ أحوالِ من لا يُعفَى عنه من أهلِ الكتابِ وخاصَّة اليهود، وبيانِ أنَّهم هُمُ الَّذين أضلُّوا المنافقينَ بما يُلقونَ إليهم من الشُّبَه، فبيَّنَ أنَّهم يستُرونَ ما عندَهم من العلم باللّه تعالى في كتابهم، وفَضحَ عقيدتَهمُ الباطلةَ في رُسُلِ اللّه، فهم يُكذِّبونَ ببعضِ الرُّسُل، ومنهم محمَّدٌ وعيسى - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - ويُصدِّقونَ ببعض، كإيمانِ اليهودِ بموسى وغيره - عليهما السلام - فيتَّخذونَ بذلكَ طريقًا إلى الكفر، ولذلكَ استحقُّوا أنْ يكونوا بهذا السَّبيل ومُقدِّماته من الكافرينَ الَّذين أعدَّ اللّه لهم يومَ القيامةِ العذابَ المُهين، ويَدخُلُ معهم في هذا الحكمِ الإلهيِّ المنافقونَ الَّذين هم على شاكلتِهم في حقيقة ما انطوتْ عليه قلوبُهم من الكفر(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفَرِّقُواْ﴾: الفَرْقُ يُقاربُ الفَلْقَ، لكنَّ الفَلْقَ: يُقالُ اعْتبارًا بالانْشقاق، والفَرْق: يُقالُ اعتبارًا بالانْفصال، قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، وقد جمعَهما قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء: 63]، والفريقُ: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخرين، قالَ تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشُّورى: 7]، وفَرَقْتُ بين الشَّيئَيْن: فصلتُ بينَهما، سواءٌ كان ذلكَ بفَصْلٍ يُدركه البَصَر، أم بفصْلٍ تُدركه البَصيرة، قالَ تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، والتَّفريقُ أصلُه للتَّكثير، ويُقالُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

ذلكَ في تَشْتيتِ الشَّمْلِ والكلمة، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: يُظهرونَ الإيمانَ باللّه، ويكفرونَ بالرُّسُلِ خلاف ما أمرَهم اللّه به[1].

2) ﴿سَبِيلًا﴾: السَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولَة، وجمعُه سُبُل، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرُف: 10]، والسَّبيلُ: اسْمُ جِنْسٍ إذا أُطْلِقَ؛ يختصُّ بما هو الحقُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزُّخرف: 37] يعني به: طريقَ الحقِّ.

ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كانَ أوْ شرًّا، فمن الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125]. ومن الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: 55][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طَريقًا ومَسْلَكًا لكفرِهم باللّه ورُسُله[3].

3) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أعدَّهُ لأمرِ كذا: هيَّأَه له، والاسْتعدَادُ للأمر: التَّهيُّؤُله، فإذا قيلَ: أَعْدَدْتُ هذا لك، أي: جعلتُه بحيثُ تعدُّه، وتتناولُه بحسَبِ حاجتِك إليه، قالَ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: 60]، ويأتي بمعناه قولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وبمعنى: هيَّأنا[4].

4) ﴿مُّهِينًا﴾: هو فَعيلٌ من المَهانَة، يُقالُ: مَهَنَ يَمْهَنُ مَهانَةً، ومَهَنْتُه مَهْنًا والماهِنُ: الخادمُ، وقد مَهَنَ القومَ يَمْهَنُهُم، أي: خَدَمَهم، وامْتهنْتُ الشَّيءَ: ابْتَذلتُه، ورجلٌ مَهين، أي: حَقير[5]، والهوانُ على وَجْهَيْن:

أحدُهما: تَذَلُّلُ الإنسانِ في نَفْسِه لما لا يلحقُ به غَضاضَة، فيُمدَحُ به، قالَ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثَّاني: أنْ يكونَ من جهةِ مُتسلِّطٍ مُستَخِفٍّ به، فَيُذَمُّ به، وعلى الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93][6]، وقولُه تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 632 - 633.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 395، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَبَلَ).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509، والرازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَدَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 550 - 551.
(5) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (مَهَنَ).
(6) الرَّاغب، المفردات، ص: 849.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يتوعَّدُ اللّه ﷻ الكافرينَ به وبرُسُله، من اليهودِ والنَّصارَى حيث فرَّقوا بين اللّه ورُسُله في الإيمان، فآمنوا ببعضِ الأنبياءِ، وكفروا ببعض، واتَّبَعوا ما أَلْفَوْا عليه آباءهم لا عن دليلٍ قادَهم إلى ذلك، فإنَّهم لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّدِ الهوَى والعصبيَّة، فاليهودُ - عليهم لعائنُ اللّه - آمنوا بالأنبياءِ إلَّا عيسى ومحمَّدًا - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - والنَّصارَى آمنوا بالأنبياءِ، وكفروا بخاتِمهم وأشرَفِهم محمَّدٍ ﷺ، والسَّامرةُ لا يؤمنون بنبيٍّ بعدَ يُوشعَ خليفة موسى بنِ عمران ﵇ والمجوسُ يُقالُ: إنَّهم كانوا يؤمنونَ بنبيٍّ لهم، يُقال له: زَرادِشْت، ثمَّ كفروا بِشَرعِه، فرُفِعَ من بين أظْهُرِهم، والمقصودُ أنَّ مَنْ كفرَ بنبيٍّ من الأنبياءِ؛ فقد كفرَ بسائرِ الأنبياء، فإنَّ الإيمانَ واجبٌ بكلِّ نبيٍّ بعثَه اللّه إلى أهلِ الأرض، فمَن ردَّ نُبُوَّتَهُ للحسَدِ أوِ العصبيَّةِ أوِ التَّشهِّي؛ تبيَّن أنَّ إيمانَه بمن آمنَ به من الأنبياءِ ليس إيمانًا شرعيًّا، إنَّما هو عن غَرَضٍ وهوَى، أو أرادَ أن يَخْلطَ بين ما أتَى به الأنبياءُ من ربِّهم، فيظهرَ بدينٍ بشريٍّ جديدٍ مُبتدَع، فهو أشدُّ بلاءً وأسوأُ مَسْلكًا، وأولئك هم جميعًا أهلُ كُفرٍ محقَّقٍ - لا محالةَ - بمنِ ادَّعَوُا الإيمانَ به، وكما استَهانوا بمن كفروا به، واتَّبعوا أهواءهم وأغراضًا خبيثةً بما اعْتقدوه، وفعلُوه، فإنَّ اللّه أعدَّ لهم يومَ القيامةِ عذابًا فيه غايةُ العذابِ والإهانةِ والإذْلال(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة الإخبار بالاسم الموصول:

> أفادَ الموصولُ بيانَ قُبحِ ما عليه أهلُ الكتابِ من الكفر

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ عبَّرَ عنِ الكافرينَ بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ الاسْم؛ لما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى وجهِ الخير، ومن شَناعةِ صَنيعِهم؛ ليُناسِبَ الإخبارَ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ الآيةِ الثَّانية، والمرادُ من ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ هنا: اليهودُ والنَّصارَى، والأَظْهرُ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ خاصَّة؛ لأنَّهم المختلِطونَ بالمسلمينَ والمنافقين، وكان كثيرٌ من المنافقين يهودًا(2).

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509 - 510.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/8.

سرُّ حذف خبر إنَّ:

في حـذف الخبر توسُّعٌ في تصوُّر شناعة المعاني

ذهب الرَّازيُّ إلى أنَّ "في خبر إنَّ قولين: أحدهما: أنَّه محذوف، كأنَّه قيل: جمعوا المخازي. والثَّاني: هو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والأوَّل أحسن؛ لوجهين: أحدهما: أنَّه أبلغ؛ لأنَّه إذا حذف الجواب؛ ذهب الوهم كلَّ مذهب من العيب، وإذا ذكر؛ بقي مقتصرًا على المذكور، والثَّاني: أنَّه رأس الآية، والأحسن ألَّا يكون الخبر منفصلًا عن المبتدأ"[1].

مجيءُ فعل الكُفْر بصيغةِ المُضارع:

تـجـدُّدُ الكفر مبعثُ الذَّمِّ

جاءتْ صيغةُ المضارعِ ﴿يَكْفُرُونَ﴾ هنا للدَّلالةِ على أنَّ أمرَ الكفرِ مُتجدِّدٌ فيهم ومُستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي، ثمَّ رجَعوا؛ لما كانوا أحْرياءَ بالذَّمِّ[2].

الإيمان مرغوبٌ فيه، مأمورٌ به، والـكـفرُ منهيٌّ عنه

عبَّر عن كفرهم هنا بلفظ المضارع، وعبَّر عن إيمان بعضهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النِّساء: 152] بلفظ الماضي؛ لأنَّ الإيمان مأمور مطلوب به، فجعل كالواقع المحقَّق، والكفر منهيٌّ عنه، فجُعل كأنَّه لم يقع[3].

علَّة التَّعبير عن الرُّسل بالجمع:

دلَّ جمعُ الرُّسلِ ذمَّ جـمـيـعِ الكافرينَ بهم

عبَّر عن الرُّسل بصيغةِ الجمع؛ لأنَّ اليهودَ كفروا بعيسى ومحمَّدٍ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - والنَّصارَى كفروا بمحمَّدٍ ﷺ، فجَمَعَ الرُّسُلَ باعْتبارِ مجموعِ الكفَّار، أو أرادَ بالجمعِ الاثْنَيْن، أو أرادَ بالإضافة معنَى: الجِنْس، فيَسْتوي فيه صيغةُ الإفرادِ والجمع؛ لأنَّ المقصودَ ذمُّ مَنْ هذه صفتُهم بدونِ تعيينِ فريق[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/255.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.

تكرارُ فعلِ الإرادةِ بصيغةِ المُضارع:

أُطلقتِ الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وأريدَ بها المحاولةُ؛ ليفرِّقوا بين اللّه ورُسُلِه، لكنَّهم لم يَبلغُوا ما أرادوا من ذلك لسببَيْن: الأوَّلُ: أنَّه أمرٌ صعبُ المنال، فاللّه تعالى حافظُ دينِه، ولنْ يُمكِّنَهم من تحقيقِ مُرادِهم.

والثَّاني: أنَّ اللّه تعالى قالَ: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾، فهم ما زالوا يُحاولون؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، ولو تحقَّق مُرادُهم، وأُنْجِزَتْ إرادتُهم؛ لَقالَ: (فرَّقُوا بينَ اللّه ورُسُلِه) بالماضي، وهذا لم يتمَّ لهم، ولن يتمَّ[1].

لـن يـفـلـحَ أهـل الـكـتـاب في الـتَّـفـريـقِ بـيـنَ الـلـهِ ورُسُـلِـه، مـهـمـا تـجـدَّدت محاولاتهم

بلاغةُ الاسْتعارةِ في الآية:

في زَعْمِ أهلِ الكتابِ أنَّهم مؤمنون باللّه، ولكنَّ نَفْيَ رسالةِ بعضِ أنبيائه مُنافٍ تمامَ المنافاةِ لزعمِهم ذاك، ولذلكَ جاءَ بيانُ اللّه تعالى على طريق الاسْتعارة التَّمثيليَّة؛ ليُشبِّه الأمرَ المُتخيَّلَ في نفوسِهم بما يُضمِرُه مُريدُ التَّفريقِ بين الأولياءِ والأحْباب، فهي تَشْبيهُ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ معقولة، والغرضُ من التَّشبيه: تَشْويشُ المُشَبَّه؛ إذْ قد عَلمَ النَّاسُ أنَّ التَّفرقةَ بين المتَّصلِينَ ذَميمَةٌ[2].

لأهـلِ الـكـتـابِ غـرضٌ خبيثٌ في التَّفريقِ بينَ اللهِ ورُسُلِه

دلالة المُتشابه اللَّفظي:

هذه الآيةُ الكريمةُ في معنَى الآياتِ الَّتي وردتْ في سورةِ البقرة، في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]، وقولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285]، وفي سورةِ آل عمران في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]، إلَّا أنَّ تلكَ الآياتِ: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين الرُّسُل، والآيةَ هذه: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين اللّه وبعضِ رُسُلِه،

الـتَّـفـريـقُ بين الرُّسُلِ مآلُهُ إلى التَّفريقِ بين اللهِ ورُسُلِه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، والَّذي حَدَا بنا لذكرِ التَّشابُهِ مع وجودِ هذا الفَرْقِ بين آيةِ سورة النِّساء، وآياتِ سورتي البقرةِ وآلِ عمران، هو أنَّ مآلَ الجميعِ واحد؛ لأنَّ التَّفريقَ بين الرُّسُلِ يَستلزِمُ التَّفريقَ بين اللّه وبعضِ رُسُلِه، والحكمَ بكفرِ الجميعِ كذلكَ، وهو واضحٌ لا مَحالة[1].

دلالة الضَّمير في ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾:

أفادَ الضَّمير معنَى العهدِ لا العُمُوم

في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أُضيفَ الجمعُ في: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ إلى الضَّمير (الهاء)؛ فأفادَ هنا العَهْدَ لا العُمُومَ بالقَرينة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ﴾[2].

سِرُّ عطْفِ الجُمَلِ:

أهلُ الكِتابِ مُستحقُّونَ لكلِّ وصفٍ مُضمَّنٍ في هذه الجُمَلِ على حِدَةٍ

عَطَفَ بيانُ اللّه تعالى الْجُمَلَ الثَّلاثة: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بالواوِ على جملةِ صلةِ (الَّذين) - وإنْ كانَ بعضُها سببًا لبعض - إشارةً إلى أنَّهم جديرونَ بالوصفِ بكُلٍّ منها بانْفرادِه، وأنَّ كلَّ خَصْلةٍ كافيةٌ في نِسْبةِ الكُفرِ إليهم، وقدَّمَ نتيجتَها، وخَتَمَ بالحُكْمِ بها على وجهٍ أَضْخَمَ، تَفْظيعًا لحالِهم[3].

نكتة إعادة لفظ الرُّسل:

في الإعادة دفعٌ لتوهُّمِ التَّفريق بين الله وجماعة الرُّسل

استعلمَ الرَّاغب عن ذلك وأجاب بما نصَّه: "إن قيل: لِمَ أعاد ذكر الرُّسل، ولم يقل: بين اللّه وبينهم، فيكون أوجز؟ قيل: لما عنى أنَّهم يفرِّقون بين اللّه ورسله وبعض رسله، وعنى بقوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلَّ رسله؛ لأنَّ كلَّ من كفر ببعضهم؛ كفر بكلِّهم، فلو لم يعد ذكرهم؛ لاقتضى أن يكون معناه: يفرِّقون بين اللّه وبين جماعة

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.

(3) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

الرُّسل، فإنَّ المضمر لا يفيد إلَّا ما يفيد مظهره، فأعاد ذكرهم؛ لمَّا كان الأوَّل عامًّا والثَّاني خاصًّا"[1].

وجه الاستئناف في جملة القول:

علَّة الاستئناف البيانيِّ التَّفريق بين الله ورسوله

ذهبَ ابن عاشور إلى أنَّ جملة: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ واقعةٌ في معنى الاستئناف البيانيِّ للتَّفريق بين اللّٰه ورسُلِه، ولكنَّها عُطِفتْ؛ لأنَّها شأنٌ خاصٌّ من شؤونهم؛ إذ مدلولها قولٌ من أقوالهم الشَّنيعة، ومدلولُ ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ هيئةٌ حاصلةٌ من كفرهم، وهو علَّة حسن العَطْف باعتبار المغايرة، ولو في جُملة واحدة، ولو فُصِلتْ؛ لكانَ صحيحًا[2].

نكتة التَّعبير بالتَّركيب ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

أهلُ الكتاب أتباعُ هوًى وسبيلِ عِوَجٍ عن الحقِّ

﴿بَيْنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بمحذوف؛ إذْ هو حالٌ من ﴿سَبِيلًا﴾، وأُشيرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو للمفرد، والمرادُ به البيْنِيَّة، أي: بين الكفرِ والإيمان[3]؛ رغبةً، وهوًى، وسبيلَ ميلٍ عن الحقِّ.

ويمكنُ أن يُرادَ به هنا معنَى: التَّثنية، أي: بينَهما، والأصلُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾: أنْ يقعَ بمعنَى المفردِ والتَّثنيةِ والجمعِ[4].

علَّةُ الإشارة للبعيد:

أفادتِ الإشارةُ للبعيد بيانَ بُعدِ أهلِ الكتابِ عنِ الحقِّ

أشارَ إلى البعيد في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ تعبيرًا عن بُعدِ الَّذين يُريدونَ تَلْفيقَ دينٍ جديدٍ بعيدٍ عن الإيمان الحقِّ باللّٰه ورُسُلِه؛ لكونهم أرادوا سبيلًا بين سَبيلَيْن، فأنتَجَ ذلك قولَه بالإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: البُعَداءُ البُغَضاء[5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/212.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.

(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/138 - 139.

(4) العكبري، التبيان: 1/200.

(5) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

علَّة الإخبار بالإشارة:

أفادَ الإخبارُ بالإشارةِ إلى أنَّ ما يَعقبها مُتحقِّقٌ بالحُكْمِ المُقرَّر لمن كانَ قبلَها

قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ - في وجهٍ - خبرُ (إنَّ)، والإشارةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى أصحابِ تلكَ الصِّلةِ الماضية، وموقعُ الإشارةِ هنا لقصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم لاسْتحضارِهم بتلكَ الأَوْصافِ أحْرياءُ بما سيُحكَمُ عليهم من الحُكْمِ المعاقِبِ لاسْمِ الإشارة؛ لكون "هؤلاء الَّذين قالوا ذلك القول، وجحدوا ذلك الجحود بسبب هذه الأقوال وتلك الأحوال كافرون كفرًا لا مجال للشَّكِّ فيه"[1].

وجوهُ إعراب ﴿حَقّٗاۚ﴾:

أفادت وجوهُ الإعرابِ تأكيدَ كُفرِ أهلِ الكتاب

في قولِه تعالى: ﴿حَقّٗاۚ﴾ أَوْجُهٌ عَديدَة:

أحدُها: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ قَبْلَه[2]، والثَّاني: أنَّه حالٌ من قولِه: ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: أولئكَ همُ الكافرونَ من غيرِ شكٍّ[3]، وهذا يُشبِهُ أنْ يكونَ تفسيرًا للمصدرِ المؤكَّد، والحقُّ هنا: ليس يُرادُ به ما يُقابلُ الباطل؛ بل المرادُ به أنَّه ثابتٌ لا محالةَ، وأنَّ كفرَهم مقطوعٌ به. والثَّالثُ: أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: الكافرون كفرًا حقًّا[4]، وفي الأحوال الثَّلاثة أثبتَ لفظ ﴿حَقّٗاۚ﴾ الكُفرَ لأهل الكتاب المتَّصفين بالأوصاف السَّابقة، بيد أنَّ في وجه المصدرية مزيدَ توكيدٍ لكفرهم.

بلاغة حشد المؤكِّدات على حكم الكفر:

تأكيدُ قَصْرِ الكُفْرِ بأهلِ الكتابِ وضُرَبائِهم

أكَّد ﷻ الحكمَ عليهم بالكفر بثلاثة مؤثِّرات، أوَّلها: الإتيان بكلمة ﴿هُمُ﴾ الدَّالَّة على تأكيد الحكم، وتأكيدِ قَصْرِ صِفَةِ الكُفْرِ على مَنْ تقدَّمَ ذكرُهم، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ مجازيٌّ[5]، وثانيها: بتعريف طرفي

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576، والعكبري، التبيان: 1/200.

(3) العكبري، التبيان: 1/200.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/139، وأبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.

(5) وهو القَصْرُ الَّذي ينزلُ فيه ما عدا المقصور عليه، وهو ما يكون القصرُ بالإضافة إليه منزلة المعدوم، ينظر: حسن عبد الرَّزَّاق، البلاغة الصَّافية، ص: 165.

الجملة إنعامًا في تشخيصهم، ومبالغة في تأكيد وصف الكفرِ فيهم، وإثباتًا بأنَّهم لَا يخرجون عن دائرة الكفار، ويسارعون فيها، ولا ينتقلون منها، فهم أوغل في الكفر من الَّذين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا رسالة، ومِثْلُ هذا القصرِ يدلُّ على كمالِ الموصوفِ في تلك الصِّفةِ المقصورة، والمبالغةِ في بيانِ أنَّ كفرَهُم قدِ اشْتمَلَ على أحوالٍ عديدةٍ من الكُفْر، وعلى سَفَالةٍ في الخُلُق، أو سَفَاهةٍ في الرَّأي بمجموعِ ما حُكيَ عنهم من تلكَ الصِّفات، فإنَّ كلَّ خَصْلةٍ منها إذا انْفرَدتْ؛ هي كُفْر، فكيف بها؛ إذا اجْتمعت[1]؟

كفرهم يقينيٌّ، وصفتُهم فيه الكمال

ثالثًا: التَّعبير بكلمة ﴿حَقّٗاۚ﴾، أي: أنَّ كفرهم ثابت قد ثبت وحقَّ حقًّا، فهم الكاملون في الكفر، وحقًّا تأكيد لمضمون الجملة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا ثابتًا يقينًا لَا شكَّ فيه[2]، وفي ذلك مبالغةٌ في إظهار كفرهم، وإبراز سوء أخلاقهم، وقُبح صفاتهم.

في التَّوكيد إزالة للتردُّد في عقولهم

وكان ذلك التَّوكيد حيث مظنَّة التردُّد في عقول الَّذين قالوا ذلك القول، فقد حسبوا بقولهم وإرادتهم أنَّهم يرضونه بذلك، فبيَّن اللّٰه سبحانه أنَّه لَا وسط بين الإيمان الكامل والكفر في شيء، وخصوصًا أنَّ جحود هؤلاء ببعض الرُّسل انبعث من حقد دفين، وتفريقهم بين الأجناس حتَّى في مقام الرِّسالة، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، وإنَّهم بهذا الكفر يحسدون النَّاس على ما آتاهم اللّٰه من فضله؛ إذ إنَّها كانت في اليهود وأشباههم الَّذين رفضوا النَّبيَّ محمَّدًا، لأنَّه عربيٌّ، وليس بعبريٍّ، وحيث كان التَّردُّد؛ وجبَ تأكيدُ الحقِّ، ليزول التَّردُّد، ويتَّبع التَّابع عن بيِّنة ويقين[3].

فائدةُ وضعِ المُظْهَرِ موْضِعَ المُضْمَر:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: (لهم)، وإنَّما وُضِعَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/11 - 12، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.

التَّــــذكــير بـحـكـم كـفـرِ أهـلِ الـكـتـاب، وذمِّـهـم، وبيان مصيرِهم

المُظهَرُ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ مكانَ المُضمَرِ ذمًّا لهم، وتذكيرًا لوصفِهم أو لجميعِ الكافرين، وهم داخلونَ في زُمرتِهم دُخولًا أَوَّليًّا[1]، ففي الإظهار عذابٌ مهينٌ تشملهم فيه الإهانةُ والمذلَّة والضِّعة[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفريق والتَّقسيم:

أهـلُ الـكـتـاب حـاولـوا قـطـعَ الصِّلة بين الله ورسوله

التّفريقُ: قَطْعُ الاتِّصالِ بين شيئَيْنِ أو أكثر لما عَرَفتَ، وذلك لا يَستدعي تقدُّمَ ما يتناول، والتَّقسيمُ: جعلُ الشَّيءِ أقسامًا، وذلكَ يَسْتدعي تقدُّمَ ما يتناولُ الأقسام، نحو: الكلمةُ: اسْمٌ، وفعلٌ، وحَرْف[3]، ويكونُ لكلِّ قسم ارْتباطٌ بما قبلَه وبما بعدَه، فالتَّفريقُ الَّذي يقْتضي قطعَ أيِّ اتِّصالٍ بين الأشياء، هو الَّذي ناسبَ سياقَ الآيةِ في بيانِ ما فعلَه أهلُ الكتاب من إيمانِهم ببعضِ الرُّسُلِ وتكذيبِهم ببعض، وبذلكم كفروا باللّٰه تعالى الَّذي أمرَ عبادَه بضرورةِ الإيمان بجميع الرُّسُل، وهي عقيدةُ المؤمنِ المسلم الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

السَّبيل والطَّريق والصِّراط:

السَّـبـيـل بما يـكـتـنـفـه من أسباب يحتمل الـصُّـعـوبـة والسُّهولة

الصِّراطُ: هو الطَّريقُ السَّهل، والطَّريقُ: لا يقتضي السُّهولة، والسَّبيلُ: اسْمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطَّريقُ، وعلى ما لا يقعُ عليه الطَّريق، تقولُ: سبيلُ اللّٰه، وطريقُ اللّٰه، وتقولُ: سَبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُك أنْ تفعلَ به، ويُرادُ به سبيلُ ما يَقصِدُه، فيُضافُ إلى القاصِد، ويُرادُ به القَصْدُ - وهو كالمحبَّةِ في بابِه - والطَّريقُ كالإرادة[4].

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/8.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 129، والكفوي، الكُليَّات: 2/21، 3/353.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313، والكفوي، الكلّيات: 3/36، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 145.

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ يُحدِّثُنا عن أهلِ الكتابِ الَّذين بإيمانِهم ببعضِ الرُّسُل وكُفرِهم ببعضٍ يتَّخذونَ ذلكَ سبيلًا، أي: ما يقصِدونَه هُمْ، وهو قَصْدٌ للكفرِ باللَّه، وهذا السَّبيلُ قد يكونُ سهلًا، وقد يكونُ صعبًا، بما يكتنفُه من الأسبابِ الموجبةِ للسُّهولةِ والصُّعوبة، وهذه المعاني تصدُقُ على كلمةِ ﴿سَبِيلًا﴾، ولذلكَ كانَ إيرادُها في سياقِ الآيةِ أنسبَ من كلمتي (الصِّراط) و(الطَّريق).

(أَعْتَدَ) و(هيَّأ):

الإعـدادُ يـوائِم بين تنـاوُلِ الأمر وتدبيره، وتحقُّقِ الحاجةِ إليه

الهَيْئَةُ: الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الشَّيء، محسوسةً كانت أو مَعقُولة، لكن في المحسوسِ أكثر، قالَ تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49][1]، ويحتمل معنى: الإصلاح، فهيَّأَهُ تَهْيِئَةً وتَهْيِيئًا: أَصْلَحَهُ[2].

أمَّا الإعدادُ للأمرِ؛ فجَعْلُه بحيثُ يكونُ تناوُلُه وترتيبُه وتدبيرُه بما يُلائمُ، ويُحقِّقُ الحاجةَ إليه، والنَّتيجةَ المَرْجُوَّةَ منه، وبهذا المعنَى: أعدّ اللَّه للكافرينَ العذابَ المُهينَ جزاءً لهم.

وهذا الإعدادُ هو بالمنظورِ البشريِّ، لا أنَّ اللَّه يحتاجُ لحصولِ شيءٍ بالاسْتعدادِ أو الإعْدادِ له، وإنَّما النَّتيجةُ والمصيرُ يُناسبُ ما قدَّمَه الكافرون لأنفُسِهم من التَّفريقِ بالإيمانِ بينَ اللَّه ورُسُله، وصناعتِهم لدينٍ جديدٍ مُلَفَّقٍ من اليهوديَّة، والنَّصرانيَّة، والبُوذيَّة، بعيدٍ كلَّ البُعدِ عن دينِ اللَّه الحقِّ، وهو الإسلام الَّذي قالَ اللَّه عنه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85].

فـي الاعـتـداد معنى الادِّخار

لفظ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، هو تعبيرٌ قرآنيٌّ اختصَّ القرآن به؛ لأنَّ اعتدَّ من العَتَاد، والتَّخريج اللَّفظي: هيَّأنا لهم عتادًا، وهو عذاب

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 850.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (هَيَأَ).

جهنَّم، وقد ذكر الرَّاغب أنَّ العَتَادَ: ادِّخار الشَّيء قبل الحاجة إليه كالإعداد؛ ليُلمحَ في المعنى: أنَّ هؤلاء الكافرين ادُّخِرَ لهم العذاب المذل جزاء استكبارهم(1).

في عذاب الكافرين إهانةٌ يستحقُّونها لصغر حالهم

المُهين والذَّليل:

المُهينُ: هو المستَضْعَفُ، وفي القرآن: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السَّجدة: 8]، وهو الضَّعيف، وهو فعيلٌ من المَهانَة، وهو كناية عن الضَّعفِ في مَهنته؛ لأنَّه يُقالُ: المَهينُ من المَهْنة، وهي العملُ والخِدْمَة(2)، والرَّجلُ المَهين، أي: الحَقير(3).

والذُّلُّ: ما كانَ عن قَهْر، ومتى كانَ من جهةِ الإنسانِ نفسه لنَفْسِه؛ فمَحْمود، قالَ تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، والذِّلُّ: ما كان بعدَ تَصَعُّب وشماسٍ من غيرِ قهر، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلًّا، ويقالُ: الذُّلُّ والقُلُّ، والذِّلَّةُ والقِلَّة، قالَ تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ [المعارج: 44](4).

والعذابُ المهينُ الَّذي أعدَّه الله للكافرين، فيه إهانةٌ لهم، وأيُّ إهانة؟ ولذلك أُطلقتْ كلمةُ المَهين على الرَّجُلِ الحَقير، وهو أَلْزَمُ بالكافرين من غيرِهم، وهو ما يناسبُ سياقَ الآيةِ الكريمة.

(1) الراغب، المفردات: (عتد)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (مَهَنَ).
(3) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (مَهَنَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 330، والفيروزآبادي، البصائر: 3/17.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النِّساء: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه ﷻ ما أعدَّ للَّذين يُريدونَ أنْ يُفرِّقوا بين اللّه ورُسُلِه، ويَبتدِعوا دينًا جديدًا ومَسلَكًا بعيدًا عن الحقِّ من العذابِ المُهين؛ بيَّنَ هنا في الآيةِ الكريمةِ ما أعدَّ لأَضْدادِهم من أهلِ طاعته الَّذين لم يُفرِّقوا في اعْتقادِهم بين أحدٍ من رُسُله، من الرُّتبِ العاليةِ والأجورِ العظيمة، والمغفرةِ التَّامَّةِ والرَّحمةِ الواسعة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤۡتِيهِمۡ﴾: الإتْيانُ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتْيانُ يُقالُ للمجيءِ بالذَّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبير، ويُقالُ في الخيرِ والشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعْراض.

والإيتاء: الإعطاءُ[2]، وخُصَّ دفعُ الصَّدقةِ في القرآن بالإيتاء، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: 73][3]، وقولِه تعالى هنا: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ أي: يُعطيهِم.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

أخبرَ اللّه تعالى في بيانِه الجليلِ أنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ، همُ الَّذين يُؤمنونَ بكلِّ كتابٍ أَنْزلَه اللّه، وبكلِّ نبيٍّ بعثَه اللّه، ثمَّ أخبرَ تعالى بأنَّه قد أعدَّ لهمُ الجزاءَ الجَزيلَ والثَّوابَ الجليلَ والعطاءَ الجميل، على ما آمنوا باللّه ورُسُلِه، وسَيغفرُ ذُنوبَهم، ويَرحمُهم بواسعِ رحمتِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452 - 453.
(2) الخليل، العين: (أَتو).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 60 - 61، وابن منظور، اللِّسان: (أَتَى).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/510.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ المُقابلةِ والإيماءِ:

أفادَ السِّياقُ مقابلةَ الكافرينَ بالمؤمنين، والثَّناءَ على مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتاب، ووعدَهم بالمغفرةِ والرَّحمة

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هو من عادةِ القرآنِ في مُقابلةِ المُسيئينَ بالمُحسنين، والنَّذارةِ بالبِشارة، وفي ذكرِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماءٌ إلى مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ كعبدِ اللّه بنِ سلام رضي الله عنه وخاصَّةً بعدَ ذكرِ ضلالِهم، ولِمَا اقتضاهُ تذييلُ الجُملةِ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: غفورًا لهم ما سَلَفَ من كُفْرِهم، رحيمًا بهم[1].

والقولُ في الإتيانِ بالموصولِ وباسْمِ الإشارةِ في هذه الجملةِ: كالقولِ في مُقابلِه، كما تقدَّمَ بيانُه في موضِعه.

علَّةُ دخولِ ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾:

دلَّ السِّياقُ عُمومَ (أَحَد) في إيمانِ المؤمنينَ بجميعِ الرُّسُل

كيفَ جازَ دُخولُ ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وهو يَقْتَضي شيئَيْنِ فَصاعِدًا؟ الجوابُ: هو أنَّ أحدًا عامٌّ في الواحدِ المذكَّرِ والمؤنَّثِ وتَثنيتِهما وجَمعِهما، فيُرادُ به العُموم، كما تقولُ: ما رأيتُ أحدًا فتَقصِدُ العُمومَ، فالمعنَى هنا: ولم يُفرِّقوا بين اثْنَيْنِ منهم أو بينَ جماعة، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32][2].

وكأنَّ هذا النَّظمَ اخْتِيرَ كذلكَ للمبالغةِ بأنْ لو أنَّ الواحدَ يمكنُ فيه التَّفرِقة، فكانَ الإيمانُ بالبعضِ دونَ البعضِ كفرًا[3].

سرُّ تكرارِ اسم الإشارة:

الجزاءُ من الله تعالى وحدَه، ولا فرقَ بين الأنبياء

تكرار ذكرهم بالإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾؛ للتوكيد بأنَّ الإذعان الكامل هو من غير استعلاء، وجحود، وحقد، وعدم التفرقة بين الأنبياء، وهووحده الَّذي جعل لهم ذلك الجزاء[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/12.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1940.

نكتة التَّعبير بـ(سوف):

أفادَ الاسْتقبالُ في (سوفَ) كمالَ التَّحقُّقِ والوُقوع

أفادَ قولُه تعالى: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: أنَّ إيتاءَ أجورِ المؤمنينَ كائنٌ لا محالة، وكاملٌ كما هو كمالُ إيمانِهم باللَّه ورُسُلِه، ودونَ تفريقٍ بين أيِّ رسولٍ، وهو وإنْ تأخَّرَ، فالغرضُ به توكيدُ الوعدِ وتَثبيتُه، لا كونُه متأخِّرًا[1]، وقد أتَى بيانُ اللَّه بالأداةِ الَّتي هي أكثرُ حروفًا وأشدُّ تَنْفيسًا؛ لأنَّ هذا السِّياقَ لأهلِ الإيمانِ المجرَّدِ الشَّاملِ لمن لم يكنْ له عمل؛ ولذا أضافَ الأجورَ إليهم، وختمَ بالمغفرة؛ لئلَّا يحصُلَ لهم بأسٌ، وإنْ طالَ المدَى[2]، فأكَّد اللَّه ﷻ الجزاء والثَّواب بالتَّعبير بسوف الدَّالَّة على تأكيد الفعل في الزَّمن المستقبل[3]، فالتَّصدير بسوف لتأكيد الوعدِ والدَّلالةِ على أنَّه كائنٌ - لا محالةَ - وإن تراخى[4].

سرُّ عدم وصف الإيمان بالحقِّ:

وصــف إيــمــان البشر بالكمال مظنَّة الاغترار

لم يقل تعالى في هؤلاء: (إنهم هم المؤمنون حقًّا)، كما قال في أولئك: إنَّهم هم الكافرون حقًّا؛ لئلَّا يتوهَّم متوهِّم أنَّ كمال الإيمان موجودٌ، وقد يتحقَّق، وإنْ لم يترتَّب عليه لازمه من الهدى والعمل الصَّالح، فيغترُّ بذلك، وقد وقع النَّاس في مثل هذا على كثرة ما ينافيه، ويردُّه من آيات القرآن، أمَّا المؤمنون حقًّا؛ فقد بيَّن اللَّه وصفهم في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: 2- 4][5].

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452 - 453.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1941.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/249.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/9.

للمؤمن الحقِّ مثوبةٌ تناسبُ علوَّ الدَّرجات

وههنا نكتةٌ بلاغيَّة في متشابه اللَّفظ الخاصِّ بتوفية الأجور بين آية الأنفال وآية النِّساء، ذكرها محمد رشيد رضا بقوله: "وتأمَّل الفرق بين الوعد في هذه الآية الأخيرة من هذه الآيات، والوعد في الآية التي نفسِّرها؛ تجده عظيمًا، فإنَّه تعالى أثبت لهؤلاء الذين هم المؤمنون حقًّا الدَّرجات العلا عند ربِّهم، والرِّزق الكريم، بلام الملك، جزاءً على ما أثبت لهم من أصل شجرة الإيمان وفروعها، وأمَّا أولئك الذين أثبت لهم الأصل فقط، وهو الإيمان باللّٰه ورسله بلا تفرقة بينهم، فإنَّما وعدهم بأنَّه يعطيهم أجورهم، أي: بحسب حالهم في العمل"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِيهِمۡ﴾ قراءتان[2]:

إنَّ الَّـذي يُـؤتي المؤمنينَ أجورَهم هو اللهُ وحدَه

الأولى: ﴿يُؤۡتِيهِمۡ﴾ بياءِ الغائب، والضَّميرُ عائدٌ إلى اسْمِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾. والثَّانيةُ: ﴿نُؤۡتِيهِمۡ﴾ بنونِ العَظَمة.

وفي كلتا القراءتَيْنِ تأكيدٌ بأنَّ الَّذي يتولَّى إيتاءَ الأُجورِ العظيمَةِ للمؤمنينَ بإيمانِهم باللّٰه وجميعِ رُسُلِه: هو اللّٰه - سبحانه - لا أحدَ سِواه، مع أنَّ الإيتاء بنون العظمة ﴿نُؤۡتِيهِمۡ﴾ مزيدُ تشريفٍ للمُعْطَينَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيْتاء والإعْطاء:

الإعطاءُ: هو اتِّصالُ الشَّيءِ إلى الآخذِ له، ألَا ترى أنَّكَ تُعطي زيدًا المالَ؛ ليَرُدَّه إلى عمرو، وتُعطيه؛ ليتَّجِرَ لكَ به، وهذا هو الأصلُ في الإعطاء[3]، والإعطاءُ لا يَقْتضِي إخراجَ المُعطي من الملك[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/9 - 10.
(2) الأولى: قراءة حفص عن عاصم، والثَّانية: قراءة الباقين من العشرة، ينظر: محمَّد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 102.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 83.

وأمَّا الإيتاءُ؛ فهو مجيءٌ بسهولة، وهو أوسعُ في دَلالاتِه من الإعطاء، وهو وإن كانَ قد خُصَّ بدفعِ الصَّدقةِ في القرآن[1]، فهو من هذا الوجهِ تمليكٌ للمُعْطَى، فإنَّ اللّٰه تعالى يؤتي عبادَه المؤمنين به وبجميعِ رُسُلِه أجرَهم بسهولةٍ في اعْتقادٍ يؤجَرونَ عليه تمليكًا منه تعالى لهم فضلًا منه وإحسانًا، وبذلك يكونُ الفعلُ (يُؤتيهِم) أوْفى بالسِّياقِ من الفعلِ (يُعطيهِم).

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 60 - 61.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النِّساء: 153 - 154]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ كمالَ إيمانِ المؤمنينَ باللّه برُسُلِ اللّه قاطبةً، وما أعدَّه لهم من الرُّتَبِ العاليةِ والأجورِ العظيمة؛ عادَ بيانُ اللّه هنا في هاتيْنِ الآيتيْنِ مُندِّدًا بأهلِ الكتابِ الَّذين فرَّقوا بينَ اللّه ورُسُلِه، ولم يؤمنوا بجميعِ الرُّسُل، مُسْتعرضًا على وجهِ الخصوصِ مَطالبَ اليهودِ العَجيبةِ واقْتراحاتِهمُ المعبِّرةَ عن غايةِ سُوءِ أدبِهم مع اللّه ﷻ، سواء منها ما طالبوا به رسولَ اللّه محمَّدٍ ﷺ من إنزالِ كتابٍ من السَّماء، أمْ بما سبقَ منهم بسؤالِ نبيِّهم موسى عليه السلام بأنْ يُريَهمُ اللّه عَيانًا من غير سِتْرٍ ولا حِجاب، وبكفرِهم باتِّخاذِهِمُ العجلَ إلهًا لهم من دونِ اللّه، وما حلَّ بهم من عذابٍ - بسببِ طُغيانهم - بإهلاكِهم بالصَّاعقة، ثمَّ عَفْوِ اللّه عنهم، وبرفعِ اللّه لجبلِ الطُّورِ فوقَهم حين امْتَنعوا من الالْتزامِ بأحكامِ التَّوراة، وأُمِروا بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ ساجدينَ أذلَّاءَ للّه سبحانه وتعالى، وألَّا يَعتدُوا في يومِ السَّبتِ بالصَّيد فيه، وأخذِ اللّه الميثاقَ الغليظَ المؤكَّدَ عليهم في ذلكَ كلِّه.

وفي ذلك كلِّه تسليةٌ لرسولِ اللّه ﷺ في أنَّ عادةَ اليهودِ التَّعنُّت، ودَيْدَنَهُم الكفر، وأنَّهم أغْرَقُ النَّاسِ في غِلَظِ الأكبادِ وجَلافةِ الطِّبائع، بدءًا بأسلافِهم وانتهاءً بهم وبمن يخلُفُهم إلى يومِ القيامة[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/454.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصَّاعِقةُ والصَّاقِعةُ يَتقاربان، وهما الهَدَّةُ الكبيرة، إلَّا أنَّ الصَّقْعَ يُقالُ في الأجسامِ الأرضيَّة، والصَّعقَ في الأجسام العُلويَّة، قالَ بعضُ أهلِ اللُّغة: الصَّاعقةُ على ثلاثةِ أَوْجُه: الأوَّلُ: المَوتُ: كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾. والثَّاني: العَذابُ: كقولِه تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فُصِّلت: 13]. والثَّالثُ: النَّار: كقولِه سُبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرَّعد: 13].

وما ذُكر فهو أشياءُ حاصلةٌ من الصَّاعقة، فإنَّ الصَّاعقةَ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ، ثمَّ يكونُ منها نارٌ فقط، أو عذاب، أو مَوْت، وهي في ذاتِها شيءٌ واحد، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها، ويُقالُ: صَعِقَ الرَّجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا: غُشيَ عليه(1).

2) ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: الأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وذلكَ تارةً بالتَّناوُل، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يُوسف: 79]، وتارةً بالقَهْر، كقولِه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

والاتِّخاذُ: افْتعالٌ من الأَخْذِ إلَّا أنَّه أُدْغِمَ بعدَ تَلْيينِ الهمزةِ وإبدالِ التَّاء، ويُعدَّى إلى مفعولَيْن، ويَجري مَجْرى الجَعْل، وقولُه تعالى في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: جَعلُوه إلهًا، فعبدُوه من دونِ اللهِ الأَحَدِ ﷻ.

3) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: السَّلاطَةُ: التَمكُّنُ من القَهْر، يُقالُ: سَلَّطْتُهُ، فَتَسَلَّط، قالَ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: 6]، ومنهُ سُمِّيَ السُّلطانُ، والسُّلطانُ يُقالُ في السَّلاطَة، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: 33]، وسُمِّيتِ الحُجَّةُ: سُلْطانًا، قالَ تعالى – كما في الآية الَّتي معنا – : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: حُجَّةً بَيِّنةً واضحةً ظاهِرةً(2).

4) ﴿لَا تَعْدُواْ﴾: العَدْو: التَّجاوزُ ومنافاةُ الالْتئام، والاعْتداءُ: مُجاوزَةُ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النِّساء: 14]، ومنه قولُه تعالى في الآيةِ الَّتي

---

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 484 - 485، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (صَعَقَ).

(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 420، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَلَطَ).

معنا: ﴿لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، أي: لا تَعتَدُوا، وذلكَ بأَخْذِهمُ الحيتانَ على جهةِ الاسْتحلال[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يُخْبِرُنا اللّه تعالى بأنَّ اليهود، سَألُوا رسولَ اللّه ﷺ أنْ يَرْقَى إلى السَّماءِ، وهُم يَرَوْنَه، فيُنَزِّلُ عليهم كتابًا مكتوبًا فيما يدَّعيه يدُلُّ على صدْقِه دفعةً واحدةً، كما سألوا من قبلُ موسى عليه السلام سؤالًا أكبرَ من هذا السُّؤال، فقالوا: يا موسى أرِنا اللّه عَيانًا، فأخذتْهمُ الصَّاعقةُ بسببِ جَراءتِهم على اللّه، وسوءِ أدبِهم معه سبحانه وتعالى، ثمَّ صَنَعُوا عِجْلًا بيدِ أشْقاهمُ السَّامريِّ - من بعدِ ما جاءتْهمُ المعجزاتُ الباهراتُ الواضحات - وعَبدوهُ من دونِ اللّه، ثمَّ عفا اللّه عنهم، ولم يَسْتأصلْهم، وقد آتَى اللّه - جل جلاله - نبيَّه موسى حُجَّةً بيِّنة.

ورفعَ اللّه فوقَهم جبلَ الطُّورِ لَمَّا لم يلتزموا أحكامَ التَّوراة بعدَ أخذِ العهْدِ عليهم بالْتزامِها، وأمرَهُمُ اللّه أنْ يدخُلوا بيتَ المقدسِ ساجدينَ للّه، ولا يَظلِمُوا أنْفُسَهم باصْطيادِهمُ الحيتانَ في يومِ السَّبت، وأخذَ اللّه عليهمُ العهدَ الموثَّقَ الأكيدَ في ذلكَ كلِّه في التَّوراة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أفـادتْ صيغةُ المضـارعِ التَّعجيبَ من تعنُّتِ اليهودِ في كُفرِهم وسوءِ أدبِهم

نكتة التَّعبير عن السُّؤال بالمضارع:

جاءتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لبيانِ عِلَّتَيْن من عِلَلِ اليهودِ الكثيرةِ والقَبيحة، أوَّلُهما: اسْتحضارُ حالتِهمُ العجيبةِ في هذا السُّؤالِ الَّذي طَرحوه أمامَ رسولِ اللّه ﷺ،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 553 - 554، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَا).

(2) وردَ أنَّ كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازر قالا لرسولِ الله ﷺ: إن كنت نبيًّا صادقًا فأتِنا بكتابٍ جملةً من السَّماء، كما أتى به موسى، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 6/6، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1103، والواحدي، أسباب النزول، ص: 189.

حتَّى كأنَّ السَّامعَ أو القارئَ يراهم وهم يَسألون، كقولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38]، وقولِه: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ [الصَّافَّات: 12]. وثانيهما: للدَّلالةِ على تكرارِ السُّؤال وتجدُّدِه مَرَّةً بعدَ أُخْرَى بأنْ يكونوا ألَحُّوا في هذا السُّؤالِ لقصدِ الإعْنات.

والمقصودُ على كلا الاحْتمالَيْنِ: التَّعجيبُ من هذا السُّؤال، ولذلكَ قالَ بعدَه: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾[1].

دلالة الفاء في الجواب:

الـسَّــؤال من الـتَّـكـبُّر لا من طلـب الـحـقّ، وذلـــــك مـن عاداتهم

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ في هذه الفاءِ قولان، أحدُهما: أنَّها جوابٌ لشرطٍ مُقدَّرٍ، معناه: إنِ اسْتكبرتَ ما سألوه منك؛ فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[2].

ويمكنُ أنْ يكونَ تعليلًا للجواب، أي: فلا تُبالِ بسؤالِهم وتَشْطيطِهم، فإنَّها عادتُهم فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[3].

علّة نسبة السُّؤال إلى الحاضرين:

أبناءُ اليهود في كـلِّ عـهـدٍ على آثــار آبـائـهـم مقتدون

وإنَّما أُسنِدَ السُّؤالُ إليهم، وإنْ وجدَ من آبائهم في أيَّامِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم النُّقباءُ السَّبعون؛ لأنَّهم كانوا على مذهبِهم وراضينَ بسؤالِهم لهم ومُضاهينَ لهم في التَّعنُّت، ولهم في ذلكَ عِرْقٌ راسِخٌ[4]، و﴿أَكۡبَرَ﴾: صفةٌ لمحذوف، أي: سؤالًا أكبرَ من ذلك.

دلالةُ الجُملة التَّفسيريَّة، والصِّفة:

أفـــادَ سـيـاقُ الجُملةِ خُطورةَ سـؤالِ اليـهـودِ ولاســيَّـــمـــا مُجاهرتهم به

قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ هذه الجملةُ مُفسِّرةٌ لِكِبَرِ السُّؤالِ وعَظَمتِه.

و﴿جَهۡرَةٗ﴾: هي من صفةِ القَوْلِ أوِ السُّؤال، أو من صفةِ السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مُجاهِرين، فتكونُ في محلِّ نصبٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/13.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/577.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/131.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/806.

على الحالِ من المرفوعِ في ﴿أَرِنَا﴾، أي: حالَ كونِكَ مُجاهرًا لنا في رؤيتِه غيرَ مُخْفٍ رؤيتَه، أوْ على المصدر[1].

نُكتةُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

اتِّخاذ اليهود العجلَ إلهًا أعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ عُطِفتْ به جملةُ: اتِّخاذِهمُ العجْل، المفيدُ في عَطْفِه معنَى التَّراخي الرُّتَبيِّ، فإنَّ اتِّخاذَهمُ العجلَ إلهًا أَعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه، ومع ذلك عفَا اللّه عنهم، وآتَى موسى سُلطانًا مبينًا، أي: حُجَّةً واضحةً عليهم في تمرُّدِهم[2].

في الاتِّخاذ بيانٌ لكمال جهالتهم، وجحدهم نعم ربِّهم

وفيه بيانُ كمال جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم، وجحدهم نِعَمَ ربِّهم، فإنَّهم ما اكتفوا بعد نزول التَّوراة عليهم بطلب الرُّؤية جهرة، بل ضمُّوا إليه عبادة العجل، وذلك يدلُّ على زيغهم، وغاية بعدهم عن طلب الحقِّ والدِّين[3].

سرُّ التَّعبير بالظَّرف (فوق):

رَفْعُ الجبلِ حِسًّا فوقَ اليهودِ تخويفٌ لنَقضِهمُ العَهْدَ مع الله

يجوزُ أنْ يكونَ: ﴿فَوۡقَهُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ ظرفًا لـ ﴿وَرَفَعۡنَا﴾، وأنْ يكونَ حالًا من: ﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾.

و﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾: في موضعِ نصبٍ مُتعلَّقٍ بـ ﴿وَرَفَعۡنَا﴾، تقديرُه: بِنَقْضِ ميثاقِهم، والباءُ في ﴿بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ للسَّببيَّة، والمعنَى كاملًا: ورفَعْنا فوقَهمُ الجبلَ؛ تخويفًا لهم وتحذيرًا بسببِ نَقْضِهمُ الميثاق[4].

العطفُ والحال، وأثرُهما في تجليةِ المعنَى:

أفادَ العطفُ والحالُ بيانَ أمرِ اللهِ لليهود بدخولِ بابِ بيتِ المقدسِ في حالةِ سُجودٍ وذُلٍّ للهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿وَرَفَعۡنَا﴾، وقولُه: ﴿سُجَّدٗا﴾ حال، أي: ادْخلوا البابَ حالَ كونِكم ساجِدين[5].

(1) العكبري، التبيان: 1/200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/140.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/15.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/257.
(4) العكبري، التبيان: 1/200.
(5) العكبري، التبيان: 1/200.

التَّعبير عن الدُّخول بالأمر:

في الأمر بدخول باب المدينة مطأطئي الرُّؤوس بهيئة السَّاجدين أمارة الخضوع حِسًّا، وهو دليل على الخضوع والإذعان لأوامر الله تعالى، وفيه تصريح بالطَّاعة المطلقة الَّذي يتضمَّنه الأمر بالدُّخول سجَّدًا مطأطئي الرُّؤوس خاضعين قد ذهب عنَّا الكبرياء[1].

الطَّاعة المطلقة، والإذعان لأمر الله واجبة على المؤمن

نكتة تكرار فعل القول:

وتكرَّر قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾؛ لبيان تأكيد الأمر، ونسبته إليه[2] سبحانه وتعالى.

القول لله تعالى مؤكَّدًا

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قولُه تعالى: ﴿لَا تَعۡدُواْ﴾: فيه ثلاثُ قراءات[3]:

الأُولى: ﴿لَا تَعَدُّواْ﴾ بفتح العَيْن وتشديدِ الدَّالِ المضمومة، أصلُه: لا تَعْتَدُوا، والاعْتداءُ افْتعالٌ من العَدْو، يُقالُ: اعْتدَى على فُلان، أي: تجاوزَ حدّ الحقِّ معه، فلمَّا كانتِ التَّاءُ قريبةً من مَخْرج الدَّال، ووقعتْ مُتحرِّكَةً، وقبلَها ساكن؛ تهيَّأ إدْغامُها، فَنُقِلَتْ حركتُها إلى العَيْنِ السَّاكنةِ قبلَها، وأُدغِمَتْ في الدَّال إدْغامًا لقصدِ التَّخفيف، ولذلكَ جازَ في كلامِ العربِ إظهارُها، فقالوا: تعتَدُوا وتَعَدُّوا؛ لأنَّها وقعتْ قبلَ الدَّال، فكانتْ غيرَ مجذوبةٍ إلى مَخْرجه، ولو وقعتْ بعد الدَّالِ؛ لوجَبَ إدْغامُها في نحوِ أَدَّان.

أفادتِ القراءاتُ القرآنيَّةُ اعْتداءَ اليهودِ في تحايُلهم في الصَّيدِ يومَ السَّبت

والثَّانيةُ: ﴿لَا تَعۡدُّواْ﴾ بسكونِ العَيْن وتشديدِ الدَّال.

والثَّالثةُ: ﴿لَا تَعۡدُواْ﴾ بسكون العَيْنِ وتخفيفِ الدَّالِ، مضارعٌ مجزومٌ من العَدْو، وهو العُدْوَان[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(3) الأولى قراءةُ وَرْش عن نافع، والثَّانيةُ قراءُ قالون، وأبو جعفر، ولقالون أيضًا اخْتلاسُ فتحةِ العين مع تشديد الدَّال، والثَّالثةُ قراءة الباقين من العشرة، ينظر: محمَّد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 102.

(4) العكبريّ، التبيان، ص: 200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/141، وابن عاشور، التَّحريرُ والتّنوير: 6/16، ويرى العكبريّ، والسَّمينُ أنَّ القراءة الثَّانية ضعيفة، لأنَّه جمع بين ساكنَيْن على غيرِ حدِّهما، وليس الثَّاني حرفَ مدٍّ، وهو ما لا يراه النَّحْويُّون، ولكنَّ تَضعيف القراءة عند النَّحْويين أو غيرهم لا يُعوَّلُ عليه، خاصَّةً إذا كانت القراءة متواترة، لأنَّ القراءة سُنَّةٌ مُتَّبَعة، فهي حاكمةٌ لا محكومة.

علَّة إضافة الأخذ إلى الذَّات العليَّة:

اللـه يـتـولَّى أمرَ عباده وجزاءهم

وأضاف ﷻ الأخذ إلى ذاته العليَّة في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ "تقوية له، وتأكيدًا، فإنَّ ذا الجلال والإكرام العليم الخبير هو الَّذي أخذه، وهو الَّذي يتولَّى أمرهم؛ إن نكثوا في أيمانهم، وأنَّه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر"(1).

سرُّ تقديم شِبهِ الجُملة:

في التَّقديم قصرُ الميثاقِ عليهم

في تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُم﴾ على ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ قَصْرٌ على أَخْذِ الميثاقِ من اليهود لا من غيرِهم، وفيه تأكيدٌ على حصولِه.

بلاغة الكنايةِ:

أفـادتِ الكـنـايةُ قوَّةَ العهدِ الَّذي أخـذَهُ اللـهُ على اليهود، ومن ثَمَّ نَقْضهم له

المرادُ بالميثاقِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾: العَهْد، وَوَصْفُه بالغَليظ، أي: القَويُّ، والغِلَظُ من صفاتِ الأجسام، فاسْتُعيرَ لقوَّةِ المعنَى، وكُنِّيَ به عن تَوَثُّقِ العهد؛ لأنَّ الغِلَظَ يسْتلزمُ القُوَّة، والمرادُ جِنْسُ الميثاقِ الصَّادقِ بالعهودِ الكثيرةِ الَّتي أُخذَتْ عليهم، والمقصودُ من هذا البيانِ إظهارُ تَأَصُّلِهم في اللَّجاجِ والعِنادِ من عَهْدِ أنبيائهم؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ على ما لَقِيَ منهم، وتمهيدًا لقولِه القادمِ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ [النِّساء: 155](2).

في غِـلَـظِ الميثاق فطمُ نفوسِهم عن الشَّهوات

وغلَّظ الميثاق، وشدَّد في موضوعه؛ لكونه أمرهم بالطَّاعة المطلقة، وكلَّفهم تكليفات شديدة، لإفراطهم في الفساد، فكان السَّبيلُ لفطْم نفوسهم عن الشَّهوات، وتربيتها على الضَّبط والعمل الصَّالح أن ينصَّ على تحريم أمور كثيرة(3).

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/16.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّاعقة والعَذاب والنَّار والمُوَت:

الصَّاعقةُ مرادةٌ في الآية بوصفها سببًا لأصناف العذاب الأخرى

ذكرَ البيانُ الإلهيُّ الصَّاعقَةَ، ولم يذكرْ أيًّا من المفرداتِ السَّابقة، وهي وإن كانتْ تحُلُّ محلَّها، لكنَّ سياقَ النَّصِّ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ أرادَ أنْ يذكرَ المُؤثِّرَ لا الأثَر، والسَّببَ لا المسبَّب، فالموتُ والعذابُ والنَّارُ هي تأثيراتٌ للصَّاعقة[1]، ويمكنُ أنْ تحصُلَ جميعُها مع بعضِها، فتُصيبُ الإنسانَ النَّارُ المُحرقةُ الَّتي تُسبِّبُ العذابَ ثمَّ الموت، أوْ تحدُثُ كلُّ واحدةٍ مُنفردَة، فالسِّياقُ ذكرَ الأساسَ وهو الصَّاعقةُ، وهي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ الَّذي يكونُ منها النَّارُ أوِ العذابُ أوِ الموتُ أوْ جميعُها مُتلاحقةً - كما تقدَّم - ليُصيبَ القلوبَ ذلكَ الخوفُ الهالِع، والجَزَعُ الخالِع، لما أنَّ اليهودَ طَغَوْا في ظُلمِهم، وسَدَرُوا في غَيِّهم، وتكبَّروا وتعنَّتوا، فلم يَرْعَوُوا، ولم يَتوبُوا.

(اتَّخذ) و(أَخَذ) و(عَبَد):

اليهودُ افْتعَلوا أخْـذَ الـعِـجْـلِ لـلـعـبـادة، ولـم يعبدُوه مباشرةً

الاتِّخاذُ: أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرُّ فيه، مِثْل: الدَّارِ يتَّخذُها مَسْكنًا، والدَّابَّةُ يتَّخذُها قَعْدَة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميةَ والحُكْم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي: سمَّوْها بذلك، وحكَموا لها به، وكما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾.

الأخذُ: مصدرُ أخذتُ بيدي، ويُستعَار، فيُقالُ: أخذَه بلسانِه؛ إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاءَ بمعنَى العذابِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [المؤمنون: 41][2].

العبادةُ: مصدرُ (عَبَدَ)، وهي غايةُ الخُضوع، ولا تُستحَقُّ إلَّا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 485.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يجوزُ أنْ يُعبَدَ غيرُ اللّٰه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلَّا معَ المعرفةِ بالمعبود(1).

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ اسْتخدمَ فعلَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ - وهو الألْيَقُ بالسِّياق - الَّذي هو افْتعالٌ من الأَخْذ، فاليهودُ افْتعَلوا أَخْذَ العِجْلِ للعبادة، ولم يعبدُوه مباشرةً إلَّا بعدَ أنْ سوَّلَ لهمُ السَّامريُّ، ونزَغَ في قلوبِهم أنَّ هذا العجلَ هو إلهُهُم، كما أوضحَ بيانُ اللّٰه ذلكَ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه: 85]، وقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨﴾ [طه: 87 - 88]. وقولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦﴾ [طه: 95 - 96].

السُّلطان والبُرهان:

في السُّلطان إبطالٌ لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ في دعوى اليهود في العِجْل

البُرهانُ: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه(2)، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يتسلَّطُ به على نَقيضِ المعنَى بالإبْطال(3)، وهو الحُجَّة، حتَّى أنَّها سُمِّيَتْ به، كما في الآيةِ: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حُجَّةً واضحة.

ولذلكَ اسْتعمل سياقُ الآيةِ الكريمةِ كلمةَ (سُلطانًا) بدلَ (بُرهانًا)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ، ممَّا ادَّعاهُ اليهودُ في العِجْل، فكانَ أنْ آتَى اللّٰه موسى عليه السلام الحُجَّةَ المبيِّنة، قالَ جل جلاله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ [طه: 89]، وقالَ عز وجل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه: 97 - 98].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 35.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والكفوي، الكليَّات: 3/3.

السلطانُ قدرةٌ، وقــوَّةٌ، وسلطةٌ وقد وهبها الله موسى عليه السلام

والسُّلطان: هو القدرة، وهو السَّلطة، وقد أعطى اللّه سبحانه وتعالى موسى عليه السلام القوَّة التي تدفع الباطل، وتزيل المضلَّل، فأعطاه المعجزات الباهرات البيِّنة الواضحة الَّتي تبيِّن الحقَّ، وتزيلُ الشُّبهة، وأعطاه القوَّة التي غلب بها فرعون طاغية الدُّنيا في عصره[1]، وليس شرطًا في البرهان أن يضمن معنيي القدرة والقوة، فهو إظهارٌ للحجَّة بهما أو بدونهما، بخلاف لفظ السُّلطان المقترن بهما ملازمة، وذلكم وجهٌ في إيثاره في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ على غيره.

(لا تَعْدُوا) و (لا تَتَجاوزوا):

اليهود تجاوزوُا حــدودَهــم، وارتــكــبُــوا كــلَّ شنيعةٍ، وظلم

جازَ الموضعَ: سَلَكه وسارَ فيه، وأجازَه: خَلَّفَه وقطَعَه، والمجازُ من الكلام: ما تجاوزَ مَوضِعَه الَّذي وُضِعَ له، والحقيقةُ مالم يتجاوزْ ذلك، وأجازَ له، أي: سوَّغَ له ذلك[2]، فالتَّجاوز تعدٍّ للشَّيء من غير اعتداء، أو عدوان.

أمَّا ﴿تَعْدُواْ﴾؛ فهي بمعنَى: الاعْتداء، أي: مجاوزةُ الحقِّ[3]، ولذلكَ وردتْ في سياقِ العِصيانِ للّه ورسوله، والعاقبة الوَخيْمَة، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النِّساء: 14].

وقدْ تعدّى اليهودُ حدُودَ اللّه ورسولِه، وتَحايَلوا على أوامرِ اللّه، فَجاوَزوا الحقَّ، وطَغَوْا، وبَغَوْا، وهذه المعاني أَلْصَقُ بالسِّياقِ القُرآنيِّ وأوْفَى بالْمُرادِ منه، ممَّا لا تَفي به كلمةُ (التَّجاوز) الَّذي قد يكونُ بالخيرِ، أو بالشَّرِّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 212، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (جَوَزَ).

(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 554، والفيروزآبادي، القاموس: (عَدَا).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 155 - 159]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذَكَر الآياتِ الّتي تدُلُّ على تعنّتِ أهل الكتابِ ومُطالبتهم بأشياءَ على سبيل العناد والإلحاد، وأخذ اللّه منهم عَهدًا مُؤَكَّدًا على أخذ التّوراة بقوّة، والعملِ بها، عقّب ذلك بالآيات الّتي تُبيّن ما حلّ بهم من عقاب اللّه وغضَبه وطرْدِهم من رحمته، وأهمِّ الأسبابِ الموجِبَةِ لذلك من نقْضِ الميثاقِ الّذي أخَذَه اللّه عليهم، وكُفْرِهم بآيات اللّه الدّالّة على صدقِ أنبيائِه، وقتْلِهم الأنبياءَ بغَير ذَنْب، وقولِهم: قلوبُنا مغلّفةٌ فلا يَصِلُ إليها شيءٌ من دعوةِ الأنبياء، وكُفْرِهم بعيسى عليه السلام والإنجيلِ، واتّهامِهم السّيّدةَ مريمَ البتولَ بالفاحشة، وزعْمِهم أنّهم قتَلوا عيسى بنَ مريمَ عليه السلام، وهذه كلُّها فظائعُ سبَّبَتْ لهم الطّرْدَ منْ رحمةِ اللّه والطَّبْعَ على القلوبِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غُلْفٌۢ﴾: أصْل الغُلف غِشْيَانُ شَيءٍ لِشَيءٍ، وتَغطِيته بغطاء يحجبُه ويحجبُ عنه ما حوله، وغُلْف: جمع أغْلَف، ومعناه: قلوبُنا مغطّاة عمّا تدعونا إليه فلا نفهَمُه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: 5].

أو غُلْف جمع غِلاف وأصْله غُلُف، فخفّف وسطُه بتسكين اللّام، ومعناه: أنّهم قالوا: قلوبُنا أوعيةٌ للعلم لا تَسمع علمًا إلّا وَعَتْه إلّا ما تقولُه، أي كأنهم يرون أنّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ ليس بعِلْم[1].

2) ﴿طَبَعَ﴾: الطَّبْعُ: أن تُصَوِّر الشّيء بصورةٍ مّا، وهو الأثرُ الحاصلُ عن نقش، كَطَبْعِ الدّراهم بالسّكّةِ، وهو أعمُّ من الخَتْم وأخصّ من النّقْش؛ يقال: "ختَمْتُ كذا" في الاستيثاق من الشّيء والمنْع منه؛ نظرًا إلى ما يحصل من المنْع بالخَتْم على الكتُب والأبواب، ويقال: طبَعَ اللّه على قَلْب الكافر؛ أي: خَتَمَ عليه فلا يَعي وعظًا، ولا يُوَفَّق لخيرٍ[2].

3) ﴿بُهْتَنًا﴾: أصل البُهتِ: الدَّهَش والحَيرة لشدّةٍ أو قهْر، والبُهتانُ: الافتراءُ والكذِبُ الّذي يُبهَت منه سامعُه فظاعةً وشَناعةً، ويُتَحَيَّرُ من عِظَمِه؛ يُقال: قد بَهَتَ فلانٌ فلانًا إذا كَذَبَ عليه، وقد بُهِت الرّجُلُ يُبْهَتُ إذا تَحَيَّرَ[3]. والمعنى هنا: افتراء اليهود على مريم بما نسبوه إليها من الزنى.

4) ﴿صَلَبُوهُ﴾: الصَّلْبُ: هو تعليقُ الإنسانِ للقَتْل، والصَّليبُ: أصْله الخَشَب الّذي يُصْلَبُ عليه. وأصْل الصَّلب شدّة الشّيء وقوّته وتماسُكه، والصُّلْب هو الشّيء الشّديد، والصَّلابة: الشِّدّة، ومنه صُلْب الرّجل وهو ظَهره، ولقوّته قالوا: ظاهَرَه إذا عاوَنَه كأنّه ساعَدَه بأقوى ما فيه وأشَدِّه.

وسمّي الظَّهر صُلبًا لأنّه يَخرجُ منه ما يُشْبه الصّليبَ، وهو الوَدَك، ومنه سُمِّي المصْلوبُ مصْلوبًا لِما يسيلُ من وَدَكِه عند صَلْبه؛ أو لأنّه يُشَدُّ صُلْبُه على الخَشَب غالبًا[4].

5) ﴿شُبِّهَ﴾: أي: مُثِّلَ، وأصل الشَّبَه: تقارُبٌ في اللّون والشّكْل الظّاهر، ويقال: شِبْهٌ وشَبَهٌ وشَبيهٌ نحو مِثْل ومَثَل ومَثيل؛ وحقيقتُها في المماثلة من جهة الكَيفيّة، كاللّون والطّعم، وكالعَدالة والظّلم. والشُّبْهَةُ: ما يُخيّل للإنسانِ أنّه الحَقيقةُ والأمرُ بخلافها، بأنْ لا يتَمَيّز أحدُ الشّيئَين من الآخر لما بَينَهما من التّشابه، عَينًا كان أو معنًى[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلف)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256 - 257.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/89، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (طبع).

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/103، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بهت)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/217.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صلب).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شبه).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لعَنَ اللّه أهل الكتاب، وغضِبَ عليهم، بسبب نقضِهم للميثاق الّذي واثَقَهم اللّه به؛ فأحلّوا ما حرّمه عليهم، وحرّموا ما أحلّه لهم، وبكفرِهم بآيات اللّه وحُجَجِه الدّالَّة على صدق أنبيائه، وكفرِهم بمحمّد خاتمِ النّبيّين ﷺ، وقتلِهم الأنبياء الّذين أُرسلوا لهدايتهم، وقولِهم قلوبُنا في غلافٍ؛ فلا يصل إليها شيءٌ ممّا جاء به الرّسولُ ﷺ ولا يؤثّر فيها، أو هي أوعيةٌ مليئةٌ بالعلم فليسَتْ في حاجة إلى شيءٍ جديدٍ منه؛ وليس الأمرُ كما زعموا، بل طمسَ اللّه على قلوبهم بكفرهم، وختَم عليها؛ فلا يصلُ إليها نورُ الهدى والإيمان، فلا يؤمن إلا القليل منهم؛ كعبد اللّه بن سَلامٍ وأمثالِه.

وكذلك لعنهم اللّه بسببِ كفرِهم بعيسى والإنجيلِ، ورمْيهم مريمَ البتولَ الطّاهرةَ بما نسبوه إليها من الزِّنى، وهي بريئة منه، وبادّعائهم أنّهم قتلُوا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ اللّه، ووصْفِهم لعيسى عليه السلام بالرّسالة تهكّمًا به، والقرآنُ وصَفَه بأنّه ابنُ مريم رسولُ اللّه للرّدّ على من يزعم أنّه الإلهُ أو ابنُ الإله، تعالى اللّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وما قتلوا عيسى وما صَلبوه على زعمِهم الفاسد، بل صلبوا رجلًا شبيهًا به ظنًا منهم أنه هو.

وإنّ الّذين اختلفُوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شكٍّ منه وحَيْرة، أهو المصلوبُ أم غيرُه؟ ما لهم من علمٍ قاطعٍ بقَتْله، لكنّهم يتّبعون الظّنَّ والشّكَّ في أمره.

وعيسى عليه السلام - في قول جمهور المفسّرين - رفَعَه اللّه إلى السّماء بروحِه وجسَدِه، وخلَّصه من الذين كفروا، وسيَنزل آخرَ الزّمان، يَحكمُ بالقُرآن، ويَقتُلُ الخِنزير، ويَكسِرُ الصّليب، كما ثبت في الصّحيحين[1]، وكان اللّه - ولا يزال - عزيزًا لا يُغالَب أبدًا، فهو الّذي أنقذَ عيسى عليه السلام من كَيْد اليهود، وعصَمَ مُحمّدًا ﷺ من النّاس جميعًا، حكيمًا في كلِّ أمر.

وما من أحدٍ من أهلِ الكتابِ المعاصرينَ لنزول عيسى عليه السلام آخرَ الزّمان إلّا لَيؤمِننّ به

(1) لفظ الحديث: «وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه، لَيوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّليب، وَيَقْتُلَ الخِنْزير، وَيَضَعَ الجِزْيَة، وَيَفيضَ المَالُ حَتّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»، أخرجه البخاري، الحديث رقم: (2222)، ومسلم، الحديث رقم: (155).

إيمانًا صحيحًا قبْلَ موتِ عيسى، أو قبْلَ موتِ ذلك الكتابيِّ، ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شَهيدًا، يَشْهَدُ بإيمانِهم به أو بكفرِهم به.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الباء و(ما) في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾:

الباءُ للسَّببيّة و(ما) للتأكيد والتّهويل والتعظيم

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: الفاءُ للاستئناف، ووجهُ الاستئناف كما بيّنه الطّبريّ أنَّ الَّذينَ أَخَذَتهُمُ الصّاعِقَةُ إنَّما كانوا عَلى عَهدِ موسى، والَّذينَ قَتَلوا الأنبياءَ والَّذينَ رَمَوا مَريَمَ بِالبُهتانِ العَظيمِ وقالوا: قَتَلنا المَسيحَ، كانوا بَعدَ موسى بِدَهرٍ طَويلٍ، ولَم يُدرِكِ الَّذينَ رَمَوا مَريَمَ بِالبُهتانِ العَظيمِ زَمانَ موسى ولا مَن صُعِقَ مِنْ قَومِه[1].

والباءُ حرفُ جرٍّ يفيدُ السّببيّةَ؛ أي: فبسببِ نقضِهم ميثاقَهم... و(ما): صلة[2] تفيدُ التّأكيدَ؛ أي: فبنقضهم، أو أنّها نكرةٌ تامّةٌ بمعنى شيء[3]؛ فتفيدُ التّهويلَ والتّعظيمَ، بدلالة إبهامها، كأنّه لا توجدُ كلمةٌ تعبّر عن عِظَمِ وهول اللّعن النّاشئ عن عِظَمِ وهولِ نقضِهم الميثاقَ الغليظَ الذي أُخِذَ منهم.

الإيجازُ في حذفِ متعلّق الجار والمجرور في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾:

عِظَمُ العقوبةِ وتَهويلُها

متعلّق الجارّ والمجرور محذوفٌ تقديره: لَعَنّاهُمْ وسَخِطنا عَلَيهِم، والحَذفُ أَفخَمُ لأَنَّه عِندَ الحَذفِ يَذهَبُ الوهمُ كُلَّ مَذهَبٍ، ودَليلُ المَحذوفِ أَنَّ هَذِهِ الأَشياءَ المَذكورَةَ مِن صِفاتِ الذَّمِّ فتدُلُّ عَلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/648.

(2) أطلق عليها سيبويه اسم الزّيادة من حيث زال عملها، ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/533. من مصطلحات النّحاة قولهم في بعض كلمات القرآن: زائدٌ، أو يقولون: لغوٌ على مصطلح البصريّين، أو يقولون: صلة أو يقولون: حشو على مصطلح الكوفيّين، هذه المصطلحات الّتي أطلقوها تتعلّق بقضيّة الإعراب، ولا تتعلّق بقضية المعنى، أي: لا تتعلّق بالإعراب التّفسيريّ وإنّما بالإعراب الصّناعيّ، بمعنى الرّفع والنّصب والخفض، وما سبب ذلك، وهو قضيّة تأثير العوامل في المعمولات، فهم يقولون: زيادة أو لغو أو حشو أو صلة، لأنّ العامل قبلها يتطلّب المعمول بعدها، وهي لا تأثير لها فيه، ينظر: الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم، جامعة المدينة، ص: 381.

(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/260.

اللَّعنِ[1]، وقد جاء المحذوفُ مصرَّحًا به في آية أخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: 13]. وهذا فيه إيجازٌ بالحذف. وإنّما تَرَكَ ذِكرَ (لَعَنّاهُمْ) لِدَلالَةِ قَولِه: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ عَلى مَعنى ذَلِكَ؛ إِذْ كانَ مَنْ طُبِعَ عَلى قَلبِهِ فقَد لُعِنَ وسُخِطَ عَلَيهِ[2]؛ ولأَنَّ تلكَ الجِناياتِ المَذكورَةَ بعد قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ عَظيمَةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ كُفرَهُم بآياتِ اللّه، وقَتلَهُمُ الأَنبياءَ، وإنكارَهُمْ لِلتَّكليفِ بِقَولِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أَعْظَمُ الذُّنوبِ، وذِكرُ الذُّنوبِ العَظيمَةِ إِنَّما يَليقُ أَنْ تُفَرَّعَ عَلَيهِ العُقوبَةُ العَظيمَةُ[3].

وذهب صاحبُ الكشّاف إلى أنّ (ما) أفادت الحصرَ زيادةً على معنى التّوكيدِ؛ أي: ما لعنّاهُم إلّا بسببِ نقضِهم ميثاقَهم، وما عطف عليه من الكفرِ وقتْلِ الأنبياءِ وغيرِ ذلك، والحقُّ أنّها مؤكّدَةٌ، أمّا معنى الحصرِ فهو مستَفادٌ من تقديمِ الجارّ والمجرورِ على العامل، لا من زيادةِ (ما)؛ فقدّم نقضَ الميثاقِ والكفرَ بآياتِ اللّه، وقتلَ الأنبياءِ لإفادةِ الحَصْرِ[4].

و﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: عُهودهُمُ الَّتي عاهَدوا اللّه أَنْ يَعمَلوا بما في التَّوْراةِ[5]، وفيها أنّ اللّه ﷻ أخذ عليهم الميثاق في أَنْ يُبَيّنوا ما أَنْزل عليهم من ذكْرِ النّبيِّ ﷺ وغيره، قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: 187][6].

دلالةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم﴾:

الاتّصافُ بكلّ واحدةٍ من المتعاطفاتِ واجتماعُها في الموصوفين بها

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: آياتُ اللّه: حُجَجُه وبَراهينُه، من الكتُب والمُعجِزاتِ الَّتي شاهَدوها عَلى أَيدي الأَنْبياءِ عليهم السلام[7].

والعطفُ بالواو في ﴿وَكُفْرِهِم﴾ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا﴾ لإفادةِ اتّصافِهم بكلٍّ من تلك الأوصافِ استقلالًا وقصدًا،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/258.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/648.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/258.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/431، 585، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/102 - 103..
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/645.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/127.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/447.

فكلُّ واحدة منها بانفرادها مُوجبَةٌ للعقوبةِ ولحوقِ العذاب، فما ظنُّك بعقوبتها إذا اجتمَعَت[1].

وفي قوله: ﴿وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ مرسلٌ؛ إذا حمَلنا الآياتِ على الكتُب السّماويّة؛ لأنّهم كفَروا بالقُرآن والإنجيل دون غيرهما.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ في قوله: ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

ثبوتُ جريمةِ القتلِ عليهم، وتأصُّلُها في أخلاقِهم السّيئةِ

هذا الصَّنيعُ من إجرامِهم واجترائهم على مقامِ الأنبياءِ الكرام عليهم السلام، وعبّر بالمصدر (قَتْل)؛ ليدلَّ على أنّ الاجتراءَ على القتْلِ صار لهم خُلُقًا وصِفَةً راسخةً، بخلاف التّعبير بالمضارعِ ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: 61]، [آل عمران: 21، 112] الّذي ربّما دلّ على العُروض[2].

سرُّ التّعبيرِ بجمعِ الكثرة ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾:

كثرةُ جرائِمِهم مع الأنبياءِ واجترائِهم على مقامِهم

جاء بجمع ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ هنا وفي سورة آل عمران آية: (112) بصورة جمْع الكثرة - وقد جاء في سورة البقرة آية: 61، وآل عمران آية: 21، بصورة جمْع القلّة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ - لِيدلّ على كَثْرَةِ إجرامِهم واجترائِهم عَلى أَنبياءِ اللّه، فإنَّهُم قَتَلوا جمعًا غفيرًا مِنَ الأنبياءِ عليهم السلام بِغَيرِ حَقٍّ[3].

نكتةُ المجازِ المُرسلِ لعلاقةِ الكليّة:

تهويلُ القتلِ وشناعته، فقتْلُ بعضِ الأنبياءِ كقتلهم جميعًا

وفي ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ مجازٌ مرسلٌ؛ حيث أُطلِقَ الكلُّ وأُريدَ البعضُ؛ لأنَّ من اجْترَأ على قتْل نبيّ اجْترَأ على قتْل سائرِ الأنبياء.

وفيه إشارَةٌ إلى كراهيةِ الخير وسدِّ باب الإيمان عنهم وعن غيرهم؛ لأنّ الأنبياءَ سببُ الإيمان، وفي محوِ السّببِ محوُ المسبَّب[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/447.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.

فائدةُ قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، ونفي مفهومِ المُخالَفَةِ[1]:

الإشـــــارةُ إلى شناعَةِ أفعالِهم وما بلغوه من الظلم

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ ليس قيدًا؛ لأنّ قتْل الأنبياءِ لا يمكن أن يكونَ بحقٍّ أبدًا، وإنّما قال ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ للإشارةِ إلى شناعةِ أفعالهم، وعِظَم شرّهم، وأنّهم قد بلغُوا الغايةَ في الظّلم والفجور والتّعدّي، وفعلوا ما فعلُوا إرضاءً لأحقادِهم وأهوائهم، وأنّهم لا يبالُون أكان فعلُهم حقًّا أم باطلًا. وقد أشار صاحبُ الكشّافِ إلى هذا المعنى بقوله: "فإن قلتَ: قتْلُ الأنبياءِ لا يكون إلّا بغير الحقّ فما فائدةُ ذكره؟ قلتُ: معناه أنّهم قتلوهم بغير الحقّ عندهم، لأنّهم لم يَقتُلوا ولا أفسدُوا في الأرض فيُقتَلوا، وإنّما نَصَحُوهم ودَعَوْهم إلى ما ينفعُهم فقتلوهم، فلو سُئِلُوا وأنصَفوا من أنفسهم لم يَذكروا وجهًا يستَحِقّ به الأنبياءُ القتْل عندهم "[2].

سرُّ اختصاصِ تنكير كلمةِ ﴿حَقّٖ﴾:

الزّيادةُ في ذمِّهم وتبشيعُ فعلهم

وتنوين ﴿حَقّٖ﴾ للتّنكير ليشملَ أيَّ حقٍّ كبيرٍ أو صغيرٍ؛ لأنّ الأنبياءَ معصومُون من كلّ نقيصَةٍ، ومُبرَّؤون من كلّ دَنيّةٍ، فلا يتوجّهُ عليهم حقٌّ لا يُؤَدّونه[3].

وجاءت كلمةُ ﴿حَقّٖ﴾ هاهنا وفي آل عمران [آل عمران: 21، 112، 181] نكرةً عامّةً، وفي سورة البقرة ﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: 61] معرّفةً معلومةً؛ فكلمةُ ﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾ المعرّفةُ في آية البقرة تدلُّ على أنّهم كانوا يقتلُون الأنبياءَ بغير الحقّ الّذي يدعُو إلى القتل، والحقُّ الّذي يدعو إلى القتْل معروفٌ معلومٌ.

وأمّا النّكرةُ فمعناها أنّهم كانوا يقتلُون الأنبياءَ بغير حقٍّ أصلًا،

(1) مفهوم المخالفة: ما دلّ عليه اللّفظ في غير محلّ النُّطق، ينظر: ابن الحاجب، مختصر في الأصول، ص: 142، والشوكاني، إرشاد الفحول: 2/36.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/146.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.

لا حَقَّ يدعُو إلى قتْلٍ ولا غيره؛ أي: ليس هناك وجهٌ من وجوهِ الحقّ الّذي يدعو إلى إيذاءِ الأنبياء فضلًا عن قتْلِهم.

والقصدُ من التّنكير الزّيادةُ في ذمِّهم وتبشيعِ فعلهم أكثر ممّا في التّعريف؛ وذلك لأنّ التّنكيرَ معناه أنّهم قتلوا الأنبياءَ بغير سببٍ أصلًا؛ لا سببَ يدعو إلى القتل ولا غيره، فمقامُ التّشنيع والذَّمّ هاهنا أشدُّ وأكبرُ منه هناك، وكلاهما شنيعٌ وذميمٌ، وهو موافقٌ لسياقِ الآياتِ، فكان التّنكيرُ أَلْيَقَ في سياق الآيات الثلاث في آل عِمرانَ وآية النّساءِ، والتَّعريفُ أليقَ في آيةِ البقرة[1].

وجهُ البلاغةِ في وصفِ القلوب بالغُلفِ:

التـيـئـيـسُ مـن إيـمـانـهـم والاستهزاء من توجيه الدَّعوة لهم

في قوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ كناية عن عدم قبولهم دعوة الأنبياء عليهم السلام، فعَبّرَ بالغلافِ عن عدمِ العلم والفهم، وإجابتهم هذه للنّبيّ ﷺ إمّا تيئيسًا له من إيمانهم به واستجابتهم له، وإمّا استهزاءً بتوجيه الدّعوة إليهم.

و﴿غُلۡفُۢ﴾ فيها وجهان:

الأوّل: ﴿غُلۡفُۢ﴾ بسكون اللّام، جمع (أَغْلَف) كأحمر وحُمْر وأصفر وصُفْر، والمعنى على هذا: لا ذنْب لنا؛ لأنّ قلوبنا خُلِقَتْ وجُبِلت مُغَشَّاةً، لا يَصِلُ إليها الحقُّ، استعارةً من الأغلف الّذي لم يُخْتَنْ[2].

وهذه فريةٌ عظيمةٌ على اللّه سبحانه وتعالى، واتّهامٌ له بالظّلم؛ إذ يرون أنّ اللّه هو الّذي خلقها مغشاةً بأغطيةٍ، مطبوعًا عليها؛ لذلك لا يصل إلى قلوبهم ما جاء به النّبيّ ﷺ ولا تفقهُ قلوبُهم ما جاء به أنبياءُ اللّه.

وهذا كقوله تعالى حكاية عن أمثالهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصّلت: 5]، وذلك أنّ الأهواءَ إذا سيطرت على القلوب

(1) السّامرّائي، أسرار البيان في التعبير القرآني.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 1/500.

سدّت مسامعَ الإدراكِ الصّحيح، فتَكون لهم قلوبٌ لا يفقهون بها؛ لذلك جاءهم الرّدّ والتّكذيب من الله تعالى بقوله: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾، والله خلقَ قلوب النّاس على الفطرة، فيها قابليّة الخير وقابليّة الشّرّ، و«كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له»[1].

والثّاني: غلُف بضمِّ اللّامِ وهو جمع (غِلاف)، ويكونُ أصلُ اللّامِ الضّمَّ فخُفِّفَ نحو: كتاب وكُتُب، وبها قرأ ابن عبّاس، والمعنى على هذه القراءة أنَّ قلوبَنا أوعيةٌ للعلمِ فهي غيرُ محتاجةٍ إلى علمٍ آخر، والتّغليفُ كالتّغشِيَة في المعنى[2]. وهو تشبيهٌ بليغٌ، صوّروا قلوبهم بأوعية وُضع عليها غلاف مُحكَم يمنع أن يُخرجَ العلمَ، ويَمنع أن يُدخِل إليه غيره، استكبارًا منهم وتزكيةً لأنفسهم؛ إذ يرون أنّهم وصلوا إلى مرتبة من العِلْمِ لا يحتاجون فيها إلى علم النّبيّ ﷺ، وما يجيء به من وحي السّماء.

دلالةُ الإضراب، وبلاغةُ الردّ:

إضرابٌ عن قبولِ اعتذارِهم

ردّ الله على اليهود وكذَّبهم بأن تكون قلوبُهم مخلوقةً غير قابلة للحقِّ كما ادّعَوا؛ لأنّه خلقها على الفطرة والتّمكّن من قبول الحقّ[3]، فهُم الّذين اختاروا الكفرَ على الإيمان، فقال: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

و﴿بَلۡ﴾ حرفُ إضرابٍ وعطفٍ؛ أي: ليس الأمرُ كما قالوا[4]؛ وهذا إضرابٌ عن قبولِ اعتذارهم، وردُّه عليهم بأنْ طبعَ الله على قلوبهم مجازاةً لهم على كفرهم.

وعلى المعنى الثّاني لـ﴿غُلۡفُۢ﴾ يكون الإضرابُ ردًّا لادّعاءِ العلم بالنّبوّات، لَما أصابهم من غرور وكِبْر حجَبَهُم عن إدراك ما جاءت به الرّسالاتُ الإلهيّةُ، وما دعاهُم إليه خاتمُ النّبيّين سيّدُنا محمّدٌ ﷺ.

(1) جزء من حديث أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (4949)، ومسلم، الحديث رقم: (2647).
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 1/501.
(3) الطِّيبي، فتوح الغَيب: 2/570.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/371.

سرُّ التَّعبيرِ بالطَّبعِ على القَلبِ:

إحكامُ إغلاقِهِ بحيث لا يدخلُ إليه خيرٌ ولا يخرجُ منه شرٌّ

الطّبعُ على القلبِ هو إحكامُ إغلاقِه؛ بحيث لا يدخلُ إليه خيرٌ ولا يخرجُ منه شرٌّ. واشتقاقُه إمَّا من الطَّبْعِ بتسكين الباءِ، ومن معانيه: الطّبْعُ والطَّبيعةُ: الخَليقةُ والسَّجيّةُ الَّتي جُبِلَ عَلَيها الإنسانُ. وطَبَعَ الدِّرهَمَ والسَّيفَ وغَيرَهُما يطْبَعُه طبْعًا: صاغَه. والطّبْعُ: الخَتمُ، وهُوَ التّأْثيرُ في الطّينِ ونَحوِهِ[1].

وإمَّا من الطَّبَعِ بفتح الباءِ، وهُوَ تَلطيخُ القلْبِ بالأَدناس، وأَصلُ الطّبَعِ الصَّدَأُ يَكثُرُ عَلى السَّيفِ وغَيرِهِ... ثُمَّ استُعِيرَ فيما يُشبِهُ ذَلِكَ مِنَ الأَوزارِ والآثامِ وغَيرِها مِنَ المَقابِحِ[2].

واشتقاقُها من الطَّبَعِ أَلْيَقُ، فيكون تشبيهُ قلوبِهم الفاسدةِ بالكفرِ بالحَديدِ الفاسدِ بالصَّدَأ.

العدولُ عن الظَّاهرِ (قُلُوبهم) إلى الضّمير (ها):

لتجنّبِ التّكرارِ، ولوُضوحِهِ

في قوله: ﴿عَلَيۡهَا﴾ عدول عن الظّاهر (قلوبهم) إلى الضّمير (ها)، لتجنّب التّكرارِ ولوُضوحِه، وجملة: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فيها إطنابٌ، جاءت اعتراضيّةً بين معطوفين، وهو إطنابٌ بليغٌ جيء به على وجهِ الاستطرادِ مسارعةً في الرّدّ عليهم.

والباء في ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ للسَّببيّةِ؛ أي: بسببِ كُفرِهم.

بلاغةُ التّعبيرِ في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

استعمالُ القلَّةِ في معنى العَدَمِ

جاءت الفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ أي: أنّه ترتّبَ على تغليفِ قلوبهم عن الحقِّ ألّا يُؤمنوا بِهِ، و(لا) نافيةٌ، نفى عنهم الإيمانَ اعتبارًا بالحقائقِ، ثمّ أثبتَ لهم إيمانًا قليلًا، اعتبارًا بظاهرِ أقوالهم؛ حيث قالوا: نُؤمن ببعضٍ، لكنّ ذلك المقدارَ غيرُ مُعتدٍّ به[3].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/217.

فتكونُ ﴿قَلِيلًا﴾ صفةً لمصدر محذوفٍ، تقديره: إيمانًا قليلًا، أو تكون صفة لظرفٍ محذوفٍ تقديرُه: زمانًا قليلًا، ودلالتُه على المصدر أقوى من دلالته على الزّمان.

ولا يجوزُ أن يكونَ منصوبًا على الاستثناءِ من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: قليلًا منهم فإنّهم يؤمنون؛ لأنَّ الضّميرَ في ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ عائدٌ على المطبوعِ على قلوبِهم، ومن طُبِع على قلبه بالكفر فلا يقعُ منه الإيمان[1]. ومن نظرَ إلى عَودِ الضّمير على اليهودِ عمومًا أجاز النّصبَ على الاستثناءِ؛ أي: إلّا قليلًا منهم قد آمنُوا كعبدِ اللّه بن سَلامٍ وأمثالِه. فتكون قِلَّةُ الإيمانِ كِنايَةً عَنْ قِلَّةِ أَصحابِهِ.

ويَجوزُ أَن يَكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ هُنا مُستَعمَلًا في مَعنى العَدَمِ؛ فَإِنَّ القِلَّةَ تُستَعمَلُ في كَلامِ العَرَبِ بمعنى العَدَم على ما حكى سيبويه من قولهم: أرضٌ قَلَّ ما تُنبِتُ كذا، وهي لا تُنبِتُه جملةً. والمعنى: فلا يُؤمِنونَ أَبَدًا فَهُوَ مِنْ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ.

بلاغةُ التّكرارِ في قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾:

تــنــوُّعُ الـكُـفـرِ حسبَ السِّياقِ

أعاد ذكرَ الكفرِ منسوبًا إليهم في هذه الآية: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، بعد قوله في الآية السّابقة: ﴿وَكُفْرِهِم﴾، وقوله فيها: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؛ لتكرُّر الكفر منهم وتعدّد مُتَعَلَّقاته؛ فإنّهم كفرُوا بموسى عليه السلام، ثمّ كفرُوا بعيسى عليه السلام، ثمّ كفرُوا بمحمّدٍ ﷺ، فعطفَ بعضَ كفرِهم على بعض[2].

قال الآلوسي: "﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿وَكُفْرِهِم﴾ الّذي قبله، ولا يتوهّمُ أنّه من عطفِ الشّيءِ على نفسه ولا فائدةَ فيه؛ لأنّ المرادَ بالكفر المعطوفِ: الكفرُ بعيسى عليه السلام، والمرادَ بالكفر المعطوفِ عليه: إمّا الكفرُ المطلقُ، أو الكفرُ بمحمّد ﷺ لاقترانه بقوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾، وقد حكى اللّه عنهم هذه المقالةَ في مواجهتِهم له ﷺ في مواضعَ، ففي العطفِ إيذانٌ بصلاحيّةِ كلٍّ من الكُفرين للسَّببيّةِ"[3].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/144.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/124.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/185.

ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، وكرّرَ حرفَ الجرّ للتّأكيد.

سرُّ تَسمِيَةِ الرَّمي بالزّنى بهتانًا:

تبرئة الله تعالى للسّيّدة مريم عليها السلام من افتراءات الحاقدين

البُهتانُ: مصدرٌ من قولك بَهَتَه إذا قابَلَه بأمرٍ مُبْهِتٍ يَحارُ معه الذِّهْنُ، وهو رميٌ بباطل. والبُهْتانُ العَظيمُ رَميُهُم مَرْيَمَ عليها السلام وهي صفوةُ اللّه على نساءِ العالمين، بأمرٍ عظيم وهو الزِّنى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، مع رُؤْيَتِهِمُ الآيَةَ في كَلامِ عيسى عليه السلام في المَهدِ، وقد عجزت عقولُهم عن إدراكِ قدرة اللّه على خلق إنسان من غير أبٍ[1].

ولَولا الآيَةُ لَكانوا في قَولِهِم جارينَ عَلى حُكمِ البَشَرِ في إنكارِ حَملٍ مِنْ غَيرِ ذَكَرٍ. ووُصِفَ بالعِظَمِ لِأَنَّهُم تَمادَوا عَلَيهِ بَعدَ ظُهورِ الآيَةِ وقِيامِ المُعجِزَةِ بِالبَراءَةِ[2].

نكتةُ وصفِ البُهتانِ بالعِظَم:

كنايةٌ عن تبرئةِ السَّيِّدَةِ مريمَ عليها السلام

قَد جاءَت التَّسمِيَةُ بـ "البُهتان العَظيم" كذلك في طَعنِ المُنافِقينَ في السّيّدة عائِشَةَ رضي الله عنها، في حادثة الإفك، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ [النّور: 16]؛ وذَلِكَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الَّذينَ يَطعَنونَ في عائِشَةَ رضي الله عنها بِمَنزِلَةِ الّذين يطعنون في مريم[3] عليها السلام.

وفي تسمية اللّه لقولهم فيما حكاه عنهم: ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ كنايةٌ عن تبرئةِ اللّه تعالى للسّيّدة مريم عليها السلام؛ إذ البهتانُ رميٌ بالباطل والكذب، والمتّهمُ به بريءٌ منه، وقد جاء في حديث الغِيبَة: «إِنْ كانَ فيهِ ما تَقولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/132.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/132، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.

(4) مسلم، الحديث رقم: (2589).

التّفاخر بالجريمة والاجتهاد في تحصيلها

خروجِ الخبر إلى معنى الاستهزاءِ في قولهم: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾؛ أي: وبسببِ قولِهم هذا القولَ المؤْذِن بالجرأة على الباطلِ والاستهزاء بآيات اللّه.

وهذا إقرارٌ منهم بجريمةِ القتل، ويدلُّ على رغبتِهم في قتلِ - عيسى عليه السلام - واجتهادِهم في تحصيل ذلك، وهذه جنايةٌ منهم لأنّهم قتلُوا الّذي قتلوه - وهو المشبَّهُ به - على أنّه نبيّ[1]، وقد كذّبَهم اللّه في هذه الدّعوى فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾.

والمَسيحُ كانَ لَقبًا لِعيسى عليه السلام لَقَّبَهُ بِهِ اليَهودُ تَهَكُّمًا عَلَيه؛ لأَنَّ مَعنى المَسيحِ في اللُّغَةِ العِبريَّةِ المَلِك[2]، وهُوَ لَقَبٌ قَصدوا منهُ التَّهَكُّمَ، فَصارَ لَقَبًا لَهُ بَينَهُم. وقَلَبَ اللّه قَصدَهُم تَحقيرَهُ فَجَعَلَهُ تعظيمًا لَهُ[3]. والمسيحُ معناه المبارَكُ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 31]. وابنُ مريم: نسبُهُ، والمسيحُ لقبٌ، والابنُ صِفةٌ[4].

ووصفُهُ بالرّسالةِ، هل هو من تتمّةِ كلامِهم- مع كفرهم به - أم من كلامِ اللّه تعالى؟

الظّاهِرُ أَنَّ جملة ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مِن قَولِهِم، قالوا ذَلِكَ عَلى سَبيلِ الاستِهزاءِ والتهكُّم، زعمًا منهم أنّه لو كان رسولًا لما قدَروا على قتلِه، وهذا الاستهزاءُ كَقَولِ اللّه تعالى حكايةً عن قول فِرعَونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ [الشّعراء: 27] وقَولِهِ حكاية عن قوم شُعَيبٍ له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]، وكَقَولِ كُفّارِ قُرَيشٍ لمحمّد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحِجْر: 6].

ويَجوزُ أَنْ يَكونَ مِن كَلامِ اللّه تَعالى، وَضَعَ الذِّكرَ الحَسَنَ مَكانَ ذِكرِهِمُ القَبيحِ في الحِكايَةِ عَنهُ رَفعًا لِعيسى عليه السلام، كَما كانوا يذكرونَهُ بِهِ[5].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/128.

(2) قال ابن الأنباري: "وأما المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فإن في تفسير معنى (المسيح) سبعة أقوال"، ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: 1/388، ثم سردها، وقال السُّهيلي: "وأصح ما قيل في معنى المسيح على كثرة الأقوال في ذلك أنه الصديق بلغتهم ثم عربته العرب"، ينظر: السهيلي، الروض الأنف: 7/510.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/19.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/363.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/260، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.

دلالةُ تَكرارِ النَّفيِ وأثرُهُ فِي جَرْسِ الآيةِ الكريمةِ وقوّةِ مَعنَاها:

زيــادةُ بيـانٍ، وقُوّةُ برهانٍ

تكرَّرت ﴿وَمَا﴾ النافية في الآية الكريمةِ ثلاثَ مرّاتٍ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾، وهذا التّكرارُ ضاعفَ من جَرْسِ الصَّوتِ بالنَّفي؛ فنَبرُ المقطعِ الأوّلِ في ﴿وَمَا﴾ النّافية في مواضِعها الثلاثة يُشعرُ المخاطَبَ بقوة الخِطابِ، وغضبِ المتكلِّمِ من التُّهمَةِ المُدَّعاة من دون بيِّنة.

بلاغةُ الردِّ على مزاعِمِ اليَهودِ في قتلِ عيسى عليه السلام وصَلْبِه:

النَّصُّ الصَّريحُ في نفيِ الصَّلْب بعد نفيِ القتْلِ

قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾: ردٌّ على مزاعِمِهم الكاذبةِ الّتي تفاخَرُوا بها بأنّهم قتَلُوا عيسى عليه السلام وصَلَبُوه، والحقُّ أنّهم قتَلُوا رجلًا آخرَ يُشبِهُ عيسى عليه السلام في الخِلقة، فظنّوه إيّاه وقتلُوه وصلبُوه. والواوُ حاليّةٌ؛ أي: والحالُ أنّهم ما قتَلُوه، وعطفَ عليه ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ لتأكيدِ نفي الصّلبِ عنه بعد نفيِ القتلِ؛ لأَنَّ الصَّلبَ قَد يَكونُ دونَ القَتلِ، فَقَد كانوا رُبَّما صَلَبوا الجانيَ تَعذيبًا لَهُ ثُمَّ عَفَوا عَنهُ.

ولأنّ النّصارَى واليهودَ يدّعُون أنّه صُلِبَ، فلا بدّ من النّصِّ على نفيِ الصّلبِ، ليكون ردًّا على هذِهِ الدّعوى، ولو اقتصر على نفيِ القتلِ ما كان التّصريحُ بردّ الدّعوى، ولو نُفِيَ الصّلبُ فقط ما اقتضى نَفيَ القتل، فكان النّسقُ البليغُ مقتضيًا نفيَهُما معًا[1].

والمَشهورُ في الاِستِعمالِ: أَنَّ الصَّلبَ هُو أَنْ يوثَقَ المُعَدُّ لِلقَتلِ على خَشَبَةٍ بِحَيثُ لا يَستَطيعُ التَّحَرُّكَ، ثُمَّ يُطعَنُ بِالرُّمحِ أَو يُرمى بِالسَهمِ، وكَذَلِكَ كانوا يَزعُمونَ أَنَّ عيسى صُلِبَ ثُمَّ طُعِنَ بِرُمحٍ في قَلبِهِ[2].

وقد نُسِبَ القتلُ المنفيُّ إليهم، مع أنّ القتلَ والصّلبَ كان من حاكمِ الرّومان، ولكنْ بتحريضِ اليهودِ؛ وذلك لأنّهم هم الّذين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/20، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1951.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/20.

ألحّوا في طلبِ القتل؛ فالمحرِّضُ قاتلٌ، والشّاهدُ الكاذبُ قاتلٌ، وكلُّ متسبِّبٍ يُعَدُّ قاتلًا، وهؤلاء قامُوا بكلّ ذلك[1].

دلالةُ الاستدراكِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾:

رفعُ توهّمِ القتْل والصّلب

جُملَةُ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾: استِدراكٌ لرفع تَوَهّمهم أَنَّهُم قَتَلوهُ؛ فبيَّن لهم بالاستدراك أنَّهم توهَّموا أَنَّهم قتلوه، فظنّوا المقتولَ المصلوبَ هو المسيحَ، وما كان هو، بل كان المصلوبُ المقتولُ غيرَه، فخُيِّلَ إليهم أنّه قُتِلَ وصُلِبَ، وما كان كذلك.

تعيينُ المُسندِ إلى المبنيِّ للمفعولِ ودلالتِه:

الفعلُ (شُبِّه) مُسنَدٌ إلى الجارِّ والمَجرورِ؛ أي شُبِّه لهُم خبرُ صَلْبِه

وقوله ﴿شُبِّهَ﴾ مبنيٌّ للمجهول، وفي إسنادِه وجهان:

أحدهما: أنّه مُسنَدٌ إلى الجارِّ والمَجرورِ؛ أي: شُبِّهَ لِليَهودِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ خَبَرُ صَلبِ المَسيحِ، فالتَبَس عليهم الأمرُ حيثُ ظنّوا المقتولَ عيسى كما أوهمهم بذلك أحبارُهم، فاشتَبَهَ عَلَيهِمُ الكَذِبُ بالصِّدقِ، وهُوَ كَقَولِكَ: خُيِّلَ إِليهِ، ولُبِّسَ عليَه؛ كَأَنَّهُ قيلَ: ولَكِن وَقَعَ لَهُمُ الشَّبَه.

والثّاني: مُسنَدٌ إلى ضَميرِ المَقتولِ لأَنَّ قَولَهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ وَقَعَ القَتلُ عَلى غَيرِهِ؛ أي: ولكن شُبِّه لهم مُشَبَّهٌ بالمَسيحِ فقتلوه، فَصارَ ذَلِكَ الغَيرُ مَذكورًا بِهَذا الطَّريقِ، فَحَسُنَ إِسنادُ شُبِّهَ إِليهِ.

ويكونُ قَولُهُ: ﴿شُبِّهَ﴾ فِعلًا مَبنِيًّا لِلمَجهولِ، مُشتَقًّا مِنَ الشَّبَهِ، وهُوَ المُماثَلَةُ في الصّورَةِ. وحُذِفَ المَفعولُ الَّذي حَقُّهُ أَن يَكونَ نائِبَ فاعل ﴿شُبِّهَ﴾، وضَميرُ ﴿لَهُمْۚ﴾ عَلى هَذا الوَجهِ عائِدٌ إِلى الَّذينَ قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا﴾، وهُم يَهودُ زَمانِهِ؛ أَي: وَقَعَتْ لَهُمُ المُشابَهَة[2].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1951.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/260، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/145، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/21.

بلاغةُ التّأكيدِ في الآيةِ الكريمةِ:

كثرةُ المؤكّداتِ تدلُّ على أهمّيّةِ المؤكَّدِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾: أسلوبُ توكيدٍ بـ﴿وَإِنَّ﴾ المؤكِّدة ولامِ الابتداءِ (المُزَحلَقةِ)، وكثرةُ المؤكّداتِ تدلُّ على أهمّيّةِ المؤكَّد.

وقَولُهُ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾: يَدُلُّ عَلى وُقوعِ خِلافٍ في شَأْنِ قَتلِ المَسيحِ، والخِلافُ فيهِ بين اليهودِ والنّصارى، بل بَينَ النّصارى أنفسِهم، فبعضُهم يَقولُ: قَتَلَتْهُ اليَهودُ، وبَعضُهُم يَقولُ: لَمْ يَقتُلُوهُ، ولَكِن قَتَلوا يَهوذا الإسْخرْيوطِيَّ الّذي شُبِّهَ لَهُم بالمَسيحِ.

وغالبُ هؤلاءِ المُختَلِفين في شَأْنِهِ غَيرُ مُؤمِنينَ بِصَلبِه، بَل يُخالِجُ أَنفُسَهُمُ الشَّكُّ، ويَتَظاهَرونَ باليَقينِ، وما هُوَ باليَقينِ، فَما لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ قاطِعٍ إلّا اتِّباعَ الظَّنِّ[1]، فالشّكُّ والتّردّدُ غالبُ أحوالِهم، وقد يصِلُون إلى الظّنِّ في بعض أحوالهم، لكن لا يرقَى إلى العِلْم واليَقين.

فاتّباعُ المنهجِ الظّنّيِّ في تقصّي الحقائقِ أوصلَهُم إلى الشّكِّ، ولم يُوصلهم إلى العِلْم اليقينيِّ الّذي تطمئنُّ النّفسُ إلى نتائجِه.

دلالةُ النّفيِ والاستثناءِ في قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾:

تأكيدُ نفيِ العِلْمِ عنهُم

قدّم قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ على الاستثناء؛ لأنّ المقصودَ من هذا الكلام نفيُ العلم عنهم[2].

واستثناءُ الظّنّ من العِلْم في الآية استثناءٌ منقطعٌ؛ إذ الظّنُّ رجحانُ أحد الطّرفين، فهو استثناءٌ من غير جنس العِلْم، والتّقدير: لكنّهم يتّبعون الظّنّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/22.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 5/222.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/128، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/587.

وذهبَ ابنُ عطيّة إلى أنّه استثناءٌ متّصلٌ، على معنى أنّ الظّنَّ والعِلْمَ يضمّهما جنسٌ واحدٌ، وهما من معتقدات النّفس، وقد يقولُ الظّانُّ على طريق التّجَوُّز: علْمي في هذا الأمرِ أنّه كذا، وهو يَعني ظَنَّه[1].

دلالةُ عودِ الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾:

التـــهـــكُّـــمُ بالزاعمين صلبه

وضَميرُ النّصْبِ (الهاء) في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائِدٌ إلى عيسى ابْنِ مَريَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أي: أنّهم لم يقتُلُوا عيسى يقينًا.

أو عائِدٌ إلى العِلْم مِن قَولِهِ تَعالى ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، كما تقول: قتلت هذا الأمر علمًا، فتكونُ كلمة ﴿يَقِينًا﴾ عَلَى هَذا تَمْييزًا لِنِسْبَةٍ[2]. أو هي عائدةٌ على الظّنِّ، والمعنى: وما صحَّ ظنُّهُم عندهم ولا تحقّقُوه يقينًا[3].

و﴿يَقِينًا﴾: تأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك: ما قتلوه حقًّا، أي: حُقَّ انتفاءُ قتْلِه حقًّا، وقيل: هو من قولهم: قتلتُ الشّيءَ علمًا ونَحَرْتُه علمًا إذا تَبالغَ فيه علمُك. وفيه تهكُّم؛ لأنَّه إذا نفى عنهم العلْمَ نفيًا كلّيًّا بحرف الاستغراق (ما)، ثمّ قيل: وما علمُوه علمَ يقينٍ وإحاطةٍ لم يكُن إلّا تهكُّمًا بهم[4].

الاختلافُ في إعرابِ كلمة ﴿يَقِينًا﴾ وأثرُه في المعنى:

وفي نصب ﴿يَقِينًا﴾ عدة أوجه: أهمها:

الأول: أنّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: ما قَتَلوه قَتلًا يَقينًا؛ فيكون نائبًا عن المفعول المطلق.

الثاني: أنَّه حالٌ منصوبةٌ من واوِ الجماعةِ في ﴿قَتَلُوهُ﴾؛ أي: وما قتَلُوه مُتيقّنين لقتْله أنّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ادَّعوا.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/588.

الثالث: أنَّه منصوبٌ بفعلٍ مِن لفظه حُذِف للدَّلالة عليه؛ أي: ما تيقَّنوه يقينًا، ويكون مؤكِّدًا لمضمون الجملةِ المنفيّةِ قبله(1).

دلالةُ الوقفِ على قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ والابتداء بقوله: ﴿يَقِينَۢا﴾:

ذكر أبو عمرٍو الدَّاني الوقفَ على قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، وقال: وهو قولُ أحمدَ بن موسى اللُّؤلؤيّ، والتَّقديرُ فيما بعده: (يقينًا لَيَرْفَعَنَّه الله)، فحذفَ القسمَ، واكتفى منه بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾(2).

و أوردَه ابنُ عطيّة وجهًا في الأداءِ، نسَبَه إلى قوم من أهلِ اللّسانِ، وهو أنّ الكلامَ يتمُّ عند قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، ويبتدأُ بـ﴿يَقِينَۢا﴾ على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ للنَّفي في قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، والمعنى: يُخبركم يقينًا، أو يَقُصُّ عليكم يقينًا، أو أيقِنُوا بذلك يقينًا(3).

بلاغةُ الإضرابِ في رفع عيسى عليه السلام:

تـكـريـمُ الـلـهِ لأنبيائه وعبادِه المخلِصين

﴿بَل﴾: إضرابٌ بيانيٌّ، فيه ردٌّ لزعمِهم القتْلَ، والمعنى: بلْ إنّه لم يُقتل، وأنّ الله رفعَهُ إليه.

﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾: الرَّفْعُ عبارةٌ عن إبْعادِه عَنْ هَذا العالَمِ إلى عالَمِ السّمواتِ، رَفعَ قُربٍ وزُلفى. وظاهرُ القول أنّ الرّفعَ كان بجسدِهِ وروحِه، لا بروحِه فقط، فلَم يَظفَرُوا بِهِ، وبهذا جاء التّفسيرُ المأثور، وعليه أكثرُ المفسّرين، وأيّدته رواياتُ السّنّة(4).

وفي سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: 55]. وقد اختلفت أقوالهم في ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: 55] على أقوال: والّذي رجّحَه الطّبريُّ بقولِه: إنّي قابِضُكَ مِنَ الأَرض ورافِعُكَ إِلَيَّ، لِتَواتُرِ الأَخبارِ عَن رَسولِ اللّه ﷺ أَنَّهُ قال: «يَنْزِلُ عيسى ابنُ مَريَمَ فَيَقتَلُ الدَّجّالَ»(5). ومَن حمَلها على الوفاة

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/148.
(2) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 231.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/23.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 5/447.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/451.

ذكرَ لها معانيَ منها: مُتَوَفّيكَ بَعدَ إنْزالي إيّاكَ إلى الدُّنيا؛ وهَذا مِنَ المُقَدَّم الَّذي مَعناهُ التَّأخيرُ، والمُؤَخَّرِ الَّذي مَعناهُ التَّقديمُ[1]؛ أي: رافعُك إليَّ ومتَوَفّيك.

فائدةُ الجارِّ والمَجرورِ في قوله: ﴿إِلَيۡهِۚ﴾:

زيـادةُ تَشريفٍ وتكريمٍ

(إلى) من قوله: ﴿إِلَيۡهِۚ﴾ تفيدُ الانتهاءَ، والضّميرُ عائدٌ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ وهذا غايةُ التّشريفِ والقُربِ والزُّلفى أنْ رَفَعَهُ الله إلَيهِ؛ يعني إلى سمائِهِ وكرامته، وعيسى عليه السلام حيٌّ في السّماء الثّانيةِ على ما تضمّنه حديثُ الإسراء في ذِكْر ابنَي الخالةِ عيسى ويحيى عليهما السلام، وقد أوردَه البخاريُّ وغيرُه في حديث المعراج[2]، وهو هناك مقيمٌ حتّى يُنزله الله لِقَتلِ الدَّجّال، ولِيَملأَ الأرضَ عَدلًا، ويحيَا فيها أربعين سَنةً، ثمّ يموتُ كما يموتُ البَشَرُ[3].

مناسبةُ الفاصلةِ لمعنى الآيةِ الكريمة:

اللـهُ العـزيـزُ يُـعِـزُّ أولـيـاءَه، والحكيمُ الّذي يـفـعلُ كـلَّ أمـرٍ بِحِكمَةٍ ولِحِكمَةٍ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: كان: بمعنى الأزلِ والأبدِ؛ فهي في حقّ الله تعالى لا ينصرفُ زمانها إلى الماضي، بل مستمرّةٌ؛ أي: كان ولا يزالُ.

﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: جاء تذييلُ الآية بهذَين الاسمين الكريمين ليناسبَ أوّلَها وهو ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾؛ فإنَّه لَمّا عزَّ فقد حقَّ لِعِزّه أن يُعِزَّ أولياءَه، ويدفع عنهم ما يؤذيهم، ويحفظَهم من سوءِ مُغالبيهم ومَكرِهم، ولَمّا كان حكيمًا؛ فقد أتْقن صُنع هذا الرّفع فجعله فِتنةً للكافرين، وتبصرةً للمؤمنين[4].

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: ﴿وَإِن﴾ هنا نافيةٌ بمعنى (ما) و﴿مِّنۡ أَهۡلِ﴾ يجوز فيه وجهان: أحدهما: أنّه صفةٌ لمبتدأ محذوفٍ، والخبرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/451.
(2) البخاري، الحديث رقم: (3887).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/24.

التّحريضُ على المسارعةِ إلى الإيمانِ قبل أن يُضْطَرُّوا إليه

الجملةُ القسَميّةُ المحذوفةُ وجوابُها، والتّقديرُ: وما أحدٌ من أهل الكتاب إلّا واللّه ليؤمِنَنَّ به.

والثّاني: أنّه في محلِّ الخبر، وجملة ﴿لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ﴾ جملةٌ قَسَميّةٌ واقعةٌ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديره: وإنْ من أهل الكتابِ أحدٌ إلا ليؤمِنَنَّ به[1].

﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾: وفيه أسلوب قَصْرٍ بـ (إن) النّافية و(إلّا) يفيدُ التّوكيدَ والتّخصيصَ. والضّمير الأوّل: ﴿بِهِۦ﴾ يرجع لعيسى عليه السلام، والضّمير الثّاني: ﴿مَوۡتِهِۦۖ﴾ يرجع لعيسى عليه السلام أيضًا، أو يرجعُ إلى الكتابيّ.

دلالةُ القَسَمِ في قوله: ﴿لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ﴾:

مِنّةٌ مِنَ اللّهِ امتنَّ بها على عيسى عليه السلام

قوله تعالى ﴿لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ﴾: جملةٌ قَسَميّةٌ وقعت صفةً لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: وما من أهل الكتابِ أحدٌ إلا ليؤمِنَنّ بعيسى عليه السلام قبل أن تَزهَقَ روحُه بأنّه عبدُ اللّه ورسولُه، ولاتَ حينَ إيمانٍ لانقطاعِ وقتِ التّكليفِ، ويعضّده بأنّه قُرئ (لَيُؤۡمِنُنَّ قَبۡلَ مَوۡتِهِم) بضمّ النّون، لِما أنّ (أحدًا) في معنى الجمعِ... والإخبارُ بحالهم هذه وعيدٌ لهم وتحريضٌ على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يُضْطرُّوا إليه مع انتفاءِ جَدْواه[2].

وهَذِهِ مِنَّةٌ مِنَ اللّه امتنّ بها عَلى عيسى عليه السلام؛ إذ جَعَلَ أَعداءَهُ لا يَخرُجونَ مِنَ الدُّنيا إلّا وقَد آمَنوا بِهِ جَزاءً لَهُ عَلى ما لَقِيَ مِن تَكذيبِهِم[3].

وقيل: كلَا الضّميرين لعيسى، والمعنى: وما من أهلِ الكتابِ الموجودين عند نزولِ عيسى عليه السلام أحدٌ إلا ليؤمِنَنَّ به قبلَ موتِه.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/148 - 149.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/252، وقراءة: (لَيُؤۡمِنُنَّ قَبۡلَ مَوۡتِهِم) قراءة شاذّة، وظّفها لترجيح الرّأي الأوّل، وهو عَود الضمير على الكتابيّ.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/24.

تخصيص يوم القيامة بعموم شهادة عيسى عليهم

بلاغةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾:

قدّم الظّرفَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ والجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وهو يفيدُ التّخصيصَ، كما حذفَ معمولَ ﴿شَهِيدٗا﴾ ليفيدَ العمومَ، فيشهدُ على صغيرِ أعمالِهم وكبيرِها.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ [النساء: 160- 161]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد أنْ بينتِ الآياتُ السّابقةُ جانبًا من قبائحِ أفعالِ اليهودِ ورذائلِ أقوالِهم، يُخبرُ اللّٰه تعالى بشيءٍ من عقوبةِ ذلك، وهو أنّه حرّمَ على الّذين هادُوا طيّباتٍ كانت حلالًا لهم؛ وذلك بسببِ ظُلمِهم وبما اقترَفُوه من آثامٍ عظيمةٍ، ومنكراتٍ قبيحةٍ، وبسببِ صدِّهِم النّاسَ وأنفسَهم عن اتّباعِ الحقِّ، وأكلِ أموالِ النّاس بالباطلِ، لعلَّهم يرجعُون إلى طريقِ الهدايةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُواْ﴾: هادَ يَهودُ هَودًا: تاب ورجَعَ. وأصل الهَوْدِ: الرّجوع برفق، ومنه: التَّهْويدُ، وهو مشْيٌ كالدّبيب، وصار الهَوْدُ في التّعارف: التّوبة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة: 62] أي: رجعُوا وتابُوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156]؛ أي: تُبْنَا، وقيل: سَكَنّا. ومنه الهَوادة: وهي السّكونُ والموادعةُ، وتهوَّد في مشيتِه: إذا مَشَى مشيًا رفيقًا تشبيهًا باليهود في حركَتِهم عند القراءةِ. ويقال: هادَ فلانٌ: إذا تحرّى طريقةَ اليَهودِ في الدّين[1].

2) ﴿حَرَّمْنَا﴾: أَصْل الحرَم: المَنْعُ والتَّشديدُ. وهو حيّزٌ ممنوعٌ تابعٌ لشيءٍ، والحرامُ هو الشّيءُ الممنوعُ منه؛ إمّا بتسْخير إلهيٍّ، وإمّا بشريٍّ، وإمّا بمنعٍ قَهريٍّ، وإمّا بمنعٍ من جهة العقلِ أو من جهَة الشّرع، أو من جهَة من يُرتَسَمُ أمرُه. والحَرَامُ الشّرعيّ: نقيضُ الحَلالِ، وهو ما حرّمه اللّٰه؛ أي: منَع مِنْه، أو جعلَه ممنوعًا ويأثَم من يتخطّى إليه، والتّحريمُ هنا من جهةِ الشّرع عقوبةً لهم[2].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (هود).

(2) ابن فارس: مقاييس اللغة، والراغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (حرم).

3) ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: أصل الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفس، والطّعامُ الطَّيِّبُ شرعًا: ما كان متناولًا من حيثُ ما يجوزُ، وبقدْر ما يجوزُ، ومن المكان الّذي يجوزُ؛ فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُستوخَم، وإلّا فإنّه وإن كان طَيِّبًا عاجلًا لم يَطِبْ آجلًا(1).

4) ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: صَدَّ يَصُدُّ صُدُودًا، وصَدًّا. والصُّدُودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، كقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنْعًا كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، والصَّدّ: شيءٌ كثيفٌ، أو صُلْبٌ قويٌّ يعترضُ فيوقف النَّفاذَ؛ كالصُّدّ وهو الجبَل بالنِّسبة للسّائرِ باتّجاهِ، أو الصُّدَّين وهما ناحيتا الشِعْب أو الوادي بالنِّسبة للماءِ أو النّاس؛ فهما معترضان قويّان لا يُنْفَذُ منهما. والصدُّ هنا صدُّهم أنفسهم وغيرهم(2).

5) ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: الرِّبا: في الأصل الزِّيادةُ والنَّماءُ والعُلُوُّ. تقول: رَبَا يَربُو. والرِّبا: من ذواتِ الواو، وشذّت إمالتُه قياسًا لا استعمالًا، وكتبتْ في المصحف بواوٍ بعدها ألف، وتثنّى رِبَوَان بالواوِ عَلى الأصلِ، وقَد يُقالُ رِبيان عَلى التَّخْفيف، والرِّبا: الزّيادةُ على رأسِ المالِ، لكن خُصَّ في الشّرع بالزّيادةِ على وجهٍ دونَ وجهٍ، وباعتبار الزّيادة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: 39]؛ أي لِيَزيد بما يؤخَذ من أموالِهم استغلالًا لحاجَتهم ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: 39]؛ أي: فإنّه لا يَزيدُ على الحَقيقةِ بل ينقُصُ؛ لأنّ هذه الزّيادةَ تمحَقُه كلَّه(3).

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أخبرَ تعالى أنّه حرّمَ على أهل الكتابِ كثيرًا من الطّيّباتِ الّتي كانت حلالًا لهم، وهذا تحريمُ عقوبةٍ لهم بسببِ ظلمهم واعتدائِهم وما ارتكبوه من الذُّنوب العظيمة، وبصدِّهم أنفسَهم والنّاسَ عن سبيلِ الله، فحجَبُوهم عن الهدى، وكتَمُوا البشارة بالنّبيِّ ﷺ

(1) الرّاغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (طيب).

(2) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (صدَّ)، الرّاغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (صدد)، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (صدد - صدى).

(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (رَبَى - ربأ)، الرّاغب: المفردات: (ربو)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ربو)، والفيومي، المصباح المنير: (ربو)، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (ربو - ربي).

وأوصافِه كما وردت عندَهُم، وبسببِ أخذِهِم الرّبا من غيرِهِم وأكلِه معتقدين حِلّه، وبسببِ أكلهم أموالَ النّاسِ بطريقِ الرِّشوةِ والنَّصْبِ والاحتيالِ والغِشِّ ونحو ذلك، فعاقبَهُم في الدّنيا من جنسِ فعلِهم فمنعهم من كثيرٍ من الطّيّباتِ الّتي كانت حلالًا عندهم، وصار هذا التّحريمُ عامًّا، وفي الآخرةِ هيأ لهم عذابًا ذا إهانَةٍ ومذلّةٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فريدَةُ تركيبِ قولِه: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾، ودلالَتُها:

مناسبةِ تفَرُّدِهم بأنواعٍ من الظُّلمِ العظيم

دخولُ الفاءِ العاطفةِ على باءِ السَّببيَّةِ الجارَّةِ لكلمة (ظُلْم) لم يرِدْ إلَّا في هذا الموضع من القرآن الكريم.

ولمَّا اختصَّ اليهودُ بهذا الظُّلم البيّنِ - من نقضِ الميثاق، وكفرهم بآياتِ اللّه، وبُهتانهم على مريم، وقولهم إنَّا قتلنا المسيح - ناسبَ التّعبير بهذا التركيبِ الفريد، وهو قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ الّذي يُلَخِّصُ جرائمَهُم، ويفضحُ قبائحَهم في وصفٍ جامعٍ، يُعَدُّ سببًا في إيقاع العقوبةِ بهم في الدُّنيا والآخرَةِ.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾:

العطفُ لطولِ الكلامِ بين البدلِ والمُبدلِ منه

ذكر بعضهم أنَّ قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ بدلٌ من قوله ﴿فَبِمَا﴾ بإعادة العامل. فيقال: لو كان بدلًا لما دخلت عليه فاءُ العطفِ؛ لأن البدلَ تابعٌ بنفسِه من غير توسُّط حرفِ عطفٍ، وأُجيب عنه بأنه لَمَّا طالَ الكلامُ بين البدلِ والمُبدل منه أعادَ الفاءَ للطّولِ، ذكر ذلك أبو البقاءِ والزَّجاجُ والزَّمخشريُّ وأبو بكرٍ وغيرُهم[1].

دلالةُ الباءِ، ومتعلَّق الجارِّ والمَجرور:

قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾، وإليه ذهب الزّجاجُ، وتعقبّه في البحرِ بأنَّ فيه بُعْدًا؛ لكثرة الفواصلِ بين

(1) السمين، الدر المصون: 4/142.

البدل والمبدل منه؛ ولأنَّ المعطوفَ على السَّبب سببٌ؛ فيلزم تأخُّر بعض أجزاء السَّببِ الّذي للتّحريمِ عن التَّحريم؛ فلا يمكنُ أن يكونَ جزءَ سببٍ أو سببًا إلّا بتأويل بعيدٍ؛ وبيانُ ذلك أنَّ قولَهم ﴿عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ﴾ - متأخِّرٌ في الزّمان عن تحريم الطيِّباتِ عليهم، وقد يتكلّف لحلّه بأنَّ دوامَ التّحريم في كلِّ زمن كابتدائه، وجعل العَلامة الثّانية (الفاء) في ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ على هذا التّقدير تكرارًا للفاء في ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ عطفًا على ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم﴾ [النساء: 154]، أو جزاء شرطٍ مقدَّر، ولو جعلت الفاءُ للعطف على ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ كما في قولك: بزيد وبحسنِه، أو فبحسنِه، أو ثمّ حسنه افتتنتُ، لم يحتج إلى جعله بدلًا، وجوّز أبو البقاء وغيرُه التعلّقَ بمحذوفٍ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[1].

الباءُ للسَّببيَّة، والجارُّ والمجرورُ متعلّقٌ بـ(حرَّمْنا)

دلالةُ تنوينِ التّنكير في قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾:

التّعظيمُ والتّهويلُ للظلم الّذي صَدَر منهُم

وتنوينُ التّنكير في ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ للتعظيم؛ أي: بسببِ ظلم عظيم لا بسببِ شيءٍ آخرَ كما زعَموا أنّها كانت محرّمةً على مَن قبلَهم[2].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾:

التّنبيهُ عَلى فُحشِ الظُّلمِ وتقبيحُه والتَّحذيرُ مِنهُ

قَدَّمَ السَّبَبَ وهو (الظُّلم) عَلى المُسَبَّب وهو (تحريم الطّيِّبات)؛ تَنْبيهًا عَلى فُحشِ الظُّلم وتَقبيحًا لَهُ وتَحذيرًا مِنهُ[3]. وهو يُفيدُ الحَصْرَ؛ أي: حَرَّمَ عَليهم ذَلِكَ بِسَبَبِ الظُّلم لا بِسَبَبٍ آخَرَ، وقَد أبهَمَ ما حَرَّمَ عَليهم هُنا؛ لأَنَّ الغَرَضَ مِنَ السِّياقِ العِبرَةُ بِكَونِه عُقوبَةً لا بَيانُهُ في نَفسِه، كَما أَبهَمَ الظُّلمَ الَّذي كانَ سَبَبًا لَهُ؛ لِيَعلَمَ القارِئُ والسّامِعُ أَنَّ أَيَّ نَوعٍ مِنَ الظُّلمِ يَكونُ سَبَبًا لِلعِقابِ في الدُّنيا قَبلَ الآخِرَة[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/184.
(2) القِنّوجي، فتحُ البيان: 3/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/133.
(4) رضا، تفسير المنار: 6/50.

سرُّ التّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

إيــذانٌ بكمالِ عِظَمِ ظُلْمِهم

والتّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: - وهم الّذين تابُوا ورجَعُوا عن عبادةِ العجل - إيذانٌ بكمالِ عِظَم ظُلمِهم، بتذكير وقوعه بعد تلك التّوبة الهائلة، إثر بيانِ عِظَمِه بالتّنوين التّفخيميِّ؛ أي: بسببِ ظلم عظيم خارجٍ عن حدودِ الأشباهِ والنّظائرِ صادرٍ عنهم، حَرَّمْنا عَلَيهم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُم ولمن قَبلَهم، لا لشيءٍ غيره كما زعَمُوا(1).

سببُ العدولِ عن الضّميرِ إلى الاسمِ الظّاهرِ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

صُـدورُ الظُّـلْـمِ عَــنِ الَّــذيــنَ تابُوا عن عبادةِ العـجـل مَـحَـلُّ اسْتِغرابٍ

وعدل عن الضّمير (فَبِظُلْمِهِمْ) إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ حَتّى تَأْتِيَ الضّمائِرُ مُتَتابِعَةً مِنْ قَولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم﴾؛ ولِأَجلِ بُعدِ الضّميرِ في الجُملَةِ المُبدَلِ منها، وهِيَ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، ولِأَنَّ في المَوصولِ وصِلَتِهِ ما يَقتَضي التّنَزُّهَ عَنِ الظُّلم لَو كانوا كَما وَصَفوا أَنفُسَهُم، فَقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156] فَصُدورُ الظُّلْمِ عَنِ الَّذينَ هادوا مَحَلُّ اسْتِغرابٍ(2).

سرُّ ذكرِ الطّيباتِ ههنا مُجملةً وفي سورة الأنعام مفَصَّلةً:

سـيـاق سـورة الأنـعـام ناسب التفصيلَ، وهنا ناسبَ الاقتضابَ

الطَّيِّباتُ الّتي حُرِّمت على اليهود وردت هنا مجملةً، وفسرتها آيةُ الأنعام وهِيَ ما ذُكِرَ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]. وقرأ ابْنُ عَبّاسٍ: (طَيِّباتٍ كانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ)(3).

وهذا الإجمالُ المذكورُ هنا في سورة النّساءِ يناسب سياق تَعداد العقوبات والجزاء الذي وقع عليهم؛ بسبب عصيانهم وارتكابهم المحرَّمات، دون الخوض في تفصيل ما كان حِلًا لليهود؛ تفضُّلًا من

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/189.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/26.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/135، وهي قراءة شاذة.

اللّه ونعمة. وأمَّا ما جاء مفصَّلًا في سورة الأنعام فإنَّه يناسب تفصيل المحرَّمات التي ادَّعى المشركون أنها ممَّا حُرِّم عليهم من الأنعام، فبيَّن لهم النبيُّ ﷺ: أني لا أجد فيما أوحى اللّه إليَّ شيئًا محرمًا على مَن يأكله ممَّا تذكرون أنه حُرِّم من الأنعام، إلا أن يكون قد مات بغير تَذْكيةٍ، أو يكون دمًا مُراقًا، إلى آخر ما حرَّمه اللّه، ثم طلب اللّه تعالى إلى رسوله أن يذكر لهؤلاء المشركين - أيضًا - ما حَرَّمه على اليهود من البهائم والطير بصفة موسَّعة، فناسب المقام التفصيل أوَّلًا فيما زعمه المشركون محرَّمًا، والتفصيل ثانيًا فيما حرَّمه تعالى على اليهود؛ لكون التحريم المذكور على اليهود عقوبة منه سبحانه لهم، بسبب أعمالهم السيئة.

عِلَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ في: ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ﴾:

إفـادةُ التّخصيص بالتّحريم على اليهود دون غيرِهم من الأمم

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾ يفيدُ التّخصيصَ؛ إذ خُصُّوا بالتّحريم دون غيرهم من الأمم والأنبياءِ كما زعَمُوا.

نكتةُ عطفِ الخاصِّ على العامّ:

إفادةُ التّعظيمِ والمبالغةِ في الظّلم

بعد ظلمهم المذكور في الآية السابقة خصَّص أفعالًا لهم قد أسرفوا فيها، فقال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، وهو من عطفِ الخاصّ على العامّ، وتخصيصُ الأشياء الثّلاثةِ المذكورةِ بعد ظلمهم العامّ تعظيمًا لها؛ فنبّه تعالى أنّهم لمّا أسرفُوا وصارُوا يظلِمُون، ويصدّون عن سبيلِ اللّه، حرّمَ عليهم بعضَ الأطعمةِ، ليكونَ ذلك عقوبةً لهم من وجهٍ، وتهذيبًا يقمَعُ شهوتَهُم من وجهٍ آخرَ[1].

أثر إعرابِ كلمة ﴿كَثِيرٗا﴾ في المعنى بقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾:

في إعراب ﴿كَثِيرٗا﴾ ثلاثة أوجه؛ أظهرُها: أنّه مفعولٌ به؛ أي:

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 4/224 - 225.

بصدِّهم ناسًا أو فريقًا أو جمعًا كثيرًا، وقيل: نصبُه على المصدريّة؛ أي: صَدًّا كثيرًا. وقيل: على ظرفيّة الزّمان؛ أي: زمانًا كثيرًا[1]. وفي كلِّ هذه الأوجهِ إيجازٌ.

دلالةُ قوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

تَـأكـيـدُ قُـبـحِ فِعلِهِم وسوءِ صَنيعِهِم

وجملةُ ﴿وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾: جُملَةٌ حالِيَّةٌ تُفيدُ تَأكيدَ قُبحِ فِعلِهِم وسوءِ صَنيعِهِم؛ إِذْ ما نَهى اللهُ عَنهُ يَجِبُ أَنْ يُبعَدَ عَنهُ. قالوا: والرِّبا مُحَرَّمٌ في جَميعِ الشَّرائِعِ[2].

سرُّ التّرتيبِ في أنواعِ الظُّلمِ المذكورِ:

الارتقاءُ بالمعاني مِن الأَهَمِّ إلى المُهِمِّ

وقد بُدِئَ في أَنواعِ الظُّلمِ بِما هُوَ أَهَمُّ، وهُوَ أَمرُ الدّينِ، وهُوَ الصَّدُّ عَن سَبيلِ اللّه، ثُمَّ بِأَمرِ الدُّنيا وهُوَ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ الأَذى في بَعضِ المالِ، ثُمَّ ارْتَقى إِلى الأَبلَغِ في المالِ الدُّنيَوِيِّ وهُوَ أَكلُهُ بِالباطِلِ؛ أَي مَجّانًا لا عِوَضَ فيه.

وفي ذِكرِ هَذِهِ الآيَةِ امتِنانٌ عَلى هذه الأُمَّة؛ حَيثُ لَم يُعامِلهُم مُعامَلَةَ اليَهودِ فيُحَرِّمَ عَلَيهِم في الدُّنيا الطَّيِّباتِ عُقوبَةً لَهُم بِذُنوبِهِمْ[3].

وضعُ الاسمِ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ في: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ﴾:

التَّنبيهُ على علّةِ الحكمِ

وضعُ الاسمِ الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ؛ للتّنبيهِ على علّةِ الحكمِ؛ إذْ إنَّ الاسمَ الظّاهرَ يدلُّ عليها؛ فحسبُ الكفرِ ذنبًا يستَحِقّون به العذابَ الأليمَ.

وللإشعارِ بالعلّيّة، وللمقدَّرِ من نحو اللّعنةِ وضربِ الذِّلّةِ والمسكنةِ واستحقاقِ غضبِ اللّه، وما أشبه ذلك ليَجمَعَ لهم نكالَ الدّارين، وإنّما ذكَر معلولَ الوُسطى وهو ﴿حَرَّمۡنَا﴾؛ لكونِه أخفَّ من الأخرى[4].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/151.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/134.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 5/227.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ بيّن اللّه قبائحَ اليهودِ ومعايبَهم وجزاءَهم عليها، وأنّه عذابٌ شاملٌ للكلّ، ذكرَ الممدُوحين منهم، المُستَثنَين من استحقاقِ العذابِ، وهم فئةٌ مؤمنةٌ من الرّاسخين في علم التّوراةِ، الّذين تحقّقُوا من أمرِ النبيِّ ﷺ وعلاماته المذكورة عندَهُم، فآمنوا إيمانًا صادقًا باللّه، وبما أنزلَ إلى محمّدٍ ﷺ وإلى بقيّة الرّسلِ السّابقين، وهم لا يفرّقون بين أحدٍ منهم، وأدّوا فرائضَ اللّه، أولئك سينالون من ربّهم أجرًا عظيمًا وهو الجنّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: أي: الثّابتون المستقِرّون، والرّسوخُ في الأصل: ثبوتُ الشّيءِ بتمكّنٍ، ثمّ استُعير ذلك لمَنْ تحلّى بالعِلْمِ واختلطَ به لحمُه ودمُه، فيتَحقّق عنده تحقّقًا، إذا عرضَتْ له شُبهة لم يختلِج لها قلبُه ولم يتلعْثَم لها لسانُه، وكان ابن عباسٍ رضي الله عنهما يَصِفُ نفسَه بذلك، ويقول: "أنا منَ الرّاسِخين في العلْم" وصدَق، وهذا منه إخبارٌ لا تزكيةٌ - رضي الله عنهما -[1].

2) ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾: العَينُ واللَّامُ والمِيمُ أَصلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غَيرِهِ، مِن ذَلِكَ العَلَامَةُ، وهِيَ مَعرُوفَةٌ[2].

ومن ذلك المعنى المحوريِّ أُخِذَ معنى العِلْم وهو: "الاعتقادُ الجازمُ الثّابتُ المُطابق للواقعِ"؛ فكونُه اعتقادًا هو أنّه مَعْنًى أو حكمٌ تربّى في القلبِ أخذًا من دلالةٍ أو لافتٍ قويّ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رسخ).وينظر قول ابن عباس في تفسير الآية: 7 من سورة آل عمران: ابن جرير، جامع البيان: 5/220، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/11.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).

أو حجّة قويّة، وكونُه جازمًا يؤخذ من قوة اللّافتِ، وكونُه ثابتًا يُؤخذ من ثباتِ اللّافتِ واللّفْتِ، وكونُه مطابقًا للواقع يرجعُ أيضًا إلى قوّةِ اللّفت ودقّتِه[1].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

استثنى اللّه من استحقاقِ العذابِ الرَّاسخين في العِلْمِ الثّابتين فيه من اليهود، وهم المؤمنون إيمانًا صادقًا باللّه وبما أنزل عليك، وبما أنزل على مَن قبلَك مِن الرّسل، وخصَّ المقيمين الصّلاةَ منهم المؤدّين لها تامّة الشّروطِ والأركان، والمُؤتون زكاةَ أموالِهم لمن يستحقّها، والمُؤمنون باللّه واليومِ الآخر إيمانًا حقيقيًّا، هؤلاءِ الموصُوفُون بهذه الصّفاتِ، وهي صفاتُ المؤمنين إيمانًا حقًّا البعيدين في درجات الكمال، سيؤتيهم ربُّهم أجرًا عظيمًا من عندِه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

حُسنُ الاستِدراكِ في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

الاســـتـــدراك داخِـــلٌ بَـــيـنَ الكفر وعقابه، والإيمان وجزائه

﴿لَّٰكِنِ﴾: استِدراكٌ ناشئٌ عَلى ما يوهِمُهُ الكَلامُ السّابقُ ابتداءً من قَولِه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النِّساء: 153] مِنْ تَوَغُّلِهِمْ في الضّلالَةِ حَتّى لا يُرجى لِأَحَدٍ مِنهُم خَيرٌ وصَلاحٌ، فاستُدرِكَ بِأَنَّ الرّاسِخينَ في العِلْمِ مِنهُم لَيْسوا كَما تُوُهِّمَ، فهُم يُؤمِنونَ بِالقُرآنِ مِثلُ: عَبدِ اللّه بن سَلامٍ و مُخَيْريقٍ[2].

ومَجيءُ ﴿لَّٰكِنِ﴾ هُنا في غايَةِ الحُسنِ، لِأَنَّها داخِلَةٌ بَينَ نَقيضَينِ وجَزائِهِما، وهُمَا: الكافِرونَ والعَذابُ الأَليمُ، والمُؤمِنونَ والأَجرُ العَظيمُ[3].

وذِكْرُ العِلْمِ الرّاسخ والإيمان الّذي يفتحُ القلبَ للنّور، بوصفهما طريقًا إلى المعرفةِ الصّحيحةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علم).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/134.

نكتةُ تخصيصِ المُقِيمِينَ الصّلاةَ بالذّكر:

للتّنويه بهم وبيانِ فضلِ الصَّلاة

﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾: في إعرابها أقوال: أظهرُها: أنّه منصوبٌ على القطْع الّذي يُفيد المدح، أي: وأمْدَح، أو أعني، أو أخصُّ المُقيمين، وهذا القطعُ مفيدٌ لبيان فضل الصّلاة، وإبرازِ قيمةِ إقامتِها في هذا الموضعِ، فكثر الكلامُ في الوصف بأن جعل في جملة أخرى، وعلى هذا الوجه يجبُ أن يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جملة: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، وليس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾؛ لأنَّ القطعَ إنّما يَكونُ بعدَ تمامِ الكلام... وعلى القطع خرَّج سيبويه ذلك[1].

وقال الزَّمخشريُّ: "ولا يُلتَفَتُ إلى ما زَعَموا من وقوعه لحنًا في خطّ المُصحف، وربّما التفتَ إليه مَن لم ينظُر في (الكتاب)، ولمْ يَعرفْ مذاهبَ العرَب وما لهم في النّصبِ على الاختِصاصِ من الافتِنان، وغَبِيَ عليهِ أنّ السّابقينَ الأوّلينَ الّذينَ مَثَلُهُم في التّوراةِ ومثَلُهُم في الإنجيلِ كانوا أبعدَ همةً في الغَيرةِ على الإسلامِ وذبِّ المطاعِنِ عنه مِن أن يَتْركوا في كتابِ اللّه ثُلْمَةً ليَسُدّها مَن بعدَهم، وخَرقًا يَرْفوهُ مَن يَلْحَقُ بهم"[2].

عِلَّةُ تخْصيص عبادتي الصَّلاةِ والزّكاةِ بالذكر:

شرفهما وتعدّي منفعتهما

وخصَّ هاتين العبادتين بالذّكْر هنا لأنَّ الصّلاةَ أشرفُ الطّاعاتِ البدنيّةِ، كما أنَّ الزّكاةَ أشرفُ الطّاعاتِ الماليّةِ، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد[3].

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾:

علوُّ مرتبةِ المشارِ إليهم

بيّن ﷻ جزاءَ هؤلاء المؤمنين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وأشار إليهم بإشارةِ البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التي تدلُّ على علوّ مرتبةِ المشار إليه؛ أي: أولئك الّذين نالوا هذه الخصالَ كلّها، فآمَنوا بكلّ الأنبياءِ وتهذّبت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/395، 396.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/582.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 103.

ضمائرُهم بالصّلاة، وتعاونُوا فيما بينهم بالزّكاة، وآمنوا باللّه تعالى حقّ الإيمان، وصدّقوا بالبعثِ والنّشور، وصبرُوا في السّرّاء والضّرّاء، هؤلاء المتَّصفُون بهذه الصّفاتِ يستحقُّون بسَبَبِها جزاءً عظيمًا.

دلالةُ كثرة التأكيداتِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾:

بيانُ منزلتِهم برسوخ العلم والإيمان الكامل عند الله

وقد أكّدَ ذلك الجزاءَ بثلاثةِ مؤكِّدات:

أوّلها: السّين في قوله: ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾؛ لأنّها لتأكيدِ الوقوع في المستقبل.

وثانيها: إسنادُ العطاءِ إلى اللّه تعالى القادر على كلِّ شيءٍ، وهو لا يخلفُ الميعاد.

ثالثها: تنكيرُ الأجر، ووصْفُه بالعظمةِ، فهو أجرٌ عظيمٌ لا يجري في خيال البشر، ويعلَمُه خالقُ البشر[1].

وقرأ جمهور القرّاء ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾ بنون العظَمة، على الالتفاتِ من الغَيْبة إلى التّكلّم، والفاعل ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديره (نحن) يعود على اللّه تعالى.

وقرأ حمزة، وخلف العاشر: ﴿سَيُؤۡتِيهِمۡ﴾ بالياء التّحتيّة، وذلك جريًا على السّياق، والفاعل ضميرٌ تقديره (هو) يعود على اللّه تعالى[2].

بلاغةُ المقابلةِ[3] بين المؤمنين وأجرِهم، والكافرين وعذابِهم:

بيانُ فضلِ المؤمنين وجزائهم، بعد ذكر الكافرين وعذابِهم

بعد ما ذكر اللّه جزاءَ الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيّنَ جزاءَ المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾؛ فقابل معنيين بمعنيين، قابلَ الكفرَ بالإيمان، والعذابَ الأليمَ بالأجرِ العظيم؛ ليتَّضحَ الفرقُ بين من يشرحُ اللّه صدرَه للإيمان، ويعملُ بما يعلَمُ، ومن طَبَعَ اللّه على قلبِه، وافْتَرى على اللّه زورًا وبهتانًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1961.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/253، ومحَيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 2/165.

(3) عرف القَزْويني المقابلة بقوله: "هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب"، ينظر: القزويني، التلخيص، ص: 352.

﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــــردّ عـلـى طـالـبـي كـتـاب مـن الـسّـمـاء، بـــأنّ الـرّسـل مؤيّدون بالوحي والاصطفاء

لَمَّا حَكى اللّه تعالى عن اليهود أنَّهم سألوا النَّبيَّ ﷺ أن يُنَزِّل عليهم كتابًا من السَّماء يُثْبت نبوَّته، وكان هذا منهم عِنادًا ولِجاجًا، وذكَر جملة من جرائمهم وقبائحهم ومصيرهم؛ واستثنى الرّاسخين في العلم، الّذين يؤمنون بالمنزل عليه، وعلى من قبله، ويعبدون اللّه، ويؤمنون بالآخرة، جاء الرَّدُّ على طلبهم ذاك، فأخبر سبحانه أنَّه أرسل النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ، كما أرسل من تقدّمه من الأنبياء، سواء منهم من ذُكر في القرآن، أم لم يُذكر، وأظهر على يديه المعجزات، كما أظهرها على أيديهم، فهم مشتركون في ثبوت النُّبوَّة بالوحي إليهم على اختلاف أنواع الوحي، وتصديق نبوَّتهم بالمعجزات، وكان هذا كافيًا في إثبات نبوَّتهم، دون حاجة إلى إنزال كتابٍ من السّماء[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: أصل الوَحْي: إعْلامٌ في خَفاءٍ وسرعة، يُقالُ: وَحى إِلَيْهِ بِالكَلامِ يَحِي وَحْيًا، وَأَوْحى يُوحِي إيحاءً، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ، وَكُلُّ ما أَلقَيْتَهُ إِلى غَيْرِك حَتّى عَلِمَهُ، فَهو وَحْيٌ كَيْفَ كانَ، سواء كان بالكلام على سبيل الرّمز والتّعرُّض، أم بصوتٍ مجرَّدٍ عن التَّركيب أم بإشارة بعض الجوارح وبالكتابة.

والوَحْيُ: هو ما يُلقيه اللّه تعالى إلى أنبيائه، وهو أنواعٌ، يشير إلى

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/266.

بعضها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾ [الشّورى: 51][1].

2) ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمعُ سِبْط، وهو ولَدُ الوَلَدِ، وأصله: من سبَط، أي: امتدّ، وتَتَابَعَ، كأنَّه امتداد للفروع والنّسب، وهم أسباط إسحاق، والسِّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، فهُمْ في وَلَدِ يعقوبَ، كالقبائل في وَلَدِ إسماعيل، وهم اثنا عشر سبطًا من اثنَي عشر ولدًا ليعقوب عليه السلام وسُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان من كلِّ واحد منهم سِبط، أي: أمَّة عظيمة، واشتقاقُهم من السَّبْط، وهو: التّتابعُ، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم أمَّة متتابعون، وقيل: هو مَقْلوبٌ من البَسْط، وقيل: مِن السَّبَط: بالتَّحريك جمع: سَبَطة، وهي الشَّجرة الَّتي أصلها واحدٌ، وأغصانها كثيرةٌ، فسُمُّوا بذلك لكثرتهم[2].

3) ﴿زَبُورًا﴾: أصل الزَّبْرِ: إِحْكامُ الشَّيْءِ وَتَوْثيقُهُ، بِقِراءَةٍ وَكِتابَةٍ ونحو ذَلِكَ؛ لأنَّ الكتابة تحتاج إحكامًا، وتوثَّق بها الأشياء، والزَّبْرُ: إِحكام العمل في البئر، تقول: بئر مزبورة؛ إذا كانت مطويَّة بالحجارة، والزَّبْر: إِحْكام الكتاب، يقال: زَبَرْتُ الكتاب: كتبته كتابة غليظة، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المنزَّل على داود عليه السلام وجمعه: زُبُر، قيل: الزَّبور: اسم لكلِّ كتاب ليس فيه أحكام، ولذلك سمِّي ما نزل على داود زبورًا؛ إذ لم يكن فيه أحكام، بل أمثال وعظات[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كما أوحى الله إلى الأنبياء السّابقين، أوحى يقينا إلى خاتم المرسلين

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم، بأنَّه أَوْحى إليه مِثْلَ ما أوحى إلى نوحٍ والأنبياء مِن بعدِه، وأوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ابنَي إبراهيم، ويعقوبَ بن إسحاق، والأنبياء من الأسباطِ أولادِ يعقوب، وفيهم يوسف النَّبيُّ، وعيسى، وأيُّوب، ويونسُ، وهارون، وسُليمان،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (وحي)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/15.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (سبط)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/322، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/138.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/132، وابن فارس، مقاييس اللّغة الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (زبر).

وأعطى داودَ عليه السلام كتاب الزَّبور، فيه التَّحميد والتَّمجيد والثَّناء على اللّه جل جلاله.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الـوحـي عـامل مـشـترك بين الـنّـبـيين، وبين رسـول الختام الأمين

ورود التّعبير بالضّمير (نا) خمس مرّات، وتأكيده بضمير عظمة الذّات:

﴿إِنَّآ﴾ إنَّ: حرف ناسخ يفيد التّوكيد، و(نا): ضمير متَّصل بصيغة الجمع؛ لتعظيم الوحي والمُوحى إليه، وهذا التَّأكيد يفيد الاهتمامَ بهذا الخبر، أو تنزيلَ المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكر كيفيَّةَ الوحي لغير موسى من الرُّسل[1].

النّبوّة المحمّديّة الخاتمة، تتويج لـلـرّسـالات السّابقة

دلالة الفصل وأثره في المعنى، في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

فصلت هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لأنَّها جملة استئنافيَّة، جاءت للرَّدِّ على اليهود في طلبهم أن يُنَزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملة واحدة[2]، وقد جاء هذا النّص مربوطًا في المعنى بطلبهم أن يُنَزِّل اللّه عليهم كتابًا من السّماء،، ففي هذه الآية بيان بأنّه تعالى أوحى إلى محمّد صلى الله عليه وسلم، و أنّه ليس بدعا من الرُّسل، بل هو في تلقّي الوحي، لا يختلف عنهم البتّة[3].

الـوحـيُ كـلامُ الـلـه المـقـدّس، والإرسـالُ تبليغٌ للمنهج المكرّس

إيثار استعمال الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ عوضا عن الفعل (أرسلنا):

اختار التَّعبير بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ دون أرسلنا؛ لأنَّ الوحي يختلف عن الإرسال، فمعناه: إعلام في خفاء؛ لأنَّ أصله الإشارة السَّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عن التَّركيب، و بإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وأكثر ما ورد في القرآن الكريم، بمعنى كلام اللّه تعالى الّذي ألقاه إلى أنبيائه ورسله عن طريق جبريل، بخلاف الإرسال؛ فإنَّه يكون ببعث من له اختيار

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/31.
(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/447.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1963.

نحو إرسال الرُّسل، ويكون في الأشياء الممنوعة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتَّسخير، كإرسال الرِّيح والمطر.ويُلاحظ في الوحي - أيضًا - معنى السُّرعة كما سبق، بخلاف الإرسال؛ فهو على التُّؤدة؛ ولأنَّ الوحي أعمُّ لتعدُّد صوره؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]؛ ولأنَّ الوحي - أيضًا- يلزم منه الإرسالُ، وعلى ذلك فالوحي أعمُّ من الإرسال.

دلالة تعدِّي الفعل (أوحى) بحرف الجرّ (إلى) دون حرف (اللَّام):

الوحي هداية السّماء للأرض لبيان ما شرّعه من ممنوع وفرض

يَجِدُ النَّاظر في القرآن الكريم أنَّ الفعل (أوحى) تعدَّى بحرف الجرّ (إلى) في أكثر مواضعه، والمراد به كلام اللّه تعالى الّذي ألقاه إلى أنبيائه ورسله عن طريق جبريل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: 3]، وقد يَرِدُ بمعنى: الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وبمعنى: الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾ [مريم: 11]، و(إلى) في جميع هذه المواضع بمعنى: انتهاء الغاية، أي: انتهاء الوحي ووصوله إلى من يوحى إليه، بخلاف تعدِّيه بحرف اللّام، في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزّلزلة: 5] في سورة الزّلزلة؛ فهو بمعنى: الأمر والإذن.

وعلَّل أبو حيَّان سِرَّ التَّعدية بـ (اللّام) بمراعاة الفاصلة، ولعلَّ ذلك يكون له وجه في مراعاة الجانب الصَّوتي في السُّورة؛ فهو أشدُّ تأثيرًا في القلوب.

وعلَّلَ ابن عاشور سِرَّ اختيار (اللّام) في قوله: ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزّلزلة: 5] بتضمينه معنى: قال. وعلى ذلك كان المناسب تعدِّي الفعل أوحى بـ (إلى)؛ لأنَّه الأوفق في إبلاغ كلام اللّه تعالى إلى أنبيائه ورسله؛ فهو غاية في ذاته.

سرّ تقديم النَّبيِّ الخاتم في المقال، مع تأخّره عن الأنبياء في الإرسال:

من تقدّم عند الله ذكره علا في الملإ الأعلى قدره

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: فيه تخصيص رسول اللّه ﷺ بالخطاب، وفيه تكذيب للَّذين قالوا: ما أنزل اللّه على بشر من شيء بعد موسى[1]، وحذَف المفعول به اختصارًا لوضوحه وعدم لَبْسه، أي: أوحينا إليك القرآن. مع الإشارة إلى أنَّ البشريَّة جمعاء مطالبة بالإيمان به، وبما جاء به جملة وتفصيلًا، وفيه إشارة - أيضًا- إلى نسخ الشَّرائع السَّابقة والعمل بشريعته ﷺ.

مخاطبة النّبيّ بكاف الخطاب، ليدفع عنه الغلوّ في الارتياب:

الوحي إليه على رأس النّبوات دليل على ما أوتيه من فضائل وتكرمات

تدلُّ كاف الخطاب على علوِّ قدره ﷺ وعلوِّ مكانته، فإذا كانت اليهود تستعلي عن قبول دعوته ﷺ بحجَّة تكليم اللّه لموسى؛ فقد جاءت كاف الخطاب هنا، لتدلَّ على هذا المعنى وزيادة؛ لأنَّ خطاب اللّه لنبيِّه ﷺ يدلُّ على قربه وعظيم منزلته عند ربِّه. وفيه إشارة إلى أنَّه ﷺ مبعوثٌ لأهل الكتاب لإرشادهم وتعليمهم وزجرهم عن المخالفات.

بلاغة التَّشبيه للوحي إليه، بالوحي للنَّبيِّين مع اختلاف أزمانهم:

الوحي معينٌ لا ينتهي مددُه، ولا ينقطعُ سندُه

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، أي: أوحينا إليك إيحاءً، مثل: إيحائنا إلى نوح، والنَّبيِّين من بعده، وهو تشبيه مرسَل مفصّل: حيث إنَّ تخصيص نوح بالذِّكر للتّشريف، وتخصيص بعض الأنبياء بالذِّكر لإظهار فضلهم، والتّشبيه بجِنس الوحي، وإنِ اختلفتْ أنواعه، واختلف الموحى به[2].

سرُّ البدء بنوح عليه السلام، قبل سائر الأنبياء العظام:

وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنَّه كان أبا البشر، مثل: آدم عليه السلام قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصَّافّات: 77]، والكلُّ يعرفه بالأخبار المتواترة، وسُمِّيَ آدم الأصغر، ولأنَّه أوّل نبيٍّ من أنبياء

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/31.

الشَّريعة، وأوَّل أولي العزم من الرُّسل، وكان أطول الأنبياء عُمرًا، وجُعلتْ معجزتُه في نفسه؛ لأنَّه عُمِّر ألفَ سنة، ولم تنقص له قوَّة، كما صبر على أذى قومه، وقاسى الشَّدائد منهم على طول عمره، وهو أوَّل من عذِّبت أمَّته لردِّهم دعوته[1]، وفي هذا تهديد لمنكري الوحي، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بقوم نوح (عليه السلام).

نوح أطول الأنبياء دعوة ومعاتبة، وأكثرهم صبرا ومغالبة

دلالة عدم ذكر الموحى به، في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

لم يذكر الموحى به؛ لإفادة العموم، فيشمل القرآن والسُّنَّة، ولأنَّه معلومٌ لديهم؛ فهو علم لا يحتاج إلى ذكر لمعرفتهم به، ومعنى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي "بكلامنا وأوامرنا ونواهينا وهداياتنا.. كما أوحينا إلى نبيّنا نوح وإلى سائر الأنبياء الّذين جاءوا من بعده"[2]، وما أوحي إلى النّبيّ ﷺ وإلى سائر الأنبياء، معلوم المضمون، لأنّ الدّين عند اللّه الإسلام، والمنهج في التّوحيد والعبوديّة واحد، وما يختلف هو الشّرائع المميّزة لكلّ رسالة عن أختها.

الأنبياءُ أبناءُ عَلَّات، أبُوهُم واحدٌ وأُمّهاتُهُم شتّى

دلالة اختيار حرف (الكاف) في قوله: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ دون لفظ (مِثل):

اختار الكاف دون مِثل؛ للإشارة إلى عدم الاتِّفاق في كلِّ أمور الوحي؛ لأنَّ مِثل تعني: الاتِّفاق في الذَّات والصِّفة، وهذا يخالف تعدُّد صور الوحي والموحى به؛ لذلك كان التَّشبيه بالكاف؛ لأنَّه يلمح بعض وجوه التَّشبيه، ولا يلزم الاتِّفاق في كلِّ الجوانب.

كاف التّشبيه فارقة في الدّلالة عن المعنى المثّل له بها

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

الفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، وفي هذا إشارة إلى أنَّ نبوَّته ﷺ، أمرٌ قديم قدَّره اللّه أزلًا، وليس اجتهادًا، ولا ادِّعاءً، وفي هذا ردٌّ على المعاندين والمعارضين من أهل الكتاب والمشركين.

الرّسولُ ﷺ مُقرّرٌ إرساله في الأزل، ولا مدعاة لما يُثارُ من جدل

---

(1) الشّربيني، السّراج المنير: 1/345.

(2) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 3/390.

دلالة التّعبير بـ (ما) دون الّذي في قوله: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

لا ريب أنّ القرآن حقٌّ يؤثر، وقيم لا تنكر

عبر بـ (ما) دون الّذي؛ لأنَّها أعمُّ، فتحتمل أن تكون مصدريَّة، والمعنى: كوحينا الّذي أوحيناه، ولا تحتاج إلى تقدير عائد، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى: (الّذي)، ويكون العائد محذوفًا تقديره: كالَّذي أوحيناه إلى نوح[1]، وفي حالتيها المقدّرتين، تفيد أنّ الموحى منسوب إلى اللّه، وعظم القرآن في فحواه، بقدر عظمة من أنزله وآتاه.

دلالة البدء بذكر نوحٍ في التَّشبيه، دون غيره من الأنبياء:

نوح رمز لطول المعاناة، والدّعوة في صبر وأناة

لأنَّ دعوة نوح (عليه السلام) تمثّل دعوة عامَّة لكلِّ البشر آنذاك، ورسول اللّه ﷺ دعوته عامَّة لكلِّ البشر، فوجد وجه جامعٌ بينهما في عموم الرِّسالة، وأيضًا في تحمُّل الأذى من المدعوِّين، وفيه إشارة لتهديد المعاندين والمعارضين من اليهود والمشركين بإنزال العذاب عليهم، كما أنزله اللّه على قوم نوح (عليه السلام).

دلالة عطف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بدون ذكر فعل الوحي:

النّبيؤون يتلو بعضهم بعضا، في الوحي والبلاغ

لم يذكر فعل الوحي مرَّة ثانية مع النَّبيين - كما سبق ذكره - إمَّا اكتفاءً بما سبق، أو للإشارة إلى أنَّ بعض النَّبيِّين كان متَّبعًا للرُّسل الّذين سبقوه، فليس لهم شريعة مستقلَّة، بل هم تابعون لهم فيما أنزله اللّه عليهم.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون لفظ(المرسلين):

النّبوّة تشريف، والرّسالة تكليف

عبَّر بالنَّبيِّين؛ لأنَّهم أعمُّ من الرُّسل؛ فكلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، ولأنَّ الأنبياء ليس لهم شرع جديد؛ فهم لا يكلَّفون بالتَّبليغ، وإذا فعلوا؛ يكون من باب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ممّا يقتضيه الصّلاح، وتتطلّبه الغيرة على حرمات اللّه.

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/447.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون لفظ (الأنبياء):

الأنبياء صفوة من الكرام، والكرام قلّة في الأنام

عبَّر بالنَّبيِّين هنا؛ لأنَّ المقام يناسبه التَّعبير بجمع القلَّة؛ فلم يذكر كلَّ الأنبياء، بدليل قوله بعد ذلك، ﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾، والرُّسل تشمل الأنبياء.

سرُّ ذكر بعض الأنبياء بأسمائهم بعد ذكرهم إجمالًا:

دلالة عطف الخاصّ على العامّ

وخَصَّ بعضَ النَّبيِّين من بعد نوح بالذِّكر؛ لشهرتِهم، وعلوِّ مقامِهم عند أهل الكتاب، والمقام مقام تسلية لقلب النَّبيِّ ﷺ وتأسٍّ، كانّه يقول له: لك أسوةٌ بالنّبوات السَّالفة، فتأسَّ بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120][(1)]، وذكر أسماء بعض الأنبياء من عطف الخاصِّ على العامِّ.

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ ثلاث مرّات في الآية:

الوحي يقين وعرفان، وتجلٍّ بعوارف الإيمان

كرَّر الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ لمزيد تقريرِ الإيحاء، والتَّنبيه على شرف هؤلاء الرُّسُل والنَّبيِّين الَّذين ذكر أسماءهم، و على أنَّهم طائفةٌ خاصّة مستقلَّة بنوعٍ مخصوصٍ من الوحي، و"حقيقة الوحي الإلهيّ: عرفان يجده الشّخص من نفسه، مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة"[(2)].

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مع (إبراهيم)، بعد ذكره مع نوح:

نوحٌ آدمُ الثّاني، وإبراهيمُ رمزٌ لتجديد المعاني

كُرِّر الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مع إبراهيم (عليه السلام)، ولم يُكتفَ بذكره سابقًا للإشعار بوجود فترة زمنيَّة كبيرة بين نوح وإبراهيم - عليهما السلام - وفيه إشارة إلى أصالة كلٍّ منهما في أمر الوحي، فنوح عليه السلام يمثِّل مرحلة فاصلة في حياة البشريَّة، فهو أبو البشريَّة الثَّاني، وأمَّا إبراهيم

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 5/231.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/414.

ﷺ فهو أبو الأنبياء جميعًا؛ لذلك استقلَّ كلٌّ منهما بفعل الوحي، وعطفت الجملتان على بعضهما، ودخلتا في حكم التّشبيه[1].

ضمّ أبناء إبراهيم وأسباطه إليه، مع أنّ الصّحف لم تنزل إلّا عليه:

بيان ما لإبراهيم من مآثر ورثها الكابر عن الكابر

لأنَّهم كلِّفوا بالعمل بما أنزل على إبراهيم ﷺ فهم داخلون تحت شريعته، والمعنى في الآية: أوحينا إليك القرآن، كما أوحينا إلى إبراهيم، و"كما أوحينا إلى ابنه إسماعيل، وابنه إسحاق، وكما أوحينا إلى يعقوب بن إسحاق، وكما أوحينا إلى الأسباط وهم أولاد يعقوب"[2].

دلالة تقديم (عيسى) على (أيُّوب)، مع تقدُّمه في الزَّمان عليه:

يقدّم النّبيّ في الذّكروالثناء، بتميّزه في الاصطفاء والعطاء

قدَّم عيسى ﷺ على من بعده تحقيقًا لنبوّته، وقطعًا لما ذكره اليهود فيه[3] وردًّا على اليهود الَّذين كفروا به، وكذَّبوه، وأنّه روح اللّه ومعجزة الخلّاق القدير، الّذي أوجده من أمّ بلا أب، وكان محور الجدل حيًّا وميّتًا، ونال من الشّهرة الواسعة، وحاز من الأتباع والحواريين، مالم ينله أيّوب ولم يحزه كثير من الأنبياء أمثاله، فلم يكن مستغربًا أن يقدّم عيسى على أيّوب في السّياق.

دلالة ذكر جمع من الأنبياء والرُّسل في آية واحدة:

جرى الاعتقاد والعمل بأنّ لا تفريق بين الرّسل

دلَّ هذا الجمع الكريم للرُّسل على إقامة الحجَّة على مَن يفرِّقون بين رسل اللّه، ويقولون: نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعض، كيف ذلك، وكلُّهم يحملون الهداية والرَّحمة إلى عباد اللّه تعالى، فكيف تقبلون على بعضهم، وتكفرون ببعضهم؟ وفيه إشارة لإقامة الدَّليل العقليِّ على نبوَّته ﷺ، من خلال جمع الوحي بينه وبين نوح ﷺ والنَّبيِّين من بعده، فكما أوحى اللّه إليهم، واعترفتم، وصدقتم، كذلك أوحى اللّه إلى رسولنا ﷺ[4].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/391.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/391.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/255.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1010.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ دون قوله: (أوحينا):

يشبه الزّبور القرآنَ في أنّه أنزل مثله منجَّمًا

التَّعبير بـ ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ دون (أَوۡحَيۡنَا)؛ لأنَّها معطوفة على ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ داخلة في حكمها، ولأنَّ إيتاء الزَّبور من باب الإيحاء، أي: وكما آتينا داود زبورًا آتيناك القرآن، وإيثاره ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ على (أوحينا) إلى داود؛ لتحقُّق المماثلة في أمر خاصٍّ، وهو إيتاء الكتاب بعد تحقُّقها في مطلق الإيحاء[1]، ولعلَّ اختصاص الزَّبور بالذِّكر؛ لأنَّه لم ينزل على داود جملة واحدة، بل نزل منجَّمًا كالقرآن[2]، وذهب البعض في تعليل ذلك إلى" أنَّ الزَّبور لم يكن من كلمات اللّه الموحَى بها، وإنَّما كانت إلهامات ومشاعر فاض بها قلب داود في مقام الولاء والخشوع للّه، فكانت ترانيم جرت على لسانه؛ ليمجِّد اللّه بها، ويرفعها إليه في صلوات خاشعة، أشبه بالمأثور من دعاء النَّبيِّ ﷺ في مواقف صلواته للّه، وتسبيحه له، ولهذا أضيفت إليه، فسمِّيت: مزامير داود"[3].

من أسرار ترتيب الأنبياء في الذّكر والتّنزّل والتّكريم:

جمَع في النّبيّ الخاتم، ما تفرّق في الأنبياء الأكارم

ذكر تعالى في هذه الآية اثنَي عشر نبيًّا بأسمائهم، وأجملَ ذكر باقيهم، وذكر بعض أولي العزم وبعضًا من غيرهم، وذكر بعضهم على التَّرتيب، وذلك أنَّه أراد أن يبيِّن أنَّه أوحى إليه، كما أوحى إليهم، وخصَّه بما خصَّ كلَّ واحد منهم به تفضيلًا له وتشريفًا، وأنَّه جرى معهم مثل ما جرى معه، فذلك من الحساب المغني بجملته عن التفصيل؛ فذكر نوحًا الَّذي هو أوَّل أولي العزم من الرُّسل والنَّبيِّين ومَن بعده مجملًا، ثمَّ فصَّل النَّبيِّين: فذكر إبراهيم الَّذي كان أوَّل النَّبيِّين من أولي العزم بعد نوح، وذكر معه من جرى منه

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/255.
(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/530.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1011.

مجرى أبعاضه في كونهم تابعين له، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ثمّ ذكر آخر أولي العزم: وهو عيسى، ثمَّ الأواسط: أيُّوب ويونس وهارون، ثمّ ذكر من أوتي الكتاب مجملًا: وهو داوود، فالزَّبور اسم كتابه، وأفرد ذكر موسى من حيث إنَّه خُصَّ بالتَّكلُّم، وكلُّ هذه الفضائل كانت للنَّبيِّ ﷺ [1].

المقارنة في ترتيب الأنبياء، بين ما ورد في سورتَي النِّساء والأنعام:

ترتيب الأنبياء مرتبط بالتّنزّل والإنـعـام على الرّسل الكرام

ترتيب الأنبياء هنا اختلف عن ترتيبهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦﴾ [الأنعام: 83 - 86]، وذلك أنّ آية النِّساء هنا نزلت ردًّا على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [النساء: 153]، وردًّا على قول المشركين: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾ [الإسراء: 93] فبيّن هنا أنَّه لم ينزل على كلِّ الأنبياء كتابًا، بل بعضهم بوحي من غير كتاب، وبعضهم بوحي وكتاب، وبعضهم بوحي وصُحُف، فقدَّم نوحًا لعدم نزول كتاب عليه مع نبوّته، وأجمل النَّبيِّين من بعده، ثمَّ فصّلهم: فقدَّم إبراهيم لإنزال صحفه، وتلاه بمن لا كتاب له، ثمَّ قدَّم عيسى للإنجيل، ثمَّ تلاه بمن لا كتاب له، وهم: أيُّوب ومَن بعده، ثمَّ قدّم داود وزبوره، وتلاه بمن لا كتاب له ممَّن قصّهم أو لم يقصَّهم، ثمَّ ذكر موسى لبيان أنَّ تشريفه للأنبياء ليس بالكتاب، ولذلك خصَّ بعضهم بما شاء من أنواع الكرامات: إمَّا بتكليم أو إسراء، أو إنزال كتاب، أو صحيفة، فناسب هذا التّرتيب

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/230 - 231.

ما تقدَّم. أمَّا آيات الأنعام؛ فساقها في سياق نِعَمِه على إبراهيم، ومَن ذكره مِن ذرِّيّته، ففرَّق بين كلٍّ اثنين منهم، بما اتَّفق لهما من وصف خاصٍّ بهما: فداوود وسليمان بالملك والنُّبوَّة، وأيُّوب ويوسف بنجاتهم من الابتلاء: ذاك بالمرض، وهذا بالسِّجن، وموسى وهارون بالأخوَّة والنُّبوَّة، وزكريَّا ويحيى بالشِّهادة، وعيسى وإلياس بالسِّياحة، وإسماعيل واليسَع بصدق الوعد، ويونس ولوط بخروج كلٍّ منهما من قرية مَن بعث إليه، ونجاة يونس من الحوت، ولوط من هلاك قومه[1].

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 143 - 145.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النّساء: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّعقيب بأنّ من الرّسل من لم يذكر، وأنّ موسى هو الكليم من البشر

لَمّا ذكر اللّه ﷻ في الآية السَّابقة عددًا من الأنبياء الَّذين أُرسلوا إلى أقوامهم، وكان ذلك بالبدء مع نوح (﵇)والختم بأنبياء بني إسرائيل؛ جاءت هذه الآية لتبيِّن أنَّ ما ذُكر قبل ذلك، ليس العدد الكليَّ للأنبياء والرُّسل، فمنهم من قصَّ اللّه خبره مع قومه على الرَّسول ﷺ، ومنهم من لم يقصص اللّه خبره على رسولنا ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾: القصُّ: تتبُّع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، ويقال لما يبقى من الكلأ، فيُتتبَّع أثره: قصيص، والقصص: الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ [آل عمران: 62][1].

2) ﴿وَكَلَّمَ﴾: الكَلْمُ: التَّأثير المُدرك بإحدى الحاسَّتين، فالكلام مدركٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ بحاسَّة البصر، وكَلَمْتُه: جرحته جراحةً بان تأثيرها، والكلامُ يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني الَّتي تحتها مجموعة، وعند النحويِّين يقع على الجزء منه اسمًا كان أو فعلًا أو أداة، وأيضًا هو المعنى المركَّب الَّذي فيه الإسناد التَّامُّ، وعند كثيرٍ من المتكلِّمين لا يقع إلّا على الجملة المركَّبة المفيدة، وهو أخصُّ من القول[2].

(1) الراغب، المفردات: (قصص).

(2) الرّاغب، المفردات: (كلم)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 185.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أخبر اللّه رسوله في هذه الآية: أنَّه أَوْحى إلى رُسلٍ قد قصَّ عليه نبأهم في القرآن قبلَ أن تنزلَ هذه الآيات، وأَوْحى إلى رسل آخَرينَ، لم يَقْصُص عليه أخبارهم في كتابه، وقد خصَّ موسى عليه السلام فجعله كليمه، يكَلِّمه دون واسطةٍ.

من الرّسل - كموسى الكليم - مَن قُصّ خبره، ومنْهم منْ لم يُقصص أثرُه

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علّة ذكر قصص بعض الأنبياء، دون بعضها الآخر:

دلالة التَّعبير بـ (القصّ) في قوله تعالى ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾

عبَّر بالفعل ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾؛ لإقامة الحجَّة على المشركين وأهل الكتاب بذكر ما يعرفون وترك ما لا يعرفون، وقصص البشر يعتريها الزّيف، ويخالطها الخيال الكاذب، المجانف للواقع، بينما قصص القرآن عن الأنبياء وأقوامهم، هي قصص صادقة، نابعة من توصيف لواقع حدث فعلا، وأنّ البحوث التّاريخيّة، قد وصلت إلى نتائج، تنطبق بصدق وواقعيّة على ما ذكره القرآن في إعجاز أثير، ووصف دقيق منقطع النّظير، وهو ما يؤكّد صدقيّة القرآن، وتطابقة مع الآثار والحفريات والأخبار، بما لا يدع مجالا للشّكّ، ولا منفذًا للطّعن في أيِّ قصّة من قصص القرآن.

دلالة حذف متعلَّق ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾، وأثره في المعنى:

حذف المضاف إليه اختصارًا، والمعنى: قصصنا عليك أخبارهم في القرآن من قبل إنزال سورة النِّساء، يعني: في السُّوَر الأخرى الَّتي أنزلت قبلها، وسورةُ النِّساء من أواخر السُّوَر نزولًا، والواقع أنّ القصّة الواحدة قد تذكر بصيغ شتّى في مواضع مختلفة من القرآن، ولكنّها تعرض القصّة من زوايا مختلفة، يكمّل بعضها بعضًا، في دقّة رائعة.

قصص سورة النّساء يتكامل مع ما قصّه الله في ثنايا القرآن

دلالة العدول عن الظَّاهر إلى الضَّمير، في قوله: ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾:

إيراد الضّمير في السّياق يعتبر تلافيا للإطناب والتّكرير

عدل عن الظَّاهر إلى الضّمير في قوله: ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾؛ لسبق ذكرهم في الآية السَّابقة في قوله: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية، "وقولهم ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾، أي وقصصنا رسلاً كما قالواْ، وفرّعوا عليه، إنَّ قولَه تعالَى ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ على الوجه الأوّل منصوبٌ على أنّه صفةٌ لرسلاً، وعلى الوجه الثّاني لا محلَّ له من الإعراب"[1].

سرُّ ذكر الله تعالى لهؤلاء الأنبياء دون سواهم:

كثرة الأنبياء في بني إسرائيل، علامة انحراف دائم عن التّنزيل

ذَكَرَ اللّه تعالى هؤلاء الأَنْبياءَ الَّذينَ اشْتُهِروا عِنْدَ بَني إِسْرائيلَ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ مُحاجَّتُهُمْ[2]، وبنو إسرائيل كثرت أنبياؤهم، لكثرة جنوحهم إلى الضّلال، ونسيانهم ما ذكّرواْ به على التّوالي، فكانت الرّسل تتعاقب فيهم، ليرجعوهم إلى الجادّة، وليذكّروهم ما نسوا من هداية اللّه وكتابه.

دلالة إيثار استعمال ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ دون غيرها:

القصّ قيافة الأثر بذكر تفاصيل الخبر

آثر القرآن الكريم الفعل ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ في هذا السِّياق؛ لأنَّه يدلُّ على تتبُّع الأثر، وهذا يعني: الإتيان بكلِّ تفاصيل القصَّة في صغيرها وكبيرها، وفي ظاهرها وفي باطنها ولا يتأتّى ذلك من الحكاية أو الإخبار؛ لأنَّه لا يلزم فيهما الإتيان بكلِّ التَّفاصيل، وممَّا يؤكِّد ذلك حرص القرآن الكريم على هذه المادَّة اللُّغويَّة (قصص) في حديثه عن قصص السَّابقين؛ فيقول سبحانه في قصَّة يوسف (عليه السلام): ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، وقال ربُّنا عن القصص كلِّه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الَّتي ورد فيها لفظ القصص، وفي هذا دليل على صدق نبوَّته ﷺ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/225.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.

دلالة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا﴾:

استـعـمـال القصص القرآنيّ للّفظ الأثير في المكان الجدير

جاء التَّنكير؛ ليدلَّ على كثرة الرُّسل الَّذين قصَّ الله نبأهم في القرآن الكريم على رسولنا - ﷺ، وذلك واضحٌ في آيات القرآن، حيث ذكر قصَّة آدم (عليه السلام)، وهو أبو البشريَّة منتهيًا إلى قصَّة عيسى (عليه السلام)، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد وردت قصص كثيرة في محكم التّنزيل، وجاءت القصّة الواحدة في مواضع شتّى من القرآن، في روعة إحكام، ومتانة سبك، وقوّة بلاغة، ومتانة أسلوب.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ﴾:

القـصـص القرآنيّ، صدق ودقّة وعبر

دلَّ الإتيان بـ ﴿قَدْ﴾ على تحقيق القصِّ كاملًا بكلِّ صوره وأشكاله، حتَّى لا يبقى لمتوهِّم توهُّم، في ذكر بعض مشاهد القصص دون بعضه، وفي هذا ردٌّ على اليهود في عدم اعترافهم بنبوَّته ﷺ، و"المعنى على حَذْف مضاف، أي: قصصنَا أخبارَهُمْ، فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ﴾ لا محلَّ له؛ لأنّه مفسِّرٌ لذلك العاملِ المضمَرِ، ويُقَوِّي هذا الوجه قراءةُ أبَيٍّ: (وَرُسُلٌ) بالرّفع في الموضعين، والنّصبُ هنا أرجحُ من الرّفع؛ لأنّ العطف على جملة فعليّة، وهي: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾"[1]، وتبقى (قد) والجملة الفعليّة بعدها، تؤكّد ملمحيّة القصّ بالحقّ، لمزيد من التّدليل على صدق القرآن، ومصداقيّة سيّد ولد عدنان.

دلالة التَّعبير بـ (نون العظمة) في قوله: ﴿قَصَصْنَـٰهُمْ﴾:

لا يحيط بعلم غابر الزّمان إلّا مسيِّر الأكوان

التَّعبير بـ (نون العظمة) له دلالة واضحة في هذا السِّياق، ذلك أنَّ سير الأنبياء مع أقوامهم ممتدَّة في تاريخ الزَّمان وتعاقب الأيَّام، ولا يدَّعي أحد أنَّه عايش هذا الزَّمان بطوله وعمقه، حتّى يخبر بما فيه؛ فإذا ثبت عجز البشر؛ فلا يبقى إلَّا ربُّ البشر الَّذي خلق

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35، وقراءة أبيّ رضي الله عنه هذه: قراءة شاذّة.

الزّمان والمكان وما فيهما. وفيه إشارة بالرَّدِّ على كفَّار مكَّة الّذين قالوآ: إنَّ هذا القصص من باب أساطير الأوَّلين.

دلالة عدم ذكر العامل في قوله: ﴿وَرُسُلًا﴾:

تقدير عامل النّصب يرجّح المعنى المقصود

لم يُذكر عامل النَّصب، وتقديره: أرسلنا رسلًا، والقرينة عليه قوله سبحانه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ السَّابق لاستلزامه الإرسال، وهو معطوفٌ عليه، داخلٌ معه في حكم التَّشبيه(1).

سرُّ التَّعبير بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الإخبار بالقصص من علم الله المنزل، لنبيّ الختام المرسل

عبَّر القرآن الكريم بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ لإفادة علوِّ قدره ﷺ، وعلوِّ قدر ما أُنزل عليه. وفيه إشارة إلى إعلامه ﷺ، بأخبار إخوانه من الأنبياء والرُّسل، وهذا يدلُّ على عظيم قدره عند ربِّه، حيث جمع له كلَّ العلوم المتعلِّقة بالأنبياء مع أقوامهم.

فائدة الإتيان بقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

القصص القرآن حقّ ورشد، من قبل ومن بعد

لَمَّا كانت صيغة الفعل الماضي قد تستعمل في المستقبل للدَّلالة على تحقُّق الوقوع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، ومعلوم أنَّه لم يأتِ بعد؛ فلدفع هذا التَّوهُّم قيَّد الفعل الماضي ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ عليك بقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، والمراد: من قبل هذه السُّورة، وذلك كما وقع في سورة الأنعام وسورة هود والشُّعراء وغيرهم من السُّور المكيَّة، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ترتيب السُّور في القرآن ترتيب معجز؛ لأنَّ السُّور الَّتي سبق الحديث عنها مكيَّة، وسورة النِّساء مدنيَّة، ومعلوم أنَّ المكيَّ نزل قبل المدنيِّ؛ فكانت القبْليَّة هنا دقيقة في موضعها.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾:

ذكر قصص بعض الرّسل، مُغنٍ عن ذكر الباقين

وَإِنَّما تَرَكَ اللّه أَنْ يَقُصَّ عَلى النَّبِيِّ ﷺ أَسْماءَ كَثِيرٍ مِنَ الرُّسُلِ لِلِاكْتِفاءِ بِمَنْ قَصَّهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ المَذْكورينَ هُمْ أَعْظَمُ الرُّسُلِ والأَنْبِياءِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/192.

قَصَصًا ذاتَ عِبَرٍ[1]. ولِأنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ الرُّسُلِ، وَفَوائِدَ بَيانِ قَصَصِهِمْ لَهُ ﷺ لا تَتَحَقَّقُ بِقَصَصِ أولَئِكَ المَجْهولِ حالُهُمْ وَحالُ أُمَمِهِمْ، عِنْدَ قَوْمِهِ وَجيرانِ بَلَدِهِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ[2].

دفع توهُّم تعارض آيتي النّساء وهود، بالقصّ وعدمه:

تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ، من أعظم مقاصد القصص القرآنيّ

النَّاظر في الآيتين لا يجد بينهما تعارضًا؛ لأنَّ آية سورة النِّساء مبنيَّة على ذكر الرُّسل الَّذين لهم قصص مع أقوامهم تحمل العِبَر والعظات، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120]؛ إذ المعنى: وكلُّ نبأ نقصُّه عليك من أنباء الرُّسل هو ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ فـ (ما) في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللَّفظ قصَّ أنباء جميع الأنبياء، كما أنَّ المراد بالكلِّ هنا بعضٌ منهم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ [البقرة: 260]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النّمل: 23][3].

سرُّ الجمع بين الإثبات والنَّفي فيما قصّ ومالم يقصص:

لله حكمة فيما قَصَّ، وله حكمة فيما لم يَقْصُصْ

في قوله: ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾، و﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ﴾: طباق السَّلب؛ لأنَّ الثَّاني منفيٌّ، وهو مع ذلك يفيد الدِّلالة على عموم الأنبياء بوضوح، ووضوح الكلام وجماله بذكر الشَّيء وضدِّه، والطّبق أكسب الجملة إيقاعا جذّابا، ونغمة دالّة على المقصود بجمال وروعة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَّمۡ﴾ دون (لن) في قوله: ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾:

نفي الخاصِّ لا يستلزم نفي العامِّ

التَّعبير بـ ﴿لَّمۡ﴾ دون (لن) في قوله: ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾، يرفع توهُّم عدم علمه ﷺ بأعداد الأنبياء والرُّسل؛ لأنَّه ورد في الخبر أنَّ الرُّسل ثلاثمئة وثلاثة عشر، والأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا مع اختلاف الرِّوايات في العدد، وعلى ذلك فلا تنافي بين الآية

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.

(2) رضا، تفسير المنار: 6/58.

(3) الرازي، أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 214.

وما ورد في الخبر؛ لأنَّ نفي قصِّهم من قبل لا يستلزم نفي قصِّهم مطلقًا؛ لأنَّ نفي الخاصِّ لا يستلزم نفي العامِّ؛ فيمكن أن يكون قصُّهم عليه ﷺ بعد، فعلمهم، فأخبر بما أخبر، على أنَّ القبْليَّة تفهم من الكلام ولو لم تكن في القابل؛ لأنَّ (لم) في المشهور إذا دخلت على المضارع؛ تقلب معناه بالمضيِّ، على أنَّ القصَّ ذكر الأخبار، ولا يلزم من نفي ذكر أخبارهم له - عليه الصلاة والسلام - نفي ذكر عددهم مجرَّدًا من ذكر الأخبار والقصص، ولذلك لم تستعمل (لن)؛ لأنَّها تفيد النَّفي المؤبَّد، وبذلك اندفع توهُّم بعض من توهَّم أنَّ الآية نصٌّ في عدم علمه ﷺ بعدد الأنبياء والرُّسل[1].

دلالة العدول عن العطف إلى ذكر الفعل، في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

تكليم موسى عليه السلام، من علوّ القدر وشرف المقام

عدل القرآن عَنِ العَطْفِ إلى ذِكْرِ الفِعْلِ ﴿وَكَلَّمَ﴾؛ لِأَنَّ لِهَذا النَّوْعِ مِنَ الوَحْيِ مَزِيدَ أَهَمِّيَّةٍ، وهو مَعَ تِلكَ المَزِيَّةِ لَيْسَ إنْزالَ كِتابٍ مِنَ السَّماءِ[2]، وفيه بيان ما خَصَّ به موسى عليه السلام من التّكليم من بين سائر الأنبياء باستثناء نبيِّنا ﷺ، وهذا منتهى مراتب الوحي، ولم يكن ذلك قادحًا في نبوَّة سائرِ الأنبياء - عليهم السلام - فكيف يُتوهَّم كونُ نزول التَّوراة عليه جملةً قادحًا في صحَّة نبوَّةِ من أنزل عليه الكتابُ مفصّلًا؟

دفع توهُّم أفضليَّة موسى المكلّم، على نبيِّنا المعظَّم:

أوتـي نبـيّ الختام، ما لم يؤته أحد من الأنام

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، مع أنَّه يدلُّ على منتهى مراتب الوحي، فلا مرتبة فوقه في العلوِّ، حيث كان التكلُّم بلا واسطة ملك؛ فلا يلزم من ذلك التَّفضيل على نبيِّنا ﷺ، لأنَّ الله فضَّله بأن أعطاه مثل ما أعطى كلَّ واحد من الأنبياء، وزاد عليهم[3]: حيث كان تكليم موسى بالوادي المقدّس وعلى جبل الطُّور، وكان تكليم رسول

(1) الآلوسي: روح المعاني: 6/17.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 1/346، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/256.

اللّه ﷺ قاب قوسين أو أدنى في السَّماء العليا، كما في أوَّل سورة النّجم. فأوحى اللّه تعالى إلى رسوله ﷺ، كما أوحى لباقي الأنبياء (عليهم السلام)، ومنهم: نوح وإبراهيم وعيسى، وآتاه القرآن، مثل ما آتى داود الزَّبور، وكلَّمه، كما كلَّم موسى، ورفعه إلى مكان أعلى ممَّا رفع عليه موسى، وكلُّ هذه الأشياء - الَّتي ينبغي الإيمان بها - أعطاها اللّه تعالى للرَّسول ﷺ، فسقطت بذلك حجَّة الكافرين[1]، ويمكن أن يقال: إنَّ ما خصَّ اللّه به موسى هو تخصيص إضافيٌّ؛ لأنَّ اللّه فضَّل نبيِّنا ﷺ، بأن أعطاه ما لم يعطِ أحدًا قبله؛ كالرُّؤيا على ما قيل، وغير ذلك[2].

دلالة الإتيان بالمصدر في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

إثبات الحقيقة ونفي المجاز في التّكليم الّذي فُضِّل به موسى وفاز

أتى بالمصدر ﴿تَكۡلِيمٗا﴾؛ لتأكيد الفعل، وبيان أنَّه تكليم مباشر ومن وراء حجاب، وليس بواسطة مَلَك، وليعلم أنَّ اللّه كلَّمه حقيقة وخاطبه خطابًا، وليحسم توهُّم المجاز، والتَّكلُّمُ صفة للّه تعالى حقيقة من غير كيفيَّة[3]، قالَ الفرَّاء: "العَرَبُ تُسَمِّي ما وَصَلَ إِلى الإِنْسانِ: كَلامًا، بِأَيِّ طَريقٍ وَصَلَ، ما لَمْ يُؤَكَّدْ بِالمَصْدَرِ، فَإِذا أُكِّدَ بِه؛ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَقيقَةَ الكَلامِ"[4].

دلالة الجمع بين الفعل والمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

السّجع المطرَّف، وأثره في جمال الجملة

جُمع بينهما؛ لإبراز بعض مواطن الجمال في الآية، الَّتي تجمع بين جمال المبنى والمعنى، ومن ذلك ما بين ﴿وَكَلَّمَ﴾، ﴿تَكۡلِيمٗا﴾: من جناس اشتقاق مغاير؛ لاتِّفاقهما في مادَّة (كلم)، وإحدى الكلمتين اسمٌ، والأخرى فعلٌ.وفي ﴿تَكۡلِيمٗا﴾، ﴿حَكِيمٗا﴾ سجع مطرَّف، حيث تتَّفق الفاصلتان في التَّقفية، وتختلفان في الوزن.

(1) د.فاضل السّامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/361.
(3) الجُرجانّي، دَرْجُ الدُّرر: 2/644.
(4) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/256.

﴿رُسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان أنّ الرّسل المذكورين مبشّرون ومنذرون، فلا عذر بعد بلاغ

ولمّا أورد مواكب الأنبياء والمرسلين في الأمم السّابقة، مَن سمَّى منهم، ومن لم يُسَمِّ منهم؛ بيّن في هذه الآية: أنَّهم قاموا بما أمرهم اللّه به من البشارة والنّذارة، وأنَّه لم تبق حجَّة لمحتجٍّ أن يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة: 19].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّةُۢ﴾: أصل الحجِّ: القصد، والحُجَّةُ: الدَّليلُ والبُرْهانُ، والوَجْه الَّذي يكون بِهِ الظّفر عِنْد الخُصومَة، وَالدَّلالة المبيِّنة للمحَجّة، أي: المقصد المستقيم الَّذي يقتضي صحَّة الأمر، وَإِنَّما سمِّيت حُجَّة؛ لِأَنَّها تُحَجُّ، أَي: تُقصَد؛ لِأَنَّ القَصْد لَها وإليها، وَكَذَلِك مَحَجَّة الطَّريق: هِيَ المَقْصد والمسلك[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ما من رسول إلّا بَشَّرَ وذكّر، وحينها قد أعذر من أنذر

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللّه إلى النّاس مبشِّرين لأهل الطَّاعة بسعادة الدّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذّبين بالشَّقاء في الدّارين؛ وذلك حتّى لا يكونَ للنَّاس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به عند اللّه بعدَ إرساله الرُّسل: ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص: 47]، وكان اللّه عزيزًا لا يغلبه متعنِّت ولا مكابر، حكيمًا في كل صنع صنعه.

---

(1) الخَليل، العَين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور: (حجّ)، لسان العرب: (حجج).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجمع بين البشارة والنِّذارة، في قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

لا حجَّة للعباد على الله، بعد إرسال الرُّسل بهداه

جمع بينهما للدَّلالة على بيان مهمَّة الرُّسل في البشارة والنِّذارة، فقوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ﴾، أي: مخبرين أقوامهم بما يسرُّهم، والسُّرور يؤدِّي إلى تغيُّر يبدو على وجه الإنسان وبشَرَته، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: من الإنذار، وهو: الإعلام المصاحَب بالتَّخويف، والزَّجر عن القبيح، وهذا مناسب لوظيفة الرسل، بخلاف الأنبياء؛ فوظيفتهم بين قومهم إظهار الصلاح؛ ليكونوا قدوة بين قومهم، فيسترشد بهم من سلمت فطرته، ويقتدي بهم من يريد الصَّلاح.

دلالة حذف متعلَّق قوله تعالى: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ في الآية:

مـــن زاوَلَ الصّالحات نجا، ومـن اقـترف السّيئاتِ هلك

حذف متعلَّق مبشِّرين اختصارًا، والتّقدير: مبشِّرين المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، فيكون الثَّواب لمن أطاع، وحذف متعلَّق منذرين اختصارًا، والتَّقدير: منذرين الكافرين والعاصين وغيرهم بالنَّار، فيكون العقاب لمن عصى، وقد "نصب على المدحِ أو بإضمار أرسلنا أو على الحال، بأن يكون رسلاً موطئاً لما بعده أو على البداية من رُسلاً الأوّلِ أي مبشّرين لأهل الطّاعةِ بالجنّة ومنذرين للعُصاة بالنّار"[1].

دلالة تقديم مبشِّرين على منذرين في قوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

من مقاصد الإسلام تقديم البشارة على النّذارة

قدَّم البشارة على النِّذارة؛ لأنَّها تسعد القلوب وتطيِّب الخواطر، وتجعل المدعوِّين يقبلون على ما يلقيه النَّبيُّ ﷺ، عليهم، ويشير إلى اطمئنان المكلَّف بثواب ما يفعله من الطَّاعة، ولأنَّ البشارة وعد، والإنذار وعيد، والوعد مقدَّمٌ على الوعيد.

سرُّ التَّعبير بالرُّسل دون النَّبيِّين، عكس ما في سورة البقرة:

آثر التَّعبير بالرُّسل هنا، وبالنَّبيِّين في سورة البقرة؛ لأنَّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

السِّياق مختلف؛ فسياق سورة البقرة مبنيٌّ على العموم بدليل قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]؛ لذلك ناسب التَّعبير بالنَّبيِّين دون المرسلين؛ لأنَّ النَّبيَّ أعمُّ من الرّسول؛ فناسب العموم في النَّبيِّين العموم في لفظ (أمَّة)؛ أمَّا موضع سورة النِّساء؛ فمبنيٌّ على التَّخصيص؛ لأنَّه سبق هذا الموضع قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ الآية؛ فناسب التَّعبير هنا بالرُّسل للتَّوافق في السِّياق وتأكيد التَّخصيص.

التّخصيص في السّياق يؤكّد خصوصيّة الأمّة المحمّديّة

دلالة الإتيان بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

جاءت هذه الجملة لتشير إلى لطف اللّه ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم؛ ليتعرَّفوا عليه سبحانه، بل رفد هذه العقول بذلك النُّور الهادي الَّذي حمله إليهم رسل اللّه؛ ليكونوا على هدًى وبصيرة؛ فلا عذر لمعتذر ولا حجَّة لكافر[1].

حجّة الكفران بعد بلاغ الرّسل داحضة

دلالة التَّعبير بلفظ النَّاس في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ النَّاس؛ لإفادة الاستغراق، فيشمل النَّاس جميعًا، المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ فالكلُّ مطالبٌ بالإيمان باللّه ورسله، فلا حجّة لهم، أي لا "مَعذرةٌ يعتذرون بها قائلين لَوْلا أرسلتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فيبيّنَ لنا شرائعَك، ويعلّمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك، لقصور القوةِ البشريةِ عن إدراك كلياتِها[2].

الإسلام دين الحقائق، وحجّته قائمة على كلّ الخلائق

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿حُجَّةٌ﴾، دون لفظ (احتجاج):

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿حُجَّةٌ﴾ دون أن يقول: (احتجاج)؛ لأنَّ الحجَّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلُّصًا، ولذلك يقال للَّذي غلب مخالفه بحجَّته: قد حجَّه، وأمَّا الاحتجاج؛ فهو إتيان المحتجِّ بما يظنُّه حجَّة، ولو مغالطة، يقال:

الحجّة مبكّتة للمخالف

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/1012.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

احتجَّ، ويقال: حاجَّ؛ إذا أتى بما يظنُّه حجَّة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]؛ فالحجَّة لا تطلق حقيقة إلَّا على البرهان والدَّليل النَّاهض، المبكت للمخالف(1).

دلالة الإطناب في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾:

الإطناب المفيد في السّياق يجلي المعنى ويجمّله

في الجملة إطناب، حيث عبَّر عن المقصود بلفظ زائد عليه لفائدة، وهي بيان العلَّة في البشارة والنِّذارة، "وهذا من كمال عزّته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرّسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضا من فضله وإحسانه، حيث كان النّاس مضطرّين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدّر، فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد وله الشّكر"(2).

سرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء، في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

ما كان على الله فهو أمان وفلاح

عبّر بأداة الاستعلاء ﴿عَلَى﴾؛ ليفيد أنَّ المراد بالحجَّة: هي الحجَّةُ واجبةُ القبول، على المَلك الَّذي اختصَّ بجميع صفات الكمال، في ألَّا يعذِّب عصاتهم؛ لأنَّ الحُجَّة قد تطلق على مطلق العذر، ولو كان مردودًا(3)، و" هو إشارة إلى ألطاف اللّه، ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم ليتعرّفوا إليه، ويستقيمواْ على سبيله، بل رفد هذه العقول، بذلك النّور الهادي الّذي حمله إليهم رسل اللّه، لتكون رؤيتهم لآيات اللّه واضحة، وطريقهم إليه مشرقا"(4).

دلالة التّنكير في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾:

عدلُ الله تعالى أن لا حجّة بعد إقامة الحجّة

جاء لفظ الحُجَّة منكَّرًا؛ لقطع معاذير النَّاس، فلا يجدون عذرًا، يعتذرون به قائلين: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ [طه: 134]؛ لذلك كان المراد إقامة الحجَّة البيِّنة والدَّلالة القاطعة الَّتي تدلُّ عَلى صِدْقِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/46.
(2) السّعديّ: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 214.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.

المُدَّعي وَأحَقِّيَّةِ المُعْتَذِرِ، لأنَّها تَقْتَضي عَدَمَ المُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ أَوِ التَّقْصيرِ، والمُرادُ هُنا: العُذْرُ البَيِّنُ الَّذي يوجِبُ التَّنَصُّلَ مِنَ الغَضَبِ والعِقابِ[1]، "فإذا أخذ الكافر بكفره، فذلك هو الحكم الّذي حكم به الكافر على نفسه، ورضيه لها، فلا عذر لمعتذر، ولا حجّة لكافر"[2].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

حكم أهل الفترة وكلِّ مـن لم تبلغه الدَّعوة

دلَّ هذا التَّعبير على أن الله تعالى يحبُّ الإعذارَ من النَّاس؛ ولذلك أرسل الرُّسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾، ولولا إرسالُ الرُّسل؛ لكان للنّاس أن يحتجُّوا في الآخِرة على عذابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]، وهذا حكم أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[3]، فاللّه منصف لعباده، رحيم بهم، ولا يعذّب إلّا بعد إرسال الرّسول.

دلالة الإظهار في مقام الإضمار في قَوْلِهِ: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

ما جرى مجرى المثل، حسُن به التّعبير وجَمُل

أظهر في مَقام الإضْمارِ، فلم يقل: (بَعْدَهُمْ)؛ لِلاهْتِمام بِهَذِهِ القَضِيَّةِ واسْتِقْلالِها في الدَّلالَةِ عَلى مَعْناها؛ حَتّى تَسيرَ مَسْرى الأَمْثالِ[4].

سرُّ التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ دون الجارّ في (من بعد):

تـقـريـرات الله وأحـكـامــه تستغرق الزّمان برمّته

عبّر بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وأسقط الجارَّ، فلم يقل: (مِنْ بَعْد)؛ ليفيد استغراقَ النَّفي لجميعِ الزَّمان الَّذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل وتبليغهم للنَّاس[5].

من لطائف التَّذييل بلفظي: (العزيز الحكيم):

جاء هذا التَّذييل؛ لبيان الصِّفة الإلهيَّة المتجلِّية على العباد في هذا المقام المناسب؛ لما ورد في صدر الآية من إرسال الرُّسل؛ لإقامة

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/39.

(2) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.

(3) رضا، تفسير المنار: 6/60.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/43.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.

اللـه العـزيـز الحكيـم، قبل أن يعاقب يُشَرِّع الضّوابط

لا يصلح في هذا المقام إلّا وصفا العزّة والحكمة

الحجَّة على النَّاس، "ونعلم أنّ الحقّ لا يجرّم سلوكاً إلّا بنصّ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد الّتي لا يصحّ الخروج عنها"[1].

دلالة الإتيان بوصفي العزيز والحكيم:

جاء تذييل الآية بالعزيز الحكيم؛ لأنَّه أراد أن يقطع بإرسال الرُّسل احتجاج من يقول: لو بعث إليَّ الرَّسول؛ لآمنت، فهو -تعالى- عزيزٌ، لا يغالِبه شيء، ولا حُجَّة لأحد عليه، وهو مع ذلك حكيم، تصدر أفعاله عن حكمة، فكذلك قطع الحُجَّة بالرُّسل حكمة منه تعالى[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/138.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: 166]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتميم المنزل إلى الأنبياء برسالة محمّد الصّادقة والصّحيحة

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى الوحي إلى الأنبياء والمُرسَلين - عليهم الصَّلاة والسَّلام أجمعين - في الآيات السَّابقة؛ نوَّه في هذه الآية بمزيَّةٍ للموحى به إلى رسول اللّه ﷺ، وهي شهادته تعالى على تلك الرِّسالة بصحَّتها وصِدق ما جاء فيها، كما شهدت بذلك ملائكة اللّه الأطهار، وَكَفى بِاللّه شَهيدًا على ذلك.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡهَدُ﴾: الشّهود، والشَّهادة: الحضور مع المشاهدة: إمَّا بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، لكن الشُّهود بالحضور المجرد أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهادة: قول صادر عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر، وشهدت: يقال على ضربين: أحدهما: جارٍ مجرى العلم، وبلفظه تقام الشَّهادة، ويقال: أشهد بكذا، والثَّاني: يجري مجرى القسم، فيقول: أشهد باللّه أنَّ زيدًا منطلق، فيكون قسمًا، وقد يُعبَّر بالشَّهادة عن الحكم نحو: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26]، وعن الإقرار، نحو: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: 6]، وعلى الإخبار نحو: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: 81]، أي: ما أخبرنا.

وعلى هذا فالشَّهادة في الشّريعة: إخبارٌ عن عيان بلفظ الشَّهادة في مجلس القاضي بحقٍّ لآخر على آخر؛ فالإخبارات ثلاثة: إمَّا

بحقٍّ لآخر على آخر، وهو الشَّهادة، أو بحقٍّ للمخبر على آخر، وهو الدَّعوى، أو بالعكس، وهو الإقرار[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

شـهـادة الـلـه والملائكة بصدق مـا أنــزل على محمّد ﷺ

في هذه الآية يشهد اللّه على نبوَّته ﷺ، قائلًا له: إنْ يكفُرْ بك مَن كفَر، ويجحد بأنَّ اللّه ما أنزل على بشر من شيء بعد موسى عليه السلام فإنَّ اللّه يَشهَدُ بما أَنزله عليك من كتاب عظيم، هو القُرآن الكريم، فإنَّه أَنزله تعالى بعِلمه، والملائكةُ كذلك يَشهدونَ على صِدق ما جئتَ به؛ فلا يَحزُنْكَ تكذيبُ مَن كذَّب، ولا كُفرُ مَن كفَر، وحَسْبُك بربِّك سبحانه وتعالى شاهدًا على صدقك وصِدق ما جئتَ به.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

شـهـادة الـلـه لا تعدلها شهادة

دلالة الابتداء بالاستدراك، في قوله: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾:

معلومٌ أنَّ (لكن) لا يبتدأ بها؛ لأنَّها استدراك على ما سبق، ولكنَّه بدأ بها هنا؛ لأنَّ هذه الآيات بأسرها جوابٌ عن قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153]، وهذا الكلام من اليهود يتضمَّن أنَّ هذا القرآن ليس كتابًا نازلًا عليهم من السَّماء، فكأنَّه قيل: إنَّهم وإن شهدوا بأنَّ القرآن لم ينزل عليه من عند اللّه، لكن اللّه يشهد بأنَّه نازلٌ عليه منه سبحانه.

وافتتح بها - أيضًا- ردًّا على اعتراضهم على نبوَّته، لمَّا قال القرآن له: ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ قالوا: ما نَشْهَدُ لَكَ بِهَذا، فنزل: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، وَشَهادَةُ اللّه خَيْرٌ مِنْ شَهادَتِهِمْ؛ لأنَّه شهد بِما أَنْزَلَهُ إِلَيْه، وفي ذلك: إِثْباتٌ بِإِظْهارِ المُعْجِزاتِ، كَما تَثْبُتُ الدَّعاوى بِالبَيِّناتِ[2].

(1) الشّريف الجرجانّي، التّعريفات، 129.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/101، 4/140، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/44.

شهادة الله للقرآن بالصّدق وللرّسول بالنّبوّة

المجاز المرسل في التَّعبير عن نزول القرآن بالشَّهادة:

عبَّر القرآن عن النُّزول بالشَّهادة على سبيل المجاز المرسل؛ لأنَّ القرآن الكريم معجزٌ في لفظه وفي معناه، فعجز الأوَّلون والآخرون عن معارضته، فكان ذلك إعجازًا للقرآن، وإظهار المعجزة شهادة بكون المدَّعي صادقًا، ولمَّا كانت شهادته إنَّما عرفت بواسطة إنزال القرآن، لا جرم إن قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾، أي: يشهد لك بالنُّبوَّة بواسطة هذا القرآن الَّذي أنزله إليك[1].

الاستدراك نتيجة عناد أهل الكتاب وغلوّهم

دلالة ﴿لَّٰكِنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

لَكِنْ: حَرْفُ اسْتِدْراك، يخالف ما قَبْلَه ما بَعْدَه، والِاسْتِدْراكُ بـ﴿لَّٰكِنِ﴾ يَقْتَضي تَقَدُّمَ جُمْلَةٍ مَحْذوفَة؛ لِأَنَّ (لَكِنْ) لا يُبْتَدَأُ بِها، فالتَّقْديرُ ما رُوِيَ في قصَّة الآية، وهي أنَّ أهل الكتاب سألوه إنزالَ الكتابِ من السَّماءِ، وتعنّتوا بذلك.

ورود لفظ الجلالة زجر للمعاندين، وتثبيت للمؤمنين

دلالة التَّعبير بالإظهار في مقام الإضمار، في الآية:

عبَّر بالإظهار بلفظ الجلالة (اللّه) دون الإضمار؛ فلم يقل: لكنَّه يشهد؛ لأنَّ المقام هنا مقامُ ردٍّ على المنكرين والمتعنِّتين من أهل الكتاب الَّذين طلبواْ أن ينزل عليهم كتابًا من السَّماء جملة واحدة؛ فالإظهار مناسبٌ لزجرهم وردعهم عن تعنُّتهم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوَّته ﷺ، وشهادة لشريعته بالّصحّة والصّدق.

الشَّهادة تجري مجرى القسم على صدق النّبوّة

دلالة التَّعبير بالشَّهادة دون العلم، في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

عبَّر بالشَّهادة في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾؛ لأنَّ الشَّهادة أعمُّ من العلم، فكلُّ شهادة فيها علم، ولا يلزم في كلِّ علم شهادة، ويؤكِّد هذا ما ذكره الرَّاغب بقوله: "والشَّهادة: قول صادرٌ عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر". وأيضًا إنَّه في موطن إقامة الحجَّة لا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/102.

يكتفى من الشَّاهد أن يقول: أعلمُ، بل يحتاج أن يقول: أشهدُ، وهذا دليلٌ على قوَّة التَّعبير بالشَّهادة دون العلم، ولأنَّ الشَّهادة تجري مجرى القسم، وفي ذلك من أسباب التَّأكيد على نبوَّته ﷺ، فكأنَّ القرآن أقسم على نبوَّته.

دلالة تعدِّي الفعل ﴿يَشۡهَدُ﴾ بالباء دون (على):

شهادة الله إقرارٌ بصحّة المُنْزَل ومصداقيّته على المدى

آثر القرآن الكريم تعدية الفعل ﴿يَشۡهَدُ﴾، بالباء دون (على)، مع استعمال القرآن الكريم لهذا الأسلوب في قوله: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾، وقوله: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾الآية، ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾، وذلك لوجود فرق بينهم؛ فالفعل (شهد): إذا تعدَّى بـ (على)؛ فيعني: الإقرار والاعتراف، ومجرور (على) فيه هو المشهود ضدُّه، بخلاف شهد: إذا تعدَّى (بالباء)؛ فإنَّه يعني: الإدلاء بالشَّهادة، ومجرور الباء فيه هو منطوق الشَّهادة، وهذا هو المناسب لسياق الآية.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع، في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

شهادته تعالى لا تحول ولا تزول

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على استمرار شهادته سبحانه، على صدق رسالته ﷺ وما أنزل عليه؛ فكلَّما اعترض المعترضون، وجادل المعاندون؛ كانت شهادة الله لرسوله المستمرَّة بمنزلة التَّثبيت والتَّقوية.

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾:

شـهـادة الـلـه بحقِّية ما أنزله، إثـبـات لـنـبـوَّة محمّد ﷺ

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾ متعلِّق بـ ﴿يَشۡهَدُ﴾، والباء صلة، والمشهود به هو الحقِّية، ويجوز أن يكون المشهود به هو النُّبوَّة، وتعلُّق ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾ تعلّق الآليّة، أي: يشهد بنبوَّتك بسبب ما أنزل إليك، لدلالته بإعجازه على صدقك ونبوَّتك، والمعنى فيهما مآله واحد؛ لأنَّ شهادته سبحانه بحقِّية ما أنزله من القرآن بإظهار المعجز المقصود منه إثبات نبوَّته ﷺ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/19.

دلالة العدول عن الإيحاء إلى الإنزال في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾:

الإنزال خاصٌّ، والمقام يناسبه التَّخصيص

عدل القرآن الكريم عن التَّعبير بقوله: (بما أوحاه إليك) إلى ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾، مع أنَّ السِّياق السَّابق استخدم التَّعبير بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ أكثر من مرَّة؛ لأنَّ المقام هنا مقام ردٍّ على المنكرين والمعاندين الَّذين طلبوا إنزال كتاب من السَّماء غير القرآن ليؤمنوا؛ فجاء التَّعبير بالإنزال ليبطل شبهتهم، وليقيم الحجَّة على صدق ما أنزله على رسولنا ﷺ في أنَّ الكتاب الّذي أنزله هو كتاب اللّه، واللّه يشهد بإنزال كتابه، وأيضًا أنَّ الوحي عامٌّ، والإنزال خاصٌّ، والمقام يناسبه التَّخصيص دون التَّعميم.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ دون المضارع:

ما أنزله الله من قبل أو من بعد كلّه حقّ لا ريب فيه

عبَّر بالماضي الَّذي يفيد تمام نزوله، لتغليب ما نزل من القرآن على ما لم ينزل، وتكون الشَّهادة على ما نزل موجبة للشَّهادة على ما لم ينزل؛ لأنَّ جهة الإنزال واحدة وجهة الشَّهادة واحدة، وعليه يكون المراد بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ جميع القرآن لا القدر الَّذي نزل وقت محاجَّة أهل الكتاب، وفيه بشارةٌ للنَّبيِّ ﷺ، باكتمال نزول القرآن رغم عناد المعاندين، واقتراحات المكذِّبين.

دلالة تعدِّي الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ بـ (إلى) دون (على):

تشريف المُنزَّل من القرآن، والمُنزَّل عليه بإيقان

دلَّ تعدِّي الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ على انتهاء التَّبليغ للأمَّة؛ لأنَّ (إلى) تدلُّ على انتهاء الغاية، والانتهاء يكون من جميع الجهات، وهذا مناسب لمقام التَّبليغ، بخلاف تعدِّي الفعل بحرف الجرِّ (على) الَّتي تفيد الاستعلاء؛ فتركيبها مع الفعل ﴿أَنزَل﴾ يدلُّ على أنَّ النزول من جهة العلوِّ دون سائر الجهات، وهذا يدلُّ على تشريف وتكريم المُنزَّل والمُنزَّل عليه.

سرُّ التَّعقيب بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ على الجملة السَّابقة:

أعقب الكلام بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾؛ لأنَّه لَّما قال قبلها: ﴿يَشۡهَدُ

﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ بيَّن هنا صفة ذلك الإنزال، وهو أنَّه تعالى أنزله بعلم تامٍّ وحكمة بالغة[1].

القرآن منزل بعلم الله التّام، وحكمته البالغة

دلالة التَّعبير بالإضمار عن القرآن في قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

عبَّر بالضَّمير، وهو يعود على القرآن الكريم، وذلك لشهرته ولمعرفة أهل الكتاب به، وفي هذا إشارة إلى تفخيمه وتعظيمه، "أنزله بعلمه، بأنّك أهل للاصطفاء والإرسال، وبكلّ ما تحتاج إليه البشريّة في إكمالها وإسعادها، إذ حوى أعظم تشريع تعجز البشريّة لو اجتمعت أن تأتي بمثله"[2].

بالقرآن المنزل بعلم الله، تسعد البشريّة

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

دلَّت (الباء) في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ على وصف القرآن الكريم بغاية الحسن، ونهاية الكمال، وهذا مثل ما يقال في الرَّجل المشهور بكمال الفضل والعلم؛ إذا صنَّف كتابًا محكمًا، يقال: إنَّما صنَّف هذا الكتاب بكمال علمه وفضله، يعني: أنَّه اتَّخذ جملة علومه آلة ووسيلة إلى تصنيف هذا الكتاب، ويدلُّ ذلك على وصف هذا التَّصنيف بغاية الجودة ونهاية الحسن، فكذا هاهنا يقال: إنَّ القرآن الكريم بكمال علم الله بلغ الغاية في الإعجاز[3].

القرآن الكريم بلغ في الإعجاز منتهاه، بكمال علم الله

دلالة اقتران إنزال القرآن بالعلم، في قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

دلَّ اقتران الإنزال بالعلم على أنَّ القرآن الكريم نزل بعلمه سبحانه، فلا يتطرَّق إليه أيُّ خلل؛ لأنَّه يعلم متى نزل، وعلى من نزل، فلا يمكن أن يقع فيه اختلافٌ أو ادِّعاء نقص أو زيادة؛ لأن الله أنزله بعلمه؛ فمن ادَّعى فيه زيادة أو نقصًا؛ فهو جاهل بحقيقة علم الله تعالى، وهذه المعاني لا تتأتَّى إلَّا من صفة العلم دون غيرها

القرآن يحوي من عِلم الله ما يريد أَنْ يُطْلِعَ العِبادَ عَلَيْهِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/102.

(2) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير لكلام العلّي الكبير: 1/576.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/103.

من الصِّفات. وممَّا يذكر في هذا المقام في سرِّ اختيار العلم في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾، الإشارة إلى أنَّ القرآن فيه عِلمُهُ الَّذي أَرادَ أَنْ يُطْلِعَ العِبادَ عَلَيْه، مِنَ البَيِّناتِ والهُدى والفُرْقانِ، وَما يُحِبُّهُ اللّه، وَيَرْضاهُ، وَما يَكْرَهُهُ، وَيَأْباهُ، وَما فيهِ مِنَ العِلمِ بِالغُيوبِ مِنَ الماضي والمُسْتَقْبَلِ، وَما فيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفاتِهِ تَعالى المُقَدَّسَةِ الَّتي لا يَعْلَمُها نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، إِلَّا أَنْ يُعْلِمَهُ اللّه بِها، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البَقَرَة: 255](1).

اختلاف مرجع الضَّمير واختلاف الإعراب في ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

من بلاغة القرآن المحكم، كثرة المعاني مع قلَّة الكلام

﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ في موضع نصب على الحال: إمّا من المفعول: وهو الهاء في ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، أي: أنزله ملتبسًا بعلمه، أو معلومًا، أو أنزله، وهو معلومُه، أو من الفاعل، وهو المستتر في ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، أي: أنزله، وهو عالم بأنَّك أهل لإنزاله إليك، أو أنزله، وهو عالم به، رقيب عليه، حافظ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر: 9](2).

دلالة عطف شهادة الملائكة على شهادة الله في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

عناية الله سبحانه برسوله الأكرم، وبمَرْسولِه الأعظم

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، عُطِفَت شَهادَةُ المَلائِكَةِ عَلى شَهادَةِ اللّه؛ لِزِيادَةِ تَقْريرِ هَذِهِ الشَّهادَةِ بِتَعَدُّدِ الشُّهودِ، وَلِأَنَّ شَهادَةَ اللّه مَجازٌ في العِلمِ، وَشَهادَةَ المَلائِكَةِ حَقيقَةٌ، وكثرة سوق الأدلَّة على إثبات الشَّيء تدلُّ على العناية به، وعلى عظم المشهود عليه؛ لأنَّ الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلَّا الخواص؛ كما قال تعالى في الشَّهادة على التَّوحيد: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/476.

(2) المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد: 2/383.

دلالة إظهار الفعل مع الملائكة في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الملائكة تأكيد لصدق المُنَزَّل وحقيّته

إظْهارُ فِعْلِ ﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾ مَعَ وُجودِ حَرْفِ العَطْفِ لِلتَّأْكيدِ[1]، والمعنى: يَشْهَدُونَ بما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ بأنَّه حقٌّ وصدق، وبأنَّك رسولُ اللّه، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، " أي بذلك، مبتدأوخبر، والجملة عطفٌ على ما قبلَها، وقيل حالٌ من مفعول أنزله أي أنزله، والملائكةُ يشهدون بصدقه وحقِّيّته"[2].

دلالة تأخير الفعل، في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الله وملائكته للنّبيّ ﷺ وكتابه، ضمان لِرِفْعَتِهِ وبقائه

أُخِّر الفعل ﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾، ولم يأتِ مقدَّمًا على لفظ الملائكة؛ لبيان أنَّ شَهادَةَ المَلائِكَةِ تَبَعٌ لِشَهادَةِ اللّه؛ لأنَّها هي الأصل، وَقَدْ عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ، بِشَهادَةِ اللّه لَهُ؛ إِذْ أَظْهَرَ عَلى يَدَيْهِ المُعْجِزات، وهَذا عَلى سَبيلِ التَّسْلِيَةِ لَهُ عَنْ تَكْذيبِ اليَهودِ، أي: إِنْ كَذَّبَكَ اليَهودُ، وَكَذَّبوا ما جِئْتَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ؛ فلا تُبالِ، فإِنَّ اللهَ يَشْهَدُ لَكَ، وَمَلائِكَتَهُ، فَلا تَلتَفِتْ إِلى تَكْذيبِهِمْ، وَلا يَحْزُنْكَ تَكْذيبُ مَنْ كَذَّبَكَ، وَخِلافُ مَنْ خالَفَكَ[3].

دور التّقديم والتّأخير في التّذكير والتّأنيث:

مراعاة أصل الملائكة في التّذكير، وطبيعة التّأنيث في جمع التّكسير.

لفظ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: جمع تكسير[4]، يجوز فيه التَّذكير والتَّأنيث، وفي الاستعمال القرآنيّ نجد أنّه إذا جاء الفعل من حيث الرُّتبة بعد ذكر الملائكة؛ فإنَّه يأتي بصيغة التَّذكير ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ﴾ [الرَّعد: 23]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ﴾ [الأنفال: 50]، بخلاف مجيئه على التّرتيب الأصليِّ بحيث يأتي الفعل ثمَّ الفاعل، فإنّ الفعل يأتي بالتَّأنيث مع لفظ الملائكة، مثل

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/44 - 45.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/44 - 45.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/694، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/141.

(4) كلّ جمع تكسير، فهو مؤنث في استعمال العرب، قال الزّمخشري: "إنَّ قوْمِي تَجَمَّعُوا وَبِقَتْلِي تَحَدَّثُوا لَا أبَالِي بِجَمْعِهِمْ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثُ". أي وجوبا أو جوازا. ينظر: محمّد بن عليّ الصّبان، حاشية الصّبّان على شرح الأشمونيّ: 2/77.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: 103]، وغيرها.

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾:

شهادة الملائكة الكرام، دليل على ما للنّبيّ ﷺ من الإعظام

دلَّ التَّعريف في لفظ ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ على العموم، فهو يشير إلى أنَّ جنس الملائكة يشهدون بصدق نبوَّتك وبما أنزل عليك؛ فلا يختصُّ ذلك بنوعٍ من الملائكة دون نوع، فملائكة السَّموات السَّبع، وملائكة العرش والكرسيّ، كلُّهم مجتمعون، يشهدون بصدق نبوَّتك يا رسول اللّه.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾:

شهادة الملائكة موثوقة، بوثوق هذه المخلوقات الطّاهرة

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد شهادة الملائكة واستمرارها بصدق رسالته، وهذا واضحٌ في إتيانهم لإعانته ﷺ، في كلِّ مواقف حياته، ولا سيَّما في الشَّدائد كما حدث معه، عندما ذهب إلى الطَّائف، وكذَّبه أهلها وآذوه، وكما في غزوة بدر إلى غير ذلك ممَّا يؤكِّد دوام شهادتهم من الشَّهادة حضورًا وتصديقًا.

دلالة دخول (الباء) على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

كلُّ الشَّهادات مهما كان وثوقها، فهي تبعٌ لشهادة الله

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، " تقديره: وكفَى اللّه شهيداً، لكنّه دخلَتِ الباءُ لتدُلَّ على أنَّ المراد اكتفوا باللّه"[1]، وقددخلت الباء على لفظ الجلالة؛ لتؤكِّد الكلام، ولتجمع بين لفظ الماضي ومعنى الأمر، والمعنى: اكتفِ بشهادة اللّه، وإن لم يشهد غيرُه؛ لأنَّ التّصديق بالمعجزة هو الشّهادة حقًّا، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 19]، فإذا شَهِدَ لَكَ بِالصِّدْقِ رَبُّكَ؛ لَمْ يَضُرَّكَ تَكْذِيبُ مَنْ كَذَّبَكَ[2]، وفي دخولها إشارةٌ إلى التَّفريق بين الاكتفاء بشهادة اللّه وشهادة الملائكة؛ فكلُّ الشَّهادات بعد شهادة اللّه تبعٌ لها.

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/330.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/694، والزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/134، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592.

دلالة إظهار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

أظهر لفظ الجلالة؛ لإدخال الرّوع على السّامع وتربية المهابة في قلوب المعاندين والمعارضين، ولفظ الجلالة أعظم الأسماء، وأقواها دلالة على عظمة المولى وجلاله.

شهادة الألوهيّة عظمة وكمال

سرُّ التَّعبير بـ ﴿شَهِيدًا﴾ دون شاهد في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

آثر التَّعبير بلفظ ﴿شَهِيدًا﴾ دون شاهد؛ لأنَّ لفظ شهيد أبلغ من لفظ شاهد، فصيغة فعيل تدلُّ على الاستمرار والدَّوام، وفي هذا مزيد عناية برسول اللّه ﷺ، " وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، هو دفع لشبهة من يقع في وهمه أن شهادة الملائكة تزكيّة لشهادة اللّه وتقوية لها.. تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا[1].

من شهد له الله فحسبه

دلالة تقديم المسند إليه في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

قُدِّم المسند إليه للتَّقوى، والمعنى: والملائكة يشهدون بنبوَّتك؛ فلا يحتاجون إلى دليل[2]، والمعنى: "والملائكة يشهدون أن هذا الكتاب هو من عند اللّه، وأنّك الرّسول المتخيّر، وشهادة الملائكة قائمة على الحقّ، لأنّهم لا يعرفون الكذب، ولا يتعاملون به.. فهم إذا شهدواً على شيء، كان حجّة على النّاس أن يأخذوا بهذه الشّهادة"[3].

شهادة الملائكة حقّ وصدق، وهي حجّة على النّاس أن يأخذوا بها

جناس الاشتقاق، وتنوُّع مواطن الجمال في اللَّفظ والمعنى:

وهذا واضح في السُّور الآتية بين: ﴿يَشۡهَدُ﴾، و﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾، و﴿شَهِيدًا﴾: جناس اشتقاق مغاير لاتفاقِ الكلماتِ في مادَّة (شهد)، واختلافها في الاسميَّة والفعليَّة.

المحسّنات اللّفظيّة تزيّن السّياق، وتبيّن المقصود بجلاء

دلالة ردّ العجز على الصّدر، في قوله: ﴿يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

وفي قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ردُّ العجز

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1014.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/363.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1014.

شــهــادة الــلــه أصــل أصـيـل، وشهادة الملائكة تابعة لها

على الصَّدر: حيث وافق آخرُ كلمة في الكلام آخرَ كلمة في صدره، "وشهادة الملائكة تبع لشهادة اللّه تعالى، وشهادتهم تكون يوم القيامة، يوم الحساب والعقاب، فشهادة اللّه تعالى للنبي وعليهم، وشهادة الملائكة عليهم يوم الحساب والعقاب"[1]، ولأهميّة الشّهادة وقيمتها، ردّ منها العجز على الصّدر، فالتأم المعنى وتكامل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1969.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النّساء: 167]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

المناسبة بين الرسالة المحمّدية الواجبة الاتّباع، وبين الصّدود والضّلال

لَمَّا أخبر سبحانه في الآيات السَّابقة عن رسالة الرُّسل (عليهم الصَّلاة والسَّلام)، وأخبر برسالة خاتمهم ﷺ، وشهِد بها، وشهِدتْ ملائكتُه، وأزال شبهات أهل الكتاب؛ لزم من ذلك ثبوتُ الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم واتِّباعُهم، جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن أنَّهم أصرُّوا على الكفر، ولم يقف الأمر عند كفرهم، بل صدُّوا، ومنعوا غيرهم عن الدُّخول في دين الإسلام؛ لذلك بيَّن الله لهمْ سُوءَ عاقِبَةِ أمرهم والمصير الَّذي ينتظرهم؛ زجرًا عن مثل حالهم وتقبيحًا لما أبدوه من ضلالهم[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: الصَدُّ: إِعْراضٌ وَعُدولٌ وَمَيْلٌ إِلى أَحَدِ الجانِبَيْنِ، صَدَدْتُ فُلانًا عَنِ الأَمْرِ؛ إِذا عَدَلتهُ عَنْهُ، والصُّدودُ والصَّدُّ: قد يكون انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا، وقد يكون صرفًا ومنعًا[2]. ومعنى ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صرفوا أنفسهم وغيرهم عن الدُّخول في الإسلام؛ لأنَّ الّذي يصدُّ غيره قد ابتدأ بصدِّ نفسه[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

من كفر بالله ورسوله وصدّ عن سبيله، فقد ضلّ ضلالا بعيدا

إنَّ الّذين كفروا بالله وبرسوله وبالقرآن، ومنعوا النَّاس من الدُّخول في الإسلام، واتّباع طريق الهدى والفلاح بإلقاءِ الشُّبهات

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 2/373، ورضا، تفسير المنار: 6/64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (صدد).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1970.

في قلوبهم، خرجوا عن الحقِّ والصّواب وبعُدوا عنه بُعدًا عظيمًا إلى أَقصى نهايات البعد عن الطّريق المستقيم، فمن كفر؛ فقد بَعُدَ عن الحقّ، ومن أَضلَّ غيرَه؛ فقد زاد بُعدُه، وكلَّما استمرّ على الضّلال والإضلال وإِغواء المهتدين، وإِثارة الشُّبهات حول دينهم؛ فقد أَوغل في البعد عن الطّريق السّويِّ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة عدم عطف هذه الآية على ما قبلها:

الإيـمـان بالله ورسـولـه دليل الهدى، والكفر طريق الضّلال

لم تعطف هذه الآية على ما قبلها؛ لأنَّها كلامٌ مستأنف جاء لبيان أحوال الذين كفروا، وصدُّوا عن سبيل الله بعد أن شهد الله على صدق نبوَّة رسوله وعلى ما أُنزل عليه؛ لذلك لم يذكر حرف العطف؛ لأنَّ الآية جاءت لبيان أحوالهم.وعلى ذلك إذا وُصف أهل الكفر بالضَّلال؛ ثبت نقيضه لأهل الإيمان، وهو الهداية.

دلالة بدء الآية بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الـكـفـران والـصّـدود مظهران للعناد والجحود

افتُتِحت الآية بحرف التَّأكيد ﴿إِنَّ﴾ للفت الانتباه، والاهتمام بالخبر الَّذي تحمله الآية في الحكم على الَّذين كفرواْ، وصدُّواْ عن سبيل اللّه، وفيه إشارة إلى إصرار أهل الكتاب على عدم الإيمان، بعد وجود ما يُطمع في إيمانهم من شهادة اللّه، وشهادة الملائكة على صدق نبوَّته ﷺ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون لفظ (الكافرين):

من الكفر ما تشتدّ وطأته، ويتفاقم أذاه

جاء التَّعبير بلفظ الَّذين كفرواْ دون لفظ الكافرين؛ للإشارة إلى فريق منهم ميؤوسٍ من إيمانه، وهم اليهود، وفي ذلك إشارة إلى كمال ذمِّهم واستحقاقهم لهذا الوصف ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18] بسبب كفرهم وصدِّهم عن دين اللّه ومنهج محمَّد ﷺ، بعدما سبق من الشَّهادة على صدق نبوَّته ورسالته ﷺ.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع وثبوته، وفي هذا إشارة إلى أنَّ كفرهم برسول اللّه ﷺ راسخٌ في قلوبهم، حتَّى أفقدهم التَّفكير في الإيمان به ﷺ، ويدلُّ على التَّنفير من الوصف بالكفر، ولو كان لكفر النِّعمة.

من الكفر واقعٌ معهود، ومتوقّعٌ مشهود

دلالة حذف متعلَّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

حذف متعلّق الكفر؛ لأنَّ القصد الإشارة إلى عموم كفرهم، لدفع توهُّم إيمانهم بموسى (عليه السلام)، فعدم إيمانهم برسول اللّه ﷺ، يلزم منه عدم الإيمان بموسى؛ لأنَّهم فرَّقوا بين رسل اللّه، والتّفريق بينهم كفر، ويجوز أن يكون المراد في حذف متعلَّق الكفر أنَّهم كفروا باللّه، وبما أنزَل، وجحدوا بنبوَّة محمَّد ﷺ، وكتب اللّه ورسله وحذفت هذه الصِّلة اختصارًا للعلم بها.

الإيجازُ للعلم بالمحذوف، وقصد العموم

دلالة التَّعبير بالصَّدِّ دون المنع، في قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل ﴿وَصَدُّواْ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الصَّدَّ: هو المنع وصرف النَّاس عن الدُّخول في الإسلام، واتّباع الرَّسول ﷺ، وهذا المنع بشرط أن يكون هذا المنع شديدًا؛ لأنَّ الصَّدَّ من الجبل ما يحول بينك وبين ما تريد لشدَّته، ومنه الصَّديد الَّذي حال بين اللَّحم والجلد من القيح؛ فكلُّ هذه المعاني تدلُّ على أنَّ الصَّدَّ أقوى من المنع، وممَّا يزيد هذا المعنى بيانًا أنَّ البنية اللُّغويَّة في مادَّة الصَّدِّ أقوى منها في مادَّة المنع؛ لأنَّ بعض صفات الصَّدِّ تدلُّ على الشِّدَّة، وممَّا يؤكِّد هذا المعنى استعمال القرآن الكريم هذا الفعل مع كفَّار مكَّة في صدِّ الرَّسول ﷺ، عن المسجد الحرام عند أداء العمرة، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَصَدُّواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

تمكّن الصّدّ عن سبيل الله من قلوبهم، حتَّى صار ديدنَهم ومطلبهم

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ صدَّهم عن دين اللّه ليس أمرًا عفويًّا؛ بل هو أمر تمكَّن في قلوبهم حتَّى صار وظيفة لبعضهم، فلا عمل لهم إلَّا الصَّدُّ عن سبيل اللّه.

دلالة حذف المفعول للفعل ﴿وَصَدُّواْ﴾:

تقدير المحذوف، منهج في اللّغة العربيّة مألوف

حُذِفَ المَفعولُ لِقَصدِ التَّكْثيرِ[1]، وكأنَّ المعنى: أنَّهم صدُّوا كلَّ من أراد الدُّخول في الإسلام؛ فلم يقف أمر الصَّدِّ لمن كان من جنسهم أو كان على دينهم؛ بل همُّهم الصَّدُّ لكلِّ من تسوِّل له نفسه التَّفكير في الإسلام، فضلًا عن الدُّخول فيه.

دلالة الجمع بين الكفر والصَّدِّ في الآية الكريمة:

أغلب الآيات الجامعة بين الكفر والصَّدِّ وردت في السُّور المدنيَّة

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أشار فيها القرآن الكريم إلى أنَّ اليهود ومن على شاكلتهم، لم يقفوا عند حدِّ الكفر، بل ضمُّوا إلى كفرهم الصَّدَّ، وهذا هو مسلك اليهود مع الرَّسول ﷺ، ودعوته وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الكفرة على صنفين: صنف منهم بقيَ على كفره، وصنف جمع مع الكفر الصَّدَّ، وهذا واضح في دور اليهود في تأسيس الدولة الإسلاميَّة في المدينة المنورة، يؤكِّد ذلك أن أغلب الآيات التّي جمعت بين الكفر والصَّدِّ، جاءت في السُّور المدنيَّة باستثناء ورود موضع سورة النَّحل، وهي مكيَّة، حيث ذكر فيها الجمع بين الكفر والصَّدِّ، وهي في سياق مشركي مكَّة؛ لأنَّهم لم يقفواْ عند حيِّز الكفر، بل صدُّواْ كلَّ من يبحث عن الدَّعوة الإسلاميَّة في الجزيرة العربيَّة.

دلالة الضَّلال البعيد في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

ختمت الآية بهذا الوصف؛ لأنَّ كفرهم باللّه ورسوله، وصدَّهم عن دينه بعد شهادة اللّه في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وصل إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/46.

علاقة عَجُز الآية بصدرها، وأثر ذلك في المعنى

حدِّ المبالغة في العدول عن الطَّريق المستقيم والمنهج القويم؛ لذلك ناسب وصفهم بالضَّلال البعيد، وفي هذا إشارة إلى عِظَم جرمهم وعمق ضلالهم[1]. وَصْفُ الضَّلالِ بالبَعيدِ - مَعَ أَنَّ البُعْدَ مِنْ صِفاتِ المَسافاتِ - هُوَ اسْتِعارَةُ البُعْدِ لِشِدَّةِ الضَّلالِ وكَمالِهِ في نَوْعِهِ، بِحَيْثُ لا يُدْرَكُ مِقْدارُ ضلال من ضلوا؛ لأَنَّهم ابتعدوا كثيرًا عن طريق الهداية والحقِّ.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الـصُّـدُّودُ قطعٌ متـعـمّدٌ لكـلِّ سبيلٍ يتوصَّل بـه إلى الـخير والهداية

آثر التَّعبير بلفظ ﴿سَبِيلِ﴾ في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين اللّه من باب الاستعارة التَّصريحيَّة، فقد استعار السَّبيل الَّذي يدلُّ على امتداد وسعة وسهولة ويسر لدين اللّه، وفيه إشارة إلى هؤلاء الَّذين كفرواْ، وصدُّواْ، ولم يقف أمرهم على الصَّدِّ عن دين الإسلام؛ بل صدُّواْ عن كلِّ سبيلٍ يتوصَّل به إلى الخير عمومًا، وإلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ خصوصًا، فأنكرواْ نعته في التَّوراة، وقالواْ: لا نعرفه في كتابنا، وأنَّ شريعة موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لا تنسخ، وأنَّ الأنبياء لا يكونون إلَّا من أولاد هارون وداود (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)[2].

دلالة الاستعارة بإطلاق الضَّلال على الكفر:

الضّلال البعيد انـحـراف عن الهدى بإضلال الآخرين

إِطْلاقُ الضَّلالِ عَلى الكُفْرِ اسْتِعارَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلى اسْتِعارَةِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ لِلإيمانِ[3]، ففيه تشبيه حالهم بحال الَّذين يسيرون في بيداء، وقد ضلُّوا الطَّريق، فكلَّما سارواْ؛ بَعُدوا عن الجادَّة، وكان سيرهم ضلالًا بعيدًا عن سواء الصِّراط، لا يجدون من يهديهم إليه، وهم بهذا قد تعدَّوا الضَّلال، ضلال أنفسهم، إلى الضَّلال البعيد، حيث أضلُّوا غيرهم.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 2/983.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/22.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/46.

مـــن الـــهـــلاك المـبـين، رسـوخ صـفـة الـضّـلال المهين

هنـاك فـرق بين الضّال والمضلّ، وكلاهما هالك لا محالة

أثـــــر الـبـنـيـة الـصّـوتـيّـة في المـنـاسـبـة بين المبنى والمعنى

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾:

دلَّت ﴿قَدۡ﴾ - وهي تفيد التَّحقيق -، على أنَّهم حقَّقوا الضَّلال في أنفسهم بمعناه اللُّغويِّ والشَّرعيِّ؛ فهم ابتعدوا عن أسباب الهداية؛ فضلًا عن الهداية نفسها، يؤكِّد هذا أنَّ الفعل الماضي - الَّذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، استعمله القرآن في رسوخ صفة الضَّلال فيهم.

من مواطن الجمال جناس الاشتقاق، في قوله: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا﴾:

في قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا﴾ جناس اشتقاق مغاير؛ لاتِّفاقهما في مادَّة (ضلل)، واختلافهما في الاسميَّة والفعليَّة، وعبَّر بذلك؛ لأنَّهم جمعوا بين الضَّلال والإضلال، فالمضلُّ يكون أوغل في الضَّلال وأبعد عن الإقلاع عنه؛ بخلاف الضَّالِّ، فهو ضالٌّ في نفسه، لم يتعدَّ إلى غيره.

دلالة الجمع بين الاسميَّة والفعليَّة في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

دلَّ ذلك على فعل الضَّلال في زمن ما؛ فقد يفهم من التَّعبير بالفعليَّة أنَّهم ضلُّوا في زمن دون زمن؛ فجاءت الاسميَّة لإفادة وصفهم بالضَّلال على وجه الثُّبوت والاستمرار في الضَّلال، ولذلك إذا تأمَّلنا البنية الصَّوتيَّة للفعل (ضلَّ - ضلالاً)؛ فسنجد أنَّ حرف الضَّاد بصوته المُفخم الشَّديد، هو الصَّوت المحوريُّ للكلمتين، وهو مناسبٌ لشدَّة الظَّلام الَّذي يعيشه هؤلاء الضَّالُّون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩﴾ [النساء: 168 - 169]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال أهل الكفر والضّلالة، وبين مصيرهم المحتوم في جهنّم

لِمَّا كان المعنى في الآية السَّابقة عن الَّذين كفروا، وصدُّوا، وحكم عليهم القرآن بالضَّلال البعيد، وكان من المعلوم أنَّ من ضلَّ قد يعود إلى الهدى، ويستغفر اللّه، فيغفر اللّه له؛ بيَّن تعالى هنا في هذه الآية: أنَّ الذين كفروا، وظلموا، لم يكن اللّه ليغفر لهم؛ لأنَّهم ضيَّعوا ما آتاهم اللّه من نور الآيات وباهر المعجزات، فاستحكم الكفر فيهم، فكان جزاؤهم الخلود في جهنَّم.

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرِيقَ﴾: الطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ، أي: يُضرب، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77]، وعنه استعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسان في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[1]، والطَّارق: السالك للطَّريق، لكن خُصَّ في التَّعارف بالآتي ليلًا؛ فقيل: طرق أهله طروقًا، وعبَّر عن النَّجم بالطَّارق؛ لاختصاص ظهوره باللَّيل[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تقرير مصير من كفروا وصدّوا عن السّبيل، بأنّه لا غفران لهم ولا هداية

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ الَّذ ين كفروا باللّه وكتابه ورسوله، وظَلموا أنفسَهم بعدمِ إيمانهم، وظلموا غيرَهم بالصَّدِّ عن سبيل اللّه، وارتكبوا المآثم، وانتهكوا المحارم؛ لم يكُن اللّه؛ ليغفرَ لهم

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرق).

ذُنوبهم إن ماتوا من غير توبة، ولم يكن لِيُوَفِّقَهم لسلوكِ الطَّريق القويم الَّذي يوصل لجنَّته ونعيمه، لكنَّه سيوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم، وهو طريق جهنَّم، طريق الكافرين الظَّالمين؛ ليخلدوا فيها خلودًا أبديًّا، وكان هذا الجزاء هيِّنًا سهلًا على الله تعالى، فهو قادر على كلِّ شيء.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

من كفر بالله هلك، ومن ضلّ عن سبيله أفك

الهداية للخَير يستحقُّها أهل الإيمان والتَّوبة دون غيرهم من الكفَّار والظَّالمين، وفصلت هذه الآية عمَّا قبلها؛ لأنَّها بيانٌ للجملة السَّابقة: ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السَّامع يترقّب معرفة جزاء هذا الضَّلال، فبيَّنته هذه الجملة[1]؛ فكانت هذه الآية لذكر وعيدهم.

دلالة الجمع بين الكفر والظّلم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الكفر والظّلم كلاهما مفسدة في الدّنيا، وهلاك في الآخرة

جمعت الآية بينهما؛ لبيان أنَّ اليهود لم يقفوا عند حيِّز الكفر في عدم الدُّخول في الإسلام، وعدم الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ بل تعدُّوا ذلك إلى وضع البشارات المكتوبة عندهم في غير موطنها ووظَّفوها في غير وظيفتها؛ فأنكروا نبوَّته ﷺ وكتموا صفاته المذكورة في التَّوراة والإنجيل؛ لذلك كان التَّعبير بالظُّلم الذي هو وضع الشَّيء في غير موضعه، وهم قد وضعوا الآيات والبشارات في غير موضعها.

دلالة تأخير الظُّلم عن الكفر، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الظّلم مرتعه وخيم، ترجع عقباه إلى النّدم

دلَّ تأخير الفعل ﴿وَظَلَمُواْ﴾ عن الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يتقدَّم عليه بأن يقال: ظلموا وكفروا؛ لتعدُّد معاني الظُّلم؛ فقد يراد به ظلم النَّفس، وظلم النَّبيِّ ﷺ والمسلمين، وعلى هذا يكون المراد بالذين كفروا: (أهل الكتاب)، وقد يراد به: الشِّركُ - كما هو شائعٌ في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

استعمال القرآن - كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]؛ فيكون من عطف الأخصّ على الأعمّ في الأنواع[1].

دلالة الاتِّفاق والاختلاف في أوصاف الكافرين في الآيتين:

كلُّ كفر وصدود عن السّبيل، فهو ظلم للنّفس وللغير

النَّاظر في الأوصاف في الآية الأولى: يجد الكفرَ والصَّدَّ عن طريق الحقِّ، والأوصاف في الآية الثَّانية: هي الكفر والظُّلم، فاشتركتا في الكفر، واختلفتا في الصّدِّ والظُّلم، وهما متلاقيان؛ لأنَّ الإعراضَ عن الحقِّ ظلمٌ للنَّفس، ومنعُ الآخر من الحقِّ ظلمٌ له، والأذى والفتنة في الدِّين ظلم لا ريب فيه.

بلاغة حذف المفعول في الفعلين: ﴿كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الإيجازُ للعلم بالمحذوف، وقصد العموم والتَّكثير

كَفَرُوا باللّه، وبما أنزَل، وجحدوا بنبوَّته ﷺ، والكتب والرُّسل، وحذفت هذه الصِّلة اختصارًا للعلم بها، وظَلَمُوا أنفسهم أو غيرهم بالكفر وارتكاب المعاصي والآثام والمحرَّمات، وبكتمان نبوّته ﷺ، وبصدِّ النَّاس عن دين الإسلام وإلقاءِ الشُّبهات في قلوبهم، وظلموا أنفسهم بالخروج عن طاعة اللّه ورسوله، وغير ذلك من جرائمهم الَّتي لا تُحۡصى[2]، وكذلك: لم يكن اللّه ليغفر لهم ذنوبهم؛ إذا ماتوا على الكفر والظُّلم، ولم يتوبوا إلى اللّه، ويكفُّوا عن ظلمهم.

فائدة وضع الظَّاهر موضع المضمر، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّنديد بأفعال الّذين كفروا، وإقامة الدَّليل على الحكم عليهم

وضع الظَّاهر الموصول وصِلته - في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يذكر ضميرهم، هو تنديدٌ بأفعالهم، وتهديد لهم، وذكر الدَّليل على الحكم بذكر الصِّلة[3].

دلالة التَّعبير بـ﴿لَمۡ﴾ في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾:

دلَّت ﴿لَمۡ﴾ على استحالة تعلُّق المغفرة بالكافر الَّذي مات على

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

كفره، ويكون المعنى: لم يكن اللّه ليغفر لهم؛ لأنَّهم ماتوا على الكفر والظُّلم، ولم يتوبوا إلى اللّه، ويكفُّوا عن ظلمهم، والمقصود (لن يغفر اللّه لهم ما داموا على كفرهم، ولن يهديهم طريق النّجاة، وما كان من شأنه - سبحانه - أن يغفر لأمثالهم وهم في ضلالهم)[1].

من مات على الكفر، فلا غفران له، ولا عفو عنه

دلالة صيغة الجحود في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾:

دلَّت هذه الصّيغة في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾، على تحقيق النَّفي، وقد نفت عن اللّه أن يغفر لهم؛ تحذيرًا من البقاء على الكفر والظُّلم؛ لأنَّ هذا الحكم نيط بالوصف، ولم ينط بأشخاص معروفين، فإن هم أقلعوا عن الكفر والظُّلم لم يكونوا من الَّذين كفروا وظلموا[2].

إناطة الحكم بالوصف لا بالشّخص

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿لِيَغۡفِرَ﴾ لا بلفظ (يغفر):

عبَّر بالفعل ﴿لِيَغۡفِرَ﴾ المقرون باللّام؛ لتوكيد النَّفي، وتدعى هذه اللَّام عند النُّحاة: لامَ الجُحودِ لسبقها بكون منفيٍّ، وَأَنَّ الإتْيانَ بِها أَبْلَغُ مِنَ الإتْيانِ بِالفِعْلِ المُجَرَّدِ عَنْها، فجاءت العبارة أقوى من الإخبار المجرَّد، أنَّه لا يغفر[3].

لا عذاب إلّا بكفر، ولا غفران إلّا بتوبة

دلالة حذف مفعول ﴿لِيَغۡفِرَ﴾:

حذف مفعول الفعل ﴿لِيَغۡفِرَ﴾؛ لإفادة العموم، حيث تعلَّق فعل المغفرة بوصفي الكفر والظُّلم، والمراد نفي المغفرة للكافرين الَّذين ماتوا على الكفر، وللظَّالمين الذين ظلموا بكل صور الظُّلم؛ إذا لم يتوبوا منها.

تعميم عدم الغفران، على أصحاب الكفران

دلالة نفي المغفرة دون نفي العفو؛ في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾:

اختار نفي المغفرة دون نفي العفو؛ لأنَّ المغفرة تتعدَّد معانيها، فتدلُّ

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 141..

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/138، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/141.

على السَّتر وعلى التَّسامح وعلى عدم المؤاخذة على الذَّنب، وكلُّ معنًى من هذه المعاني مناسبٌ لتفسير الظُّلم على اختلاف صوره من المعاصي والشِّرك، وعلى هذا، لا يؤدِّي لفظ العفو المعنى المقصود في السِّياق من العقاب الَّذي أعدَّه اللّٰه للكافرين وللظَّالمين؛ فلن يسترهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولن يترك مؤاخذتهم على ذنوبهم.

مع الكفر لا وجود للمغفرة، ولا مجال للمعذرة

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَكُنِ﴾ في الآية:

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَكُنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، مع أنَّ المعنى يفهم من غيره، لكنَّه وضع؛ ليفيد نفي المغفرة، ذلك أن (لم) إذا دخلت على المضارع حوَّلته إلى الماضي الَّذي يدلّ على تحقُّق الفعل، والمراد هنا: ثبوت عدم المغفرة لهم ورسوخها، مع العلم أنَّ الدَّلالة على الزَّمن في الفعل ﴿يَكُنِ﴾ غير مرادة؛ لأنَّه لا زمن مع اللّٰه.

لا دلالة على الزَّمن في الفعل (كان) لأنَّه لا زمن مع الله

دلالة الإضمار في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

دل الإضمار في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ على التَّهوين من شأنهم، وأنَّهم لا وزن لهم عند اللّٰه تعالى، مع كلِّ ما يظهرونه في الدُّنيا من الزَّعامة والرِّياسة من خلال ظلمهم وصدِّهم عن سبيل اللّٰه، قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾ [الكهف: 105].

من جاهر بالكفران، لاقى من الله الهوان

إيثار التَّعبير بـ (لا) دون (لم) في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾:

آثر التّعبير بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨﴾؛ لأنَّها نافية مؤكِّدة لحرف (لم) الّذي دلَّ على نفي المغفرة لهم وحدها، ولنفي هدايتهم وحدها، فكيف إذا اجتمعا؟ فيكون نفيهما معًا أولى وآكد - لا سيَّما - وأنَّ الطَّريق عادة ما يكون صعبًا إلّا إذا اقترن بوصف أو إضافة، كالمستقيم مثلًا، والتَّنوين: للتَّنكير، تعني: أيَّ طريق يوصل إلى الهدى.

من اهتدى هداه الله، ومن ضلّ أضلّه الله

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾:

دلالـة الكناية، في التّعبير عن الدّين بالطّريق

في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ استعارة تصريحيَّة، حيث شبّه المنهج والمسلك بالطَّريق، والمعنى: "لن يغفر اللّه لهم ما داموا على الكفر، ولن يهديهم طريق النّجاة"[1]، وقد عبَّر بذكر الطَّريق عن الدِّين من باب الكناية، ومعنى الكلام: لم يكن اللّه ليوفِّقهم للإسلام، ولكنَّه يخذلهم عنه إلى طريق جهنَّم، وهو الكفر[2].

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿طَرِيقًا﴾:

سرُّ الجمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية

التَّنكير يفيد الشُّيوع والعموم، والمراد: نفي الهداية لأيِّ طريق خير، بل يُهْدَونَ إلى طريق جهنَّم، وذلك لعدم استعدادهم للهداية إلى الحقِّ والأعمال الصَّالحة[3]، وقد جُمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية في حقِّ الكافرين الّذين ظلموا؛ للدَّلالة على أنَّهم متعنِّتون، مكابرون، يضعون الشَّيء في غير موضعه[4].

بلاغة القصر في الآية في قوله تعالى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾:

إفـــادة جملة واحـــدة معنى جملتين

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، إِلَّا: أداة استثناء جاءت بعد نفي، فأفادت الحصر والقصر، أي: سيهديهم يوم القيامة طريق جهنَّم، ولن يهديهم طريقًا سواها.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾:

لا طـريـق لـمـن عـاند وأثـم، إلّا طريق جهنّم

دلَّ الاستثناء على تأكيد الشَّيء بما يشبه ضدَّه؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ للإنذار، وفيه رائحة إطماع؛ لأنَّه إذا سمع المستثنى؛ تبيَّن أنَّه من قبيل الإعذار، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى لا يوصلهم إلى طريق إلّا طريق جهنَّم.

(1) إبراهيم القطان: تيسير التّفسير، ص: 367.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/32.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 5/236.

دلالة اختيار الفعل المنفي ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾:

التَّعبير عن الهداية من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة

اختار التَّعبير بالفعل المنفيِّ ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾؛ لأنَّ الهداية لها معانٍ عدَّة، ومنها الدَّلالة، وهو المناسب مع الطَّريق، ويكون اختياره من باب التَّهكُّم والسُّخرية؛ لأنَّ الدَّلالة على جهنَّم ليس من باب الهداية المرادة، بل هو التَّردِّي في الهاوية، وكان التَّعبير عن الهداية من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة؛ لأنَّ الهداية في الأصل لا تكون إلَّا إلى طريق الخير والسَّلامة، فاستعمالها مع طريق جهنَّم إنَّما هو من باب التَّهكُّم بهم، والاستهزاءِ بسوءِ اختيارهم الَّذي أوصلهم إلى مثل هذا المصير، وهذا التَّهكُّم مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][1].

دلالة ذكر لفظ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾:

حكم الله تعالى بالخلود الأبديِّ للكافرين في النّار

دلَّ ذكر ﴿أَبَدٗاۚ﴾ على التَّفريق بين من يمكثون للعذاب، وهم العصاة، وبين من يخلدون فيها، وهم الكفرة؛ لأنَّ الخلود: معناه المكث الطَّويل، ووصف سبحانه العذاب بأنَّه عذاب خالد ممتدٌّ، فهم خالدون في العذاب، وأكَّد الخلود بالأبديَّة، وهذا يدلُّ على بقاء العذاب، وأصل المخلَّد: الّذي يبقى مدَّة طويلة، والأبد: مدَّة الزَّمان الممتدِّ الَّذي لا يتجزَّأ، وأهل النَّار تبقى أجسامهم في شقاء وعذاب أليم، لا تبليها النَّار، ولا يفنيها العذاب، ولا يذهب بالحساسيَّة فيها توالي الاكتواء: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النّساء: 56]، وكلُّ ذلك في الذين ماتوا على كفرهم، ولم يتوبوا من شركهم.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة في قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾:

عبَّر باسم الإشارة للدَّلالة على استحضار الصُّورة التّي يكون

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1973، وجماعة من العلماء مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 2/984.

قــدرة الـلـه لا يعجزها شيء، ولا يحجب عنها مستور

عليها الكافرون في جهنَّم، وأيضًا لتجمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية من خلال الإشارة،

سرُّ اختيار وصف (جهنَّم) دون غيرها من أوصاف النَّار:

بئس العقيدة الكفر، وبئس المصير النّار

اختار هذا الوصف دون غيره من الأوصاف كالسَّعير والجحيم؛ لأنَّه المناسب لهؤلاء الكفرة الَّذين صدُّوا وظلموا، وكانوا يتجهَّمون في وجهه ﷺ، وفي وجه أصحابه؛ فناسب أن يعاقبوا بمثل فعلهم من تجهَّم؛ جهنَّم لهم جزاءً وفاقًا.

دلالة ختام الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

تأبيد الخلود يسيرٌ على الله

وجاء ختام الآية بهذه الجملة؛ ليبيّن لهم أنَّ اللّه تعالى غالب على كلِّ شيء، وأنّ عذابهم أمر يسير عليه، لإبطال زعمهم في أنَّهم لا يقدر عليهم أحد(1)، كما يتصوَّر الَّذين لا يعرفون اللّه حقَّ معرفته، والَّذين يرون في رؤسائهم وقادتهم أنَّهم في مقام عزيزٍ لا ينال؛ لذلك كان إدخالهم في جهنَّم أمرًا سهلًا هيّنًا على اللّه، فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السِّماء.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل والطَّريق:

لقد قال اللّه تعالى في ختام الآية السَّابقة: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلَا ١٣٧﴾، وقال هنا: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨﴾، فاختلف الجزاء المُعدُّ لكلٍّ منهم، حيث نفى هدايتهم إلى السَّبيل في الأولى، وفي الثَّانية نفى هدايتهم إلى الطَّريق، ولكي يتَّضح سرَّ الاختلاف لابدَّ أوَّلًا من ذكر الفرق بين السَّبيل والطَّريق. فالسَّبيلُ: الطَّريق الممتدُّ الَّذي فيه سهولة ووضوح، وأصل دلالته على الامتداد، وهو يذكّر ويؤنَّث، وجمعه: سُبُلٌ، ويستعمل السَّبيلُ لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء، خيرًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1974.

كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [يوسف: 108]، وكلاهما واحد، لكن أضاف الأوَّل إلى المبلِّغ، والثَّاني إلى السَّالك بهم، وقوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16] أي: طرق السَّلامة المؤمِّنة من العقوبة، وقيل: طرق الجنَّة: إمَّا طرُقها حقيقةً، وإمَّا الأسباب الَّتي يتوصَّلون بها إلى الجنَّة من الأعمال الصّالحة[1].والطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ، أي: يُضرب، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه: 77]، وعنه استعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسان في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[2].

والفرق بينهما: أنَّ السّبيل والطَّريق يدلَّان على كلِّ مسلك يسلكه الإنسان محمودًا كان أو مذمومًا، أمَّا السّبيل؛ فأغلب استعماله في الخير، ولا يكاد اسم الطّريق يراد به الخير إلَّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، والطّريق لا يقتضي السُّهولة، وبخلاف السّبيل؛ فإنَّه يتميّز بالوضوح والسُّهولة واليسر[3]، وبناءً على ذلك: يقال: بأنَّ الآية الأولى خُتمت بنفي هداية السَّبيل لهؤلاء المنافقين، للدَّلالة على أنَّ الله نفى عنهم الهداية لكلِّ مسالك الخير؛ لأنَّ اسم السَّبيل أغلب وقوعه في الخير وسبل السَّلامة، بخلاف الطَّريق؛ فلا يراد به ذلك إلَّا إذا كان مقرونًا بوصفٍ يدلُّ على الحقِّ والخير، كما في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]؛ بخلاف الآية الثَّانية؛ فقد جاءت في شأن الَّذين كفروا، وظلموا، وأمرهم يختلف عن الَّذين ورد ذكرهم في الآية الأولى؛ لوجود فرقٍ بين من كفر بعد إيمان، ومن كفر، ولم يتقدَّم منه إيمان؛ فحال من كفر بعد إيمان أشنع حالًا من الكافر ابتداءً؛ لذلك ناسب في الآية الأولى نفي الهداية لأيِّ سبيل، بخلاف الَّذين كفروا ابتداءً؛ فنفى هدايتهم لأيِّ طريق، والسَّبيل أعمُّ من الطَّريق.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (سبل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(3) البقاعي، دلالة البرهان القويم: 4/1373.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ [النساء: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين صدق دين الرّسول ونهجه وبين الدّعوة إلى هدايته

لَمَّا أجابت الآيات السَّابقة عن شُبَه اليهودِ، وبيَّنت فسادَ طريقتهم، وأظهرت صدق الرَّسول ﷺ وصحّة دينه؛ ناسب أن يتوجَّه الخطاب العامُّ الَّذي يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدَّعوة إلى دينه ﷺ، والإيمان به وبرسالته(1).

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الدّعوة إلى اتّباع الحقّ الّذي جاء به الرّسول، ومن كفر فالله غنيّ عنه

خاطَب اللّه تعالى جميعَ المكلَّفين، بأنَّ ما جاءهم به رسولُ اللّه ﷺ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا، فعليهم أن يُؤمنوا به، وهذا الإيمان خيرٌ لهم في الدّارين ممَّا هم عليه من الجحود والتّكذيب، فإنْ أَبَوْا إلَّا الكفر، فإنَّ اللّه غنيٌّ عنهم وعن إيمانهم، فهو الَّذي يملك السَّموات والأرض وجميع ما فيهنَّ، مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ولا يَنْقُصُ كفرُهم من ملك اللّه وسلطانه شيئًا، واللّه عَلِيمٌ بما أنتم صائرون إليه من الهداية أو الغواية، والطّاعة أو المعصية، حَكِيمٌ في أمره ونهيه وتدبيره(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة النِّداء بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا: أداة نداء، والنِّداء بـ (يا) يكون للبعيد،

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.

(2) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 104.

ثمَّ يزاد عليها (ها) الَّتي تفيد التَّنبيه، وينادى بها للبعيد حِسيًّا، وللبعيد معنويًّا أيضًا، والنِّداء من اللّه تعالى إلى النَّاس كافَّة، قال ابن عباس: يريد المشركين[1]، والعبرة بعموم اللَّفظ.

النِّداء بالآكد الأبلغ، أظهر في السّياق وأعمق

وكثر النِّداء في القرآن بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لاستقلاله بأوجه من التَّأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأنَّ كلَّ ما نادى اللّه تعالى له عباده: من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدَّارجة عليهم، وغير ذلك ممَّا أنطق به كتابه؛ أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ[2].

دلالة التَّعبير بلفظ (النَّاس) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

منهج القرآن إقامة الحجّة على أهل الكتاب

ورد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة اللّه تعالى على صدق نبوَّته ﷺ، وعلى ما جاء به، والملائكة من بعده شهدوا؛ دلَّ ذلك على أنَّ غيرهم من باب أولى تقوم عليهم الحُجَّة.

دلالة الإتيان بالنِّداء، بعد الحديث عن الصّدِّ والظّلم:

نداء الله فتح لباب الأوبة إلى حظيرة الإيمان

لمَّا ذكر اللّه في الآيات السَّابقة صورًا من عناد أهل الكتاب والمشركين وتعنُّتهم، وذكر الوعيد الَّذي سيلقونه إن لم يتوبوا من كفرهم، وهو الخلود في جهنَّم؛ نادى عليهم ليفتح لهم الباب للعودة إلى حظيرة الإيمان، وهذا دليلٌ على رحمته بخلقه، حيث ناداهم تنبيهًا لهم، وتوجيهًا لقلوبهم نحو التَّصديق بنبوَّته ﷺ.

دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلۡ﴾، خلاف ما ورد في بعض الآيات القرآنيّة:

لذّة المناداة كلذّة المناجاة، كلاهما قرب ووصل بالله

إنّ دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلۡ﴾، كما ورد في بعض الآيات نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104]،

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/141.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.

يلمح فيه أنّه: لَمَّا كانت هذه الآية تحمل أمرًا بالتَّكليف، وهو الإيمان، في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، والتَّكليف فيه مشقَّة على النَّفس، وهذا يقتضي وجود ما يعبِّر عن راحة تقابل هذا التَّكليف، وتلك الرَّاحة تظهر في مناداته سبحانه عليهم بذاته، عند ذلك يتحوَّل التَّكليف الشَّاقُّ إلى يسير؛ لأنَّه يشعر بلذَّة المناداة من قبل ربِّه.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دون (البشر) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

خطاب الله للنّاس توجيه وتحديد لأصول العلاقة بالله

اختار لفظ النّاس؛ لأنَّه اسم عامٌّ لبني آدم، ففيه إشارة إلى عموم رسالته ﷺ، فلا يقف عند أهل الكتاب ولا المشركين، بل كلُّ من يصدق عليه لفظ النّاس؛ مطالبٌ بالإيمان به وبما أنزل عليه، ولم يستعمل لفظ (البشر)، ومعناه الإنسان الواحد رجلا كان أو امرأة، ويقال للجمع بشر، ولفظ البشر لا يصلح هنا للمناداة، لأنّ أصل الدّلالة للفظ (بَشَر)، من ظهور الشّيء مع حسن وجمال، وسمّي البشر بشرا لظهورهم[1]، والخطاب بلفظ النّاس أولى، وهو معهود في الخطاب القرآنيّ، لتذكير النّاس بما يصلح أمرا أو نهيا أو تنبيها، ولذلك أثر هذا اللّفظ في موقعه من الآية.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾:

أَثَرُ تأكيد الكلام بجملة من المؤكِّدات

دلَّت ﴿قَدۡ﴾ على التَّأكيد والتَّحقيق لنبوَّته عليه السلام، وهي بمنزلة التَّأكيد بتكرير الشَّهادة، والتّقرير لِأحَقِّيَّة المشهودِ به، والتّمهيدِ لما يعقُبه من الأمر بالإيمان.

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

دلالة التَّعبير بالرّسول دون النَّبيِّ في الآية

قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، للعلم به، ولِأَنَّ أَهْلَ الكِتابِ قَدْ بُشِّروا بِهِ، وَكانوا يَنْتَظِرون بِعْثَتَهُ، وكان اختيار التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتأكيد وجوب طاعته، وللإشارة

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (بشر).

إلى أنَّه له شرع جديد مستقلٌّ، مصدَّقٌ ومهيمنٌ على ما سبق من الكتب، ولو عبَّر بالنَّبيِّ، لتوهَّم أهل الكتاب أنَّه تابعٌ لشريعتهم.

دلالة التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾:

إرسال الرُّسل للتَّربية والتّعليم من عطاءات الرُّبوبيَّة

عبَّر بلفظ الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتهم وتبليغِهم إلى كمالهم اللَّائقِ بهم، ترغيبًا لهم في الامتثال بما بعده من الأمر[1]، ولأنَّ لفظ الرُّبوبيَّة مع إضافته إلى ضمير المخاطبين، فيه تقوية لدواعي إقبالهم على التَّصديق بما جاء به الرَّسول ﷺ، وفيه ترغيبٌ للإيمان باللّه ﷻ؛ لأنَّه هو الخالق والمربِّي لهم.

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

دلالة التَّعبير عن القرآن بالحقِّ، دون لفظ آخر

دلَّت هذه الباء، على أنَّ كلَّ ما جاء به الرَّسول حقٌّ، لا يعتريه الباطل، وصدق ليس فيه كذب، وبذلك يخرج ما نُسب إلى الرَّسول ﷺ، وقد عبَّر عن القرآن بلفظ (الحقِّ)؛ ليردَّ على مزاعم أهل الكتاب والمشركين، وللإشارة إلى ثبوته وعدم تغييره؛ لأنَّ معنى الحقِّ: الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر ولا ينسخ، وفي ذلك إشارة إلى نسخ الكتب السَّابقة، لما أصابها من التَّحريف والتَّغيير والنّسخ.

دلالة الإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾:

الإيمان سعادة في العاجلة، وفوز في الآجلة

الفاء سببيَّة؛ للدَّلالة على تأكيد إيجاب ما قبلَها لما بعدَها، أي: فآمنوا به، وبما جاء به من الحقِّ[2]، أو الفاء فصيحة؛ لإفصاحها عن شرط مقدَّر، والتَّقدير: إذا كان الأمر كما عرفتم؛ فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم؛ لأنَّه يزكِّيكم، ويطهِّركم من الأدناس الحسِّيّة والمعنويَّة، ويؤهِّلكم للسّعادة الأبديَّة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/66.

من متطلّبات الإيمان الإقبال على الطّاعة، و الازدجار عن المعصيّة

دلالة الإتيان بالأمر ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ دون (انتهوا):

جاء التّعبير بالإيمان؛ لأنَّ صدر الآية ذكر سبب الإيمان، وهو مجيء الرَّسول بالحقِّ، فناسب التَّعبير بالإيمان، أمَّا الآية الثَّانية؛ فجاءت بعد قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النّساء: 171]، فلمَّا نهاهم عن الشِّرك والتَّثليث؛ ناسبه الإتيان بالنَّهي في قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النّساء: 171].

كثرة المعاني في الكلام القليل، من بلاغة البيان الأصيل

ثمرة تنوُّع الأوجه الإعرابيّة في السّياق الواحد:

اختلفت أقوال النُّحاة في إعراب ﴿خَيۡرٗا﴾: فأعربها الكسائيُّ: خبرًا لكان المحذوفة مع اسمها، والتَّقدير: فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم، وأمَّا الخليل وسيبويه؛ فيقدِّران: واهتدوا بالإيمان؛ خيرًا لكم، أي: ممَّا أنتم عليه، وقال الفرَّاء: فآمِنوا إيمانًا خيرًا لكم، فانتصابه على أنَّه صفة لمصدر محذوف[1].

الأصل الفطرة، والكفر انسلاخ من فطرة الإيمان

دلالة التَّعبير بـ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

عبّر بقوله: ﴿وَإِن﴾ الشّرطيَّة الَّتي تفيد الاحتمال والظَّنّ، وفي إيثار التَّعبير بها دلالة على أنَّ الأصل عدم الكفر، بتكذيب الرَّسول ﷺ، وما جاء به، ويقابلها العكس.

الآية تحوي تهديدا وإنذارا ووعيدا للكافرين المعاندين

دلالة حذف جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

جواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه الخبر: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا خبر يدلُّ على الاستغناء، والتقدير: فهُوَ سبحانه غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إيمانِكُمْ، ومَنْ هذا شأنُه، فهو قادرٌ على تعذيبكم بكفركم لا محالة، أو: فمن كان كذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعن غيركم لا يتَضرَّر بكفركم، ولا ينتفع بإيمانكم، أو: فمَنْ كان كذلك؛ فله عبيدٌ يعبُدونه، وينقادون لأمره[2]، وفي الآية: تهديد وإنذار ووعيد للكافرين.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/388.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/139، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259.

دلالة عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قصد التّنصيص على الإفراد شرط في ذكر المحذوف المراد

في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يلاحظ عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، بينما جيء بها مع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقد أجاب الزَّركشيُّ بقوله: "حيث قُصد التَّنصيص على الإفراد؛ ذكر الموصول والظَّرف، وحيث قُصد أمر آخر؛ لم يذكر الموصول إلَّا مرَّة واحدة؛ إشارة إلى قصد الجنس وللاهتمام بما هو المقصود في تلك الآية، ومثَّل لذلك بموضع سورة الرَّحمن، قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرحمن: 29]، والمقصود منها: عُلوُّ قدرة اللّه تعالى وعلمه وشأنه، ولم يقصد إفراد السَّائلين"[1].

من مواطن الجمال في الآية، طباق الإيجاب:

الجمع بين جمال المبنى والمعنى، من بلاغة القرآن الأسمى

بين ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ و ﴿تَكۡفُرُواْ﴾ طباق إيجاب؛ لأنَّ اللَّفظَين موجبان غير منفيَّيْن، وقد جاء الإيمان في سياق الأمر، بينما جاء الكفر في سياق الشَّرط الدَّالِّ على التَّهديد والوعيد.

من لطائف التَّذييل بالعليم الحكيم:

علمه بخلقه وحكمته في تدبيره، ظاهرة في تعبيره

واللّه عَلِيمٌ بخلقه، لا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمالِ عباده المؤمنين والكافرين شيء، حَكِيمٌ في جميع أفعاله وتدبيراته[2]، وجاء ختام الآية بوصف اللّه بالعليم المحيط الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وبالحكمة وحسن التَّدبير والإبداع في ملكوت السَّموات والأرض، فمِن مقتضى علمه ألّا يخفى عليه ضلال الضَّالين، ولا هداية المهتدين، ومِن مقتضى حكمته أن يجزي بالكفر عذابًا، وبالإيمان نعيمًا، وأن يجعل من عباده: المؤمنَ المهتدي، والضالَّ الغاوي[3].

---

(1) الزّركشّي، البرهان، ص: 73.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغَيب: 11/270.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1977.

اختيار ألفاظ مسك الختام، موحيّةً بفحوى بلاغة الكلام

دلالة تقديم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في آخر الآية الكريمة:

قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في الآية؛ وهي قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وذلك لمناسبة سياق الكلام مع أهل الكتاب؛ فاللّه يعلم ما في نيَّاتهم من سؤالهم للرَّسول ﷺ، بنزول كتابٍ من السَّماء؛ تعجيزًا له ﷺ، وهو تعالى حكيمٌ في تقديره عذابَ الكافرين والظَّالمين.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النّساء: 171]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقةُ الرّدَّ على غُلوِّ اليهودِ في عيسَى (عليه السلام)، مِن حَطِّ رُتبتِه، والكفرِ به، والسَّعيِ في قتْله وصَلْبه، واتّهام أمِّه البتولِ، أتْبعَ ذلك بالرّدِّ على غُلوِّ النّصارى، الّذين أفْرَطُوا في رفْع رتْبتِه، وادّعاءِ أُلوهيّتِه، أو أنّه ابنُ الإله، أو ثالثُ ثلاثة، وطالَبهم بالاعتدالِ في أحكامِهم ومواقِفِهم.

ضرورةُ الالتزامِ في وصفِ المسيحِ وأمِّه، بما نصّت عليه الآيةُ وأكّدَهُ القرآنُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: أصلُ الغُلُوّ: المجاوزةُ للشّيءِ والزّيادةُ. يُقالُ: غَلا السّعرُ، وغَلا في القَدْرِ والأمْرِ، وغَلا السّهمُ: يَغْلو، باتّفاق الفعلِ في كلِّ ذلك، وأوقعُوا الفَرقَ بين المعاني في المصادر؛ فقالوا: في السّعر: غَلاءً، وفي القَدْرِ والأمرِ: غُلُوًّا، وفي السّهم: غَلْوًا، والغُلُوُّ الزِّيادَةُ في عَمَلٍ على المُتعارَفِ مِنْه، بِحَسَبِ العَقْلِ أوِ العادَةِ أوِ الشَّرْعِ، وقد يكون الغُلوّ إفراطًا، أو تفريطًا، والغُلُوُّ في الدِّين: التّشَدُّدُ فيه ومُجاوَزَةُ الحَدِّ بالتّنطّعِ في البحْثِ عن بواطنِ الأشياءِ، والكشْفِ عن عِللها، وغوامضِ مُتَعَبَّداتِها، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ معناه لا تُجاوِزوا فيه القَدْرَ الّذي حُدَّ لكم[1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (غلوي)، الرّاغب، المفردات: (غلا)، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلو).وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/290.

2) ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: اسمٌ مُشتركٌ بينَ الدّجالِ وعيسَى (عليه السلام)، ويُطلقُ ابتداءً على عيسى بنِ مريم، لأنّه كان بمعجزةِ اللّه يمسحُ على الأكمهِ والأبرصِ، فيُشفَى كأنّه لم يُصبْه بأسٌ، وقيل لسببِ أنّه عند ولادتِه من بطنِ أمِّه، كان ممسوحًا أي لم يكنْ عليه منَ الدّمِ وماءِ النِّفاس ما يكونُ عادةً على المولودِ عند الوضع، وقال البعضُ: "إنّ المسيحَ بمعنى الصّديقِ، أو لأنّ باطنَ قدمِه كان سويًّا، أو لأنّه كان يسُوحُ في الأرضِ كثيرًا، وهذا وجهُ اشتراكٍ بينه وبين الدّجَّال"[1].

3) ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾: الرُّوحُ خلْقٌ مِنْ خَلْق اللّه، لَمْ يُعْطِ علْمَهُ أحدًا؛ وفي قولِه تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15]، قال الزّجّاجُ: جاء في التّفْسيرِ أنَّ الرُّوحَ الوحْيُ أو أمْرُ النّبوّةِ؛ ويُسمَّى القرآنُ رُوحًا، ابْنُ الأَعرابي: الرُّوحُ الفَرَحُ. والرُّوحُ: القُرْآنُ. والرُّوحُ: الأَمرُ. والرُّوحُ: النَّفْسُ"[2]، والرّوحُ مُؤنّثٌ إِذا كَانَ بِمَعْنَى النَّفس، ومذكّرٌ إِذا كَانَ بِمَعْنى المُهجة[3]، قَال الأزهري: وكذلك قَوْلُه في عِيسَى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، أَي رَحْمَةٌ مِنْهُ تَعَالَى[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تفنيدُ عقائدِ أهلِ الكتابِ الباطلةِ في تأليهِ المسيحِ وتقْديسِه:

يُخاطبُ اللّه أهلَ الكتابِ بأنْ يعْتدِلوا، ولا يُجاوِزُوا الحقَّ في الدِّين، وفي اللّه ورسُلِه، فيُفرِطُوا في حبِّ عيسى عليه السلام، فيرفَعُوا شأنَه إلى ادّعاءِ ألوهيتِه، أو كما قالوا: إنّه إلهٌ أو ابنُ إله أو ثالثُ ثلاثةٍ، ثمّ بيّنَ لهم حقيقةَ عيسَى عليه السلام بأنّه بشَرٌ خرَجَ مِن بَشَرٍ فهو ابنُ مريم، وأنّه رسولُ اللّه، وهذا تكذيبٌ لمن كفرَ برسالتِه، وأنّه كلمةُ اللّه الّتي ألقاها إلى مريمَ، وأنّه روحٌ مبتدأةٌ منَ اللّه، وهذا ردٌّ على منِ ادّعى أنّه ابنُ الإله، ودعاهُم إلى الإيمان باللّه وحده، المنزّهِ عنِ الصّاحبةِ والولدِ، ونهاهم عن ضلالِ الاعتقادِ والقولِ بالتّثليثِ، فلو أراد اللّه أن يتّخذ ولدًا لاصطفَى ممّا يخلقُ ما يشاءُ، فلَه ملكُ السّموات والأرض، ومن فيهنّ

(1) نكري، دستور العلماء: 4/60.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 471.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (روح).

وما فيهنّ، لكنّه إلهٌ واحدٌ أحدٌ، لم يلدْ ولم يُولَد، وهو وكيلُ كلِّ شيءٍ، وكفَى به وكيلًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ في الآيةِ:

المـــرادُ بلفظِ (أهلِ الكتابِ) التّعريضُ بهم، لمخالفةِ نصِّ كتابِهم

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ الخطابُ لأهلِ الكتابِ، وهو لفظٌ عامٌّ يشملُ (اليهود والنّصارى)، ويراد به هنا (النّصارى)، من بابِ إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ، بدليل قولِه تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ﴾ وهذه مقالةُ النّصارى خاصّةً، ففي الآية مجازٌ مرسلٌ، واختيارُ هذا اللّفظ (أهل الكتاب) تعريضٌ بهم حيث خالفُواْ ما نصَّ عليه كتابُهم، منَ القولِ الحقِّ في اللّهِ وأنبيائِه[1].

دَلالةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾:

الغُلوُّ في الدِّين أصلٌ لكثيرٍ منَ الضّلالاتِ

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ استعارَ لفظَ الغُلوِّ في الدِّين، وهو تَجاوُزُ الحَدِّ الَّذي حَدَّدَهُ الدّينُ، من غلَيان الماء في المِرْجلِ، وارتفاعِه عن حدِّه، أو مِنْ غَلْوَةِ السَّهْمِ، وهي مُنْتَهى انْدِفاعِه، كنايةٌ عن مجانبة الحقّ والاعتدالِ، والزّيادةِ في الدِّين ما ليس منه.

وإنّما كان نهيُهُم عَنِ الغُلُوِّ لِأَنَّهُ أَصْلٌ لِكَثيرٍ مِنْ ضَلالاتهِمْ، وجاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ عطفُ الخاصِّ ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ على العامِّ ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بالنّهيِ عنِ الافتراءِ الشّنيعِ[2]، وتكرارُ ﴿لَا﴾ يُفيدُ التّوكيدَ.

تعْديةُ القَولِ بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِه معنَى الافتراءِ:

حُجَجُ المفترين على الله في تأليهِ المسيحِ واهيةٌ ومتهافتةٌ

وعدّى القول بـ﴿عَلَى﴾ فقال ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ القولَ هنا يتضمّنُ معنى الافتراءِ والكذبِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/50.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوي: 6/50..

[آل عمران: 78]، وفوقَ ذلك إنّها لا تعتمدُ على الحقِّ الثّابتِ، والبرهانُ القاطعُ قائمٌ في أنّ عيسَى وُلِد، والإله لا يولَد، وعيسَى كان يأكلُ ويشربُ، والإلهُ ليس كذلك، وقد زعمُوا أنّهم قَتلُوه، والإلهُ لا يُقتلُ، وزعمُوا أنّه قُتِلَ افتداءً للخليقةِ عن عصيانِ آدمَ للّه تعالى، وليسَ منَ المعقولِ أن يفتَدِيَ اللّه الخَليقةَ عن عصيانِ أبيها، بتَمْكينِهم من قَتْل ابنِه في زعمِهم، فإنّ ذلك القَتلَ جريمةٌ أشدُّ وأشنعُ، وإذا كانتِ الأُولى تحتاجُ إلى فِداءٍ، فالثّانيةُ لا يُغني عنها فِداءٌ، ولكنْ هكذا سَوّغ لهم الوهمُ[1]، قال صاحب (محاسن التّأويل): "لو كان إلهًا لما توارَى منهم خائفًا من قتلهم له؛ لأنّ الإله هو خالقٌ لهم ولعملِهم، وعالمٌ بزمن قدرتِهم عليه، فكيف يفرُّ وهو يعلم وقتَ موته؟ وهو خالقُ الموت والحياة؟ ثمّ إنّه يحتملُ أنّ اللّه تعالى ألقى شبهَه على شيطانٍ، أو ماردٍ من مرَدَةِ الجنّ ليخلِّصَ نبيَّه ورسولَه من أيدي أعدائِه، ويرفعَه إليه محفُوظًا مكرّمًا، كما أجرى على يديه إحياءَ الموتى، وخَلقَه من غير أبٍ، وأبرأَ الأكمهَ والأبرصَ، لا سِيّما وهو بزعمِهم إلهُ العالَم وخالقُ الإنسِ والجنِّ وبني آدمَ، فأيُّ ضرورةٍ تدعُو لإثباتِ أنواعِ الإهانةِ والعذابِ، على ما زعموا لربّ الأرباب، مع وجود التّناقضِ فيما نقلتْه أناجيلُهم، في هذا الفصلِ والبابِ"[2]، وممّا نُقل في هذا المضمارِ ما يُنسبُ للدّميريّ (ت: 699هـ)، حيث يقولُ:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى *** وَإِلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ!
أَسْلَمُوهُ إِلَى اليَهُودِ وَقَالُواْ *** إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا *** وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهِينَ الأَعَادِي *** أَتُرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوهُ؟
فَلَئِنْ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ *** فَاحْمَدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ عَذَّبُوهُ
وَلَئِنْ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرُكُوهُ *** وَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1978.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

(3) الأبيات منسوبةٌ إلى عبد العزيز الدّميريّ الدّيريني، من شعراء العصر المملوكّي، (ت: 699ه)، على خلاف في ذلك، والشّاعرُ عالمٌ ومفسّرٌ وأديبٌ ذو قدْرٍ رفيعٍ عند من ترجمُوا له، وله منظومةٌ مطوّلةٌ بعنوان: (التّيسير في علم التّفسير). القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

الفرقُ بين الاستثناءِ بلفظِ (إلّا) ولفظِ (غير) في السّياقِ:

ورودُ النّهــي عنِ الغُلوِّ دليلٌ على ولـوغِ أهلِ الكتابِ فيه

﴿إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أداةُ حصرٍ، وقصرٍ، أي: فقط قُولُواْ الحقَّ، وهو الأمرُ الثّابتُ الّذي لا يتغيّرُ، وقَوْلُ الحقِّ هو تَنْزيهُهُ تعالى عَنِ الشَّريكِ والوَلَدِ والحُلولِ والاتِّحادِ[1]، ووصْفُه بما وصَفَ به نفسَه، ووصَفَتْه به رسُلُه، وهذا مثلُ قولِه تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 77]، أي: لا تَغْلُواْ في دينِكم غُلُوًّا غيرَ الحَقِّ المعروفِ، أي: غُلُوًّا باطلًا.

وجاءتْ آيةُ النّساءِ في سياقِ القَولِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وآيةُ المائدة جاءتْ في سياق اتّباعِ أهواءِ قومٍ، كما أنّ آيةَ النّساء جاءت بالاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾، وآيةُ المائدة بـ(غيرٍ)، وهي تُفيدُ المغايرةَ؛ فآيةُ المائدة: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: تشملُ معنى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وقد تكونُ لمعنًى آخرَ هو عدمُ اتّباعِ أهواءِ قومٍ؛ وقريبٌ من هذا لو قُلنا: لا تَعبدْ إلّا اللّه، ففيهِ الأمرُ بعبادةِ اللّه فقط، ولو قُلنا: لا تَعبُدْ غيرَ اللّه: ففيهِ نهيٌ عن عبادةِ غيرِ اللّه، ومتضمِّنةٌ الأمرَ بعبادةِ اللّه تعالى وحدَه.

التّوكيدُ بأسلوبِ القَصْر، وأثرُه في المعنى:

قصرُ الموصوفِ على الصّفةِ في الآية

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، فلفظُ ﴿إِنَّمَا﴾ أسلوبُ قَصْرٍ يُفيدُ التّوكيدَ، وهو من قصْرِ الموصوفِ على الصّفةِ حيثُ قصَرَ المسيحَ على صِفاتٍ ثلاثٍ: صِفةِ الرّسالةِ، وصفةِ كونِه كلمةَ اللّه أُلقِيَتْ إلى مَريمَ، وصفةِ كونِه روحًا من عند اللّه؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أَحْدَثَه غُلُوُّهم في هذه الصّفاتِ، غُلُوًّا أخرَجَها عن كُنهِها؛ فعيسى مقصورٌ على صفةِ الرِّسالةِ، وصفةِ الكلمةِ، وصفةِ الرّوحِ، لا يتجاوزُ ذلكَ إلى

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/142.

ما زادوهُ على تلكَ الصِّفاتِ، من كونِ المسيحِ ابنًا للّه، واتِّحادِ الإلهيّةِ به، وكونِ مريمَ صاحبةً[1]، تعالى اللّه عن ذلكَ عُلُوًّا كَبيرًا.

وهذه الجملةُ مَسوقةٌ لتعليلِ النَّهي، عنِ القَولِ الباطلِ، مبيِّنةٌ للمُرادِ من قولِ الحقِّ قبلَها، لذلكَ فُصِلَتْ عنها من غيرِ عطفٍ بالواو.

الدّلالةُ البلاغيّةُ لتعدّدِ الصّفاتِ لعيسى بنِ مريمَ عليه السلام:

سُمِّي عيسَى كلِمة الله؛ لأنّه مخلوقٌ بكلمة (كُنْ)، من غير أبٍ ولا نُطفةٍ

﴿ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي هذا نسَبُه وليس له نسبٌ غيرُ هذا، ومَنْ كانَ مَنْسوبًا بوالِدَتِه كَيْفَ يَكونُ إلَهًا!، و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو مقصورٌ على رُتبةِ الرِّسالة لا يتَخطّاها، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ سُمِّي عيسَى عليه السلام كلِمة اللّه؛ لكونِه مخلوقًا بالكلمة (كن)، من غيرِ واسطةِ أبٍ ولا نطفةٍ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، أُطلق السّببُ وأُريدَ المسبَّبُ.

إضافةُ (الكلمة) إلى الله، وتأخّرُها عن وصف الرّسالةِ، في قولِه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾:

وصفُ المسيحِ بالنَّصِّ الّذي لا يَحتملُ التّأويلَ، وسدٌّ بابِ التَّضليلِ والزَّيغ

وإضافةُ الكلمةِ إليه تعالى إضافةُ تخصيصٍ وتكريمٍ؛ فهو مِن أشرفِ عبادِ اللّه وأكرمِهم علَيه، وهذه الإضافةُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الحج: 26]، وقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، وقدّمَ كونَه عليه السلام رسولَ اللّه في الذِّكْر مع تأخُّرِه في الوجودِ عن كونِه كلمَتَه تعالى، وروحًا منه؛ لتَحقيقِ الحَقِّ مِنْ أوَّلِ الأمرِ بما هو نَصٌّ فيه لا يَحتملُ التّأويلَ، وتعيينِ مآلِ ما يَحتمِلُه، وسدِّ بابِ التّأويلِ الزّائغ[2].

ومعنى ﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أمَرَ بها الملائكةَ، أو أَعْلَمَها بها وأَخْبَرَها، وأصْلُ الإلقاءِ: طَرْحُ الشّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسْمًا لكلِّ طَرْحٍ[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/51 - 52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي)، وابن جرير، جامع البيان: 7/703 - 704، والرّاغب، المفردات: (لقي).

دَلالةُ ذكْرِ اسمِ (مريم) صريحًا في القُرآن، دُون سائرِ نساءِ العالمين:

تشريفُ مريمَ في القرآنِ الكريمِ تشريفٌ للمرأةِ الصّالحةِ إلى يومِ الدّين

ومريمُ ابْنَةُ عمرانَ سُمّيَتْ باسمها سورةٌ من سُوَرِ القرآنِ الكريم، ووَرَدَ اسمُها العلَمُ صريحًا في القرآن، وقد ذكرَ القُرطبيُّ لطيفةً في ذلك، قال: لَمْ يَذْكُرِ اللّه ﷻ امْرَأَةً وسَمّاها بِاسْمِها في كِتابِهِ إلّا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ اسْمَها في نَحْوٍ مِنْ ثَلاثِينَ مَوْضِعًا لِحِكْمَةٍ ذَكَرَها بعضُ الأشياخ؛ فإنّ الملوكَ والأشرافَ لا يَذْكُرونَ حَرائِرَهُمْ في المَلَإِ، ولا يَبْتَذِلونَ أَسْماءَهُنَّ، بَلْ يُكَنّونَ عَنِ الزَّوْجَةِ بِالعُرْسِ والأَهْلِ والعِيالِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ ذَكَرُوا الإماءَ لَمْ يُكَنُّوا عَنْهُنَّ، ولَمْ يَصونُوا أَسْماءَهُنَّ عَنِ الذِّكْرِ والتّصْريحِ بِها، فَلَمّا قالَتِ النَّصارى في مَرْيَمَ ما قالَتْ، وفي ابْنِها صَرَّحَ اللّه بِاسْمِها، ولَمْ يُكَنِّ عَنْها بِالأُمُوَّةِ والعُبودِيَّةِ الَّتي هِيَ صِفَةٌ لَها، وأَجْرى الكَلامَ عَلى عادَةِ العَرَبِ في ذِكْرِ إمائِها[1].

تنكيرُ لفظِ ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ لتقدير أنّها روحٌ نفيسةٌ شريفةٌ:

الكنايةُ عن نفخةِ جبريلَ بالرّوحِ، لكون المسيحِ متكوِّنًا منّ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ

﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ عنِ النّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام في دِرْعِ مريمَ فحملَتْ بإذن اللّه تعالى بعيسَى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، سُمّي النّفخُ روحًا؛ لأنّه ريحٌ تخرجُ منَ الرُّوح، وقد جرت العادةُ بأنّهم إذا أرادوا وصفَ شيءٍ بغايةِ الطّهارةِ والنّظافة، قالوا إنّه روحٌ؛ ولمّا كان عيسَى عليه السلام متكوِّنًا منَ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ وُصِفَ بالرُّوح، ونكّرَ ﴿وَرُوحٞ﴾ لِأَنَّ المَعْنى عَلى تَقْديرِ صِفَةٍ، أَيْ: وروحٌ شَريفَةٌ نَفيسَةٌ من قِبَلِه تعالى[2]، وأضاف الرّوحَ إليه تعالى تشريفًا؛ لأنّها كانت بأمرِه وتقديرِه.

حرف (مِنْ) لابتداء الغاية مجازًا؛ لأنّ عيسَى روحٌ بدأ منَ الله مخلوقًا بالنّفخةِ:

و(مِنْ) في قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، وليستْ

---

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/21 - 22.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/143.

ما في الأناجيلِ أنّ المسيـــحَ لا عــلاقــةَ له بـالألـوهـيّـةِ ولا بالبُنوّةِ

تبعيضيّةً، كما زعم بعضُ النّصارى أنّ عيسَى جزءٌ منَ اللّه[1]، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]، أي روحٌ بدأ منَ اللّه تعالى بالنّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام، أو الرّوحُ مُرسلٌ من عند اللّه تعالى، ونافخٌ بإذنه.

وآثرَ هذين الوصفَيْن: (كلمة) و(روح)، لورودِهما في كُتبِهم ودورانِهما على ألسنةِ حواريِّيهم، ومعناهما بيّنٌ لديهم، ثُمّ فُهمَا خطأً، فَأُريدَ التَّنْبيهُ عَلى ذَلِكَ الخَطَأ في التَّأْويل، أَيْ أَنَّ قُصارَى ما وَقَعَ لَدَيْكُمْ مِنْ كَلامِ الأَناجيلِ، هو وَصْفُ المَسيحِ بِكَلِمَةِ اللّه وبِرَوْحِ اللّه، ولَيْسَ في شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ما يُؤَدّي إلى اعْتِقادِ أَنَّهُ ابْنُ اللّه وأَنَّهُ إلهٌ[2].

الفاءُ الفصيحةُ وأسلوبُ الاحتراسِ يُجلّيان الأمرَ بالإيمان النّقيِّ من كلِّ زعمٍ فاسدٍ:

الأمــرُ بتجديدِ الإيمانِ وتنقيّتِه مـنَ الـشّـوائـبِ والأباطيلِ

الفاءُ الفصيحةُ؛ في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾، أَيْ: إذا وَضَحَ كُلُّ ما بَيَّنَهُ اللّه مِنْ وَحْدانِيَّته، وتَنْزيهه، وصِدْقِ رُسُله ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾، وقد أُمِروا بالإيمان باللّه مع كونِهم مُؤمنِين به؛ لأنَّهم لَمّا وصَفُوا اللّه بما لا يَليقُ، فقد أَفسدُوا إيمانَهم، وليكونَ الأمرُ بالإيمان باللّه، تمهيدًا للأمرِ بالإيمانِ برُسله جميعِهم، وهو المقصودُ، وهذا بمنزلة الاحتراسِ، عن أن يتوهَّمَ مُتوهِّمون أن يُعرضُوا عنِ الإيمان برسالة عيسَى عليه السلام، مبالغةً في نفْيِ الإلهيّةِ عنه[3].

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، نهاهُم عنِ النّطق بِهَذِهِ الكَلِمَة، ولَعَلَّها كانَتْ شِعارًا لِلنَّصارى في دينِهِمْ، كَكَلِمَةِ الشّهادَةِ عِنْدَ المُسْلمينَ، والمَقْصودُ النَّهْيُ عَنِ النُّطْقِ بها بدلالتِها الاعتقاديّةِ[4]، و﴿ثَلَٰثَةٌۚ﴾ فيه إيجازٌ بحذف المبتدأ، وحَذْفُهُ لِيَصْلَحَ لِكُلِّ ما يَصْلُحُ تَقْديرُهُ مِنْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/143، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/295.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53 - 54.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

مَذاهِبِهِمْ مِنَ التَّثْليثِ، فَإِنَّ النَّصارى اضْطَرَبوا في حَقيقَةِ تَثْليث الإِلَهِ، واختلفُوا في كيفيّته[1]؛ وقدَّر صاحبُ الكشّاف المبتدأ المحذوفَ على تقديرين، قال: فإنْ صَحَّتِ الحكايةُ عنهم، أنّهم يقولون: هو جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ، أُقْنوم الأبِ، وأُقْنومِ الابنِ، وأُقْنوم رُوحِ القدس؛ وأنّهم يريدون بأُقنوم الأب: الذّاتَ، وبأُقنوم الابن: العِلْمَ، وبأُقنوم رُوحِ القدس: الحياةَ، فتقديرُه: اللّه ثلاثةٌ، وإلّا فتقديرُه: الآلهةُ ثلاثةٌ.

قال: والّذي يدلُّ عليه القرآنُ التّصريحُ منهم، بأنّ اللّه والمسيحَ ومريمَ ثلاثةُ آلهة، وأنّ المسيحَ وَلَدُ اللّه من مريمَ، ألا ترى إلى قولِه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: 30][2].

وقولُه: ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ تأكيدٌ للنّهي، في قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، وفي التّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ دليلٌ على أنّهم لم يَعتَنِقوا ما يدَّعون اعتقادًا جازمًا، بل إنّهم إن فكّرُوا غيّرُوا، و﴿خَيْرًا﴾ منصوبٌ على أنّه خبرُ كان المقدّرة، على مذهب الكِسائيّ وأبي عُبَيدة، ففيه إيجازٌ بحذفِ العامل؛ أي: انتهُوا يكنِ الانتهاءُ خيرًا لكم؛ لأنّكم تَخرُجون من حَيرةِ الأوهام، إلى تفكيرِ العقولِ، وتُدركون الحقَّ، وتُذعِنون له، وتَكُونُونَ مُؤمنينَ بالمسيحِ حقًّا وصِدقًا[3].

الأمـــرُ بـــتركِ المناهي اللّفظيّةِ الّـتـي تُـعـارضُ جَـوهـرَ الـوحـي، وتَفترِي على اللّه الكذبَ

قصرُ الأُلوهيّةِ على الله وحدَه:

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾، أسلوبُ قصْر بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ للدّلالةِ على انفرادِ اللّه تعالى بالألوهيَّةِ، وأنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وجاء

اتّخاذُ الولدِ دليلُ الضّعف، وأمارةُ الحُدوثِ، واللّهُ مُنزَّهٌ عن ذلك

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/593 - 594.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1983 - 1984م، قال أبو حيّان: "فِي تَقْدِيرِ النَّاصِبِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: مذهبُ الخليل، وَسِيبَوَيْه، (وَأْتُوا خَيْرًا لَكُمْ)، وَهُوَ فِعْلٌ يَجِبُ إِضْمَارُه، وَمَذْهَبُ الكِسَائِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَة: يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ، وَيُضْمَرُ إِنْ يَكُنْ وَمَذْهَبُ الفَرَّاءِ إِيمَانًا خَيْرًا لَكُمْ وَانْتِهَاءً خَيْرًا لَكُمْ، بِجَعْلِ خَيْرًا نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ الَّذِي قَبْلَهُ"، ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/142.

بقولِه: ﴿وَٰحِدٞۖ﴾ لزيادة تأكيد القصرِ؛ أي: المعبودُ بحقٍّ ليس إلّا واحدًا، وهو اللّه تعالى، ووحدانيّتُه تكونُ في الذّات والصّفاتِ والعُبوديّةِ، والواحدُ لا يتَجَزّأ، ولا يكونُ منه ولدٌ، أو يكونُ له والدٌ، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾، أي: تنزّهَ اللّه تعالى، عن أَن يكون له ولدٌ؛ لأَنّ اتّخاذَ الولدِ دليلُ الضّعف، وأَمارةُ الحُدوث، وصِفةُ العاجزِ المحتاج، إلى مَن يُعينُه في حياته، ويَخْلُفُه بعد مماته، واللّه ﷻ منزَّهٌ عن كلِّ ذلك[1]، ومُنزَّهٌ عمّا لا يليقُ به من كلِّ نقْصٍ.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: فيه تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾؛ لإفادة القصْر في انفرادِ اللّه تعالى وحدَه بالمُلك، والجملةُ مُستأنَفَةٌ مَسوقَةٌ لتَعليلِ التّنزيهِ، أي: إذا كانَ يَمْلِكُ جميعَ ما فيهما، فكيف يُتَوَهّمُ حاجتُه إلى وَلَدٍ.

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباقٌ، وقدّمَ السّمواتِ على الأرض، لِعظَم خَلْقِها.

وكرّرَ ﴿وَمَا فِي﴾ على عادة القرآنِ حين يريدُ أن يتكلّمَ عن أهلِ الأرضِ بشيءٍ ما يخصُّهم، فإنّه يكرّر كلمة (ما في)، فيقول: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإلّا فيقولُ: (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

ويُلاحَظ في كلّ موضعٍ نزَّه اللّه فيه نفسَه عنِ الوَلَد، ذكَرَ كونَهُ مَلِكًا ومالكًا، لما في السّمَوات والأَرض، لِيَكونَ دليلًا عليه، إذِ المعْنى: تَنَزَّه اللّه عنْ أَنْ يكونَ له وَلَدٌ؛ لأنّ له ما في السّمواتِ وما في الأَرض[2]، وهو غنيٌّ عنهم.

مناسبةُ التّذييلِ بالله الوكيلِ:

اللّه وحدَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، ولا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أَي: كفى باللّه قيّمًا على خلقِه، ومدَبّرًا لهم، فهو وحدَه سبحانَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، وفي حِفْظِ هذا الكونِ، فلا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه، ولا إلى إلهٍ آخرَ يُدبّر أَمْرَ الكونِ معَهُ[3]، وهذه مناسَبةٌ لطيفَةٌ في تذْييلِ الآية.

(1) مجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/991.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272، ومجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/992.

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ [النّساء: 172 - 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا أَقامَ الحُجَّةَ عَلى أَنَّ عيسى رسولُ اللّه، وكلمتُه وروحٌ منه، ولا يصحُّ بحالٍ أَنْ يَكونَ ابْنًا للّه، مهما أُوتي مِنَ الإخبار عَنِ المُغَيَّبات، أو أتَى بِخَوارِقِ العاداتِ، أخبَرَ عنه أنّه عبدٌ للّه، ولا يأنَفُ من هذه العبوديّة، وكذلك الملائكةُ المقرّبونَ الّذين هم أكملُ حالًا في العلوم والقُدرةِ لا يَسْتَنْكِفون عَنْ عُبودِيَّةِ اللّه، فَكَيْفَ يَسْتَنْكِفُ المَسيحُ عَنْها[1].

> لا يستنكفُ الملائكةُ عنِ العبوديّة لله، فكيف يستنكفُ عَنْها المسيحُ؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَنكِفَ﴾: الاستنكافُ: الأَنَفَةُ مِنَ الشّيءِ؛ أي لن يَأْنفَ، وأصلُه في اللّغة من نَكَفَ الدَّمْعَ، إذا مسَحَه بأُصبعِه عن خدّه، ونحّاه أَنَفَةً مِنْ أنْ يُرى أثَرُ البُكاء عليه، أو من النَّكَف: جَمْعُ نَكَفَةٍ، وهِيَ غُدَّةٌ في أَصْلِ اللَّحْي، ثُمَّ قيسَ عَلى هَذا فَقيل: نَكِفَ مِنَ الأَمْرِ واسْتَنْكَفَ، إذا أَنِفَ مِنْهُ؛ وكأنّه لَمّا أَنِفَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وأَراهُ أَصْلَ لَحْيِه، كَما يُقالُ أَعْرَضَ إذا وَلّاهُ عارِضَه، وتَرَكَ مُواجَهَتَه، والأَنِفُ مِنْ هَذا، كَأَنَّهُ شَمَخَ بِأَنْفِه دونَهُ[2].

> الاستنكافُ الأَنَفَةُ مِنَ الشّيء والإعراضُ عنه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/273.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/136، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نكف)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/239، وابن الهائم، التّبيان، ص: 145.

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾: جمع مقرَّب: اسم مفعول من قرَّب مأخوذ من قرُب: وهو خلاف البعد، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُب وقَرِبْتُه أقرَبُه قُرْبًا وقُرْبَانًا، وقرَّب الشَّيْء قرَابَة وقربا وقربة وقربى ومقربة دنا فَهُوَ قريب وَيُقَال قرب مِنْهُ وَقرب إِلَيْهِ ويستعمل القرب في المكان وفي الزمان، وفي النِّسْبَة، وفي الحظْوَة، والرِّعاية والقُدْرة[1].

3) ﴿وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾: الاستكبارُ: طلبُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ تتقارَبُ في المعنى، فالكِبْرُ: العَظَمَةُ، وهي إعجابُ الإنسانِ بنَفْسِه، وذلك أن يَرى نفسَه أكبرَ من غَيْره، والتّكبُّرُ يوصَفُ به مَن يتَشَبّعُ بما لَيس لَه، ولا يَملِكُ مُؤهّلاته، ويتَكَلّفُ ذلك، وهذا في أوصافِ النّاسِ كقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: 35]، وأعظمُ التّكبّرِ التّكبّرُ على اللّه بالامتناعِ منْ قَبولِ الحَقّ، والإذعانِ له بالعِبادَة.

الاستكبارُ افتعالُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، تعاليًا وفخرًا

والاسْتِكْبارُ أن يتحَرّى الإنسانُ، ويطلبَ أن يصيرَ كَبيرًا، ويتَشَبّعَ من ذلكَ فيُظهرَ من نفسِه ما لَيس لَه، وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ العظيمِ منَ الاستكبارِ من هذا النّوعِ، كما قالَ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لن يَأنَفَ المسيحُ أو يتَعاظمَ أو يترَفّعَ أن يكونَ عبدًا للّه، فإنّ أوّلَ كلمةٍ جرى بها لسانُه وهو في مهْدِه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 31]، كما لا يَستنكِفُ الملائكةُ المقرّبُون منَ اللّه ﷻ أن يكونُوا عبيدًا للّه، يُقرّون بعُبوديّتِه ويُذعِنون له، ومَن يسْتنكفْ عن عبادةِ اللّه، ويسْتكبرْ عن طاعتِه وطاعةِ رسُلِه، فموعِدُهُم الحشرُ بين يدَيه، يومَ يبْعَثُهُم جميعًا

المسيحُ عبدُ الله ورسولُه، ولن يستنكفَ عنِ العبوديّةِ لله الواحِدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، المعجم الأوسط: قرب.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، السّمين، عمدة الحُفّاظ: (كبر)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/240.

فيُنَبِّئُهم بما عملوا؛ فأمّا الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، وعَبَدوا اللّه حَقَّ عِبادتِه، فإنّه يُوَفّيهم ثوابَ أعمالِهم وافيًا تامًّا، ويضاعفُ حسناتِهم أضعافًا مُضاعَفَةً، ويَزيدُهم من واسعِ فضلِه، مِمّا لا عَيْنٌ رَأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطرَ عَلى قَلْبِ بشَرٍ، وأمّا مَن أَنِف وامتَنَع واستَكْبَر عن عِبادَتِه، فيُعذِّبُه اللّه عَذابًا مُؤلِمًا، ولن يَجِدَ له مَن يتَولّاه، أو ينْصُرُه من دونِ اللّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستنكافُ من أمراضِ القُلوبِ التي تصُدُّ عنِ الحقّ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: الاستنكافُ عملٌ قلبيٌّ؛ وذلك بأنْ يكونَ الإنسانُ عنده أنَفةٌ وكبرياءُ قلبيَّةٌ تحجزُه عن عبادةِ اللّه، استُعيرَ من نكَفَ الدَّمْعُ، والنَّكَفُ: عَمليّةٌ حِسّيّةٌ، تتمَثّلُ في مسْحِ الدَّمْع بأُصْبُعِه من خَدِّه، مخافةَ أن يَراه النّاسُ باكيًا؛ لأنّ البُكاءَ منَ الرّجلِ يُعَدّ ضَعفًا، أو نَقصًا، فيُحاوِلُ عدمَ إظهارِ دمْعِه للنّاس.

> التّنكيرُ في قولِه (عبدًا لله) أظهرُ في العُبوديّة، وأمعَنُ في التّواضعِ

وقال بعدها: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، ولم يقُل (عبدَ اللّه)؛ لأنَّ التّنكيرَ هنا أظهرُ في العُبوديّة، أي: عبدًا من جُملةِ العَبيد، ولو قال: (عبد اللّه) لأوْهَمتِ الإضافةُ أنَّه العبدُ الخِصّيصُ (الأخصُّ من الخاصّ)، أو أنَّ ذلك اسمُ عَلَمٍ له[1]، والجملةُ استئنافيّةٌ، مُقرِّرةٌ لِما سَبَقَ منَ التّنزيه[2].

عطْفُ الملائكةِ على المسيحِ؛ لأنّهم قيلَ عنهم أبناءُ الله، وكذلك المسيحُ:

> تخصيصُ الملائكةِ المقَرَّبينَ بالذّكر؛ لكونِهم الأرفعَ درجةً، والأعلَى منزلةً

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾، عَطَفَ المَلائِكَةَ عَلى المَسيحِ، ليَشمَلَ كُلَّ مَنِ ادُّعِيَتْ لَهُ بُنُوَّةٌ للّه، إذ قالوا: (الملائكةُ بناتُ اللّه)، وقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ قَوْلُهُ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ﴾، وتَقَدَّمَ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾، ومِنْ أَفْضَلِ ما في السَّمَواتِ المَلائِكَةُ، والملائكةُ كانتْ تُعْبَدُ من دونِ اللّه، كما كانَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/59.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.

المسيحُ يُعبَدُ كذلك؛ فأخْبَرَ أنّ أولئِكَ الّذين تعبُدونَهم أنتم لم يسْتَنْكِفوا عن عبادتي؛ فكَيف تَسْتنكِفون أنتم!

وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للمُشركين، وقدْ جاءَ التّهديدُ صريحًا في قولِه بعدَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1]، وتكرارُ (لا) النّافيةِ يفيدُ التّوكيدَ في عدَمِ الاستنكافِ والتّكَبُّر.

الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ إيجاز بالحذف، أي ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ عليها[2]، فكان في عطف ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ على ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ إغناء عن إعادة هذه الجملة، وتركٌ للإطالة بتكرار ما هو ميسور فهمه وقريب إدراكه.

وفي الآية استطرادٌ؛ وهو أن يشْرَعَ المتكلّمُ في شيءٍ من فُنونِ الكلامِ، ثمّ يسْتمرُّ عليه فيَخرُجُ إلى غَيره، ثمّ يَرجِعُ إلى ما كان عليَه من قبلُ[3]، فأوّلُ الكلامِ ذكَر فيه الرّدَّ على النّصارى الزّاعِمين بُنُوَّةَ المسيحِ، ثمَّ استَطْرَدَ في الرّدّ على العربِ الزّاعمين بُنُوَّةَ الملائكة[4].

طِباقُ السّلْبِ بين قولِه: ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ وقولِه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾:

الــفــرقُ بين الاســتــنــكــافِ والاستكبارِ في الآيةِ

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، الاستنكافُ: هو التّكبّرُ والامتناعُ أنَفَةً؛ فهو أشدُّ منَ الاستكبارِ، ويتمثّلُ الاستنكافُ بعدمِ الإقرارِ بالعبوديّةِ، والاستكبارُ بعدمِ القيامِ بالطّاعَةِ تكبُّرًا، وفي قولِه تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ و﴿يَسْتَنكِفْ﴾، طِباقُ السّلْبِ.

عودةُ الضّميرِ في قوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾، إلى مقدّرٍ معْلومٍ، دلَّ عليْه المُفرَّعُ عليْهِ:

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، الضّميرُ في قَوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عائِدٌ

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/60 - 61.

(2) الزمخشري: 1/597، والكشاف الرازي، مفاتيح الغيب: 11/273، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/145.

(3) العلويّ، الطّراز: 3/8.

(4) السّيوطي، معترك الأقران: 1/47.

إلى مقدَّرٍ مَعْلوم مِنَ المَقام، أَيْ فَسَيَحْشُرُ النّاسَ إِلَيْهِ جميعًا، دَلَّ عَلَيْهِ التّفْصيلُ المُفَرَّعُ عَلَيْهِ وهو قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كأنّه قال: ومَن يَستَنكِفْ عن عِبادته ويَستَكبِرْ، ومَن لم يَسْتنكِفْ عن عِبادته ولم يستَكْبِر؛ فسَيحشُرُهم إليه جميعًا[1]، وهذا اكتفاءٌ؛ وهو أن يَقتضيَ المَقامُ ذِكْرَ شيئَيْنِ، بَيْنَهُما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فَيُكْتَفى بأَحَدِهما عنِ الآخر لنُكتةٍ بلاغيّة[2]، وتقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، يفيدُ الحصْرَ، أي: إلَيه وحدَه لا إلى غيره، و﴿جَمِيعًا﴾: من ألفاظِ التّوكيد.

دلالةُ ﴿فَأَمَّا﴾ الشّرطيّةِ التّفصيليّةِ على التّوكيد، بعد فاءِ الفصيحةِ:

﴿فَأَمَّا﴾: الفاءُ فاءُ الفصيحة، و(أمّا): حرف شرطٍ وتفصيل يفيدُ التّوكيدَ؛ فأمّا الشّرطُ للزوم الفاءِ بعدَها، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾ [الضّحى: 9]، وأمّا التّفصيلُ لِما أَجْمَلَه المتكلِّمُ وادَّعاه المخاطَبُ فهو غالبُ أحوالِها، كقولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79]، وقدْ تأتي لغيرِ تفصيلٍ أصْلًا نحو: (أمّا زيدٌ فمُنطَلِقٌ)، وأمّا التّوكيدُ فقد ذكره صاحبُ الكشّاف بقوله: (أمّا) حرفٌ فيه معنى الشّرطِ، ولذلك يُجابُ بالفاءِ، وفائدتُه في الكلامِ، أن تعطيَه فضلَ توكيدٍ، تقول: (زيد ذاهب)، فإذا قصدتَ توكيدَ ذلك، وأنّه لا محالةَ ذاهبٌ، وأنّه بصددِ الذّهاب، وأنّه منه عزيمةٌ، قلتَ: (أمّا زيدٌ فذاهبٌ)، ولذلكَ قالَ سيبويه في تفسيره: مهما يكُنْ مِن شيءٍ فزيدٌ ذاهبٌ، وهذا التّفسيرُ دلَّ على فائدتَين: بيانِ كونِه توكيدًا، وأنّه في معنى الشّرطِ[3].

الجزاءُ لصنفين (الَّـذِيـنَ آمَـنُـوا وَعَـمِـلُـوا الـصَّـالِـحَـاتِ) و(الَّـذِيـنَ اسْـتَـنْـكَـفُـوا وَاسْتَكْبَرُوا)

تقديمُ الثّوابِ على العقابِ، تفضيلًا للأخيارِ، وحسرةً على الأشرارِ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هذا بيانٌ للفريقِ الّذي لم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/242.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/137، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/117، وصافي، الجدول: 6/259.

دَلالةُ إيرادِ عبارةِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، دون عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ

يُذكَرْ في الإجمالِ السّابقِ (وهو الفريقُ الّذي لم يَستَنْكِف)، قُدِّم على بيانِ حالِ ما يقابلُه؛ إبانةً لفضلِه، ومسارعةً إلى بيانِ كونِ حشْرِه أيضًا معتَبَرًا في الإجمالِ، وإيرادُه بلفظِ الإيمانِ والعَملِ الصّالح، لا بِوَصفِ عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ؛ للتّنبيهِ على أنّه المَستَتْبِعُ لما يَعْقُبُه مِنَ الثّمَراتِ[1]، فالإيمانُ والعملُ الصّالحُ أساسُ العبادةِ للّه؛ والعملُ يُصَدّقُ الإيمانَ.

وقَدَّمَ ثَوابَ المُؤْمِنينَ عَلى عِقابِ المُسْتَنْكِفينَ، تقديمَ تفضيلٍ؛ ولِأَنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَوَّلًا ثَوابَ المُطيعينَ، ثُمَّ شاهَدوا بَعْدَهُ عِقابَ أَنْفُسِهِمْ، كانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ في الحَسْرَةِ[2].

أصلُ الدّلالةِ في التَّوفيةِ، في قولِه: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾:

التّوفيةُ أُطلقتْ على إعْطاءِ المُعادِلِ، ويقابلُها الخُسرانُ والغَبْنُ

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾، والتَّوْفِيَةُ أَصْلُها إِعْطاءُ الشّيْءِ وافيًا، أَيْ زائِدًا عَلى المِقْدارِ المَطْلوبِ، ولَمّا كانَ تَحَقُّقُ المُساواةِ يَخْفى لِقِلَّةِ المَوازينِ عِنْدَهُمْ، ولِاعْتِمادِهِمْ عَلى الكَيْلِ، جَعَلوا تَحَقُّقَ المُساواةِ بِمِقْدارٍ فيهِ فَضْلٌ عَلى المِقْدارِ المُساوي، أُطْلِقَتِ التَّوْفِيَةُ عَلى إِعْطاءِ المُعادِلِ، وتُقابلُ بالخُسرانِ وبالغَبْنِ، قالَ تَعالى حِكايَةً عَنْ شُعَيْبٍ: ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾ [الشّعَراء: 181]، ولِذَلِكَ قالَ هُنا: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾، وهَذِهِ التَّوْفِيَةُ والزِّيادَةُ يَرْجِعانِ إِلى تَقْديرٍ يَعْلَمُهُ اللّه تَعالى[3].

جناسُ الاشتقاقِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

﴿أُجُورَهُمۡ﴾: بيانُ مِنَّةِ اللّه ﷻ؛ حيث سمَّى الثّوابَ أجرًا، كأنَّه استأجَر أُجراءَ يعملونَ فيأجُرُهم، مع أنَّ فائدةَ العَملِ، تعودُ للعاملِ نفْسِه، لا لِمَن دفَعَ الأجْرَ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61 - 62.

من عظيمِ فضلِ الله على العِباد استيفاءُ الأجورِ حسبَ الأعمالِ

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مُؤلِمًا شديدَ الإيلام، بما وجَدوا من لَذاذةِ التّرفُّعِ والتّكبُّرِ[1]، وفي قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا﴾ جناسُ الاشتقاق، وفي قولِه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تفصيلٌ مُتّصلٌ، وهو كلُّ كلامٍ وقعَ فيه (أمّا، وأمّا)[2].

تكرارُ حرفِ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يفيدُ التّوكيدَ:

الوِلايةُ والنُّصرةُ لا يجدُها إلّا أهلُ الإيمانِ

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: لا يَجدونَ حالًا ولا مآلًا، وليًّا قريبًا يتولّى أمورَهم، فيدفعُ العذابَ عنهم، ولا نَصيرًا يمنعُهم منه، والوِلايةُ تقتضي إخلاصَ المودّة، والنّصْرةُ معونةٌ سواءٌ كان معها الوِلايةُ أو لم تكنْ[3].

وهذا تيئيسٌ لَهُمْ إِذْ قَدْ عُرِفَ عِنْدَ العَرَبِ وغَيْرِهِمْ، مِنْ أُمَمِ ذَلِكَ العَصْرِ، الِاعْتِمادُ عِنْدَ الضّيقِ عَلى الأَوْلِياءِ والنُّصَراءِ، لِيَكُفُّوا عَنْهُمُ المَصائِبَ بِالقِتالِ أَوِ الفِداءِ؛ ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرآنِ نَفْيُ الوَلِيِّ والنَّصيرِ والفِداءِ، قال تعالى: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ [آل عمران: 91][4]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]، وقولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ [الشّورى: 8]، و(النّصيرُ): فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ أو مَفْعولٍ؛ لأنّ كلّ واحدٍ من المتناصِرَيْن ناصرٌ ومنصورٌ[5]، وتكرارُ حرفِ (لا) يفيدُ التّوكيدَ، وفصَلَ الولاءَ عنِ النّصرِ؛ لأنّه قد يكونُ هناك وَليٌّ، ولا يستطيعُ النُّصرَةَ، وفي قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/379.
(2) ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/243.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/62.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 5/64.

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، مُقابلةٌ بين حالِ المؤمنينَ وحالِ المستكبرينَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستنكاف والاستكبار:

الاستنكافُ ليس مجرد الأنفة، وإنما هو الامتناع والانقباض عن الشيء حميَّة وعزة[1]، أو هو التنزه عن السوء ودفعه عن النفس[2] فهو دال على شدة الترفع على الشّيء بتصوّر نقصان فيه، ومنبئ عن الأَنَفَة من لحوق العيب والنقصِ من المستنكَفِ عنه[3]، وأما الاستكبار فهو التّرفّع على الشيء بتصوّر المستكبر رفعةً في نفسه.

فالتعبير بالفعل المنفي ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ﴾ في شأن المسيح، لكون النصارى يرَوْن في مقام العبودية نقصًا يلحق المسيحَ، وأن اللّائق بمقامه الترفّع عنه، وهو ما ينسجم مع كون الاستنكاف أصله النَّكْف (بسكون الكاف) الدّالّ على التنحية والإزالة لما يُستحيا منه، أو (النَّكَف) الدال على السوء الذي يتنزه الإنسان عن الاتصاف به، فالمعنى على الأول: (لن يأنف المسيح عن العبودية ولن يتنزه عنها فليست مما يستحيا منه ليأنف المسيح عنها كما تزعمون، والمعنى على الثاني لن يتبرأ المسيح من وصف العبودية إذ ليس فيها ما يسوءه ولا يعيبه)[4].

وأما المغايرة بين ﴿يَسۡتَنكِفۡ﴾ و﴿وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾ في توعّد المشركين بالعذاب، فلبيان شمول الوعيد كلَّ صور الامتناع عن عبادة الله؛ سواء منها ما كان لترفع المستنكف عنها وأنفته منها توهما أن

(1) هذا على رأي الخليل ينظر: الخليل، العين: (نكف).
(2) هذا على رأي المبرد، ينظر: تهذيب اللغة: (نكف).
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987، ففيهما بعض المقاربة لما تم تقريره.

فيها نقصا يلحق به، أو سوءا يجب التنزه عنه، أو ما كان لتوهم الرفعة في نفسه بالتكبر على العبادة وإن لم يكن مع هذا التكبر أنفة، فلهذا كان عطف ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ على ﴿يَسْتَنكِفْ﴾ تأسيسا[1].

الاستكبار والتكبر:

الاستكبار أصلُه طلبُ التكبر بغير استحقاقٍ له وهو: أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ كَبِيرَةً فَوْقَ مَا هِيَ؛ غُرُورًا وَإِعْجَابًا، فَيَحْمِلُهَا بِذَلِكَ عَلَى غَمْطِ الْحَقِّ، سَوَاءٌ كَانَ لله أَوْ لِخَلْقِهِ وَعَلَى احْتِقَارِ النَّاسِ، وأما التكبر فقد يكون باستحقاق، وذلك إذا كان طلبا لعزة النفس والتلطف عن الأغراض الدنيوية، فلذلك جاز في صفة اللّه تعالى المتكبر، ولا يجوز المستكبر، لأن أفعاله الحسنة - جل وتقدس - كثيرة وزائدة على محاسن غيره[2].

وقد جاءت الآية بالتعبير بـ ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ المتضمن معنى طلب التكبّرِ للإيذان بأن مآلَه محضُ الطلبِ دون حصولِ المطلوب، إشعارًا بأنْ ليس هناك شيءٌ سوى الطلبِ والاستكبارِ، وكأن هؤلاء الكفار يطلبون التكبر والترفع على عبادة اللّه، لكنّ طلبهم ذلك مآله الذل والخسران، فهم مقهورون مربوبون للّه كرهًا إن لم يختاروا العبودية طوعًا.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/76، والشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987.

(2) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: كبر، أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549، ورضا، تفسير المنار: 6/80.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النّساء: 174 - 175]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الإسلامُ برهانٌ للمُهتدِين مكينٌ، ونورٌ للمُعتصمين به مبينٌ

بعد أنْ أَوْرَدَ البيانُ القرآنيُّ الحُجَّةَ عَلى جَميعِ الفِرَقِ مِنَ المُنافِقينَ والكُفّارِ واليَهودِ والنَّصارى، وأَجابَ عَنْ جَميعِ شُبُهاتِهِمْ، عَمَّمَ الخطابَ ودَعا جَميعَ النّاسِ إلى الاعْترافِ بِرسالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والنّورِ المُبينِ الّذي جاءَ بِه، ولَمّا قَرَّرَ عَلى كُلِّ العالَمينَ كَوْنَ مُحَمَّدٍ رَسولًا وكَوْنَ القُرْآنِ كِتابًا حَقًّا يَجمعُ بإعجازِه وحُسْنِ بيانِه بَيْنَ تحْقيقِ النّقْلِ وتَبصيرِ العَقْلِ، فلمْ يَبْقَ لأحَدٍ منَ المَدْعوّينَ بِه نوعُ عُذْرٍ، أَمَرَهُمْ بَعْدَ ذلِكَ أَنْ يَتَمَسَّكوا بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ووَعَدَهُمْ عَلَيْهِ بسَعادَةِ الدّارَين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

البُرهانُ هو القُرآنُ المبينُ الّذي يُستدلُّ بِه على صِحّةِ النُّبوّةِ ودَلائِلِها

1) ﴿بُرۡهَٰنٞ﴾: البُرهانُ: هو الحُجَّةُ والدّليلُ القاطعُ؛ إذ به قِوامُ الدّعوى وصُلوحُها؛ لأنّه يُؤيّدُها فتَقْوى وتَغْلِبُ، وبدونه تكونُ دعوى فارغةً، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: 111]. والبُرهانُ: الدّليلُ الّذي يوقِعُ اليقينَ، قالَ الرّاغبُ: والبُرهانُ أَوْكَدُ الأدّلة، وهو ما يقْتَضي الصّدقَ أبدًا لا مَحالةَ، واخْتلفوا في نونِه هلْ هي أصليّةٌ أم زائدةٌ؟ وقد ذكَرَها الرّاغبُ وغيرُه تحتَ مَدْخَل (بره)[1]، والبُرهانُ هنا ما يُبَرْهَنُ به على المطْلوبِ، والمرادُ به القُرآنُ الدّالُّ على صِحّةِ نُبُوّةِ النّبيِّ ﷺ، أو دَلائِلُ النُّبُوّةِ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (بره)، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (برهن)، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بره - برهن).
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/62.

2) ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: أَصْلُ العَصْم: الإمساكُ والمَنْعُ والملازمَةُ، فَكُلُّ مانعٍ شَيْئًا، فَهُوَ عاصِمُهُ، والمُمْتَنِعُ بِهِ مُعْتَصِمٌ بِهِ، والعِصْمَةُ: كُلُّ شَيْءٍ اعْتَصَمْتَ بِهِ، ولِذَلِكَ قيلَ لِلْحَبْلِ: عِصامٌ، ولِلسَّبَبِ الَّذي يَتَسَبَّبُ بِهِ الرَّجُلُ إِلى حاجَتِهِ: عِصامٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 101] يَعْني: ومَنْ يَتَعَلَّقْ بِأَسْبابِ اللّه، ويَتَمَسَّكْ بِدينِهِ وطاعَتِهِ، وقالَ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾، أي: وتَمَسَّكوا بِدينِ اللّه الَّذي أَمَرَكُمْ بِهِ، والاعْتِصامُ: التّمسّكُ بالشّيء، وقولُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ الاعتصامُ بِه: التّمسّكُ بِسَبَبِه، وطلبُ النّجاةِ والمَنَعَةِ به، والضّميرُ يعودُ على اللّه تَعالى، أو على النّورِ المُبينِ، وهو القرآنُ(1).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا نـجـاةَ إلّا بـالـتّـمـسّـك بـهـداية الـلـه، والـتّـصـديـقِ بِبُرهانِه السّاطعِ الواضحِ

يُخاطِب اللّه تَعالى جَميعَ النّاسِ أَنَّهُ قَدْ جاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهانٌ عَظيمٌ، وهو الدَّليلُ القاطِعُ للعُذْرِ؛ وهو المُعْجزةُ الّتي تَشهدُ بِصِدقِ النّبيّ ﷺ، والنّورُ المُبينُ الواضِحُ المُزيل لِلشُّبُهات.

فالّذينَ صَدَّقوا باللّه اعتِقادًا وقَولًا وعَملًا واستَمْسَكوا بالنّورِ الّذي أُنزل إلَيهم، سَيَدُلُّهم ويُوفِّقُهم لِسُلوكِ الطّريقِ القَويم الموصلِ إلى مَرْضاتِه؛ فيَهديهِم في الدّنيا إلى دينٍ قَويم لا عِوَجَ فيه، ويُثيبُهم على ذلك في الآخرةِ رحمةً منه وفَضلًا وإحْسانًا، وهي الجَنَّةُ والكَرامَةُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عُمومُ الخطابِ متناسِقٌ، مع عُمومِ الرّسالة وعالميّتِها:

الـقــرآنُ ذكـرٌ لـلـعـالـمـين، وهدايةٌ للنّاسِ أجمعينَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خِطابٌ لِعُمومِ النّاسِ في خِتامِ السّورة، يُوافِقُ مُبتَدَأها الّذي خاطَبَ عُمومَ النّاسِ أيضًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾، [النّساء: 01]، وجاءَ في البَدْءِ التّذكيرُ بِبَدْءِ الخَليقة، وحُرمَة

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/634، 643، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (عصم).

الرَّحِمِ الّتي تَجْمعُهم، وذكّرهم هنا في خاتِمَةِ السّورة، بوَحدةِ الدّينِ الخاتم، وضرورةِ التّمسّكِ بالشّريعةِ الخاتِمَة، حتّى تَحْسُنَ خاتمَةُ الحَياةِ، ويكونَ الجمعُ في النّهاية في جنّاتِ النّعيم، معَ النّظرِ إلى وجْهِ اللهِ الكَريم، ويَتَرَتَّبُ على عُموم الخِطابِ عُمومُ رسالةِ النّبيّ ﷺ، وأنَّ القُرآنَ الكَريمَ نازلٌ لجَميعِ النَّاسِ، وليسَ للمُؤمنينَ فَحَسْب.

﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾: قَدْ: تُفيدُ التّحقيقَ، وتَعْدِيَةُ الفعلِ (جاءَ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وهو تَرْغيبٌ لَهُمْ في الإيمانِ؛ لِأَنَّ الَّذي يَجيءُ مُهْتَمًّا بِناسٍ، يَكونُ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعوهُ، و﴿جَآءَكُم﴾ على وجه المجاز، أي: ظهرَ فيكم[1].

ذكْرُ الرّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فيه تقويةٌ لمعنى البُرهانِ:

بُرْهانُ الرّسولِ الشّاملُ، لتَحْقيقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ

﴿بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: البُرهانُ: الحُجّةُ النّيّرَةُ الواضحَةُ الّتي تُعطي اليقينَ التّامَّ، وقد تعدّدتْ أقوالُ أهلِ التّفسيرِ فيه؛ قال ابنُ عبّاس: يريدُ بالبُرهانِ: النّبيَّ ﷺ وما جاءَ به مِنَ البَيانِ؛ وإنّما قيل للنّبيّ ﷺ برهانٌ؛ لما معَه منَ المُعْجزةِ الّتي تَشهدُ بِصِدْقِه[2]، وكما قال الرّازيّ: لِأَنَّ حِرْفَتَهُ إقامَةُ البُرْهانِ عَلى تَحْقيقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ[3].

أو أنّ الآيةَ إشارةٌ إلى محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، والمعنى: قدْ جاءكُم مُقْتَرِنًا بمُحمّدٍ بُرهانٌ منَ اللهِ تَعالى، على صِحّة ما يَدعُوكُم إليه، وفسادِ ما أنْتم علَيه منَ النِّحَل[4].

أو المرادُ به القرآنُ الدّالُّ على صِحّة نُبُوَّةِ النّبيِّ ﷺ، المُثبتُ لما فيهِ منَ الأَحْكام الّتي من جُملتِها إثْباتُ حَقّيّة الحقِّ، وبُطلانِ الباطل، أو دلائلُ النُّبُوَّة والمُعجِزاتُ الّتي أظْهَرها، أو هو دينُ الحقِّ الّذي أتى به[5]، وهذهِ المعاني تتَعاضدُ ولا تتنافَرُ، ويُقَوّي بعضُها بعضًا،

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/360، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/49، وينظر تفسير الآية: (170) من سورة النّساء.

(2) الواحديّ، الوسيط: 2/144.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141.

(5) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.

وتدُلُّ على عَظَمَةِ هذا البُرهانِ، وتجْتمعُ على النّبيّ ﷺ وما جاء بِه، وتنوينُه للتّفْخيم والتّعْظيم.

وذكْرُ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فيه تقويةٌ لمعنى البُرهان؛ لأنّ ذلك الدّليلَ إذا كان قد جاء من عند اللّه، فلا بدّ أن يكونَ بُرهانًا صادقًا، مُقنِعًا لطالبِ الحقّ، والّذي قوّاه التّعبيرُ بـ ﴿قَدۡ﴾، وبالمجيءِ في قولِه تعالى ﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾، أي: أنّه أتاكُم كالأمرِ المَحْسوسِ المؤكَّد، الّذي يُرى ويُحَسّ، فهُو قائمٌ بين أيديكم، وحجَّةٌ عليكم[1].

وإضافةُ الرّبّ إلى ضميرِ المخاطَبين، للإيذانِ بأنّ ذلك لتَربيَتِهم وتبْليغِهم، إلى كمالِهم اللّائقِ بهم، تَرغيبًا لهُم في الامتثالِ بما بعدَه منَ الأمْر[2].

منْ أسْرارِ القرآن أنّ برهانَه يُؤثّرُ في السّامعِ، ولو كان لا يُجيدُ العربيّة:

الـقـــرآنُ نـــورٌ يـنـوّرُ الـقـلـوبَ بـالإيــمــان، ويقودُ إلى طاعةِ الرّحمن

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ عبّر بِنونِ العَظَمة الّتي تُناسِبُ عظَمَةَ هذا النّورِ المبين، وهو القرآنُ الكريمُ، أنزَلْناهُ ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ أيّها المؤمنون خاصّةً، وإلى النّاسِ عامّةً، وسَمّاه ﴿نُورٗا﴾؛ لأنّه يَتَبيّن به الأحكامُ، كما تَتَبيّنُ الأشياءُ بالنّور، ولأنَّهُ سَبَبٌ لِوُقوعِ نورِ الإيمانِ في القَلْبِ، و﴿مُّبِينٗا﴾ أي: واضِحًا في نفسِه، مُوَضّحًا لغيرِه[3]؛ فهو بنَفسِه نورٌ واضحٌ، وكلُّ مَن يَطّلعُ عليه يراهُ نورًا، لا يَحتاج برهانًا لذلك، ولا يَخفى إلّا على مُستَكبِرٍ، فبُرهانُه ذاتِيٌّ، يُؤثّرُ في مَن يسمعُه، حتّى في الّذين لا يُجيدون لغَتَه، وهذا منْ أسْرارِ هذا الكتابِ الكريمِ المعْجِز.

الاعْتِصامُ بالله اسْتِعارةٌ لِلالتزامِ بدينِه:

الّـذيـنَ آمَـنـوا واعتَصَموا بالله في نعيمٍ وفضلٍ وهدايةٍ

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: لفظ ﴿فَأَمَّا﴾ الفاء:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1991: 1992.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.

(3) الواحديّ، الوسيط: 2/144، والبقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/379.

استئنافيّةٌ، و أمّا: حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ، تقتضي التّقسيمَ، وقد ذكَر القِسمين في الآية السّابقة (173)؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يقابلُهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وهنا اكتَفى بذكْرِ الفَريقِ الأوّلِ، وهُم الّذينَ آمَنوا باللّه واعتَصَموا به، ولمْ يذكُرِ الفريقَ الثّاني للتّهويلِ؛ لأنّ مَصيرَهم قد عُرِفَ، من بيانِ منزلةِ الفريقِ الأوّلِ، كأنّه يقولُ: وأَمّا الّذينَ كَفَروا، فَلا تَسَلْ عَنْهُم، ولأنّه بعدَ كلِّ هذا البيانِ الحقّ، وإزاحةِ الشُّبُهاتِ عنِ العُقولِ والقُلوبِ، ليسَ أمامَ العاقلِ إلّا الإيمانُ باللّه، والاعتصامُ به، ومَن عَطّل عَقْلَه، وأَغْلَقَ قلبَه عنِ الإيمانِ والاعتصامِ، فليسَ جَديرًا بأن يُذكَرَ، والإهمالُ به أولى.

وقد ذكَر ﷻ وصفَين لِلّذين اهتَدَوا بهذا النّورِ؛ أوّلُهما: أنّهم آمَنوا باللّه تعالى، وثانيهما: أنّهم اعتَصَموا به، والاِعْتِصامُ: افْتِعالٌ مِنْ عَصَمَ، وهو طَلَبُ ما يَعْصِمُ، أَيْ يَمْنَعُ، وصيغةُ الافتعالِ تدُلُّ على الاجتهادِ في ذلك، والاعْتِصامُ باللّه اسْتِعارةٌ لِلالتزامِ بدينِه[(1)].

تنوّعُ تأويلِ عودةِ الضّميرِ في الآيةِ دليلٌ على ثراءِ اللّغةِ وعُمقِ الدّلالةِ فيها:

الاعـــتـــصـــامُ بالقرآنِ اعتصامٌ بالله

والضّميرُ في قوله ﴿بِهِۦ﴾، يعودُ على اللّه تعالى، وهو أقربُ مذكورٍ، ومثلُه قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النّساء: 146]، في أنْ يُثبّتَهم على الإيمانِ ويصونَهم عن نزغِ الشّيطانِ، أو يعودُ على القُرآنِ الّذي تَضَمَّنَه قولُه تعالى: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾، والاعتصامُ به: التّمسُّكُ بسَبَبِه وطلبُ النّجاةِ والمَنَعَةُ به، عنِ الوُقوعِ في المَحْذورِ، فهو عِصمةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ به، يَعْصِمُ كما تَعصِمُ المعاقلُ والحُصونُ[(2)]، والاعْتَصامُ بِكِتابِ اللّه اعْتَصامٌ باللّه وبِنَبِيِّه ﷺ[(3)].

المؤمنونَ المعتصِمونَ بالله موعودُون بالرّحْمَةِ والفضْلِ والهِدايةِ:

وعْدُ الله، والله لا يُخلِفُ الميعادَ

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: هذا جزاءُ الّذينَ آمَنوا باللّه واعتَصَموا به؛ وَعَدَهم بأُمورٍ ثَلاثَةٍ: الرّحْمَةِ والفَضْلِ والهِدايَةِ. وقولُه ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ﴾، أي بوَعْدٍ لا خُلْفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/380، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 4/31، 6/63.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/149.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/27.

فيه، والفاءُ: للتّعْقيبِ والمباشَرةِ، ولعلَّ السّينَ ذُكرتْ؛ لتُفيدَ مع تحقيقِ الوَعْدِ الحثَّ على المثابَرةِ والمداوَمةِ على العَمَلِ؛ إشارةً إلى عِزَّة ما عندَه[1] ﷻ.

لفظُ (الرّحمةِ) مجازٌ مرسَلٌ؛ علاقتُه الحاليّةُ:

الجنّةُ رحمةُ الله، كتَبَها لأهلِ الإيمانِ والاعتصامِ به

﴿فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾، قالَ ابنُ عَبّاسٍ: الرّحْمَةُ الجَنَّةُ[2]، وتنوينُ رحمةٍ للتّفخيم، وجاءتْ بصيغةِ النَّكرة لتَشْمَلَ الكثيرَ، والرّحمةُ لا يحُلّ فيها الإنسانُ، لأنّها معنى من المعاني، وإنّما يحُلّ في مكان تنزّلها وهو الجنّةُ؛ فاستعمالُ الرّحمةِ في مكانها مجازٌ مرسَلٌ؛ أُطلِقَ فيه الحالُّ، وأُريدَ المحلُّ، فعلاقتُه الحاليّةُ، أي سيُدخلُهم في جنّته، بمَحْضِ رَحْمته ورضْوانه، لا بشَيءٍ استوجَبوه، وفي هذا السّياقِ ذكَرَ الإيمانَ والاعتصامَ بالله، فجاءتِ الرّحمةُ مُنَكَّرةً، لتُفيدَ التّفخيمَ والتّكثيرَ، فهي رحمةٌ خاصّةٌ، وجاءَ الوعدُ معَها بالسّينِ الّتي تُفيدُ الاستقبالَ، وفي سورةِ الجاثية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الجاثية: 30]، عرّف الرّحمةَ مع الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، وهذه رحمتُه العامّةُ، وناسَب أن يأتيَ معَها ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾.

﴿وَفَضۡلٖ﴾ للتّفخيم، أي: وفَضلٍ فخْمٍ، يُعطِيه لِعبادِهِ:

يَتَفَضَّلُ اللهُ عَلى عِبادِهِ بِثَوابٍ زائدٍ بعدَ إكرامِهم بالأجْرِ

﴿وَفَضۡلٖ﴾: الفضْلُ: الإحسانُ الزّائدُ على الأجْر، ولَوْ كانَ في مُقابَلَةِ العَمَلِ لَما كانَ فضلًا، وتنوينُ فضلٍ للتّفخيم، أي: وفَضلٍ عَظيم، يَتَفَضَّلُ عَلى عِبادِهِ بثَوابِه، يعلَمون أنّه زيادة، لا سببَ لهم فيه، فيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشَرٍ[3]، وعبَّرَ عن إفاضةِ الفضْلِ بالإدْخالِ مَجازًا.

الضّميرُ في قولِه ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائدٌ عَلى الله تَعالى، وذَلِكَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ:

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: أي يُرشِدُهم ويوفِّقُهم، والضّميرُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/280.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/28.

الـهـدايـةُ إلى الـــصِّـــراط المُسْتَقيم مسلكٌ لسعادَةِ الدّارَين

في ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائدٌ عَلى اللّه تَعالى، وذَلِكَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ، وهذا هو الظّاهِرُ؛ لِأَنَّهُ المُحَدَّثُ عَنْهُ، أي: يَهْديهِمْ إِلى عِبادَتِهِ، أو يَهْديهِمْ إِلى صِراطِهِ ودينِه، أو يكونُ المَعْنى: يَهْديهِمْ صِراطًا مُسْتَقيمًا، لِيَصِلُوا إِلَيْهِ، أَيْ إِلى اللّه، وذَلِكَ هو مُتَمَنّاهُمْ، إِذْ قَدْ عَلِموا أَنَّ وعدَهم عِنْده، أو يعودُ الضّمير على الرّحْمَةِ والفَضْلِ، لِأَنَّهُما في مَعْنى الثّوابِ، أو يعودُ عَلى القُرْآنِ[1]، وتقديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادَةِ الحَصر، والصِّراطُ المُسْتَقيمُ، هو الإسلامُ الّذي يُوصِلُهُم للغاية، وهي سعادَةُ الدّارَين؛ فهو الطّاعةُ في الدّنيا، ودخولُ الجنّة في الآخِرَة[2].

وشبّه الدّينَ الحَقَّ بالصّراطِ المسْتقيم، ثمّ حذَفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به، على سبيلِ الاستِعارةِ التّصريحيّةِ، وتقديمُ ذِكرِ الوعْدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعْدِ بالهدايةِ إلَيه على خِلافِ التّرتيبِ في الوُجودِ بين المَوْعودَين؛ للمسارعةِ إلى التّبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/149، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/63.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/244.

(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/362، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/263.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النّساء: 176]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر الكلالة بعد بشارة المعتصمين بالجنّة والفضل والهداية

على العموم، فقد تكلم السّياق في أول السّورة في أحكام الأموال، وختم آخرها بذلك، ليكون الآخر مشاكلًا للأوّل، وأحكام الأموال سواء كانت في الحقوق العامّة أو الخاصّة، أو في المواريث، كحالة الكلالة، والمناسبة بين معاملة الورثة بحسب الحالات، تضبطها جميعًا أحكام اللّه في المواريث، وحكم الكلالة قد بُيِّن بعضه في آية الشّتاء، من صدر سورة النّساء، ثمَّ إنَّ النّاس ما لبثوا أن سألوا رسول اللّه ﷺ عن صورة مغايرة، مِن صور الكلالة، فنزلَت هذه الآية الكريمة، إجابة للسّؤال، وإكمالًا لحكم الكلالة وتفصيلًا لها[1]، والعلاقة بين الآيتين مرتبطة بوحدة الموضوع، والسّؤال الاستفساريّ الّذي يراد منه التّوسع في فهم الكلالة، وإيضاح ما يطرأ من حالات، وما يفترض من احتمالات، يرتبط فيها هذا بذاك[2]، والظّاهر أنّ الصّلة بين الآية قيد التّفسير، وما سبقها من آيات فصاح، وتراكيب ملاح، فيها الدّعوة إلى الإيمان باللّه والاعتصام به، والالتزام

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/13.

(2) أشار الفخر الرَّازيّ إلى علاقة خاتمة السُّورة بأوَّلها بذكر نكتة لطيفة فقال: " واعلم أنَّ في هذه السُّورة لطيفة عجيبة، وهي أنَّ أوَّلها مشتملٌ على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنَّه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّساء: 1]، وهذا دالٌّ على سعة القُدرة، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [المائدة: 176] وهذان الوصفان هما اللَّذان بهما تَثبتُ الرُّبوبيَّة والإلهيَّة والجلالة والعزَّة، وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنَّواهي منقادًا لكلِّ التَّكاليف"، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/12.

بأحكامه وتشريعاته، ضرورة لا مناص منها، ولا مندوحة عنها، بل إنّ الالتزام بهذه الأحكام يؤدّي إلى رحمة الله وهدايته للنّأي عن الضّلال، والهداية إلى صراط الله المستقيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: أي: يطلبون منك الفتيا، والإفتاء: جواب السّائل عمّا يُشكِل عليه، ومنه المُفتي؛ لأنّه يُزيل إشكال المسائل، ويُوضِّح الأحكام. الفُتيا والفتوى بمعنى: الإفتاء، وجمع الفتيا فِتًى[1]، وفي التسهيل: "يَسۡتَفۡتُونَكَ أي يطلبون منك الفتيا، ويحتمل أن يكون هذا الفعل طلبا للكلالة، ويفتيكم أيضًا طلب لها، فيكون من باب الإعمال وإعمال العامل الثّاني على اختيار البصريين، أو يكون يستفتونك مقطوعًا عن ذلك فيوقف عليه، والأوّل أظهر"[2]، والفتوى في الإسلام من أخطر المهامّ وأرفع المناصب، لأنّ المفتي مؤتمن على الأحكام الشّرعيّة الّتي بها، تحفظ الحقوق وترعى المصالح.

2) ﴿ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾: كَلَّ يَكِلُّ كُلولًا: ضَعُفَ وأَعيا فهو كالٌّ. وكلَّ السَّيف: لم يقطع فهو كليل. والكَلال: التَّعَب والإعياء. وكَلالة: الّذي لم يُخَلِّف ولدًا ولا والدًا يَرِثُه بل يَرِثُه ذوو قرابته. والكلمة إمَّا مصدرٌ بمعنى الكلال؛ وهو ذهاب القوَّة مِنَ الإعياء، فاستُعيرَت للقرابة مِن غير جهة الولد والوالد؛ لأنَّها بالإضافة إلى قرابتها كالَّةٌ ضعيفةٌ مِنَ الكلال، وهو الإعياء، فكأنَّه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء. قال الأعشى:

فآلَيتُ لا أَرْثِي لها مِن كَلالَةٍ***ولا مِن وَجًى حتّى نُلاقِي مُحَمَّدًا[3].

وإمَّا مشتقّة من تَكَلله النَّسب: أحاط به، وإذا لم يَترُك والدًا ولا ولدًا فقدِ انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه، وبقي موروثه لِمَن يتكلله نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل. ومنه روضٌ مكلَّلٌ بالزَّهر[4]، و"قيل: إن أصل الكلالة في اللغة ما لم يكن من النّسب لحًّا، أي: لاصقًا بلا وساطة، وقيل: إنّه ما عدا الوالد والولد من القرابة، وقيل: ما عدا الولد فقط"[5].

---

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (فتي).
(2) ابن جزي، التسهيل: 1/218.
(3) الأعشى، ديوان الأعشى، ص: 216.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/406.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/398.

3) ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾: رجلٌ أو إنسان. والمُثَنَّى: مَرآن، والجمع: رجال. والمرأة: مؤنَّث المرء. ويُقال: امرؤ للرَّجل، وامرأة: للأُنثى،، قال الشّاعر:

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأًّ***وَنَارٍ تُوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا[1].

وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى)، وفي التّنزيل: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطّور: 21].

4) ﴿يَرِثُهَآ﴾: يَرِثه وِرثًا ووِرَاثَةً وإِرثًا: انتقل إليه ماله بعد وفاته، فهو وارث، والمال موروث. والورث: الموروث مِن مال أو عقار. والتُّراث: ما يُخَلِّفه الميِّت لورثته. والميراث: تَركَة الميِّت. والفعل يتعدَّى بـ(مِن)، و(عَن)، يُقال: وَرِثَ فلانٌ فُلانًا، منه وعنه. وجمع (ميراث): مواريث، قال الشَّافِعِي رحمه الله: وكان معقولاً عن الله (ﷻ)، ثمّ عن رسول الله ﷺ، ثمّ في لسان العرب، وقول عوامّ أهل العلم ببلدنا: أنّ امرأً لا يكون موروثًا أبداً، حتّى يموت، فإذا مات كان موروثًا"[2]، الميراث أصله مِوْراثٌ، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها. والتُّراثُ أصل التاء فيه واو، تقول: ورثت أبي، وورثت الشيء من أبي، أرِثُهُ بالكسر فيهما، ورثًا ووراثة وإرثًا، الألف منقلبة من الواو، وَرِثَةً الهاء عوض من الواو[3].

5) ﴿حَظِّ﴾: الحظُّ: النَّصيب المُقدَّر[4]، الحظّ: النّصيب، وزاد الأزهريّ عن اللّيث بن المظفّر: من الفضل والخير. والجَدُّ، والبَخت. وجمعه: حظوظ، وأحاظ، وأُحظ، أبو زيد: يقالُ: رجلٌ حَظِيظٌ جَديد: إذا كان ذا حظٍّ من الرِّزق. أبو عمرو: رجلٌ محظوظ ومجدود، وقال: يقال: فلانٌ أحظُّ من فُلانٍ وأجدُّ منه، وقال الفرَّاء: أَحْظَيت فلاناً على فلان، من الحُظوة والتّفضيل[5].

6) ﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾: مُثَنَّى الأنثى. والأُنثى: خلاف الذَّكر، ويُجمَع على إناث. وأُنُثٌ: جمعُ إِناث. ويُقال: آنَثَتِ المرأة، إذا ولدَت أنثى، فهي مُؤنِثٌ.

(1) الأحمد نكري، دستور العلماء: 3/152.
(2) الشّافعي، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/536.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ورث).
(4) الرّاغب، المفردات: (حظَّ).
(5) القاسم بن سلّام، الغريب المصنّف: 1/378.

7) ﴿يُبَيِّنُ﴾: أي: يُظهِر. ويُقال: أَبَنتُ الأَمر وبَيَّنتُه: أَظهرتُه بَيانًا وتِبيانًا. " الباء والياء والنُّون أصلٌ واحدٌ، وهو بعد الشَّيء وانكشافه، فالبين: الفراق، يُقالُ: بان يبينُ بَينًا وبينونةً. والبيون: البئر البعيدة القعر. والبِين: قطعة مِنَ الأرض قدرُ مدِّ البصر. وبان الشَّيءُ وَأَبان، إِذا اتَّضح وانكشف. وفلان أبين من فلان، أي: أَوضحُ كلامًا منه "[1]، وما يبيّنه اللّه هو محض الحقّ والنّفع للإنسان، وهو الوقاء الّذي تتّقي به الإنسانيّة الضّلال، فلا تزلّ بها القدم، في متاهات لا حدود لها، ولا نهاية لمفاسدها، وسوء عواقبها.

8) ﴿تَضِلُّواْ﴾: "الضّلال ضدّ الهدى"[2]، والضَّلَّة: الحيرة. والضّآلّ: الّذي ينحرف عن دين اللّه، والحائر، والجمع: ضُلاَّل، وضآلّون. والضَّلول: الضّآل، ورجلٌ مُضَلَّل: أي لا يوفَّق لخير، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وفلان صاحب أَضاليلَ، الواحدةُ أُضلُولةٌ"[3]، وفي الأثر: "لَوْلَا أَنَّ اللّه لَا يُحِب ضَلَالَة العَمل مَا رَزَأْنَاكُمْ عِقَالاً"، بُطْلاَنَ العمَل وضياعه، مَأْخُوذٌ مِنَ الضَّلَال: الضَّيَاعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: 18][4]، والمعنى المراد هنا في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾، أي: تُخطئواْ في قسمة التَّركة.

9) ﴿عَلِيمٌ﴾: عَلِمَ الشّيء يَعلَمه علمًا: عرفه وتيقَّنه، فهو عالم وعليم، والجمع: علاَّم. والعليم: الكثير العِلْم، وهي مِن صيغ المبالغة، "ومِن صفات اللّه ﷻ: العليم والعالم والعلَّام، قال اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس: 81]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرّعد: 9]، وقال: ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فهو اللّه العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولمَّا يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها على أتمّ الإمكان، ويجوز أن يُقال للإنسان الَّذي علَّمه اللّه علماً منَ العلوم: عليم، كما قال يُوسف للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: (ضلّ).
(3) الخليل، العين: (ضلّ).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (ضلل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (علم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يسألونك أيّها الرّسول عنِ الكلالة، إذا مات امرؤ، ولم يكن له والد ولا ولد، فمَن يرثه؟ فقل لهم: إذا مات الإنسان الّذي ليس له والد ولا ولد، وله أخت واحدة (شقيقة أو لأب)، فلها نصف الميراث، فإن كانتا أختين (شقيقتين أو لأب) فلهما الثّلثان، وإن ماتتِ الأخت، وليس لها والد ولا ولد، فيرث أخوها جميع تركتها، فإن كان الورثة إخوة رجالًا ونساءً فللذّكر مثل حظّ الأنثيين، يبيّن الله لكم قسمة المواريث عامّة والكلالة خاصّة لئلّا تحيدوا عنِ الحقَ، ولئلّا تقسّموا بأهوائكم، والله عليم بما يشرّعه لكم وبما فيه مصلحتكم، وعليم بمَن يمتثل لتشريعه، ومَن لا يمتثل فيحاسب كلًّا بما يستحقّ.

بيان الفتوى المؤصّلة، في مسألة الكلالة المفصّلة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة تصدير جملة الاستفهام بالفعل المضارع الدّال على المستقبل:

تكرار السّؤال، لأهمِّيّة المسؤول عنه، والعناية بمعرفة حكمه

والتَّعبير بالمضارع في مادَّة السُّؤال، طريقة شائعة في النَّصِّ القرآنيّ، نحوقوله تعالى: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ [البقرة: 189]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ [البقرة: 219]؛ وكذلك وردت هذه الصّيغة، في مواقع أخرى كثيرة من القرآن، لأنَّ شأن السُّؤال أن يتكرَّر، فشاع إيراده بصيغة المضارع، وهذا يدلّ على أهمِّيّة المسؤول عنه لدى السّائلين، وعنايتهم بمعرفته؛ والاطّلاع على حكمه وحكمته، والكلالة قد تكرَّر فيها السُّؤال، باستفتاء النّبيّ فيها، في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، ومرّة قال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ [النساء: 12]، قبل نزول الآية وبعدها[1].

أثر الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾:

حـذف الأوّل لدلالة الثّاني عليه، واستيفاء النّهاية لما ورد في البداية

في قوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ إيجاز بحذف الجارّ والمجرور، والتَّقدير: (يستفتونك في الكلالة)، وحُذِف تجنُّبًا للتَّكرار، واكتفاءً بذكره في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 3/6.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، والحذف منَ الأوّل لدلالة الثّاني عليه، ملمح في البيان موجود في كلام العرب، لكنّ الأصل أن يحذف منَ الثّاني لدلالة الأوّل عليه، و ما جاءَت عليه الآية عدول عن ذلك الأصل، وإشارة إلى كثرة ما سألوا عنه، وكان منه شأن الكلالة وغيره، ولكنّ الجواب جاء بشأن الكلالة خاصّة لأهمّيّته، ولأنّ فيه تتمّةً لحكم سبق في صدر السّورة عنِ الكلالة، وكانتِ البداية خاصّة بالإخوة والأخوات لأمّ، والنّهاية خاصّة بالإخوة والأخوات الأشقّاء أو لأب.

بلاغة التّعبير بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾، في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾:

إسناد الفُتيا في الكلالة إلى الخالق، إشارة إلى أنّها حكم اللّه بين الخلائق. في التّعبير بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾ فصل بين السّؤال والجواب؛ لبيان كمال المعنى دون لَبس ولا غموض، كما أنّه تهيئة للجواب الّذي أمَر اللّه تعالى رسوله ﷺ بتبليغه فور تلقّيه دون تأجيل، وهذا يدلّ على أهمِّيَّة الرِّسالة، وأنَّها رسالة خاصَّة منَ اللّه تعالى، فيجب أن تُنقل عَقِب نزول الوحي بها، وهذا ما كان يفعله الرّسول ﷺ مع كلّ ما كان يُوحَى إليه، ثمّ إنّ في إسناد الفُتيا إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾؛ إشارة إلى أنَّ أحكام الأسرة مُستَمَدَّة منَ اللّه تعالى بلا واسطة[1]، وأنّه لم يوكّل أحدًا بالفتوى فيها، بل تولّى بيانها بنفسه، ببليغ عبارة، وتفصيل أنصبة، وتحديد من يرث ومن يحجب، و حيث أنّه تعالى هو المُشَرِّع لتلك الأحكام، ففي ذلك الإسناد تأكيد على وجوب الالتزام بالفُتيا، وبتعميم الحكم بها، وبقاء ذلك ودوامه على المدى.

دلالة الاستئناف البيانيّ، في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾:

تفصيل ما استعصى على الأفهام، مبسوط في كتاب الله العلّام

جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، جملة مستأنفة، استئنافًا بيانيًّا، وهي جواب عن سؤال مقدّر، مفاده: (ماذا أقول؟أو ماذا أفتي؟)، ويأتي الجواب من اللّه حاملًا التّشريع في أمر الكلالة، وقد كان أمرها مُشْكِلًا، ووردت في ذلك روايات وأخبار، وهكذا كلُّ جملةٍ ربطها بما قبلها شبه كمال الاتّصال[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1996.

(2) صافي، الجدول: 6/222، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/406.

سرُّ ورود لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾:

إيثار التّعبير بمقام الألوهيّة دون مقام الرّبوبيّة من بلاغة هذه الآية

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، ولم يقل (قل أنا أفتيهم)؛ لئلّا يلتبس على المُخاطَبين أنّ القائل هو الرّسول (ﷺ)، فالتّعبير القرآنيّ يدلُّ صراحة على مصدر الفُتيا دون لَبس ولا غموض، وأفاد تقديم المسند إليه (لفظ الجلالة): ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ القَصر، أي: قصر الفُتيا في الكلالة، وفي غيرها من أحكام المواريث على الله تعالى، فقد طلب السّائلون الفُتيا في الكلالة، وجاءهم الرَّد بأنَّ الله تعالى هو الّذي يفتيهم فيها وفي غيرها، مِن أحكام المواريث لا غيره[1]، وأوثر التّعبير بوصف الألوهيَّة؛ لإضفاء المهابة على الخبر، ولمناسبته مقام التّشريع، أمَّا التّعبير بالرُّبوبيَّة فيتناسب ومقام العطاء والامتنان، وخصوصيّة الإنعام والرِّعاية والتَّربية؛ لذا أوثر التّعبير بوصف الألوهيَّة على التّعبير بوصف الرُّبوبيَّة في الآية، ممّا يتطلّبه السِّياق والمقام.

أسلوب القصر وأثره في معنى الآية ودقّتها:

أحكام الميراث صالحة لكلّ زمان، وتشريع الله خالد على مدى الأزمان

لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ يفيد القصر، بتقديم المسند إليه(الفاعل) على المسند (الفعل)، في هذه الجملة الفعليّة، ومردّ المعنى إلى أنّ الفتوى في مثل هذا الأمر، (وهو الكلالة)، لا تطيقها عقول البشر، ولا يأتي بها في مثل تلك الدّقة الرّاقية، والضّمان الوافي لحقوق الورثة، إلّا أمر إلهيٌّ محيط بأحوال البشر في السّر والعلانيّة، كما يدلّ هذا التّقديم للفاعل في قوله ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾، على ثبوت تلك الأحكام الإلهيَّة، واستقرار العمل بها في التّشريع الإسلاميّ، منذ نزولها وحتّى يرث الله الأرض ومن عليها، وتأكيد عدم نسخها كما يوحي به التَّعبير بالجملة الاسميَّة الدّالّة على الثّبوت، ممّا يشير بوضوح وجلاء إلى أنّ مصدر التّشريع راسخ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2002.

بيقين لا يحتمل ريبًا، وأنّ الأحكام الشّرعيّة تبقى صالحة على المدى، لضمان الحقوق، وفضّ النّزاعات بين المتخاصمين على الميراث.

جناس الاشتقاق وأثره في المعنى المُساق:

المجانسة في الألفاظ تكسب الجملة رونقًا وعذوبة

بين قوله تعالى (يَسۡتَفۡتُونَكَ)، وقوله(يُفۡتِيكُمۡ) جناس اشتقاق[1]، وهو ممّا يلحق بالجناس، وليس هو نفس الجناس؛ لأنّ المعنى فيها غير مختلف، ومثاله ماذكره الشّيخ شمس الدّين بن الصّائغ، في شرحه على البردة، لما انتهى إلى قول المصنّف:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى***أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِّنْ وَرَمِ

قال: ظلمت وظلام جناس اشتقاق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النّمل: 44]، قلت: أمّا ظلمت وظلام فاشتقاق بلا خلاف، وأسلمت مع سليمان جناس مطلق، لأنّه لم يرجع في المعنى إلى أصل واحد، وهو أعظم شواهد البديعيين على الجناس المطلق[2].

السّرُّ في بناء الشّرط على ﴿إِنِ﴾، وإيثار التّعبير بقوله: ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾:

دقّة السّياق في تقسيم المواريث، تتلاءم مع دقّته في التّعبير

وأوثر التّعبير بأداة الشّرط ﴿إِنِ﴾؛ للدّلالة على قلّة حدوث حالة الكلالة في الواقع، و سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾ بدلًا من (رجل) في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ بلفظ ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾؛ لما فيه من عموم، بحيث يشمل الجنسين: الرَّجل والمرأة، والسّياق هو الّذي يُخصّص أحدهما، وأوثر التّعبير بها في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾؛ لأنَّ حكم الكلالة ليس مقصورًا على الرَّجل فحسب، بل يشمل المرأة أيضًا؛ لذا عُبِّر باللَّفظ الأعمّ الّذي يشملهما، ولو قال: (إِنْ رَجُلٌ هَلَكَ)؛ فلربَّما تُوُهِّم أنَّ حكم الكلالة مقصور عليه وحده، وهذا غير

(1) جناس الاشتقاق: هو أن يجمع اللّفظين الاشتقاق، ينظر: الخطيب، الإيضاح: 4/76، وقد عَدَّه ممّا يلحق بالجناس، ولم يكن هو الجناس ذاته، لأنّ شرط الجناس تماثل الكلمتين لفظًا واختلافهما معنى، والمعنى في جناس الاشتقاق ليس مختلفًا كما هنا في: (يستفتونك) و(يفتيكم)، وكون الأولى في الطّلب، والثّانية في الجواب ليس اختلافًا في معنى المادّة، ولكنّ جاء الاختلاف من زيادة السّين والتّاء في الأولى.

(2) ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/64.

مراد، أمَّا في آية الكلالة الأولى في بداية السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ﴾ [النِّساء: 12] فقد أوثر التّعبير بـ(رَجُلٍ)؛ بالمطابقة بين كلمتي رجل وامرأة.

سرُّ التّعبير بلفظ الهلاك، في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾:

إذا مات ابن آدم انقطع عمله، ولم ينفعه في الآخرة أمله

التّعبير بـ﴿هَلَكَ﴾ في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾، المتّصل بمادّة الهلاك الّتي تدلّ على الفناء، وانقطاع الأثر، فإنّه يتوافق مع دلالة كلمة ﴿ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، فهنا الرّجل مات، وانقطع لعدم وجود ذرّيّة من بعده ترثه، ومع أنّ الهلاك هو الموت في اللّغة، كما جاء في القاموس، فإنّ كلًّا منهما نقض البيّنة، وإبطال الحاسّة سوى أنّ في التّعبير بالهلاك خصوصيّة لا توجد في الموت؛ هي إبطال اللّذة والمنفعة؛ فالفعل ﴿هَلَكَ﴾ على هذا، هو الأنسب للكلالة الّتي تبطل فيها المنفعة، وتنقطع اللّذة دون ذرّيّة الميّت؛ لأنّه لا ذرّيّة له، وفي التّعبير به عِبرة لِمَن كان له مال، وليس له ذرّيّة، حتّى ينفق، ويتصدّق قبل أن يهلك، فتنقطع اللّذة، وتبطل المنفعة عنِ الأصول والفروع.

سرّ الاقتصار على نفي الولد، مع أنّ نفي الوالد مُعتَبَرٌ في الكلالة:

التّعبير بـ(ليس له ولد) قيدٌ في الحكم

جاء قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ استئنافًا مُبيِّنًا للفُتيا، أي: لتفصيل الحكم، وقدّم المسند إليه ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾ على الفعل؛ للتّنبيه عليه، والاهتمام به مع تأكيد نسبة الفعل إليه، والتّعبير بـ﴿وَلَدٌ﴾ قَيد في الحكم؛ حيث إنَّ الحكم المذكور هنا، يتوقّف على عدم وجود الولد، أي: الابن؛ لأنَّ الابن يُسقط الأختَ، ويَحجب ميراث أخيها عنها، واقْتُصر على ذكر نفي الولد، مع أنّ نفي الوالد أيضًا مُعتبرٌ في الكلالة ثقةً بظهور الأمر، ودلالة تفصيل الورثة عليه[1]. وأيضًا؛ لأنّه "يجوز أن يدلّ بحكم انتفاء الولد على حكم انتفاء الوالد؛ لأنَّ الولد أقرب إلى الميّت منَ الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب،

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/168.

فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأنَّ الكلالة تتناول انتفاء الوالد والولد جميعًا، فكان ذكر انتفاء أحدهما دالًّا على انتفاء الآخر"[1].

الواو بين العطف و الحاليَّة، في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾:

المراد بالأخت هنا الأخت الشّقيقة أو الأخت لأب

والواو في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ يحتمل الحال والعطف، ولكلّ منهما معنى، فالعطف يعني أنّ الكلالة في: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ مقيّدة بقيدين: انتفاء الولد، ووجود الأخت، وهذا الاعتبار قد يوهم أنّ هذه هي الصّورة الواحدة للكلالة، لكن اعتبار الحاليّة، يعني: (إنِ امرؤ هلك حالة وجود أخت له فلها النّصف)، بشرط انتفاء الولد، وهذا المعنى أدقّ وأدلّ على وجود حالات أخرى للكلالة، كما ورد في الآية، فكون الواو للحال، وجملة ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ حاليّة، هو الأولى في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾، أي: شقيقة لأب وأمّ، أو غير شقيقة لأب فقط، بقرينة مخالفة نصيبها لنصيب الأخت للأمّ المقصودة في آية الكلالة الأولى، وبقرينة قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾، ولأنَّ الأخ للأمّ لا يرث جميع المال إن لم يكن لأخته للأمّ ولدٌ، إذ ليس له إلّا السُّدس؛ ولأنَّه جُعِلَ أخوها عصبةً، وابن الأمّ لا يكون عصبةً.

النَّكرات دالّة على العموم؛ لوقوعها في سياق الشَّرط:

تعبير قرآنيّ ذو إيجاز رائق بديع

النَّكرات في كلمات: ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾، ﴿وَلَدٞ﴾، ﴿أُخۡتٞ﴾ في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ تفيد العموم؛ لوقوعها في سياق الشَّرط المُفيد للعموم، فهي لا تدلُّ على أشخاص معيَّنين، بل تدلُّ على أجناس مدلولاتها، فليس مقصودًا بها شخص معيَّن، قد هلك؛ ولا أختٌ معيَّنةٌ قد ورِثَت؛ لأنَّ الفُتيا؛ أو حكم الكلالة ليس مقصورًا على السَّائل أو الطّالب للفتيا فقط، فالعِبرة ليست بخصوص اللّفظ، لكنّ بعموم السَّبب، كما يقول أهل الأصول.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/319.

وجوب التّدقيق في عودة الضّمير، لتنويع المعنى واستثمار المفهوم

دور الإيجاز، في تجلية التّطبيق على الكلالة، وإيضاح الدّلالة:

ولمّا قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ علم مِن قوله: ﴿يَرِثُهَآ﴾ أنَّ الأُخت إن توفِّيَت، ولا ولد لها، يرثها أخوها، والأخ هو الوارث في هذه الصُّورة، وهي عكس الّتي قبلها، فالتّقدير: ويرث الأختَ امرؤٌ إن هلكت أخته، ولم يكن لها ولدٌ، وعُلِمَ معنى الإخوة من قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٌ﴾، وهذا إيجازٌ بديعٌ، ومع غاية إيجازه، فهو في غاية الوضوح، فلا يُشكِلُ بأنَّ الأختَ كانَت وارثةً لأخيها، فكيف عاد عليها الضّمير، بأن يرثها أخوها الموروث، وتصير هي موروثةً؛ لأنَّ هذا لا يفرضه عالمٌ بالعربيَّة، وإنَّما يتوهَّم ذلك لو وقع الهلك وصفًا لامرئ؛ بأن قيل: المرءُ الهالكُ يرثه وارثه، وهو يرث وارثه، إن مات وارثه قبله، والفرق بين الاستعمالين رشيق في العربيَّة[(1)].

لـلأخـتـين وما فـوق الاثـنـتين الثُّلثان مِن تركة أخيـهـنَّ الميّت كلالة

ما فائدة قوله: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ مع أنَّ لفظ ﴿كَانَتَا﴾ لا يُفسَّر إلَّا بهذا العدد؟

سُئِلَ الأخفش عن فائدة ذكر العدد في قوله: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ و﴿كَانَتَا﴾ لا يُفسَّر إلَّا بهذا العدد، في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾، فأجاب بقوله: "أفادَتِ العدد العاري عنِ الصّفة؛ لأنَّه يجوز في ﴿كَانَتَا﴾ صغيرتين، أو حرَّتين، أو صالحتين، أو طالحتين، فلمّا قال: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فإذًا إطلاقُ العدد على أيّ وصف كانتا عليه ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾ مِن تركة أخيهما الميّت"[(2)]، والمعنى: "فإن كان لَمَن يموت كلالةً أختان، وما فوق الاثنتين مِنَ الأخوات يكون لهنَّ الثُّلثان مِن تركته فرضًا"[(3)]، قال الخفاجيّ: "وما قيل إنّه ذكر أحد الجزأين لينتقل الذّهن منه إلى الجزء الآخر، غير ظاهر فانظره. قوله: (الضّمير لمن يرث بالأخوّة الخ) جواب سؤال مشهور، وهو أنّ الخبر لا بدّ أن يفيد غير ما يفيده المبتدأ، ولهذا لا يصحّ (سيّد الجارية

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/266.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/445.

مالكها)، وضمير التّثنية دالّ على الاثنينيّة، فلا فائدة في الإخبار باثنتين، وقد دفع بوجوه منها ما ذكره الأخفش من أنّ الأثنينيّة، تدلّ على مجرّد التّعدّد من غير تقييد بكبر وصغر، أو غير ذلك من الأوصاف، فكأنّه قيل إنّهما يستحقّان ما ذكر، بمجرّد التّعدد من غير اعتبار أمر آخر، وهذا مفيد وردّ بأنّ ضمير التّثنية يدلّ على ذلك أيضا"[1].

تغليب المذكّر على المؤنَّث في قوله: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾(2):

حكم العصبات مِنَ البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾ تغليب المذكّر على المؤنَّث، وأصل التَّعبير: وإن كانوا إخوةً وأخواتٍ رجالًا ونساءً، فغلّب المذكّر؛ للاختصار، ولكنّه فسَّر ما في التّغليب من إجمال بقوله: ﴿رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾؛ لمنع اللّبس والتّوهّم، وهذا حكم العصبات مِنَ البنين وبني البنين والإخوة، إِذا اجتمع ذكورهم وإِناثهم، أُعطي الذّكر مثل حظِّ الأنثيين"[3].

تخصيص السّنة لعموم سياق الآية، رفعًا للّبس في الحكم الشّرعيّ:

الإخوة الأشقّاء يحجبون الإخوة لأب حجب إسقاط

حين يكون الميت أخا أو أختا، والورثة عدد من الإخوة والأخوات، ففي هذه الحالة، يقول الفقهاء، بأنّ التّركة تقسّم بينهم للذّكر مثل حظّ الأنثيين، على أنّ ظاهر الآية، يفيد أنّه لا فرق بين الإخوة الأشقّاء والإخوة لأب، في أنّهم يشتركون في التّركة، إذا اجتمعوا، ولكن هذا الظّاهر غير مراد، فقد خصّصت السّنة هذا العموم، فقدّمت الأشقاء على الإخوة لأب. فإذا ما اجتمع الصّنفان حجب الإخوة الأشقّاء الإخوة لأب[4].

---

(1) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 3/208.

(2) التّغليب: "حقيقته إعطاء الشّيء حكم غيره، أو إطلاق لفظه عليهما إجراءً للمُختلفين مجرى المُتّفقين"، ينظر: الزّركشّي، البرهان: 2/302، والتّغليب أنواع، فمنه تغليب المذكّر على المؤنّث، وتغليب المتكلّم على المُخاطَب، والمُخاطَب على الغائب، وتغليب العاقل على غيره، وتغليب المتَّصِف بالشّيء على غير ما لم يَتَّصِف به، وتغليب الأكثر على الأقل، ينظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيَّة، ص: 394.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/427.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/412.

الإيجاز بالحذف، وتعدُّد تقدير المحذوف، وأثره في المعنى:

الاستئناف البيانيّ مراعاة للحركة النّفسيّة للمستمعين

وفي قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ إيجاز بحذف المفعول، تقديره: يبيّن الله لكم حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه الّتي مِن جملتها حكمها، وقوله: ﴿أَن تَضِلُّواْۗ﴾، أي: كراهة أن تضلُّواْ بحذف المضاف، وهذا رأي البصريّين، ورأي الكوفيّين تقدير (اللّام) و(لا)، أي: لئلّا تضلُّوا[1]، والجملة في محلّ نصب على الحال، أو مستأنفة بيانيّة[2]، والثّاني هو المُرجّح؛ لأنّ صاحب الحال غامض، ولأنّ في الاستئناف البيانيّ مراعاة للحركة النّفسيّة للمستمعين، وكأنّه لمّا انتهى من حكم الكلالة استشرفتِ النّفوس لمعرفة سبب العودة للكلالة بالبيان، فلبَّى الخطاب القرآنيّ حاجة النّفوس واستشرافها، فقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾، أي: هذا البيان المتجدّد لحكم الكلالة لكيلا تضلّوا أو تحاروا، وحتّى لا يلتبس أمر الكلالة عليكم، وهذا مِن انسجام النّظم القرآنيّ مع حاجات النّاس وواقعهم.

العدول عنِ الإضمار إلى الإظهار، ودلالته في السّياق:

جملة الفاصلة تأخذ صفة الاستقلال؛ في خصوص الآية وعمومها

وفي قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، عدول عنِ الإضمار إلى الإظهار، بذكر اسم الله الأعظم، الجامع لصفات الكمال مِنَ الجلال والجمال؛ حيث كان الظّاهر أن يُقال: (يُبَيِّن الله لكم وهو بكلّ شيء عَلِيمٌ)؛ وذلك لإضفاء مزيد مِنَ المهابة على الخبر، حيث تأخذ جملة الفاصلة صفة الاستقلال؛ ليتعدّد عطاؤها من جهة عموم العلم، وخصوص هذه الحالة.

التّذييل لتعليل الأحكام بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾:

وقع قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ تذييلًا لتعليل الأحكام الواردة في السّورة، بما فيها حكم الكلالة، والمعنى: والله يعلم مصالح عباده

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/264.

(2) درويش، إعراب القرآن: 2/397.

إيـــــراد شـبـه الجملة شاملة لمعنى (كلّ شيء)

في المبدأ والمعاد، وفيما كلَّفهم به منَ الأحكام، أمَّا إيراد شبه الجملة ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾؛ فلأنَّها صيغة شاملة لمعنى عبارة (كلّ شيء)، كما يدلّ عليه التّعبير بكلمة العموم ﴿بِكُلِّ﴾، والتّنكير في ﴿شَيۡءٍ﴾، فتناول السّياق علمه بما شرع من أحكام، وعلمه بمواقف النّاس من شرائعه، "واللّه (تعالى) عليم بكلّ شيء، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيحاسبكم على أعمالكم، فيجازي المتّبع لشرعه بالثّواب العظيم، ويجازي المخالف له بالعذاب الأليم"[1].

تقسيم التّركة بالأهواء، خروج عن منهج ربّ الأرض والسّماء:

حـرمـان الـوارث مـن حـقّـه في المـيراث، اعتداء على شرع الله

تتضمّن تلك الآية الكريمة، تحذيرًا من أن يقسِّم النّاس التّركة بأهوائهم؛ وذلك بنسبة التّشريع إلى اللّه سبحانه، في ابتداء الآية ونهايتها، فقال سبحانه في بدايتها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾، فنسب القول إليه سبحانه، فلا يحقّ لأحد أن يشرّع لنفسه، أو أن يحكم ويقسّم بهواه، وقال في نهايتها: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، فكان ذلك تحذيرًا لكثير منَ النّاس الّذين يحرمون الأخوات من حقّهم في الميراث، أو الّذين يقسّمون ما يملكون في حياتهم، بغرض حرمان شخص بعينه منَ الميراث بعد وفاتهم، و الواجب تبيين هذه المعاني للنّاس، حتّى لا يضلّوا أو يحيدوا عمّا شرعه اللّه.

دلالة اختيار اسم الله في قوله ﴿عَلِيمُۢ﴾، دون غيره منَ الأسماء الحسنى:

الجهر والسّرّ عـنـد الـلـه سواسية، فلا تـخـفـى عنه خافية

اختيار اسم اللّه العليم دون غيره منَ الأسماء الحسنى، يدلُّ على كمال العلم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، إذْ بهذين الاسمين الجليلين من أسماء اللّه تعالى الحسنى، تثبُتُ الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والجلالة والعزَّة، ولذلك وجب على العبد أن يكون مطيعًا لأوامر خالقه ونواهيه، منقادًا لكلّ التّكاليف[2]، كما أنَّ في التَّعبير

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/413.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/122.

باسم ﴿عَلِيمٌ﴾ ترهيبًا مِن مخالفته سبحانه ووعيدًا؛ فهو سبحانه الّذي لا يخفى عليه أَمر مَن خالف بقول أو فعل، أو نيَّة، فالجهر والسّرّ عنده سبحانه سواء.

حكمة تأُخير آية الكلالة إلى نهاية السّورة؛ لتعلّقها بتمام ما سلف:

تناسب الآيات بلاغة وجيهة، وحكمة رشيدة

بيَّن صاحب "نظم الدُّرر" سرَّ تأخير هذه الآية الكريمة، إلى نهاية السّورة بقوله: "والحاصل أنَّ تأخير هذه الآية إلى هنا لَما تقدَّم من أنَّ تفريق القول فيما تأباه النُّفوس، وإلقاءه شيئًا فشيئًا باللُّطف والتَّدريج، أدعى لقبوله، وللإشارة إلى شدَّة الاهتمام بأمر الفرائض، بجعل الكلام فيها في جميع السُّورة: أوَّلها وأثنائها وآخرها، والتَّخويف مِن أن يكون حالهم كحال المنافقين في إضلال أهل الكتاب لهم؛ بإلقاء الشُّبهة وأخذهم منَ الموضع الَّذي تهواه نفوسهم، ومضَت عليه أوائلهم، وأُشربته قلوبهم، والتَّرهيب مِن أن يكونوا مثلهم في الإيمان ببعضٍ والكفر ببعضٍ؛ فيؤدّيهم ذلك إلى إكمال الكفر؛ لأنَّ الدّين لا يتجزَّأ بل مَن كفر بشيءٍ منه كفر به جميعه، ومِن هنا ظهرَت مناسبة آخر هذه السُّورة لأوَّلها؛ لأنَّ أوَّلها مشيرٌ إلى أنَّ النّاس كلَّهم كشيء واحد، وذلك يقتضي عدم الفرق بينهم إلّا فيما شرّعه اللَّه، وآخرُها مشيرٌ إلى ذلك بالتَّسوية بين النّساء والرّجال في مُطلق التَّوريث بقرب الأرحام، وإنِ اختلفتِ الأنصِباء"[1]، وقد اختُتِمَت سورة النّساء بذكر الأموال وأحكام الميراث، كما افتُتِحَت بذلك؛ ليحصل التّوافق بين بدايتها وخاتمتها، قال البقاعيّ: "وما أشدّ مناسبة ختامها بإحاطة العلم، لما دلّ عليه أوّلها من تمام القدرة، فكان آخرها دليلاً على أوّلها، لأنّ تمام العلم مستلزم لشمول القدرة"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/356.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/356.

سُورَةُ المَائِدَةِ

سُورَةُ المَائِدَةِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

سورة المائدة مدنيّة باتّفاق العلماء[1]، ورُوي أنّها نزلت منصرفَ النبيّ ﷺ من الحديبية، بعد سورة المُمتَحنة، فيكون نزولُها بعد الحديبية بمدّة؛ لأنّ سورة الممتحنة نزلت بعد رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة من صلح الحديبية، وقد جاءته المؤمناتُ مهاجراتٍ، وطلب منه المشركون إرجاعهنّ إليهم؛ عملاً بشروط الصّلح، وكانت هذه الفترة من الأهميّة بمكان؛ لأجل استكمال تشريعات الإسلام المتّصلة بوجود الأمّة وهويتها[2].

وبعض الأحداث الواردة في السّيرة النّبويّة تشير إلى أنّ بعضَ سورة المائدة كان نزوله قبل معركة بدر، فقد أخرج البخاريّ عن عبد الله، قال: «قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24] ولكنِ امْضِ ونحن معك، فكأنّه سُرّي عن رسول الله ﷺ»[3].

وقد اختُلف في عدّ آيها؛ "فهي مئة وعشرون آية في الكوفيّ، وعشرون وآيتان في المدنِيَّيْن والمكيّ والشاميّ، وعشرون وثلاث في البصريّ"[4]، وخلافهم في ذلك في ثلاثة مواضع، حيث عدّ الشاميّ والبصريّ قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: 15] فاصلَتَيْن، وعدّ البصريّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ [المائدة: 23] فاصلةً[5].

---

(1) القول المُشتهر في مدنيّة السّور القرآنيّة محمول على ما نزل بعد الهجرة؛ فالسّورة مدنيّة بهذا الاعتبار، ولا يضرّ مدنيّتَها ما أورده الإمام البخاريّ في باب قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 3] بسنده عن عمر بن الخطّاب ﷺ قال: «إني لأعلم حيث نزلت وأين نزلت وأين رسول الله - ﷺ - حين أنزلت يوم عرفة» أخرجه: البخاري، الجامع المسند الصّحيح المختصر صحيح البخاريّ، حديث رقم: (4606).

ويُنظر: حكاية الإجماع على مدنية السورة: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/143، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/30.

(2) البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: 2/104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/69.

(3) البخاري: صحيح البخاري، التفسير، قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]: 6/51: الحديث رقم: (4609).

(4) الداني، البيان في عدّ آيِ القرآن: 1/149.

(5) القاضي، نفائس البيان شرح الفرائد الحسان، ص: 34.

أسماء السورة الكريمة:

ولسورة المائدة عدّة أسماء، وهي:

1) المائدة: لما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «آخر سورة أنزلت المائدةُ»[1]. وروي أيضًا عن جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال: قلت نعم. قالت: فإنّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه»[2].

2) العقود: وهو من أشهر أسمائها الاجتهادية، قال السيوطي: "والمائدة تسمى - أيضًا - العقود"[3]. حتّى إنّه قد قيل: إنّ هذه التّسميةَ أدلُّ على موضوع السّورة الواسع من تسمية المائدة؛ لأنّ قضايا العقود تشمل أغلب السورة، بخلاف قصة المائدة التي لم تستغرق سوى أربعِ آيات.

3) المنقذَة: لأنّها تنقِذُ صاحبها من أيدي ملائكة العذابِ[4].

4) الأخيار: وهو من أسمائها الاجتهاديّة، وقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم أنّهم كانوا يسمّون سورة المائدة بسورة (الأخيار)[5]؛ وذلك لأنّ مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتابُ، ودلّ عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكرًا لنعمه واستدفاعًا لنقمة، والالتزام بهذه العقود من شيم الأخيار، ولذا سمّيت بهذا الاسم[6].

5) الأحبار: لورود ذكر الأحبار فيها دون غيرها في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: 44]، وهم العلماء، جمع حَبْرٍ وحِبْر بالفتح والكسر[7].

سبب تسمية السّورة باسم (المائدة):

وسمّيت السورة بهذا الاسم؛ لأنّ قصّة المائدة من الموضوعات التي تفرّدت بها السورة،

(1) الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن، ومن سورة المائدة، 5/150: رقم الحديث: (3063).
(2) النَّسائي، السنن الكبرى، التفسير، اليوم أكملت لكم دينكم، 10/79: الحديث رقم: (11073). وينظر: أبو عبيد، فضائل القرآن، ص: 239.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/192.
(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1827، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/143.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/69.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 6/2.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 4/258.

تــوالي الإنـعـام وبيـان الأحكـام مــائــدة الـلـه لــعـــبــاده، مدعاة لمناقشة الحساب لكلّ من يرتاب

وهي أعجبُ ما ذكر فيها؛ لاشتمالها على آياتٍ كثيرة ولُطْفٍ عظيم لمن آمن، وعُنفٍ شديد لمن كفر، فهو أعظم دواعي قَبول التّكاليف، كما أنّ مضمون القصّة يبيّن أنّ من زاغ عن الطّمأنينَةِ بعد الكشف الشّافي والإنعام الوافي نوقِش الحساب؛ فأخذه العذاب[1].

من هنا؛ جاءت السّورة معتنية بمُحاجّة أهل الكتاب في نقضهم العهود، وبالردّ على مزاعمهم، وتفنيد شُبهِهم وتصحيح تصوّرهم الاعتقاديّ، وبيان ما وصلوا إليه من تضييع الأمانة، ونسيان العهد، كيف وقد أَرْصَدَ اللّه تعالى لهم قولَه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]، ثمّ – وفي المقابل – بيّن اللّه تعالى جملة من الأحكام التي شرعها، مما امتنّ اللّه بها على عباده المؤمنين، كي يتحقّق لهم إكمال الدين وإتمام النعمة بوفائهم بالعهد.

خَصائصُ السّورَة الموضوعيّةِ والأسلوبية:

امتازت سورة المائدة عن غيرها من سور القرآن الكريم بخصائص أسلوبيّة وأخرى موضوعيّة على النحو الآتي:

خصائص السورة الموضوعيّة:

تقرير مسائلَ في أصول الدّين وفروعِه

انفردت السورة الكريمة بتقرير مسائلَ في أصول الدّين وفروعِه، نحوَ بيانِ إكمال اللّه ﷻ للمؤمنين دينَهمُ الّذي ارْتضى لهم، وإتمامِ نعمته عليهم بالإسلام، والامتنانِ على النبيّ ﷺ بالعصمة من أذى النّاس، لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3].

أحكام التشريع

كما حَفلت السّورة الكريمة بجملة من الأحكام التشريعيّة، ما دعا معه ابن تيمية إلى وصف سورة المائدة بقوله: "سورة المائدة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/2، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/3.

أجمعُ سورة في القرآن لفروع الشرائع من التّحليل والتّحريم والأمر والنهي"[1].

عصمة الشريعة الإسلامية

واختصّت سورة المائدة ببيان هَيْمنة الكتاب على غيره، وبعصمة النبيّ ﷺ من القتل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

جملة من أحكام وموضوعات لم ترد في غير سورة المائدة

وانفردت السورة بجملة من الأحكام التي لم تَرِدْ في غيرها من سور القرآن الكريم، نحو تحريم جملة من الأطعمة، كالمنخنقة والموقوذة والمترديّة والنّطيحة وغيرها، والكشف عن حكم ما تمسكه الجوارح المعلّمة، كما وانفردت بذكر الأحكام المتعلّقة بطعام أهل الكتاب ونكاح المحصنات منهم، وآية الوضوء، والتّيمّم، وبتقرير حدّ السرقة، وأحكام القصاص فيما دون النّفس، والأذان، وحكم ما ذُبح على النّصب، وحكم الاستقسام بالأزلام، وببيان حكم صيد المُحْرِم، وحكم الوصيّة، وعادات أهل الجاهليّة في التّعامل مع الإبل، وانفردت السورة الكريمة بذكر مشهد حِواريّ فريد في آخر السّورة الكريمة بين الله ﷻ والمسيح عليه السلام.

ومن الموضوعات الّتي امتازت بها سورة المائدة: حديثُها عن العهود والمواثيق الواردة في ستة مواضع من السورة[2]، وكذلك تناولُها لقضايا الحكم، سواءً المسندة منها إلى النبيّ[3] عليه السلام، أو المتعلّقةُ بقضايا تطبيق حكم الله ﷻ على وجه العموم، وذلك في سبعة مواضع من السورة الكريمة[4].

وانفردت السورة كذلك بذكر آيات الحاكميّة الثلاث: ﴿وَمَن لَّمْ

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/199.

(2) آية: 1، 7، 12، 13، 14، 70 من سورة المائدة.

(3) آية 42 ثلاث مرات، آية 43، آية 48، آية 49 من سورة المائدة.

(4) آية 45، 44، 43، 1، آية 47 مرتان، آية 95 من سورة المائدة.

﴿يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 44][1]، إذ إنّ حاكميّة الله تعالى اقْتضَتِ الوفاءَ بعهوده ومواثيقه، وإنّ الخروج عنها يمثّل نقضًا وعدم وفاء لها.

فضلًا عن انفراد سورة المائدة بذكر مشاهد قصصيّة لم تَرِدْ في غيرها من سور القرآن الكريم، مثل: قصّة بني إسرائيل الّذين رفضوا دخول الأرضِ المُقَدَّسةِ، فكان نُكولُهُم بمثابة الإحجام في موضع الإقدام، فلم يستجيبوا لطلب موسى عليه السلام لهم بدخولها، ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21] ، وقصة النُّكول لم تذكر إلا في سورة المائدة.

وكذلك قصةُ ابنيّ آدمَ؛ فجاءت هذه القِصّة في مَعْرِضِ بيان أنّ بني إسرائيل أشدّ النّاس إسرافًا في القتل، وأكثرهم فسادًا في الأرض، لا سيّما وقد خُتِمت القصة بتعقيب الله سبحانه وتعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: 32] .

كما وانفردت السورة الكريمة بعرض قصة المائدة التي طلب فيها الحواريّون من عيسى عليه السلام سؤال ربه إنزال مائدة من السماء، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 112-115]

وكلّ ما ذكر من خصائصَ موضوعيّةٍ للسّورة يتظافر بكلّ زمام إلى مائدة عطايا الله تعالى، وإلى قيام حجّته على عباده ليظهر من خلالها خُلوص قصّة المائدة لموضعها، ووفائها بنظمها البديع في سورتها.

❖ الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسّورة:

احتوت سورةُ المائدة على ستّة عشر نداءً خوطب بها المؤمنون دون غيرهم؛ فهم أسرع

(1) الآيات: 44، 45، 47.

النّاس استجابةً لله ﷻ، وأكملُ النّاس انقيادًا لحكم الله ﷻ، وأشرح النّاس صدرًا بخطابه.

النّداءات الإلهية للمؤمنين

وقد شكّلت هذه النّداءات نسيجًا متكاملاً من التّنبيهات للمكلَّف، فهي بمثابةِ وصيّة إلهيّة بين العبد وربّه، حيث رسمت له طريقًا متكاملًا في مسيرته التكوينيّة، فكلّ نداء يعدّ تنبيهًا يقفُ المكلّف عنده، كي يتعرّف على ما فيه وما يرسمه له، بل يمكنُ القولُ بأنّ كلّ نداء منها قد اشتمل على أمرٍ، أو نهيٍ، أو تشريعٍ، أو توجيهٍ، ممّا يؤكّد عنايةَ السّورة الكريمة بتربية المؤمنين، والأخذ بنواصيهم نحوَ المنهجِ القويم؛ بغية إعدادهم لحَمل أمانة التّكليف وعِمارة الأرض.

نداء الله تعالى محمّدًا ﷺ تسلية له وتثبيتًا على منهج الحق

وممّا يجدر التنبّهُ إليهِ عند تتّبع الآيات المفتتحة بالنّداء في السّورة الكريمة، تشريف الله ﷻ لرسوله الكريم محمّد ﷺ، إذ ناداه بوصف الرّسالة في موضعيْن من سورة المائدة، لم يرد في غيرها من سور القرآن الكريم، حيث ورد الموضع الأوّل عند قوله تعالى:

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]، وذلك في سياق التّسْرِيَةِ عن النبيّ ﷺ وشرح صدره الكريم، ممّا عسى أن يُحزنه من طَيْشِ اليهود واستخفافهم، ونفاقِ المنافقين وسوء طواياهم(1)، وأمّا الموضع الثاني فهو قوله تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/194 - 195.

67 ، وقد جاء في سياق امْتِنان الله ﷻ على رسوله محمّد ﷺ بأنّ: "آمَنَهُ من مَكْرِ اليهود والنصارى، وأَمَرَه بإظهار التّبليغ من غير مبالاة منه بهم"(1).

وممّا يذكر كذلك من خصائص السورة الأسلوبيّة: انفرادها بجملة من الألفاظ التي لم ترد مادّتها اللّغويّة في القرآن الكريم سوى في سورة المائدة، وقد وُظّفت الانفرادات اللّفظيّة في السورة الكريمة لتحقيق غرضَيْن رئيسَيْن:

التشريع حقٌّ خالص لله تعالى

أولًا: تقرير حقّ الله ﷻ الخالص في التشريع، حيث عبّر بالألفاظ الفريدة نحوُ: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ [المائدة: 3] و﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: 3]، و﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: 3]، و﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3] في سياق الكشف عمّا يحِلّ ويَحْرُمُ من المطعومات، حيث كان أهل الجاهليّة يستحلّونها ولا يرون في تناولها أيَّ حرجٍ، وأمّا لفظ: ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3]، فقد جاء مُكمّلًا لما شُرع مِن تحريم هذه الأصناف ؛ فعُبّر به عما جاز أكله ممّا لَحِقَتْه التّذكية قبل موته.

كما ورد لفظ: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: 94]، في سياق اختبار المؤمنين بإرسال شيء من الصّيد يسهل عليهم أخذ بعضه بأيديهم وسلاحهم ؛ ليعلم ﷻ من يخافه منهم غائبا عن نظر النّاس، من غير مراء ولا رياء، وإنّما خوفًا من اللّه عزّوجلّ، وطاعةً له في سرّه.

وانفردت السورة كذلك بلفظ ﴿سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: 103]، حيث وردت اللفظة في سياق "بيان ضلال أهل الجاهليّة فيما حرّموه على أنفسهم، وما شرعوه لها بغير إذنٍ من ربّهم، وما قلّد فيه بعضُهم بعضًا على جهلهم، إذ جعلوا الدّابّة مُنْفلَتةً عن كلّ قيدٍ، هائمةً في المرعى كيفما تشاء ... فلا تُردّ عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن"(2).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/401.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: 1/431.

إيقاف الخلق عند حدود الله تعالى:

وأمّا الغرض الثّاني المستلهمُ مِن تَفرُّد سورة المائدة ببعض الألفاظ فهو الكشف عن منهج القرآن الكريم في تربية المؤمنين، وتوجيههم، نحو الوقوف عند حدود اللّه ﷻ واجتناب نواهيه.

جملة من ألفاظٍ انفردت بها السورة:

اللفظ: ﴿يَتِيهُونَ﴾ [المائدة: 26]، فقد جاء في سياق ذمّ اللّه ﷻ لبني إسرائيل، وإنزال العقوبة بهم جرّاء عصيانهم للّه ﷻ، ومخالفتهم لأمر نبيّ اللّه موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدَّسة، بل ونكوصهم على أعقابهم؛ فحرّم اللّه ﷻ عليهم دخولها أربعين سنة، وكتب عليهم التِّيه(1).

كما وعبّر بلفظ ﴿يَبۡحَثُ﴾ [المائدة: 31] في سياق الحديث عن الجريمة وبواعثها في النّفس البشرية، والكشف عن بشاعتها وضرورة الوقوف في وجهها، والعقاب لفاعلها، ومقاومة دوافعها الّتي تحرّك النّفس للإقدام عليها.

وانفردت سورة المائدة بلفظ ﴿يُنفَوۡاْ﴾ [المائدة: 33]، حيث جاءت هذه المفردة في سياق الحديث عن حدّ الحِرابة، فعُبّر بها عن إحدى العقوبات التي تَقرّرَ وقوعُها على من يحارب اللّه ﷻ ورسوله الكريم، ويسعى في الأرض فسادًا، وذلك إمّا بالقتل أو الصّلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النّفي من الأرض، حيث فُوّض لأولي الأمر الاجتهادُ فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

وانفردت السّورة الكريمة بلفظ ﴿وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48]، والّذي ورد في سياق أمر اللّه ﷻ لنبيه محمّد ﷺ بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل اللّه ﷻ، وألّا يتبع في ذلك أهواءهم؛ فقد جعل اللّه ﷻ لكلّ أمّة شِرعةً ومنهاجًا؛ فأمّا الشريعة "فما جاء من أحكام تكليفيّة يجب العمل بها أمرًا ونهيًا وندبًا وإباحةً، وأمّا المنهاج فهو الطريق الواضح لتنفيذها وبيان مجملها وتفصيل أحكامها الجزئيّة(2)".

(1) التّيه على معنييه: إن أريد به المعنى الحقيقي من الذهاب في الأرض إلى غير مقصد معلوم، أو قُصِد به المعنى المجازيُّ، نحوَ افتراق الكلمة وقلّة اجتماع الرأي، ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ص: 531.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2227.

وانفردت السورة الكريمة بلفظي ﴿قِسِّيسِينَ﴾ [المائدة: 82] و﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: 63/44]، وذلك في سياق عرض القرآن الكريم لأحوالِ أهل الكتاب في عداوتهم للمؤمنين أو محبتّهم لهم، ومقدار تلك المحبة والعداوة، وبيّنت بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأحبارًا يعرفون حقيقة دينهم ؛ فلا يستكبرون على الحق حين يتبيّن لهم .

وانفردت السورة بذكر لفظ ﴿ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: 95]: فقد ورد مرتين في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: 95]، وقوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]. ولم ترد هذه التسمية إلا في سورة المائدة.

وانفردت السورة ببعض الصيغ والاشتقاقات التي تفرّدت بها عن غيرها من السور حتّى لو شاركتها في بعض اشتقاقاتها مثل: ﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، ﴿ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: 2]، ﴿غُرَابٗا﴾ [المائدة: 31]، ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ [المائدة: 42]، ﴿شَنَـَٔانُ﴾ [المائدة: 2]، ﴿كَفَّارَةٞ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَٱلۡأَنفَ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَٱلسِّنَّ﴾ [المائدة: 45]، ﴿ءَآمِّينَ﴾ [المائدة: 2] وغيرها.

جملة من التراكيب التي انفردت بها السورة:

وقد انفردت سورة المائدة بجملة من التراكيب التي لم ترد في غيرها من السور القرآنية، نحو تركيب: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] والذي ورد في موضعين من سورة المائدة [1]، وذلك في سياق ذمّ اليهود والنّصارى بسبب نقضهم العهود التي أُخِذت عليهم من اللّه ﷻ، وبيان ما ترتّب على ذلك من إنزال العقوبة بهم في الدنيا وتوعدهم إيّاها في الآخرة.

كما وانفردت سورة المائدة بتركيب ﴿ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، والذي ورد في سياق أمر اللّه ﷻ بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، وذلك عقيب تذكيرهم بما أنعم اللّه عزوجل عليهم من النعم الوفيرة.

وانفردت سورة المائدة كذلك بتركيب ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [المائدة: 50]، حيث جاء المركّب في سياق التوبيخ لبني إسرائيل لإعراضهم عن حكم اللّه ﷻ، وتمسكهم بحكم الجاهلية المبني على محض الجهل وصريح الهوى.

(1) وذلك في قول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: 13]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] .

وسورة المائدة هي السورة الوحيدة التي ورد فيها تركيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41].

وهي السورة الوحيدة التي ورد فيها تركيب (لومة لائم)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54].

كما وانفردت سورة المائدة بقوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: 105] وذلك في سياق أمر الله ﷻ المؤمنين الاهتمام بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، وما يترتّب على ذلك من القيام بإرشاد الناس وتعليمهم ؛ فإنّهم إن فعلوا ذلك لن يضرّهم ضلال من ضلّ عن الصّراط السويّ.

وتفرّدت سورة المائدة بأسلوب الرفع أثناء الحديث عن (الصابئين)، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: 69]، بخلاف سورتي البقرة والحجّ.

❁ المحور الذي تدور حوله موضوعات سورة المائدة:

تعدّدت اتّجاهات العلماء في تقرير المحور الذي تدور عليه سورة المائدة، ولكنّها على تنوّعها تدور حول الوفاء والتّمام، وذلك من خلال الوفاء بالعقود وبيان مكمّلات الدِّين من أحكام الحلال والحرام، قال الزركشيّ: " وأمّا سورة المائدة فسورة العقود، وبهنّ تمام الشرائع قالوا، وبها تمّ الدين، فهي سورة التكميل "[1].

فمحور سورة المائدة يدور حول إرساء قواعد المنهج الربانيّ في بناء المجتمع المسلم، الذي تكون فيه الحاكميّة للّه ﷻ وحده، فيدرك فيه المرء دوره في الالتزام بعهوده ومواثيقه، والقيام بواجبه في تبليغ دعوة الله ﷻ والشهود بذلك على الأمم، ولذلك فالسورة قامت على حثّ المؤمنين على الوفاء بكافّة عهودهم العقديّة والتشريعيّة، ونَعَتَ على أهل الكتاب نقضَهم المتكرّر لهذه العهود عبر تاريخهم الطويل مع أنبيائهم.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/261 - 262 والسيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 77.

❁ المناسبات بين سورة المائدة وجاراتها من السور:

تقع سورة المائدة بين سورتيّ النّساء والأنعام، فترتيبها في المصحف الشريف الخامسة.

حيث جاءت السورة الكريمة عقيب سورة النّساء التي تناولت مقوّمات التّشريع الإسلاميّ الصالح لتدبير شؤون الإنسانيّة جمعاء، من خلال عناصره الثلاثة: المُشرّع، والتشريع، والمكلّفين، فأكثرت السورة من ذكر صفات هذا المُشرّع القائمة على العلم والحكمة والمغفرة والرحمة، والعدل، ونفي الظلم مطلقًا وغيرها من الصفات الجليلة التي ذكرتها السورة وبيّنت مقاصد الشّريعة الخمسة، التي تكفل تحقيق مطالب الإنسان في كلّ زمان ومكان.

لأجل ذلك فإن سورة النساء قد أشارت لجملة من العقود الصريحة والضّمنية، فالصريح منها نحو: عقد النكاح، وعقد الصداق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33] ، وكذلك عقد المعاهدة والأمان في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾ [النساء: 92].

وأما الضمنيّ نحو: عقد الوصية، والوديعة والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك مما هو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58].

فناسب أن يُعقب ذلك بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود التي فُرغ من ذكرها في سورة النساء، وكأن السورتين قد اتحدتا في تقرير الفروع الحكمية[1].

كما واشتملت السورتان الكريمتان على أوجه من محاجّة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وطائفة من الوصايا العامة، نحو: القيام بالقسط، والشهادة بالعدل، من غير محاباة لأحد أو انحياز لطرف دون سواه، وذلك في قول الحق ﷻ في سورة النساء: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ

(1) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 95.

مشتركات موضوعية بين سورتي النساء والمائدة

تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ [النساء: 135]، وقوله ﷻ في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: 8] .

وأمّا ما يتعلّق بباب التشريع، فإنّ السورتيْن الكريمتيْن قد تعرّضتا لقضايا الحكم بما أنزل الله، ففي سورة النّساء قال الله سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ [النساء: 105] ، وأمّا في سورة المائدة فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: 44-45]، بل إنّ السّورتين الكريمتين قد تعانقتا في نفي صفة الإيمان عن المحكوم الذي يأنف عن الإذعان لحكم الله ﷻ، ويتولّى عنه ويرفض قبوله، فقد قال الله عزوجل في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ [النساء: 65]، وقال ﷻ في سورة المائدة: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ [المائدة: 43].

ارتباط سورة المائدة بسورة الأنعام

وترتبط سورة المائدة بسورة الأنعام بما تعرّضَت له من حقيقة الألوهية وما تقتضيه من إفراد العبودية لله ﷻ؛ وأنّه وحده سبحانه من له الحكم والتشريع، وبالمجمل فسورة الأنعام تدور حول

الاحتجاج لأصول الدين، وتقرير عقيدة الإسلام، ونقض عقائد الشرك وبيان فسادها، والرد على شُبه أصحابها.

فضلًا عن عناية كلا السورتيْن الكريمتيْن بتقرير أصول العقيدة، والردّ على شبه الكافرين وتفنيد مزاعمهم؛ فسورة المائدة معظمها في محاجّة أهل الكتاب، وسورة الأنعام معظمها - بل كلّها - في محاجّة المشركين.

ولمّا كان من مقصود سورة المائدة إبطال مزاعم النصارى في تأليه عيسى عليه السلام، ناسب أن تُعَقّب سورة المائدة بسورة الأنعام التي يدور قطب رحاها على إثبات الصانع وإرساء قواعد التوحيد ودعائم دلائله[1].

كما أنّ كلا السورتين قد تعرضتا لذكر أحكام الأطعمة المحرمة، بيد أنّ سورة المائدة قد فصّلت في ذلك، بينما أتت سورة الأنعام على ذكر الأطعمة المحرّمة على وجه الإجمال.

وممّا يجدر التنبّه إليه في هذا المقام اشتراك السورتيْن الكريمتيْن في عرض مشاهد من يوم الحشر.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/73.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

افتُتِحَتِ السّورة الكريمة بنداءٍ عامّ للمؤمنين المتّبعين منهاج رسول ربّ العالمين ليوفوا بالعقود، ولِيَقفوا عند حدود الشّرع وأحكامه، المقضيّةِ بإرادته وعلمه، بعد أنْ قرّر في آخر تذييل وترصيع جميل، قولَه الجليل: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النّساء: 176] ففَصَلَ بها الحقُّ سبحانه بين السّورتين في رَويّ عزيز غير معهود في سورة النساء.

وهذا فيه حسن اختتام لسورة النّساء، وفيه براعة تسليم وجمال توطيءٍ إلى سورة احتوت أحكامًا تشريعيّةٍ وضعها الربّ العليم بكل شيء، وقد تكرّر جذر (علم) في سورة المائدة سبعًا وعشرين مرة بصيغ متعدّدة، ممّا يدلّ على أهميّة العلم لأهله إن انتفعوا به.

وتتجلّى براعة التسليم لما بين موضوعات السورتين من انسجام، - وقد ذكر قبل في تناسب السورتين آنفًا - ، ومن ذلك أنّ سورة النّساء في خواتيمها قرّرت الاعتصام باللّه تعالى بما جاء من عنده من بُرهانٍ ونور مبين، وأنّ سورة المائدة في مُفتَتَحِها استكملت ذلك ببيان سبيل تحقيق ذلك الاعتصام، وهو الوفاء.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡفُواْ﴾: وَفَى وأَوفَى، فهو وَفيٌّ، ومن مشتقاته الوفاء وهو: إتمامُ العهد، وإكمالُ الشَّرط. ويقولون: أوفيتُكَ الشَّيءَ، إذا قضَيتَه إيَّاه وافيًا، وتوفَّيتُ الشَّيء واستوفَيتُه، إذا أخَذتَه كلَّه حتَّى لم تَترُك منه شيئًا، ومنه يُقالُ للميِّت: توفَّاه اللّه، والوافي: الّذي بلغ التّمام. يُقال: درهم وافٍ، وكيل وَافٍ، وأَوفَيتُ الكيل والوزن، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]. والقرآن جاء بأوفى، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76]،

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: 177]، ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: 7]، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 111][1].

2) ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: البهيمة: كلّ ذات أربع في البرّ والبحر. وقِيل: ما لا نطق له، وذلك لَمَا في صوته مِنَ الإبهام.. فالبهيمة شاملة للأنعام وغيرها، فمن ثمّ حسُنت إضافتها للأنعام؛ لإفادة البيان كشجر الأراك. وأصل المادّة الدّلالة على عدم المسموع، لَمَا في ذلك الشّيء مِنَ الاستغلاق، والشّيء المبهم: كلّ ما عسر إدراكه على الحاسّة إن كان محسوسًا، وعلى الفهم إن كان معقولاً، وأبهمتُ الشّيء، أي: جعلته مبهمًا، وأبهمتُ الباب: أغلقته إغلاقًا لا يُهتدى لفتحه، ومنه اللّيل البهيم لشدّة سواده؛ وذلك أنّه قد أبهم أمره لظلمته، أو لأنّه يبهم ما يعرض فيه فلا يدرك[2]، والجمع: بهائم، و﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: هي الإبل والنَّعم خاصّة بالإبل والبقروالغنم والجواميس، والمعنى المراد: أُحِلَّ لكم أكل البهيمة مِنَ الأنعام.

3) ﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾: العَقدُ لغة: الجمع بين الشَّيئين بما يَعسُر انفصال أحدهما عنِ الآخر، كعقدة الحبل بالحبل، ثمّ يسمّى العهد، وما يؤكّده النّاس بينهم مِنَ الأمانات والمواثيق عقدًا لإحكامه. والعَقدُ: الضَّمان، والعهد، والجمل المُوَثَّق الظَّهر[3]، فالعهد أعمّ مِنَ العقد؛ لأنّ العقد التزام على سبيل الإحكام، والعهد فيه إلزام، وفيه التزام على سبيل الإحكام، "خَاطب اللّه - جلّ وعزّ - الْمُؤمنِينَ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ الَّتِي عقدهَا عَلَيْهِم والعقود الَّتِي يَعقدها بعضُهم على بعضٍ، على مَا يُوجِبهُ الدِّين. قَالَ: والعُقود: العهود، واحدُها عَقْد، وَهِي أوكدُ العهود. يُقَال: عهِدتُ إِلَى فلانٍ فِي كَذَا وَكَذَا، فتأويله ألزمتُه ذَلِك، فَإِذا قلت: عاقدتُه أَو عَقَدتُ عَلَيْه، فتأويله أَنَّك ألزمته ذَلِك باستيثاق"[4].

4) ﴿يُتۡلَىٰ﴾: يُقرأ عليكم في القرآن ممَّا حُرِّم عليكم، وأنشد الفرّاء:

بَشَرْتُ عِيالي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً *** أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يُتلَى كتابُها[5].

قالَ الرّاغبُ: "التِّلاوَةُ تَخْتَص باتّباعِ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنْزَلَةِ تارَةً بالقِراءَةِ، وتارَةً بالارْتِسامِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وفى).
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بهم).
(3) الزَّجّاج: معاني القرآن: 2/13، والفيروزابادي، القاموس المحيط، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، الجوهريّ: الصّحاح: (عقد).
(4) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: 1/134.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 2/128.

لَمَا فيه من أَمْرٍ ونَهْيٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أَو مَا يُتَوهَّمُ فِيهِ ذلِكَ، وَهُوَ أَخَصُّ مِن القِراءَةِ، فكلُّ تِلاَوَةٍ قِراءَةٌ وليس كلّ قراءة تلاوة"[1]، والمعنى: "﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾: إلّا ما حرم ما يتلى عليكم من القرآن، وإلّا ما يتلى عليكم آية تحريمه"[2].

5) ﴿ٱلصَّيۡدِ﴾: قال الرَّاغب: "الصَّيدُ: مصدر صاد، وهو تناول ما يظفر به ممّا كان ممتنعًا، وفي الشّرع: تناول الحيوانات الممتنعة، ما لم يكن مملوكًا، والمتناول منه ما كان حلالًا، وقد يسمّى المَصِيدُ صيداً، بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [المائدة: 96]، أي: اصطياد ما في البحر، وأمّا قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ [المائدة: 95]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [المائدة: 2]، وقوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾، فإنّ الصَّيد في هذه المَواضِع مختصّ بما يؤكل لحمه، فيما قال بدلالة ما رُوِيَ: (خمسة يقتلهنّ المحرم في الحلّ والحرم: الحيّة والعقرب والفأرة والذّئب والكلب العقور"[3]، فهذه الأشياء تحدّد الأشياء المحرّمة مطلقًا، وما عداها حلال، لكن صيدها ممتنع في الحرم.

6) ﴿حُرُمٌۗ﴾: وحُرُم جمع حرام، وهو المُحرِم بالحَجِّ، ويُقال: "أَحرَمَ الرَّجُلُ بالحجّ؛ لأنَّه يَحرُمُ عليه ما كان حلالًا له منَ الصَّيد والنّساء وغير ذلك. وأحرَمَ الرَّجُلُ: دخل في الشَّهر الحرام، قال الرّاعي النّميريّ:

قَتَلُوا ابنَ عفَّانَ الخَلِيفَةَ مُحْرِمًا *** فمضى ولَم أرَ مِثلَهُ مَقتولا"[4].

7) ﴿يَحۡكُمُ﴾: حَكَمَ يحكُم حُكمًا: قضى، وفَصَل في الأمر فهو حاكِم، وحَكَّمنا فُلاناً أمرَنا: أي: يحكُمُ بيننا. وحاكَمناه إلى اللّه: دَعَوناه إلى حُكم اللّه، وكلُّ شيء مَنَعْتَه من الفَساد، فقد [حَكَمْتَهُ] وحَكَّمته وأحكَمْتَه، قال جرير:

أبني حَنيفةَ أَحكِمُوا سُفَهاءكُم *** إنّي أخافُ عليكُمُ أن أغْضَبا[5].

---

(1) الرّاغب: المفردات: (تلو).

(2) الأبياريّ: الموسوعة القرآنية: 9/364.

(3) الحديث عن عائشة عنِ النّبي ﷺ، قال: «خمس فواسق يُقتلن في الحلّ والحرم: الحيّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا»، مسلم، الحديث رقم: (1198)، وينظر: الرّاغب، المفردات: (صيد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).

(5) ديوان جرير: 1/466، وكذلك: الخليل، العين: (حكم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الأمر بالوفاء بالعقود، مع الله والعباد، التزامًا بما هدى، وانتهاءً عمّا نهى

يا معشر المؤمنين الّذين صدَّقوا باللّه وبرسوله، وفُّواْ بما عاهدتم عليه ربّكم منَ الإيمان والطّاعة، والامتثال لما شرع لكم، وبما عاهدتم عليه النّاس منَ المواثيق و العهود الدّوليّة، وعقود النّكاح والبيع وسائر المعاملات، والتزموا بما أحلّ اللّه لكم، وبما حرّم منَ المطعومات والمشروبات ممّا جاء منصوصًا عليه في هذه السّورة الكريمة، ولا تحلُّوا ولا تحرّموا بهواكم، ولكن بما شرّع اللّه؛ فإنّه سبحانه أعلم، ويقضي بما يشاء بوفّق حكمه وعلمه بما ينفع وما يضرّ، إن اللّه يحكم ما يشاء في ملكه، ويقضي وَفْق حكمته وعدله، فالالتزام بذلك، طريق النّجاح في الدّنيا، والفلاح في الآخرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّعبير بالاسم الموصول، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

وفاء المؤمنين بالعقود، أمرٌ في شريعة الإسلام معهود

يُلحظ في صياغة الآية الكريمة إيثار التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى في صدر الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، حيث لم يقل: (يا أيّها المؤمنون)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الإيمان ليس أمرًا طارئًا، يمرُّ بالإنسان فترة منَ الزَّمن، لكنَّه أَمر يتجدّد بتجدّد الفعل حتّى ينفّذ المؤمن الأحكام الّتي جاء بها العقد الإيمانيّ[1]، وللإشارة كذلك إلى أنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّه يحتاج إلى تعهُّد ورعاية حتّى يبقى مُتجدّدًا وراسخًا.

النّداء بغرض المدح وأثره في تجليّة المعنى المقصود في الآية:

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، هو نداء، والنّداء في القرآن على سبع مراتب منها ما تكرّس له الغرض في مطلع هذه الآية، وهو المدح، والنّداء هنا من جوامع الكلم، لأنّه بمدحه لهم بقوله:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 5/2888.

نـــداء الـلـه المـؤمـنـين في ظاهره تكليف، وفـي باطنه تشريف

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، يعني صدّقواْ، ولم يقل بأي شيء صدّقوا، فيكون معناه الّذين صدّقوا بوحدانيّة اللّه تعالى، وصدّقواْ بمحمّد ﷺ وبالقرآن، وصدّقواْ بجميع الرّسل، وبالبعث، والحساب، والجنّة، والنّار[1]، وفي نداء اللّه تعالى المُخاطَبين بوصف الإيمان إشارة إلى أنّ الوفاء بالعقود من مقتضيات الإيمان، وفي هذا حَثٌّ على التزام الأمر وتنفيذه، والوفاء بالعهود، باعتباره من شعائر الإيمان، ومن أخلاق المؤمنين، لأنّ نقض العهود، وعدم الالتزام بالمواثيق، من صفات المنافقين، الّذين إذا حدّث أحدهم كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان.

براعة الاستهلال في افتتاح السّورة بالأمر بالإيفاء بالعقود:

وجـوب رعاية الـعـقـود مع الـخـالـق، وحـفـظـهـا مع المخلوق

وفي افتتاح السُّورة الكريمة بالأمر بالإيفاء بالعقود براعة استهلال[2]؛ لأنّه مُشعِرٌ بأنّه سترد بعده أحكامٌ وعقود، كانَت عُقِدَت منَ اللّه على المؤمنين إجمالًا وتفصيلًا، ذكَّرهم بها؛ لأنَّ عليهم الإيفاء بما عاهدوا اللّه عليه، وافتتاح السّورة بها، من بلاغة المؤدّى وجميل التّعبير، قال القرطبي: "وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكلّ ذي بصيرة بالكلام، فإنّها تضمنت خمسة أحكام: الأوّل: الأمر بالوفاء بالعقود، الثّاني: تحليل بهيمة الأنعام، الثّالث: استثناء ما يلي بعد ذلك، الرّابع: استثناء حال الإحرام فيما يصاد، الخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصّيد لمن ليس بمُحرِم"[3]، "فالعقد هو كلّ ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان في الأحكام التّكليفيّة أم من العهود الّتي يلتزم بها العباد،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/365.

(2) وحكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا للكندي: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه ولا يطيق هذا أحد إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد: (أي في مجلّدات)، ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/145.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/365.

وبذلك تشمل ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء"[1]، وهي تستغرق كلّ مناحي الحياة، بما فيها من معاملات ومبادلات.

جملة ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ مطلقة، وما لا دليل على تقييده، فهو مطلق:

كلّ ما يعدّه النّاس عقدًا، فهو عقد جائز إلّا ما حرّم بنصّ قطعيّ

إنّ جملة ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، " أساس تقدّم عليه العقود في الإسلام، وهي تفيد بقوّة ورشاقة، أنّه يجب على كلّ مؤمن، أن يفي بما عقده وارتبط به، وليس لأحد أن يقيّد ما أطلقه الشّارع إلّا بنصّ منه، فكلّ قول أو فعل يعدّه النّاس عقدًا، فهو عقد، يجب أن يوفوا به، كما أمر تعالى، ما لم يتضمّن تحريم حلال، أو تحليل حرام، ممّا ثبت في الشّرع، كالعقد بالإكراه، أو على إحراق دار أحد، أو شجرة بستان، أو على الفاحشة، أو على أكل شيء من أموال النّاس بالباطل، كالرّبا والميسر والرّشوة"[2].

ارتباط المعنى اللُّغويّ بالمعنى الشّرعيّ في لفظ (عقد):

الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، مُدْرَجٌ ضمن معاني العقد

نلاحظ التّرابط الوثيق بين المعنيين: اللُّغويّ والشّرعيّ لكلمة (عَقد)، فالعَقد لغة: رَبط لطرفي شيء، ومنه العُقدَة، فهو في الأصل يُطلَق على المعاني المحسوسة، ثمّ استُعير للمعنويّات، قال الرَّاغب: "العَقدُ: الجمع بين أطراف الشّيء، ويُستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة، كعقد الحبل وعقد البناء، ثمّ يُستعار ذلك للمعاني نحو: عَقْد البيع، والعهد، وغيرهما، فيُقال: عاقدته، وعَقَدتُه، وتعاقَدنا، وعَقَدتُ يمينه"[3]، ويُطلَق شرعًا على الأحكام الواجبة الطّاعة؛ لأنّها تشمل معنى الرَّبط"، ولمّا كان الإيمان عبارةً عن معرفة الله تعالى بذاته، وصفاته، وأحكامه، وأفعاله، وكان مِن جملة أحكامه، أنَّه يجب على جميع الخلق إظهارُ الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2008.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2008.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عقد).

وأوامره، ونواهيه، فكان هذا العقدُ أحدَ الأمور المُعتبرة في تحقُّق ماهيَّة الإيمان، فلهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، يعني: يا أيّها الَّذين التزمتُم بإيمانكم أنواع العقود والعهود، في إظهار طاعة اللّه أوفوا بتلك العقود، وإنَّما سمّى اللّه تعالى هذه التَّكاليف عقودًا، كما في هذه الآية؛ لأنَّه تعالى ربطها بعباده، كما يُربَطُ الشَّيء بالشَّيء، بالحبل المُوَثَّق، وحاصل الكلام في هذه الآية أنَّه أمر بأداء التَّكاليف فعلًا وتركًا"[1]، وأنّ مصطلح عقد، يجمع الدّلالتين اللّغويّة والفقهيّة معًا.

التَّعريف في العقود للاستغراق، في قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾:

العقد التزام بين طرفين، ويطلق على كلّ ما يكون به التّعامل

والتَّعريف في العقود للاستغراق، فيشمل العقود الَّتي بين المسلمين وربّهم، مِن توحيده، والإذعان لشريعته، وطاعته، وطاعة رسوله، ويشمل أيضًا العقود الَّتي عاقد المسلمون عليها المشركين، ويشمَل كذلك العقود الَّتي يتعاقدها المسلمون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات، ويندرج في هذا العموم كلُّ عقد مع إنسان كأمان، والدّية، والنِّكاح، والبيع، والشّركة، والهبة، والرَّهن، والعتق، وتدبيرٍ، وتخييرٍ، وتمليكٍ، ومصالحةٍ، ومزارعةٍ، والطّلاق، والشِّراء، والبيع، والإجارة[2]، من ذلك ما قاله الشّافعي (رحمه اللّه): "إذا عقد المتبايعان بيعًا بما يجوز، فافترقا عن تراض، لم يكن لأحدهما ردّه إلّا بعيب أو بشرط خيار"[3].

لفظ الأمر في قوله ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يدلّ على الوجوب:

الالتزام بمقتضى العقود بالالتزام والصّيانة، من متطلّبات الأمانة

والوفاء: "هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد: هو العهد المُوَثَّقُ، كما قال الحطيئة:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/123.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/43.
(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ، ص: 131.

قَومٌ إذا عَقَدوا عَقدًا لِجارِهِمُ *** شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فَوقَهُ الكَرَبا[1].

وأصله الجمع بين الشَّيئين بحيث يَعسُرُ الانفصال"[2]، " فالعقد هو كلّ ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان في الأحكام التّكليفية أم من العهود الّتي يلتزم بها العباد[3]، والأمر في قوله ﴿أَوۡفُواْ﴾ للوجوب؛ لتعلّقه بعهد اللّه، وعهد اللّه واجب النّفاذ، وتعقيبه بالحلّ والحرمة، ثمّ تعاضد الأوامر الّتي جاءَت في هذا الشّأن كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، كلّ هذا يدلّ على أنّ الأمر للوجوب.

دلالة الاستعارة التّصريحيّة في قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾:

العقد أمانة في الذّمّة، وهي تقتضي ربطًا ووثاقة من الطّرفين

المراد بالعقد هنا، " العقد الموثّق، شبّه العهد الموثّق بالحبل، فاستعير لفظ المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، فالعهد إلزام، والعقد التزام، على سبيل الإحكام، ولمّا كان الإيمان عبارة عن معرفة اللّه بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله، وكان من جملة أحكامه، أنّه يجب على جميع الخلق، إظهار الانقياد للّه تعالى، في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه، وكان العقد أحد الأمور المعتبرة، في تحقيق ماهيّة الإيمان، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.. وإنّما سمّاها عقودًا لأنّه ربطها كما يربط الشّيء بالشّيء بالحبل الوثيق"[4].

التّشبيه في ربط إلزام الله لأحكامه بالتزام العباد بها، كربط الحبل بالحبل:

عقود اللّه محكمة وثيقة، والوفاء بها ملزم

يلاحظ التّشبيه في هذه الآية، حيث شبّه الإلزام والإلتزام الجاريين بين اللّه وعباده، بربط حبل بحبل، لأنّ العقود حقيقة في الرّبوط"[5]، وعادة ما يشبّه العقد الموثق "بعقد الحبل ونحوه، وهي عقود اللّه الّتي عقدها على عباده، وألزمها إيّاهم من مواجب

(1) العِناج: خيطٌ أو سيْر يُشدُّ في أسفل الدَّلو، ثمَّ يُشدُّ في عروتها، والكرب: الحبل الّذي يُشدّ على الدَّلو، والبيت في ديوان الحطيئة، ص: 7، والجواليقي، شرح أدب الكاتب، ص: 240.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/133.
(3) أبوزهرة: زهرة التّفاسير: 4/2008.
(4) القونوي، حاشيّة القونوي على تفسير البيضاويّ: 7/378.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/114.

التّكليف، أو ما عقد اللّه عليكم، وما تعاقدتم بينكم، والظّاهر أنّها عقود اللّه عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه"[1].

دلالة بناء الفعل (أُحِلَ) لِمَا لم يُسمَّ فاعله، في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

الخبر يُفَصِّل اللّفظَ المُجمَلَ في الآية الكريمة

بُنِي الفعل (أُحِلَ) لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لأنّ الفاعل معلوم، ولأنّ المُخاطَبين - وهم المؤمنون - يُقرُّون بأن لا مُنعم إلاّ اللّه تعالى، ولا مُشَرِّع غيره. وفي الآية إخبار لعباده المؤمنين، بأنّه أحلَّ لهم ما حرّم على اليهود، قال تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ لُطفًا منه سبحانه بعباده المؤمنين ورحمةً وكرمًا.

والعقود كلمة مجملة تشمل جميع الأحكام الإلهيّة، وكذلك ما بين النّاس من عهود ومواثيق حلالًا، وجاء قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مُفصِّلًا لهذا الإجمال.

المناسبة بين الوفاء بالعقود، وحلّ بهيمة الأنعام للمؤمنين:

التّفصيلُ بعد الإجمال، مُفيدٌ في إيضاح الأحكام

المناسبة بين قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ وقوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ ظاهرة، "فعلى كلّ مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به، من قول أو فعل، وكلّ عقد، وكلّ وعد، وكلّ عهد، وكلّ ميثاق، إنّما هو عقد بين طرفين اللّه ثالثهما، فمن نقضَه فقد أخلّ بالوفاء مع ربّه"[2]، وحيث إنَّ المراد بالعقود عهود اللّه على المؤمنين في تحليل حلاله، وتحريم حرامه، فقد بدأ بالمُجمَل في مطلع السّورة، ثمّ أتبعه بالمُفَصَّل الّذي أبان فيه تحليل الأنعام، ممّا يجسّده قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، وفي هذا الخبر امتنان منَ اللّه تعالى على عباده الّذين آمنوا، بما أعطاهم ابتداء، وبما أحلّ لهم، ممّا كان محرّمًا على من قبلهم،

(1) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/423.

(2) القطّان: تيسير التّفسير: 1/373.

وهو ممزوج بالإرشاد والتّوجيه، كدأب القرآن في لفت أذهان المؤمنين للشّكران.

دلالة أسلوب الإضافة في قوله تعالى ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ على البيان:

الإفراد للبَهيمَة لإرادة جنس البهائم، والجمع للأنعَم لشمول أنواعها

البهيمة مِن ذوات الأرواح ما لا عقل له مطلقًا، وهي كلُّ ذات أربع في البرِّ والبحر، وسُمِّي ﴿بَهِيمَةُ﴾؛ لعدم تمييزه، وإبهام الأمر عليه، أو لأنَّ أمر كلامها وأحوالها أُبهِمَ على غالب الخلق، و الخطاب لكلّ من التزم الإيمان على وجهه التّامّ، وكماله العامّ، وقد كانت للعرب سنن في الأنعام، "كانوا يحرّمون في الجاهليّة على أنفسهم، بعض الحيوان لأوهام ورثوها، لم يأت بها دين، ولم يتصوّرها عقل، وليس للتّحريم سبب يدركه أهل العقول، فجاء نصّ تحليل بهيمة الأنعام للإباحة مع القيد، فهي حلال بشرط ألّا تكون ممّا يتلى تحريمه[1]، والإضافة في قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ بيانيَّة، بمعنى أنّ تقدير: (مِن بهيمة الأنعام)، وذلك من باب إضافة الشّيء إلى جنسه، كقولهم: ثوب خزٍّ، وعُود أراك، أي: من خزٍّ، وعود من أراك، والتّقدير هنا: أُحِلَّ لكم أكل البهيمة مِنَ الأنعام، وفائدة هذه الإضافة هنا الإشعار بعلَّة الحكم المُشترَكة بين المُتضايفين، كأنَّه قِيلَ: أُحِلَّت لكم البهيمة المُشبَّهة بالأنعام الَّتي بُيِّنَ إحلالها فيما سبق لكم، المماثلة لها في مَناط الحُكم[2]، وقد جاءت ﴿بَهِيمَةُ﴾ مفردة لإرادة جنس البهائم، وجاءَت ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ جمعًا للاستغراق، فلا تخصّ ما تعارف عليه بعض العرب من إطلاق النَّعم على الإبل، ولكن تشمل ما تعارف عليه أكثر أهل اللّغة، من إطلاقها على البقر والإبل والغنم..إلخ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2013.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/50.

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور﴿لَكُم﴾ على نائب الفاعل، ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، في الآية:

قُدِّم الجارّ والمجرور﴿لَكُم﴾ على نائب الفاعل ﴿بَهِيمَةُ﴾ في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ لإظهار العناية بالمقدَّم، لَمَا فيه من تعجيل المسرَّة والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التَّقديم إذا أُخِّرَ تبقى النَّفسُ مترقِّبة إلى وروده، فيتمكَّن عندها فضل تمكُّن[1]، وقد يفيد تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ الاختصاص، أي: أُحِلت لكم بهيمة الأنعام على إطلاقها لكم دون غيركم من اليهود، فيكون القصر إضافيّا؛ فإنّ الله تعالى حرّم عليهم طيّبات كانَت حلالًا بسبب ظلمهم، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النّساء 160]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

شريعة الإسلام نسخت كلّ ما كان خصوصيّة لليهود في موانع الأحكام

الاحتراز بذكر المضاف إليه، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

نجد دقَّة التّعبير القرآنيّ واضحة في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، بذكر المضاف إليه، حيث لم يقل: (أُحِلَّت لكم البهيمة)؛ لأنَّ البهيمة كما - سبق الإشارة إليه - اسم لكلّ ذات أربع من ذوات الأرواح في برٍّ أو بحرٍ، وإنَّما أُضيفت البهيمة إلى الأنعام؛ ليُعرَف جنس الأنعام وما أَحلَّ منها، ولو أُفرِدَت فقيل: (أُحِلَّت لكم البهيمة) بحذف المضاف إليه، لدخل فيه كلّ ما يحلُّ وما يَحرُم منَ البهائم المُفترسة كالسّباع وغيرها، أي: لوقعَت على الأنعام وعلى غيرها ممّا حظر وحرّم، فأضافها إلى الأنعام؛ ليعرف جنس البهيمة؛ لذا كان الاحتراز بذكر المضاف إليه فقال: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[2].

ما حرّم الله إلّا ما فيه خطر، ولا منع إلّا ما فيه ضرر

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 4/2.

(2) الواحديّ، البسيط: 7/216.

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استثناءٌ من بهيمة الأنعام:

ما يتلى في القرآن ممّا حرّم الرّحمن، دليل على ثبات الأحكام وخلودها

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استثناء من بهيمة الأنعام، والمعنى: إلّا ما يُتلى عليكم في القرآن تَحرِيمه، أو" إلّا مُحرَّمَ ممّا يتلى عليكم من قوله تعالى ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ ونحوَه، أو إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه[1]، وفي نوع المستثنى (ما)، قولان: أحدهما: أنّه مستثنى متّصل، والثّاني: أنّه منقطعٌ وهو المرجّح؛ لأنَّ المستثنى ليس من جنس البهيمة، حسب ما فُسِّر به المتلوُّ عليهم[2]، ولم يبيِّن هنا ما هذا الَّذي يُتلى عليهم المستثنى من حلّيَّة بهيمة الأنعام؛ ولكنَّه سبحانه بَيَّنَه بعد ذلك بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، فالمذكورات في هذه الآية الكريمة، كالموقوذة والمُتردِّية، وإن كانت منَ الأنعام؛ فإنَّها تحرّم بهذه العوارض[3].

ملمحيّة الاستثناء من الاستثناء، في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾:

أصل المعنى (غير الصّيد المحلّ)، بمعنى دخل في الحلّ، أو صار ذا حلّ

يلحظ فيه الاستثناء ممّا يليه، وقد أبطل إباحة الصّيد في الحرم، لأنّه مستثنى من الحرم الّذي هو مستثنى من الإباحة، قال ابن عطيّة: قد خلط النّاس في هذا الموضع في نصب لفظ الاستثناء ﴿غَيۡرَ﴾، وقدّروا تقديرات كلّها غير مرضيّة، لأنّ الكلام على اطّراده متمكّن استثناء بعد استثناء، وقال أبو حيّان: إنّما عرض الإشكال في الآية، حتّى اضطرب النّاس في تخريجها، من كونه رسم ﴿مُحِلِّي﴾ بالياء، فظنّوا أنّه اسم فاعل من أحلّ، وأنّه مضاف إلى الصّيد إضافة اسم الفاعل المتعدّي إلى المفعول، وأنّه جمع حذف منه النّون

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/2.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/184، ودرويش، إعراب القرآن: 4/401.

(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/257.

للإضافة وأصله: (غير محلين الصيد)، والذي يزول به الإشكال، ويتّضح المعنى، أن يجعل قوله (غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ) من باب قولهم: (حسان النّساء)، والمعنى (النّساء الحسان)، وكذا هذا أصله: (غير الصّيد المحلّ)، والمحلّ صفة للصّيد لا للنّاس، ووصف الصّيد بأنّه محلّ، إمّا على معنى: دخل في الحلّ، كما تقول (أحلّ الرّجل)، أي دخل في الحلّ، و(أحرم الرّجل): دخل في الحرم، أو على معنى (صار ذا حلّ)، أي: حلالاً بتحليل الله"[1].

علّة إثبات لفظ ﴿بَهِيمَةُ﴾ في سورة المائدة، دون سورة الحجّ:

ما زيد في إطار التّشابه من لفظ، يكون وجوده فارقًا بين السّياقين

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، نتساءل: لمَ أُثبت لفظُ ﴿بَهِيمَةُ﴾ في سورة المائدة، ولم يُثبَت في سورة الحجّ؟والجواب: هو أنّ ذلك كان لاختلاف المقصود في الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك أنّ اسم الأنعام إنّما يقع على الأصناف الأربعة: الإبل، والبقر، والضّأن، والماعز، ولمّا كانت آية سورة الحجّ مُتعلّقة بما أمر به الحاجُّ في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحجّ: 29]، والأمر بتعظيم تلك الحرمات، والشّعائر الدّينيّة في قوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحجّ: 30] وصل بها ما يحلُّ به أكل لحمه للمُحرِم حال إحرامه، فقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، ولم يكن ليناسب هذا المَوضِع ما ورد في آية المائدة من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنّ المراد ببهيمة الأنعام الوحشيُّ. وقال الزّمخشريّ في أحد تفسيريه: "الظِّباء وبَقَر الوَحش"[2]، ونحوها، ووجه وقوعها في آية المائدة؛ لأنّ آية المائدة من آخر ما نَزَل، وقد تضمَّنت متمّمات منَ الأحكام، كآية الوضوء، والتَّيمم،

(1) السّيوطي، نواهد الأبكار: 3/233.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/320.

وتفاصيل الصَّيد، واستيفاء المحرّمات منَ المأكولات والمشروبات، فناسب هذا ذكر حلِّيّة بهيمة الأنعام؛ إذ لم يذكره الله في غيرها على ما ورد هنا في تحرير ذلك، وبيان العوارض الّتي قد تَحرُم لأجلها، وذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، ثم أتبع بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: 3]؛ لأنَّ هذه العوارض تكثر في الوحشيّ؛ لمخالفة حاله في التَّذكية، وما تحلُّ به الإنسيَّة منَ الأنعام، ثمّ أتبع ذكر ما يعرض ممّا ذكر ممّا وقعتِ الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، ثمّ أشار قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ إلى ما أفصح به قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ [المائدة: 96] فوضح تناسب كلّ، مع ما ورد فيه(1).

ترادف جملتين حاليتين لبيان المستثنى، والتّدرج في صيغ التّحريم:

تنوّع الأحكام بتنوّع الأحوال والظّروف، مسلك في التّشريع مفيد

لوحظ ترادفُ جملتين حاليتين، في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾؛ وهما لبيان المستثنى، والتّقدير: (أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم منَ الصّيد وأنتم مُحرمُون)، وجملة ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، حالٌ منَ الضَّمير في ﴿لَكُم﴾، وجملة ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ في مَوضِع الحال مِن ضمير ﴿مُحِلِّي﴾، "وهذا نسجٌ بديعٌ في نظم الكلام، استُفيدَ منه إباحةٌ وتحريمٌ: فالإباحة في حال عدم الإحرام، والتَّحريم له في حال الإحرام"، وفائدة تقييد إحلال بهيمة الأنعام، بجملتي الحال، أنَّ حُرمةَ الصَّيد في حالة الإحرام من مَظانّ حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذٍ، كأنَّه قِيلَ: أُحِلَّت لكم الأنعام مُطلَقًا، حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها، و في بعض الأوقات، أنتم محتاجون إلى إحلالها.

الوفاء بالعقود ليس شرطًا لإباحة بهيمة الأنعام:

الإباحة للحلال الطّيب، منهج تربويّ في الحلّ والحرمة

والوفاء بالعقود، ليس شرطًا لإباحة حلَّ بهيمة الأنعام؛ فالله تعالى لم يجعلِ الوفاء بالعقود شرطًا للإباحة، ولا أخرجه مَخرَج المجازاة، ولكنَّه وجَّه الخطاب إلينا بلفظ الإيمان، لتحفيز المؤمنين

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/230 - 232.

وتهيِّئتهم نفسيًّا، لاستقبال ما يؤمرون به إباحة أو منعًا، والإباحة عامَّة يخاطب بها جميع المكلَّفين، كفّارًا كانوا أم مؤمنين، وكذلك كلُّ ما أباحه اللّه تعالى للمؤمنين، فهو مُباحٌ لسائر المكلّفين، كما أنَّ كلَّ ما أوجبه وفرضه، فهو فرضٌ على جميع المكلّفين، إلّا أن يخصَّ بعضهم دليلٌ يستثني مخاطبته بذلك؛ وكذلك قلنا: إنَّ الكفّار مستحقُّون للعقاب على ترك الشَّرائع كما يستحقُّون العذاب على ترك الإيمان[1]، وما أباحه اللّه، هو الطّيب النّافع، وما حرّمه هو النّجس الضّار، وقد أثبتت التّجارب المخبريّة، والكشوفات العلميّة ذلك، بما يزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم.

فلسفة التّدرّج في التّحريم، وأثرها في ترسيخ الاقتناع، ودوام الامتناع:

اللّه لطيفٌ بعباده، يُظهرُ لهم شفقته عند المنع، ورحمته عند الإباحة

تدرَّج القرآن في أسلوب التّحريم، فنجد أوّل شيء حُرِّم، هو الصّيد بالنّسبة إلى المُحرِم، والقرآن لم يأت بصيغة التّحريم، ولكن بنفي التّحليل، في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، ثمّ جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، ثمّ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، وهذا أسلوب تربويّ تعليميّ في سنّ القوانين والتّشريعات: مفاده التَّدرّج في صيغة المنع؛ مجاراة للطّبيعة الإنسانيّة الّتي تتمرّد على منعها ممّا تعوّدته، وقد قيل: (كلّ ممنوع مرغوب)، وقيل: (لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا)، فتحتاج النّفس البشريّة، إلى التّرفُّق والتّدرّج في صيغ المنع، وهو مسلك تربويّ حكيم.

ثمّ إنّ نفي التّحليل في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، وقوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وإن كان فيه ترفّق وتلطّف في المنع والتّحريم، فإنّه يفيد من جهة أخرى، أنّه ليس لأحد أن يحلّل أو يحرّم من نفسه، وأن يعلم أنّ المشرّع هو اللّه ﷻ عن طريق الوحي، وهو أرحم بعباده من الأمّ بولدها.

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/321.

جملة التَّذييل لتعليل الحكم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾:

الله حكيمٌ فيما شـرّع وأبـان، لا يعترض على حكمته إنسٌ ولا جانٌّ

قال ابن عبّاس في قوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: يُحِلُّ ويُحَرِّمُ، وقِيلَ: يحكم فيما خلق بما يريد على الإطلاق، وهذه الجملة جاءَت مُقوِّيةً لهذه الأحكام الشَّرعيّة المخالفة لمعهود أحكام العرب، مِنَ الأمر بإيفاء العقود، وتحليل بهيمة الأنعام، وما ورد من أحكام، آخرها استثناء الصَّيد في حالة الإحرام، وتضمُّن ذلك حلَّه لغير المُحرِم، ثمّ ختَمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، فموجب الحكم والتَّكليف، ومناط الهدى والتّنزيل، هو إرادة اللّه الجليل، وهو تعالى لا اعتراض على أمره، ولا مُعقِّبَ لحكمه[1].

التّعبير بإيجاز القِصَرِ البليغ، عن أحكام خمسة وردت في السّياق:

مـن خـصـائـص القرآن الإيجاز، المفضي إلى تأكيد مافيه من إعجاز

جاءَتِ الآية الكريمة في سياق إيجاز القِصَر، فعبَّرت عنِ المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، من غير حذف، في مستوى مِنَ الإيجاز المعجز، وبيان ذلك أنّها اشتملت على خمسة أحكام في آية واحدة: الأوّل: الأمر بالوفاء بالعقود، وذلك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، والثّاني: تحليل بهيمة الأنعام، وذلك في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، والثّالث: استثناء بعض الأنواع إجمالاً ممّا أتى تفصيله في الآية الّتي تليها في: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، والرّابع: استثناء حال الإحرام فيما يُصاد في ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾. الخامس: ما يُفهم مِنَ الآية الكريمة من إباحة الصّيد لمن ليس بمُحرِم[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/418، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/36.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز، ص: 506.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين تحريم صيد المحرم، وبيان بعض أحكام المحرم والمتحلّل

في الآية السّابقة استثناء لبعض ما أحلَّ سبحانه على سبيل الإبهام، وفي هذه بيان لِما أُجمِلَ، قال صاحب نظم الدُّرر: "ولمّا استثنى بعضَ ما أحلَّ على سبيل الإبهام؛ شرع في بيانه؛ ولمّا كان منه ما نهى عنِ التَّعرُّض له لا مُطلَقًا، بل ما يَبلُغُ محلَّه، بدأ به؛ لكونه في ذلك كالصَّيد؛ وقدَّم على ذلك عموم النَّهي عنِ انتهاك معالم الحجّ المُنبَّه عليه بالإحرام، أو عن كلِّ مُحرَّم في كلّ مكان وزمان؛ فقال - مكرِّرًا لندائهم؛ تنويهًا بشأنهم؛ وتنبيهًا لعزائمهم؛ وتذكيرًا لهم بما ألزموه أنفسهم"[1]، كما أنَّه لمّا بيَّن سبحانه "حُرمَةَ إحلال الحرَم الّذي هو من شعائر الحجّ عقَّب - جلَّ شأنه - ببيان إحلال سائر الشَّعائر[2]، فالمناسبة بين الآيتين قويّة؛ لفظاً بإعادة النّداء ذاته، ومضموناً بالتّشريع المشتمل على الحلال والحرام، لقضيّة مشتركة بين الآيتين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: الشَّعائر مفردها: شعيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعَلَة،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/7 - 8.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/48.

والمُشعَرة: المُعلَمة، وكلُّ شيء أُعلِم فقد أُشعِر، و كلّ شيء جعل علمًا على شيء، أو أُعلم بعلامة، جاز أن يسمّى شعيرة، وشعائر اللّه مناسك الحجّ، أي: علاماته، والشّعيرة من شعائر الحجّ، وهو أعمال الحجّ من السعي والطَّواف والذبائح، كل ذلك شعائر الحجّ[1]، والبَدَنَةُ التي تُهْدَى إلى بيت اللّه تسمّى شعائر؛ لأنّها مُشعَرَةٌ بالدّم، ومنه قول الكميت:

نُقَتِّلُهُمْ جِيلًا فَجِيلًا تَرَاهُمُ *** شَعَائِرَ قُربانٍ بهِمْ يُتَقَرَّبُ[2].

والشَّعائر: هي ما جُعِل شِعارًا وعَلَمًا للنُّسِك، مِن مواقف الحجّ ومرامي الجمار، والمطاف، والمَسعى، والأفعال الّتي هي علامات الحجّ يعرف بها منَ الإحرام، والطّواف، والسّعي، والحَلق، والنَّحر، وعموما "شعائر اللّه متعبّداته، واحدتها شعارة ويقال شعيرة، وإنّما هي إعلام لطاعته"[3].

2) ﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾: "الشَّهر الحرام، هو الشَّهرُ الَّذي كانَتِ العرب تُعَظِّمه، وتُحَرِّمُ القتال فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ [التّوبة: 36]، فقِيلَ: هي ذو القعدة وذو الحجَّة والمحَرَّمُ ورجبٌ، فقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يجوز أن يكون إشارةً إلى جميع هذه الأشهر، كما يُطلَق اسم الواحد على الجنس، ويجوز أن يكون المراد هو رجبٌ؛ لأنَّه أكمل الأشهر الأربعة في هذه الصّفة"[4].

3) ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾: أصله الهدىّ مشدّد، من هديت الهَدْيَ أهديه، فهو هديّ، ثمّ خفّف..و الهدي يكون من الإبل والبقر والغنم[5]، وقال ثعلب: الهَدْي، بالتّخفيف، لغة أهل الحجاز، والهديّ، بالتثقيل، لغة بني تميم، وقد قرئ بالوجهين جميعًا (حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)[6]، والهَديُ ما أُهدِيَ إلى بيت اللّه، مفردها: هَديَةٌ، وهَدِيَّةٌ، وجمعها هَدِيٌّ. قال الفرزدق:

حَلَفْتُ برَبِّ مَكَّةَ وَالمُصَلّى *** وَأَعْنَاقِ الهَدِيِّ مُقَلَّدَاتٍ[7].

---

(1) الخليل، العين: 1/251.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شعر)، والواحديّ، البسيط: 7/222.
(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعي، ص: 121.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/128، و11/129.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/128، و11/129.
(6) ابن سيده، المحكم: 11/128 - 129.
(7) البيت للفرزدق من ديوانه، ص: 108، وينظر كذلك الواحديّ، البسيط: 7/222.

4) ﴿ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾: القلائد جمع قلادةٍ، وهي ما جُعِل في العُنُق سواء عنق إنسان، أم بَدَنَة أمْ كَلب[1] والمراد بها هنا: الهدايا المُقلَّدة الّتي تُهدَى إلى البيت الحرام، قَالَ الزَّجَّاجُ: "كانُوا يُقلِّدونَ الإبلَ بِلِحَاءِ شَجَرِ الحَرَم، ويَعْتَصِمُون بذلك من أعدائهم، وَكَانَ المُشْرِكُون يَفعَلُون ذلك، فأُمِرَ المُسْلِمُونَ بأن لَا يُحِلُّوا هذه الأَشياءَ الَّتِي يَتَقَرَّب بهَا المُشْرِكون إِلى الله تَعَالَى، ثمَّ نُسِخَ ذلك"[2].

5) ﴿ءَآمِّينَ﴾: أَمَّ، يَؤُمّ، اؤْمُمْ، فهو آمّ وإمام، والمفعول مَأْموم، قاصدين البيت الحرام[3]، والآمُّ هُوَ القاصد، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾[4].

6) ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾: رَضِيَ يَرضَى رِضًا، فهو راضٍ و مَرضِيٌّ ومَرضُوٌّ، ومَفعولُه مَرضِيٌّ عنه. وأصل الكلمة يدلُّ على خلاف السُّخط. ورضا العبد عنِ الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عنِ العبد: هو أن يراه مُؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[5].

7) ﴿حَلَلۡتُمۡ﴾: أي: منَ الإحرام، وحَلَّ من إحرامه يَحِلُّ حِلاًّ وأَحَلَّ: خرج مِنْهُ وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾، وَقَالَ زُهَيْر:

جَعَلْنَ القَنانَ عَن يمينٍ وحَزْنَهُ *** وَكَمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِمِ[6].

وأصل الحَلّ: حَلّ العُقدة، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27]. وحلَّ الدَّينُ: وَجَبَ. والحِلُّ ما جاوز الحرم. ورجل مُحِلٌّ منَ الإحلال، ومُحرِمٌ منَ الإحرام[7]، حلَّتِ المرأةُ: خرجت من عدّتها، حلَّ المُحرِمُ: جاز له ما كان ممنوعًا أثناء إحرامه، خرج من إحرامه[8].

8) ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يَحمِلَنَّكُم، وجَرَمَ فلانٌ: أذنَب، وارتكب الإثم، وأجرم عليهم وإليهم جريمة: جنى جِناية. وجَرَمَ الرَّجلَ: حَمَّلَه جُرمًا. والمعنى هنا: لا يَحمِلَنَّكم بُغضُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قلد).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قلد).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أمم).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رضي).
(6) ابن سيده، المخصّص: (بَاب فَعَلْت وأَفْعَلت): 4/339.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حلّ).
(8) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حلل).

قوم على ترك العدل ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي: بُغضُ، يُقال: شَنِئت الرَّجُل أشَنؤه شنأً، وشنآنًا، وشُنأً، ومشنأةً، إذا أبغضته.

9) ﴿تَعۡتَدُواْ﴾: الاعتداء: مجاوزة الحدِّ، والظُّلمُ، وأصل المادَّة يدور حول التَّجاوز، وعدا عليه عَدواً وعَداءً وتَعَدَّى واعتَدَى، كُلّه: ظَلَمه. والعَداءُ: الظُّلم وتجاوز الحدّ.. وعدا الأَمرَ يَعدُوه وتَعَدَّاه: تجاوزه، والتَّعدّي: مجاوزة الشَّيء إلى غيره، يُقالُ: عَدَّيتُه فتَعَدَّى، أي: تجاوز. وقد قالتِ العرب: اعتدى فلانٌ عنِ الحقِّ، واعتدى فوق الحقّ، كأنّ معناه: جاز عن الحقّ إلى الظُّلم، وعدَّى عنِ الأَمر: جازه إلى غيره وتركه[1].

10) ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثم: الذَّنبُ. يُقال: أَثِمَ يَأثَمُ إثمًا وأثامًا فهو آثِمٌ وأَثِيمٌ وأَثِمٌ وأَثومٌ، أي: محتملٌ للآثام. وقولهم: تَأثَّم، أي: خرج منَ الإثم، فتفعَّلَ للسَّلب كتحرَّج وتحنَّث وتحوَّب، أي: خرج منَ الحرج والحنث والحوب[2]، "وأَثَمَهُ الله في كذا يَأْثُمُهُ ويَأْثِمُهُ، أي عَدَّه عليه إثماً، فهو مَأْثُومٌ. وأنشد الفرّاء:

فَهَلْ يَأْثُمَنّي الله في أَنْ ذَكَرْتُها *** وعَلَّلْتُ أَصْحَابي بِهَا لَيْلَةَ النَّفْرِ[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

التّحذير من استباحة الشعائر والاعتداء، والدّعوة إلى التّعاون والتّقوى

ينادي الله الّذين آمنوا بالله وصدقّوا رسوله، أن اعملوا بمقتضى إيمانكم، فلا تتعدُّواْ حدود الله، ولا تستحلّوا حرماته، ولا تبادروا إلى القتال في الأشهر الحُرم، ولا إلى الاعتداء على هدي الأنعام الموجّه للبيت الحرام، ولا تستحلّوا قتال من قصدواْ البيت الحرام ابتغاء رضوان الله ورحمته، وأمّا الحجّاج والمعتمرون، فليحاذر أحدهم الصّيد وهو مُحْرِم، و إذا تحلّل فلا حرج عليه، كما حذّر السّياق من مقابلة سيّئة الاعتداء بمثلها، وحثّ على العَدل مع النّفس والغير، والتّعاون بين المؤمنين، والالتزام بتقوى الله ربّ العالمين، لأنّه شديد العقاب لِمَن عصى أوامره، وارتكب نواهيه.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدا).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أثم).
(3) الجوهريّ: الصّحاح: (أثم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ تكرار عبارة النّداء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هذه الآية وسابقتها:

النّداء يؤدّي في كلّ سياق مكرّر ما يطلبه الله من المنادى

لقد "أُعيد الخطاب بالنّداء، بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وتوجيه الخطاب إلى الَّذين آمنواْ، في الآية الأولى، ليلتزمواْ "بِالوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوهُ، وَارْتَبَطُوا بِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَمَا أَمَرَ اللّه تَعَالَى "[1]، وفي الآية الثّانية، كرّر نفس النّداء الموجّه للمؤمنين، داعيا إيّاهم عدم اسْتباحة حُرْمَة شَعَائِرِ اللّه، ونبذ الإعتداء والثّأر والصّدّ عن المسجد الحرام، وما يتعلّق به من الممنوعات الّتي تُكسِب اللّعنة والآثام، ومع أنَّ الّذين آمنواْ، لا يُظَنُّ بهم إحلالُ المُحرَّمات، يدلُّ على أنَّ المقصود النَّهيُ عنِ الاعتداء على الشَّعائر الإلهيَّة الَّتي يأتيها المشركون كما يأْتيها المسلمون"[2]، في ذلك الأوان.

إضافة الشّعائر إلى لفظ الجلالة للتّشريف، في قوله تعالى ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

التّعبير عن الأشهر الحرم بالمفرد؛ لإرادة جنس الأشهر

أُضيفتِ الشّعائر إلى لفظ الجلالة (اللّه)، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ لتشريفها، وللتّهويل من إحلالها واستباحتها، "وإحلالها أن يُتهاون بحرمتها، ويُحالُ بينها وبين المُتَنَسِّكين بها"[3]، وفي هذا المضمار قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما): ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: "مناسك الحجّ"؛ وكان المشركون يحجُّون، ويعتمرون، ويهدون، وينحرون، ويُعظِّمون مشاعر الحجّ، فأراد المسلمون أن يُغيرُواْ عليهم، فقال اللّه تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ ولا تُحِلُّوا الشَّهر الحرام بالقتال فيه، وعَبَّر هنا عن الأشهر الحرم بالمفرد؛ لإرادة الجنس، أي: جنس الأشهر، والمعنى: لا تستحلُّوها للقتال ولا للغارة، ولا تبدّلوها وفق أهوائكم[4]، إلّا في حالة الاعتداء في الأشهر

---

(1) الجوهريّ: الصّحاح: (أثم).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 506، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/83.

(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/3.

(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/38.

الحرم، فيكون الرّد ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، ولا يزال الخطاب بهذه الآية، ممتدًّا عبر الزّمان والعصور لكلّ مَن تُسوّل له نفسه التّعرّض بأذى لقاصدي بيت اللّه الحرام.

الاستعارة ودلالتها في قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

لا حرب في الحجّ، احتراما لشعائر الله

استعار السّياق لفظ ﴿تُحِلُّواْ﴾، حيث جعل شعائر اللّه كالشّيء المربوط الذّي يحلّ، وحذف المشبّه به، وجاء بشيء من لوازمه، وهي ﴿تُحِلُّواْ﴾، والحلّ هو حقيقة في الأجسام لانتهاك حرماتها، عَن ابْن عَبَّاس في قَوْله ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: "كَانَ الْمُشْركُونَ يحجّون الْبَيْت الْحَرَام، ويهدون الْهَدَايَا ويعظمون حُرْمَة المشاعر وينحرون في حجّهم، فَأَرَادَ الْمُسلمُونَ أَن يُغيرُوا عَلَيْهِم فَقَالَ الله ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وَفِي قَوْله ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يَعْنِي لا تستحلّوا قتالاً فِيهِ "[1].

دلالة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾:

الشّهر الحرام ظرف للأمان العامّ، فيُنهى عن انتهاك حرمته

يلاحظ هنا مجاز مرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، ذلك أنّ المراد هو القتال، وقد أطلق المحلّ، والمراد هو الحالّ، والشّهر الحرام اسم للجنس، والمعنى: "كذلك الشهرُ الحرام ... لا تنتهكوا حرمة هذه الأشهر، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، فلا تحاربوا فيها"[2].

سرُّ تخصيص قوله ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ بالذّكر في الآية الكريمة:

والمقصود بالهَدي في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ ما يُهدَى إلى البيت الحرام مِن ناقة أو بقرة أو شاة؛ لِينتفع بها مساكين الحرم، وخصّ الهدي بالذّكر مع دخوله في الشّعائر؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) االسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/7.
(2) القطّان، تيسير التّفسير، ص: 374.

﴿ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ من ذكر الخاصّ بعد العامّ تشريفًا لها واعتناء بها؛ لأنّ في الهَدي نفعًا للنَّاس، وهو من أعظم الشّعائر، حيث إنَّ فيه بذلًا بما تَضِنُّ النَّفسُ به[1]، والقلائد خاصّة لها أهميّة؛ لكونها معلَّمة ظاهرة، وهي مرتبطة بما يقدّم إلى اللّه العظيم.

المقصود بالهدي ما يُهدَى إلى البيت الحرام من الأنعام

التّخصيص بعد التّعميم، في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾:

وخُصَّتِ القلائد بالذِّكر، فقوله ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾، أي ذوات القلائد، والمعنى" ولا تنزعوا القلائد، وهى العلامات التّى توضع في الأعناق، إشعارًا بقصد البيت الحرام، وأنّها ستكون ذبيحة في الحجّ"[2]، وقد سمّي الهَدي باسم ما يُعَلّم به من تسمية الشّيء باسم مَحَلّه، على سبيل المجاز المُرسَل؛ وذلك للتّنبيه على أهمّيّة ذلك الجزء (القلائد) في الدّلالة على حرمته؛ لأنّه مسوق لفقراء الحرم، فيكون في هذه التّسمية تشنيع على من يَتعرّض لها بأذى أو سلب ونهب.وقد قيل بأنّه كناية عنِ الهَدْيِ المقلَّد أو المعلَّم من غلبة الصّفة على الموصوف فصارت كناية عنه، فكأنّ الهَدي ذُكر مرّتين: الأوّلى باسمه الصّريح الحقيقيّ، والثّانية بصفته على سبيل المجاز أو الكناية[3]، والكناية أظهر وأقوى؛ لأنّها دعوى مقرونة بالدّليل، أي أنّه هدي بدليل اقترانه بعلامة أو قلادة.

ورود القلائـــد مـعـطـوفًا على الهَدي، زيادة في تعظيمه

وحاصل هذا أنّ اللّه تعالى نهى عنِ استحلال الهدي جملة، ثمّ نهى عنِ استحلال قلائدها زيادة تأكيد ومبالغة في التّنبيه على

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/38.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 144.

(3) المجاز المُرسَل: هو الكلام المستعمل في غير المعنى الذي وضع له، لعلاقة غير المشابهة: مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي. ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 1/274، وعلاقة المحليّة كما في ﴿ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾، حيث ذكرها، وقُصد محلّها، والمكان الّذي وُضعَت فيه، وهو الهدي، وأمّا "الكناية هي ترك التصريح بذكر الشّيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك، كما نقول: (فلان طويل النّجاد)، لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة، ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 402، و(القلائد) كناية عن موصوف، هو الهدي، وإرادة المجاز المُرسَل يجعل القلائد وسيلة إبانة للمقصود الأهمّ، وهو الهدي، وإرادة الكناية يجعل القلائد هي المقصود الأهمّ، وهذا هو الأنسب للتّخصيص بعد التّعميم، أي: ذكر القلائد بعد الهدي.

حرمة التّعرّض للهدي، وهي البُدن، بأذًى، فإذا نهى عنِ التّعرّض لمجرَّد قلائد الهَدي الّتي تُعَلَّم به من نِعَال أو لحاء شجر أو غيرهما، فالنَّهي عنِ التَّعَرُّض لذواتها من باب أولى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النّور: 31]، فإذا كان اللّه تعالى نهى النّساء عن إبداء زينتهنّ، فُهِمَ قطعًا النّهي عن محلّ تلك الزّينة، فالنَّهي جاء بالأسلوب الكنائيّ المُصَوِّر، والمؤكّد للمعنى المراد، وهو: ولا تُحِلّوا قلائدها فضلًا أن تُحِلُّوها[1].

دلالة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾:

تخصيص الهدي بالقلائد، جزء من تعظيم الآمر به

يلاحظ هنا أيضا، كما في الشّهر الحرام، مجاز مرسلٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾، ذلك أنّ المراد هو الهدايا، وقد أطلق الحالُّ، والمراد هوالمحلّ، وهو عكس سابقه في موضعه، والقلائد "فيها ثلاثة أقاويل: أنّها قلائد الهدْي، وهو قول ابن عبّاس، وكان يرى أنّه إذا قلّد هديه، صار مُحرِماً. والثّاني: أنّها قلائد من لحاء الشّجر، كان المشركون إذا أرادوا الحجّ قلّدوها في ذهابهم إلى مكّة، وعَوْدهم ليأمنواْ، وهذا قول قتادة. والثّالث: أنّ المشركين كانواْ يأخذون لحاء الشجر من الحرم إذا أرادوا الخروج منه، فيتقلدونه ليأمنواْ، فَنُهواْ أن ينزعوا شجر الحرم فيتقلّدوه، وهذا قول عطاء"[2].

قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾، دون أن يقول: ولا آمّين مَكّة ؟

حكمة النّهي عن منع الكفّار من قصد البيت الحرام، ثمّ نسخه

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، والتّقدير: (ولا تَحِلُّوا قاصدي البيت الحرام) والمقصودالحجّاج، فالمراد قاصدوه لِحَجِّه؛ لأنَّ البيت لا يُقصدُ إلّا للحجّ، ولذلك لم يَقل: ولا آمِّينَ مكّة؛ لأنَّ مَن قَصدَ مكّةَ قد يَقصِدُها لتجارة ونحوها، فدلّ ذِكْرُ البيت الحرام على قصد الحجّ، ومِن جملة

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل، ص: 269.
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 2/7.

حُرمَةِ البيت حُرمَة قاصده، والمراد هنا المشركون القاصدون البيت الحرام للحجّ؛ لأنَّ آمِّينَ البيت منَ المؤمنين مُحرَّمٌ أذاهم في حالة قصد البيت وغيرها منَ الأحوال(1)، وقد كان المؤمنون والمشركون يَحُجُّون البيت الحرام، فنهى اللّٰه تعالى المؤمنين أن يمنعوا أحدًا منَ الكفّار من حجِّ البيت أو التَّعرُّض له، ثمّ نُسِخَ هذا الحُكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التّوبة: 28]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التّوبة: 17]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 18]، فنفى سبحانه المشركين منَ المسجد الحرام(2).

الجملة الحاليَّة، وبيان صفة القوم المُوصَى بعدم إيذائهم:

ما كان من الآية في حقّ مُسلمٍ فهو مُحْكَمٌ، و ما في حقّ كافرٍ فهو منسوخ

جاء قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾ جملة حاليّة، أو صفة؛ لبيان علَّة النَّهي عنِ التَّعرُّض للحجَّاج بسوء، ولو كانوا مشركين، فقد نهى تعالى أن يُتَعَرَّضَ لقوم هذه صفتهم أو هذا حالهم؛ استنكارًا أن يُتعرَّض لمثلهم. ووجه النَّهي عنِ التَّعرُّض للحجيج بسوءٍ، وإن كانوا مشركين؛ لأنَّه تكثر تلاوة القرآن الكريم في تلك المواسم، فيسمعون القرآن، وتقوم عليهم الحجَّة، ولأنَّ الحالة الَّتي قصدوا فيها الحجَّ، وتلبَّسوا عندها بالإحرام، حالة خير، وقرب منَ الإيمان باللّٰه، وتذكُّر نعمه، فيجب أن يعانواْ على الاستكثار منها؛ لأنَّ الخير يتسرَّب إلى النَّفس رويدًا، كما أنَّ الشَّرَّ يتسرَّب إليها كذلك، ولذلك سيجيء عَقِبَ هذه الآية، قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾(3).

معنى الفضل المبتغى، وسرّ تنكيره، في قوله ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾:

الفضل هو خير الدّنيا، وخير الدّنيا يحتمل أن يكون صلاح العمل،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 4/85.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/16.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/85.

طلب الرّزق لا ينافي أداء الشّعائر، والقرب من الله بهما معًا

ويحتمل أن يكون الرّزق والرّبح في التّجارة، واستبعد ابن عاشور الاحتمال الثّاني إلّا إذا أُريد به تمكينهم من إبلاغ السّلع إلى مكّة[1]، يعني أن يكون القصد أساسًا هو الرّبح، ويفصل في هذا قوله تعالى في أثناء الكلام عنِ الحجّ في سياق آخر: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198]، ومعناه كما ورد في التّفسير الميسّر: "ليس عليكم حرج في أن تطلبوا رزقًا من ربّكم، بالرّبح في التّجارة في أيام الحجّ"، وأكثر المفسّرين على هذا المعنى.

دلالة الرّضوان في قول الرّحمن: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾:

مَن قصَد باب الله تعالى وفضله المكنون، لا يخيب ولا يهون

وفي التّعبير بوصف الرّضوان إشارة إلى تشريفهم، والإشعار بحصول مُبتغاهم، وللإشارة إلى إحسانه تعالى إليهم؛ لأنَّ مَن قصد بابه تعالى كان مُحترَمًا باحترام ما قصده، والسِّرُّ فيه تأكيد النَّهي والمبالغة في استنكار المنهيّ عنه[2]، قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في تأويل معنى هذه الجملة: يعني: أنّهم يترضَّون اللّه بحجّهم، وقال بعض العلماء: إنَّ المشركين كانواْ يقصدون بحجّهم ابتغاء رضوان اللّه، وإن كانواْ لا ينالون ذلك، فغير بعيد أن يثبت لهم بذلك القصد نوع منَ الحُرمة، وقال بعض أهل المعاني: معنى قوله ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾، أي: على زعمهم وفيما يظنّون؛ لأنّ الكافر لا ينال الرّضوان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: 97]، وقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان: 49]؛ وذلك على حكاية قولهم: نطلب الرّضوان[3]، وأكثر أهل العلم ومنهم ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة، على أنّ هذه الآية نُسِخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التّوبة: 5]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التّوبة: 28]، فلا يجوز أن يَحجّ مشرك، ولا يأمن الكافر بالأشهر الحرم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/85.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/1804.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/229.

والهَدي، والقلائد، والحجّ[1]، وهذا النّسخ هو الأرجح، لاستبعاد أن يكون هذا الأمر ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، قُصد به المشركون، والمرجّح أن يكون استئنافًا خُصّ به ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ منَ المؤمنين؛ لحاجتهم فيما بينهم إلى هذا الحثّ، ولا سيّما أنّ الكلّ في الحجّ يكون مشغولًا بنفسه، ذاهلًا عن أصحاب الحاجات، وقد يؤثر نفسه على غيره، ولهذا جمع بين البرّ والتّقوى، والعبرة على كلّ حال بعموم اللّفظ، لا بخصوص السّبب.

سرُّ التّعبير بـ(إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾:

العلاقة بين التّحلّل من الإحرام والاصطياد، متاحة في إطارها الزّماني

كان التّعبير بقوله: (إذا)؛ لأنَّ تحلُّل المُحرِم بعد قضاء المناسك، أمر مؤكّد الوقوع؛ لذا ناسبته أداة شرط تدلّ على تحقّق وقوع فعل الشّرط، وهي (إذا)، بخلاف (إنْ) التي تدلّ على الشّكّ في وقوع الفعل، وهذا لا يتناسب مع المعنى هنا، والارتباط بين التّحلل وإمكانيّة الاصطياد، مسألة حكميّة لها ظرف زمانيّ، حقّقه وجود الأداة الشرطيّة (إذا)، ببيان ووضوح.

الغرض من الأمر في قوله: ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾، غايته التّيسير:

الأمر بالاصطياد بعد التّحلّل، للإباحة لا للوجوب؛

الغرض منَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ الإباحة، وليس للوجوب؛ لأنَّ الصّيد مُباحٌ أصلًا، ولكنّه يُحَرَّم تحريمًا مؤقّتًا بحالة التَّلَبُّس بالإحرام، فإذا انفكّ المُحرِم من تلك الحالة عاد الحُكم بالصّيد لأصله، وهو الإباحة بعد حظره لعارض، قال الزّجّاج: "قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾: هذا اللّفظ أمرٌ، ومعناه الإباحة، لأنّ الله (ﷻ) حرّم الصّيدَ على المحرم، وأباحَه لَهُ إِذَا حَلَّ من إِحْرامه، ليس أنّه واجب عليه إِذا حَلَّ أن يصطاد، ومثله قوله: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّه)[الجمعة: 10]، تأْويله أنّه أبيح لكم بعد الفراغ من الصّلاة، ومثل

(1) أبو عبيدة، النّاسخ والمنسوخ، ص: 189، وابن جرير، جامع البيان: 6/60 - 61.

ذلك في الكلام: (لا تَدْخُلَنَ هذه الدّار حتى تُؤدّي ثمنها، فإذا أديت فَادْخُلْها)، تأويله: فإذا أدّيت فقد أُبيح لك دُخولها"[1].

جملة الشّرط متمّمة للجملة المنفيّة في الآية الأولى:

ملاحظة التّقابل مع التّناسب بين الآيتين، في حرمة الصّيد وحلّه

وجملة الشّرط في قوله﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ تتمّة أو تأكيد للجملة المنفيّة في الآية الأولى ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ولهذا عدّ ابن عاشور ما بينهما اعتراضًا بين معنيين متّصلين[2]، ولم يتّصلِ الشّرط بالنّفي في الآية الأولى، فيقول مثلًا: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾؛ ذلك لأنّ الجزء الأوّل منَ المعنى ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ حرام مستثنى من حلال قبله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والجزء الثّاني: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ حلال مستثنى من حرام قبله ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، ويترتّب على هذا نوع منَ التّقابل مع التّناسب والتّوازن بين الآيتين في الحلّ والحرمة، ثمّ إنّه لا يخفى على المتدبّر انضمام الجملة الشّرطيّة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ في المعنى للجملة المنفيّة ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ على ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

توجيه قراءتين

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ لزيادة تقرير مضمون النّهي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إِن صَدُّوكُمْ﴾ بكسر الهمزة، على أنّها شرطيَّة، والباقون بفتحها على أنّها للتّعليل، وهذه القراءة تشير إلى صدّ المشركين المؤمنين عنِ العُمرة عام الحديبيّة، وتنتهي عنِ الاعتداء عليهم عام حجَّة الوداع

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/143.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/81.

الّذي نزلَت فيه السّورة انتقامًا منهم لأجل اعتدائهم السّابق. والمعنى على هذه القراءة: لا يحملنَّكم بُغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم؛ لأنَّهم صدُّوكم عنِ المسجد الحرام، والمعنى على القراءة الثّانية: أنَّه لا يُباح للمسلمين أن يعتدوا على أعدائهم إن صدّوهم عنِ المسجد الحرام، والشّرط على معنى الماضي بتقدير الكون، أي: إن كانوا صدُّوكم عنِ المسجد الحرام[1]، وهذا التّوجيه يجعل القراءتين بمعنى واحد؛ وهو وقوع الصّدّ عنِ المسجد الحرام في الماضي، لكنّ الظّاهر أنّ قراءة الكسر - وهي قراءة سبعيّة صحيحة - تجعل (إن) شرطيّة، وتقلب الماضي على معنى الاستقبال، وقد جاء في مصحف عبداللّه بن مسعود (إن يصدّوكم)[2]، فتكون قراءة فتح (أن) المصدريّة دالّة على ما قد وقع منَ الصّدّ عنِ المسجد الحرام، عام الحديبيّة، وقراءة الكسر على افتراض ما قد يقع منه مستقبلًا، وإن كان مستبعدًا حسبما تدلّ (إن)، لكن فيها إشارة إلى التّأكيد على حرمة بيت اللّه الحرام، وعدم قتال مَن يصدّ عنه؛ منعاً لإراقة الدّماء في بيت اللّه الحرام.

سرُّ الفصل بين النّهيين، في: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ﴾ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾:

بـقـاء حُـرمـة التّعرُّض لسائر الآمِّين، ودلالته عـلـى تـسـامـح المسلمين

كان الظّاهر أن يُقال: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، لكن جاء النَّظم القرآنيّ بتأخير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ عن مُتعلّقه في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ﴾، وذلك بالفصل بين النّهيين بالشّرط في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾؛ لبيان أنَّ حُرمة الاعتداء باقية ما دام المذكورون - المشركون الصّادُّون عن سبيل اللّه - متلبّسين بشعائر الحجّ أو العمرة، وأنّها لا تنفكّ منهم بزوال إحرامهم، كانتهاء حرمة الاصطياد عمّن انفكّ من إحرامه، وبذلك يُعلَمُ بقاء حُرمة التّعرّض لسائر الآمِّين بالطّريق الأَوْلَى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/128.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها: 1/142.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقْل السّليم: 3/5.

إيثار التّعبير بلفظ (جَرَمَ) على (كَسَبَ) في قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾:

لا يحملنّكم بُغضُ كفّار الحديبيّة عن أن تعتدوا عليهم

وأوثر التّعبير بالفعل (جَرَمَ) على الفعل (كَسَب) مع تشابههما في المعنى، وفي التَّعدِّي إلى مفعول واحد وإلى اثنين، حيث يُقالُ: جَرَمَ ذنبًا نحو كسبه، وجَرَمتُه ذنبًا، قطع لكسبه[1]، لذا كان في إيثار التّعبير بـ(جَرَمَ) زيادة تنفير منَ الاعتداء على قاصدي البيت منَ المشركين؛ تعظيمًا لشعائر اللّه، وليس مراعاة لذواتهم، وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: لأن صدّوكم، بإضمار لام التّعليل، والجملة عِلَّة للشّنآن، والمعنى: لا يحملنّكم بُغضَ كفّار مكّة يوم الحديبيّة عنِ المسجد الحرام أن تعتدواْ عليهم بالقتل، وأخذ المال؛ "لأنَّ هذه السّورة نزلَت بعد قصَّة الحديبية، فكانَ الصَّد قد تقدَّم"[2].

دلالة حذف الجار والمجرور والضّمير (عليهم) في قوله: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾:

علَّة منع الاعتداء، بالمحافظة على تعظيم الشَّعائر

وفي قوله: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾ إيجاز بحذف الجارّ والمجرور والضّمير، والتّقدير: عليهم، وقد أومأ الحذف إلى أنّ العِلَّة الحقيقيّة مِن نهي المسلمين عنِ الاعتداء على المشركين الآمِّين البيت الحرام؛ إنَّما هي المحافظة على تعظيم الشَّعائر، لا مَنعُ وقوعه على المشركين مراعاةً لجانبهم.

علَّة النَّهي بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾:

النَّهي عن أسباب الشّيء ومسالكه، نهيٌ عنه بالطّريق البرهانيّ

جاء النّهي هنا عنِ الاعتداء على أكمل وجه وأبلغه وآكده؛ فالنّهي وإن بدا في ظاهره أنّه نهي عن الشّنآن عن فعل الاعتداء على المُخاطَبين، أي: صدوره عنهم، لكنّه في الحقيقة نهيٌ لهم عنِ الاعتداء بأبلغ صورة عن طريق الكناية؛ لأنّ النّهي عن أسباب الشّيء ومباديه المؤدّية إليه، نهي عنه بالطّريق البرهانيّ، وتعطيل

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/56.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 1/433.

للسّبب، وقد يُوجَّه النّهي إلى المسبّب، ويُراد به النّهي عنِ السّبب، كما تقول لمخاطبك: (لا أسمعنّ صوتك ههنا)، تريد بهذا نهيه عن عدم الكلام[1]، والنَّهي في الآية هنا دليل دامغ على أنّ المقصود في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ هم المشركون.

إيثار الدّعوة لعدم الاعتداء، عن الدّعوة لكتمان البغض، مراعاة للمشاعر:

العواطف لا يُقَنَّن لها بتشريع، فتراعى ظواهر الأعمال للعدل مع النّفس

"إنّ الله تعالى لا يمنع مواجيد النّاس أو يكبت مشاعرهم ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم الّتي تنفعل بالبُغض والكُره؛ لأنّه يعلم أنّ ذلك ممّا لا يطيقه الإنسان؛ لأنّها أمور عاطفيّة، والعواطف لا يُقنَّن لها بتشريع؛ لذا لم يقل سبحانه: (اكتموا بُغضكم)، لكنّه نهاهم عنِ الاعتداء، أي: لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم. وعندما يسمع الكافر أنّ الله تعالى يوصي مَن آمن به على مَن كَفَر به، ماذا يكون موقفه؟ إنّه يلمس رحمة الرَّبّ، وفي ذلك لذع للكافر؛ لأنَّه لم يُؤمِن"[2].

علاقة جملة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بما قبلها:

تـرجـيـحُ ما تضمَّنَته الآية مِنَ التَّشريع، على ما اقتضته مِنَ التَّعليل

جاء قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تعليلًا للنَّهي في قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون الجملة مفصولة، ولكنَّها عُطِفَت؛ "ترجيحًا لما تضمَّنته مِنَ التَّشريع على ما اقتضَته مِنَ التَّعليل، يعني: إنَّ واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البرّ والتَّقوى، وإذا كان هذا واجبهم فيما بينهم كان الشَّأن أن يُعينوا على البرّ والتَّقوى؛ لأنَّ التَّعاون عليها يُكسِبُ محبَّة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يُعينوا عليها كلَّ ساعٍ إليها، ولو كان عدوًّا، والحجُّ برٌّ فأعينوا عليه وعلى التَّقوى، فهم وإن

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/5.
(2) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 5/2903.

كانوا كفّارًا، يعاونون على ما هو برٌّ؛ لأنَّ البرَّ يهدي للتَّقوى، فلعلَّ تكرُّر فعله يُقرِّبهم منَ الإسلام، ولمّا كان الاعتداء على العدوّ، إنَّما يكون بتعاونهم عليه نُبِّهوا على أنَّ التَّعاون لا ينبغي أن يكون صدًّا عنِ المسجد الحرام"[1].

علاقة لفظ ﴿ٱلۡبِرِّ﴾ بلفظ ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ في التّعاون في مناسك الحجّ:

النّهي عن التّعاون على الإثم والعدوان، يقوّي الأمر به على البرّ والتّقوى

لا شكّ أنّ الحجّاج يكون فيهم الشّيخ الكبير، ويكون فيهم الضّعفاء وأصحاب العاهات، فيحتاجون إلى مَن يساندهم، ويتعاون معهم في قضاء حوائجهم، وهذا منَ التّعاون على البرّ، أمّا التّعاون على التّقوى، فيكون بأن ينصح بعضهم بعضًا، ويرشد بعضهم بعضًا للمناسك والمشاعر، وينهى بعضهم بعضًا عنِ المنكر، وعموم اللّفظ يجعله يتّسع لأكثر من هذا حتّى يشمل الحجّاج وغيرهم، في بلد اللّه الحرام، وفي غيرها منَ البلاد، ويؤيّده النّهي بعده، في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2]، ويحسن الأخذ بمغزى عموم اللّفظ؛ وهو تربية المؤمنين على التّآزر والتّضامن والتّعاون، ونبذ العصبيّة والأنانيّة والكراهيّة الدّافعة للإثم والعدوان، وبهذا تسود المجتمع المسلم روح المحبّة والتّراحم والتّكافل.

سرُّ تقديم البرّ على التّقوى، في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

البرُّ أعمُّ مِنَ التَّقوى، ولذلك قدّم في سياق الآية الآنفة

قال القُشَيريّ: "البرُّ فعل ما أُمِرت به، والتّقوى تَركُ ما زُجِرَت عنه. ويُقال: البرُّ: إيثار حظّه سبحانه، والتّقوى: تَركُ حظّك. ويُقال: البرُّ موافقة الشّرع، والتّقوى: مخالفة النّفس"[2]، وقُدِّم البرُّ على التّقوى؛ لأنّ البرَّ يتناول الواجب والمندوب إليه، والتّقوى رعاية الواجب، فالبرُّ هنا أعمّ فقُدِّم[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/88.

(2) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/398.

(3) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز، ص: 510.

كما أنَّ البرَّ فيه معنى الأمر والتّبشير، والتّقوى فيه معنى النَّهي والتّخويف؛ فقدّم البرّ لمعناه وتناسبه مع معنى التّعاون، ويُضاف أيضًا أنَّ لفظ البرّ فيه معنى الخير والفرح، والتّقوى فيه معنى الحذر والشِّدَّة، وتقديم البرّ أولى.

وأخيرا: أُخِّر لفظ التّقوى عنِ البرّ؛ ليتناسب مع النَّهي بعدها مباشرة، وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

بلاغة المقابلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾:

المقابلة من بديع البـديـع، وهـي مـؤثّـرة في جلاء المعنى وجماله

إنّ الاعتداء والتّعاون على البرّ والتّقوى ضدّان، وعندما يُذْكَر أمر يَرِدُ على الخاطر ضدّه؛ ولذا أمر اللّه تعالى بالتّعاون على البرّ والتّقوى، بعد النّهي عن الاعتداء.

والتعاون على البرّ: معناه تبادل المعونة، ويكون في الخير بمد يد المعونة في الشّدائد، وكلّ يجود بما عنده لأخيه، وقد نهى سبحانه عن التّعاون على الإثم والعدوان، فنهى عن الإثم الّذي تكون مغبّته على صاحبه، أو تفسد قلبه، وعن العدوان على غيره"[1]، وكانت هذه المقابلة في غاية البيان والتّعبير عن المطلوب، أمرًا ونهيًا.

النُّكتة في تقديم الإثم على العدوان، مع كونهما معًا ضررًا ومفسدة:

تقديم التَّحلية عـلى التَّخلية، منهج في التّربيّة والتّزكية

قُدِّمَ الإثم على العدوان؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، لعمومه، وشموله، ووقوعه في جانب ذات اللّه سبحانه، أمَّا الاعتداء فهو على الآخرين، فهو وإن كان أشدَّ حُرمة إلَّا أنّ مَن يمتنع عنِ الإثم والمعصية للّه فلن يرجعه عن ذلك شيء، والتّرتيب في الآية بحسب النّهي، منَ الأشدّ إلى الشّديد؛ ليناسب النّهي، قال الآلوسيّ: "وعن سهل أنّ الْبِرِّ الإيمان، وَالتَّقْوى السّنة، والْإِثْمِ الكفر،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2026.

وَالْعُدْوانِ البدعة"[1]، والإثم مقدّم لذلك؛ لأنّه الطّريق إلى العدوان، ومن تجرّأ على الله بالإثم كان تجرّؤه على النّاس بالعدوان، فنهى الله تعالى عن أوّل الطّريق وآخره، ثمّ إنّ الحديث في أوّل الآية عن مخالفة بين العبد وربّه، ثمّ انتقل الحديث إلى مخالفة بين النّاس وبعضهم، فناسب ذلك أن يقدّم الإثم على العدوان، ليؤكّدالمعنى السّابق في الآية الكريمة.

وجه ارتباط التَّذييل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بما قبله:

العـدول عـن المُـضـمَـر إلى الظّاهر؛ لتربية المهابة وترسيّتها

وجه ارتباط التَّذييل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بما قبله، فقد جاء تعليلًا لِما قبله منَ الأمر بالتَّعاون على البرّ والتّقوى، والنَّهي عنِ الإثم والعدوان، وأَكّد هذا التَّعليل بإنَّ واسميّة الجملة؛ لتوكيد مضمونه، وتقوية استقلال جملته، وفي هذه الجملة التّذييليّة قدرٌ كبير منَ التّحذير؛ لردع كلّ آثم متجاوز في حقّ الله، وفي حقوق العباد، وأُعيد لفظ الجلالة في ختام الآية الكريمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، حيث كان منَ الظّاهر أن يُقال: واتّقوا الله إنّه شديد العقاب، من باب العدول عنِ المُضمَر إلى الظّاهر؛ لتربية المهابة في نفوس المؤمنين حثًّا لهم على الامتثال لأوامره سبحانه، واجتناب نواهيه.

من مشتبه النَّظم[2]:

علّة اختصاص المائدة بإضافة اسم الرّبّ إليهم، في قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾:

والسّؤال: لِمَ اختُصَّت سورة المائدة بإضافة اسم الرّبّ تعالى إليهم بخلاف السّورتين؟ والجواب: إنّ آية المائدة مَبنيَّة على تأنيس وتقريبٍ واستلطافٍ، وقد تضمّن الوصف بالرّبوبيَّة في قوله: ﴿مِّن

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/240.

(2) قال تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾ [المائدة: 2]، وقال: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29]، وقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الحشر: 8].

﴿رَّبِّهِمۡ﴾ هذه المعاني الثّلاثة، وقد استفيد التّأنيس مِن افتتاح الآية الكريمة بالخطاب بوصف الإيمان، أمَّا آية الفتح فلم يُذكَر فيها تخويف مِن مُرتَكَب محظور، ولا بُنِيَت على ذلك، ولم يكن هناك داعٍ لما يستدعى التّأنيس كما في آية المائدة، وهذا مع أنّ المذكورين في آية الفتح أعظم الأمّة قَدرًا وأعلاهم مَنزِلة، وهم أهل المزيَّة والاختصاص، فلم تُبنَ الآية إلّا على مدحهم، وبيان مزيّتهم الّتي لا يدركها غيرهم، ولم يكن فيها تخويف، يدعو إلى تأنيس مَن خوطب بها، كما في آية المائدة، وعلى ذلك وردَت آية الحشر منَ الثّناء والمدحة، ولم يتخللها نهي ولا تخويف ولا ورود تفضيل بذكر مخالفي تلك الأحوال، فقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: 8]، وبهذا يتَّضح الوجه في ورود كلّ مَوضِع بما يناسبه، وإن عُكِس الوارد فيها لَنَبا به المقام والسّياق[1].

مِن متشابه النَّظْم[2]:

اشتراك الآيتين في الحثّ على مكارم الأخلاق، وافترقا في الأمر بترك الاعتداء

الآيتان المقصودتان، هما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: 2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾[المائدة: 8]، فالملاحظ أنّ الآيتين اتفقتا على وصيّة المؤمنين، وحضّهم على مكارم الأخلاق، والعفو عمّن تَقَدَّمَت منه إساءة أكسبت بغضه، فاستوتِ الآيتان في أمر المؤمنين بمكارم الأخلاق، ثمّ اختلف تعليق ما حُذِّروا منه، فقيل في الآية الأولى: ﴿أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾، وفي الآية الثّانية: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾، والاعتداء أشدّ وأعظم من عدم العدل، فما السّرّ في حذف (على) منَ الآية الأولى، وإثباتها في الآية الثّانية ؟ ولماذا ذكر الاعتداء في الأولى، والعدل في الثّانية؟ وما مناسبة كلّ لسياقه؟ والجواب على ذلك: أنّ الآية الأولى ورد فيها الإفصاح عن علَّة البغضاء الحاملة

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/233 - 234.

(2) الآيتان المطلوبتان، هما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: 2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: 8].

على الرّغبة في الانتصار والانتقام، وهي صدّهم عنِ البيت عام الحديبيّة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾، أي: مِن أجل ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾، أي: مَنَعوكم، فـ﴿أَن﴾ هنا مصدريّة في موضع المفعول له، فلمّا وقع الإفصاح بسبب الشّنآن ناسب النَّظم الإفصاح بالعقوبة عليه، وهو الاعتداء بالانتقام، ومجازاة السَّيّئة بالسَّيّئة، لولا ما دعا سبحانه إليه منَ التَّخَلُّق الإيمانيّ المشروع للمؤمنين تقديمه واختياره، فقيل: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾، أي: لا يحملنَّكم ذلك على أن تعتدوا، أي: على الاعتداء. ولمَّا لم يَرِد في الآية الثّانية إفصاح بجريمة، بل بُنِيَت على أَمر المؤمنين بالعدل، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، فلمّا أُمروا بالعدل ناسب ذلك وصيّتهم، وأمرهم ألَّا يحملهم شيءٌ على ترك العدل الّذي أُمروا به، فقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، فاتَّضح بهذا علَّة الحذف والإثبات في كلتا الآيتين[1]. أمّا حذف (على) في الأولى، وذكرها في الثّانية فسببه أنّ الذّكر يفيد التّوكيد، فذكر ﴿عَلَىٰٓ﴾ في الآية الثّانية؛ لأنّها آكد؛ ذلك أنَّ الآية الأولى في حالة وقعَت ومضَت، وهي حالة عارضة، وذلك في قوم صدّوهم عنِ المسجد الحرام، وهي في أهل مكّة، وذلك عام الحديبية. أمَّا الآية الثّانية فهي نهيٌ عن حالة مستديمة إلى يوم القيامة، وهي النَّهي عن عدم العدل، ثمّ إنَّ الاعتداء يدخل في عدم العدل؛ لأنّه اعتداء، فدخلت الآية الأولى في الثّانية، فالثّانية آكد وأعمّ وأشمل فجاء فيها بـ﴿عَلَىٰٓ﴾، وحذفها منَ الأخرى[2].

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/235 - 236.

(2) السّامرائيّ، أسئلة بيانيّة في القرآن الكريم، ص: 51.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى في أوَّل السُّورة: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ثمَّ ذَكَرَ فيه استثناءَ أشياءَ تُتلَى عليهم في قَوْله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ذَكَرَ هنا تلك الصُّورَ المستثناةَ مِنْ ذلك العموم، فهذه الآيةُ الكريمةُ تفصيلٌ لقوله تعالى في الآية الأولى مِن هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، حيثُ ذَكَرَ في هذه الآيةِ سائرَ المُحرَّماتِ من اللُّحوم، وهي عَشرةٌ.

ويقال أيضًا: لمَّا بيَّن الله تعالى في الآية السَّابقة تحريمَ الصَّيْدِ في وقتٍ مُعَيَّن، ومكانٍ مُعَيَّن، وحالٍ مُعَيَّنة، وهذا في البيتِ الحرام، وفي الأشهرِ الحُرُم المُخَصَّصةِ للحَجِّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197].

بيَّنَ الله تعالى في هذه الآيةِ المُحَرَّماتِ من الحيوان الَّذي كان في أَصْله حلالًا، ولكنْ كان سَبَبُ التَّحريم مُقْترنًا بهلاكه، ممَّا يُهْلَكُ بِمَوتٍ مِنْ غيرِ ذَبْحٍ، كذلكَ بعضُ أجزائه، وبَيَّنَ تحريمَ حيواناتٍ أُخرى، وبعضَ الأفعالِ الَّتي تَقترنُ بالذَّبْح عندَ الَّذين أباحوا المَيْسرَ لأنفسهم؛ لذا قالَ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دمي).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾: الموت: زوال القوَّة النَّامية والقوَّة الحاسَّة الموجودة في الحيوان، والميتة من الحيوان: ما زال روحه بغير تزكية(1)، ويدور المعنى المِحوريُّ لهذه المادَّة حول: التَمَدُّدِ مع هُمُودٍ وسُكونٍ وذهابِ الحِدَّةِ المُعتادةِ، كالأرضِ المَوَاتِ، وقد قالَ تعالى عن الأرض في الإنْباتِ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحجّ: 5]، وكذلك الصَّرَعُ والمَوتُ والنَّومُ، وسكونُ الرِّيحِ، وذهابُ حِدَّةِ الحَرِّ والبَرْدِ، فكُلُّ ذلكَ فيهِ تَمَدُّدٌ وهُمُودٌ.

ومِنَ المجاز: رَجُلٌ مَوْتانُ الفؤادِ: غيرُ ذكيٍّ ولا فَهِم، وماتَ الرَّجلُ: خَضَعَ للحَقِّ، فمن الموت ضدُّ الحياة: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: 157]، والمَيْتَةُ: ما لم تُدْرَكْ تَذْكيتُه ممَّا يُؤكَلُ، و﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾(2): الحيَوانُ الَّذي تُفارِقُه الحياةُ مِنْ دونِ ذَبْحٍ.

2) ﴿وَٱلدَّمُ﴾: الدَّمُ مِنَ الأَخْلاطِ: مَعْرُوفٌ، وَقالَ أبو إِسْحاقَ: أَصلُه: دَمَيٌ، قالَ: وَدَليلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: دَمِيَتْ يَدُه(3)، وجمعُه: دماءٌ، قال تعالى: ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: 84]، وقد دَمِيَت الجِراحَةُ، وفَرَسٌ مَدْمِيٌّ: شديدُ الشُّقْرَةِ، كالدَّمِ في اللَّونِ، والدُّمْيَةُ: صُورةٌ حَسنةٌ، وشَجَّةٌ دامِيةٌ(4)، والدَّمُ هُنا هو: الدَّمُ المُهَرَاقُ، أي: المَسْفُوحُ، وهو الَّذي يُمكِنُ سَيَلانُهُ، كما صُرِّحَ بِهِ في آيةِ الأنعامِ، حَمْلًا لِمُطلَقِ هذهِ الآيَةِ على مُقيَّدِ آيَةِ الأَنْعامِ، وهو الَّذي يَخْرُجُ مِن عُرُوقِ جَسَدِ الحَيَوانِ، بِسَبَبِ قَطْعِ العِرْقِ وما عليهِ مِنَ الجِلْدِ، وهو سائِلٌ لَزِجٌ، أَحْمَرُ اللَّوْنِ، مُتَفاوِتُ الحُمْرَةِ، باخْتِلافِ السِّنِّ، واخْتِلافِ أَصْنافِ العُرُوقِ(5).

3) ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: رُفِعَ فيه الصَّوتُ بتَسميَةِ غيرِ اللهِ، أو ما ذُبِحَ لغيرِ اللهِ، وأصلُ (هَلَّ): يَدُلُّ على رفْعِ صوتٍ، ومنه قولهم: أَهَلَّ بالحجِّ: رَفَعَ صوتَه بالتَّلبيَةِ، واسْتِهْلالُ الصَّبيِّ، أيْ: صوتُه، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذكر عليه غير اسم اللّٰه، وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام(6).

---

(1) الراغب، المفردات: (موت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (موت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دمي).
(4) الرّاغب، المفردات: (دم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/89.
(6) الراغب، المفردات: (هلل).

4) ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾: الَّتي تموتُ خَنْقًا: وهو حَبْسُ النَّفَسِ، سواءٌ فَعَلَ بها ذلكَ آدميٌّ، أم اتَّفَقَ لها ذلكَ في حَجَرٍ أو شجرةٍ أو حَبْلٍ أو نحوِه، وأصلُ (خَنَقَ): يدلُّ على ضِيقٍ، والمُنْخَنِقَةُ، يقالُ: خَنَقَهُ فاخْتَنَقَ وانْخَنَقَ، والانْخِناقُ: انْعصارُ الخِناقِ في العُنُقِ[1].

5) ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾: وَقَذَهُ: ضَرَبَهُ حتَّى استَرْخَى، وأشرفَ على الموتِ، وَوَقَذَ الشَّاةَ: ضَرَبَها بالخَشَبِ حتَّى تموتَ[2]، والمَوقُوذَةُ: المقتولةُ بالضَّربِ، والوَقْذُ: الإيلامُ بالضَّرْبِ، وأصْلُ (وَقَذَ): يَدُلُّ على ضَرْبٍ بخَشَبٍ، الوَقَائِذُ: حِجَارةٌ مفروشةٌ، واحدتُها وَقيذَةٌ، والمعنى المِحْوَريُّ: صَدمٌ بقوَّةٍ، يضغطُ المُنْتَبِر، فيُرِقُّه، كالحجارةِ المذكورةِ، كأنَّها ضُغِطَتْ، فانْفَرَشَتْ.

6) ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾: رَدِيَ في الهُوَّةِ رَدًى وتَرَدَّى: تَهَوَّرَ، وأَرْدَاهُ اللهُ ورَدَّاه فتَرَدَّى: قَلَبَهُ فانْقَلَبَ، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 11]، قِيلَ: إذا ماتَ، وقِيلَ: إذا تَرَدَّى في النَّارِ، مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾، وهيَ: الَّتي تَقَعُ مِنْ جَبَلٍ، أو تَطيحُ في بِئْرٍ، أو تَسْقُطُ مِنْ مَوضِعٍ مُشْرِفٍ، فتَموتُ، وقالَ اللَّيْثُ: التَّرَدِّي: هو التَّهَوُّرُ في مَهْواةٍ[3]، وَالْمُتَرَدِّيَةُ: الواقِعةُ مِنْ جَبَلٍ أو حائطٍ، أو في بِئرٍ، يُقالُ: تَرَدَّى؛ إذا سَقَطَ، وأصلُه: يَدُلُّ على رمْيٍ أو تَرامٍ، وما أشبهَ ذلكَ.

7) ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: المَنْطوحةُ الَّتي نَطَحتْها شاةٌ أو بقرةٌ، فماتَتْ.

8) ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾: يقول ابن فارس: "الذَّالُ والكافُ والحرفُ المُعتَلُّ أَصْلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يَدُلُّ على حِدَّةٍ في الشَّيءِ ونَفَاذٍ، ومِنَ البابِ: ذَكَّيْتُ الذَّبيحَةَ أُذَكِّيها[4]"، وذكَّيتُ الشَّاةَ: ذَبَحتُها، وحقيقةُ التَّذكيةِ: إخراجُ الحرارةِ الغَريزيَّةِ، لكنْ خُصَّ في الشَّرعِ بإبطالِ الحياةِ على وجهٍ دون وجهٍ، ويَدُلُّ على هذا الاشتقاقِ قولُهم في المَيِّتِ: خامِدٌ وهامِدٌ، وفي النَّارِ الهامِدَةِ: مَيِّتَةٌ[5]"، ومعنى ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾: على ما سبق: أيَ: إلَّا ما أَدْرَكْتموهُ وفيهِ بَقيَّةُ حياةٍ، يَضطرِبُ اضطرابَ المَذبوحِ وذَكَّيْتُموه[6]".

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خنق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقذ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ردي).
(4) ابن فارس، المقاييس: (ذكا).
(5) الراغب، المفردات: (ذكا).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/57.

9) ﴿ذُبِحَ﴾: الذَّبح: أصل الذَّبح: شقُّ حلق الحيوان[1]، وذبَحْتُم، فقَطَعْتُم أَوْداجَه، وأنهَرْتُم دمَه.

10) ﴿ٱلنُّصُبِ﴾: الحَجَر، أو الصَّنَم الَّذي يَذْبحونَ عنده، أو يُنصَبُ للعبادةِ، وجمْعُه: أَنْصابٌ، وقيلَ: النُّصُبُ جَمْعٌ، مُفردُه نَصِيبٌ، وأصلُ (نصب): يَدُلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهْدافٍ في اسْتواءٍ، والنُّصُبُ: جَمْعُ نِصابٍ، مثلَ: حِمار وحُمُر، وجائزٌ أنْ يكونَ واحدًا، وجَمْعُهُ: أَنْصابٌ، مثلَ: طُنُب وأطناب[2].

11) ﴿تَسۡتَقۡسِمُواْ﴾: القسمُ: إفراز النصيب، يقال: قسمت كذا قَسمًا وقِسمة، واستقسمته: سألته أن يقسم، ثمَّ قد يستعمل في معنى قَسم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾[3]، وقال الأزهريُّ: "قولُه: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ معناهُ: تَطْلُبوا مِنْ جِهَةِ الأَزْلامِ، وما كُتِبَ عليها ما قُسِمَ لكم مِنْ أحدِ الأمرَين[4]". وأنشد لِلَبيد:

فقُولا لَهُ إن كَانَ يَقْسِمُ أمره *** أَلَمَّا يَعِظْك الدَّهْرُ أمُّكَ هَابِلُ[5].

12) ﴿بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾: جمْعُ زَلَمٍ وزُلَم، وهي: القِداحُ الَّتي كانوا يَضربونَ بها على المَيسرِ ويَستَقْسِمون بها، أو هي سِهامُ العربِ، وأصل (زلم): يَدُلُّ على نحافةٍ ودِقَّةٍ في ملاسة "وأمَّا الأَزْلامُ في قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾؛ فهي أسماءُ هذه القِداحِ الَّتي كانت لقريشٍ في الجاهليَّة، وقد زُلِّمَتْ، أيْ: سُوِّيَتْ، ووُضِعَتْ في الكعبةِ، يقومُ بها سَدَنَةُ البيتِ، فإذا أرادَ الرَّجُلُ أمرًا؛ أتى السَّادِنَ، فقال له: أَخْرِجْ إليَّ زَلَمًا، فيُخرجُه، فإنْ خَرَجَ قَدَحُ الأمرِ؛ مضى على ما عَزَمَ عليه، وإنْ خَرَجَ قَدَحُ النَّهيِ؛ قَعَدَ عمَّا أرادَه، وربَّما كان مع الرَّجلِ زَلَمانِ قد وَضَعَهما في قِرابه، فإذا أرادَ الاسْتِقسامَ؛ أخرجَ أحدَهما[6]"، وقال الحُطَيئةُ:

لا يَزْجُرُ الطَّيرُ إنْ مرَّتْ به سُنُحًا ***ولا يُفيضُ على قِسْمٍ بأَزْلامِ[7].

(1) الراغب، المفردات: (ذبح).
(2) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/146.
(3) الراغب، المفردات: (قسم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/2961.
(5) ديوان لَبيد، ص: 254، والبيتُ من قصيدة يرثي فيها النّعمان بن المنذر، والمراد بـ: (أُمُّكَ هابِلُ): الدُّعاء، يقال: هَبَلَته أمُّه، أي: ثكلته.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/252.
(7) ديوان الحُطَيئة، ص: 227.

أيْ: تَطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لكم، والاسْتِقسامُ بها: أن يُضرَبَ بها، ثمَّ يُعمَلَ بما يَخْرُجُ فيها من أمْرٍ أو نهيٍ، وأُخِذَ الاسْتقسامُ من القَسْمِ، وهو النَّصيبُ، كأنَّه طَلَبُ النَّصيبِ.

13) ﴿فِسۡقٌۗ﴾: خروجٌ عن حدودِ الشَّرعِ، من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ إذا خرَج عن قِشْرِه، والفُسُوقُ: الخروجُ من الطَّاعة إلى المعصِيَة، والخروجُ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[1].

14) ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾: فلا تَخافوهم، والخَشْيةُ: أكثرُ ما تكونُ عَنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيلَ: هي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأصلُ خَشِيَ: فواتٌ بالكلِّيَّةِ، يدلُّ على خوفٍ وذُعْرٍ.

15) ﴿مَخۡمَصَةٍ﴾: أي: مَجاعةٍ؛ مُشتقَّةٌ من خَمْصِ البَطْنِ، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ، والخَمْصُ والمَخْمَصَةُ: خَلاءُ البَطْنِ من الطَّعامِ جُوعًا، وأنشدوا:

يرى الخُمص تعذيبًا وإن يلق شِعبةً *** يَبِتْ قلبُه من قلَّة الهمِّ مُبْهَمَا[2].

وأصله من الخَمص: الَّذي هو ضمور البطن، يقال: رجل خَميص وخُمصان، وامرأة خَمِيصة وخُمصانة، والجمع خمائص وخُمصانات، قال الأعشى:

تبيتُون في المَشْتَى مِلاءً بُطونُكمْ *** وجاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصا[3].

16) ﴿مُتَجَانِفٍ لِّإِثۡمٍ﴾: أصلُ الجَنَف: المَيْلُ ميلًا ظاهِرًا، والعُدولُ عن الحقِّ[4]، ومعناه هنا: مُنحرِفٌ مائلٌ إلى ذلك، متعمِّدٌ بأنْ يأكُلَ بعدَ زوالِ الضَّرورة، أو يأكُلَ فوقَ الشِّبَع.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

حَرَّمَ اللهُ عليكم ما ماتَ مِنْ حيوانٍ دونَ ذَكاة، وحَرَّمَ عليكم الدَّمَ المسفوحَ، ولَحْمَ الخنزيرِ، وما ذُكِرَ عليه اسْمٌ غيرُ اسمِ اللهِ عند الذَّبحِ، والمَيْتَةُ بالخَنْقِ، والمَيْتَةُ بالضَّرْبِ، والسَّاقطةُ مِنْ مكانٍ عالٍ، والمَيْتَةُ بنَطْحِ غيرِها لها، وما افترَسه سَبُعٌ، مِثْلُ: الأسدِ والنَّمِرِ والذِّئْبِ، إلَّا ما أَدْرَكتموهُ حيًّا من المَذْكوراتِ وذَكَّيْتموه، فهو حلالٌ لكم، وحَرَّمَ عليكم ما كان ذبحُه للأصنام، وحَرَّمَ عليكم أنْ تَطْلبوا ما قُسِمَ لكم من الغيبِ بالأقداحِ، وهي

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (زلم).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خمص)، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (خمص)، والبيت لحاتمٍ الطّائي، في ديوانه، ص: 82.

(3) البيت في ديوان الأعشى، ص: 321، والواحديّ، التّفسير البسيط: 7/241.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جَنَفَ).

حجارةٌ، أو سِهامٌ مكتوبٌ فيها: (افعل) (لا تفعل)، فيَعْمَلُ بما يخرُجُ له منها، فَفِعْلُ تلك المُحرَّماتِ المذكورةِ خُروجٌ عن طاعة اللّه، فاليومَ يَئِسَ الَّذين كفروا مِن ارتدادكم عن دِين الإسلام؛ لِمَا رأَوا مِنْ قوَّته، فلا تَخافوهم وخافوني وَحدي، اليومَ أكملْتُ لكم دِينكم الَّذي هو الإسلامُ، وأتممْتُ عليكم نعمتي الظَّاهرةَ والباطنةَ، واخترْتُ لكم الإسلامَ دِينًا، فلا أَقْبَلُ دِينًا غيرَه، فمَنْ أَلجأتْهُ الضَّرورةُ إلى أَكْلِ شَيءٍ من المحرَّماتِ الَّتي ذَكَرَها اللّه في الآيةِ، غيرَ مُريدٍ للحرام، فله تَناوُلُ ما يَدْفَعُ حاجتَه، واللّه غفورٌ رحيمٌ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

من مقاصد الشَّريعة الحفاظ على الفرد والمجتمع

دلالة فصل هذه الجملة عمَّا قبلها:

فُصلت هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لأنَّها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ فيه شُرُوعٌ في بَيانِ المُحَرَّماتِ الَّتي أُشِيرَ إِلَيْها بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، وهي بَيانٌ لِما لَيْسَ بِحَلالٍ مِنَ الأنْعام، وَكُلُّها مِن قَبيلِ المطعوم؛ إلَّا الأخير، وهو الاستقسامُ بالأزلام.

دلالة التَّحريم في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ دون المنع:

عبَّر بالتَّحريم دون المنع؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالحرام: هو الممنوع منه، إمَّا بتسخيرٍ إلهيٍّ، وإمَّا بشريٍّ، وإمَّا بمنعٍ قهريٍّ، وإمَّا بمنعٍ من جهة العقل، أو من جهة الشَّرع، أو من جهة من يُطاع أمره.

وأمَّا المنع: فهو أن تحول بين الرَّجل وبين الشَّيء الذي يريده.

ولأنَّ الحرام يترتَّب عليه عقوبة بخلاف المنع، وضدُّه الحلال، وعلى ذلك فالتَّحريم: ضدُّه التَّحليل، والمنع: ضدُّه العطاء، ولأنَّ التَّحريم منه التَّحريم القدريُّ: كما في قوله: ﴿۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: 12]، والشَّرعيُّ: كما في هذه الآية وغيرها.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حُرِّمَتْ﴾ دون المضارع:

عبَّر القرآن الكريم بالفعل الماضي ﴿حُرِّمَتْ﴾ للدَّلالة على أنَّ هذه المحرَّمات أمرٌ قدَّره اللّه أزلاً، وهو موجود في كلِّ الشَّرائع السَّماويَّة؛

لأنَّها ممَّا تعافه النُّفوس، ولا تقبله الطِّباع السَّليمة، وفيه إشارة إلى الالتزام بتطبيق ما حرَّم اللّه، فلا ينبغي الاعتداء على المحرَّمات بتحليلها، ولا بتركها بدعاوى باطلة؛ لأنَّ العقل السَّليم يوافق تحريم الشَّرع، ويؤكِّد ذلك استعمال القرآن الكريم لهذا الفعل في كلِّ المحرَّمات كما في سورة البقرة والنِّساء والمائدة والأنعام والنَّحل، وغيرها من السُّور.

سِرُّ بناء الفعل لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ﴾:

بُنِيَ الفعلُ لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ﴾؛ لِلْعِلْم بالفاعل، ولِأنَّ الخِطابَ للمؤمنين الَّذين يعلمون أنَّهُ لا مُحَرِّمَ إلَّا اللّه؛ وللإشْعار بِأنَّ هَذِهِ الأشْياءَ لِشِدَّة قَذارَتِها، كَأنَّها مُحَرَّمَةٌ بِنَفْسِها[1].

دلالة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾:

المقصود من تحريم هَذِهِ المَذْكُورات تَحرِيمُ أكلِها

التَّحريم ليس صفة للأعيان، والأعيان ليست موردًا للتَّحليل والتَّحريم ولا مصدرًا، وإنَّما يتعلَّق التَّكليف بأفعال المكلَّفين، لكنَّ الأعيان لَمَّا كانت موردًا للأفعال؛ أُضيف الأمر والنَّهي والحكم إليها، وعُلِّق بها مجازًا على معنى الكناية بالمحلِّ عن الفعل الذي يحلُّ به.

والمعنى المراد على ذلك: تَحْرِيمُ أكل هَذِهِ المَذْكُوراتِ؛ لِأنَّهُ المَقْصُودُ مِن مَجْمُوعِ هَذِهِ المَذْكُوراتِ هُنا، وهي أحْوالٌ مِن أحْوالِ الأنْعام تَقْتَضِي تَحْرِيمَ أكْلِها[2]؛ فحُذِفَ المضافُ، وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه.

سِرُّ إدماج لحم الخنزير في المحرَّمات مع أنَّه ليس من أنواع الأنعام:

أُدْمِجَ فِيها مع أنَّه لَيسَ مِن أنْواعِ الأنْعامِ؛ لِاسْتِيعابِ مُحَرَّماتِ الحَيَوانِ[3].

المراد بـ (ال) في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾:

المراد بـ (الـ) الجنسيَّة، والمعنى في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾: تَحْرِيمُ أكْلِ المَيْتَةِ، وهي ما فارَقَهُ الرُّوحُ حَتْفَ أنْفِهِ من

(1) الراغب، المفردات: (حرم)، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/90.

غَيْرِ سَبَبٍ خارِجٍ عَنْهُ، "وهي في عُرْفِ الشَّرْعِ: ما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، أَوْ قُتِلَ على هَيْئَةٍ غير مَشْروعةٍ، إمَّا في الفاعِلِ أَوْ في المفعولِ، فَدَخَلَ فِيها: المُنْخَنِقَةُ والمَوْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ، وما عَدا عَلَيْها السَّبُعُ(1)".

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور للاختصاص، ولإظهار امتنان اللّٰه تعالى على المؤمنين بتحريم هذه المذكورات الَّتي تحمل الأذى والضَّرر لهم.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ على الميتة:

نُكتة ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ

عُطفت؛ لأنَّ هذه المعطوفات المذكورة هنا داخلةٌ في حُكْم المُحَرَّمات، وخصَّها بالذِّكر من قَبيلِ ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ (الميتة)، والغَرَضُ من ذِكْرِها بخُصوصِها: "هو الرَّدُّ على أهل الجاهليَّة؛(2)"؛ لأنَّهم كانوا يأكلونَها، ولِئلَّا يَغْتَرَّ أحدٌ باستباحةِ بعضِ العرب لها في الجاهليَّة، ولِئلَّا يَشْتَبِهَ فيها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ لموتِها سببًا معروفًا، جاء التَّحريم؛ ليرفع هذا الاشتباه، وبَدَأَها بالمُنْخَنِقَة، وهي الَّتي تموتُ بالخَنْقِ، سواءٌ بنَفْسِها: كإدخالِها رأسَها في شيءٍ ضَيِّقٍ، فتَعْجِزُ عن إخراجِه حتَّى تموتَ، أو بخَنْقِ غيرِها لها، والمعنى: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا- أَكْلَ المُنْخَنِقَةِ، والمَوْقُوذَةِ، وهي: الَّتي تُضرَبُ بشَيءٍ ثقيلٍ غيرِ مُحَدَّدٍ حتَّى تموتَ، كالَّتي تُضرَبُ بِعَصًا أو حَصًى أو خَشَبةٍ.

والمُتَرَدِّيَةُ، وهي الَّتي تَسقُطُ مِنْ مَوضِعٍ عالٍ، فتموتُ بذلكَ، أيْ: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا- أَكْلَ المُتَرَدِّيَة.

وَالنَّطِيحَةُ، وهي: الَّتي ماتتْ بسَبَبِ نَطْحِ غيرِها لها، أيْ: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا - أَكْلَ المَنْطوحة.

(1) القاسِميّ، مَحاسن التَّأويل: 7/1808.
(2) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 1/460.

إعجازٌ علميٌّ في القرآن الكريم:

حكمة تحريم الميتة والدَّم

حِكْمَةُ تحريم المَيْتَةِ والدَّم: الضَّرُّ والاسْتِقذارُ، "ولِكُلِّ تحريم حِكْمَةٌ قد تكونُ ظاهرةً، وقد تكونُ خافيةً، والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ على نبيٍّ أُمِّيٍّ، في أمَّةٍ أُمِّيَّة، لا تَعرِفُ المسائلَ العِلْمِيَّةَ الشَّديدةَ التَّعقيدِ، وطَبَّقَ المؤمنونَ الأوائلُ تعاليمَ القرآنِ؛ لأنَّ اللّه الَّذي آمنَّا به إلهًا هُوَ مُشَرِّعُها، وهو يريدُ صِيانةَ صَنْعتِه"(1).

وقد اكتشف العلم الحديث بعضًا من حِكم هذا التَّحريم، وذلك من خلال البحوث الَّتي أجراها: أنَّ الميتة تنمو فيها البكتريا الضَّارَّة، كما أنَّ الدَّم تنمو فيه البكتريا بشكل أسرع، خاصَّةً مع كثرته، وهي بطبيعتها تؤدِّي إلى إصابة الإنسان بالأمراض؛ لذلك كان القرآن الكريم سبَّاقًا في تحريم أكل الميتة والدَّم حفاظًا على النَّفس البشريَّة، والحفاظ عليها من مقاصد هذا الدِّين.

دَلالة (ال) في كلمة ﴿وَٱلدَّمُ﴾:

حمل المطلق على المقيَّد

(الـ) في كلمة ﴿وَٱلدَّمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾: للعهد، وهو الدَّمُ المخصوصُ بصِفته، وهو أنْ يكونَ مسفوحًا، أمَّا ما كان منه غيرَ مسفوح؛ فليس بِمُحَرَّم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145].

فقُيِّد الدَّم بالمسفوح حملًا على آية سورة الأنعام السَّابقة؛ لأنَّه من القواعد العلميَّة: أنَّ المطلق يحمل على المقيَّد؛ إذا اتَّحد الحكم والسَّبب، والحكم هنا: التحريم؛ لأنَّ المراد به: المسفوح؛ ليخرج ما خالط اللَّحم، وهو غير مُحرَّم، وكانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَجْعَلُونَهُ في المَباعِرِ(2)، ويَشْوُونَهُ، ويأْكُلُونَهُ.

---

(1) الشَّعراوي، تفسير الشّعراوي: 5/2915، ولمزيد من التفصيل، ينظر: موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

(2) المباعر: الأمعاء، يُجعَلُ فيها الدَّمُ بعد فَصْده، ويُشْوى للضّيف.

وصـــف الــدَّم بالمسفوح، كما في سورة الأنعام يــؤكِّــد صـدق حـديـث رسـول اللـه الــوارد في تـحليل الكبد والطِّحال

وأَمَّا ما كان قد صار في معنى اللَّحم، كالكَبِدِ والطِّحال؛ فَمُباحان؛ لأنَّهما دَمان غيرُ مسفوحَين، ولقوله ﷺ: "أُحِلَّتْ لنا مَيتتان، ودَمان: الكبد والطِّحال، والسَّمك والجراد[1]"، وما كان في اللَّحْم غير مُنْسَفِحٍ؛ فإنَّ ذلك غيرُ حرامٍ؛ لإجماع الجميع على ذلك.

دَلالة ذِكْر اللَّحْم وإضافته إلى الخِنْزير في الآية الكريمة:

وذُكِرَ اللَّحْمُ، وأضيفَ إلى الخنزير في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾؛ ليَدُلَّ على عموم تحريمه، فاللَّحْمُ يتناولُ شَحْمَهُ وعَظْمَهُ وسائرَ أجزائِه، وخُصَّ لَحْمُهُ مَعَ أنَّ سائِرَ أجْزائِه أيْضًا في حُكْمِه؛ لِأنَّهُ مُعْظَمُ ما يُؤْكَلُ مِنَ الحَيَوانِ وسائِر أجْزائِه بِمَنزِلَةِ التَّابِعِ لَه، وأيضًا: فإنَّ تحريمَ الخنزير لَمّا كانَ مُبْهَمًا؛ اقتضى ذلك تحريمُ سائرِ أجزائه كالمَيْتَةِ والدَّم، وخصَّه بالذِّكر؛ لأنَّ بعضهم كان يفضِّله على سائر اللُّحوم، فربَّما استعظموا وقوع تحريمه، فذكره لزيادة التَّغليظ.

وفي هذا إشارة إلى إخبار القرآن الكريم عن بعض الشُّعوب الَّتي تأكل لحم الخنزير بشراهة.

وفيه إشارة إلى تحريم لحم الخنزير الأهليِّ منه والبرِّي، يؤكِّد ذلك ما قاله الطَّبَريُّ: "وأمَّا قوله: ﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾؛ فإنَّه يعني: وحَرَّمَ عليكم لحمَ الخنزير: أهليَّهُ وبَرِّيَّه، فالمَيْتَةُ والدَّمُ: مَخرجُهما في الظَّاهر مَخْرَجُ عُمومٍ، والمرادُ منهما الخصوصُ، وأمَّا لحمُ الخنزيرِ؛ فإنَّ ظاهرَه كباطنِه، وباطنَه كظاهره، حرامٌ جميعُه، لم يُخَصَّصْ منه شيءٌ[2]"؛ لأنَّ لحمه مأوى للطُّفيليَّات والبكتريا والفيروسات الَّتي يصدرها إلى الإنسان ممَّا ينتج عنه الإضرار بالإنسان في بدنه ودينه.

(1) ابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (3314).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/406، و لمزيد من التفصيل، ينظر موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

البلاغة في متشابه النَّظْمِ القرآنيِّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

سرُّ التَّعبير بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في موضع البقرة دون موضع المائدة:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ [البقرة: 173]؛ لأنَّ (إنَّما) تجيء في الكلام؛ لإثبات المذكور ونفي ما سواه، وكان القصر مناسبًا للسِّياق في سورة البقرة، حيث سبق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172] وأفادت الإباحة على الإطلاق؛ لذلك عقَّبها بـ ﴿إِنَّمَا﴾ الحاصرة للمحرَّمات.

وفيه مراعاةٌ لحال المخاطبين في تحريم بعض المطعومات، وهي قليلة بالنِّسبة للإباحة المطلقة في الآية السَّابقة، بخلاف موضع سورة المائدة؛ فهي من آخر ما نزل، فيلزم فيها الإخبار عن المحرَّمات؛ لأنَّ المخاطب فيها أهل الإيمان الَّذين يسارعون في تطبيق شرع الله باحثين عن الكمال والتَّمام.

سرُّ التَّعبير بالبناء للفاعل في موضع البقرة في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾، وبالبناء للمفعول في موضع المائدة:

جاء موضع سورة البقرة على الأصل؛ لأنَّ الجملة تأتي في أصلها على البناء للفاعل، ولا يتغيَّر الأسلوب للبناء للمفعول إلَّا لعلَّة كما في سورة المائدة، وقبلها في سورة النِّساء في المحرَّمات من النَّسب والرَّضاعة؛ لأنَّ المستوى الإيمانيَّ عند المؤمنين يجعلهم يعلمون أنَّه لا مُحرِّم إلَّا الله، بخلاف موضع سورة البقرة؛ فأغلب الحديث فيها عن أهل الكتاب، وهم يزعمون لأنفسهم التَّحليل والتَّحريم عن طريق علمائهم؛ لذلك كان البناء للفاعل لإثبات أنَّ التَّحريم لا يكون إلَّا لله.

السِّرُّ في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، وسِرُّ تأخيره في آية المائدة في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

المقامُ في سورة البقرة على ما رَزَقَ اللّه عبادَه من الطَّيِّباتِ، فلمَّا كان المقامُ الرِّزقَ والطَّعامَ، والأمرَ بأَكْلِ الطَّيِّباتِ؛ قَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِهِۦ﴾، والضَّميرُ يعودُ على ما يُذْبَحُ، وهو طعام، فكان مناسِبًا للمَقام: أمَّا المقامُ في آيةِ المائدة؛ ففيه إشارةٌ إلى مَنْ يُحلِّلُ، ويُحَرِّمُ غيرَ اللّه تعالى، ويزعمون أنَّهم شُركاءُ للّه، فجاء الكلامُ على التَّحليل والتَّحريم ومَنْ بيَدِه ذلكَ، ورَفْض أيِّ جِهَة تُحَلِّلُ، وتُحَرِّمُ غيرَ اللّه تعالى، فإنَّ اللّه يحكم ما يريد؛ لِذا قُدِّمَ في البُطْلان، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، ثُمَّ إنَّه سبحانه جاءَ بِذِكْر اسمِه تعالى، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، فناسَبَ ذلك تقديمُ بطلانِ ذِكْر غيرِ اللّه تعالى، فأخَّرَ الجارَّ والمجرورَ في آية المائدة، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[1].

السِّرُّ في زيادة المُحرَّمات في سورة المائدة على المُحَرَّمات في سورة البقرة، وتخصيصها بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾:

إنَّ آيةَ سورة المائدة مِنْ آخرِ ما نَزلَ مِن القرآن، فَوَرَدَ فيها استقصاءُ ما حُكِمَ بتحريمه، وإلحاقُه بالمَيْتة والدَّم ولحمِ الخنزير، وأردفَ الكلامَ بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾؛ تَتْميمًا لِحال المضطرِّ، ومَظِنَّةُ الاضطرار زيادةٌ على ما ورد في آية البقرة؛ لِيرتفعَ ما عسى أنْ يكونَ باقيًا فيها مِن إجمالٍ أو إشكالٍ؛ لِيَتوافَقَ مع قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[2].

نُكتة ذكر قوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173] في البقرة، ولم يذكر ذلك في آية المائدة؟

ذكر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173] مع أنَّه معلومٌ ضمنًا للدَّلالة على أنَّ نفي الإثم عن المضطرِّ فيما يتناوله من هذه المحرَّمات منوط بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضَّرورة؛ فقد عاد التَّحريم، كما كان، فالجائع يأكل من هذه المحرَّمات؛ إن لم يجد غيرها أكلًا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمرَّ به الحاجة، كمن

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/107 - 108، والسّامرّائي، التّعبير القرآنّي، ص: 73.
(2) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/109، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/121.

توسَّط صحراء في سفرٍ، ويكاد اليقين عنده يصل إلى ذروته في عدم وجود طعام يأكله؛ فلا إثم عليه أن يتزوَّد من بعض هذه الأشياء حفاظًا على نفسه.

أما موضع سورة المائدة؛ فالضَّرورة فيها أقلُّ، وذلك لوجود أسباب لبعض المباحات لم تكن في سورة البقرة، مثل حِلِّ طعام أهل الكتاب وصيد الكلب المُعَلَّم؛ ولذلك كان نَفْيُ الإثم في المائدة تَضْمينًا لا تصريحًا؛ "لأنَّ قولَه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173] يَدُلُّ أنَّه لا إثمَ عليه[1]".

دَلالة توسُّط قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ بين هذه المحرَّمات:

عِظَمُ خطر الشِّرك على صاحبه وعلى المجتمع

توسَّط قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ مع اختلاف علَّة تحريمه حيث إنَّ تحريم الميتة والدَّم ولحم الخنزير كان لِأَجل الصِّحَّةِ والنَّظافةِ، أمَّا المُحَرَّمُ هنا؛ فهو لِسَبَبٍ دينيٍّ مَحْضٍ؛ لأنَّه توجُّهٌ إلى غير اللّه، وعلى هذا يكون المرادُ به ما ذُبِحَ، وما نُحِرَ على غير ذِكْر اللّه تعالى، من المخلوقات الَّتي يُعَظِّمُها النَّاسُ تعظيمًا دِينيًّا، ويَتقرَّبون إليها بالذَّبائح، والإهلالُ: رَفْع الصَّوت، يقالُ: أَهَلَّ فلانٌ بالحَجِّ؛ إذا رَفَعَ صوتَه بالتَّلبية له، ومنه: اسْتَهَلَّ الصَّبيُّ؛ إذا رَفَعَ صوتَه بالصُّراخ عند الولادةِ، وكانوا يَذبحون لأصنامهم، فيَرفعون أصواتَهم بقولهم: باسم اللَّاتِ أو العُزَّى.

وحِكْمةُ تحريم الأكلِ من هذا أنَّه مِنْ عبادةِ غيرِ اللّه تعالى، فالأكلُ منه مُشاركةٌ لأهله، ومُشايعةٌ لهم عليه، وهو مِمَّا يجبُ إنكارُه لا إقرارُه.

دلالة تسمية الذَّبح في الآية إهلالًا:

سمَّى التَّعبير القرآنيُّ الذَّبح في الآية إهلالًا؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما يتقرَّبون به لأصنامهم وأوثانهم؛ ذكروا عند الذَّبح اسم الصَّنم، وجهروا به؛ فسمِّي كلُّ ذابحٍ جهر بالتَّسمية، أو لم

(1) الكِرْمانّي، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 39.

يجهر: مُهِلًّا، كما سمِّي الإحرام: إهلالًا؛ لرفع المحرمين أصواتهم عند التَّلبية؛ حتَّى صار اسمًا له، وإن لم يرفع عنده صوت.

وعلى هذا فرفعُ الصَّوتِ ليس هو عِلَّةَ التَّحريم، ولا شَرْطًا له، بلْ هو لبيان الواقع، وإنَّما سببُ التَّحريم: أنَّه مِنْ عبادةِ غيرِ اللّه تعالى[1]، فالتَّحريمُ هنا ليس في ذات الحيوانِ، وإنَّما لِمَا صَحِبَه مِنْ عَمَلٍ، فيه شِرْكٌ باللّه تعالى، وفسوقٌ عن أَمْرِه سبحانه.

وهذه الجملةُ تُشيرُ إلى عِظَم خَطَرِ الشِّرْكِ، وأنَّه يُؤثِّرُ حتَّى في الذَّبائح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

دَلالةُ التَّاء اللَّاحقة بالموصوفات في قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾:

الصِّفات إذا لَمْ تُذْكر موصوفاتُها، ولم تكن جارِيةً عليها تغلب عليها الاسميَّةُ، فتَلْحَقُها التَّاء

والنَّطيحةُ بمعنى: المَنْطوحة، نَحْو: لِحْيَةٌ دَهِينٌ، وكَفٌّ خَضيبٌ، بمعنى: مَدْهونة ومَخْضوبة؛ لأنَّ فَعيلةَ يَستوي فيه المُذَكَّرُ والمُؤَنَّثُ، والتَّاءُ في كلمات ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ للنَّقْلِ، "لنَقْلها من الوصفيَّة إلى الاسميَّة، فإنَّ الصِّفاتِ إذا لَمْ تُذْكَرْ موصوفاتُها، ولم تكنْ جاريةً عليها تَغلِبُ عليها الاسميَّةُ، فتَلْحَقُها التَّاءُ؛ لِتَدُلَّ على غلبة الاسميَّة عليها، وعدم احتياجها إلى الموصوف، وكُلُّ ما لَحِقَتْه هذه التَّاء يَستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤنَّثُ[2]".

بلاغة الإيجاز والمجاز في قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾:

إيجازٌ بِحذْف الجارِّ والمجرور

وفي قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ إيجازٌ بِحذْف الجارِّ والمجرور، تقديرُه: (مِنْه)، أي: وما أكَلَ مِنهُ السَّبُعُ؛ لأنَّ ما أكَلَهُ السَّبُعُ، فَقَدْ نَفِدَ، ولا حُكْمَ لَهُ، وإنَّما الحُكْمُ لِلْباقي.

دلالة التَّعبير بالسَّبع دون الذِّئب أو الأسد:

اختار التَّعبير بالسَّبع؛ لأنَّه اسْمٌ يَقَعُ عَلى ما لَهُ نابٌ، ويَعْدُو عَلى

(1) الماوردي، النكت والعيون: 1/222، ورضا، تفسير المنار: 6/136.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/192.

الإنسانِ والدَّوابِّ ويَفْتَرِسُها، مِثْل: الأسَدِ وما دُونَهُ، "قالَ قَتادَةُ: كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ إذا جَرَحَ السَّبُعُ شَيْئًا، فَقَتَلَهُ، وأَكَلَ بَعْضَهُ؛ أَكَلُوا ما بَقِيَ، فَحَرَّمَهُ اللّٰه تَعالى[1]"

دلالة نسبة الأكل إلى السَّبع دون الافتراس في قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾:

استثناء الكلب المُعَلَّم

أسند الأكل إلى السَّبع دون الافتراس؛ لوجود فرق بينهما، فأصل الافتراس في اللُّغة: الكسر ودقُّ العنق، بخلاف الأكل؛ فقد يفترس، ولا يأكل، وعلى ذلك، فالمرادُ هنا: تحريمُ أَكْلِ ما افْتَرَسَهُ السَّبُعُ من الحيوان حتَّى ماتَ، سواءٌ أَكَلَ منه السَّبُعُ أَمْ لم يأكلْ؛ لأنَّه افترَسَهُ ليأكلَه، وهنا مجازٌ مرسلٌ بعَلاقة السَّببيَّة، حيثُ أطلق السَّببَ، وأرادَ المُسبَّبَ؛ لعلَّةٍ بلاغيَّةٍ، وهي الاحترازُ، أي: استثناءُ الكلبِ المُعَلَّم الَّذي أطلَقَه صاحبُه؛ لِيصطادَ له، وَسَمَّى عند إطلاقِه، فهو يَفترِسُ لا لِيأكلَ، بلْ لِمَنْ أطلقَه.

أَمَّا إذا افترسَ الكلبُ ما أُطْلِق عليه، بأنْ أَكَلَ هو أكثرَه؛ فإنَّ الباقيَ لا يَحِلُّ لِمَنْ أَطْلَقَه[2].

دَلالةُ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾:

وقد تَعدَّدتِ الأقوالُ في بيان نوعِ الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾[3]، والَّذي عليه الجمهورُ أنَّهُ اسْتِثْناءٌ مُتَّصِلٌ من المُحَرَّمات السَّابقةِ في قولِهِ: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/410.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2031.

(3) عَدَّدَ الفخرُ الرَّازيُّ هذه الأقوال، فَذَكَرَ القولَ الأوَّل، وبَقِيَّة الأقوال، فقال: "والقَوْلُ الثَّاني: إنَّ هَذا الاِسْتِثْناءَ مُخْتَصٌّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾.
والقَوْلُ الثَّالِث: إنَّهُ اسْتِثْناءٌ مُنْقَطِعٌ كَأنَّهُ قِيل: لَكِنْ ما ذَكَّيْتُمْ مِن غَيْرِ هَذا، فَهو حَلالٌ.
والقَوْلُ الرَّابِع: أنَّهُ اسْتِثْناءٌ مِنَ التَّحْرِيمِ لا مِنَ المُحَرَّمات، يَعْنِي: حَرَّمَ عَلَيْكم ما مَضى إلَّا ما ذَكَّيْتُمْ، فَإنَّهُ لَكم حَلالٌ، وعَلى هَذا التَّقْدِير يَكُونُ الاِسْتِثْناءُ مُنْقَطِعًا أيْضًا"، ينظر: مفاتيح الغيب: 11/134.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/196، والخازن، لباب التَّأويل: 1/433.

فإنَّ هذه المذكوراتِ تَعَلَّقَتْ بها أحوالٌ تُفْضي بها إلى الهلاك، فإذا هَلَكَتْ بتلك الأحوالِ؛ لم يُبَحْ أكلُها؛ لأنَّها حينئذٍ مَيِّتةٌ، وإذا تداركوها بالذَّكاة قبل الفواتِ؛ أُبيحَ أكلُها[1]".

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ دون إلَّا ما ذبحتم(2):

لأنَّ أَصْلَ التَّذْكِيَةِ الإِتْمَامُ، يُقالُ: ذَكَّيْتَ النَّارَ؛ إِذَا أَتْمَمْتَ إِشْعالَها، والمعنى: إلَّا ما أَدْرَكْتُمْ ذَكَاتَهُ مِنْ هذه الأشياءِ، أيْ: ما أَدْرَكْتُم فيه الرُّوحَ، أي: يلحقها، وفيها بقيَّة تشخب معها الأوداج، وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيها قبل ذلك، وإلَّا فهي كالميتة.

وعلى ذلك: فالمُرادُ هُنَا: إتْمامُ فَرْيِ الأَوْدَاجِ، وَإِنْهارُ الدَّمِ[3]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ فَكُلْ، غَيْرَ السِّنِّ وَالظُّفُرِ»[4]، ولوجود فرقٍ بين التَّذكية والذَّبح، يؤكِّد ذلك أنَّ الآية الكريمة ذكرت لفظتَيْ: (التَّذكيةَ والذَّبحَ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، فَدَلَّ ذلك على أنَّ هناك فرقًا بينها، وإليك البيانَ:

الذَّبْحُ: هو شَقُّ حَلْقِ الحيوانِ، يُقالُ: ذَبَحْتُ الشَّاةَ ذَبحًا، قال الرَّاغبُ: "أصلُ الذَّبْحِ: شَقُّ حَلْقِ الحيواناتِ، والذِّبْحُ: المَذْبوحُ، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصَّافات: 107]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، وتُسمَّى الأخاديدُ من السَّيل: مذابحَ"، وأمَّا التَّذكيةُ؛ فقد مَرَّ معناها، ونَلْحَظُ ما يأتي:

أوّلًا: أنَّ التَّذكيةَ لم تُذكرْ في القرآن الكريم إلَّا مرَّةً واحدةً، وهي وصفٌ لذَبحِ ما أحلَّه اللّٰه تعالى، وهو في حالة اضطرابٍ لا في حالة استقرارٍ، وذلكَ مثل: المُنخنقةِ والموقوذةِ والمُتردِّيةِ والنَّطيحةِ، وما أَكَلَ السَّبُعُ، بشَرط أنْ يُدرَكَ، وفيه حياةٌ، كما سبق.

ثانيًا: أنَّ التَّذكيةَ فيها معنى: سَيَلانِ الدَّمِ، وإخراجِ الحرارةِ الغريزيَّةِ، ولا يكونُ ذلك كذلك إلَّا بحركةٍ بعد الذَّبحِ، يُعلَمُ مِنْ خلالها أنَّه لم يَمُتْ.

ثالثًا: ذُكِرَ (الذَّبح) تسعَ مرَّاتٍ في القرآن الكريم؛ ففي قصَّة البقرة مرَّتين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/92.

(2) نصر سعيد، مقدّمة في فرائد القرآن، ص: 516، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.

(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/6.

(4) البُخاريّ، الحديث رقم: (3075)، ومسلم، الحديث رقم: (1968).

﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]، وفي قصَّة الذَّبيح مرَّتين: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصَّافات: 102]، ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصَّافات: 107]، وفي قصَّة هُدهد سليمانَ مرَّةً: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [النَّمل: 21]، و4 – فيما حرَّمه اللّه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وفي وصف ظلم فرعونَ وعملِه: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص: 4]، وفي تعداد النِّعم على بني إسرائيل، حيث نجَّاهم اللّه من عمل آل فرعون بهم حيث كانوا ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49]، وجاءت الآية نفسها على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: 6] بزيادة الواو للمبالغة في تعداد النِّعم.

ومن هذه المواضع نستطيع القولَ: بأنَّ الذَّبح نُسب مرَّة إلى الحيوانِ، ومرَّةً إلى الإنسان، ولا تُنسَبُ التَّذكيةُ للإنسانِ "المذبوح" بحال.

كما وُصِفَ المحرَّمُ بالمذبوح، ولا يُوصَفُ المُحرَّمُ بالمُذكَّى، كما أنَّ الذَّبح يُقالُ لشَقِّ الحلق؛ ولو بعدَ الموت، ولا يُقالُ عنه: إنَّه ذُكِّيَ إلَّا إذا كان فيه حياةٌ، وخرج منه الدَّمُ بعد التَّذكية.

البنية اللُّغوية لقوله: ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾ تحمل معنى التَّذكية:

النَّاظر في حروف (ذَكَيَ) يجد أنَّها تحمل معناها: فالذَّالُ: تُعبِّرُ عَنْ تَخينٍ رَطْبٍ، أو غَضٍّ ينفذ، وذلكَ أَخْذًا مِنْ قولهم: شَفْرَةٌ أَذُوذٌ، تَقطعُ الشَّحْمَ والكَبِدَ[1]، وهذا المعنى يتَّفِقُ وبدايةَ التَّذكيةِ، حيثُ تُوضَعُ الشَّفرةُ الحادَّةُ على الحُلقوم والمري، كما تُعبِّرُ الكافُ: عَنْ تماسكٍ في الأثناءِ مع حِدَّةٍ أو دِقَّةٍ[2]، وهذا المعنى يتناسَبُ ونفاذَ الشَّفرةِ في الحلقوم والمري بِحِدَّةٍ، وتسرُّبِ الدَّمِ من الذَّبيحةِ بحرارة جسمِها – كما هو معروف – مع تماسُكِ ما في أجزاءِ الرَّأسِ، والحرفُ المعتلُّ (الياء): يعبِّرُ عن تماسُكِ المُمْتَدِّ شيئًا واحدًا، وهذا يُعبِّرُ عن المرحلة الأخيرة من التَّذكيةِ، حيثُ إدراكُ الذَّبيحةِ قبلَ موتِها، وهو نوعٌ من التَّماسُك.

(1) جبل، الدَّلالات القرآنيَّة، ص: 67.
(2) جبل، الدَّلالات القرآنيَّة، ص: 75.

السِّرُّ في مجيء ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾ في هذا الموضع دون غيره:

ذُكرَ هذا التَّركيبُ الفريدُ في سورة العقود، وهذا التَّحريمُ والتَّحليلُ في الذَّبائح وغيرها مِن صميم العقودِ القائمةِ على الإيمان، واستثناءُ هذا النَّوع من المُحرَّم فيه رحمةٌ بالعباد، وهو مُتناسِبٌ مع إكمال الدِّين، وإتمامِ النِّعمةِ، يعني: "خُلوصَها ممَّا يُخالِطُها مِن الحَرَجِ والتَّعَبِ[1]".

سِرُّ التَّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ لُموافقةِ الماضي قبلَه مِنْ أوَّلِ الآية: ﴿حُرِّمَتۡ﴾، وصيغةُ الماضي -هنا - تُناسِبُ الذَّكاةَ، وهي حالة ليست ذاتًا، يعني: أنَّها تتعلَّقُ بما فيه حياةٌ، ولا تَتعلَّقُ بالحيوان الميِّت، فلو جاءَ بصيغةِ المضارع "تُذَكُّونَ"؛ لجازَ تَعَلُّقُهُ بما سَبَقَ، ولو بعدَ موتِه.

دلالة تحليل الذَّبيحة المذكَّاة بالاستثناء بدلًا من التَّعبير بالأمر في نحو قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾:

النَّاظر في هذه الآية يلحَظُ أنَّ تحليلَ الذَّبيحةِ (المُذكَّاة) هنا جاء بطريق الاستثناء من السَّابق، ولم يأتِ بطريق الأمرِ مثلًا، كقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: 118]؛ لأنَّ الآيةَ الكريمةَ تتحدَّثُ عن المحرَّم ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ﴾، فهذا النَّوعُ مِنَ ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ يجبُ التَّأكُّدُ من حياته قبل الذَّبح، فإنْ كانَ فيهِ حياةٌ أثناءَ الذَّبحِ؛ حَلَّ أكلُه، وتُعرَفُ الحياةُ بِحَرَكَةِ يدِها أو رِجلِها أو ذَنَبِها، أو جريانِ نفَسِها، أو نحوِ ذلك، فإذا صارتْ في حال النَّزْعِ، ولم تُحرِّكْ يَدًا ولا رِجلًا؛ فإنَّها في هذه الحالةِ تُعدُّ ميتةً، ولا تُفيدُ فيها الذَّكاةُ.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾:

دلَّ الخطاب في قوله: ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾ على أنَّ الأمر المذكور في التَّذكية يَخُصُّ المسلمينَ، ويُشيرُ بالمُخالفة إلى تحريم ما ذَبَحَهُ غيرُ المُسلِم، ممَّا لم يُذكرِ اسمُ اللهِ عليه، فكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تُشيرُ إلى التَّعقُّلِ والحكمةِ ومُراعاةِ الشَّرعِ، ولو لم يكنْ ثمَّةَ وقتٌ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/106.

معنى الاستعلاء في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

الاستعلاءُ في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ حقيقيًّا، والمقصودُ: تحريمُ الذَّبْحِ على الحجارة الَّتي كانت تُعظِّمُها العربُ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاستعلاءُ مجازيًّا، وتكونَ ﴿عَلَى﴾ بمعنى: اللَّام، والمعنى: تحريمُ الذَّبْحِ تَعظيمًا للنُّصُب، ومِن أَجْله.

سِرُّ العدول عن (اللَّام) إلى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

سِرُّ العُدولِ عَنْ حرفِ الاختصاصِ: (اللَّام) إلى حرف الاستعلاء: ﴿عَلَى﴾ إنْ قُدِّرَ الاستعلاءُ مَجازيًّا: هو الإشارةُ إلى مكانةِ تلك الحِجارةِ عند المشركين، الَّتي كان يعبدونها، ويُعظِّمونها، ويَذبحون تَقرُّبًا لها، وأنَّ تلك الحِجارةَ اسْتَغَلَّتْ عليهم، واسْتبدَّتْ بِعقولهم، وهَيمنَتْ عليها؛ حيثُ يأتون إليها صاغرين مُنقادين؛ لِيذبحوا ذبائحَهم تعظيمًا لتلكَ الحجارةِ الصَّمَّاء، وفي هذا نَعْيٌ لِعقولِ المشركين، وتَسْفيهٌ لأفعالهم، وحُرِّمَ فِعْلُ ذلك على المسلمينَ؛ لِمَا فيه مِن الشِّرْكِ، ولأنَّه مَظْهَرٌ مِنْ مظاهرِ الوَثنيَّة.

وقد عَلَّلَ صاحبُ التَّحريرِ والتَّنويرِ العُدولَ إلى حرف الاستعلاءِ بقوله: "﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ بِحَرْفِ ﴿عَلَى﴾، ولَمْ يَقُلْ: وما ذُبِحَ لِلنُّصُبِ؛ لِأنَّ الذَّبِيحَةَ تُقْصَدُ لِلْأَصْنامِ والجِنِّ، وتُذْبَحُ عَلى الأنْصابِ، فَصارَتِ الأنْصابُ مِن شَعائِرِ الشِّرْكِ[1]".

سِرُّ عطف قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ على قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

لأنَّ ما ذُبِحَ على النُّصُبِ وإن كان مِنْ جِنْسِ ما أُهِلَّ به لِغَير اللّه؛ فبينهما فرق؛ لأنَّ ما ذبح على النُّصب يُذْبَحُ بقَصْدِ العبادةِ لغير وَجْهِ اللّه تعالى، لكنَّه أَخَصُّ منه، فما أُهِلَّ به لغير اللّه قد يكون ذُبِح لِصَنَمٍ من الأصنام بعيدًا عنه وعن النُّصُب، وما ذُبِحَ على النُّصُب؛ لا بُدَّ أنْ يُذْبَحَ على تلك الحجارةِ أو عِنْدَها، ويُنْشَرُ لَحْمُه عليها، فَعُلِمَ مِنْ هذا ومِمَّا قبلَه: أنَّ المُحَرَّماتِ عَشرَةٌ بالتَّفصيل، وأربعةٌ بالإجمال، وكما خَصَّ المُنْخَنِقةَ وما عُطِفَ عليها من المَيْتاتِ بالذِّكْر بسَبَبٍ خاصٍّ معروفٍ؛ لِئلَّا يَغترَّ أَحَدٌ باستباحة أهلِ الجاهليَّة لها.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/89.

دلالة ذكر ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ في سورة المائدة:

ذكر تحريم الذَّبح على النُّصب، وذلك من عطفه على المحرَّمات المذكورة قبله، مع أنَّ هذه السُّورةَ نزلت بعد أنْ مَضَتْ سنون كثيرةٌ على الإسلام، وقد هجرَ المسلمون عبادةَ الأصنام، وأنَّ في المسلمين كثيرين كانوا قريبي عهدٍ بالدُّخول في الإسلام، وهم وإنْ كانوا يَعلمون بُطلانَ عبادةِ الأصنام، أوَّلُ ما يَعلمونه مِن عقيدة الإسلام، فقد كانوا مع ذلك مدَّةَ الجاهليَّةِ لا يَختصُّ الذَّبحُ على النُّصب عندَهم بذبائح الأصنام خاصَّةً، بل يكونُ في ذبائح الجنِّ ونحوها من النُّشُرات وذبائحِ دَفْعِ الأمراض ودَفْعِ التَّابِعَةِ عَنْ وِلْدانهم، فقالوا: كانوا يَسْتَدْفِعون بذلك عَن أنفسهمُ البَرَصَ والجُذامَ ومَسَّ الجنِّ، وبخاصَّةٍ الصِّبْيانَ[1].

بلاغة التَّخصيص في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ جُزْءٌ مِمَّا أُهِلَّ به لغيرِ اللّه، لكنْ خُصَّ بالذِّكر بَعدَ جِنسِه؛ لشُهرةِ الأَمْرِ، وتَعظيم النُّفوسِ له، ولإزالة وَهْم مَنْ توهَّمَ أنَّه قد يَحِلُّ بقصْدِ تعظيم البيتِ الحرام إذا لم يُذكرِ اسمُ غيرِ اللّه عليه، قالَ ابنُ كَثِيرٍ: "فَنَهى اللّه الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذا الصَّنيعِ، وحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أكْلَ هَذِهِ الذَّبائِحِ، حَتَّى ولَوْ كانَ يُذْكَرُ عَلَيْها اسْمُ اللّه؛ لِمَا في الذَّبحِ عِنْدَ النُّصُبِ مِنَ الشِّرْكِ الَّذي حَرَّمَهُ اللّه ورَسُولُه[2]".

دلالة التَّعبير عن الأصنام بالنُّصب في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

عبَّر عن الأصنام بالنُّصب؛ لأنَّ الصَّنم يُنصب ويرفع ليعظَّم ويعبد.

سرُّ الوصل في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾:

معطوف على المُحرَّم قبلَه؛ لأنَّه من الخُرافات والأوهام الَّتي لا يَركن إليها إلَّا ضعيفُ العقل

والاسْتقسامُ طَلَبُ القِسْمَةِ، وكان المشركون يَسألونَ الأزْلامَ بأنْ تُقَسِّمَ لهم[3].

وقد حرَّم اللّه تعالى الاستقسامَ بالأزلام؛ لأنَّه فيه ادِّعاءٌ بمعرفة الغيب، ولا فَرْقَ بين ذلك وبين قولِ المُنَجِّمين: لا تَخْرُجْ مِنْ أجل نَجْم كذا، واخْرُجْ مِنْ أجلِ طلوعِ نجْم كذا؛ لأنَّ اللّه ﷻ يقول: ﴿وَمَا تَدۡرِي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/95.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/41، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.
(3) المُبرِّد، مجاز القرآن: 1/153.

﴿نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان: 34]، وذلكَ دخولٌ في عِلْمِ اللهِ ﷻ الَّذي هو غيبٌ، فهو حرامٌ كالأزلامِ الَّتي ذَكَرَها اللهُ(1).

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ على ما قبله:

وقد ذَهَبَ الطَّاهِرُ بنُ عاشورٍ إلى أنَّ ظاهرَ السِّياقِ يَقتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ معطوفًا على ما قَبْلَه؛ "لأنَّ الشَّأْنَ في العَطْفِ التَّناسُبُ بَيْنَ المُتَعاطِفاتِ، فلا جَرَمَ أنَّ هَذا المَعْطُوفَ مِن نَوْعِ المُتَعاطِفاتِ الَّتي قَبْلَهُ، وهي المُحَرَّمُ أكْلُها، فالمُرادُ هُنا النَّهْيُ عَنْ أكْلِ اللَّحْمِ الَّذي يَسْتَقْسِمُونَ عَلَيْهِ بالأزْلامِ، وهو لَحْمُ جَزُورِ المَيْسِرِ؛ لِأنَّهُ حاصِلٌ بِالمُقامَرَةِ، فَتَكُونُ السِّينُ والتَّاءُ في تَسْتَقْسِمُوا مَزِيدَتَيْنِ كَما هُما في قَوْلِهِمْ: اسْتَجابَ، واسْتَرابَ، والمَعْنى: وأنْ تَقْسِموا اللَّحْمَ بالأزْلامِ(2)".

هنا عَطْفٌ على مُحَرَّماتِ الطَّعامِ الَّتي كان أهلُ الجاهليَّةِ يستحلُّونها عَمَلًا آخرَ من خُرافاتِهم، فقال: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾، أيْ: وحُرِّمَ عليكم أنْ تطلبوا عِلْمَ ما قُسِمَ لكم، أو تَرجيحَ قِسْمٍ مِنْ مطالبكم على قِسْمٍ بالأزلامِ، كما تفعلُ الجاهليَّةُ، وجَعَلَ بعضُهم هذا من مُحَرَّماتِ الطَّعامِ.

القرآن يبطل التَّطيُّر والكهانة والعيافة والعرافة:

سبب تحريم الاستقسام بالأزلام

أمَّا سببُ تحريمِ الاستقسامِ بالأزلامِ؛ فقد قيلَ: لأنَّه طَلَبٌ لِعِلْمِ الغَيْبِ الَّذي استأْثَرَ اللهُ به؛ لأنَّهم يطلبون معرفةَ القسمِ، أي: يطلبون تمييزَ ما يريدون الشُّروعَ فيه، ولأنَّ الاستقسامَ بالأزلامِ من الخُرافاتِ والأوهامِ الَّتي لا يَرْكَنُ إليها إلَّا مَنْ كان ضعيفَ العقلِ، يفعلُ ما يفعلُ من غيرِ بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويَتركُ ما يتركُ عن غيرِ بَيِّنَةٍ ولا بصيرةٍ، ويجعلُ نفسَه ألعوبةً للكهنةِ والسَّدَنةِ، ويتفاءلُ، ويتشاءمُ بما لا فَأْلَ فيه ولا شُؤْمَ، فلا غروَ أن يُبْطِلَ ذلك دينُ العقلِ والبصيرةِ والبرهانِ، كما أَبطلَ التَّطَيُّرَ والكهانةَ والعيافةَ والعرافةَ، وسائرَ خرافاتِ الجاهليَّةِ، ولا يَليقُ ذلك كلُّه إلَّا بجهلِ الوثنيَّةِ وأوهامِها.

(1) ابن الجَوْزيّ، زاد المسير: 2/185.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/96، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ دون المصدر الصَّريح:

عبَّر بالمصدر المؤوَّل الَّذي يلمح فيه الزَّمن مع الحدث، بخلاف المصدر الصَّريح الَّذي يدلُّ على مجرَّد وقوع الحدث، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الاستقسام بالأزلام أو بما هو مثلها أمرٌ يقع فيه صِغارُ العقولِ كِبارُ الأوهامِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعلى عهد كلِّ دينٍ من الأديان، يَسْتَنُّون بِسُنَّة مشركي الجاهليَّة، ولا تطمئنُّ قلوبُهم إلَّا بخرافات الوثنيَّة، فإنْ لم يَسْتقسموا بالأزلام؛ اسْتقسموا بما هو مثلُها وما في معناها، ولكنَّهم يُسَمُّون عَمَلهم هذا اسمًا حسنًا، كما يَفعلُ بعضُ المسلمين حتَّى عصرنا هذا[1].

سِرُّ ترتيب المُحَرَّمات في الآية الكريمة:

التَّدرُّج فيما تأنفه النَّفس البشريَّة والطِّباع السَّويَّة

وقد استوقفني طويلًا سِرُّ ترتيبِ المُحَرَّماتِ في الآية الكريمة، وراجعْتُ كَمًّا هائلًا من التَّفاسير القديمة والحديثة، لعلِّي أجدُ إجابةً شافيةً، أو إشارةً إلى سِرِّ هذا التَّرتيب؛ لكنِّي لم أَجِدْ أحدًا الْتَفَتَ إلى هذا التَّساؤلِ، وبعدَ تدبُّرٍ طويلٍ هُديتُ إلى أنَّ تَرتيبَ المُحَرَّماتِ هنا جاءَ على حَسْب ما تأنَفُه النَّفسُ الإنسانيَّةُ، وتأباه الطِّباعُ السَّويَّةُ؛ حيثُ بَدَأَ التَّحريمُ بالأشدِّ، فالأَقَلِّ شِدَّةً، فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أَكْلَ المَيْتة أَشَدُّ من أَكْلِ الدَّم وأغلَظ، وأكلُ الدَّم تَنفرُ منه النُّفوسُ أكثرُ مِنْ أكلِ لحم الخنزير، ولْنَقِس على هذا أكلَ المنخنقة والموقوذة والمتردِّية وما أكل السَّبُعُ؛ حيث نلحظ أنَّ أَكْلَ الموقوذة أخفُّ وَطْأَةً من أَكْلِ المُنْخَنِقة، وهكذا.

ولعلَّ هذا التَّرتيبَ مقصودٌ به لَذْعَ تلك الطَّبيعةِ المُستوحشةِ الَّتي كان عليها العربُ في جاهليَّتهم في طُعومهم، وكيفَ أنَّها انفكَّت عن الطَّبيعة الإنسانيَّة البشريَّة السَّوِيَّة؛ فأقبلت تلتهم كلَّ ما تجده من مأكول، دون نظرٍ لأيِّ اعتباراتٍ صحيَّةٍ أو نفسيَّةٍ أو حتَّى بشريَّة.

ويضاف إلى ذلك في بيان سرِّ التَّرتيب: أنَّه يكون على نوعين: إمَّا

(1) رضا، تفسير المنار: 6/149.

أن يكون ترتيبًا تصاعديًّا أو تنازليًّا، أو يكون التَّحريم مؤبَّدًا أو مؤقَّتًا لعلَّة؛ فإذا نظرنا إلى التَّرتيب في هذه الآية؛ وجدنا أنَّها جمعت الأمرين معًا، فقدَّمت ما كان تصاعديًّا في شدَّة الضَّرر، وما كان تحريمه مؤبَّدًا؛ فبدأ بالميتة؛ لأنَّها أشدُّ ضررًا على الإنسان وصحَّته، ولأنَّ ملابسة النَّاس للميتة والأكل منها هو الأكثر من تناول الدَّم المسفوح؛ لذا كان تقديم الميتة على الدَّم، وأمَّا لحم الخنزير؛ فوجوده في المنطقة العربيَّة كان قليلًا؛ لذلك كان ذكره بعد تحريم الدَّم المسفوح من باب بيان كمال التَّشريع، ولأنَّ رسالة الإسلام عالميَّة، وليس من بيان الواقع؛ لأنَّ العرب لم تكن تربِّيه وتقتنيه لاختلاف طبيعة المناخ، فمناخ الجزيرة العربيَّة لا يتواءم مع طبيعة تربية الخنزير؛ لذلك كان التَّنصيص على تحريم اللَّحم، وفي هذا سدٌّ للذَّرائع، فمع أنَّه لا يُربَّى فقد يُؤتى بلحمه؛ لذلك حرَّم القرآن أكل لحمه.

وبعد ذلك حُرم طعام المذبوح لغير اللّه، وجاء فاصلًا بين المحرَّم على التَّأبيد، والمحرَّم لعلَّة موقوتة، وبدأه بالمنخنقة، وقدَّمها على ما بعدها؛ لأنَّ نسبة وقوع المنخنقة أكثر من التي بعدها، فمنها ماهو بفعل الإنسان، كما كان يفعل بعض أهل الجاهليَّة، فكانوا يخنقون الشَّاة، فإذا ماتت؛ أكلوها، ومنها الخنق بحبل الصَّائد، ومنها بفعل الشَّاة نفسها حيث تدخل رأسها بين عودين في شجرة، فتختنق، فتموت، أمَّا الموقوذة؛ فنسبة وجودها أقلُّ؛ لأنَّ الحفاظ على بهيمة الأنعام أمر مطلوب، وضربها حتَّى تموت ليس أمرًا طبيعيًّا، ونسبته أقلُّ، وهكذا كلُّ صنف يأتي من هذه الأصناف؛ نسبته أقلُّ من سابقه؛ لذلك كان التَّرتيب هنا - في هذه الأنواع من قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ وما بعدها - ترتيبًا تنازليًّا لقلَّة كلِّ صنفٍ عن سابقه.

سِرُّ الفَصْل بين تلك المُحرَّمات من المأكول من الحيوان بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

كان الظَّاهرُ أنْ يقالَ: (حُرِّمَت عَلَيكُم المَيتَة وَالدَّم وَلَحمُ الخنزير وَالمُنخَنِقَة وَالمَوقُوذَة وَالمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُع إِلَّا مَا ذَكَّيتم وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُب)، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. لكنَّه فصل بين تلك المُحَرَّمات بقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ ليكونَ بمنزلة ميزانٍ، وواسطةِ عقْدٍ بين تلك المُحَرَّماتِ العشرة الواردةِ في الآية الكريمة، هذا الفَصْلُ أوقفَ تتابعَ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ وتلاحقِها، بجملةٍ تُصَحِّحُ عقيدةَ المسلمين من أيِّ شائبةِ شِرْكٍ؛ فالتَّحريمُ السَّابقُ و اللَّاحقُ في ذات الحيوان المأكول، أمَّا التَّحريمُ هنا؛ فليس في ذات

الحيوانِ، وإنَّما لِما صَحِبَه مِنْ عَمَلٍ فيهُ شِرْكٌ باللّٰه تعالى، وكما كانت تلك الجملةُ الفاصلةُ بمنزلة الدَّليلِ والمُرشدِ والبيانِ، وكان لها دورُها في تَبطيء سُرْعةِ السِّياق وتَدفُّقِه، بِجملة تَأَمُّلِيَّةٍ تصحيحيَّةٍ لمفهوم خاطىء، دَرَجَ عليه المخاطَبون رِدْحًا من الزَّمن في جاهليَّتهم.

دلالة ختام المحرَّمات بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾:

جاءت تلك الجملتان: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ ختامًا للمُحَرَّمات المذكورة، مع أنَّها لا تتعلَّقُ بذات الحيوان المأكولِ، وإنَّما تتعلَّقُ بعقيدة المسلم في وجوب توجيهِ تعظيمه إلى اللّٰه تعالى خالقِه وحده، سبحانه، وليس لِبَشَرٍ ولا لِحَجَر، كما يُفهَمُ من قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، كما كان ختامُ المُحَرَّمات - أيضًا- بجملة مُطَهِّرةٍ لعقيدةِ المخاطبين والمُؤمنين جميعًا من الخُرافات والضَّلالات، كما يدلُّ عليه مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾.

وهكذا رأينا هذا التَّرتيبَ العجيبَ لتلك المُحَرَّماتِ العشرةِ، وكيف كان دورُ تلك الجُمَلِ الثَّلاثِ المُشارِ إليها في تَهدئة السِّياقِ، وفي التَّأكيد على أنَّ الإسلامَ دِينٌ ودُنْيا، وأنَّه ليس مُجَرَّدَ صلواتٍ محصورةٍ فقط في المساجد، وإنَّما هو الدِّينُ الشَّاملُ الَّذي يُراعي مُتطلَّباتِ الرُّوحِ والجسدِ والعقلِ.

نُكْتة التَّعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾:

اسم الإشارة راجع إلى الاستقسام بالأزلام خاصَّة، وهو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنه وقيل: إلى جميع ما تقدم؛ لأنَّ معناه: حرَّم عليكم تناول الميتة، وهكذا فرجع اسم الإشارة إلى هذا المقدَّر.

وهذا الرَّأي الأخير الموافق للقاعدة؛ لأنَّه إذا أمكن حمل اسم الإشارة على كلِّ ما سبق؛ حُمل عليه.

دلالة تعريف المسند إليه باسم الإشارة:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه باسم الإشارة؛ لتشخيصه، ولِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ؛ حتَّى يَقَعَ الحُكْمُ عَلى مُتَمَيِّزٍ مُعَيَّن.

وأشيرَ إلى المُحرَّماتِ المذكورةِ في الآية الكريمة باسم الإشارة للبعيد؛ لكونِها شديدةَ الخُبْثِ؛ ولِتعظيم النَّهْي عنها(1).

(1) الجمل، حاشية الجمل: 1/1461، والبِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/14.

سرُّ وصف الوقوع في المحرَّمات بالفسق في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾:

اختار وصف الفسق؛ لأنَّ معناه: الخُرُوجُ مِن مَكانٍ مُحْتَوٍ جامِعٍ، يُقالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ؛ خَرَجَتْ مِن قِشْرِها، واسْتُعْمِلَت اللَّفْظَةُ في الشَّرْعِ، فِيمَنْ يَخْرُجُ مِنَ احْتِواءِ الأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وإحاطَتِهِ[1]، والفِسْقُ: الخُرُوجُ عَنِ الدِّينِ، وعَنِ الخَيْرِ، وهو المناسب هنا؛ لأنَّ أكل الميتة - وما عطف عليها- خروجٌ عن الفطرة الإيمانيَّة، وأنَّ الذَّبح على النُّصب والاستقسام بالأزلام خروجٌ عن منهج الدِّين.

دلالة موقع قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ بين آية المحرَّمات وآية الرُّخصة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

الاعتراض لتأكيد معنى التَّحريم

جاءت هذه الآية معترضة بَيْنَ آيَةِ المُحَرَّماتِ المُتَقَدِّمَة، وبَيْنَ آيَةِ الرُّخْصَةِ الآتِيَةِ، وهي قَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾؛ لأنَّ اقْتِرانَ الآيَةِ بِفاءِ التَّفْرِيعِ يَقْضِي بِاتِّصالِها بِما تَقَدَّمَها، ولا يَصْلُحُ لِلاتِّصالِ بِها إلَّا قَوْلُهُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ الآيَة.

ومُناسَبَةُ هَذا الاعْتِراض: هي" أنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ أُمُورًا كانَ فِعْلُها مِن جُمْلَةِ دِينِ الشِّرْكِ، وهي ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وتَحْرِيمُ الاسْتِقْسامِ بِالأزْلامِ، وكانَ في كَثِيرٍ مِنها تَضْيِيقٌ عَلَيْهِمْ بِمُفارَقَةِ مُعْتادِهِمْ، والتَّقْلِيلِ مِن أقْواتِهِمْ، أعْقَبَ هَذِهِ الشِّدَّةَ بِإيناسِهِمْ بِتَذْكِيرِ أنَّ هَذا كُلَّهُ إكْمالٌ لِدِينِهِمْ، وإخْراجٌ لَهم مِن أحْوالِ ضَلالِ الجاهِلِيَّةِ، وأنَّهم كَما أُيِّدُوا بِدِينٍ عَظِيمٍ سَمْحٍ، فِيهِ صَلاحُهم، فَعَلَيْهِمْ أنْ يَقْبَلُوا ما فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ الرّاجِعَةِ إلى إصْلاحِهِمْ؛ فالبَعْضُ مَصْلَحَتُهُ راجِعَةٌ إلى المَنافِعِ البَدَنِيَّةِ، والبَعْضُ مَصْلَحَتُهُ راجِعَةٌ إلى التَّرَفُّعِ عَنْ حَضِيضِ الكُفْرِ، وهو ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ، والِاسْتِقْسامُ بِالأزْلامِ ذكَّرهم بِفَوْزِهِمْ على مَن يُناوِيهِمْ، وبِمَحاسِنِ دِينِهِمْ وإكْمالِهِ، فَإنَّ مِن إكْمالِ الإصْلاحِ إجْراءَ الشِّدَّةِ

(1) ابن عطِيَّة، المُحَرّر الوجيز، ص: 510.

عِنْدَ الاقْتِضاءِ، وذُكِّرُوا بِالنِّعْمَةِ عَلى عادَةِ القُرْآنِ في تَعْقِيبِ الشِّدَّةِ بِاللِّينِ، وكانَ المُشْرِكُونَ زَمانًا، إذا سَمِعوا أَحْكامَ الإسْلام؛ رَجَوْا أَنْ تَثْقُلَ عَلى المُسْلِمِينَ، فَيَرْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ، ويَرْجِعُوا إلى الشِّرْكِ، كَما قالَ المُنافِقُونَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: 7]، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الأَحْكامُ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ بِشارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ونِكايَةً بِالمُشْرِكِينَ[1]".

دلالة التَّعبير باليوم بدلًا من الآن في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾:

عبَّر باليوم دون (الآن)؛ لأنَّها تُستعمل للزَّمن الحاضر، كما قال الله لفرعون عند الغرق: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾، أمَّا لفظ اليوم؛ فله أكثر من إطلاق؛ لذلك ليس المقصودُ بـ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ يومًا بعينه، وإنَّما "أرادَ به الزَّمانَ الحاضرَ، وما يتَّصلُ به ويُدانيه من الأزمنةِ الماضيةِ والآتيةِ، كقولكَ: كنت بالأمس شابًّا، وأنت اليومَ أشيبُ، فلا تريدُ بالأمس اليومَ الَّذي قبل يومِك، ولا باليوم يومَك، والمعنى: يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ، يَئِسوا منه أنْ يُبْطِلوه، وأنْ تَرْجِعوا مُحَلِّلِينَ لهذه الخبائثِ بعد ما حُرِّمَتْ عليكم، وقيل: يئِسوا مِنْ دِينكم أنْ يَغلبوه؛ لأنَّ اللَّه ﷻ وَفَّى بوعده مِنْ إظهاره على الدِّين كلِّه، فَلا تَخْشَوْهُمْ بعدَ إظهارِ الدِّين، وزوالِ الخوفِ من الكفَّار وانقلابهم مغلوبين مقهورين، بعدَ ما كانوا غالبين، واخْشَوْنِي، وأَخْلصوا لي الخَشيةَ[2]"، وهذا من باب المعرفة الَّتي يراد بها النَّكرة.

ويجوز أن يكون المراد باليوم، اليوم الحاضر الذي نزلت فيه الآية في حجَّة الوداع، وعلى ذلك؛ فاختيار لفظ اليوم هو المناسب لدلالته على أكثر من معنى، وفي كلِّها أمر الامتنان على المسلمين ظاهرٌ في كلِّ أزمنتهم.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَئِسَ﴾ بدلًا من القنوط في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾:

عبَّر باليأس دون القنوط؛ لوجود فرق بينهما: فاليأس معناه في اللُّغة: انتفاء الطَّمع، والقنوط: اليأس من الخير[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/99.

(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/322.

(3) الرّاغب، المفردات: (يئس)، و(قنط).

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بينهما: فاليأس يأتي دائمًا في مواضع الكفر، وأنَّه أكثر ما يصدر عن الكافرين؛ لأنَّ اليأس نقيض الرجاء، بل هو انقطاع الرجاء عمومًا، والكافر لا يرجو بعثًا ولا نشورًا ولا حياةً آخرة، بل هو منقطع عن ذلك كلِّه؛ لذلك ناسب مجيئه في هذه الآية؛ لأنَّ السِّياق يدلُّ على عموم انقطاع الرَّجاء للكافرين في أن يعود المسلمون إلى ما كانوا عليه من ارتكاب المحرَّمات قبل تحريمها أو يطمعون في فتور انتشار الدِّين، وارتداد متَّبعيه، يؤكِّد هذا أنَّ الفعل (يئس) يتعدَّى بـ (من) إلى الشَّيء الذي كان مرجوًّا من قبل، وكان المشركون وأعداء الإسلام يرجون عدم ظهوره، فقطع رجاؤهم في إزهاق الدِّين.

أمَّا القنوط؛ فهو اليأس من الخير خاصَّةً؛ لذا جاء مقترنًا في القرآن الكريم باليأس من رحمة اللّه وفضله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: 28]، وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: 53]، فالملاحظ أنَّ القنوط يقع في خطاب المؤمنين في عدم اليأس من رحمة اللّه تعالى، ورحمته تعالى نوعٌ من الخير؛ لذا وقع القنوط معها.

وممَّا يدلُّ على أنَّ اليأس غير القنوط: اقترانهما في التَّركيب، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: 49].

وعلى ذلك فاليأس يختلف عن القنوط؛ لأنَّه يُستعمل للأمر الذي لا يقع، ولا يرجى وقوعه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: 13] إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكِّد هذا المعنى.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دون الكافرين في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾:

عبَّر بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دون الكافرين؛ لأنَّ الفعل ﴿كَفَرُوا۟﴾ يفيد عمل الكافرين وإصرارهم على وجوده؛ فكلَّما عُرض عليهم الإيمان؛ كفروا، وهو المناسب لسياق الآية؛ لأنَّهم بذلوا كل الأسباب لردِّ الدَّعوة الإسلاميَّة بكلِّ الوسائل الَّتي اتَّبعوها من الصَّدِّ والظُّلم والمشاقَّة، بخلاف وصف الكافرين، وإن كان وصفًا لازمًا إلَّا أنَّه لا يلزم منه بذل الأسباب في رفض الدَّعوة والعمل على إجهاضها وعدم ظهورها.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ الكفر رسخ في قلوبهم وتمكَّن منها.

دلالة التَّعبير بالدِّين في قوله: ﴿مِن دِينِكُمۡ﴾ دون شريعتكم:

عبَّر بلفظ الدِّين في قوله: ﴿مِن دِينِكُمۡ﴾؛ لأنَّه أعمَّ، فيشمل الإسلام والإيمان والشَّريعة، بخلاف لفظ الشَّريعة؛ فهو جزء من الدِّين، وفيه إشارة إلى نسخ الأديان السَّابقة وما تحمله من شرائع؛ لأنَّه لو قال شريعتكم؛ لتوهَّم أهل الكتاب بقاء دينهم وشريعتهم.

سِرُّ العدول عن صيغة الحَصْر إلى صيغتَي الإثباتِ والنَّفْيِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

وقد أفادَ التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾: القَصْرَ، وعَدَلَ عن قول: (فإيَّايَ فاخشوني) إلى ما عليه النَّظمُ القرآنيُّ: بجُملَتَي نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ مدلولَ كِلتا الجملتينِ مقصودٌ، فلا يَحْسُنُ حَذْفُ إحداهما، ولأنَّ التَّعبيرَ المذكور هنا هو المناسب للسِّياق؛ بخلاف فإيَّاي فاخشوني، وإن كان يحمل معنى النَّفي والإثبات؛ فمعناه: فإيَّاي فاخشوني، ولا تخشوا غيري، فهذا المعنى مأخوذٌ من الإدماج، أمَّا سياق سورة المائدة؛ فمبنيٌّ على التَّفصيل والإيضاح في بناء عقيدة المسلم، ولا سيَّما أنَّها من آخر ما نزل.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

الفاء تدلُّ على التَّفريع، والمعنى المراد: تفريع النَّهي عن خشية المشركين في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ على الإخبار عن يأسهم من أذى الدِّين؛ لأنَّ يأس العدوِّ من نوال عدوِّه يزيل بأسه، ويُذهب حماسه، ويقعده عن طلبه، فلمَّا أخبر اللّٰه في هذه الآية عن يأس الَّذين كفروا؛ طمأن المسلمين من بأس عدوهم، فقال: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾[1].

طباق السَّلب في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

في الجملة طباق السَّلب، فقد جمع بين فعل واحدٍ، فالطَّرف الأوَّل: نَهيٌّ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾، والطَّرف الثَّاني: أَمْرٌ ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، وليس الطِّباق بين عدم خشية الكافرين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/101.

وخشية الله، فإنَّ الَّذي بينهما تلازم لا تقابل، بل الطِّباق بين مُطلق خشية الكافرين، وخشية الله.

دفع ما ظاهره التَّعارض بين الأمر والنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

لا تـنـافٍ ولا تـعـارضٌ بين آيـات الـقـرآن الكريم

الَّذي يقرأ الآية قد يتوهَّم بوجود تعارض في أسلوب الآية، حيث اشتملت على النَّهي والأمر، ولكن بالتَّأمُّل والتَّدبُّر يتَّضح أنَّه لا تعارض فيها، ذلك أنَّه مِنَ المعلوم أنَّ الخَشية لا يُنهى عنها، ولا يؤمر بها من جهة واحدة من جهةٍ واحدة، بل لا بدَّ أن يكون ذلك من جهتين كما في الآية، فقد نهى عنها في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ باعتبار كونها للكافرين، أي: فلا تخشوا الكافرين، وأمر بها باعتبار كونها للّه في قوله: ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، فالتَّنافي بينَ النَّهي والأمر إنَّما هو باعتبار أصلهما لا باعتبار مادَّة استعمالهما.

معنى الخشية في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

الخَشْيَةُ: خوفٌ مع تَعظيمِ المخشيِّ ومحبَّته، وليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأنَّ الخوف أعمُّ من أن يكون من مرهوبٍ مُعَظَّم محبوب أو مرهوبٍ مُبْغَضٍ ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه، ولذلك عبَّر عن الأخيار بالنسبة للّه تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11].

دلالة التَّعبير بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ دون الاسم الظَّاهر (الكافرين):

عبَّر بالضمير دون الاسم الظَّاهر للتَّهوين من شأن الكافرين وعدم الاهتمام بهم؛ لأنَّهم صاروا في حكم الغيبة وزالت قوَّتهم، ولم يعد لهم ظهور في الجزيرة العربية.

سرُّ إثبات الياء في ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ في آية البقرة، وحذفها في موضعي المائدة ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

النَّاظر في موضع سورة البقرة يجد أنَّ الفعل لحقته ياء المتكلِّم ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ بينما لم تلحق الفعل ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ في موضعي المائدة.

فقال سبحانه في موضع البقرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: 150]، وقال في المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: 44].

من القواعد المقرَّرة أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فموضع البقرة لحقته الياء؛ للدَّلالة على شدَّة التحذير من خشية النَّاس؛ لأنَّ سياق سورة البقرة سبقته أحداث عظيمة، وذلك من ظلم المشركين الذي بلغ الغاية القصوى في إيذاء المسلمين في شعائر دينهم، وصوَّر القرآن هذا الظُّلم بقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وما فعل الكفَّار ذلك إلَّا لقوَّتهم، فدلَّ ذلك على أنَّ الخشية منهم ظاهرة وواضحة.

وأيضًا وقع حادث تحويل القبلة، وهذا الحدث نتج عنه هزَّة عنيفة في نفوس المسلمين، بسبب قوَّة اليهود في المدينة المنورة، واستعمالهم لوسائل التشكيك، فكان مناسبًا إثبات الياء؛ ليقطع من قلوب المسلمين كلَّ وسائل الخشية من البشر عمومًا ومن اليهود خصوصًا، وأن يثبت الخشية الكاملة لله ربِّ العالمين دون غيره.

أمَّا موضع المائدة الذي معنا، وهو الموضع الأول؛ فقد جاء وسط الحديث عن الأطعمة المحرَّمة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، فالتحذير فيها أقلُّ؛ لأنَّ قوَّة المسلمين قد ظهرت، وأنَّ شوكتهم قد قويت، فمجال الخشية من الكفَّار؛ أصبح ضعيفًا؛ لذلك ناسب حذف الياء.

أمَّا الموضع الثَّاني في سورة المائدة؛ فجاء في سياق الحديث عن التَّوراة، وما اشتملت عليه من الهدى والنُّور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44] الآية، فلا يوجد في سياقها عوامل التَّأثير التي يظنُّ منها الخشية، كما في موضع البقرة وموضع المائدة الأوَّل، فناسب حذف الياء.

دلالة التَّعبير بالخشية دون الخوف في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

عبَّر بالخشية؛ لأنَّها أعلى من الخوف، فهي أشدُّ الخوف، مأخوذة من شجرة خَشِيَّة؛ إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلِّيَّة، والخوف من قولهم: ناقةٌ خوفاء؛ إذا كان بها داء،

وذلك نقصٌ، وليس بفوات، ومن ثمَّ خصَّت الخشية باللّه تعالى في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21].

وعلى هذا كان التَّعبير بالخشية هنا هو الأوفق في سياق الآية دون الخوف؛ لأنَّ الخشية تكون من عظم المخشيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المُخَوَّف أمرًا يسيرًا(1).

وممَّا يذكر في سرِّ التَّعبير بالخشية دون الخوف: أنَّ الخشية حذرٌ من أمرٍ قد وقع، والخوف حذر من أمر لم يقع(2).

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾:

تقْدِيمُ الجارِّ والمَجْرُورِ لِلْإيذانِ مِن أوَّلِ الأمْرِ بِأنَّ الإكْمالَ لِمَنْفَعَتِهِمْ ومَصْلَحَتِهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ على المفعولِ الصَّريحِ في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾؛ للتَّعجيل ببشارة المخاطبين، و"لِلْإيذانِ مِن أوَّلِ الأمْرِ بِأنَّ الإكْمالَ لِمَنْفَعَتِهِم ومَصْلَحَتِهِم، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشّرح: 1]، والمعنى: أتْمَمْتُها بِفَتْحِ مَكَّةَ، ودُخُولِها آمِنِينَ ظاهِرِينَ، وهَدْمِ مَنارِ الجاهِلِيَّةِ ومَناسِكِها، والنَّهْيِ عَنْ حَجِّ المُشْرِكِ، وطَوافِ العُرْيانِ، أوْ بِإكْمالِ الدِّينِ والشَّرائِعِ، أوْ بِالهِدايَةِ والتَّوْفِيقِ(3)".

دفع ما يوهمه ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، بأنَّ اللّه تعالى لم يَرْضَ لهم الإسلامَ قبلَ ذلك اليوم، وليس كذلك؛ لأنَّ الإسلامَ لم يَزَلْ دينًا مَرْضِيًّا للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابِه الكرام، رضوانَ اللّه عليهم، مِنْ عند اللّه منذُ أَرْسِلَ النَّبيُّ ﷺ فكيفَ نُفَسِّرُ هذا الاستشكالَ؟

الجواب: مِن وجهين: الأوَّلِ نَحْويٌّ، وهو: أنَّ قولَه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرفٌ

(1) الزركشي، البرهان: 4/78.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/44.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/6.

للجملتَين الأُوليَين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، لا للجملةِ الثَّالثةِ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾؛ لأنَّ الواوَ الأولى للعطفِ، والثَّانيةَ للابتداءِ، أمَّا الثَّالثةُ: فهي مُطلقةٌ غيرُ مُؤقَّتةٍ[1].

أمَّا الجوابُ الثَّاني: فهو يتَّصلُ بالمعنى العامِّ المرادِ؛ فقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، وهو سبحانه لم يَزَلۡ راضيًا بدِين الإسلامِ فيما مضى قبلَ نزولِ هذه الآية الكريمة؛ لأنَّه سبحانَه، لم يَزَلۡ يَصۡرِفُ نبيَّه ﷺ وعبادَه المؤمنين مِنۡ حالٍ إلى حالٍ، ويَرتقي بهم مِنۡ درجةٍ إلى درجةٍ أعلى منها، حتَّى أكملَ لهم شرائعَ الدِّين ومعالمَه، وبلغَ بهم أقصى مراتبِه، وأعلى درجاتِه، ثمَّ أنزلَ عليهم هذه الآيةَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، يعني: بالصِّفَةِ الَّتي هو عليها اليومَ، مِن اكتمالِ الفرائضِ والسُّنَنِ والحدودِ والأحكامِ والحلالِ والحرام، ولم يَنۡزِلۡ بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ حلالٌ ولا حرامٌ ولا شيءٌ من الفرائض، إذًا فالصِّفةُ الَّتي عليها الدِّينُ وقتَ نزولِ الآيةِ هي نهايةُ الكمال، والمخاطبون عليه الآنَ مُطالبون بالتزامه، وعدمِ مفارقته.

وقد أجمعَ المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ باليوم ههنا: يومَ عرفة - وكان يوم الجمعة - بعد العصر في حجَّة الوداع سنةَ عشرٍ، والنَّبيُّ ﷺ واقفٌ بعَرفات على ناقته القصواء[2].

دلالة مجيء جملة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

تعليلٌ لعدم الخشية من الكفَّار

جاءت جملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ تعليلًا لجملتَي الإثباتِ والنَّفيِ في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾.

دلالة إعادة لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

أعاده لتعداد المنن والنِّعم على المؤمنين، فجعل يأس الَّذين كفروا من عدم تمكُّنهم من إبطال الدِّين وعدم إظهاره، وعدم خشية المسلمين منهم نعمةً مستقلَّة، وجعل إكمال الدِّين وإتمام

(1) الرَّازيّ، من غرائب آي القرآن، ص: 66.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/419، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 7/254.

النِّعمة، وارتضاء الإسلام للمسلمين دينًا، فكلٌّ منهم نعمة مستقلة يُذكر بها في ذلك اليوم.

دلالة التَّعبير بالدِّين دون الشَّريعة في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

عبَّر بالدِّين؛ لأنَّه أعمُّ من الشَّريعة، فيشمل كلَّ ما كلَّف اللّٰه به الأمَّة من العقائد والأعمال والتشريعات، وما تحمله من الأخلاق والنُّظم والمعاملات.

سِرُّ إضافة الدِّين إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

أضيف (الدِّين) إلى المخاطبين في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ حيثُ لم يقلْ: (أكملت لكم دِيني)؛ لترغيب المخاطبِين في تَحَمُّلِ تكاليفِ هذا الدِّينِ القويم وتَبِعاته، والذَّبِّ عن حِياضه، فهو دينُهم الَّذي أكملَه لهم وارتضاهُ، ولأنَّهم هم القائمون به، المُقيمون له.

دلالة إضافة النِّعمة إليه سبحانه في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

أضيفَت النِّعمةُ إليه سبحانه في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ لتَشريفها؛ لأنَّه هو وَليُّها ومُسْديها، والمُنْعِمُ بها عليهم، فهي نِعْمَةٌ حَقًّا، وهم قابِلُوها(1).

سِرُّ وَصْف الدِّين بالكمال في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

وَصْفُ الدِّينِ الَّذي اختارَه اللّٰه تعالى لِعباده بالكمال؛ للإيذان بأنَّ الدِّينَ الَّذي اختارَه اللّٰه تعالى لَهُم لا نَقْصَ فيه، ولا عَيْبَ ولا خَلَلَ، ولا شيءَ خارجٌ عن الحكمة بوجْهٍ، بل هو الكاملُ في حُسْنه وجلالته.

سِرُّ وصف النِّعمة بالتَّمام في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

وُصِفت النِّعْمةُ بالتَّمام في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ إيذانًا بدَوامها واتِّصالِها، وأنَّه لا يَسْلُبُهم إيَّاها بعدَ إعطائها، بل يُتِمُّها لهم بالدَّوام في الدَّارَين.

دلالة تعدية الفعل ﴿أَكۡمَلۡتُ﴾ بحرف اللَّام في قوله: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ﴾:

تعديةُ فِعْلِ الكمال بحرف الاختصاص

أتى في الكمال باللَّام المُؤذنة بالاختصاص، وأنَّه شيءٌ خُصُّوا به

(1) ابن القَيِّم، تفسير ابن القَيِّم: 2/100.

دونَ الأمم، وفي هذا دلالة على كمال العناية الإلهيَّة بالمؤمنين، حيث تولَّى اللّه سبحانه إكمال الدِّين لهم، فلم يكل ذلك إلى ملكٍ مقرَّب أو نبيٍّ مرسل.

وممَّا يدلُّ على علوِّ ذلك الكمال: تفرُّد هذه المادَّة اللُّغويَّة بهذا التَّركيب؛ فلم يرد في القرآن الكريم إلَّا مرَّة واحدة في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾.

دلالة تعدية الفعل ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ بحرف (على):

تعدَّى الفعل ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ بـ(على)؛ لأنَّها بمعنى: الاستعلاء، وفي هذا إشارة إلى علوِّ هذه النِّعمة، وأنَّهم لا دخل لهم فيها، فهي محض فضل من اللّه ﷻ، وأنَّها تلبَّستهم، وأحاطت بهم من كلِّ جانب، وهذا التَّركيب القرآنيُّ يؤكِّد معنى إتمام النِّعمة، وذلك بأنَّ اللّه وصل لهم نعمة الدُّنيا بنعمة الآخرة، بخلاف تعدِّيها بـ (إلى)، كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة 187]، فالإتمام غايته زمانية، وهكذا كلُّ تركيب تعدَّى بحرف يؤدِّي معناه من خلال ذلك الحرف.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ دون المضارع، كما في قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾:

عبَّر بالماضي لمناسبة سياق سورة المائدة، فهي من أواخر ما نزل من القرآن، فأُريد من التَّعبير بالماضي تحقُّق ثبوت النِّعمة، وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنَّ نعم اللّه عليهم متحقِّقة، ولن تزول، وفيه تعريضٌ بالكافرين بأنَّهم لن يستطيعوا سلب المؤمنين النِّعم الَّتي أنعم اللّه بها هو عليهم؛ لأنَّ التَّعبير بالماضي يدلُّ على رسوخها وتمكُّنها، أمَّا التَّعبير بالمضارع في سورة البقرة؛ فهو مناسبٌ لسياق السُّورة بتبشير المؤمنين بفتح مكَّة، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب كلِّها، ومنع المشركين من حجِّ بيت اللّه الحرام، إلى غير ذلك من النِّعم التي تحقَّقت للمسلمين بعد ذلك.

دلالة تأخير المفعول في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ دون تقديمه، كما في موضع البقرة:

أخَّره؛ لأنَّ المقام يقتضي ذكر المُنعم عليهم قبل ذكر النِّعمة، ولأنَّ ذكر المُنعم عليهم، يلزم منه وجود النِّعمة، بخلاف موضع سورة البقرة؛ فقدَّم الحديث عن النِّعمة من باب البشارة للمؤمنين، بما يمنحهم اللّه من نِعَم كانوا ينتظرونها، ويطلبونها من مثل: فتح مكَّة والانتصار على اليهود، وخلوِّ الجزيرة العربية من الشِّرك، كلُّ ذلك ناسب تقديم النِّعمة على المُنعم عليهم.

الفرق بين الكمال والتَّمام في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

الكمال أَخَصُّ بالصِّفات والمعاني، وأمَّا الإتمام؛ فيكون في الإيمان والمعاني

النَّاظر في الآية القرآنيَّة يجد أنَّ الكمال له معنى يميِّزه من التَّمام، فالكمال صفة تتوجَّه إلى الأعراض، وأمَّا التَّمام؛ فصفةٌ تتوجَّه إلى الجواهر والأعيان، يؤكِّد ذلك ما ذكره ابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ في الفرقِ بين الكمالِ والإتمامِ بِقوله: "الكمالُ أخصُّ بالصِّفاتِ والمعاني، ويُطلَقُ على الأعيان والذَّواتِ، ولكن باعتبار صفاتِها وخواصِّها، وأمَّا الإتمامُ: فيكونُ في الإيمانِ والمعاني، ونِعَمُ اللّه أعيانٌ وأوصافٌ ومَعانٍ.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن القيِّم يؤكِّد على الفرق بينهما وعدم ترادفهما، فكلُّ لفظ منهما له معنًى يختلف عن الآخر، فالتَّمام لنفي النَّقص، والكمال لنفي العيب والنَّقص منه، وعلى ذلك فالكمال أبلغ؛ لأنَّ التَّتميم يرد على النَّاقص فيتمِّمه، والتَّكميل يرد على التَّامِّ، فيكمله، فهو أمرٌ زائدٌ على التَّمام[1]، ويظهر ذلك الفرق جليًّا في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]، فكاملة هنا أبلغ من تامَّة؛ لأنَّ التمام في العدد قد عُلم بإضافة الثَّلاثة إلى السَّبعة، لكن قد يرد احتمال نقصٍ في الأوصاف، فجاء التَّعبير بالكمال لنفي هذا النَّقص.

وممَّا يؤكِّد الفرق بينهما أنَّ الكمال استعمل في أمر الرَّضاع، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233] ولم يقل: تامَّين؛ للإشارة إلى حصول الغرض الأهمِّ، وهو ما يتعلَّق بمصلحة الرَّضيع.

وممَّا يدلِّل على وجود الفرق بينهما أنَّهما وردا متعاطفين في هذه الآية التي معنا ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، والعطف يقتضي المغايرة[2].

وبناءً على هذا يفهم السِّرُّ في اختلاف التَّعبير بهما في الآية الكريمة، فقال: ﴿أَكۡمَلۡتُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط، (بتصرف): 6/447.
(2) الزركشي، البرهان: 4/84.

﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ولم يقل: (أتممت)؛ لإفادة أنَّ الدِّين كامل في نفسه في كلِّ وقت، فالشَّرائع النَّازلة من عند الله في كلِّ وقتٍ كانت كافية للفترة الزَّمنيَّة التي نزلت فيها، فهي كاملة مستقرَّة إلى أن يحدث نسخٌ أو زيادة، ثمَّ أنزل الله الشَّريعة كاملة مستقرَّة إلى آخر الزَّمان، فالدِّين كامل في كلِّ وقت، فهو كمال مخصوص بزمنه، وأمَّا ما ذكر في هذه الآية؛ فهو كمال إلى يوم القيامة.

وأمَّا التَّعبير بقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، ولم يقل: (أكملت)؛ لإفادة أنَّ النِّعمة كانت ناقصة، وإنَّما تمَّت في هذا اليوم بكمال الدِّين الذي استوفى أسبابه وغاياته[1].

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿وَرَضِيتُ﴾:

أبـديَّـة الـدِّيـن الإسلامي؛ لأنَّ الله ارتضاه لنا دينًا

أوثِرَ التَّعبيرُ بالرِّضا منسوبًا إلى الله تعالى؛ مع أنَّ الأمرَ هنا أمرُ إيجابٍ وتكليفٍ، للإشارة إلى أنَّ المؤمن الَّذي يبلغُ درجةَ المحبَّة لله تعالى يُطيعُه ويَنقادُ له؛ لأنَّ فيه مرضاتَه مِنْ غير نَظَرٍ إلى التَّكليف الَّذي يَتَضَمَّنُ الثَّوابَ والعقابَ[2].

ومعنى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾: رضيتُ الاستسلامَ لأوامري، والانقيادَ لِمَا شَرَعَتُ لكم مِن أحكام، وما يجبُ عليكم التزامُه من فرائضَ ومعالمَ وحدودٍ.

دلالة تعدِّي الفعل (رضي) باللام دون الباء في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾:

الرضا بالشيء: الركون إليه وعدم النُّفرة منه، ويقابله السُّخط، فقد يرضى أحدٌ شيئًا لنفسه، فيقول: رضيت بكذا، وقد يرضى شيئًا لغيره، فهو بمعنى اختياره له، واعتقاده مناسبته له؛ فيعدِّي باللَّام للدَّلالة على أنَّ رضاه لأجل غيره، كما تقول: اعتذرت له، وفي الحديث: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا»[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/125.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2034.
(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 6/107.

وعلى هذا؛ فتعدِّي الفعل باللام دلَّ على اختياره سبحانه لنا الدِّين، وعبَّر عن اختياره بالرِّضا للدَّلالة على أنَّ المتَّبعين له ﷺ، ومن لم يتبعوه سخط الله عليهم.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور للدَّلالة على الاختصاص، أي: اختصَّ الله الأمَّة المسلمة بهذا الدِّين الإسلاميِّ، فذكر الإسلام مع الأمم السَّابقة كان وصفًا، ومع هذه الأمَّة دينًا.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَرَضِيتُ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي الذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، فهو يشير إلى أنَّ هذا الدِّين الذي ارتضاه لنا دين أبديٌّ لا يبطله شيئًا بعد ذلك، ولا ينسخ أحكامه دين آخر.

سرُّ توسُّط إتمام النِّعمة بين الكمال والرضا في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾:

توسَّط إتمامُ النِّعمة بين الكمال والرضا للإشارة إلى دور الأمَّة في الحفاظ على كمال الدين في أحكامه والرِّضا بمنهاجه، فالتَّقصير فيهما نقصان للتَّمام.

مناسبة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ لما قبلها:

عـودة إلى الـحـديـث عن المُحَرَّمات

قال البقاعيُّ: "ولَمَّا تَمَّتْ هَذِهِ الجُمَلُ الاِعْتِراضِيَّةُ، الَّتي صارَ ما بَيْنَها وبَيْنَ ما قَبْلَها وما بَعْدَها - بِإحْكامِ الرَّصْفِ، وإتقانِ الرَّبْطِ - مِنَ الاِمْتِزاجِ أشَدَّ مِمَّا بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ، المُشِيرَةُ إلى أنَّ هَذِهِ المُحَرَّماتِ هي الَّتي تحقّق بها أهْلُ الكُفْرِ كَمالَ المُخالَفَةِ، فَأيِسُوا مَعَها مِنَ المُواصَلَةِ والمُؤالَفَةِ؛ رَجَعَ إلى تَتِمّاتٍ لِتِلْكَ المَحْظُوراتِ، فَقالَ مُسَبِّبًا عَنِ الرِّضا بِالإسْلامِ الَّذي هو الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ المُحَرِّمَةُ لِهَذِهِ الخَبائِثِ؛ لِإضْرارِها بِالبَدَنِ والدِّينِ"(1).

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾:

والفاءُ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ، أَفْصحَتْ عن شَرْطٍ تقديرُه: فَإنْ خَشِيتُمُ الهَلاكَ في مَخْمَصَةٍ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 6/17.

وقد بَيَّنَ صاحبُ التّحريرِ والتّنويرِ عِلَّةَ تقديرِ الفاءِ الفصيحة بقوله: "لِأَنَّهُ لَمَّا تَضَمَّنَتِ الآياتُ تَحْرِيمَ كَثِيرٍ مِمَّا كانُوا يَقْتاتُونَه، وقَدْ كانَتْ بِلادُ العَرَبِ قَلِيلَةَ الأَقْواتِ، مُعَرَّضَةً لِلْمَخْمَصَةِ عِنْدَ انْحِباسِ الأَمْطارِ، أَوْ في شِدَّةِ كَلَبِ الشِّتاءِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهم مِن صُنُوفِ الأَطْعِمَةِ ما يَعْتاضُونَ بِبَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ، فَلا جَرَمَ أَنْ يَكُونَ تَحْرِيمُ كَثِيرٍ مِن مُعْتادِ طَعامِهِمْ مُؤْذِنًا بِتَوَقُّعٍ مِنهم، أَنْ يُفْضِيَ ذَلِكَ إلى امْتِدادِ يَدِ الهَلاكِ إلَيْهِمْ عِنْدَ المَخْمَصَةِ، فَناسَبَ أَنْ يُفْصِحَ عَنْ هَذا الشَّرْطِ المُعْرِبِ عَنْ أَحْوالِهِمْ، بِتَقْدِيرِ: فَإِنْ خَشِيتُمُ الهَلاكَ في مَخْمَصَةٍ"[1].

دلالة حذف الشَّرط في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

حذفُ الشَّرط هنا يَتناسَبُ وضِيق المَقام، مقام افتراض الضّرورة والحاجة، فممَّا لاشكَّ فيه أنَّ هذا المقامَ يتطلَّبُ الإيجازَ واختصارَ الكلامِ، وتعيينَ المرادِ مِنْ أخصرِ طريقٍ.

سرُّ بناءِ الفعل للمفعولِ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

اختُصَّ الفعلُ (اضطُرَّ) بالبناء للمفعول؛ لإفادة سَلْبِ القدرةِ عن الفعل، فَضلًا عن التَّعميم المفهوم مِن حذف الفاعلِ، وهو سببُ الاضطرارِ، ولتَربية المُراقبةِ الإلهيَّةِ في نفوسِ المؤمنين؛ حيثُ لا يُقدِّرُ تلك الضَّرورة بقَدْرها إلَّا صاحبُها.

دلالة التَّعبير بالإضرار دون الحاجة أو الإكراه ونحوها في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

يَبَيِّن حال الجوع الَّــذي يبيح للإنسان أكل ما حُرِّم عليه

اختار هذا الفعل؛ لأنَّ صيغته تحمل معنى الافتعال من الضَّرر ومادَّتُه تدورُ حول الضِّيق، وهذه الصِّيغةُ تَدُلُّ على التَّكلُّف، فالاضطرارُ: تكلُّفُ ما يَضرُّ بمُلْجِئٍ يُلْجَأ إليه، والضَّرَرُ المُلجِئُ هنا: هو المَخْمَصَةُ، أي: المَجاعةُ الَّتي تُلجِئُ الإنسانَ إلى أكلِ ما تَعافه نفسُه، مثلُ أكلِ المَيْتةِ أو غيرِها.

وممَّا يذكر في سرِّ إيثار الاضطرار دون الحاجة: أنَّ الحاجة أقلُّ من الاضطرار؛ لأنَّ الضَّرورة حمل الإنسان على ما يضرُّ به، ومعنى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/100.

ذلك: أنَّ الإنسان بلغ حدًّا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب الهلاك، بخلاف الحاجة؛ فهي ما يحتاجه الفرد أو الجماعة للتَّوسعة ورفع الضِّيق، إمَّا على جهة التَّأقيت أو التَّأبيد، وعلى ذلك فهي أقلُّ من الاضطرار؛ لأنَّه لا يتأتَّى الهلاك بفقدها.

سرُّ التَّعبير بالمخمصة دون الجوع في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

آثر التَّعبير القرآنيُّ المخمصة دون الجوع؛ لوجود فرق بينهما: حيث تطلق على الجوع الشَّديد الذي يورث خمص البطن، أي: ضموره، بخلاف الجوع الذي هو ضدُّ الشَّبع، وهو الإحساس الذي يصيب الإنسان والحيوان بسبب خلوِّ المعدة من الطَّعام.

لذلك عبَّر القرآن الكريم بالمخمصة هنا؛ لأنَّها تشير إلى حالة الاضطرار الشَّديد الذي يؤدِّي إلى الهلاك الذي أباح اللّه بسببه الأكل من الميتة؛ لذلك كانت المخمصة هي الأدقُّ في هذا السِّياق.

دلالة تنوُّع حال المضطرِّ في سورة البقرة وسورة المائدة:

تنوُّع حال المضطر في سورة البقرة، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: 173] الآية، بخلاف موضع سورة المائدة؛ فجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، فالملاحظ أنَّ موضع البقرة اختلف عن موضع المائدة، ويرجع سبب ذلك التَّنوُّع إلى أنَّ موضع سورة البقرة جاء في سياق التَّعريض بالمشركين الذين اتَّخذوا من دون اللّه أندادًا، وحرَّموا ما أحلَّ اللّه، وكلُّ ذلك من البغي والعدوان؛ لذلك ناسب التَّعبير هناك: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، فنفى البغي والعدوان؛ لأنَّهم كانوا يقعون فيه، بخلاف موضع المائدة؛ فهي من آخر ما نزل، وذكر قبل موضع الاضطرار كمال الدِّين وتمام النِّعمة، وهذا يؤدِّي إلى البعد عن البغي والعدوان عمومًا وعن الأكل من المحرَّمات خصوصًا.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾:

يدلُّ هذا التَّعبير على أنَّ المضطرَّ لا يقع في أكل المحرَّمات إلَّا إذا شارف على الهلاك، فكان قوله غير متجانف مؤكِّدًا لذلك؛ لأنَّ معناه غير مائلٍ إلى هذه المحرَّمات، إلَّا إذا خاف على نفسه الهلاك، ولم يكن ثمَّة سبيل إلى طعام غير هذا الطَّعام الخبيث، فيأخذ منه بقدر ما يحفظ حياته، ولا يميل عليه ميل المتشهِّي له المستطيب لأكله؛ لأنَّ هذه المحرَّمات، الأكل منها بغير سبب وصف بالإثم، وهو عين هذه المحرَّمات.

دلالة التعبير عن المحرَّمات بالإثم:

عبَّر عنها بالإثم؛ لأنَّ أكلها في غير اضطرار من أكبر المحرَّمات؛ لذا عبَّر القرآن عنها بالإثم تقبيحًا لها وتنفيرًا منها(1).

دَلالة الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

دلَّ الجارُّ والمجرور على أنَّ المراد بالاضطرارِ هو الوقوعُ في الضَّرورة، أي: المَجاعة، ودَفْعُ الإنسانِ إلى ما يَضرُّه، وحَمْلُه عليه، وهو صيغةُ افْتِعالٍ من الضَّرَرِ،، وقد دَلَّنا حرفُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ على حال الجُوعِ الَّذي يُبيحُ للإنسان أكلَ ما حُرِّمَ عليه، وهو الجوعُ القاتلُ الَّذي يُحيطُ به إحاطةَ الظَّرْف بالمَظروف، ولا يَجِدُ له حَلًّا، ولا منه مَلاذًا إلَّا أكلَ ما ذُكِرَ، وحالُ كونه: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، أي: كارهٍ له، وغيرَ مائلٍ إليه، فيُباحُ للمضطرِّ حينئذٍ أنْ يأكلَ ما يُبْقي عليه حياتَه، وما يَسُدُّ رَمَقَه.

دلالة دخول الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

دخلت الفاء؛ لأنَّ جواب الشَّرط جملة اسميَّة توجب الاقتران بها، وذهب البعض إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أغنى عَن جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِأنَّه كالعِلَّةِ لَه، وهي دَليلٌ عَلَيْهِ، والتَّقْديرُ: فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإثْمٍ؛ فَلَه تَناوُلُ ذَلِكَ، فإنَّ اللَّه غَفُورٌ رحيمٌ، كما قال في الآية نظيرتِها: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173].

دَلالة الصِّيغة في صفتَي المغفرة والرَّحمة في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الغفورُ: هو عظيمُ المغفرةِ، ودائمُ المغفرة، فهو الَّذي يسترُ العيوبَ، ويغفرُ الذُّنوبَ، وصيغةُ (فَعُول) تَدُلُّ على المبالغةِ في كمال المغفرةِ وشُمولِها، وقد وردَ في القرآن الكريم بهذه الصِّيغة إحدى وتسعين مرَّةً، واقترنَ باسم اللّه (الرَّحيم) في كثيرٍ من الآيات، ومنها الآيةُ الَّتي معنا، واقترانُهما في خِتامها يدلُّ على رفع الحرج والإثم، فهو غفورٌ لمَنْ فعلَ ذلك مُضطرًّا، رحيمٌ بكم؛ حيثُ رَفَعَ الحَرَجَ عنكم، ورحيمٌ بكم؛ حيثُ نفى عنكم الإثمَ و الأذى بأكْل شيءٍ من المَيْتةِ، أو ممَّا حرَّم.

---

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني: 2/1034.

دلالة تقديم اسم الله الغفور على الرَّحيم:

وتقدَّمَ اسمُ اللّه (الغفور) على (الرَّحيم) في جميع الآيات، ما عدا آيةً واحدةً، تقدَّمَ فيها (الرَّحيم) على (الغفور)، وهو قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: 2].

وتقديمُ (الغفور) على (الرَّحيم) يُعطي دَلالةً على عظيمِ رحمتِه في سَترِه على عبدِه، وعظيمِ حبِّه له، ففي مغفرتِه رحمةٌ، فلم يسترْه لِيفضحَه، أو لِيستدرجَه، وإنَّما سَتَرَه ليَرحمَه.

وأمَّا تقديمُ (الرَّحيم) على (الغفور) في آية سبأ[1]، فهناك عدَّةُ أمورٍ تُعَدُّ إشاراتٍ لعلَّةِ التَّقديم، منها ما يلي:

أ - مَطلَعُ السُّورةِ خالِصٌ في الحديث عن اللّه تعالى، فتَقديمُ الرَّحيمِ مناسِبٌ لبيانِ صفاتِه سبحانه، ورحمتُه تَسبِقُ غضبَه، وسترُه من جنس رحمتِه.

ب - بيانُ أنَّ رحمتَه لعبدِه ظاهرةٌ في نِعمه عليه في الدُّنيا والآخرة، فهو رحيمٌ بهم، حيثُ لم يَجعلْ لغيره سُلطانًا عليهم، ولم يكنْ له وَليٌّ من الذُّلِّ.

ج - عِلْمُ اللّه بكلِّ شيء، سواء كان داخلًا في الأرض أم خارجًا منها، وكذلك بالنِّسبة للسَّماء، ما يَنْزِلُ من السَّماءِ وما يعرُج فيها... في هذا العلمِ رحمةٌ قبل السَّترِ، فهذا السَّتْرُ إنْ لم يكنْ عَنْ علمٍ تامٍّ؛ لم يكن رحمةً، ولم تَصِحَّ له ثمَّة فائدة، فلذا يُطمئِنُ اللّه عبادَه بتقديم (الرَّحيم) على (الغفور).

د - تقديمُ الرَّحمةِ يَتناسَبُ مع تقديم ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 2] و﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: 2]؛ لأنَّ الوُلوجَ والنُّزولَ لأيِّ شيءٍ، كنزول الرَّحمة مِنْ أعلى إلى أسفلَ، وتأخيرُ المغفرةِ يتناسَبُ مع تأخير: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2] و﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: 2]؛ لأنَّ هذا السِّترَ العظيمَ للعبدِ خروجٌ من الذَّنب والعَيب، وعُروجٌ في سماءِ العفوِ والصَّفحِ.

تناسب الفاصلة مع مضمون الآية الكريمة:

خَتْمُ الآية الكريمة بصفتَي اللّه تعالى: الغفور الرَّحيم، مُناسِبٌ لَمضمونِ الآية، حيثُ إنَّ

(1) نصر سعيد، تلك الجنّة، ص: 313، وما بعدَها.

مَطلَعَها تحريمٌ لبعض المَطعومات، وقد يُضطرُّ أحدُكم في أكل شيء ممَّا حُرِّم عليه؛ فلا إثمَ عليه في ذلك.

وممَّا يذكر في سرِّ تناسب الفاصلة أنَّها في اختيار صفة المغفرة والرحمة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وجود إشارة مضيئة تكشف عن أنَّ إباحة هذه المحرَّمات في حال الاضطرار لا ينفي عنها خبثها، ولا يرفع الإثم للمتلبِّس بها، ولكن رحمة اللّه ومغفرته هما اللَّتان تمحوان عن المضطرِّ خبثها وإثمها، وفي هذا دعوة لصرف النَّفس عن هذه الخبائث وتجنُّبها ومحاذرة الوقوع فيها مالم يكن مضطرًّا، فرحمته ومغفرته تغسل ما علق به من درن[1].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 2/1035.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حرَّمه في الآيةِ المتقدِّمةِ من الخبائثِ الضارَّة لُمتناوِلها - إمَّا في بدَنِه، أو في دِينه، أو فيهما - واستثنى ما استَثْناه في حالةِ الضَّرورةِ؛ شرَع في بيانِ ما أحلَّه لهم، فقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: الطَّيِّبُ لُغَةً: المُستَلَذُّ، والحلالُ المأذونُ فيه، يُسمَّى أيضًا طيِّبًا؛ تَشبيهًا بما هو مُستَلَذٌّ؛ لأنَّهما اجتمعا بانتفاء المَضرَّة[1]، والطَّعام الطَّيِّب في الشَّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز؛ فإنَّه متى كان كذلك كان طيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُستوخم.

2) ﴿ٱلۡجَوَارِحِ﴾ أي: الصَّوائِدِ أو الكَواسِبِ -كالكِلابِ والفُهودِ والصُّقورِ وأشباهِها - وهي ما صِيدَ به من سِباعِ البَهائِمِ والطَّير، وأصلُ الاجتراح: الاكتسابُ، والمُفردُ: جارحةٌ، والكَلْبُ الضَّاري جارحةٌ، سُمِّيَت جوارحُ؛ لأنَّها كواسِبُ أنفسِها، مِنْ: جَرَحَ واجْتَرَحَ؛ إذا اكْتَسَبَ[2].

3) ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، أي: أصحابَ ضَوارٍ وكلابٍ، وَالمُكَلِّبُ: الَّذي يُعلِّمُ الكلبَ، ويُقالُ: رجلٌ مُكلِّبٌ وكَلَّابٌ، أي: صاحبُ صيدٍ بالكِلابِ، ويقالُ للصَّائد مُكَلِّب؛ لأنَّه يُعَلِّمُ الكَلْبَ الصَّيْدَ، قال الشَّاعرُ:

فبادَرَهُ عند الصَّباحِ مُكَلِّبٌ*** أزلُّ كَسِرحَانِ الهَزِيمة أَغْبرُ[3].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/262.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جَرَحَ)، وابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 139.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (كَلب)، والشّاعر غير معروف.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولمَّا ذَكَرَ اللهُ ما حَرَّمَ أكلَه؛ ذَكَرَ ما أباحَ أكْلَهُ، فقال: يَسألُكَ - أيُّها الرَّسولُ - صحابتُكَ عمَّا يُباحُ لهم أكْلُه من الأطعمةِ، قل - أيَّها الرَّسول - : أَحَلَّ اللهُ لكم ما طابَ من المآكلِ، وأكلَ ما صادَتْهُ المُدرَّباتُ مِنْ ذواتِ الأنيابِ كالكِلاب والفُهود، وذواتِ المَخالِبِ كالصُّقور؛ إذا عَلَّمُوها، ودَرَّبوها على طريقةِ الصَّيد، يُعلِّمونها ممَّا امتنَّ اللهُ عليهم من العِلم بآدابِ الصَّيد، حتَّى صارت إذا أُمِرَت؛ ائْتَمَرَتْ، وإذا زُجِرَت؛ انْزَجَرَتْ، فلْيَأكلوا ممَّا أمسكْنَه لأجْلِهم، ولْيَذكروا اسمَ اللهِ عليها عندَ إرسالها للصَّيد، واتَّقوا اللهَ بامتثال أوامره، والكَفِّ عن نواهيه، إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ للأعمالِ.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فَصْل جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ عن الآية قبلها:

الاستئناف البيانيُّ أو الاستئناف الابتدائيُّ

والفَصلُ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ عن الآية قبلَها؛ إمَّا أنْ يكونَ للاستئناف البيانيِّ النَّاشئَ عن جملةِ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾، وإمَّا أنْ يكونَ الفَصلُ للاستئناف الابتدائيِّ؛ للانتقالِ من بيان المُحَرَّمات إلى بيان الحلال بالذَّات، وإنْ كان السُّؤالُ لم يَقَعْ، وإنَّما قُصِدَ به توقُّعُ السُّؤالِ، كأنَّه قيلَ: إنْ سألوكَ، وعليه فالمضارعُ بمعنى: الاستقبالِ؛ لِتوقُّعِ أنْ يَسألَ النَّاسُ عمَّا أُحِلَّ لهم بعد أنْ سمعوا ما حُرِّمَ عليهم، فالنُّفوسُ تتوجَّهُ إلى الإحاطة به، وإلى معرفة ما يُمكنُ أنْ يكونَ قد حُرِّمَ عليهم من غير ما عُدِّد لهم في الآيات السَّابقة.

التَّعبير بالمضارع لاستحضار صورة الحدث في الذِّهن، وللدَّلالة على تجدُّد السُّؤال

سرُّ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾:

أمَّا دَلالةُ المضارع على معنى الاستئناف البيانيِّ؛ فهي تُجَدِّدُ السُّؤالَ، أيْ: تُكرِّرُه، أو توقُّعُ تكرُّرِه[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/110.

وأوثرَ التَّعبيرُ بالمضارع هنا على التَّعبير بالماضي؛ لاستحضار صورة الحَدَثِ في الذِّهْنِ؛ تَمهيدًا لتَمْكين الإجابةِ في النَّفْس عند وُرودها، "كما دَلَّ التَّعبيرُ بالمُضارِع في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ على تجدُّد السُّؤالِ، وهذا يدلُّ على حِرْص الصَّحابة - رضوان اللّٰه عليهم - على التَّحرِّي مِن جَلِيَّة ما سَكَتَ عنه القرآنُ الكريمُ، فلم يَكْتَفُوا بدَلالة المَفهومِ، حتَّى اسْتوضحوه، وجعلوه بالاستفهام عنه منطوقًا[1]".

دلالة التَّعبير بالضَّمير في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

عبَّر عن المؤمنين بالضَّمير في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ ليشمل من سأل تصريحًا أو تلميحًا، ولرفع الحرج عن السَّائلين.

دلالة استعمال الاستفهام في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾:

بدأت الآيةُ الكريمةُ باستفهام حقيقيٍّ، وذلك في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾[2]، والمطلوبُ بهذا الاستفهام معرفةُ ما أَحَلَّ اللّٰه تعالى لعباده من المطعومات، وقد نَشَأَ هذا السُّؤالُ نتيجةَ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ في الآية السَّابقةِ، حيثُ عُدِّدَتْ فيها عشرةٌ من المَطْعوماتِ المُحَرَّماتِ.

دلالة إيثار الاستفهام بـ﴿مَاذَآ﴾ على (ما) في قوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾:

وفي إيثارِ الاستفهام بـ﴿مَاذَآ﴾ على (ما)، حيثُ لم يَقُلْ: (ما أُحِلَّ)؛ لتَفخيم شأن المستفهَم عنه، وزيادةُ المبنى مِن دَلالات زيادة المعنى[3].

سرُّ بناء الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ للمفعول:

لِعَدمِ تَعَلُّق الغَرَض بكونه مِن سائل مُعَيَّنٍ

وبُنِيَ الفعلُ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾؛ ليكونَ طِبْقَ سُؤالِهم؛ ولِعَدَمِ تَعلُّقِ الغرضِ بكونه مِن سائلٍ مُعَيَّنٍ.

نكتة العدول في الآية الكريمة من (لنا) إلى ﴿لَهُمۡۖ﴾:

الالتفات من التَّكلُّم إلى الغيبة للتَّنبيه

السُّؤالُ يتضمَّنُ معنى: القولِ، فهو حكايةٌ لقولهم، وعَدَلَ عن (لنا) إلى ﴿لَهُمۡۖ﴾؛ مراعاةً لضمير الغائب في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، فهنا

---

(1) عبد العظيم المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/239.

(2) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَزَيْدِ بْنِ الْمُهَلْهِلِ الطَّائِيَّيْنِ، قَالاَ: يَا رَسُولَ اللّٰه إِنَّا قَوْمٌ نَصِيدُ بِالْكِلَابِ وَالْبُزَاة، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْهَا؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة، ينظر: الواحديّ، أسباب نزول القرآن، ص: 194.

(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/239.

التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة؛ للتَّنبيهِ وتوجيهِ الذِّهن، ولأنَّ السِّياقَ حكايةٌ عنهم، كما يُقالُ: أقسِمُ لَيفعلنَّ كذا.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

وأَمَرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنْ يتولّى الجوابَ في قوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو المُبَلِّغُ للرِّسالة، وهو المُبَيِّنُ لهم والمُرْشِد، وهو المَرْجِعُ، ومِمَّا يتَّفِقُ مع مقام الرِّسالة أنْ يكونَ هو المُجيبَ، لكنْ إذا كان اتِّجاه النَّاس إلى ربِّهم بالضَّراعةِ تَسْقُطُ الواسطةُ بين اللّه تعالى وعباده، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186][1].

دلالة الجواب بقوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ مع أنَّ الطَّيِّبات غير معلومة:

جاء قوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ جوابًا لسؤالهم ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالطَّيِّبات هنا الذَّبائِحُ، والعربُ تُسَمِّي الذَّبيحةَ: طَيِّبًا، وتُسَمِّى المَيْتَةَ: خبيثًا، فصار المرادُ معلومًا، لكنَّه مخصوصٌ كغيره من العموميَّات[2].

وتطلق الطَّيِّبات على ما لَمْ تَسْتَخْبِثْهُ الطِّباعُ السَّليمَةُ، ولَمْ تَنْفِرْ عَنْهُ، ومِن مَفْهُومِهِ حَرُمَ مُسْتَخْبَثاتُ العَرَبِ[3].

دلالة تكرار الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

كرَّر الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ للدَّلالة على أنَّ أمر التَّحليل والتَّحريم أمْرٌ شرعيٌّ ينبغي الوقوف عنده، وفيه إشارة إلى الامتنان والإعلام بأنَّ ما أحلَّه اللّه لهم هو الطَّيِّب دون غيره، وفي هذا إبطال لما كانت تفعله العرب من تحريم ما لا موجب لتحريمه أو تحليل ما هو خبيث.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول في قوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور للعناية بالسَّائلين، ولرفع الحرج عنهم، ولإزالة الوحشة التي أصابتهم من ذكر المحرَّمات العشرة قبل ذلك.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2037.
(2) الرازيّ، من غرائب آي التّنزيل، ص: 66.
(3) البَيْضاوي، أنوار التّنزيل: 1/136.

دلالة التَّعبير عن الحلال بالطَّيِّبات في قوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

عبَّر بالطَّيِّبات؛ لأنَّها تحمل في معناها الحلال؛ لأنَّ أصل معنى الطَّيِّب: الطَّهارة والزَّكاة، ومن له أثرٌ حسنٌ في النَّفس، ولمَّا كان كذلك؛ أُطلق على الحلال؛ لأنَّ حلَّه علامة على حسنه وسلامته من المضرَّة، ولذلك كان ذكر الوصف بالطَّيِّب من الأطعمة علَّةً للتحليل، وأفاد أنَّ الحرام ضدُّه، وهو الخبيث، يدلِّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157].

دلالة حذف الموصوف وبقاء الصِّفة في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

حذف الموصوف، وهو الأطعمة، وأبقى الصِّفة للدَّلالة على تمكُّن وصف الطَّيِّب فيها، أي: في ذات الطَّعام، فلا يكون ضارًّا، ولا ممَّا تكرهه الطِّباع، وتأنف منه النُّفوس، ولا يكون منافيًا للدِّين، وكلُّ من اجتمعت فيه هذه الصِّفات لا يحرمه الدِّين؛ لأنَّه موافق للفطرة والعقل.

بلاغة العطف في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾:

عطف على الطَّيِّبات بتقدير مضافٍ

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾: عَطْفٌ عَلى ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ بِتَقْدِيرِ مُضافٍ، أيْ: وصَيْدُ ما عَلَّمْتُمُوهُ[1]، ويكون ذلك عطف المفرد، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وتكون (ما) على هذا موصولة، و(فاء) ﴿فَكُلُواْ﴾ للتَّفريع، ويجوز أن يكون من باب عطف الجمل، وتكون (ما) شرطيَّة، وجواب الشَّرط ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾[2].

دلالة تسمية الكواسب من السِّباع ونحوها بالجوارح:

﴿ٱلۡجَوَارِحِ﴾: الكَواسِبُ مِن سِباعِ البَهائِمِ والطَّيْرِ - كالكَلْبِ والفَهْدِ والعُقابِ والصَّقْرِ والبازِيِّ والشّاهِينِ - وسُمِّيت جوارحًا؛ لِأنَّها تَجْرَحُ لِأهْلِها، أيْ: تَكْسِبُ لَهم، ومفردُها: جارِحَةٌ، تَقُولُ العَرَبُ: فُلانٌ جَرَحَ أهْلَهُ خَيْرًا، أيْ: كَسَبَهم خَيْرًا، وفُلانٌ لا جارِحَ لَه، أيْ: لا كاسِبَ،

(1) أوْ مُبْتَدأٌ، عَلى أنّ: (ما) شَرْطِيَّةٌ، وجَوابُها: (فَكُلُوا).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/114.

ومِنهُ قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60] أيْ: كَسَبْتُمْ، وقِيلَ: سُمِّيَتْ جَوارِحُ؛ لِأنَّها تَجْرَحُ الصَّيْدَ عِنْدَ إمْساكِه غالبًا(1).

سِرُّ عطف قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ على ما قبله:

عطف قولُه: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ على ما قبله؛ "لأنَّ طَيِّبَه قد يَخفى مِنْ جهة خفاءِ معنى الذَّكاةِ في جرح الصَّيدِ، لاسِيَّما صيْدُ الجوارحِ، وهو مَحَلُّ التَّنبيهِ هنا الخاصُّ بصيد الجوارح(2)".

دلالة التَّعبير بقوله ﴿مُكَلِّبِينَ﴾:

عبَّر بقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾: وهي حالٌ من الضَّمير المُتَّصل في ﴿عَلَّمْتُم﴾ لبيان نوع التعليم، وهو تعليم المُكلِّب، "والمُكَلِّبُ: مُؤَدِّبُ الجَوارِحِ ومُضْريها بالصَّيْدِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الكَلْبِ؛ لِأنَّ التَّأْدِيبَ كَثِيرًا ما يَقَعُ فِيهِ، أوْ لِأنَّ كُلَّ سَبُعٍ يُسَمَّى كَلْبًا؛ لِقَوْلِه عليه السلام في حَقِّ عُتْبَةَ بْنِ أبي لَهَبٍ، حِينَ أرادَ سَفَرَ الشَّامِ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِن كِلابِك»، فَأكَلَهُ الأسَدُ.

ومن دلالة التَّعبير بها: المُبالَغَةُ في التَّعْليمِ لِما أنَّ الِاسْمَ المُكَلِّبَ لا يَقَعُ إلَّا عَلى النَّحرير في عِلْمِهِ(3)".

دلالة التَّعبير بالمكلِّب دون المعلِّم:

عبر بالمكلِّب دون المعلم؛ لأنَّ المرادَ من المُكَلِّب مُعَلِّمُ الجوارح ومؤدِّبُها، وهو أَعَمُّ مِن أنْ يكونَ مُؤَدِّبًا للكلب ولغيرِه، لكنْ اشتُقَّ له اسمٌ من الكلب؛ لأنَّ التَّأديبَ للكلبِ أكثرُ وآثرُ، ولأنَّ الكلبَ شاملٌ لجميع أنواع السِّباعِ، ومنها جوارحُ الطُّيور(4).

فائدة ذكر ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾:

وقد يُوهَمُ أنَّ في ذِكر قولِه: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ تَكرارًا؛ إذْ إنَّ المُكلِّبَ هو المُعَلِّمُ من كلاب الصَّيد، لكنْ ليس في هذا تَكرارٌ؛ لأنَّ مِن معاني المُكلِّب - أيضًا- أنَّه المُضْري للجارح والمُغْري له، وبناءً على هذا التَّفسير، لا يكونُ قولُه: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾

(1) القاسميّ، مَحاسن التَّأويل: 7/1843.
(2) الطّاهر ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/8.
(4) الكازرونّي، حاشية الكازرونّي على تفسير البيضاويّ: 1/136.

من ذكر الخاصّ بعد العامّ

تَكرارًا، وعلى التَّفسير الأوَّل يمكنُ التَّأويل بأنَّه مِنْ ذكر الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ غالبَ صيدِهم كان بالكِلاب، فَأَخرَجَه مَخْرَجَ الغالِبِ الواقعِ منهم[1].

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

كمال الاتِّصال بينها وبين ما قبلها

فُصلت جملةُ ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ، والمراد: ممَّا علَّمكم اللّه من الحيل وطرق التَّعليم والتَّأديب، فإنَّ العلم بها إلهامٌ من اللّه تعالى، أو مكتسبٌ بالعقل الذي هو منحة منه، أو ممَّا عرَّفكم أن تعلموه من اتِّباع الصَّيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه، وإمساك الصَّيد عليه، وعدم أكله منها[2].

دلالة تكرار مادة العلم في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

كرَّر مادة العلم؛ للإشارة إلى أنَّه على كلِّ آخذٍ علمًا" ألَّا يَأْخُذَه إلَّا من قِبَل أَهْلِه عِلْمًا وأَبْحَرِهِم دِرايَةً، وأَغْوَصِهِم عَلى لَطائِفِه وحَقائِقِه، واحْتاجَ إلى أنْ تُضْرَبَ إلَيْهِ أَكْبادُ الإبل، فَكَمْ مِن آخِذٍ مِن غَيْرِ مُتْقِنٍ، فَقَدْ ضَيَّعَ أيَّامَهُ، وعَضَّ عِنْدَ لِقاءِ النَّحارِيرِ أنامِلَهُ[3]".

وفيه إشارة إلى دقَّة التَّحرِّي في الأكل من صيد الكلاب المرسلة، فلا بدَّ وأن تكون معلَّمة تعليمًا دقيقًا، فلا يكتفى المكلِّب بتعليمه مرَّة أو مرَّتين، بل لا بدَّ من التَّأكُّد أنَّه تعلَّم، فإذا أمره؛ ائتمر بأمره، وانزجر بزجره، وتعلَّم الإمساك عليه؛ لأنَّ ذلك يتعلَّق بأمر المطعومات، وهي من الخطورة في الشَّرع بمكان.

---

(1) محمّد بن أبي بكر الرّازيّ، من غرائب آي التّنزيل، ص: 66.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/8.

(3) الزَّمْخَشريّ، الكَشَّاف: 1/323.

سرُّ تأنيث الضَّمير وجمعه في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾:

"أَنَّثَ الضَّميرَ في ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾؛ مُراعاةً لِلَفْظِ الجَوارِح، إذْ هو جَمْعُ جارِحَة[1].

دَلالة (مَنْ) في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

و(مِن) لِلتَّبْعِيض، وهذا تبعيضٌ شائعُ الاستعمالِ في كلام العربِ عند ذِكر المُتَناولات، كقوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾، وليس المقصودُ النَّهيَ عن أكل جميع ما يَصيدُه الصَّائدُ، ولا أنَّ ذلك احتراسٌ عن أكل الرِّيشِ والعَظْمِ والجِلدِ والقرونِ؛ لأنَّ ذلك كلَّه لا يَتوهَّمُه السَّامع حتَّى يَحترسَ منه[2].

سرُّ العدول عن (اللَّام) إلى (على) في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

وعُدِّيَ الفعلُ (أمسك) بحرف الاستعلاءِ، وكان الظَّاهرُ أنْ يَتعدَّى بحرفِ الاختصاص، فيقالُ: أَمسَكْنَ لكم، ولعلَّ هذا مقصودٌ بما يُوحي به الحرفُ من معنى الاستعلاءِ، أنَّ ما اصطادَتْه تلك الجوارحُ لأصحابها، لا يَحِلُّ أكلُه إلَّا بشروطٍ، منها: وجوبُ ذِكْرِ اسم اللّه تعالى عندَ إطلاقِ الجوارحِ، أو بعدَ اصطيادِ الفريسةِ، وعدم أكل الكَلْبِ المُعَلَّم منها، وما يَسْتَتْبِعُ هذا من التَّبِعةِ، لوجوب التَّحرِّي مِنْ تَحقُّق تلك الشُّروط - المبثوثة في كُتُب الفقه - قَبْلَ أكلِها، وما يُمثِّلُه هذا من مسؤوليَّةٍ، تُمثِّلُ ثِقلًا وعِبئًا على أصحابِ تلك الجوارح المُدَرَّبة، وهذا ما جَسَّدَه حرفُ الاستعلاءِ في صورةٍ جَليَّةٍ، ولا يَخفى أنَّ الاستعلاءَ - بناءً على هذا المعنى - مجازيٌّ، أمَّا لو قيلَ: (مِمَّا أَمْسَكْنَ لَكُم) بحرفِ الاختصاصِ، فقد يُفهَمُ منه إباحةُ الأكلِ مِمَّا تَصطادُه تلك الجوارحِ، دون قَيْدٍ أو شَرْطٍ - وهذا ينافي الواقع - بما يدلُّ عليه هذا الحرفُ من معنى التَّمَلُّك والاختصاص.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

احتراس بليغ

في قوله: ﴿مِمَّآ﴾ بدل (ما): احتراسٌ بليغٌ؛ لاستبعادِ إرادةِ غيرِ المقصود؛ لأنَّه لو قيلَ: (فَكُلوا ما أَمْسَكن عليكم)؛ لجاز أَكْلُ كلِّ ما أمسكَتْهُ الجوارحُ، وهذا لا يجوز شرعًا؛ لأنَّ مِمَّا أمسكَتِ

(1) ابن عطيَّة، المُحرِّر الوجيز، ص: 516.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/116.

الجوارحُ ما لا يجوزُ أكلُه، كأنْ تأكل الجارحةُ ممَّا أمسكَتْهُ، فلا يجوزُ أكلُ ما تبقَّى منه، ولو كان كثيرًا[1].

دَلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الأمر في ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ للإباحة، والمَعْنى: كُلُوا مِنَ الصَّيْدِ الَّذي أَمْسَكْنَ لأجلكم، "وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ - ﵄ - وَالنَّخَعِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وغيرُهم: المَعْنَى: وَلَمْ يَأْكُل، فَإِنْ أَكَلَ؛ لَمْ يُؤْكَلْ مَا بَقِيَ؛ لِأَنَّهُ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِه، وَلَمْ يُمْسِكْ عَلَى رَبِّهِ، كما وردَ في الحَديثِ الشَّريف الَّذي رواه عَديٌّ، وأخرجه مُسْلِمٌ: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ الكَلْبِ المُعَلَّم، فَقالَ: (وَإِذَا أَكَلَ؛ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ على نفسِه)[2].

تـنـزيـل غـير الـعـاقـل منزلة العاقل بِتَعَلُّمِها الـصَّـيـد كـأنَّـها عاقلات

وفي قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ نُزِّلَ غيرُ العاقل منزلةَ العاقلِ؛ حيثُ عُبِّرَ عن الجوارحِ، وهي غيرُ عاقلٍ بجمع المُؤَنَّثِ السَّالم، فقال: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾؛ لأنَّها بتعلُّمِها الصَّيدَ، وإتقانِها له صارت كأنَّها عاقلاتٌ، وجاء هذا الإطلاقُ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، حيثُ شُبِّهَ افتراسُ الجوارحِ، وهي غيرُ عاقلةٍ بصَيدِ العاقلِ، بجامعِ المَهارة والإتقان في كُلٍّ منهما.

سرُّ التَّعبير بالإمساك دون الصَّيد في قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

عبَّر بالإمساك دون الصَّيد؛ ليشير إلى حالة الإمساك المخصوص على صاحبه، بخلاف الصيد؛ فقد يكون بإمساك وبغير إمساك، كأن يرى صيدًا لم يصدْه هو، وعند ذلك يكون صيده على غير المعتاد، ودلَّ التَّعبير بالإمساك - أيضًا - على أنَّه من شروط حلِّ الصَّيد إمساكه على صاحبه.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الفاء فيها تكون فصيحةً إن جعلت (ما) في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم﴾ موصولة، وتكون رابطة للجواب إن جعلتها شرطيَّة.

---

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/240.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/35.

دَلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

والأمر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ للوجوب، أي: بِذِكْرِ اسم الله تعالى عَلى الصَّيْدِ، ومَعْناهُ: أنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ الإرْسالِ؛ لِأنَّهُ قَدْ يَمُوتُ بِجُرْحِ الجارِحِ، وأمَّا إذا أمْسَكَهُ حَيًّا؛ فَقَدْ تَعَيَّنَ ذَبْحُه، فَيَذْكُرُ اسْمَ الله عَلَيْهِ حِينَئِذٍ.

بلاغة التَّعبير بالذِّكر في قوله: (اذكروا) دون التَّسمية:

عبَّر بالذِّكر لأنَّه أعمُّ، فيشمل الذِّكر بالقلب والذِّكر باللِّسان، وكلٌّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ[1]، بخلاف التَّسمية؛ فهي جزءٌ من الذِّكر، وأيضًا فيه إشارة بأنَّه لو استحضر الذِّكر بقلبه، ونسيه بلسانه يكون ذاكرًا لله على المذبوح، وفيه إشارة - أيضًا- إلى معنى العبادة.

بلاغة التَّعبير بالضَّمير في (عليه) بدلًا من الظَّاهر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

من جمال الأسلوب القرآنيِّ التَّعبير بالضَّمير ليؤدِّي أكثر من معنى، وهذا من جمال الإيجاز، فالضَّميرُ في: ﴿عَلَيۡهِۖ﴾ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، إمَّا أنْ يرجعَ إلى ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾، أي: التَّسميةُ عند الإرسال على الصَّيد، وإمَّا أنْ يرجعَ إلى قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾، والمعنى: وسَمُّوا عليه؛ إذا أَدْرَكْتُم ذَكاتَه[2].

ومِمَّا يدلُّ عليه التَّعبير بالضَّمير: الإشارة إلى المذبوح الذي ذكر اسم الله عليه لا شبهة، وللتفريق بينه وبين ما يحتمل وجود شبهة كالممسوك عند الإرسال على الصَّيد.

نكتة ذكر كلمة ﴿ٱسۡمَ﴾ مضافة إلى لفظ الجلالة:

الـواجـب عند التَّـذكـيـة ذكـر اسـم الـجلالة دون غيره

وذِكرُ كلمةِ ﴿ٱسۡمَ﴾ مضافةً إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ له مَغزًى بلاغيٌّ دقيقٌ؛ إذ إنَّ الواجبَ ذِكْرُه في تذكية الذَّبائح والصَّيدِ هو لَفْظُ الجلالة (الله) بعينه، لا اسمٌ آخرُ من أسمائه تعالى الحسنى، ولو قيلَ: واذكروا الله؛ لأجزأَ ذِكْرُ أيِّ اسمٍ

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/324، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/35.

مِن أسمائه الأخرى، ولكنْ لَمَّا قال: ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾؛ تَعيَّنَ أنْ يكونَ المذكورُ هو لفظُ الجلالةِ (اللّه)، وهذا مِن دِقَّة البيانِ القرآنيِّ المُعْجزِ[1].

الإظهار في مقام الإضمار لتعليلِ الحُكم:

جملة خبريَّة مؤكَّدة للتَّخويفِ من اجتنابِ التَّقوى

وإظهارُ الاسم الجليلِ (اللّه) في موقعِ الإضمار؛ لتَربيةِ المَهَابة في نفوس المخاطبِين، وتعليلِ الحُكم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تشريعٍ وتحَرِّي الحلالِ؛ فناسَبَ ذلك إظهارُ اسم الجلالة في المواضع الثَّلاثة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّه أدعى للطَّاعةِ والإذعانِ.

دلالة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمَّا قبلها:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عمَّا قبلها لكمالِ الانقطاعِ؛ لاختلاف الجملتَين خبرًا وإنشاءً، فما سبقَتْها إنشائيَّةٌ، وهذه خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ خلافًا لفاصلة الآية السَّابقة:

ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ كناية عن سرعة تحقُّق الحساب وتحقُّق وقوعه في يوم القيامة وقربه، وفيه إشارة إلى علمه ﷻ بأحوال النَّاس في تناول المباح من الطَّيِّبات، ولا سيَّما من الكلاب المُعلَّمة، والنَّاس فيها بين محسن ومسيء، فإذا علم المرسل لكلبه المُعلَّم بأنَّ المُحاسب على حقيقة التَّذكية والتزام شروطها: هو اللّه ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية؛ التزم الدِّقَّة في التزكية.

وفيه إشارة إلى العدالة النَّاجزة للمحسن وللمسيء، فيجازى المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

دلالة التعبير بالجملة الاسميَّة:

عبَّر بالجملة الاسميَّة للتَّأكيد، والغرضُ منها التَّهديدُ والتَّخويفُ من اجتنابِ التَّقوى، وأنَّ مَنْ لم يتَّقِ اللّه؛ فإنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ، أي: إنَّ اللّه تعالى سيُحاسِبُكم على أعمالِكم، وقولُه: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يتضمَّنُ سُرعةَ التَّنفيذِ مِن وجهٍ، وسرعةَ الوقتِ من وجهٍ آخَرَ.

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/241.

دلالة الإتيان بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ عقب قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

جاء قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بعد الأمر بذكر اسم الله لتحذير الَّذين يرسلون كلابهم للصَّيد من الوقوع في أكل الحرام، بأن يأتي الكلب بصيد لم يرسله عليه، أو أن يكون الكلب غير مؤتمرٍ بأمره، إلى غير ذلك من الحالات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام، ولا يكون فاصلًا بينهما إلَّا تقوى اللّه؛ لأنّها تشمل الظَّاهر والباطن.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أولًا: أنَّهُ تَعالى أَخْبَرَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ أنَّهُ أحَلَّ الطَّيِّباتِ، وكانَ المَقْصُودُ مِن ذِكْرِهِ الإِخْبارَ عَنْ هَذا الحُكْمِ، ثُمَّ أعادَ ذِكْرَهُ في هَذِهِ الآيَةِ، والغَرَضُ مِن ذِكْرِهِ أنَّهُ قالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، فَبَيَّنَ أنَّهُ كما أكْمَلَ الدِّينَ، وأتَمَّ النِّعْمَةَ في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، فَكَذَلِكَ أتَمَّ النِّعْمَةَ في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيا، ومِنها إحْلالُ الطَّيِّباتِ، والغَرَضُ مِنَ الإعادَةِ: رِعايَةُ هَذِهِ النُّكْتَةِ[1].

بيْنَ هذه الآيةِ وما قبلَها مناسبةٌ، غير سَرْدِ أحكام الطَّعام، وبيانِ أحكام الحلالِ والحرام: وهي أنَّ سببَ مشروعيَّةِ التَّذكيةِ التَّفصِّي[2] مِنْ أكلِ المشركين للميْتةِ، وسببُ التَّشديدِ في التَّسميةِ على الطَّعام مِنْ صيدٍ وذبيحةٍ: هو إبعادُ المسلمين عمَّا كان عليه المشركون من الذَّبح لغير اللّٰه تعالى، بالإهلال به لأصنامهم، أو وَضعِها على النُّصُبِ، واستبدالِ اسم اللّٰه وحدَه بتلك الأسماءِ الَّتي سَمَّوْها هم وآباؤهم، ما أنزلَ اللّٰه بها من سُلطان، لِيُطهِّرَهم مِنْ كلِّ ما كانوا عليه من أدران الشِّركِ.

ثانيًا: ولَمَّا كان أهلُ الكتاب في الأصل أهلَ توحيدٍ، ثمَّ سَرَتْ إليهم نزغاتُ الشِّركِ ممَّنْ دَخَلَ في دينهم من المشركين، ولم يُشدِّدوا في الفصل بينهم وبينَ ماضيهم، وكان هذا مظِنَّةَ التَّشديدِ في مُؤاكلةِ أهلِ الكتابِ ومُناكحتهم، كما شُدِّدَ في أكل ذبائحِ مشركي العربِ ونكاح نسائِهم؛ بيَّنَ اللّٰه لنا في هذه الآية: ألَّا نعامِلَ أهلَ الكتابِ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/146.
(2) تَفصَّى مِنَ الشَّيءِ: تَخلَّص، وأصل التَّفصِّي: أَن يَكُونَ الشَّيءُ فِي مَضِيقٍ، ثُمَّ يَخْرُجَ إلى غَيْرِهِ.

معاملةَ المشركين في ذلك، فأحلَّ لنا مؤاكلتَهم، ونكاحَ نسائِهم، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾: امرأةٌ حَصَانٌ وحَاصِنٌ، ويُقالُ: حَصانٌ للعفيفة، ولِذاتِ حُرمةٍ، وقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [التّحريم: 12]، وأَحصنت وحَصَّنَت، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾ [النّساء: 25]، أي: تَزَوَّجْنَ، أُحصِنَّ: زُوِّجْنَ، والحَصانُ في الجملة: المُحصَنَةُ؛ إمَّا بعفَّتِها، أو تزوُّجها، أو بمانعٍ من شرفها وحُرِّيَّتِها، ويقالُ: امرأةٌ مُحْصِنٌ ومحصَنٌ، فالمُحصِنُ يقالُ: إذا تُصُوِّر حَصَنُها مِنْ نفسها، والمُحْصَنُ، يقالُ: إذا تُصُوِّرَ حَصَنُها من غيرِها، وقولُه ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النّساء: 25]، وبعده: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النّساء: 25]، ولهذا قيل: المُحصنات: المُزَوَّجات، تَصَوُّرًا أنَّ زوجَها هو الَّذي أَحصنَها، و﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 24] بعدَ قولِه: ﴿حُرِّمَتۡ﴾ [النّساء: 23]، بالفَتح لا غير[1]، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر؛ لأنَّ اللَّواتي حُرِّمَ التَّزَوُّجُ بِهِنَّ المُزَوَّجَاتُ دونَ العفيفاتِ، وفي سائر المواضع يَحْتمِلُ الوَجْهَيْنِ.

2) ﴿مُحۡصِنِينَ﴾: أي: متزوِّجين وأعفَّاءَ بالنِّكاحِ، وأصلُ الحِصْنِ: الحِفظُ والحِياطةُ والحِرْز.

3) ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: والتَّسافُحُ والسِّفاحُ والمُسافحةُ: الزِّنَى وَالفُجُورُ، وَفي التَّنْزِيلِ: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ وأَصلُ ذَلِك مِنَ الصَّبِّ، تَقُولُ: سافَحْتُه مُسافَحةً وسِفاحًا[2]، وهو الزَّاني، أو المجاهِرُ بالزِّنى، الّذي يَصُبُّ ماءَه حيثُ اتُّفِقَ، من سَفَحْتُ القِربةَ؛ إذا صَبَبْتُها، وسُمِّي الزِّنى سِفاحًا؛ لأنَّه يُسافَحُ فيه، أي: يَصُبُّ الرَّجلُ النُّطفة، وتَصُبُّ المرأةُ النُّطفةَ، وأصلُ (سفح): يدلُّ على إراقةِ شيءٍ.

4) ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾: وهو جمعُ خِدْن، وهو الزَّاني سرًّا، أو مُصاحِبٌ وصَديقٌ، أو

---

(1) أي: في القراءات المتواترة، وقد قرئ في الشّاذّ: (والمحصِنات) بالكسر، ونسبت إلى طلحة بن مصرِّف، ورواية عن يعقوب، وروي عن علقمة الكسر في القرآن كلِّه، كما في الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/390، والبحر المحيط: 3/214.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (سفح).

خليلٌ في السِّرِّ، ويُطلَقُ كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأكثرُ ذلك يُستعملُ فيمَن يصاحبُ بشهوةٍ، يُقال: خِدْنُ المرأةِ وخَدينُها، وأصل (خدن): المصاحَبة، والتَّركيبُ يُعبِّرُ عن المُداخلة والمباطنة، ففي المُخادنة عن السِّرِّيَّة والتَّخفِّي ما ليس في المصادقَة، ويُصَدِّقُ ذلك: أنَّ النُّونَ تُعبِّرُ عن امتدادِ شيءٍ في باطنٍ، و(خدن) تُعبِّرُ عن التَّجوُّف الممتدِّ، فكأنَّ الخِدْنَ يَدْخُلُ في باطن مَنْ يُخادِنُه، فهذا يُعطي شدَّةَ التَّداخلِ، كما يُعطي خَفَاءَ هذه العلاقةِ، أيْ: سِرِّيَّتَها، وعَدَمَ الجهرِ بها[1].

5) ﴿حَبِطَ﴾: أي: بطَلَ، فالحَبَطُ: البُطلانُ والألَمُ، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفخَ بطنُها، فتموتَ، قَالَ الأَزهريُّ: وَلَا أَرى حَبْطَ العَمل وبُطْلانَه مأْخوذًا إِلَّا مِنْ حبَطِ البَطْنِ؛ لأَنَّ صَاحِبَ البَطْنِ يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ عملُ الْمُنَافِقِ يَحْبَطُ، غَيْرَ أَنَّهم سَكَّنُوا الباءَ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبِطَ عَمَلُهُ يَحْبَطُ حبْطًا، وَحَرَّكُوهَا مِنْ حَبِط بَطْنُهُ يَحْبَطُ حَبَطًا، كَذَلِكَ أُثبِتَ لَنَا[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبَرَ تعالى عن بعضِ مظاهرِ إسباغِ نِعمه، وإكمالِ دِينه، وتيسيرِ شَرعه، ومِنْ ذلك أنَّه -سبحانه- أَحَلَّ لأهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى ذبائِحَ المسلمين، فلهم أنْ يطْعِموهم مِنها، وأَحَلَّ للمسلمين التَّمتُّعَ بالطَّيِّباتِ، وأَحَلَّ لهم أَكْلَ ذبائِحِ أهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى، ونِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من المؤمناتِ، والحرائرِ العفيفاتِ من الكتابيَّات؛ إذا أعْطَوهُنَّ مُهورَهنَّ، في حالِ كونِ الأزواجِ أعِفَّاءَ بالنِّكاح، غيرَ مُعلنين بالزِّنى، ولا متَّخذينَ عشيقاتٍ يزنونَ بهنَّ في السِّرِّ، فكما شَرَطَ العِفَّةَ عن الزِّنى في النِّساء، كذلك شَرَطَها في الرِّجال، وأَخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّ مَنْ كفرَ به، وكَفَرَ بما يجبُ الإيمانُ به؛ فقد بَطَلَ عمَلُه، وتوعَّدَه بأنَّه في الآخِرة من الهالِكينَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة بدء الآية بالظَّرف ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

بدأت الآية بالظَّرف للإعلان عن أهمِّيَّة هذا اليوم في حياة الأمَّة الإسلاميَّة، وتكرَّر

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خدن).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (حبط).

سماحة الشَّريعة الإسلاميَّة

ذكره قبل ذلك مرَّتين بالتَّأكيد على أهمِّيَّته، وعلى اختلاف الأحداث الواقعة فيه، وفيه إشارة إلى تذكير المؤمنين بفضل اللّٰه عليهم فيما بيَّن لهم من أمر دينهم، وفيما شرع لهم من أحكام الحلال والحرام؛ ليكون دستورها لإقامة حياة كريمة.

استشكال من خلال دلالة (ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾:

يستَشكَلُ البعض إحلالَ الطَّيِّباتِ في ذلك اليوم، على القول بأنَّ المرادَ به يومُ عرفة، لأنَّ جلَّها ذُكِرَ في بعض السُّور المكِّيَّةِ.

ويُجابُ: بأنَّ المرادَ أنَّها كانت حلالًا بالإجمال، فلمَّا حَرَّمَ اللّٰه يومَ إنزالِ هذه السُّورةِ أنواعَ الخبائثِ الَّتي تَدخلُ في عُموم الميْتةِ، كما تقدَّمَ في الآية السَّابقة، وكانت العربُ تَستَحلُّها، ونفى تحريمَ البَحيرةِ والسَّائبةِ والوَصيلةِ والحامي مِنْ طيِّبات الأنعام، وكانت العربُ تُحَرِّمُها؛ صار حِلُّ الطَّيِّباتِ مُفَصَّلًا تَمَامَ التَّفْصيلِ، وحكمُه مُستَقَرًّا دائمًا، فهذا هو المرادُ بالنَّصِّ، وقيلَ: إنَّه تمهيدٌ لِمَا بَعْدَه[1].

وممَّا يجاب به على هذا الاستشكال أيضًا: أنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي تمَّت فيه أحكام الشَّريعة واستوفت غايتها، وتمَّ إحكام الحدود بين الحلال والحرام، والطَّيِّب والخبيث، فكانت مظروفيَّة هذا اليوم هي الحاجز الفاصل بين الحلال والحرام في كثير من العادات والأعمال التي كان المسلمون متلبِّسين بها، وتعقَّبها الإسلام واحدة واحدة، وبهذا لم يكن لأحدٍ بعد هذا اليوم أن يحلَّ أو يحرِّم ما أحلَّت الشَّريعة أو ما حرَّمت[2].

للعلم به وللتَّنبيه على الشَّيء المُحَلِّ

سِرُّ بناء الفعل لِمَا لَم يُسمَّ فاعلُه:

قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ بُنِي الفعلُ ﴿أُحِلَّ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ

(1) رضا، تفسير المنار: 6/147.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القراني: 3/1039.

فاعلُه؛ لأنَّ الغَرَضَ هو بيانُ الحِلِّ؛ لا كَوْنُه مِن مُحِلٍّ مُعَيَّن، ولأنَّ المُخاطَبِينَ يَعْلَمُونَ أنَّهُ لا مُحِلَّ إلَّا الله، ولا مُشَرِّعَ إلَّا هو سبحانه.

سِرُّ التَّعبير بالماضي:

وعُبِّرَ بالفعل الماضي ﴿أُحِلَّ﴾ دون المضارع (يُحِلُّ)؛ للتَّأكيد على ثبوت حُكْم الإحلال، وأنَّه لا يُنْسَخُ أبدًا، وهذه بُشْرى للمؤمنين.

دَلالة التَّعبير عن الطَّيِّبات بالحِلِّ:

والتَّعبيرُ عن الطَّيِّبات بِالحِلِّ؛ لِزَوالِ الإِثْم، ومُلاءَمَةِ الطَّبْع، وتعريفُهُ بـ (الـ)؛ للإشارة إلى كمالها في الطِّيب، وأُعيد الكَلامُ عَلَى الطَّيِّبات؛ لِيُبْنَى عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

دلالة تعقيب الآية السَّابقة بهذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾:

إعادة الحُكْم للتَّأكيد

عقِّب بهذه الآية؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمنينَ مِنَ الخَبَائِثِ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾.

دلالة عطف قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ على ما قبلها:

عطفت هذه الآية على ما قبلها للدَّلالة على حلِّ ذبائح أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ لأنَّ ما قبلها هو حكم عامٌّ في حل الطَّيِّبات.

ذَبَائِح أهل الكتاب حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وفسَّر ابْنُ عَبَّاسٍ طعام أهل الكتاب بذَبَائِحِهم، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ الله، وَلَا يَذْكُرُونَ عَلَى ذَبَائِحِهِمْ إِلَّا اسْمَ الله، وَإِنِ اعْتَقَدُوا فِيهِ تَعَالَى مَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ قَوْلِهِمْ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ[1].

وفيه إشارة إلى إثبات الرُّخصة في تناول طعامهم؛ لِكَثْرَةِ مُخالَطَةِ المُسْلِمِينَ أَهْلَ الكِتابِ، فَلَوْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَعامَهم؛ لَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/77.

دلالة إعادة حكم حلِّ الطَّيِّبات في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾:

وأُعيدَ الحُكْمُ بِحِلِّ الطَّيِّبات بعد ذِكْره في الآية السَّابقة؛ "لِلتَّأْكِيدِ والتَّوْطِئَةِ لِمَا بَعْدَه، وسَبَبُ ذِكْرِ اليَوْمِ يُعْلَمُ مِمَّا ذُكِرَ أمْسِ، وقالَ النَّيْسابُورِيُّ: فائِدَةُ الإعادَةِ أنْ يُعْلَمَ بَقاءُ هَذا الحُكْمِ عِنْدَ إكْمالِ الدِّينِ واسْتِقْرارِهِ، والأوَّلُ أوْلى[1]"، وأيضًا؛ للامْتنان، ولدَعوة عِبادِ الله إلى شُكْره تعالى، والإكثارِ مِن ذِكْره؛ حيثُ أباحَ لهم ما تَدعوهم الحاجةُ إليه، ويَحْصُلُ لهم الانتفاعُ به مِن الطَّيِّبات[2].

دلالة التَّعبير بلفظ الطَّعام دون غيره:

نكتة التَّعبير بالعامِّ المراد به الخاصُّ: استمالة أهل الكتاب، فلَمَّا كانَتِ الطَّيِّباتُ أعَمَّ مِنَ المَآكِلِ؛ عَبَّرَ بِالطَّعامِ؛ لأنَّه شامِلٌ لِما ذُبِحَ ولِغَيْرِهِ، وإنْ كانَ المَقْصُودُ المَذْبُوحَ لا غَيْرَهُ.

دلالة الوصف بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على أنَّه سبب الحِلِّ لطعامهم، ومعلومٌ أنَّ أهل الكتاب كانوا أبعد من مشركي العرب في أكل الميتة والذَّبح لغير الله، وفي تحليل طعام أهل الكتاب استمالة لهم[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون أهل الكتاب في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبَّر في حلِّ طعام أهل الكتاب بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للإشارة إلى من يدينون بالتَّوراة والإنجيل، ولإخراج من لم يدينوا، ويعترفوا بكتابهم، ولذلك كان الصَّحابة - رضوان الله عليهم - يأكلون من طعام النَّصارى في الشَّام بغير نكير، ولم ينقل عن أحد منهم خلاف إلَّا في بني تغلب؛ لأنَّهم لا يعرفون عن دينهم شيئًا، ولا يدينون به.

دلالة بناء الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله في قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

بُنِي الفعل لما لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّه لَمْ يَتَعَلَّقْ بِذِكْرِ مُؤْتِيهِ غَرَضٌ[4]؛ فبَنى الفِعْلَ لِلْمَجْهُولِ، فَقالَ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/14.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 2/134.

(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 6/177.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 6/24.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور من باب الامتنان على المؤمنين، وإظهار فضل الله عليهم في توسعة تحليل الطَّيِّبات، وأنَّهم المقصودون بهذا الحلِّ.

سِرُّ العدول عن الفعل (أُحِلَّ) إلى المصدر (حِلٌّ):

ولعلَّ السِّرَّ في العُدول عن الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى المصدر ﴿حِلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يرجعُ إلى أنَّه كما كان تبادلُ الأطعمةِ والمَنكوحات مَظنَّةً أنْ يُقابلَ بالإنكارِ؛ أُكِّدَ ذلك لإزالةِ هذا الوهم، وقَطْعِ الطَّريقِ على الغُلاةِ أن يُحَرِّموا باجتهادهم وأهوائِهم، ومن المعلوم أنَّ التَّعبيرَ بالمصدر فيه من التَّوكيدِ والمبالغةِ في المعنى ما ليس في الفعل.

التَّعبير بالمصدر فيه من التَّوكيد والمبالغة في المعنى ما ليس في الفعل

دلالة عطف ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ﴾ على ما قبلها:

دلَّ هذا العطف على إباحةِ إطعام المسلمين أهلَ الكتاب مِن طَعامهم[1]، وفي هذا إشارة إلى سماحة هذا الدين الإسلاميِّ في تعامله مع أهل الكتاب.

دلالة تقديم طعام الذين أوتوا الكتاب على طعام المسلمين:

قُدِّمَ قولُه: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ على قوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ﴾؛ لأنَّ الحِلَّ الأوَّلَ أهمُّ للمخاطبين من الحِلِّ الثَّاني، فقُدِّمَ الأهمُّ بالنِّسبة لهم.

وفيه إشارة إلى مراعاة التَّشريع لظروف المسلمين عند سفرهم لبلاد أهل الكتاب، ومخالطتهم لهم في العمل والتجارة.

سرُّ العدول عن لفظ الحلال إلى الحلّ:

في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ﴾ عدل عن لفظ الحلال إلى الحلِّ للإشارة إلى أنَّه كان حلالًا في الأصل، و قد طَرَأَ عليه التَّحريمُ لعِلَّةٍ، وها هو ذا قد عادَ حلالًا على أصله، ففيه اسْتِمالَةٌ لأهلِ الكتابِ.

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل في علوم التّنزيل، ص: 214.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

حَــذْف الخبر لدَلالة ما قبلَه عليه

وذِكْرُ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ في الجملة الأولى تَوْطِئَةٌ وتَمْهِيدٌ لِقَوْلِه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، أوْ مُبْتَدأٌ حُذِفَ خَبَرُه؛ لِدَلالَةِ ما قَبْلَه عَلَيْه، أيْ: حِلٌّ لَكم، والمُرادُ بـ ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ العَفيفاتُ عَنِ الزِّنى، كَما قالَ تعالى في الآيَةِ الأُخْرى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ [النِّساء: 25]، وذَكَرَهُنَّ هُنا؛ تَوْطِئَةً وتَمْهيدًا لِقَوْلِه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، والمُرادُ بِهِنَّ العفيفاتُ الحَرائِرُ.

والإحْصانُ مُشْتَقٌّ مِنَ المَنعَة، ومِنهُ (الحِصْنُ)، وهو مُتَرَتِّبٌ بِأرْبَعَةِ أشْياءَ: الإسْلام والعِفَّةِ والنِّكاحِ والحُرِّيَّة، فَيَمْتَنِعُ في هَذا المَوْضِعِ أنْ يَكُونَ الإسْلامَ؛ لِأنَّهُ قَدْ نَصَّ أنَّهُنَّ مِن أهْلِ الكِتابِ، ويَمْتَنِعُ أنْ يَكونَ النِّكاحَ؛ لِأنَّ ذاتَ الزَّوْجِ لا تَحِلُّ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا الحُرِّيَّةُ والعِفَّةُ، فاللَّفْظَةُ تَحْتَمِلُهُما[1].

سِرُّ عَطْفِ تبادل الأطعمة ومنكوحات أهل الكتاب على تحليل الطَّيِّبات بالواو:

قبلَ ذِكْرِ الغرضِ مِنْ عطفِ تبادلِ الأطعمةِ ومنكوحاتِ أهلِ الكتابِ على تحليلِ الطَّيِّباتِ بالواو في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، يُشارُ أوَّلًا إلى أنَّ الواوَ بطبيعتها كما يقولُ الزَّمخشريُّ: "تقع بين الجملتَين، لِتَفْصِلَ بين معنيَيهما، فتكونُ لكلِّ واحدةٍ ذاتُ معنًى مُستقلٍّ، وتتميَّزُ منه[2]".

ومِنْ ثَمَّ يُمكنُ القولُ: بأنَّ عطفَ تبادلِ الأطعمةِ ومنكوحاتِ أهلِ الكتابِ على تحليلِ الطَّيِّباتِ بالواو خاصَّةً، له دَلالةٌ ضِمنيَّةٌ كِنائيَّةٌ، وهي أنَّ ذلك الأمرَ، أي: حِلُّ منكوحاتِ أهل الكتابِ وإنْ كان حلالًا؛ إلَّا أنَّه شيءٌ يُغايرُ الطَّيِّباتِ، وهذا يُؤَكِّدُ أنَّ في تخصيصِ

---

(1) ابن عَطِيَّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 517.

(2) د.محمّد أبو موسى، البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّمخشريّ، ص: 360، مكتبة وهبة، القاهرة.

المُحصناتِ بكونهنَّ من المؤمناتِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ [النِّساء: 20]، لا يُرادُ مِنْ ورائِه مفهومُ المخالفةِ، وإنَّما هو مَسوقٌ لبيانِ الأفضليَّةِ.

ولا تعارضَ بَيْنَ هذه الآيةِ وبَيْن قولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ [البقرة: 221]؛ لأنَّ هذه في الكتابيَّات، والأخرى في المشركات، وقد جعل بعضُ النَّاس هذه ناسخةً لتلك، وقيلَ: بالعكس[1].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِذَآ﴾ دون (إن) في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

عبَّر بـ (إذا) دون (إن) في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ للتَّأكيد على وجوب المَهْر؛ لأنَّ (إن) تفيد الشَّكَّ في الوقوع، وهذا غير مقبول في أمر الزَّواج في شريعة الإسلام.

دلالة تسمية المهور أجورًا في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

وسُمِّيَتِ المُهورُ هُنا (أُجُورًا) مَجازًا في مَعْنى: الأعْواضِ عَنِ المَنافِعِ الحاصِلَةِ مِن آثارِ عُقْدَةِ النِّكاحِ.

والأُجُورُ: المُهُورُ، وسُمِّيَتْ هُنا ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (أُجُورًا) مَجازًا في مَعْنى: الأعْواضِ عَنِ المَنافِعِ الحاصِلَةِ مِن آثارِ عُقْدَةِ النِّكاحِ، عَلى وجْهِ الِاسْتِعارَةِ أوِ المَجازِ المُرْسَلِ، والمَهْرُ: شِعارٌ مُتَقادِمٌ في البَشَرِ، لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ النِّكاحِ وبَيْنَ المُخادَنَةِ، ولَوْ كانَتِ المُهُورُ أُجُورًا حَقِيقَةً؛ لَوَجَبَ تَحْدِيدُ مُدَّةِ الِانْتِفاعِ ومِقْدارِه، وذَلِكَ مِمَّا تنزَّه عَنْهُ عُقْدَةُ النِّكاحِ[2].

دلالة تقييد الحلِّ بإيتاء الأجور في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

قُيِّد الحلُّ بإيتاءِ الأُجُورِ في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ للحَثِّ عَلى ما هو الأَوْلى، ولِتأْكِيدِ وُجُوبِها، وأنَّ مَن تَزَوَّجَ امْرَأةً، وعَزَمَ عَلى ألَّا يُعْطِيَها صَداقَها؛ كانَ في صُورَةِ الزَّاني، وتَسْمِيَةُ المَهْرِ بِالأجْرِ يَدُلُّ عَلى أنَّ الصِّداقَ لا يَتَقَدَّرُ، كَما أنَّ أقَلَّ الأجْرِ لا يَتَقَدَّرُ في الإجاراتِ[3].

(1) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنْزيل، ص: 214.
(2) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/124.
(3) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/148.

دَلالة الحالَيْنِ في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾:

المقصود الأعظم من النِّكاح هو الإحصانُ

وقولُه: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ حالٌ من فاعِلِ آتَيْتُمُوهُنَّ، أيْ: حالَ كَوْنِكم أعِفَّاءَ بالنِّكاحِ، وكذا قَوْلُه تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وقيلَ: هو حالٌ من ضَميرِ مُحْصِنينَ، وقيلَ: صِفَةٌ لِمُحْصِنينَ، أيْ: غَيْرَ مُجاهِرينَ بالزِّنى، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، أيْ: ولا مُسِرِّينَ بِه، والخِدْنُ: الصَّديقُ يَقَعُ عَلى الذَّكَرِ والأُنْثى، وهو إمَّا مَجْرُورٌ عَطْفًا عَلى ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾، و﴿وَلَا﴾ صِلَةٌ؛ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ المُسْتَفادِ مِن ﴿غَيْرَ﴾، أي: حالَ كَوْنِكم أعِفَّاءَ بالنِّكاحِ، غَيْرَ مُجاهِرينَ بالزِّنى.

دلالة الاتِّفاق في الأوصاف المطلوبة في الرِّجال والنِّساء من خلال قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، وقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾:

عدالة التَّشريع بين الرَّجل والمرأة في الزَّواج

تظهر هذه العدالة في اشتراط الإحصان والعفَّة في كلٍّ من الرَّجل والمرأة، ويؤكِّد هذا ما قاله ابْنُ كَثِيرٍ: "كَما شَرَطَ الإحْصانَ في النِّساءِ - وهي العِفَّةُ عَنِ الزِّنى - في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ [النّساء: 25]، كَذَلِكَ شَرَطَها في الرِّجالِ في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، وهو أنْ يَكُونَ الرَّجُلُ - أيْضًا- مُحْصَنًا عَفِيفًا، ولِهَذا قالَ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وهُمُ الزُّناةُ الَّذينَ لا يَرْتَدِعُونَ عَنْ مَعْصِيَةٍ، ولا يَرُدُّونَ أنْفُسَهم عَمَّنْ جاءَهُمْ، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، أيْ: ذَوِي العَشِيقاتِ الَّذينَ لا يَفْعَلُونَ إلَّا مَعَهُنَّ، وهَذا وإنْ كانَ يُشْبِه النِّكاحَ مِن جِهَةِ عَدَمِ التَّعَدُّدِ؛ إلَّا أنَّهُ يُخالِفُهُ مِن جِهَةِ التَّسَتُّرِ، وجَهْلِ النَّسَبِ، وخَلْعِ بُرْقُعِ المُرُوءَةِ، ولِذَلِكَ عَطَفَه عَلى قَوْلِه: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾؛ سَدًّا لِمَداخِلِ الزِّنى كُلِّها[1]"ولذا كان المقصود الأعظم من النِّكاح هو الإحصان.

(1) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 5/84.

دلالة الإتيان بقوله: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾:

لَمَّا كان الإحصان له معانٍ متعدِّدة؛ فيطلق على العفَّة وعلى الزَّواج، وعلى الإسلام، والمراد هنا التَّأكيد على أمر العفَّة؛ أكَّد ذلك بقوله: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾.

سرُّ العدول عن أن يقول: (ومن لم يؤمن) إلى قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ على: (ومن لم يؤمن)؛ لأنَّ توجيهَ الكفرِ لنَفْسِ الإيمانِ يَجعلُ الإيمانَ شيئًا مُشَخَّصًا، كأنَّه ذاتٌ أو عَلَمٌ من الأعلام، ومن المعلوم أنّ العَلَميَّةَ والتَّشخيصَ يَنفيان التَّكرارَ، فمعنى ذلك: أنَّ الإيمانَ شيءٌ واحدٌ لا يتكرَّرُ، محصورٌ في المعتقدات السَّليمةِ الصَّحيحةِ، والأحكام الحَقَّة، وغيرُه باطلٌ، وكأنَّ إطلاقَ لفظِ الإيمانِ ونسبته لغير الإسلام غيرُ مُتَصَوَّرٍ ولا مقبولٍ؛ لأنَّه عَلَمٌ مُتَشَخِّصٌ مُنْحَصِرٌ، ومُحَدَّدُ النِّسبةِ، وإيجادُ نسبةٍ أو علاقةٍ بينَ الإيمانِ وبينَ دينٍ غيرِ الإسلام هو مَحْضُ ادِّعاءٍ باطلٍ، ووهمٌ وخيالٌ، فإطلاقُ لفظِ الإيمانِ باشتقاقاته وتراكيبه وصِيَغِه هو لفظٌ خالصٌ لا يَتَّجهُ إلَّا لهذا الدِّينِ الحقِّ، وإسقاطُه في غير حَيِّزه المحصورِ المُحَدَّدِ هو تَجَوُّزٌ، لا يُطابِقُ الحقيقةَ، ولا يَمُتُّ إليها بِصِلَةٍ.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿حَبِطَ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾:

تشبيه ضَياع ثواب الأعمال الصَّالحة

عبَّر بالفعل ﴿حَبِطَ﴾ ومعنى الحبوط: فَسادُ شَيْءٍ كانَ صالِحًا، ومِنهُ: سُمِّيَ الحَبَطُ -بِفَتْحَتَيْنِ - مَرَضٌ يُصِيبُ الإبِلَ مِن جَرَّاءِ أكْلِ الخُضَرِ في أوَّلِ الرَّبِيعِ، فَتَنْتَفِخُ أمْعاؤُها، ورُبَّما ماتَتْ، وفِعْلُ: (حَبِطَ) يُؤْذِنُ بِأنَّ الحابِطَ كانَ نافِعًا صالِحًا، فاسْتَحالَ إلى ضُرٍّ وفَسادٍ، والمُرادُ مِنَ الفَسادِ هُنا: الضَّياعُ والبُطْلانُ، وهو أشَدُّ الفَسادِ، فَدَلَّ فِعْلُ (حَبِطَ) عَلى أنَّ الأعْمالَ كانت صالِحَةً، وحَذْفُ الوَصْفِ لِدَلالَةِ الفِعْلِ عَلَيْهِ، وهَذا تَشْبِيهٌ لِضَياعِ الأعْمالِ الصَّالِحَةِ بِفَسادِ الذَّواتِ النَّافِعَةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: عَدَمُ انْتِفاعِ مُكْتَسِبِها منها، والمُرادُ: ضَياعُ ثَوابِها، وما يَتَرَقَّبُهُ العامِلُ مِنَ الجَزاءِ عَلَيْها والفَوْزِ بها.

والمُرادُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الارْتِدادِ عَنِ الإيمانِ، والتَّرْغِيبُ في

الدُّخولِ فيهِ كَذلِكَ؛ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ أنَّهم لا تَنْفَعُهم قُرُباتُهم وأعْمالُهم، ويَعْلَمَ المُشْرِكُونَ ذَلِكَ[1].

دَلالة فاصلة الآية الكريمة:

وخُتِمَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ للتَّنفيرِ من نِكاحِ الكِتابيَّة بَعْدَ إحْلالِه؛ إشارَةً إلى أنَّ الوَرَعَ الابتعادُ عنه؛ امْتثالًا لِلْآياتِ النَّاهِيَةِ عَنْ مُوادَّةِ المُحادِّ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ مَيْلٌ، فَيَدْعُوَ إلى المُتابَعَةِ، أَوْ يَحْصُلَ وَلَدٌ، فَتَسْتَمِيلَهُ لِدِينِها[2].

وفيها إشارة للتَّنْبِيهِ عَلى أنَّ إباحَةَ تَزَوُّجِ نِساءِ أَهْلِ الكِتابِ لا يَقْتَضِي تَزْكِيَةً لِحالِهِن، ولَكِنَّ ذَلِكَ تَيْسِيرٌ عَلى المُسْلِمِينَ[3].

وفيها تعظيمٌ لِشَأْنِ ما أحَلَّهُ اللّه وما حَرَّمَهُ، وتَغْلِيظٌ عَلى مَن خالَفَ ذَلِكَ.

---

(1) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/124.

(2) البَقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/28.

(3) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/125.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين العهود وماحرَّم على العبيد، وبين الصَّلاة والطَّهارة وضوءًا وتيمُّمًا

لَمَّا افتتَح اللّه تعالى السُّورةَ بالأمْرِ بإيفاءِ العهودِ، وذكَر تحليلًا وتحريمًا في المطعَمِ والمنكَحِ، واستقْصَى ذلك، وكان النَّوعانِ معامَلاتٍ دُنيويَّةً بين النَّاس بعضِهم من بعضٍ، انتقلَ منها إلى المُعامَلاتِ الأُخرويَّةِ الَّتي هي بين العبدِ وربِّه ﷻ، ولَمَّا كان أفضلَ الطَّاعاتِ بعد الإيمانِ الصَّلاةُ، والصَّلاةُ لا تُمكنُ إلَّا بالطَّهارة؛ بدأَ بالطَّهارةِ، علمًا بأنَّ الصَّلاةَ ومُقدِّماتِها مِنَ الطَّهارَةِ والوُضُوءِ والتَّيمُّم، مِن جُملَةِ الوفَاءِ بالعُهود مع اللّه سُبحانَه، لقَولِه تَعَالى بَعد آية الوضُوءِ مُباشَرَة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، مِمَّا يَجعَلُها دَاخِلةً تحت مَا أمَرَ اللّه به في افتِتَاح السُّورَة من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1].

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَرَافِقِ﴾: جمْع مِرْفَق، وهو مَوْصِلُ الذِّراعِ في العَضُد، وسُمِّي مِرفقًا؛ لأنَّه يُستراحُ في الاتِّكاءِ عليه، يُقال: ارتفق الرَّجُل؛ إذا اتَّكأ

على مِرفقِه في جُلوسِه، والمِرْفَق من الإِنْسَان والدَّابَّة: مَوْصِل الذِّراع في العَضُد، والمِرْفَق: الأَمر الرَّافق بك، وَكَذَلِك فُسِّر فِي التَّنْزِيل، وَقَالَ البصريُّون: بل المِرْفَق فِي الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا، والكوفيُّون يَقُولُونَ: مَرْفِق الإِنْسَان[1]، عن أبي الهيثم أنَّه قال: المرفق: ما جاوز إبرة الذِّراع الَّتي من عندها يذرع الذِّراع، قال: والقبيح: رأس العضد الَّذي يلي المرفق، قال: وزُجُّ المرفق ما بين القبيح وبين إبرة الذِّراع، وهو المكان الَّذي يرتفق عليه المتَّكئ؛ إذا ألقم راحته رأسه، وثنَّى ذراعه، واتَّكأ عليه، وهو الحدُّ الَّذي ينتهي إليه في غسل اليد[2].

2) ﴿جُنُبًا﴾ أي: إنْ أصابتْكم الجَنابةُ؛ سُمِّيت الجنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّب الصَّلاةِ في حُكم الشَّرعِ، وأصل (الجُنُب): البُعد، "وَرجل جُنُبٌ، وَامْرَأَة جُنُبٌ، من قوم جُنُبٍ، هَذَا أَعلَى اللُّغَات الْمُذكَّر والمؤنَّث وَالْجمع وَالْوَاحد فِيهِ سَوَاء؛ إِذا أَصَابَته جَنَابَة، وَقد أجنب الرَّجل؛ إِذا أَصَابَته الْجَنَابَة"[3]، وفي الحديث، قَالَت عَائِشَة: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصبح جُنبًا مِن قرافٍ غير احْتِلَام"[4]، أَي: مِن جماع ومواقعة[5].

3) ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: هو كنايةٌ عن قَضاءِ الحاجةِ، والغائطُ: المطمئِنُّ منَ الأرضِ، وجُعِلَ كنايةً عن قضاءِ الحاجةِ؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجةِ؛ أتَوا غائطًا منَ الأرضِ، ففعلوا ذلِك فيه، فقِيل لكلِّ مَن قضَى حاجتَه: مُتغوِّط، وأُطْلِقَ الغائطُ على العَذِرَة نفْسِها، وأصْل (غوط): يدلُّ على اطمئنانٍ وغور[6]، كَانَ الْكسائيُّ يَقُول: "إِنَّمَا سمِّي الْغَائِط: غائطًا؛ لِأَنَّ أحدهم كَانَ إِذا أَرَادَ قَضَاء الْحَاجة؛ قَالَ: حَتَّى آتِي الْغَائِط، فأقضي حَاجَتي، وَإِنَّمَا أصل الْغَائِط المطمئنُّ من الأَرْض، قَالَ: فَكثر ذَلِك فِي كَلَامهم، حَتَّى سمُّوا غَائِط الْإِنْسَان بذلك، وَكَذَلِكَ العَذِرَة، إِنَّمَا هِيَ فنَاء الدَّار، فسمِّيت بِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُلقي بأفنية الدُّور"[7].

4) ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: اقصدوا الصَّعيد الطَّيِّب للتَّيَمُّم بدلًا عنِ الوضوء أو الغُسل، وتَعمَّدوا، وأصلُ التَّيمُّم: قصْدُ الشَّيء وتعمُّده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فالتَّيمُّم

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (رفق).
(2) الأزهري، الزاهر في غريب ألفاظ الشَّافعيّ، ص: 24.
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (جنب).
(4) الحربي، غريب الحديث: 4/323، والزمخشري، الفائق: 3/185.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 1/465.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوط).
(7) ابن سلام، غريب الحديث: (حرج).

فِي التَّفْسِيرِ وَالْكَلَامِ: التَّعمُّد للشَّيْءِ، وَيُقَال مِنْهُ: أمَّمت الشَّيْء أؤُمُّه أمًّا، وتأمَّمته وتيمَّمته، وَمَعْنَاهُ كُلُّه: تعمَّدته، وقصدت لَهُ، قَالَ الْأَعْشَى:

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ***مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَهٍ ذِي شَزَنْ[1].

وقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أَي: اقْصدُوا لِصَعِيدٍ طَيِّبٍ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ حَتَّى صَارَ (التَّيَمُّمُ) مَسْحَ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ بِالتُّرَابِ، (وَيمَّمَ) الْمَرِيضُ، (فَتَيَمَّمَ) لِلصَّلَاةِ[2].

5) ﴿صَعِيدًا﴾: أيْ: ترابًا، المادَّة تدور حَوْل الارتفاع والعُلُوِّ والارتقاء، فيقال: صَعِد يصْعَد صُعودًا: عَلا، والصُّعُد: العُلُوُّ، والصُّعود: الارتقاء إلى أعلى، والصَّعيدُ: الغُبارُ الَّذي يَصعَد؛ منَ الصُّعود، ويُطلق - أيضًا- على وجْه الأرض، فسُمِّي التُّرَابُ صَعيدًا؛ للإشارة إلى ما يَجبُ في التُّراب الصّالِح للتَّيمُّم من ضَرورَة قابليّته للإثَارَة والصُّعود على هَيئَة الغُبَار، ولَو كان مُلتَصِقًا بالأرْض؛ فإنّه لا يَصلُحُ للتَّيمُّم، قال ذو الرُّمَّة:

قَدِ اسْتَحَلُّوا قِسْمَةَ السُّجُودِ***وَالْمَسْحَ بِالأَيْدِي مِنَ الصَّعِيدِ[3].

6) ﴿حَرَجٍ﴾: أي: ضِيق وإثم، وأصل الحرَج: تجمُّع الشَّيء وضيقه، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا حَرَجَ"[4]، يَقُولُ: لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ؛ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا[5]، ويقال: حرجًا: شاكًّا، قال كعب بن مالك الأنصاريُّ:

فَتَكُونَ عِنْدَ الْمُجْرِمِينَ بِزَعْمِهِمْ***حَرَجًا وَيَفْقَهُهَا ذَوُو الْأَلْبَابِ[6].

وَقَالَ اللَّيْث: "أَحْرَجْتُ فلَانًا: صَيَّرْتُه إِلَى الحرَج، وَهُوَ الضِّيقُ، وَقَالَ غَيْرُه: أَحْرَجْتُ فلَانًا، أَي: أَلْجَأْتُه إِلَى مَضِيق، وَكَذَلِكَ أَجْحَرْتُه، وأَجْرَذْتُه بِمَعْنى وَاحِد، وَقَوْلهمْ: رجل مُتَحَرِّج، كَقَوْلِك: رجل مُتأثِّم ومُتَحوِّب ومُتَحَنِّث: يُلْقِي الحَرَجَ والإِثْمَ والحُوبَ والحِنْثَ عَن نَفسه"[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: 1/156.
(2) الرَّازيّ، لسان العرب: 1/156.
(3) ديوان ذي الرِّمَّة: 1/339 - 340، وكذلك: الخليل، العين: 1/290.
(4) هذه العبارة جزء من حديث: البخاريّ، الحديث رقم: (3461).
(5) الحربي، غريب الحديث: 1/339 - 340، وكذلك: الخليل، العين: 1/290.
(6) ديوان كعب بن زهير، ص: 236، وكذلك: الأنباريّ، الزّاهر: 1/236.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرج).

7) ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾: الإسالةُ، مصدر غَسَل، والغُسل بالضَّمِّ: اسمٌ للطَّهارة منَ الخباثةِ والحيض والنِّفاس، ويطلق الغَسْلُ على تطهير الشَّيء وتَنْقِيَته، غسلت الشَّيء غُسلًا بالفتح، والاسم الغُسْلُ بالضَّمِّ، يقال: غُسْلٌ وغسل... والغَسولُ: الماء الَّذي يُغْتَسَلُ به، وكذلك المُغْتَسَلُ، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: 42]، والمُغْتَسَلُ أيضًا: الَّذي يُغْتَسَلُ فيه[1].

8) ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾: إمْرارُ اليَدِ عَلَى الشَّيءِ السَّائِلِ، وَإمرار الشَّيء بَسْطًا، وَمَسْحُهُ بيدي مَسْحًا، ويعني هذا: أنَّ الغَسل لا بُدَّ فيه من إسَالة الماء على العُضو لتَطهيره و تَنقَيته، و أنَّ المسح يُكتَفى فيه بإمرار اليد على العُضو، وَمِن الحديث: «تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ، فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ»[2]، أَرَادَ بِهِ التَّيمُّم، وَقِيلَ: أَرَادَ مُبَاشَرَة تُرَابها بالجِباه فِي السَّجُود مِنْ غَيْرِ حائلٍ، وَيَكُونُ هَذَا أَمْرَ تَأْدِيبٍ واسْتحْباب، لَا وُجُوب[3].

9) ﴿ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾: مُثَنَّى الكَعب، وهو العَظم النَّاتئ عند مُلتَقى السَّاق والقَدَم، وفي كُلِّ قَدَم كَعبان عند يُمنتها و يُسرتها[4]، قال أَبو عبيد: الكَعْبانِ: العَظْمانِ النَّاشِزَان فَوق ظهر القَدَم، قَالَ الْفَارِسِيُّ: وَهُوَ مِمَّا اعْتَقَب عَلَيْهِ المثالان، قَالُوا: كُعُوب وكِعَاب، وَقَالُوا في القَلِيل: أَكْعُبٌ، ثَابت، وَفِي كلِّ رجل كَعْبانِ، وهما عَظْما طَرفِ السَّاق وملتقى الْقَدَمَيْنِ[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

موجبات الوضوء والغسل والتَّيمُّم تخفيفًا حالة السَّفر والمرض وانعدام الماء

ينادي الله الَّذين آمنوا: أن إذا أردْتُم القيامَ لأداءِ الصَّلاةِ، وكنتم مُحْدِثِين حدثًا أصْغَرَ؛ فاغسلُوا مواضع الوضوء، وإن كنتم مُحْدِثِينَ حدثًا أكبرَ بِجنابةٍ؛ فَتَطَهَّروا بالاغتسال منه قبْل الصَّلاة، وإن كنتم مَرضى، تخافُون من زيادة المرض أو تأَخُّرِ شفائه، أو كنتم مُسافرين، أو كنتم مُحْدِثِينَ حدثًا أصغرَ بقضاء الحاجة مثلًا، أو مُحْدِثِينَ حدثًا أكبرَ بمُجامَعةِ النِّساء، ولم تجدوا ماءً لتتطهَّرُوا به؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (غسل).
(2) الحربي، غريب الحديث: 1/220، والزمخشري، الفائق: 3/336/ وابن الأثير، النِّهاية: 4/327.
(3) ابن الأثير، النِّهاية: 4/327.
(4) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (كعب).
(5) ابن سيده، المخصَّص: (القدم).

فامسحوا وجوهَكم، وامسحُوا أيديَكم من الصَّعيد، فاللّه لا يريد أن يُضَيِّق عليكم في أحكامِه عامَّة، وفي أحكام الصَّلاةِ والطَّهارةِ خاصَّةً، بأن يُلْزِمَكُم استعمالَ الماء المُؤَدِّي إلى ضررِكم، بل رَخَّص لكُم التَّيَمُّمَ توسعةً عليكم، ورحمةً بكم؛ إذ جعلَه بديلًا للماء في الطَّهارة، عند تعذُّره، لمرضٍ أو لفقدِ الماء؛ إتمامًا لِنِعْمَته عليكم، لعلَّكم تشكرون ربَّكُم بطاعته، في اتِّباع أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

المجازُ المرسَلُ وأثرُه في إبرازِ المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

مَنْ أرادَ الصَّلاةَ؛ بادرَ إليها طاعة لله، بكلِّ وسائل الطَّهارة الأصليَّة والبديلة

في الآية الكريمة مجاز في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وهو من المجاز المرسَل، وعلاقتُه المسبَّبيَّةُ، والمعنى: (إذا أردتمُ القيامَ إلى الصَّلاة)، فَعُبِّر عن إرادةِ القِيام بالقيام؛ لأنَّ القيامَ متسبَّبٌ عنِ الإرادة ونتيجةٌ عنها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النَّحْل: 98]، أي: إذا أردتَ القراءةَ، فلمَّا كان الفعلُ مُتَسَبَّبًا عنِ القدرةِ والإرادةِ؛ أُقيم المسبَّبُ مقامَ السَّببِ، وفي التَّعبير بالمجازِ إيجازٌ، وللتَّنبيهِ على أنَّ مَن أراد الصَّلاةَ، يجب أن يبادِرَ إليها، بحيث لا ينفكُّ الفعلُ عن الإرادةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: إذا قَصَدْتمُ الصَّلاةَ؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى الشَّيءِ والقيامَ إليه قَصْدٌ له[1]، وفي هذا المجاز: "إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي أن تكونَ هذه الإرادةُ إرادةً فاعلةً، حتَّى كأنَّها لا تلبثُ أن تُترجَمَ إلى حدثٍ وفعل، وفي ذلك طَرْدٌ للأماني المُتقاعسةِ"[2]، والمقصود بالإرادة: النِّيَّةُ، وهي واجبةٌ في الطَّهارة، وهذا مذهبُ مالكٍ والشَّافعيِّ، وأكثرِ العلماء، وظَاهِرُ الآيَةِ يَقْتَضِي وُجُوبَ الوُضُوءِ عِنْدَ كُلِّ مَرَّةٍ يُرِيدُ القِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، لَكِنْ أَعْلَمْنَا بِبَيَانِ السُّنَّةِ وَفِعْلِ

(1) قال شيخ زاده: " ويحتمل أن يكون القيام إلى الصَّلاة مجازًا عن قصد الصَّلاة وإرادتها، على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللاَّزم، لأنَّ قصد الصَّلاة من لوازم القيام، متوجِّهًا إلى الصَّلاة، فقيل: إذا قمتم متوجِّهين إلى الصَّلاة، وأريد: (إذا قصدتم الصَّلاة)"، ينظر: شيخ زاده: حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/482.

(2) أبو موسى، التّصوير البيانّي، ص: 353.

النَّبيِّ ﷺ أَنَّ المُرَادَ مِنَ الآيَةِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وَأَنْتُمْ عَلَى غَيْرِ طُهْرٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللّٰه صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ؛ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»[1].

دلالة حرف الجرِّ (إلى) في تحديد معنى القيام في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

التَّهيُّؤ لأداء الصَّلاة على الوجه المراد شرعًا، من تمام العبوديَّة والتَّبتُّل

إنَّ حَرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يشيرُ إلى تَضمين القِيام مَعنَى السَّعي والنُّهوض، أي: إذا نَهَضتُمْ إلى الصَّلاة، وسَعيتُم إليها؛ فتَطَهَّرُوا، فلَيس المُرادُ بالقِيام هُنا: القِيامَ في الصَّلاة، ولكنِ القيامَ إليها والسَّعيَ لأدائِها، وهو تَعبيرٌ يَدُلُّ على ما يَنبَغي للصَّلاة من نَشاطٍ و نُهوضٍ وسَعيٍ و جِدٍّ، "من باب إطلاق المسبِّب وإرادة السَّبب، للإيجاز وللتَّنبيه على أنَّ الشَّأن في المؤمنين: أن يكونوا دائمًا على ذكر من إرادتها، وعدم الإهمال في أدائها، وإنَّما قلنا: المراد بالقيام إلى الصَّلاة: إرادتها؛ لأنَّه لو بقي الكلام على حقيقته؛ للزم تأخير الوضوء عن الصَّلاة، وهذا باطل بالإجماع، وليس المراد بالقيام: انتصاب القامة أو ما يشبه ذلك، بل المراد به: الاشتغال بأفعال الصَّلاة وأقوالها وكلِّ ما يتعلَّق بذاتها"[2].

سِرُّ التَّعبير بـ (إذا) الدَّالَّة على تيقُّن الوقوع في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

الصَّلاة تقوم على نيَّة قصديَّة، وممارسة عمليَّة تعبُّديَّة

التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾، إشارة إلى أنَّ الأُمَّةَ ستكون طاعتها في اتِّباع المأمور، وامتثالها في أداء المفروض، متجسِّدًا في الانصياع للأمرِ الواردِ في الآيةِ الكريمةِ؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) تيقُّنُ وقوعِ الفعل الماضي بعدها، كقولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النَّصر:

(1) البخاريّ، ، الحديث رقم: (135).

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 4/58.

ا، وتدلُّ أيضًا على تَيَقُّن الإرادةِ، أي: النِّيَّةِ وتأكُّدِها، بل ووجوبِها عند القيام بأيِّ عمل، لما ورد في الحديث الصَّحيح: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(1).

الفرق بين التَّعبيرين في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ و﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾:

استعمال الأداة في موضعها دقَّة تعبير، وروعة بيان، وتآلف نغم

الأداة (إذا) تدخل على ما هو حاصل ومنتظر، والأداة (إنْ) تدخل على ما هو متوقَّع ومحتمل؛ لذا فهم بأنَّ الصَّلاة حاصلة دائمًا دون تخلُّف، أمَّا الجنابة المعبَّر عنها بالأداة (إنْ)؛ فهي شيء طارئ، وليس دائمًا، "وهذا من دقَّة التَّعبير، واختيار الكلام ليناسب المعنى، وقد بلغ القرآن المنتهى في هذا المجال، فلو حاول الإنسان أن يستبدل كلمة من القرآن الكريم بمرادف لها أو بديل عنها، حتَّى ولو كان لها مئة مرادف؛ فإنَّه لن يجد أنسب منها في موضعها من الآية، سواء من ناحيةِ المعنى، أم التَّناسق، أم النَّغم المتآلف في آيات القرآن الكريم"(2).

دلالةُ جوابِ الشَّرط بعد الأداة وفعل الشَّرط في قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾:

الآية مقيَّدة بقرينة دلالة الحال على معنى (إذا قمتم إلى الصَّلاة وأنتم محدثون).

يدلُّ جوابُ الشَّرطِ ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ بعد (إذا) الظَّرفيَّة الدَّالَّة على وقوع الفعل في المستقبل، وجملة ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾: لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم، على أنَّ الوضوءَ شرطُ الصَّلاة، فلا تصحُّ إلَّا به، وظاهِرُ الآيَةِ يُوجِبُ الوُضُوءَ عَلى كُلِّ قائِمٍ إلى الصَّلاةِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدِثًا، والإجْماعُ عَلى خِلافِهِ(3)، وتعليقًا على قول الآلوسيِّ بأنَّ ظاهر الآية يفيد وجوب الوضوء على كلِّ قائم إلى الصَّلاة، وإن لم يكن محدثًا؛ نظرًا إلى عموم الَّذِينَ آمَنُوا من غير اختصاص

(1) الإمام أحمد، المسند: 1/303.
(2) صافي، الجدول: 5/288.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/94.

بالمحدثين، لكنَّ الإجماع على خلاف ذلك؛ لما أخرجه مسلم بأنَّ النَّبيَّ ﷺ صلَّى الصَّلواتِ الخمسَ يوم الفتح بوضوء واحد، وسأله عمر، فقال: «عمدًا فعلتُه، يا عمر»، قال الطنطاويُّ: "يعني: بيانًا للجواز، فاستحسن الجمهور كون الآية مقيَّدة، والمعنى: (إذا قمتم إلى الصَّلاة، وأنتم محدثون)، بقرينة دلالة الحال"[1].

الأمرُ في قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ للوجوبِ أو النَّدْبِ، على حَسْب أحوالِ المُتوضِّئ:

الوضوء الواجب والمـــنـــدوب، كلاهما طاعة ومثوبة

والأمر في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ للوجوب بالنِّسبة للمُحْدِثين حَدَثًا أصغرَ، فإذا أراد أحدُهم الصَّلاةَ؛ وجبَ عليه الوضوءُ للصَّلاة، أمَّا بالنِّسبة للمُتَطَهِّر؛ فالأمرُ له بالنَّدْب للوضوء عند كُلِّ صلاةٍ، وهذا ما كان يفعله عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وكان يتلو هذه الآيةَ الكريمةَ، وهذا ما كان يفعله عبدُ اللّه بنُ عُمر - رضي الله عنهما - وهذا مذهب الجمهور.

اختلاف العلماء في دخول المرافق في الغسل في قوله: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[2]:

الخلاف الفقهيُّ مردُّه إلى التَّأويل الـلُّـغـويِّ، لارتباط الأحكام الشَّرعيَّة باللُّغة

قال بعض العلماء: إنَّ المرفق داخل في مسمَّى اليد؛ لأنَّ اليد من رأس الأنامل إلى الإبط، وقال زفر: إنَّ (إلى) لانتهاء الغاية، والمنتهى غير النِّهاية، فلا يتعيَّن غسل النِّهاية، ومذهب الزَّجاج: أنَّ المرفق: اسم لما جاوز طرف العظم، فإنَّه هو المكان الَّذي يرتفق به، أي: يتَّكأ عليه، ولا نزاع في أنَّ ما وراء أطراف العظم لا يجب غسله، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [البقرة: 187]، فإنَّ النَّهار منفصل عن اللَّيل في الحسِّ، ولا شكَّ في أنَّ امتياز المرفق

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 4/58.

(2) قولُه تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، قيل: بمعنى: (مع)، كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]، وهذا قول ضعيف، والصَّحيح: أنَّها لانتهاء الغاية، وإنَّما وجب غسل المرافق بالسُّنَّة، لأنَّه ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب، إذ لا بدَّ من غسل المرافق، ليتمَّ غسل الأيدي، والخلاف بين الأئمَّة قائم على تأويل كلٍّ منهم لمعنى: (إلى) كما اختلفوا في تأويل: (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، فالشَّافعيُّ قال: هي للتَّبعيض، وبه أخذ أبو حنيفة، وعدَّ مالك الباء للتَّوكيد، بمعنى: بكلِّ رؤوسكم، وهو قول للإمام أحمد، ينظر: صافي، الجدول: 5/287، 5/288.

عن السَّاعد ليس منفصلًا معيَّنًا، وإذا كان كذلك، فليس إيجاب الغسل إلى حيِّز، أولى من إيجابه إلى حيِّز آخر، فوجب القول بغسل كلِّ المرفق، وقال بعضهم: النِّهاية غير المتناهي، وغسل المرافق لم يفهم من الآية الكريمة، وإنَّما فهم من فعله ﷺ، وعليه؛ فالمرفق خارج عن الغسل[1].

دلالات التَّعبيرِ بحرف الانتهاء ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾:

اعتبار دخول (إلى) في الحُكْمِ وخُروجِها منه أمْرٌ يَدُورُ مَعَ الدِّليلِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، ذهب الجُمْهُورُ إلى دُخُولِ المِرْفَقَيْنِ في المَغْسُولِ، ولِذَلِكَ قِيلَ: ﴿إِلَى﴾ بِمَعْنَى (مَعَ)[2]، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]، وقِيلَ: إنَّما تُفِيدُ مَعْنَى الغايَةِ مُطْلَقًا، وأمَّا دُخُولُها في الحُكْمِ، أوْ خُرُوجُها مِنهُ؛ فَلا دَلالَةَ لَها عَلَيْهِ، وإنَّما هو أمْرٌ يَدُورُ عَلى الدَّلِيلِ الخارِجِيِّ، كَما في: (حَفِظْتُ القرآن مِن أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ)، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ [البقرة: 280]، فَإنَّ الدُّخُولَ في الأوَّلِ والخُرُوجَ في الثّاني مُتَيَقَّنٌ، بِناءً عَلى تَحَقُّقِ الدَّلِيلِ، وحَيْثُ لَمْ يَتَحَقَّقْ ذَلِكَ في الآيَةِ، وكانَتِ الأيْدِي مُتَناوِلَةً لِلْمَرافِقِ؛ حُكِمَ بِدُخُولِها فِيها احْتِياطًا، وقِيلَ: (إلى) مِن حَيْثُ إفادَتُها لِلْغايَةِ تَقْتَضِي خُرُوجَها، لَكِنْ لَمّا لَمْ تَتَمَيَّزِ الغايَةُ هَهُنا عَنْ ذِي الغايَةِ؛ وجَبَ إدْخالُها احْتِياطًا[3]، ومعنى آخر للتَّعبير بحرف الانتهاء ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾:

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/423.

(2) نلاحظ: "أنَّ الكعبين داخلان مع الرِّجلين في وجوب الغسل، قالوا: لأن: (إِلَى) هنا بمعنى: (مع)، ولأنَّ بعض علماء اللُّغة وعلى رأسهم سيبويه، قد قرَّروا أنَّ ما بعد إلى إذا كان من نوع ما قبلها، دخل في الحدّ، وإذا لم يكن من نوعه لم يدخل، وهنا ما بعد إلى من نوع ما قبلها، فوجب دخوله في الحدّ، ولأنَّ جعل ما قبل المرفقين حدًّا، لا يصلح أن يكون علامة واضحة على ذلك، ومن شأن العلامات أن تكون واضحة، وهذا لا يتأتَّى إلَّا بغسل المرفقين والكعبين، وفضلًا عن كلِّ ذلك، فالمعروف من وضوء النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يغسل المرفقين والكعبين، قال القُرطبيّ: وهذا هو الصَّحيح، لما رواه الدَّارقطنيُّ عن جابر: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا توضَّأ، أدار الماء على مرفقيه». ينظر: طنطاويّ، التفسير الوسيط: 4/60.

(3) النَّسَفي، مدارك التنزيل: 1/272، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/10.

هو الإشارةُ إلى اتِّصال العُضْوين: اليدِ والمِرْفَق، وأنَّهما بمنزلة جُزءٍ واحدٍ في وجوبِ غَسلِهما، وشُمولِ الغُسْل لَهُما[1].

تعدُّدُ آراء الفقهاءِ وأهلِ اللُّغة في دلالةِ الباءِ في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾:

=اختـــلافُ الفقهاءِ في قَدْرِ المَـمْـسوحِ في الرَّأسِ، وعلاقته بمدلولِ الباء

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ مِنَ المواضعِ الَّتي التبستْ فيها دلالتُها على اللُّغويِّين والفقهاءِ، واختلفُوا في معناها بناءً على الحُكْم الشَّرعيِّ في الآية الكريمة بالمسحِ على الرُّؤوس، فاللُّغويُّون يَرون أنَّ الباءَ هنا لم تنفكَّ عن دلالتِها على أصلِ معناها، وهو الإلصاقُ، واختاره ابن هشام والزَّمخشريُّ، ووافقَهم مِنَ الفقهاء مَن يُفْتي بوجوبِ المسحِ على جميع الرَّأسِ، وفي قول بعضهم: إنَّها زائدة، وهو رأي ابن جِنِّي؛ لأنَّ الفعل ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾ يتعدَّى إلى مجروره بنفسه[2]، وبه قال أبو البقاء العكبريُّ، وأنكر ما سوى ذلك، وقال شهاب الدِّين القرافيُّ: "إذا قلت: مسحت بالمنديل، وكتبت بالقلم، وطفت بالبيت؛ فمن المعلوم أنَّك ما مسحت بكلِّ المنديل، ولا كتبت بكلِّ القلم، ولا طفت بكلِّ البيت، علوًّا وسفلًا، وظهرًا وبطنًا، وإنَّما مسحت ببعض ذا، وكتبت ببعض ذا، وطفت بظاهر ذا"[3]، "وقد أخذ مالك وأحمد بالاحتياط، فأوجبا الاستيعاب، وأخذ الشَّافعيُّ باليقين، فأوجب أقلَّ ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول اللّه ﷺ وهو ما روي أنَّه مسح على ناصيته، وقدَّر النَّاصية بربع الرَّأس"[4]، ومن حيث الاستدلال اللُّغويِّ، فقد رَأى الشَّافعيَّةُ والحنفيَّةُ: أنَّها للتَّبعيض، والمعنى: وامسحوا بعضَ رؤوسِكم، والمالكيَّةُ يرون أنَّها - الباء -

(1) أمَّا القولُ بأنَّ حروفَ المعاني ينوبُ بعضُها عن بَعْض، فقد نَبَّه الزَّجَّاجُ إلى خَطَأ هذا بقوله: "فهذا لا يجوزُ أن يقال: إنَّ بعضَ الحروف منَ المعاني بمعنى الآخَر، لكنَّ الحَرْفَيْنِ قد يتقاربان، فيظنُّ الضَّعيفُ العِلْم باللُّغة، بأنَّ معناهما واحدٌ، وليس كذلك"، ينظر: الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/132.

(2) عبد الحيِّ حسن، من حروف المعاني، ص: 41.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/418.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/418.

زائدةٌ؛ لتقويَةِ تعلُّقِ العاملِ بالمعمولِ، والتَّركيبُ يدلُّ على مسحِ كلِّ الرَّأس، والبعضُ داخلٌ فيه، فللأخذِ بالأحوطِ يجبُ مسحُ الكُلِّ[1].

بيان قول الآمدي بأنَّ التَّبعيضَ هنا، مجازٌ مرسَلٌ، بإطلاق الكلِّ وإرادة الجزء:

سرُّ العُدول عن تعديَةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديةِ الفعل بالباء

نقل الآمديُّ أنَّ التَّبعيضَ المفهومَ ليس حقيقةً، وإنَّما هو مجازٌ مرسَلٌ، حيث أُطْلقَ الكُلُّ (الرَّأس)، وأريد الجزءُ (بعضُه)، وأنَّ التَّبعيضَ ليس من دلالةِ الباءِ، وهذا ما صَرَّح به المالقيُّ بقوله: "والصَّحيحُ أنَّ الباء في ذلك كلِّه للإلصاق.... وإنَّما التَّبعيضُ الَّذي يُمكنُ في التَّمثيلِ في الآيةِ على المجازِ، لا أصلَ للباء فيه، فهو مثلُ قولِك: ضربتُ زيدًا، وأنت تريدُ بعضَه بإطلاق اللَّفظِ مجازًا"[2]، والظَّاهرُ أنَّ التَّبعيضَ ليس من دلالة الباء، وأنَّ السِّرَّ في العُدول عن تعديةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديةِ الفعل بالباء ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾؛ "لأنَّ المسحَ لا بُدَّ فيه من إلصاقِ اليدِ بالممسوحِ ومباشرته، بخلافِ الغُسْلِ الَّذي يتحقَّقُ بصبِّ الماء على العُضو، ولو لم يباشِرْه العُضو الغاسل، وأوضحُ دليلٍ على ذلك أنَّ الوجهَ واليدينِ عُدِّي إليهما فعلُ الغُسْل بنفسِه في الوضوء، وعُدِّي إليهما فعلُ المسح بالباء في التَّيمُّم، كما كان في الممسوحات، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾، فالباء إذًا جيء بها؛ للدَّلالةِ على مباشرةِ المسحِ باليد للرَّأس وإلصاقِه بها، وليس التَّبعيضُ من دلالتِها"[3].

القراءاتُ الواردةُ في قولِه: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾، وأثرها في المعنى والأحكام:

تعدُّدُ الدِّلالات وتنوُّعُ المعاني نتاجُ تعدُّدِ القراءاتِ القرآنيَّة

وردتْ في ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ: الأولى: قراءةُ الرَّفع، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ، قرأ بها الحَسَنُ، والمعنى: وأرجلُكم مغسولةٌ[4]، والثَّانية: قراءةُ النَّصبِ بالعطفِ على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، وهي قراءة

---

(1) الزمخشري، الكَشَّاف: 1/325.

(2) المالِقي، رَصْف المَباني، ص: 224.

(3) الخضري، مِن أسرار حروف الجَرّ، ص: 196.

(4) الكازروني، حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي: 1/139.

متواترة، قرأ بها نافع، وابن عامر، وعاصم، ولا إشكالَ في هذه القراءة المتواترة؛ لأنَّ (الأرجلَ) فيها معطوفةٌ على (الوجوه)، والمعنى بناءً عليها: فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافق، وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحُوا برؤوسكم، وإنَّما أُقْحِمَ مسحُ الرَّأس بين المغسولات؛ ليأخذ درجةَ المغسولات في الأهمِّيَّةِ والعناية، حتَّى لا يتهاونَ به أحدٌ، أو يلتمسَ له وجهًا ما، كمن يمسحُ على العمامة متعلِّلًا بالمشقَّة، ولا يخفَى أيضًا ما في دلالةِ تقديم مسح الرَّأس على أهمِّيَّةِ التَّرتيب، والثَّالثةُ: قراءةُ الجَرِّ على المجاوَرة، أي: لمجاورتِها المجرورَ، وهو قولُه: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ، وحمزةَ، وعاصم، وأبي عمرو، فالخفضُ في قراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾: إنَّما هي لمجاورة المخفوضِ، مع أنَّها منصوبةٌ بدليل قراءةِ النَّصب[1]، وعلى هذه القراءة؛ يكونُ في الآية إجمالٌ، وقد يُفهم منها الاكتفاءُ بمسح الرِّجْلين في الوضوء كالرَّأس، وهو خلافُ المشهور والمرويِّ من الأحاديث النَّبويَّةِ الصَّريحةِ والصَّحيحةِ، في وجوبِ غسلِ الرِّجلين في الوضوء، والتَّوعُّدِ بالنَّار لمن ترك هذا[2].

دلالة اشتراك المتعاطفين في الوصف في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾:

تقدير عطف الغسل على المسح لاشتراكهما في باب الوضوء

قيل: إنَّه إنَّما خفض، لاشتراك الغسل والمسح في باب الوضوء، فكأنَّه قال: (وامسحواْ برؤوسكم، واغسلوا أرجلكم)، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ

---

(1) العربُ تخفضُ الكلمةَ لمجاورتِها المخفوضَ: (المجرور) مع أنَّ إعرابَها النَّصب، والرَّفع، ومن شواهدِه قولُ امرئِ القيس:

كَأَنَّ ثَبِيرًا في عِرانِينِ وَدْقِهِ***كَبِيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

بِجَرّ: (مُزَمَّلِ) بالمجاورة للمجرور: (بِجادٍ)، مع أنَّها نَعْت: (كَبيرُ) المرفوع خبرًا لكأنّ، ومنه قول ذي الرُّمة:

تُرِيكَ سُنَّةَ وجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ *** مَلْساءَ لَيْسَ بِها خالٌ ولا نَدَبُ

بِجَرّ: (غَيْرِ) لمجاورة المجرور بالإضافة: (سُنَّةَ)، مع أنّ: (غَيْرِ) نعتٌ منصوب لـ: (سُنَّةَ) المنصوبةِ بفعل يتعدَّى لمفعولين، والإعراب بالمجاورة له شواهدُ كثيرةٌ في كتاب الله، منها قولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾ [الواقعة: 22 - 23]، على قراءة حمزة والكسائيّ، ينظر: الشِّنْقيطي، أضواء البيان: 2/6 - 7.

(2) الشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/6 - 7.

﴿١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢﴾ [الواقعة: 17 - 22]، فعطف الحور العين على الفاكهة الَّتي يطاف بها، وهو ممَّا لا يطافُ به، ولكنَّ عطفه عليه لاشتراكهما في التَّنعُّم بهما، ومن ذلك قول الشَّاعر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا***مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحا

عطف الرُّمح على السَّيف، وليس الرُّمح ممَّا يتقلَّد به، ولكن عطفه عليه، لاشتراكهما في الحمل، وفي أنَّهما سلاح... وتقدير ما ذكرنا - عند النَّحويين - على حذف فعل فيه (كلِّه) على قدر معانيه، كأنَّه قال: (وحامِلًا رُمْحًا)، ونحو ذلك من التَّقدير[1]، وتُشيرُ قراءةُ الخفض إلى أنَّه ينبغي الاقتصادُ في صَبِّ الماء على الأرجُلِ، وغسلُها غُسلًا قريبًا منَ المسح، وفي الفصل بين غسل الرِّجلين وبين أخواته إيماءٌ إلى أفضليَّة التَّرتيب[2]، والتَّرتيب ليس مستفادًا منَ العطف بالواو؛ لأنَّها لمطلَقِ الجمع، ولكنْ من ترتيب هذه الأشياء في الذِّكر كما جاءت به الآيةُ الكريمةُ، والجرُّ بالجوار يكون في النَّعت قليلًا، وفي التَّوكيد نادرًا، ولا يكون في عطف النَّسق إلَّا لحكمة واضحة؛ لأنَّ العاطف يمنع من التَّجاور[3]، قال الزَّمخشريُّ: "الأرجل من بين الأعضاء الثَّلاثة المغسولة، تغسل بصبِّ الماء عليها، فكانت مظنَّة للإسراف المذموم المنهيِّ عنه، فعطفت على الثَّالث الممسوح، لا لتمسح، ولكن ليُنبَّه على وجوب الاقتصاد في صبِّ الماء عليها، وقيل: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، فجيء بالغاية إماطة لظنِّ ظانٍّ، يحسبها ممسوحة؛ لأنَّ المسح لم تضرب له غاية في الشَّريعة"[4].

تخريج قوله: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ على أنَّها مجرورةٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ دَلَّ عليه المعنى:

نذكر أنَّه من التَّخريجات الواردة عند اللُّغويِّين تخريج قوله: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ على أنَّها مجرورةٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّر، دَلَّ عليه المعنى، ويتعلَّق هذا الحرفُ بفعلٍ محذوفٍ أيضًا يليق بالمحلِّ، قالوا: وتقديرُه: (وافعَلُوا بأرجلِكم غسلًا)، قال أبو البقاء: وحَذْفُ حرفِ الجرِّ وإبقاءُ الجرِّ جائزٌ، كقوله:

التَّخريجات اللُّغويَّة موغلة في التَّقدير، وتؤكِّد سعة الاستنباط من التَّعبير

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1616.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/28.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/611.

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً*** وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنٍ غُرَابُهَا

فجُرَّ بتقديرِ الباء، وليس بموضع ضرورةٍ، والتَّقدير فيما يسمُّونه جرًّا على التَّوهُّم، قولنا: (لَيْسُوا بمُصْلِحِينَ)، يعني: كأنَّه توهَّم وجودَ الباء زائدةً في خبر (ليس)؛ لأنَّها يكثُر زيادتُها، واستدلُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون: 10]، بجزم ﴿وَأَكُن﴾ عطفًا على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ على توهُّم سقوط الفاء من ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، وقد نَصَّ عليه سيبويه وغيرُه، وهذا التَّخريج فيه تكلُّف ونأيٌ عن المفهوم من ظاهر السِّياق، وقد أشار إلى ذلك صاحب الدُّرِّ المصون[1].

الاستغناء عن جمع الكثرة بجمع القلَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾:

يشترك الجمعان في الدَّلالة على الجمع، ويفترقان في توصيف الكثرة والقلَّة

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، استغنى فيه بجمع القلَّة عن جمع الكثرة؛ لأنَّه بناء يستغنى فيه بالأوَّل عن الثَّاني، وضعًا واستعمالًا؛ اتِّكالًا على القرينة، وهو ما لخَّصه الشَّاطبيُّ بقوله: "وحقيقة الوضع أن تكون العرب لم تضع أحد البناءين؛ استغناء عنه بالآخر، والاستعمال أن تكون وضعتهما معًا، ولكنَّها استغنت في بعض المواضع عن أحدهما بالآخر، فالأوَّل: كأرجل جمع رجل، وأعناق جمع عنق، وأفئدة جمع فؤاد، قال تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ٤٣﴾، فاستغنى فيها ببناء القلَّة عن بناء الكثرة؛ لأنَّها لم يوضع لها بناء كثرة، والثَّاني: كأقلام"[2].

دلالة قراءتي: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ بالتَّخفيف، وقراءة ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ بالتَّشديد:

الوضوء طهارة حسِّيَّة ومعنويَّة أصليَّة، والتَّيمُّم طهارة معنويَّة بديلة

كما قرئ ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، شاذًّا: (فاطْهُرُوا)، أيْ: فَطَهِّرُوا أبْدانكم، وفائدةُ القراءتين: أنَّ قراءةَ التَّشديد ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاغتسال بالماء مع التَّشديد في صبِّ الماء، على كلِّ جُزءٍ في الجسد،

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/216.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/421.

وقراءةُ التَّخفيف (فَاطْهُرُوا)؛ للدَّلالة على التَّيمُّم عند عدم وجودِ الماء، أو عند وجودِه مع العذرِ الَّذي يمنعُ منَ الاغتسال بالماء، "وفي تَعْلِيقِ الأمْرِ بِالطَّهارَةِ الكُبْرى بِالحَدَثِ الأكْبَرِ، إشارَةٌ إلى اشْتِراطِ الأمْرِ بِالطَّهارَةِ الصُّغْرى بِالحَدَثِ الأصْغَرِ"(1).

دلالةُ تَعليقِ الشَّرْط بالأداة ﴿وَإِن﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا﴾ ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾:

التَّعبيرُ بأداةِ الشَّرط ﴿وَإِن﴾ المفيدة معنى: الشَّكِّ، إشارةٌ إلى استحبابِ المُبادرةِ إلى الغُسْل منَ الجَنابة؛ إذا وَقَع، والحَثِّ على ذلك، وكأنَّ بقاءَ المُسْلم جُنُبًا أمرٌ نادرٌ؛ ليبقى نظيفًا حِسِّيًّا ومعنويًّا، ظاهرًا وباطنًا، وللإشارة إلى أنَّ حالةَ الجنابةِ عارضةٌ وليستْ غالبةً، أمَّا تعليقُ الشَّرط الثَّاني: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ بأداة الشَّكِّ؛ فللإشارة إلى أنَّ حالةَ المرضِ عارضةٌ، و هذا من فضل اللّٰه على عباده: أنَّ الرَّخاء بالعافية والصِّحةِ أكثرُ منَ المرض والسُّقْم في غالب حال الأُمَّة(2).

التَّطهُّر منَ الجَنابة شَرطٌ لصِحَّة الصَّلاةِ، وسرُّ الحَثِّ على الغُسلِ أو التَّيمُّم

إشارة السِّياق إلى أنَّ المرض بذاته مُسوِّغٌ للتَّيمُّم، وإن كان الماءُ موجودًا:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾، تتَضمَّن الآية إباحةَ التَّيمُّم للمريض، من غيرِ شرطِ عدم الماء، وعدمُ الماء إنَّما هو مشروطٌ للمسافرِ دون المريض، فلو كان الحُكْمُ جَعَلَ عدم الماء شرطًا في إباحةِ التَّيَمُّم للمريض؛ لأدَّى ذلك إلى إسقاطِ فائدةِ ذِكْرِ المريض؛ لأنَّ العِلَّةَ المُبيحةَ للتَّيمُّم وجوازِ الصَّلاةِ به في المريض والمسافر لو كانت عَدَمَ الماء؛ لما كان لِذِكْر المريض مع عدم ذِكْر

الوضوء طهارة مؤصَّلة، والتَّيمُّم رخصة مؤقَّتة

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/11.
(2) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 6/35.

الماء فائدةٌ[1]، وذكر الشَّوكانيُّ أنَّ الصَّحيح من المرض، إذا لم يجدِ الماءَ؛ تيمَّم، فدَلَّ على أنَّ المرضَ بمجرَّده مُسوِّغٌ للتَّيمُّم، وإن كان الماءُ موجودًا؛ إذ كان يتضرَّرُ باستعمالِه في الحالِ أو في المآل[2].

دلالةُ ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ على الحُكمِ الشَّرعيِّ، و سرُّ تَعليقِ الشَّرْط بأداةِ الشَّكِّ ﴿وَإِن﴾:

التَّطهُّر من الجَنابة شرطٌ لصِحَّة الصَّلاةِ، وسرُّ الحَثِّ على الغُسلِ منها

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾، أي: إنْ كنتُمْ جُنُبًا باحتلامٍ أو مباشرةٍ، وأردتُم الصَّلاةَ؛ فاغتسلوا، وكلمةُ (جُنُب) مشتقٌّ من لفظ الجنابة، وهي ما تكونُ بِسَبَب الاتِّصالِ بين الرَّجل والمرأة، وسُمِّي ذلك جَنابةً؛ لأنَّه يُجنِّبُهما الصَّلاةَ، ولِما يكونُ مِنَ التَّقارُب بينهما بحيث يكون أحدُهما بِجَنْب الآخر، وفي حُكْم الجَنابة بهذا المعنى الحيضُ والنِّفاسُ، ويُشير قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ إلى وجوبِ التَّطَهُّر أي: الاغتسالِ، عند القيام للصَّلاة والاستعدادِ لها، فالأمرُ هنا للوجوب، والتَّطهُّرُ: هو الاغتسالُ، والعنايةُ بِصَبِّ الماء على كُلِّ جُزءٍ يمكنُ أن يصلَ إليه، كما يدلُّ عليه التَّعبير بصيغة (فَعَّلَ): ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾، بدلالتِها على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعْل، كما دَلَّ التَّعبيرُ بـ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ على أنَّ النَّجاسةَ المعنويَّةَ عَمَّتْ كُلَّ أجزاءِ الجِسْمِ، فوجبَ أن تكونَ الطَّهارةُ عامَّةً لكلِّ أجزاءِ الجسمِ أيضًا[3].

سِرُّ العُدول عن لفظ (مسافرين) إلى قوله: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

حرفُ الاستعلاء (على) في الآية، وإيحاؤه بالعَزم القاطِع على السَّفَر

قوله: ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أيْ: مُسْتَقِرِّينَ عَلَيْهِ، وقيل: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولم يقل: (أو مسافرين)؛ ليقابل الجمع ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾، فيجري الكلامُ على سياقٍ واحدٍ؛ لوجودِ فرقٍ بين لفظي (المسافر) و﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فالمسافرُ هو مَن تَلَبَّس بِحَرَكَة السَّفَر،

(1) الجَصَّاص، أحكام القرآن: 2/461.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/463.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2051.

وخَرَج عن وَصْف الإقامةِ والحَضَر، أي: هو المسافرُ حقيقةً وواقعًا، أمَّا ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فمعنى: على عَزْمِ السَّفَر وقُوَّته واستعدادِه له، وإن لم يجاوِزْ حدودَ الحَضَر؛ لذا لم يقل: (مسافرين)؛ ليَتناول مَن شَرَعَ في السَّفر، ولم يبلغ مسافةَ السَّفر، فإنَّه يقصرُ، ويتيمَّم، وهذا من باب التَّخفيف في الدِّين والتَّيسير على العبادِ.

الجمع في سياق واحد بين ما هو سببٌ للعزيمة، وماهو سببٌ للرُّخصة:

الخـلـوصُ من تـخـصـيـص المريض والمسافر إلى كُـلِّ من لهُ عذرٌ مُشابه

إنَّ المرضَ والسَّفَرَ - مع فَقْد الماء - سببان من أسبابِ التَّرخيصِ بالتَّيمُّم، والحَدَثُ سَبَبٌ لوجوبِ الوضوءِ، والجَنابةُ سببٌ لوجوب الغُسْلِ، فجمعَ في سِلْكٍ واحدٍ بين ما هو سببٌ للرُّخصة، وما هو سَبَبٌ للطَّهارة بِوُضوء أو غُسْلٍ، وقد عَلَّلَ صاحبُ الكَشَّاف هذا بقوله: "أراد سبحانه أن يرخِّصَ للَّذين وجبَ عليهمُ التَّطهُّرُ، وهم عادمُون الماءَ في التَّيمُّم بالتُّراب، فخصَّ أوَّلًا من بينهم مرضَاهم ومن هم على سفرٍ؛ لأنَّهم المُتقدِّمون في استحقاق بيانِ الرُّخصة لهم، بكثرة المرضِ والسَّفرِ وغلبتِهما على سائرِ الأسبابِ المُوجبةِ للرُّخصةِ، ثمَّ عمَّ كلَّ من وجبَ عليه التَّطهُّرُ، وأعوَزَهُ الماءُ لخوفِ عدوٍّ أو سَبُعٍ أو عدمِ آلة استقاءٍ، أو إرهاقٍ في مكان لا ماءَ فيه، وغيرِ ذلك بما لا يكثُرُ كثرةَ المرضِ والسَّفر[1].

حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية، وإيحاؤه بالعَزْمِ على السَّفَر:

الـظَّـرفـيَّـة مـحـدودة بـأوانـهـا، والاسـتـعـلاء مـنـفـسـحٌ للقصد والفعل والمواصلة

النُّكْتةُ في إيثارِ حَرْفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ على حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ (في) في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، هي أنَّ حرفَ الاستعلاء، يُوحِي بالعزم على السَّفر، وعَقْدِ النِّيَّةِ عليه، حتَّى باتَ واقعًا، وهذا كافٍ في نَيْلِ رُخْصَة التَّيَمُّم بشُروطِه، وهو ما يتناسبُ مع مقام التَّيسير في الآيةِ الكريمةِ، ولو قيل: (في سفر)؛ لأشْعَرَ بِتَوَقُّفِ استحقاقِ التَّرَخُّص على التَّوغُّلِ في السَّفَر، وقَطْعِ المسافاتِ فيه، وهذا لا يتلاءمُ والمقامَ.

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/270 - 271.

علَّة الكنايةِ عن قضاء الحاجة في قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾:

دلالـــةُ تـجَـنُّـبِ التَّـصـريـحِ بما يُـسـتـهـجَـنُ في الخطاب القرآنيِّ العفيف

وفي قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ كِنايةٌ عن صفةٍ، هي قضاءُ الحاجةِ، وأصلُ الغائطِ: المكانُ المُنخفضُ الَّذي يأوِي إليه مَن يَقضي حاجتَه؛ لأنَّه يَستُره، ثمَّ صار بحَسَبِ العُرف كنايةً عن قضاء الحاجةِ، وفي إيثار هذه الكنايةِ إشارةٌ مهمَّةٌ إلى ضرورةِ الاستتار، عند قضاءِ الحاجةِ، بعيدًا عن عيونِ النَّاس، فلا يظهرُ بعد قضاء حاجتِه إلَّا وهو في تمام إسدالِه و سترِه، وهذا ما يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَوۡ جَآءَ﴾، أي: بعد الانتهاءِ التَّامّ، والسَّتر التَّامِّ، والكِنايةُ تأتي بالمعنى مصحوبًا بالدَّليلِ، ممَّا يُؤدِّي إلى تأكيدِ إثباتِ المعنَى، وهذا من أسرار بلاغتها، ولم يُصَرِّحْ بالمعنى الحقيقيِّ تَنَزُّهًا عنِ التَّصريح بها؛ لأنَّها منَ النَّقائصِ المُذكِّرةِ للإنسان بشديدِ عجْزِه، وعظيم ضرورَتِه، وفقرِه؛ ليكفَّ عن إعجابِه وتكبُّرِه وترفُّعِه وفُجْرِه، كما ورد أنَّ بعضَ الأمراء لَقِيَ بعضَ البُلْه في طريق، فلم يُفسِحْ له، فغضبَ، وقال: كأنَّك ما تعرفُني؟ فقال: بلى، واللهِ إنِّي لأعرفُك، أَوَّلُك نطفةٌ مَذِرَةٌ، وآخرُك جيفةٌ قَذِرَةٌ، وأنت فيما بين ذلك تحملُ العَذِرَةَ[1].

علَّة صرف إسناد الفعل الخادش إلى المخاطبين بإسناده إلى ﴿أَحَدٞ﴾ غير معيَّن:

مسلك القرآن في إيثار التَّوصيف بالغيبة تفاديًا لـكـلِّ فاحشة وريبة

ومِمَّا يُلْحَظُ تحاشِي النَّظْم الكريمِ إسنادَ المجيءِ منَ الغائط، أي: الحَدَث ببَولٍ أو غائط، إلى المخاطَبين مُباشرةً في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، فلم يقل: (أو جئتم من الغائط)، بل أسندَ الفعلَ إلى واحدٍ منهم مُبْهَم؛ لغَرَضٍ تعليميٍّ، هو ما يُؤدِّي إليه الخطابُ من خدْشٍ للحياء، فلو قال: (أو جئتم من الغائط)؛ لكان الخطاب فجًّا غير مستساغ، وحاشا أن يكون القرآن كذلك.

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/35.

دلالة التَّعبير على وجوبِ قضاءِ الحاجةِ فُرادَى، والعودةِ فُرادى للاستتار:

كما دلَّ التَّعبيرُ بالمفردِ في قوله: ﴿جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ على أدبٍ فِطْريٍّ منَ الآدابِ الإنسانيَّة، وهو وجوبُ قضاءِ الحاجةِ فُرادَى، والعودةِ فُرادى للاستتار، ولعلَّ هذا يتوافقُ مع مدلول كلمة الغائط، فهي الأرضُ المنخفضةُ الَّتي تَسْتُر مَن يَنْزِلُ فيها، وهذا دليل على شفافيَّة اللَّفظ، واستيعابه للمدلول الَّذي أجلى معاني العفَّة والسَّتر، ممَّا يدلُّ على رقاء الأسلوب ودقَّته ورقَّته.

استيعاب اللَّفظ لما يُجلِّي معاني العفَّة والسَّتر من أدب القرآن الرَّفيع

دلالة الحرف (أَوْ) في قولِه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾:

ورود الأداة (أو) على أصلها؛ لتفيد الاختيار عند الاضطرار

للأداة ﴿أَوْ﴾ هنا تأويلان: أحدُهما: أن تكونَ للتَّفصيل والتَّنويع على بابها، والآخر: أنَّها بمعنى: الواو، فعلى القولِ بأنَّها على بابها؛ يكونُ قولُه: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافرِ، وإلى مَن جاء مِنَ الغائط، وإلى مَن لامسَ، سواءٌ كانا مريضَيْن أو مسافرَيْن، فيقتضي ذلك جوازَ التَّيمُّم للحاضر الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ، وهو مذهبُ مالكٍ والشَّافعيِّ، فيكونُ في الآية حجَّةٌ لهما، وعلى القول بأنَّها بمعنى الواو؛ يكونُ قولُه: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافر، فيقتضي ذلك أنَّه لا يجوزُ التَّيمُّمُ إلَّا في المرض والسَّفر مع عدَمِ الماءِ، وأنَّه لا يجوزُ للحاضرِ الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ، ولكنْ يُؤخذُ جوازُ التَّيمُّم له من دليلٍ آخرَ، والرَّاجحُ أنَّ ﴿أَوْ﴾ على بابها؛ لِوَجْهَين: أحدُهما: أنَّ جعْلَها بمعنى الواو إخراجٌ لها عن أصلِها، وذلك ضعيفٌ، والآخرُ: إن كانت على بابها؛ كان فيها فائدةُ إباحة التَّيمُّم للحاضرِ الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ على ما ظهرَ لنا فيها، وإذا كانت بمعنى الواو؛ لم تُعْطِ هذه الفائدةَ، وحُجَّةُ مَنْ جَعَلَها بمعنى الواو: أنَّه لو جعلَها على بابها؛ لاقتضى المعنى: أنَّ المرضَ والسَّفرَ حدثٌ، يوجبُ الوضوءَ كالغائطِ، لِعَطْفِه عليها، وهذا لا يلزمُ؛ لأنَّ العطفَ بـ﴿أَوْ﴾ هنا للتَّنويع والتَّفصيلِ، ومعنى الآية: كأنَّه قال:

يجوزُ لكم التَّيمُّمُ؛ إذا لم تجدوا ماءً؛ إن كنتم مرضَى أو على سفر، وأحدثْتُم في غير مرضٍ ولا سفرٍ"[1].

مَزيَّةُ الكنايةِ وأثرها في المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾:

ما يُستَر في الواقع المحسوس؛ يُستَر في اللَّفظ المأنوس

أمَّا قولُه تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ فهو كِنايةٌ عن صفة - أيضًا- وهي الوطءُ، ولم يُصَرَّح بها تنزيهًا عن ذِكْر ما يُسْتقبَحُ التَّصريحُ به، وفي هذه الكنايةِ إشارةٌ إلى انسجامِ التَّعبير مع الحالة الَّتي يصفُها، فما يجب سترُه بعيدًا عنِ النَّاس؛ يجب كذلك سترُه في اللَّفظ، وذلك لإشاعةِ الحياءِ التَّعبيريِّ المتَّسقِ مع الحياءِ النَّفسيِّ في المجتمع المسلم، وإذا رأيت مجتمعًا يفحشُ كلامُه؛ فهذا دليلٌ على فُحشِ أفعالِه.

القراءتان في: ﴿لَمَسۡتُمُ﴾و﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾ يتطلَّبُهما الغرضُ:

اللَّمْس المَشروعُ باليَد غيرُ ناقضٍ للوضوء

وردت في الفعل (لمس) في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قراءتان، يتطلَّبُهما الغرضُ:

القراءةُ الأولى: قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿لَمَسۡتُمُ﴾ على وزن (فَعَل)، والقراءةُ الثَّانية: قراءةُ بقية السَّبعة ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾ على وزن (فَاعَلَ)، وكلتا القراءتين لهما دلالةٌ يتطلَّبُها الغرضُ، فقراءةُ ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾: تدلُّ على المشاركة، وقراءةُ ﴿لَمَسۡتُمُ﴾: تدلُّ على مجرَّد اللَّمس، وإذا كان الغالبُ في ألف المفاعلةِ، أن تدلَّ على تحقُّقِ قدْرٍ ما منَ المشاركة؛ فإنَّها تدلُّ على الوطءِ حقيقةً، وما ورد في البيانِ النَّبويِّ منَ استخدام لفظِ (المَسِّ) يكشفُ عن أنَّ اللَّمْسَ المشروعَ باليد غيرُ ناقضٍ للوضوءِ، وأنَّ المرادَ به في الآية: اللَّمسُ بشهوةٍ، وأنَّ القراءتَيْن تدلَّان على حالَيْن: حالةِ نقض الوضوء بقراءة: ﴿لَمَسۡتُمُ﴾، والجنابةِ بقراءة: ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾، وأنَّه يمكنُ حملُ إحدى القراءَتين على

(1) ابن جُزيّ، التَّسهيل، ص: 182.

الأخرى، وَفقًا لمقام النَّظرِ، ففي مقام الإحسانِ والسَّعةِ والفَرْضيَّةِ: تُحملُ قراءةُ ﴿لَمَسْتُمُ﴾ على ﴿لَـٰمَسْتُمُ﴾، وفي مقام الحَرَج والضِّيقِ والنَّافلةِ: تُحْمَل قراءة ﴿لَـٰمَسْتُمُ﴾ على الأخرى[1]، ولعلَّ هذا يتَّكئُ في رأيه على قولِ أبي بكرٍ الرَّازيِّ: "إنَّ القراءتين ليستا كالآيتين في الحُكْم، بل يُقرآن على أن تُقام إحداهما مقامَ الأخرى، لا على أن يُجمعَ بين أحكامهما كما لا تُجمع بين قراءتيهما"[2].

التَّعبيرُ بالمجيءِ دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾:

اختيار اللَّفظ المناسب دون مرادفه، يؤدِّي المعنى بدقَّة وبلاغة

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قولِه: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾؛ لتُوافقَ مدلولَ المادَّة مع دلالة كلمةِ (الغائط)، بيانُ ذلك أنَّ مادَّة المجيءِ تدلُّ على المشقَّةِ والجُهدِ، وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ ذهابَهم إلى الغائطِ - وهو المكانُ المنخفضُ منَ الأرض؛ كُلَّما أرادوا قضاءَ حاجتِهم - فيه مَشَقَّةٌ وعناءٌ لهم[3]؛ لِثِقل الحركةِ وصعوبتِها، ولِمَشَقَّة تكرُّره يوميًا في أيِّ وقت، وهذا لا يتوافقُ مع مدلولِ (أتى)؛ لأنَّه مَجيءٌ فيه يُسْرٌ ولِينٌ.

الكناية عن حدث قضاء الحاجة في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾:

ارتباط عادات العرب الاجتماعيَّة بالبيئة المحيطة بهم حضارةٌ وتأنُّقٌ

يحتوي التَّركيب على كناية عن الحدث بالمجيء من الغائط، "وهو المطمئنُّ المنخفض من الأرض؛ جريًا على عادة العرب في هذا الأمر، وهي أنَّ العربيَّ إذا أراد قضاء حاجة؛ قصد مكانًا منخفضًا من الأرض، وقضى حاجته فيه"[4]، وهذا أمر مستملح يؤكِّد ارتباط ذلك بمحاسن العادات عندهم، وتأذِّي المرء في تلك البيئة، من

(1) سعد، إشكاليَّة الجمع بين الحقيقة والمجاز، ص: 131، 132.

(2) الجَصَّاص، أحكام القرآن: 2/462، والفاءُ في ﴿فَلَمْ﴾ عاطِفَةٌ، وأمَّا الفاءُ في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فَواقِعَةٌ في جَوابِ الشَّرْط، والضَّميرُ راجِعٌ إلى جَميعِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْه، وفِيهِ تَغْليبُ الخِطابِ عَلى الغَيْبَة، ينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 6/81.

(3) رضا، تفسير المنار: 6/209.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/421.

انكشاف عورته، أو اطِّلاع النَّاس عليه، وهو في ذلك الوضع المحرج، وهو أمرٌ يُنبئُ عن حسٍّ حضاريٍّ مُرهف.

ترتيبُ الأعذار منطقيًّا على حَسْب أولويَّة الحاجة إلى الرُّخْصَةِ الشَّرعيَّة:

لكلِّ عذر موجب للرُّخصة أسباب عقلانيَّة فصيحة ومقنعة

جاء التَّرتيبُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، على حَسْبِ الأَحْوَجِ إلى الرُّخْصَةِ، فالأَحْوَجِ، فبدأ بالمرضِ، وقُدِّمَ على السَّفر؛ للإيذانِ بعراقتِه، وانفرادِه بأحكام لا توجدُ في عُذْرٍ آخرَ مِنَ الأعذارِ المُبيحةِ للتَّيَمُّم، والمذكورة في الآية الكريمة[1]، وأردف المرضَ بالسَّفرِ، سَواء كانَ السَّفَرُ طَوِيلًا أم قَصِيرًا، ثمَّ بالمجيءِ مِنَ الغائط، ولَوْ كانَ حاضِرًا صَحِيحًا، ثمَّ جاء قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تتميمًا لما سبق، وقد أخَّرَ هَذا العذر؛ لِأنَّهُ مِمَّا مِنهُ بُدٌّ، ولا يَتَكَرَّرُ تَكَرُّرَ قضاءِ الحاجَةِ[2]، فجعل آخر الأعذار، مراعاة لمقتضى الحال، وضرورة الاحتياج.

دلالة وصف الصَّعيد بالطَّيِّب في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾:

حَمْلُ الصَّعِيدِ الطَّيِّبِ على وجه الأرض وترابها عمومًا؛ رِعايَةً لِقاعِدَةِ الاحْتِياطِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فالصَّعِيدُ: وجْهُ الأرْضِ، وسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأنَّهُ نِهايَةُ ما يُصْعَدُ إلَيْهِ من باطِنِ الأرْضِ، أوْ لِصُعُودِهِ وارْتِفاعِهِ فَوْقَ الأرْضِ، والطَّيِّبُ: الطَّاهِرُ، والمَعْنى: فَتَعَمَّدُواْ واقْصدُواْ شَيْئًا من وجْهِ الأرْضِ طاهِرًا،

فهنا أمْرٌ بإيقاع التَّيَمُّمِ بالصَّعِيد الطَّيِّب، "والصَّعِيدُ الطَّيِّبُ: هو الأرْضُ الَّتِي لا سَبَخَةَ فيها، ولا شَكَّ أنَّ التَّيَمُّمَ بِهَذا التُّراب جائِزٌ بِالإجْماعِ، فَوَجَبَ حَمْلُ الصَّعِيدِ الطَّيِّبِ عَلَيْهِ؛ رِعايَةً لِقاعِدَةِ الاِحْتِياطِ، لا سِيَّما وقَدْ خَصَّصَ النَّبِيُّ - ﷺ - التُّرابَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/180.

(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 6/34.

فَقالَ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وتُرابُها طَهُورًا»[1]، وقالَ: «التُّرابُ طَهُورُ المُسْلِمِ؛ إذا لَمْ يَجِدِ الماءَ»[2]، وهَذِهِ عِبادَةٌ خاصَّةٌ بِنا نحن أتباع محمَّد ﷺ.

الباءُ للإلصاق؛ للدَّلالةِ على اسْتِيعابِ الوجه واليدين بالمَسْحِ:

التَّيـمُّـم طهارة تـرابيَّـة بديلة تـميّـز الإسـلام وتـعكس يسره وبساطته

وعُدِّي فِعْلُ المَسْح بالباء دون (على) في قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾؛ لأنَّ المَسْحَ لا بُدَّ فيه مِن إلصاقِ اليَدِ بالمسوحِ، ومباشرته في التَّيمُّمِ، فلا بُدَّ من مُباشرةِ المَسْح باليدِ للوجه وإلصاقِه بها، وهذا معنى الإلصاق الَّذي لاينفكُّ عنِ الباء؛ لذا كان تعديةُ الفعلِ بالباء دون (على)، ولَمَّا كانَ التُّرابُ لا يَتَمَكَّنُ مِن جَميعِ العُضْوِ - وإنِ اجْتَهَدَ الإنْسانُ في ذَلِكَ - أَدْخَلَ الباءَ قاصِرًا لِلْفِعْلِ في قَوْلِه: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾، والمُرادُ اسْتِيعابُ هَذَيْنِ العُضْوَيْنِ بِالمَسْحِ، حَتَّى إذا تَرَكَ شَيْئًا مِنهُما لَمْ يَجْزِئْ.

تَعَلُّقُ الأمرِ بالرُّخصة بالتَّيَمُّمِ بالأصنافِ الأربعةِ المذكورةِ في الآية:

الـغـايــة مـن رخصة التَّيمُّم رفـع الإعـنـات، واســتــدامــة الوصل بالله في كلِّ الحالات

يُلاحَظُ أنَّه أُدْخِلَ في حُكْمِ الشَّرْطِ أربعةُ أصنافٍ، وهم: المرضى، والمسافرون، والمُحْدِثون، وأهلُ الجنابة، وقد تَعَلَّقَ الجزاءُ الَّذي هو الأمرُ بالتَّيمُّم عند عدم الماءِ بِهِم جميعًا، وأنَّ المرضى إذا عدِمُوا الماءَ لضَعفِ حركتِهم وعجْزِهم عنِ الوصول إليه؛ فلهم أن يتيمَّمُوا، وكذلك السَّفرُ إذا عدِمُوه لِبُعْدِه، والمُحْدِثون وأهلُ الجنابة كذلك إذا لم يجدُوه لبعض الأسباب[3]، وجعل الله تعالى الطَّهارةَ بالماء أو التُّراب الطَّاهر؛ لِيُزيلَ الحَرَجَ؛ فمن لم يجدْ ماءً، أو لا يقدرُ على استعماله لِعلَّةٍ، أو لِشدَّة احتياجِه إليه، سيقعُ في حَرَجٍ قَطْعًا؛ لأنَّه

---

(1) رواه بهذا اللَّفظ أبو داود الطيالسي في مسنده، الحديث رقم: (418).

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/168.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/272.

يريدُ أن يُصَلِّيَ، ولا يجدُ وسيلةً للطَّهارة، ولا يريدُ اللّٰه أن يُعْنِت عبادَه، ولا أن يُوقِعَهم في الحَرَج بل خَفَّفَ عليهم، وجعلَ التُّرابَ بديلًا للماء.

التَّيمُّمُ طهارة لله بأمره، وهي مرتبطة بالأرض، محلَّة للفرض

التَّيمُّمُ البديلُ عن الماء، طهارةٌ معنويَّةٌ، وليس تنظيفًا حسِّيًّا:

ليس المقصودُ بالطَّهارة بالتَّيمُّم التَّنظيفَ؛ لأنَّ معنى الطَّهارةِ لوِ اقتصرَ على التَّنظيف؛ لكانتِ الطَّهارةُ بالماء فقط، ولماذا إذًا نمسحُ وجوهَنا بالتُّراب؟ إنَّ هذا يوضِّحُ أنَّ الطَّهارةَ غيرُ النَّظافة، واللّٰه يطلبُ التَّطهيرَ، والتَّطْهيرُ يكون بِشَرْطِ مَنْ تَدْخُلُ عَلَيْه، وتقفُ بين يديه، وهو اللّٰه تعالى، وقد شَرَّعَ اللّٰه لذلك أَمْرين: إمَّا بالماء، وهو الأصلُ، وإمَّا بالتَّيمُّم بالتُّرابِ، فالطَّهارةُ تجعلُ المرءَ صالحًا؛ ليقفَ بَيْنَ يَدَي ربِّه، كما شَرَعَ هو سبحانه[1].

أحكام الله تيسيرٌ على أمَّة الإسلام في اليسر، وتفريجٌ عليها في العسر

دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ للوجوب، وللتَّذْكير بنعمةِ اللّٰه تعالى على عبادِه بالرُّخْصَةِ في التَّيمُّم، والتَّوسعةِ على الأُمَّةِ به، وأنَّ حُكمَه باقٍ عند أَمنِهم وسِعَتِهم؛ كَراهةَ أن يَتَوهَّموا أنَّ رخصةَ التَّيمُّمِ كانت عند خوفِهم وقِلَّتِهم، وضِيقِ الأرض عليهم، لظهورِ الكفَّار وغلبتِهم، كما كان زواجُ المتعةِ يُباحُ لهم تارةً، ويُمنع أخرى نظرًا إلى الحاجةِ وفقدِها، حتَّى ثبت منعُه مطلقًا، وفي التَّكرير - أيضًا- إشارةٌ إلى أنَّ ذلك من خصائص الأُمَّةِ المُحَمَّديَّة[2].

سِرُّ حَذْفِ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُ﴾ من آيةِ النِّساءِ، وإثباتِه في آية المائدة:

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ﴾ [النِّساء: 43]، وقال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ [المائدة: 6]، والسُّؤالُ: ما سِرُّ حَذْفِ

(1) الشَّعراوي، خواطر الشّعراوي: 5/2961.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/34.

الجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُ﴾ من آيةِ النِّساءِ، وإثباته في آية المائدة؟ الجوابُ: بِتَأمُّلِ المَقام في الآيتين الكريمتين نَجِدُ أنَّ آية النِّساء فيها ذِكْرٌ لِبَعض أحكام الوضوء والتَّيَمُّم دون تفصيل؛ لذا حَسُنَ حذفُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُ﴾، في حين أنَّ آيةَ المائدة فيها تفصيلٌ وبيانٌ لأحكام الوضوء[1]؛ لذا أُثْبِتَ الجارُّ والمجرورُ﴿مِّنۡهُ﴾؛ للزِّيادة في البيان، وإلى هذا السِّرِّ أشار الكِرْمانيُّ بقوله: "وزاد في المائدة ﴿مِّنۡهُ﴾؛ لأنَّ المذكورَ في هذه - يَعْني: سورة النِّساء - بَعْضُ أحكام الوضوءِ والتَّيمُّم، فَحَسُنَ الحذفُ، والمذكورُ في المائدة جميعُ أحكامها؛ فَحَسُنَ الإثباتُ والبيان"[2]، ثمَّ إنَّ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِّنۡهُ﴾، يشيرُ إلى التَّأكيدِ على أن يكونَ التَّيمُّمُ منَ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ ذاته، فحذفُه من آية النِّساء الَّتي نزلت قبْل المائدةِ، يشيرُ إلى أنَّه ربَّما وقعَ نوعٌ منَ التَّقصيرِ أوِ التَّسامُحِ في كيفيةِ التَّيمُّم، أو في الاكتفاءِ بغبارِ التُّرابِ، دون التُّرابِ ذاته، ونحوُ ذلك، ممَّا قد يقعُ مع بدايةِ تشريعِ الصَّلاةِ، كما يدلُّ صدرُ آيةِ النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساء: 43]، فلمَّا نزلتِ المائدةُ؛ زِيدَ فيها الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنۡهُ﴾ في قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾[3]؛ للتَّأكيد على أن يكونَ المسحُ منَ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ ذاتِه، وهذا على ترجيحِ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿مِّنۡهُ﴾ للصَّعيدِ الطَّيِّب.

الدَّلالة على العموم بلامِ الجُحُودِ والتَّنْكِير، وحَذْفُ موضوعِ الحَرَج:

نـفـي الـحـرج قاعدةٌ من قواعدِ الـشَّـريـعـةِ، وأَصْلٌ من أعظمِ الأصول

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾، تعليلٌ لرخصةِ التَّيمُّمِ، وهذا الكلامُ يفيدُ النَّفيَ المؤكَّد بأنَّه ليس في الدِّين من حَرَج، أي: ضيق ومَشَقَّة وعَنَت، وفي نَفْي الإرادة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ تأكيدٌ للنَّفي، وقد دَلَّ تنكيرُ ﴿حَرَجٖ﴾، وحَذْفُ موضوعه: على عُمومه، وكأنَّه قيل: ما يريد اللّٰه عليكم، أيَّ مَشَقَّة أو ضِيق، وتأكَّد النَّفيُ بلام الجحود ﴿لِيَجۡعَلَ﴾، والمعنى: ما كان في أَمْرِ اللّٰه أن يجعلَ عليكم في

---

(1) يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6].

(2) الكِرْمانّي، البُرْهان في توجيه مُتشابه القرآن، ص: 55.

(3) الزّركشي، البرهان: 1/194.

دينِه من حَرَجٍ؛ لذا شرعَ لَكُم التَّيَمُّمَ وغيرَه منَ الأمورِ الَّتي تُيسِّرُ عليكم أداءَ العباداتِ، فضلًا منَ اللّه ورحمةً بعبادِه المؤمنين، وقد أشار إلى هذا بالتَّفصيلِ صاحبُ تفسيرِ المَنار، حيث قال: "ما نفاه اللّه تعالى مِن الحَرَجِ في هذه الآية، قاعدةٌ من قواعدِ الشَّريعة، وأصْلٌ مِن أعظمِ أصولِ الدِّين... وقد أُطلِقَ نفيُ الحرجِ، والمرادُ به هنا: أوَّلًا: ما يتعلَّقُ بأحكامِ الآيةِ، أو بما تَقَدَّمَ مِن أحكامٍ مِن أوَّلِ السُّورة، ثانيًا: وبالتَّبَعِ: جميعُ أحكامِ الإسلامِ؛ ولهذا لم يقلْ: ما يريدُ اللّه؛ ليَجعلَ عليكم مِن حَرَجٍ فيما شَرَعَه لَكُم مِن أحكامِ الطَّهارة؛ لأنَّ حَذْفَ المُتَعَلَّقِ يُؤْذِنُ بالعُمومِ"[1].

الاستدراك بلفظ ﴿وَلَٰكِن﴾؛ لتأكيد نفي الحَرَجِ الحِسِّيِّ و النَّفْسِيِّ:

العِبـاداتُ أسْـرارٌ؛ مِنها ما تدركه الأفْهامُ، ومِنـهـا مـا لا يَعْلَمُهُ إلَّا ربُّ الأنام

قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، أي: مِنَ الأحداثِ والجَناباتِ والذُّنوب، وفي الاستدراك إشارَةٌ إلى أنَّ من حِكْمَةِ الأمْرِ بالغَسْلِ والوُضُوءِ التَّطْهير، وهو تَطْهيرٌ حِسِّيٌّ؛ لِأنَّهُ تَنْظيفٌ، وتَطْهيرٌ نَفسِيٌّ جَعَلَهُ اللّه فيهِ لَمَّا جَعَلَهُ عِبادَةً؛ فَإنَّ العِباداتِ كُلَّها مُشْتَمِلَةٌ عَلى عِدَّةِ أسْرارٍ: مِنها ما تَهْتَدي إلَيْهِ الأفْهامُ، ونُعَبِّرُ عَنْها بِالحِكْمَةِ، ومِنهُ ما لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه، كَكَوْنِ الظُّهْرِ أرْبَعَ رَكَعاتٍ، فَإذا ذُكِرَتْ حِكَمٌ لِلْعِباداتِ؛ فَلَيْسَ المُرادُ أنَّ الحِكَمَ مُنْحَصِرَةٌ فيما عَلِمْناهُ، وإنَّما هو بَعْضٌ مِن كُلٍّ، وظَنٌّ لا يَبْلُغُ مُنْتَهى العِلْمِ، فَلَمَّا تَعَذَّرَ الماءُ؛ عُوِّضَ بِالتَّيَمُّمِ، ولَوْ أرادَ الحَرَجَ؛ لَكَلَّفَهم طَلَبَ الماءِ، ولَوْ بِالثَّمَنِ أوْ تَرْكَ الصَّلاةِ إلى أنْ يُوجَدَ الماءُ، ثُمَّ يَقْضُونَ الجَميعَ، فالتَّيَمُّمُ لَيْسَ فِيهِ تَطْهيرٌ حِسِّيٌّ، وفِيهِ التَّطْهيرُ النَّفْسِيُّ الَّذي في الوُضُوءِ، لما جُعِلَ التَّيَمُّمُ بَدَلًا عَنِ الوُضُوءِ، كَما تَقَدَّمَ في سُورَةِ النِّساءِ"[2].

دلالة الحذفِ على الاختصار والتَّعميم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾:

وقد حُذف مفعولُ الفعل ﴿يُرِيدُ﴾ من قوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾،

(1) رضا، تفسير المَنار: 6/269.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/131.

وتقديره: "يريد ما شرعَه لكم منَ الوضوء والاغتسال...ليُطهِّركم"، وسِرُّ الحذفِ: هو الاختصارُ والتَّعميمُ، وحتَّى تتوجَّهَ الإرادةُ إلى التَّطهيرِ، و ما عُطفَ عليه من تمام النِّعمةِ والشُّكرِ عليها، فإنَّها في ذاتِها غاياتٌ ساميةٌ جديرةٌ بالاعتبار، فما يريدُه اللّه ينبغي أن نُقبلَ عليه، ونَحرصَ عليه، وفي التَّعبير بالفعلِ ﴿يُرِيدُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يريده اللّه نافذٌ، ويجبُ امتثالُه والانقيادُ إليه.

ما يُـريـدُهُ الله نافذٌ بالأصالة، وإرادتـــه خـيْرٌ ويسرٌ لا محالة

مفهوم تمام النِّعمة في تشريع الرُّخصة بالتَّيمُّم في قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾:

﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: "لِيُتِمَّ بِشَرْعِهِ - ما هو مَطْهَرَةٌ لِأَبْدانِكم، ومَكْفَرَةٌ لِذُنُوبِكم - نِعْمَتَهُ عَلَيْكم في الدِّينِ، أوْ لِيُتِمَّ بِرُخَصِهِ إنْعامَهُ عَلَيْكم بِعَزائِمِه"[1].

بالشُّكْرِ والطَّاعة تـدومُ الـنِّـعَـمُ، ويبقى من الله العطاء والكرم

اسْتِعارةُ صِيغَةِ الرَّجاءِ إلى الأمْرِ لِقَصْدِ الحَثِّ عَلَيْهِ في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: تَشْكُرُونَهُ عَلى تَيْسِيرِ دِينِهِ وتَطْهِيرِكم، وإتْمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكم، والتَّرَجِّي المُنْتَظَر هنا مِن البَشَر، وليس مِنَ اللّه تعالى، وقد جَعَلَ اللّه تعالى الشُّكْرَ "عِلَّةً لِإتْمامِ النِّعْمَةِ عَلى طَرِيقَةِ المَجازِ، بِأنِ اسْتُعِيرَتْ صِيغَةُ الرَّجاءِ إلى الأمْرِ، لِقَصْدِ الحَثِّ عَلَيْهِ وإظْهارِهِ في صُورَةِ الأمْرِ المُسْتَقْرَبِ الحُصُولِ"[2]، فإيثارُ هذه الصِّيغةِ جاء على سبيل الحثِّ على الشُّكرِ و تحريكِ النُّفوس المؤمنة نحوَ استقبالِ نِعم اللّه، وتيسيره بالرِّضا والامتنانِ، والعملِ الصَّالح الَّذي يليقُ بالمُنْعِم المُتفضِّلِ.

من لبس النِّعمة - ولـم يشكـر - نُزعَتْ عنه، ولمْ يشعُر

(1) البَيْضاوي، أنوار التَّنْزيل: 1/139.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/132.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّطهير والنَّظافة:

قوله: ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾، المعنى: متعلِّق بالجنابة، يقول: فتطهَّروا بالاغتسال منها قبل دخولكم في صلاتكم الَّتي قمتم إليها[1]، وقيل: ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾، أي: بالماء، أي: اغتسلوا به، قال المهايميُّ: أي: بالغوا في تطهير البدن؛ لأنَّه يتلذَّذ به الجميع تلذُّذًا أغرقه في غير الله، فأثَّر فيه بالحدث[2]، والطُّهر هنا: هو النَّقاء من ذلك الأذى، فإن وصف حائض يقابل بطاهر، وقد سمِّيت الأقراء: أطهارًا، وقد يراد بالتَّطهُّر الغسل بالماء، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التَّوبة: 108]، فإنَّ معناه: الاستنجاء في الخلاء بالماء، وأمَّا النَّظافة؛ فمن: نظُف ينظِّف تنظيفًا[3]، وهي - أيضًا- غسل الوسخ والدَّرن والدَّنس، ويقال للأشنان وما أشبهه: نظيف، لتنظيفه اليد والثَّوب من غمر اللَّحم والمرق، ووضر الودك، وما أشبهها، قال أبو بكر في قولهم: فلان نظيف السَّراويل، معناه: أنَّه عفيف الفرج، وهو معنًى مجازيٌّ[4]، فالنَّظافة: النَّقاوة، وقد نظُف الشَّيء بالضَّمِّ، فهو نظيفٌ، ونظَّفته أنا تنظيفًا، أي: نَقَّيته، والتَّنظُّف: تكلُّف النَّظافة[5]، والفرق بينهما: أنَّ النَّظافة تطهيرٌ حسيٌّ ظاهريٌّ، وأنَّ الطَّهارة: تجمع بين النَّقاوة الظَّاهريَّة، والنَّقاوة المعنويَّة الَّتي تطهِّر الباطن زيادة على الظَّاهر.

الصَّعيد والتُّراب:

لا يقع اسم الصَّعيد إلَّا على تراب ذي غبار[6]، والصَّعيد: التُّراب، "وقال آخرون: الصَّعيد: وجه الأرض، وقال آخرون: بل هو وجه الأرض ذات التُّراب والغبار، وأولى ذلك بالصَّواب قول من قال: هو وجه الأرض الخالية من النَّبات، والغروس، والبناء المستوية، ومنه قول ذي الرِّمَّة:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى يَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ***دَبَّابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ خُرْطُومِ[7].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/212.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 4/76.
(3) الخليل، العين: (نظف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نظف).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نظف).
(6) الشّافعيّ: تفسير الإمام الشّافعي: 2/611.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/82.

وكون الصَّعيد بمعنى: التُّراب، عليه أكثر أهل اللُّغة[1]، وقد قال بعض الفقهاء: إنَّ الصَّعيد وجه الأرض، سواء كان عليه التَّراب أو لم يكن، ويرى التَّيمُّم بوجه الصَّفاة الملساء جائزًا، وإن لم يكن عليها تراب؛ إذ يمسح بها المتيمِّم، قال: وسمَّى وجه الأرض صعيدًا؛ لأنَّه صعد على الأرض، ومذهب أكثر الفقهاء أنَّ الصَّعيد في قوله (ﷻ): ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النِّساء: 43] أنَّه التُّراب الطَّاهر وجد على وجه الأرض، أو أخرج من باطنها، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف: 40][2]، وعليه؛ فإنَّ الصَّعيد أعمُّ من التُّراب، فكلُّ تراب صعيدٌ، وليس كلُّ صعيد ترابًا.

(1) الخفاجي، عنابة القاضي: 3/141.
(2) الأزهري، الزَّاهر في غريب ألفاظ الشَّافعيّ، ص: 34.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [المائدة: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر الأحكام التَّعبُّديَّة، وبين الالتزام بميثاق الله وشكره

لَمَّا ذكَر الله تعالى بعضَ الأحكام الشَّرعِيَّةِ في الآياتِ السَّابِقةِ؛ أَرْدَفَه بما يُوجِبُ على عِباده القَبولَ والإذعانَ، وذلك لِكَثْرة نِعَمِه سبحانه عليهم، ولأنَّ كثرةَ النِّعَم تُوجِبُ على المُنعَم عليه الاشتغالَ بخدمةِ المُنعِم، والانقيادَ لأوامرِه ونواهيه، كَما أنَّ الميثاقَ الَّذي واثقَ اللّه به عِبادَه؛ سببٌ مُوجِبٌ للانقيادِ للتَّكاليفِ، والتَّعبيرُ بالميثاق هنا يربطُ آيةَ الوضوء بما قبْلَها من تحريمٍ و تحليلٍ، لدخولِها جميعًا في سلْكٍ واحدٍ هو الوفاءُ بالعهودِ أو العقودِ الَّذي بدأتْ به السُّورة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾: النِّعمة: اليد، والصَّنيعة، والمنَّة، وما أنعم به عليك، وكذلك النُّعمى، فإن فتحت النُّون؛ مددت، فقلت: النَّعماء، والنَّعيم مثله، وفلان واسع النِّعمة، أي: واسع المال، وقولهم: (إن فعلت ذاك فبها ونعمت): يريدون نعمت الخصلة، والتَّاء ثابتة في الوقف[1]، وَقَوله تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التكاثر: 8]، أَي: تُسألون يَوْم الْقِيَامَة عَن كلِّ مَا استمتعتم بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَجمع النِّعْمَة: نِعَمٌ وأَنْعُمٌ كشِدَّة وَأَشُدٌّ، حَكَاهُ سِيبَوَيْه، قَال النَّابغة:

فَلَنْ أذْكُرَ النُّعْمانَ إلَّا بِصَالحٍ***فإنَّ لَهُ عِنْدِي يُدِيًّا وأَنْعُمَا[2].

والتَّنَعُّم: التَّرفُّه وَالاسْم: النِّعْمَةُ، ونَعِمَ الرَّجل يَنْعَمُ ويَنْعِم،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نعم).

(2) ابن منظور، لسان العرب: 3/227.

وَقَالَ ابْن جنِّي: نَعِمَ فِي الأَصْل: ماضي يَنْعَمُ، ويَنْعُمُ فِي الأَصْل: مضارع نَعُمَ، ثمَّ تداخلت اللُّغتان[1].

2) ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾: الميثاقُ: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمين وعَهْد، "والميثاق، والموثق، كمجلس: العهد، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]، أي: أخذ العهد عليهم: بأن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ وأخذ العهد بمعنى: الاستحلاف، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66]، أي: ميثاقًا، جمع: مواثيق على الأصل، ومياثيق على اللَّفظ[2]، قال الشَّاعر:

فإنْ شِئْتَ كانَتْ ذِمَّةُ اللّه بَيْنَنا***وأَعْظَمُ ميثاقٍ وعَهْدُ جِوَارِ[3].

3) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: وهي أسرار النُّفوس وخباياها، أو الضَّمائر والنِّيَّات[4]، واسْتشْهد صَاحب الْكَشَّاف عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ [الأنفال: 43]، على أَنَّ (ذَات) مؤنَّث (ذُو)، وَهُوَ مَوْضُوع لِمَعْنى: الصُّحْبَة؛ لأَنَّ اللَّبن يصحب الْإِنَاء، والمضمرات تَصْحَب الصُّدُور، قَالَ: ذَات الصُّدُور: مضمراتها[5]، وكما يقال للحال الَّتي بين النَّاس: ذات البين، يقال للأسرار: ذات الصُّدور[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أمر بذكر نعمة الله وميثاقه الغليظ وبتقوى العليم بذات الصُّدور

يأمرُ الله تعالى في هذه الآيةِ المباركةِ عبادَه المؤمنين المُوَحِّدين، بذِكْر نعمةِ الله عليهم بإرسالِ خيْرِ رُسلِه ﷺ لهم، وإنزالِه القرآنَ الكريمَ عليه، والَّذي فيه هُداهُم وسعادتُهم، ويأمرُ سبحانه عبادَه بأن يتذكَّروا عهدَهم لله تعالى ولرسولِه ﷺ على السَّمع والطَّاعة، ثمَّ يأمرُهم الله تعالى باجتناب نواهِيه، وتنفيذِ أوامرِه، فإنَّه سبحانه

(1) ابن سيده، المحكم: (نعم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثق).
(3) الشّيبانّي، الجيم: 1/61.
(4) أحمد مختار، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (صدر).
(5) البغداديّ، خزانة الأدب: 11/440.
(6) الْمُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (بين).

مُطَّلعٌ على عبادِه، رقيبٌ عليهم، وهذا حَرِيٌّ بأن يراقِبَ المسلمُ رَبَّه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ إفرادِ النِّعمِ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّذكيرُ بميثاقِ السَّمعِ والطَّاعةِ للهِ تعالى في المَنْشَطِ والمَكْرَه

المخاطَبُ في الآيةِ الكريمةِ هُم المؤمنون، والأمرُ هنا للامتنان، فقد طلبَ اللّه تعالى مِن عبادِه المُوَحِّدين المؤمنين أن يتذكَّروا أمرين: نعمتَه عليهم، وعهدَه المُؤَكَّدَ الَّذي أخذه عليهم، "فالآية الكريمة سائرة على هذا النَّسق البيانيِّ الرَّائع، والأمر في الآية لطلب تذكُّر أمرين جليلين، وهما نعمة اللّه تعالى الَّتي أنعمها على المؤمنين، وهي آلاء جليلة عظيمة، وتشمل نوعين من النِّعم: عامَّة وخاصَّة"[1].

أمَّا نِعْمتُه العامَّةُ؛ فتَعُمُّ جميعَ خَلْقه: مؤمنَهم وكافرَهم، ومنها نِعمةُ الوجودِ والعقلِ وتسخيرِ الكَوْنِ لهُم، وأمَّا نِعْمَتُه الخاصَّةُ، والمرادةُ هنا؛ فهي نِعْمَةُ الهداية للإسلام، وكَفى بها نِعْمةً، وتِلْكَ خاصَّةٌ بالمؤمنين، وتَتَوَلَّد مِن نِعمة اللّه الواحدةِ ما لا يُحصَى مِنَ النِّعمِ؛ ولَعَلَّ هذا مِن أسرارِ العُدولِ عنِ التَّعبير بالجمع (نِعَم) إلى المفرد ﴿نِعۡمَةَ﴾، كَما أَفْرِدَتِ النِّعْمَة، ولم تُجْمَع؛ "لئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الغرضَ تِعْدادُها، لا الحثُّ على شُكْرِها، بِتَأمُّلِ أنَّ هذا الجِنْسَ منَ النِّعَم، لا يقدرُ عليه غيرُه سبحانه"[2]، كما لم تُجْمَع أيضًا: "للإشعار بعِظَمها من غير جِهَة تضاعُفِها، ولأنَّ جُمْلَةَ النِّعَم نِعْمةٌ على طريقة الجِنْس، كما أنَّ جملة الماء ماءٌ، وجملة المنافعِ منفعةٌ"[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2054.

(2) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/39.

(3) ابن الجَوْزي، زاد المسير: 2/306، والواحديّ، البسيط: 7/288.

الذِّكر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، بمعنى: الاستحضار، لا الحفظ في الذَّاكرة:

استحضار تعظيم المُنعم باطِّراد من ذكر نِعَمِ الله المُراد

الذِّكر: هو حفظ الشَّيء أو استحضاره، فإذا كان حفظ الشَّيء، فهو حفظ لذاته، لكنَّ الاستحضار يكون لمعنى الشَّيء؛ لذلك هناك فرق بين حفظ الشَّيء واستحضار الشَّيء، هذا هو معنى الذِّكر[1]، وعليه فالذَّاكرة تتذكَّر، أي: تستحضر المعاني الَّتي قد تختفي في الحافظة، ولا شيء يضيع في الحافظة أبدًا، وهو من بديع صنع الله في معجزة خلق الإنسان، بحيث إذا جاء الاستدعاء؛ طفت المعاني على السَّطح، كأنَّ انطباعات الإنسان في نعم الله لا تُنسى أبدًا، وهي موجودة عند الإنسان، ولكنَّها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها[2].

عِلَّةُ إضافةِ النِّعْمةِ إلى الله تعالى في قوله: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾:

التَّذكيرُ بنِعْمَةِ الله والميثاقِ للقيامِ بحقِّهما في معاملة النَّاسِ

أُضيفتِ النِّعْمةُ إلى الله تعالى في قوله: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لتشريفِ النِّعْمةِ وتفخيمِها وتعظيمِها، بانتسابِها إلى الله تعالى المُنْعم، وفي الإضافة تخصيصُ ذلك الانتسابِ بالله؛ ليزيدَ الإحساسُ بفضلِ المُنْعِم سبحانه، وهي إضافةٌ تستجلِبُ الشُّكرَ ممَّن يُحسنُ استقبالَ النِّعمِ بالشُّكرِ والامتثالِ، فالله تعالى يأمر عباده "بذكر نعمه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة بقلوبهم وألسنتهم، فإنَّ في استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالى ومحبَّته، وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النَّفس بالنِّعَم الدِّينيَّة، وزيادة لفضل الله وإحسانه[3].

دلالة الخطاب بالذِّكر مع أنَّ النِّعم ماثلة للعيان، لا تقتضي النِّسيان:

ويُشْعِرُ قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بنِسيان نِعْمةِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2963.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2965.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/224.

المعاصي تزيل النِّعم، ومن جحد نعمة الله؛ فقد ظلم

اللّه، فكيفَ يُعقلُ نسيانُها مع أنَّها متواترةٌ على عبادِه في كلِّ وقت؟ ويُجابُ عن ذلك بأنَّ تلك النِّعمَ الإلهيَّةَ لكثرتِها وتعاقُبِها صارت كالأمرِ المُعتادِ، فصارت لغلبةِ ظهورِها وكثرتِها سببًا لوقوعِها في محلِّ النِّسْيانِ[1]، والإنسان بطبعه ينسى سوابغ النِّعم عليه، ويكفر بالنِّعم وإن تواردت؛ لأنَّ من طبعه النِّسيان، ومن دأبه الكفران، قال تعالى واصفًا حال جنس الإنسان مع النِّعم، فخاطبهم بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]، واللّه يعاقب كلَّ كفَّار بالنِّعمة، وكلَّ كفور بالملَّة، فتكون عاقبة أمره خسرًا، وقد قال الشَّاعر:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا***فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَدَاوِمْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإِلَهِ***فَإِنَّ الإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمْ[2].

دلالة المواثقة للميثاق في قوله: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾:

بيعة رسول الله ميثاق لا يجوز نقضه، ولا يصحُّ نكثه

قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾: هذا هو الأمرُ الثَّاني الَّذي ذَكَّرهم اللّه تعالى به، ومعنى المُواثقة: المُعاهدةُ الَّتي قد أُحْكِمَت بالعَقْد على ثِقَة[3]، وَالَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُورُ مِنَ المُفسِّرين كابن عبَّاس - رضي الله عنهما - هو العَهْدُ وَالمِيثَاقُ الَّذِي جَرَى لَهُمْ مع النَّبيِّ ﷺ على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ والمَكْرَه؛ إِذْ قَالُوا: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، كَمَا جَرَى لَيْلَةَ العَقَبَةِ وَتَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَأَضَافَهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][4]، والمعنى: "واذكروا - أيُّها المؤمنون - نعمةَ اللّه عليكم، بهدايتكم للإسلام الَّذي ارتضاه لَكُم، وعَهْدَه الَّذي عاهدَكم به؛ إذْ بايعتُم رسولَه محمَّدًا ﷺ على السَّمْع

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/179.
(2) البيتان منسوبان إلى الإمام علي: (رضي الله عنه)، وقيل: إنَّها لأبي الحسن الكنديِّ.
ينظر: القزوينيّ، مختصر شعب الإيمان للبيهقيّ، ص: 66، وفي أدب الدُّنيا والدِّين للماوردي: أنَّهما لعبد الله بن المبارك، ص: 40.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وَثِق).
(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/108.

والطَّاعة له، في المَنْشَطِ والمَكْرَه؛ إذْ قُلْتم: سَمِعْنا ما قلتَ لنا، وأخذتَ علينا مِنَ المواثيق، وأطعناك فيما أمرتَنا به، ونهيتَنا عنه... وكان التَّذكيرُ بهذين الأَمْرَين؛ ليقوم المؤمنون بحقِّهما فيما يتعلَّقُ بمعاملة الآخر، وفي علاقاتِهم بالنَّاس من حيث إقامةُ العدالةِ لذات اللّٰه تعالى، لا يريدون إلَّا وجهَه الكريمَ، ولِيكونَ القِسْطُ والميزانُ أساسَ أعمالِهم"[1].

التَّقْييدُ بالظَّرْفِ ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ وفائدَتُه:

دلالـةُ إضافَـةِ الميثاقِ إلَى الله مَعَ صُدُورِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأَوَّاه

يُذَكِّر اللّٰه تعالى عبادَه المؤمنين بعهدِه المؤكَّد الَّذي أخذه عليهم، وجاء قولُه: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، ظرفًا لقوله: ﴿وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، أو لمحذوفٍ مقدَّرٍ وقعَ حالًا مِنَ الضَّمير المجرورِ في ﴿بِهِۦٓ﴾، أو من ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ أي: كائنًا وقتَ قولِكم: سمعْنا وأطعْنا[2]. وفائدةُ التَّقييد بالظَّرف: "تأكيدُ وجوبِ مراعاتِه بتذكُّر قَبولِهم به، وإذعانِهم له، وتعهُّدِهم بالمحافظة عليه، وهو الميثاقُ الذي أخذه سبحانه على المسلمين حين بايعَهم رسولُ اللّٰه ﷺ على السَّمْعِ والطَّاعةِ في حال العُسْر واليُسْر، والمَنْشَط والمكْرَه"[3]، وإضافَةُ الميثاقِ إلَى اللّٰه تَعالى مَعَ صُدُورِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ "لِكَوْنِ المَرْجِعِ إلَيْه، كَما نَطَقَ بِهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]"[4]، وأيضًا للتَّأكيدِ على مكانةِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّه، وأنَّ العَهْدَ معه عَهْدٌ مع اللّٰه تعالى.

دلالةُ الأمرِ وغرضُه في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

العُـدولُ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ لِتَرْبِيَةِ المَهابَةِ وتَعْلِيلِ الحُكْمِ وتَقْوِيَتِه

والأمرُ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ للتَّحذير من نِسْيانِ نِعْمَةِ اللّٰه تعالى ونَقْضِ مِيثاقِه، أَوْ في كُلِّ ما تَأْتُونَ وما تَذَرُونَ، فَيَدْخُلُ فِيهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2056.
(2) السَّمين، الدُّر المَصون: 4/217.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.
(4) الآلوسِّي، روح المعاني: 6/82.

ما ذُكِرَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، والتَّقوى هنا: "هي لزوم الشَّريعة والقيام بها، عقيدة وعبادة وقضاء وأدبًا"[1]، والمعنى: "واتَّقوا اللّه وراقبوه في كلِّ ما تأتون وما تذرون، وصونوا أنفسكم عن كلِّ ما يكرهه لكم، فإنَّه - سبحانه - عليم علمًا تامًّا بخفيَّات الأمور الكامنة في الصُّدور، وبكلِّ ما يظهره الإنسان ويبطنه، وسيحاسبكم يوم القيامة على أعمالكم، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته"[2]، وعليه؛ فالمقام يتناسب مع التَّذكير بالتَّقوى؛ تلاؤمًا مع التَّذكير بالنِّعمة، والتَّحفيز على حفظ الميثاق مع اللّه ورسوله.

دلالة الاعتراض التَّذييليّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الجملة وَعِيدٌ وتحذيرٌ من نسيان نعمةِ اللّه تعالى، ونقضِ ميثاقه

الجُمْلَةُ اعْتِراضٌ تَذْيِيلِيٌّ، وتَعْلِيلُ الأَمْرِ بالاتِّقاءِ، وإِظْهارُ الاسْمِ الجَلِيلِ في مَوْقِعِ الإِضْمارِ؛ لِتَرْبِيَةِ المَهابَةِ، وتَعْلِيلِ الحُكْمِ، وتَقْوِيَةِ اسْتِقْلالِ الجُمْلَةِ"[3]، وقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أَيْ: بِسَرائِرِ الصُّدُورِ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، والجملةُ وَعِيدٌ وتحذيرٌ من نسيان نعمة اللّه تعالى، ونقضِ ميثاقه، وتأكيدُ علم اللّه بسرائر القلوبِ يبعثُ على تصحيحِ النِّيَّات، وإخلاصِ التَّوجُّهِ للّه تعالى، على ما فيه من تأكيدِ التَّحذيرِ السَّابقِ، وتأسيسِ تحذيرٍ جديدٍ منَ المحاسبةِ المُترتِّبةِ على العلم، وكلُّ هذا يصبُّ في التَّأكيدِ على تذكُّرِ نعمةِ اللّه وميثاقِه على السَّمعِ والطَّاعةِ، والامتثالِ والانقيادِ.

أثر المجاز المرسلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الصُّدور أعمُّ منَ القلوبِ فيما تَنطوِي عليه من فكر وأحاسيس

وفي ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه محليَّة؛ لأنَّ المقصودَ (القلوبُ)، والصُّدورُ أوعيةٌ لها، ومحلٌّ لوجودها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46]، وإنَّما آثرَ

(1) الجزائريّ، أيسر التفاسير: 1/601.
(2) طنطاويّ: التفسير الوسيط: 4/71.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.

ذكرَ الصُّدور؛ لأنَّها أعمُّ منَ القلوبِ فيما تَنطوي عليه من تفكُّرٍ وأحاسيسَ، وقد جاء في المفردات، وقال بعضُ الحكماء: حيثُما ذَكرَ اللّه تعالى القلبَ، فإشارةٌ إلى العقلِ والعلم، نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: 37]، وحيثُما ذَكرَ الصَّدرَ؛ فإشارةٌ إلى ذلك وإلى سائرِ القُوى منَ الشَّهوةِ والهَوى والغضبِ ونحوِها[1]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ [طه: 25] سؤالٌ لإصلاحِ تلك القُوى.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الميثاق والعهد:

يُقالُ: وثقتُ به، أي: اطمأننتُ إليه، ومنها: الشَّدُّ، وربطُ شيئين، ومنها ربط الكلامين ربطًا موثَّقًا، ومنه هذه الكلمة السَّامية: ميثاق اللّه تعالى، وهي تتضمَّن معنى التَّشديد في العهد؛ لأنَّه مأخوذ مع اللّه ﷻ، وأيُّ عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرَّبِّ؟ ويتضمَّن ميثاق اللّه تعالى، معنى: الاطمئنان والثِّقة؛ لأنَّ الاعتماد فيه على اللّه ﷻ وهو المعاذ الَّذي يعاذ به، والملجأ الَّذي يلجأ إليه[2]، و(الميثاق): هو ما وثِّق من العهود بيمين اللّه أو غيره، و(الـ) فيه للعهد، وقد ذكر اللّه أنَّه أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وهو ميثاق اللّه تعالى الَّذي حمله الأنبياء إليهم، ولكنَّهم لم يلتزموا به[3]، والميثاق عقد مؤكَّد بيمين وعهد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، [الأحزاب: 7]، وقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝١٥٤﴾ [النِّساء: 154][4]، والمواثقة: المعاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7][5]، وتواثقوا على كذا، تعاهدوا عليه، قال كعب بن زهير:

لِيُوفُواْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ تَوَاثَقُوا***بِخِيفِ مِنًى، وَاللّه رَاءٍ وَسَامِعُ[6].

وأمَّا العهد: فهو الموثق، ووضعه لما من شأنه أن يراعى ويتعهَّد، كالقول والقرار، واليمين

(1) الكفويّ، الكليات: (القلب).

(2) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 4/2070.

(3) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 8/3930.

(4) الأبياري، الموسوعة القرآنيَّة: 8/580.

(5) الجوهريّ، الصِّحاح: 4/1563.

(6) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/319.

والوصيَّة، والضَّمان والحفظ، والزَّمان والأمر، والعهد: توحيد اللّه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87][1]، وانطلاقًا من ذلك كلِّه، فإنَّ الميثاق عهدٌ، ولكنَّهُ يُوثَّق بما يُؤكِّده ويلزمُه في الذِّمَّة، وكلاهما واجب الوفاء، إلَّا أنَّ الميثاق مشدَّد فيه أكثر من العهد.

الصُّدور والقلوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ [الأنفال: 43]، أي: إنَّه ذو علم بما في صدور خلقه، وما تنطوي عليه ضمائرهم[2]، ومعنى ذات الصُّدور: أسرار النُّفوس وخباياها، وكذلك الضَّمائر والنِّيَّات[3]، وقد قيل: "إنَّ قلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعت من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور"[4]، "وأمَّا لفظ القلب، فيطلق في القرآن بمعنى: النَّفس المدركة، والرُّوح العاقلة الَّتي يموت الإنسان بخروجها منه، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، لا هذه المضغ اللَّحميَّة الَّتي لا تنتقل من مكانها... وقد يعزى إلى القلب، ويسند إليه ما هو من أفعال النَّفس أو انفعالاتها الَّتي يكون لها أثر في القلب الحسِّيِّ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 156]، وقوله: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التَّوبة: 15][5]، وقال إبراهيم بن عرفة: "كلَّما ذكر اللّه - جلَّ وعزَّ - في القرآن من العمى، فذمَّه؛ فإنَّما يريد به عمى القلب، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجِّ: 46][6]، والخلاصة: أنَّ الصُّدور تعني في القرآن النِّيَّات والضَّمائر المطويَّة في الجوانح، وأنَّ القلوب تطلق في القرآن بمعنى: النَّفس المدركة، والرُّوح العاقلة، وأنَّه يقال: (تعمى القلوب)، ولا يقال: (تعمى الصُّدور).

(1) الكفويّ، الكلّيّات: (العهد).
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 10/6589.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/801.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/258.
(5) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 7/599.
(6) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/4714.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الانقيادِ للتَّكاليفِ، وبين شكر نعم الله والوفاء بعهده المنيف

لَمَّا حَثَّ اللّه تعالى عبادَه على الانقيادِ للتَّكاليفِ؛ تعظيمًا لأمْرِ اللّه، وشفقةً على خَلْقِ اللّه، وذكَّر عِبادَه المؤمنين بنِعمِه العظيمة عليهم؛ طَلَبَ إليهم في هذه الآيةِ الكريمةِ، أن يشكروا تلك النِّعَمَ الجليلةَ، وذلك بالوفاءِ له بالعهدِ، ثم إنَّ هذا ثالثُ نداءٍ للَّذين آمنوا في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، فوحدةُ الأسلوبِ الإنشائيِّ في (نداء الَّذين آمنوا) ممَّا يحقِّقُ التَّرابُطَ الشَّكليَّ الَّذي يدعمُه التَّرابطُ المعنويُّ بما في حَيِّزِ النِّداء من تشريعاتٍ و توجيهاتٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: قوَّامٌ مبالغةٌ من قائم، والقائمُ بالشَّيء معناه: الكفيلُ به الَّذي يأتي به على وجه، "ومعنى القيامِ للّه: هو أن يقومَ له بالحقِّ في كلِّ ما يلزمُه القيامُ به منَ الأمرِ بالمعروف والعملِ به، والنَّهيِ عنِ المنكر وتجنُّبِه"(1)، والقوَّام من القيام الَّذي هو المراعاة للشَّيء والحفظ له(2).

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: القِسْطُ: هو النَّصيبُ بالعدل كالنِّصف والنِّصفة، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) الواحدي، البسيط: 7/290.
(2) الكفويّ، الكليَّات، ص: 739.

بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [يونس: 4]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن: 9]...والقِسْطُ: هو أن يأخذ قِسْط غيره، وذلك جُورٌ، والإِقْسَاطُ: أن يعطِيَ قِسْطَ غيره، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجل؛ إذا جارَ، وأَقْسَطَ؛ إذا عَدَل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: 15]، وقال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9][1].

3) ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يَحْمِلَنَّكُم، وجَرَمَ فُلانٌ: أذنَب، وارتكب الإثم، وأَجْرَمَ عليهم وإليهم جريمةً: جَنى جِنايةً، وجَرَمَ الرَّجُلَ: حَمَّلَه جُرْمًا، والمعنى هنا: لا يَحْمِلَنَّكُم بُغْضُ قَوْمٍ على تَرْك العدلِ، والاعتداءِ عليهم، "وقد قيل: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يدخلنَّكم في الجرم، كما يقال: أثمته، أي: أدخلته في الإثم، وقال أبو العبَّاس: قال الأخفش في قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ [المائدة: 2]، أي: لا يحقنَّ لكم؛ لأنَّ قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النَّحل: 62]، إنَّما هو حقٌّ أنَّ لهم النَّار"[2].

4) ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي: بُغْضٌ، يقال: شَنِئْتُ الرَّجُلَ أَشْنَؤُه شَنْئًا، وشنآنًا، وشُنئًا، ومشنأةً؛ إذا أبغضتُه، والمعنى: "لا يحملنَّكم بغض الكافرين وعداوتهم، أو بغض كلِّ من تبغضونه، وعداوة كلِّ من تعادونه، لأمر اقتضى بغضه أو عداوته من المؤمنين والكافرين، أو الموحِّدين والمشركين، لا يحملنَّكم ذلك البغض على أن تجوروا في الحكم؛ إذا حكمتم، أو في الشَّهادة؛ إذا شهدتم"[3].

5) ﴿لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾: التَّقْوى: فِعْل ما أَمَر الله به ورسولُه، وتَرْكُ ما نَهَى عنه الله ورسولُه ﷺ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يأمرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين المُوحِّدين في هذه الآيةِ الكريمةِ بتعظيم أوامره سبحانه، وإظهارِ العبوديَّةِ له، وتعظيمِ الرُّبوبيَّةِ، ووجوبِ القيامِ بالعدل حتَّى مع الأعداء، وتأديَةِ

(1) الرَّاغب، المفردات: (قسط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 11/46.
(3) الجزائريّ، نداءات الرَّحمن لأهل الإيمان، ص: 86.

حـثُّ المؤمنين عـلى الـعـدل مـع المـؤالـف والمـخـالـف؛ تحقيقًا لتقوى الله تعالى

الشَّهادةِ بِعَدْلٍ وصِدْقٍ دون مجاملةٍ ولا محاباةٍ، وأنْ يُلازموا العدلَ في شَهادَتِهم، ولا يَحمِلَنَّهم بُغضُهم وكراهِيَتُهم لقوم على ألَّا يَعدِلوا، بل عليهم مُلازمةُ العدلِ؛ فإنَّه أقربُ لتحقيقِ كمالِ التَّقوى، وليتَّقوا اللّٰه؛ فإنَّ اللّٰه خبيرٌ بما يعملونَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ التَّعبيرِ باللَّفظ﴿كُونُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾:

من كانت بالمولى تعالى كينونته؛ سعدت بين يدي الله وقفته

قَوْلُهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارَةٌ إلى التَّعْظِيم لأمْرِ اللّٰه، ومَعْنى القِيامِ للّٰه: هو أنْ يَقُومَ للّٰه بِالحَقِّ في كُلِّ ما يَلْزَمُهُ القِيامُ بِهِ مِن إظْهارِ العُبُودِيَّةِ، والانقيادِ له تعالى، وتَعْظِيمِ الرُّبُوبِيَّةِ[1]، وفي التَّعبيرِ بالكَوْنِ إشارةٌ بأن يجعلَ المُؤْمنُون القيامَ للّٰه تعالى أمرًا مستمرًّا، ونَهْجًا راسخًا في حياتِهم، بمداومةِ الطَّاعة للّٰه تعالى، والانقيادِ له؛ لِيَصِيرَ صِفَةً راسِخَة، "أي: كونوا من أصحاب الهمم العالية، وأهل الإيقان والإخلاص للّٰه تعالى، في كلِّ عمل تعملونه من أمر دينكم، أو أمر دنياكم، ومعنى الإخلاص للّٰه في أعمال الدُّنيا: أن تكون بنيَّة صالحة، بأن يريد العامل بعمله الخير، والتزام الحقِّ من غير شائبة اعتداء، على حقِّ أحد، أو إيقاع ضرر به"[2]، والعمل على أن يكون الحال منطبقًا على مراد اللّٰه، يحقِّق الكينونة العابدة، بما يضمن السَّعادة العاجلة والآجلة.

التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، مناط بعلوِّ الهمَّة، وقداسة المهمَّة:

دلالـة السِّياق على العبوديَّة المرومة بالقيامِ لـلـه بـاطِّـراد وديمومة

وقد أكَّد هذا المعنى التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، أيْ: مُجْتَهِدِينَ في القِيامِ، و(قَوَّام) معناها: مَن يُبالِغُ بالقِيامِ بالشَّيءِ وإتقانه، والإتيانِ به على الوجهِ الأكملِ، وكَوْنُه للّٰه تعالى، يعني: المبالغةَ في الفعل لأجلِ اللّٰه تعالى، لا لأحدٍ سواه سبحانه، والتَّعبيرُ

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/180.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/226.

بصيغةِ المبالغة لا يدلُّ على القيامِ لأمر اللّه تعالى مَرَّة ولا مَرَّتين، ولا حتَّى مَرَّاتٍ، بل يدلُّ على كثرةِ القيامِ والانقيادِ كَثْرةً مُطَّرِدةً لا تنقطعُ، وأسلوب النِّداء، وفعل الأمر قبل لفظ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، يؤكِّدان مطلوب اللّه في هذا المضمار؛ لتقرير استمراريَّة عبوديَّته ودوامها أخذًا لها بالقوَّة لا بالضَّعف، وبالهمَّة لا بالتَّواني، وقد قال اللّه ليحيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12].

عُبِّر بالتَّركيب: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير والعدل:

هناك اتِّصال وثيق، بين القوامة لله، والشَّهادة بالقسط

قوله: "﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: كلمة ﴿شُهَدَآءَ﴾ تدلُّ على الحضور، وعلى الإثباتِ، وعلى أداءِ الشَّهادة، وعلى الحُكْم، وهي في هذا المقام، تشملُ كلَّ هذا، فالمعنى: لا يحكمُون إلَّا بالقِسْط، أي: بالعدلِ، ولا يَشهدون إلَّا بالعدل، فحضورُهم في القِسْط، ونُطقُهم بالقسط، وحكمُهم بالقسطِ، وعملُهم بالقسط، فلا يكون إلَّا بالخير، وفي الخير، وللخير، وعُبِّر بقولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير كُلِّه، وهو أساسٌ من أُسُسِ هذا الدِّين، وعليه يقوم بناءُ الأمر، ولأنَّ العدلَ ميزانُ الخير؛ لذا أردفَ بقولِه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾[1]، تلك هي أخلاقُ الإسلام السَّامية، وشريعتُه العادلةُ، ومبادئُه النَّبيلةُ، ومجاهدةُ النَّفس للانقياد للّه في كلِّ أوامرِه ونواهيه وتعظيمِ شعائرِه، وتقديسِ ذاتِه سبحانه يُربِّي فيها الوازعَ الَّذي يدفعُها للحُكم بالقسطِ، والشَّهادةِ بالعدلِ، وهذه هي الصِّلةُ بين الجُملتَيْن: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ و﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ على الإنصاف، وأثرها في السِّياق.

أَجْرَمَ بمعنى: ارتكبَ إثْمًا؛ لأنَّه كَسَبَه، وقد يُضافُ إلى هذا المعنى: ولا يحمِلَنَّكم حِمْلًا آثمًا، ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، أي: بُغْضُكم الشَّديدُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2058.

لِقَومٍ على ألَّا تعدلُوا معهم، بل أعطُوهم حقوقَهم كاملةً دون نَقْصٍ، وقد وَرَدَ نَهْيٌ للمؤمنين عنِ الاعتداء على المُشركين الصَّادِّين عنِ البيت الحرام، بألَّا يكونَ البُغضُ الشَّديدُ سببًا للاعتداء، ولا سببًا لِمَنْعِ الحُقوق، بل يُعْطَى كُلُّ ذي حَقٍّ حقَّه ولو كان عدُوًّا شرسًا؛ فالحقُّ ليس مِنحةً لشخصٍ يُعطيه؛ إنْ أَحَبَّ، ويمسكُه؛ إنْ أبغَضَ، بل إنَّ التَّمكينَ مِنه أَمْرٌ مُقَدَّسٌ، أَمَرَ اللّه تعالى به، وحَثَّ عليه[1]، والعَدْلُ أقربُ إلى التَّقوى، وأَدْخَلُ في مناسَبَتِها، لكونِهِ لُطفًا فيها، وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجودَ العَدْلِ مع الكفَّارِ الَّذين هم أعداءُ اللّه، إذا كان بهذه الصِّفَةِ منَ القُوَّةِ؛ فما الظَّنُّ بوجوبِه مع المؤمنينَ الَّذين هم أولياؤُه وأحِبَّاؤُه؟[2]، ولا يخفَى ما في مادَّة الفعل ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ منَ الإيحاء بالبشاعة، وما فيه منَ التَّنفير والتَّبغيض منَ الظُّلم، وفي ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بغض وزيادة هي الازدراء والتقذُّر، ويقال: شنِئْتُه: تقذَّرته بُغضًا له[3]، وهذا يعني: أنَّه مهما كان في قوم من عيوبٍ ومساوئَ، تدعو لبُغضهم، فلا يمنعنَّكم هذا من معاملتِهم بالعدل، وقد قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لأبي مريم الحنفيِّ: "واللّه لا أُحبُّكَ، حتَّى تُحبَّ الأرضُ الدَّمَ المسفوح، قال: فتمنعني لذلك حقًّا؟ قال: لا... قال: فلا ضَير، إنَّما يأسفُ على الحبِّ النِّساء"[4].

من التَّربية الرَّائدة العدلُ مع الصَّديق المساند والعدوِّ المعاند

إقامة العدل مع الأذى والشَّنآن من أصعب الممارسات على الإنسان:

الآية تأمر المؤمنين بأمر هو في غاية المشقَّة على النُّفوس البشريَّة، وهو الحذر من الميل عن العدل مع الشَّانئ المناوئ، وتلك مرتبة أعلى من ترك الاعتداء والوقوف عنده، تسمو إلى إقامة العدل، مع الشُّعور بالكراهيَةِ والبغضاء؛ لأنَّ "التَّكليف الأوَّل سلبيٌّ،

التَّوجيه إلى ضبط النَّفس لإقامة العدل مهما كانت المشاعر

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2059.

(2) أبوحَيَّان، البحر المحيط: 3/440.

(3) الراغب، المفردات: (صدر).

(4) الجاحظ، البيان والتّبيين: 2/60.

ينتهي عند الكفِّ عن الاعتداء، فأمَّا التَّكليف الثَّاني؛ فأشقُّ؛ لأنَّه إجراءٌ إيجابيٌّ، يحمل النَّفس على مباشرة العدل مع المبغوضين المشنوئين "[1].

السِّرُّ في تقدُّم القوامة بالقسط على الشَّهادة في النِّساء، وتأخُّرها في المائدة:

ورد في سورة النِّساء [الآية: 135] بتقدُّم القوامة بالقسط، على الشَّهادة للَّه في قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، على عكس ما في سورة المائدة، حيث تقدَّمت القوامة للّه على الشَّهادة بالقسط في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، فما السِّرُّ في هذه المُغايرةِ؟ الجوابُ: وردت آيةُ النِّساء في سياق "آياتِ القضاءِ في الحقوق... ثمَّ أردفت بأحكام المعاملةِ بين الرِّجال والنِّساءِ، فكان الأهمُّ فيها أمرَ العدل، فالشَّهادةُ، كما يتطلَّبُه السِّياقُ؛ لذا قُدِّم فيها قولُه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فالقسطُ فيها: هو العدلُ في القضاء؛ لذلك عُدِّي إليه بالباء الَّتي تدلُّ على المُلاصقةِ والملابسةِ؛ إذْ قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: التزمُوا العدلَ التزامًا تامًّا، أمَّا آيةُ المائدة؛ فمقامُها التَّذكيرُ بميثاق اللّه، فكان منَ المناسبِ الوفاءُ بعهود عبادِه له سبحانه، لذلك عُدَّي قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ باللَّام الَّتي تفيدُ الاختصاصَ؛ ولأنَّ العهدَ شهادةٌ أُتبِعَ قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، بقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أي: شهداء بالعدل، شهادةً لا حَيف فيها ولا زورٌ، وأجدرُ شهادةٍ بذلك شهادتُهم للّه تعالى، وقد حصلَ من مجموع الآيتين: وجوبُ القيام بالعدل، والشَّهادةِ به، ووجوبُ القيام للّه، والشَّهادةِ له"[2]، ولأبي حَيَّانٍ الأندلسيِّ توجيهٌ لطيفٌ ناظِرٌ فيه لمقام الآيتين وسياقهما، خاصَّةً سورة النِّساء[3]، إذًا الخلاصةُ في توجيهِ هذا التَّقديم والتَّأخير في آيتَي النِّساء والمائدة: هو السِّياقُ والمَقامُ، حيث ورد هذا التَّغايرُ وَفْقًا لِمَا استدعاه سياقُ كُلٍّ منَ الآيتين ومقامُهما.

---

(1) صافي، الجدول: 5/291.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/134-135.

(3) يقول أبو حيَّان: "تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ الجُمْلَةِ الْأُولى في النِّساء، إلاَّ أنَّ هُناكَ بُدِئَ بِالقِسْط، وهُنا أُخِّر، وهذا مِنَ التَّوَسُّعِ في الكَلامِ والتَّفَنُّنِ في الفَصاحَة، ويَلْزَمُ مَن كانَ قائِمًا لله أنْ يَكُونَ شاهِدًا بِالقِسْط، ومَن كانَ قائِمًا بِالقِسْطِ أنْ يَكُونَ قائِمًا لله، إلَّا أنَّ الَّتِي في النِّساءِ جاءَتْ في مَعْرِضِ الاِعْتِرافِ عَلى نَفْسِهِ وعلى الوالِدَيْنِ والأقْرَبِين، فَبُدِئَ فِيها بِالقِسْطِ الَّذِي هو العَدْلُ والسَّواء مِن غَيْرِ مُحاباةِ نَفْسٍ ولا والِدٍ ولا قَرابَةٍ، وهُنا جاءَتْ في مَعْرِضِ تَرْكِ العَداواتِ والإحَن، فَبُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله تَعالى أوَّلًا، لِأنَّهُ أرْدَعُ لِلْمُؤْمِنِين، ثُمَّ أرْدَفَ بِالشَّهادَةِ بِالعَدْل، فالَّتِي في مَعْرِضِ المَحَبَّةِ والمُحاباةِ بُدِئَ فِيهِ بِما هو آكَدُ وهو القِسْط، وفي مَعْرِضِ العَداوَةِ والشَّنَآنِ بُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله، فَناسَبَ كُلُّ مَعْرِضٍ بِما جِيءَ بِهِ إلَيْه، وأيْضًا فَتَقَدَّمَ هُناكَ حَدِيثُ النُّشُوزِ والإعْراض، وقَوْلُه: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ [النساء: 129]، وقَوْلُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾ [النساء: 128]، فَناسَبَ تَقْدِيمُ القِسْط، وهُنا تَأخَّرَ ذِكْرُ العَداوَةِ فَناسَبَ أنْ يُجاوِرَها ذِكْرُ القِسْط، وتَعْدِيَةُ يَجْرِمَنَّكم ب: (عَلى) إلَّا أنْ يُضَمَّنَ مَعْنى ما يَتَعَدّى بِها، وهو خِلافُ الأصْل، ينظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/454-455.

دلالة التَّصريح بالأمرِ بالعدلِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

العـدل أقـربُ الـوسـائـلِ لـلـوصـولِ إلى الـتَّـقـوى، باعتبارها غاية عظمى

أمرَ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين بالعدلِ مرَّتين: الأولى: ضمنيَّةٌ في قولِه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، والثَّانيةُ: صريحةٌ في قولِه: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وبَيَّنَ أنَّ العدل بِمَكانٍ مِنَ التَّقوى بَعْدَ ما نَهاهم عَن تَرْك العدلِ؛ ولو مع الكفَّار، وفي الأمرِ الصَّريح مزيدُ حثٍّ وترغيبٍ في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، أي: العَدْلُ أقْرَبُ لِلتَّقْوى، وإذا كانَ هَذا لِلْعَدْلِ مَعَ الكُفَّارِ، فَما ظَنُّكَ بِالعَدْلِ مَعَ المُؤْمِنِينَ؟ وقولُه: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ يُشعرُ أنَّ التَّقوى غايةٌ عظيمةٌ، وهدفٌ راقٍ، وقد تعدَّدت وسائلُ الوصولِ إليه، لكنَّ العدلَ هو أقربُ تلك الوسائلِ الَّتي يُتوَسَّل بها للوصولِ إلى تلك الغايةِ، ثُمَّ أمَرَ اللّه تعالى بِالتَّقْوى إثْرَ ما بَيَّنَ أنَّ العَدْلَ أقْرَبُ لَهُ؛ اعْتِناءً بِشَأْنِهِ وتَنْبِيهًا عَلى أنَّهُ مِلاكُ الأمْرِ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أيْ: مِنَ الأعْمالِ، فَيُجازِيكم بِذَلِكَ، وتَكْرِيرُ هَذا الحُكْمِ، إمّا لِاخْتِلافِ السَّبَبِ، كَما قِيلَ: إنَّ الأُولى [المائدة: 2]: نَزَلَتْ في المُشْرِكِينَ، وهَذِهِ في اليَهُودِ، أوْ لِمَزِيدِ الِاهْتِمامِ بِالعَدْلِ والمُبالَغَةِ في إطْفاءِ ثائِرَةِ الغَيْظِ[1]، وجمْلَةُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِما قَبْلَها، وحَيْثُ كانَ مَضْمُونُها مُنْبِئًا عَنِ الوَعْدِ والوَعِيدِ؛ عَقَّبَ بِالوَعْدِ لِمَن يُحافِظُ عَلى طاعَتِهِ تَعالى، وبِالوَعِيدِ لِمَن يُخِلُّ بها[2]، والظَّاهرُ أنَّ هذا ليس من تكرير التَّقوى؛ لأنَّ الأُولى في العدل، والثَّانية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما هو أعمُّ منَ العدل بدليل حذْفِ مُتعلَّق ﴿وَٱتَّقُواْ﴾.

بيان ذكر تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم معنى في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

ومعنى تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم: أنَّه "تقدَّم ذكره بوجه ما، سواء

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/133.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/12.

الضَّمائر وسائل نحويَّة وبلاغيَّة؛ لارتباط المعاني وانسجام السِّياقات

كان التَّقدُّم لفظًا، بأن يكون المتقدِّم ملفوظًا تحقيقًا، مثل: (ضرب زيدٌ غلامَه)، أو تقديرًا مثل: (ضرب غلامَه زيدٌ)، أو كان التَّقدُّم معنًى: بأن يكون المتقدِّم مذكورًا من حيث المعنى، لا من حيث اللَّفظ، سواء كان ذلك المعنى مفهومًا من لفظ بعينه، نحو: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، فإنَّ مرجع ضمير (هو): (العدل)، المفهوم من قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، أم من سياق الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾؛ لأنَّه لَمَّا تقدَّم ذكر الميراث؛ دلَّ على أنَّ ثمَّة مورِّثًا، وجاء الضَّمير في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾، فكأنَّه تقدَّم ذكره معنًى[1].

دلالة العُدولِ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

التَّقوى معرفة يقينيَّة، بأنَّ الله خبير بالأحوال الظَّاهرة والخفيَّة

العدولُ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ المعتاد - وقد ذكر المتعلِّق - أن يقال: (واتَّقُوه إنَّه خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ)؛ ولكنَّ إيراد الاسم الظَّاهر، غايته: تربية المهابةِ لاسم اللّه الأعظم الَّذي هو علم على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وحتَّى يتناسبَ ذلك مع مضمونِ التَّهديدِ في السِّياق، حيث يخبر أنَّ المدسوس في السَّرائر، والمدفون في البواطن، لا يخفى منه على اللّه شيء؛ لأنَّه المحيط بكلِّ شيء علمًا، وهذا نوع من التَّنبيه المقرِّع عن المخالفة، والدَّاعي إلى الالتزام بالهدى؛ حتَّى لا يفقده اللّه حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه.

أُتِيَ بصفةِ ﴿خَبِيرُۢ﴾؛ ليُنَبَّه بها على الصِّفة القلبيَّةِ الَّتي لا تخفى على الله:

من راقب الله في الخلوات؛ ظهرت شواهد خشيته في الجلوات

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾: الخبيرُ أدقُّ منَ العليم؛ لأنَّ الخبيرَ منَ الخُبْرِ، وهو العِلْمُ ببواطنِ الأَمْرِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المزارعةُ: مخابرةً؛ وسُمِّي الزَّارِعُ: خبيرًا؛ لأنَّه يدسُّ الحبَّ في الأَرْضِ، فيَختفي، فالخبيرُ هو العليمُ بخفايا الأُمورِ، وقد جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ختامًا للآية الكريمةِ، وتعليلًا لما قبْلَها، ولأنَّه كما

(1) التَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/219.

كان البُغْضُ محلُّه القلبُ، وهو الدَّاعي إلى تركِ العدلِ، أُمِرَ بالتَّقوى، وأُتِيَ بصفة ﴿خَبِيرٌ﴾ الَّتي تختصُّ بما لَطُف إدراكُه، فناسبَ هذه الصِّفةَ أن يُنَبَّه بها على الصِّفةِ القلبيَّةِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

القسط والعدل:

(القسط): هو العدل، قال الزَّجَّاج: القسط مصدر يوصف به، تقول: "ميزانٌ قسطٌ وموازينُ قسطٌ، والمعنى: ذات قسط"[2]، وهو مرويٌّ عن العرب، نحو قول أبي طالب:

بِميزانِ قِسْطٍ لَا يَغِلُّ شَعِيرَةً***وَوَزَّانِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ[3].

والعدْل: ما قام في النُّفوس أنَّه مستقيم لا ينكره مميِّز[4]، وهو: عبارة عن الأمر المتوسِّط بين طرفي الإفراط والتَّفريط، وفي اصطلاح النَّحويِّين: خروج الاسم عن صيغته الأصليَّة إلى صيغة أخرى، وفي اصطلاح الفقهاء: من اجتنب الكبائر، ولم يصرَّ على الصَّغائر، وغلب صوابُه، واجتنب الأفعال الخسيسة، كالأكل في الطَّريق والبول، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحقِّ[5]، والعدل: القصد في الأمور، وهو خلاف الجور، يقال: عدل في أمره عدلًا، من باب ضرب، وعدل على القوم عدلًا أيضًا، ومعدِّلة: بكسر الدَّال وفتحها، وعدل عن الطَّريق عُدولًا: مال عنه، وانصرف، وعدل عدلًا من باب تعب: جار وظلم[6]، والقسطاس: الميزان، قيل: عربيٌّ مأخوذ من القسط، وهو العدل، وقيل: روميٌّ معرَّب، بضمِّ القاف وكسرها، وقرئ بهما في السَّبعة، والجمع قساطيس[7]، وعليه؛ فإنَّ العدل أعمُّ من القسط؛ لأنَّ القسط: يناسب الجزاء الحسن فقط، بينما العدل: يشمل الجزاء الحسن وضدَّه، وأيضًا فإنَّ القسط: هو العدل في الظَّاهر، بينما العدل: يكون في الظَّاهر والباطن جميعًا... و القسط: ضدُّه الجور، والعدل: ضدُّه الظُّلم.

---

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/440.
(2) الواحديّ، الوسيط: 3/239.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/169.
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 147.
(6) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (عدل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (قسط).

الشَّنآن والعداوة والبغضاء:

الشَّنآن: مصدر بمعنى: شدَّة البغض، يُقَالُ: شَنِئَ فُلَانٌ فُلَانًا؛ إِذَا أَبْغَضَهُ، وَهُوَ الشَّنَآنُ، وَرُبَّمَا خَفَّفُوا، فَقَالُوا: الشَّنَانُ، وَأَنْشَدُوا:

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِي *** وَإِنْ لَامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَأَفْنَدَا

وَرَجُلٌ مِشْنَاءٌ عَلَى مِفْعَالٍ؛ إِذَا كَانَ يُبْغِضُهُ النَّاسُ[1]، وأمَّا العداوة؛ فاسم عامٌّ من العدوِّ، يقال: (عدوٌّ بيِّنُ العداوة)... قال ابن الأنباريِّ: قولهم: (هو عدوُّه)، معناه: يعدُو عليه بالمكروه، ويظلمه[2]، والْعَداوَةُ أخصُّ من البَغْضاءِ، لأنَّ كلَّ عدوٍّ يُبْغِضُ، وقد يُبْغِضُ من ليس بعدوٍّ، وكأنَّ العداوة شيْءٌ مشتهر، يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النُّفوس، وقد ألقى اللّه الأمرين على بني إسرائيل[3]، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: 14]، ويظهر أنَّ العداوة ملمح عامٌّ ومألوف، وعليه فُطر بنو آدم، وإليه ندبوا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [البقرة: 36]، فإذا اشتدَّت العداوة؛ كانت بغضاء، فإذا اشتدَّت البغضاء؛ كان الشَّنآن.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/217.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/72.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/216.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة: 9]

الَّـذيـن آمـنـوا وعملوا صالحًا، مـوعـودون بالمغفرة والأجر العظيم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اشتلمتِ الآياتُ الكريمةُ السَّابقةُ على أوامرَ مِنَ اللّه تعالى لعبادِه ونواهٍ، ووَعْدٍ ووعيدٍ، فذَكَر هنا وعْدَ مَن اتَّبَعَ أوامِرَه، واجْتَنَبَ نَواهِيَه، وهذا الوعدُ استئنافٌ بيانيٌّ، وكأنَّه لَمَّا حثَّ على الوفاءِ بعهدِ اللّه وميثاقِه، وأمرَ بالعدل، وألمَحَ للجزاء بذكْرِ العلم تارةً والخبر تارةً؛ استشرفتِ النُّفوسُ لمعرفة ذلك الجزاءِ، فجاء قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ مُجيبًا على ذلك الاستشرافِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَ﴾: من وعدَ: والوَعْدُ مِنَ المَصادرِ الَّتي تُجمعُ، وجَمْعُها: الوُعودُ[1]، ويُقالُ: وَعَدْتُ الرَّجُلَ، تُريدُ وَعَدْتُه خيْرًا، وأَوْعَدْتُ الرَّجُلَ، تُريدُ أَوْعَدْتُه شَرًّا، وإذا ذُكِرَ المَوْعُودُ؛ قيل فيهما جَميعًا: واعَدْتُه، وإذا لَمْ تَذْكُرِ المَوْعُودَ؛ قُلْتَ في الخَيْرِ: وَعَدْتُه، وفي الشَّرِّ: أَوْعَدْتُه[2]، الوَعْدُ يكون في الخير والشَّرِّ، يقال: وَعَدْتُه بنفعٍ وضرٍّ وَعْدًا ومَوْعِدًا ومِيعَادًا، والوَعِيدُ في الشَّرِّ خاصَّة[3]، والموعدة: اسم للعدة، قال جرير:

تُعَلِّلُنَا أُمَامَةُ بِالعِدَاتِ***وَمَا تَشْفِي القُلُوبَ الصَّادِياتِ[4].

والخلف في الوعد عند العرب: كذبٌ، وفي الوعيد: كرمٌ، قال الشَّاعر:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وَعَدَ).
(2) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/321.
(3) الرَّاغب، المفردات: (وعد).
(4) الخليل، العين: (وعد).

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ***لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي[1].

2) ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: والغَفْر: السِّتر والتَّغطية، ومنه المغفرة؛ لأنَّه يسترُ الرَّأس، وقيل: هو إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُه عنِ الدَّنس[2]، والغُفْرَانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه، هو أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذابُ[3]، و"عَن اللَّحيانيِّ: وغفيرًا، وغفيرة، وَمِنْه قَول بعض الْعَرَب: (أَسأَلك الغفيرة، والنَّاقة الغزيرة، والعزَّ في الْعَشِيرَة، فَإِنَّهَا عَلَيْك يسيرَة) ... واستغفر اللّه من ذَنبه، وَاسْتَغْفرهُ إِيَّاه، على حذف الْحَرْف: طلب مِنْهُ غفره، أنشد سِيبَوَيْه:

أَسْتَغْفِرُ اللّه ذَنبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ***رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ القَوْلُ وَالعَمَلُ"[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وعــد اللـه العـامـلـين الـصَّـالـحـات بالأجر العظيم وغفْر السَّيِّئات

وعد اللّه الَّذين صَدَّقوا اللّه ورسولَه وعملوا الصَّالحاتِ، والتزموا الطَّاعاتِ، وتَجَنَّبُوا المعاصي بالمغفرة لذنوبهم، وبالثَّوابِ العظيم، وهو دخولُ الجنَّة، واللّه تعالى لا يُخلفُ وعدَه، والآية تضمَّنت بشرى سارَّة لهم؛ لأنَّهم هم أهل الإيمان وصالح الأعمال رضي الله عنهم وأرضاهم[5]، ووعد اللّه وعد مطلق، لا إخلال به؛ لأنَّ الَّذي يخلُّ بالوعد هو الإنسان الَّذي تعتريه الأغيار[6]، ولذلك فالمغفرة منه تعالى تامَّة، والأجر لديه عظيم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عنِ الوَعْد بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وعْدُ الله يقين، لمن به يستعين

عُبِّرَ عنِ الوعد بالفعل الماضي؛ للدِّلالة على تحقُّق وقوعه، وكأنَّه وَقَع، ويُخْبَرُ عنه، والغيبيُّ المستقبلُ في يقين المؤمن واقعٌ، أو كأنَّه قد وقع، فلا فرقَ عنده بين ماضٍ ومستقبلٍ طالما كان منَ اللّه تعالى،

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (وعد).
(2) السَّمين، عُمْدة الحُفَّاظ: (غَفَرَ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (غَفَرَ).
(4) ابن سيده، المحكم: (غَفَرَ).
(5) الجزائري، أيسر التَّفاسير: (غَفَرَ).
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2978.

وقد "تفضَّل اللّه، فوعد الَّذين صدَّقوا بدينه، وعملوا الأعمال الصَّالحة: أن يعفو عن ذنوبهم، ويجزل لهم الثَّواب"(1)، ووعد اللّه واقع لا محالة؛ إذْ ما تجري به إرادته، يقع به قدره، واللّه يقول في محكم التِّبيان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9].

علَّة حذف المفعول الثَّاني لـ ﴿وَعَدَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الموعود المحذوف هـو (الـجـنَّـة)، والجنَّة مسبَّبة عن المغفرة

و(وَعَدَ) منَ الأفعالِ المتعدِّيةِ الَّتي تنصبُ مفعولَيْن، وحُذفَ المفعولُ الثَّاني لـ﴿وَعَدَ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، حيث لم يُذكرِ الموعودُ؛ لتذهبَ النَّفسُ في تخيُّلِه كلَّ مَذْهب، وليَدُلَّ أيضًا على عموم هذا الوعدِ، لِكُلِّ خيرٍ دنيويٍّ وأُخرويٍّ، وجملة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾: تفسيريَّة للمفعول الثَّاني للفعل (وعد)، والتَّقدير: (وعدهم الجنَّة)، من قبيل تفسير السَّبب للمسبَّب، فالجنَّة مسبَّبة عن المغفرة والأجر(2).

علَّة الإخبار عن الوعد دون الموعود في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الـخُـلْـفُ في حقِّ الله مستحيل؛ لأنَّـه تـعـالى لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ

يقول الفخرُ الرَّازيُّ: "الإخبارُ عن كونِ هذا الوعدِ وعْدَ اللّه تعالى أقوى، والإلهُ هو الَّذي يكونُ قادرًا على جميع المقدورات، عالِمًا بجميع المعلومات، غَنيًّا عن كلِّ الحاجات، وهذا يمتنعُ الخُلْفُ في وعدِه؛ لأنَّ دخولَ الخُلْفِ إنَّما يكون إمَّا للجهلِ حيث ينسَى وعدَه، وإمَّا للعجزِ حيث لا يقدرُ على الوفاء بوعْدِه، وإمَّا للبخلِ حيث يمنعُه البخلُ عن الوفاء بالوعد، وإمَّا للحاجة، فإذا كان الإلهُ هو الَّذي يكونُ مُنَزَّهًا عن كُلِّ هذه الوُجوهِ، كان دخولُ الخُلْفِ في وعدِه مُحَالًا، فكان الإخبارُ عن هذا الوعد أوكدَ وأقوى من نفْسِ الإخبار عنِ الموعود به"(3).

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2978.
(2) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/219.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.

دلالة إسناد الوعدِ إلى الله في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الوعد من الله يقين وطمأنينة، وهو القادر على إنفاذ وعده دون سواه

إسناد هذا الوعدِ إليه سبحانه في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾، من باب التَّشريفِ للوعد، وما نسب إلى العظيم، فهو عظيم، وتلك العظمة المتفرِّدة، تُضفِي على نفسِ المؤمن يقينًا واطمئنانًا؛ لأنَّ الواعدَ هو الله الَّذي لا يُخلف وعدَه، فما وعد به حقٌّ لا ريب فيه(1).

إفادة تقديم الخبرِ على المبتدأ الاختصاص في قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾:

إجــراء الـوَعْـدِ مجرى القَوْل، بـوعـدهـم بمضمونه من المَغْفِرَة والأجْرِ العَظِيم

أفاد تقديمُ الخبر شبهِ الجُملة في قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ الاختصاصَ، حيث قصَرَ استحقاقَ الجزاءِ المذكورِ والوَعْدَ الإلهيَّ على الَّذين آمنوا وعملُوا الصَّالحاتِ، فهم وحدهم الحقيقُون بهذا الوعد، وفي هذا إجراء الوَعْدِ مجرى القَوْل، "كأنَّه قيل: وعدهَمُ هذا القَوْل، وإذا وَعَدَهُمْ من لا يَخْلِفُ الميعاد؛ فَقَدْ وعدهم مَضْمُونَهُ من المَغْفِرَة والأجْرِ العَظِيم، أي: وعدهُم بهذَا المَجْمُوع، وإجراء الوَعْدِ مَجْرى القَوْل مذهب كُوفِيٌّ"(2).

جُملةُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ بيانٌ للوَعْد في صدرِ الآيةِ الكريمةِ:

إجـمـالُ الأجـرِ العـظيـمِ يـزيـدُ المُـسـتـشـرفَ تشويقًا لمعرفة كُنْهِه

وقد وقعتْ جملةُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ "بيانًا للوَعْد في قوله في صدرِ الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كأنَّه قال: قَدَّم لهم وَعْدًا، فقيل: أيُّ شيءٍ وَعَدَه لهم، فقيل: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، أو يكونُ على إرادة القول بمعنى: وعدَهم، وقال: لهم مغفرة"(3)، وهذه الجملةُ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، تُلمحُ لمتعلَّقِ الوعدِ المحذوفِ (المفعول الثَّاني)، وتشيرُ إلى أنَّه من نوع المغفرة والأجر العظيم، لكنَّ إجمالَ الأجر العظيم يزيدُ المُستشرفَ تشويقًا لمعرفة كُنْهِ ذلك الأجرِ، وهذا من بليغ الأسلوب في تبيان الأمور وإيضاح الوعود.

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/243.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/327.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ استحقاقِ المؤمنين المغفرةَ والأجرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّر عنِ استحقاقِ المؤمنين المغفرةَ والأجرَ، بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ والرُّسوخ، فقال: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، والتَّنْكيرُ في ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ للتَّفْخيم، وللدَّلالةِ على عظمةِ تلك المغفرةِ، وأنَّها بلغت منَ العظمةِ حَدًّا لا يُحيطُ به وَصْفٌ، والمقصودُ بالأجرِ الثَّوابُ، وتسميتُه أجرًا؛ للإشارة إلى أنَّه استحقاقٌ عن عَمَلٍ صالحٍ عملُوه، وأنَّ اللّٰه لا يضيعُ أجرَ من أحسن عملًا، وهذا تَفَضُّلٌ مِنَ اللّٰه تعالى على عِباده ومِنَّةٌ وكَرَمٌ منه، وَوَصْفُ الأجرِ بالعظيمِ زيادةُ تأكيدٍ على فخامتِه.

تسميَةُ الثَّواب أجرًا؛ إشارة إلى أنَّـه استحقاقٌ عن عَمَلٍ صالحٍ عملُوه

سِرُّ تقديمِ الوعْدِ بالمغفرة على الوعْدِ بالأجرِ العظيمِ:

قُدِّمَ الوعدُ بالمغفرة على الوعدِ بالأجرِ العظيم لعبادِ اللّٰه المؤمنين، كما وردَ في الآية الكريمةِ، من بابِ التَّخليةِ قبْلَ التَّحليةِ، وفيه مِنَّةٌ منَ اللّٰه تعالى على عبادِه وفضلٌ منه سبحانه مراعاةً لجنابِهم، بيانُ ذلك أنَّه: "لَمَّا كانَ المَوْعُودُ شَيْئَيْنِ: فَضْلًا وإسْقاطَ حَقٍّ؛ قَدَّمَ الإسْقاطَ؛ تَأْمِينًا لِلْخَوْفِ، فَقالَ واضِعًا لَهُ مَوْضِعَ المَوْعُودِ في صِيغَةٍ دالَّةٍ عَلى الثَّباتِ والِاخْتِصاصِ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، أيْ: لِما فَرَطَ مِنهُمْ؛ ولِما طُبِعَ الإنْسانُ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ نِسْيانًا، أوْ عَمْدًا بِعَمَلِ الواجِباتِ؛ إنْ كانَ صَغِيرًا، وبِالتَّوْبَةِ؛ إنْ كانَ كَبِيرًا، وفِيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهُ لا يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يَقْدُرَ اللّٰه حَقَّ قَدْرِه، ولَمّا أمَّنَهم بِالتَّجاوُزِ؛ أتْبَعَهُ الجُودَ بِالعَطاءِ، فَقالَ: ﴿وَأَجۡرٌ﴾، أيْ: عَلى قَدْرِ دَرَجاتِهِمْ مِن حُسْنِ العَمَلِ ﴿عَظِيمٞ﴾، أيْ: لا يَدْخُلُ تَفاوُتُ دَرَجاتِهِ تَحْتَ الحَصْرِ"(1).

لا يخلُو أحَدٌ مِنَ اقـترافِ ذَنْـبٍ، وغـفـران الـلـه مرتبطٌ بعطائه الفيَّاض

سِرُّ إيثار السِّياق قولَه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على قوله: (وعملوا السّيّئات):

طَرَح صاحبُ مفاتيحِ الغيبِ تساؤلًا وجيهًا، وأجاب عنه، حيث تساءلَ عن سَبَبِ إيثارِ ما وَرَد في الآيةِ الكريمةِ من قولِه تعالى:

وعـد الـلـه بـمـعـامـلـة الـطَّـائـعـين والـعـاصـين بـالمسامحة لا بالمشاححة

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/45.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، حيث كان الظَّاهرُ أن يقال: (وعملُوا السَّيِّئات)؛ ليتناسبَ مع الوعدِ بالمغفرة؛ لأنَّها تكونُ لفاعل السَّيِّئات لا لفاعل الحسنات؟ وأجاب عن تساؤله: بأنَّه لا يخلو أَحَدٌ مِن اقتراف ذَنْبٍ، وإن كان ممَّن يعملُ الصَّالحاتِ، أي: الطَّاعات، وأنَّ المعنى: أنَّ مَن آمن وعملَ الحسناتِ؛ غُفرت له سيِّئاتُه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114][1]، وعدمُ ذكْرِ السَّيِّئات في آية المائدة بُشرى بمحوِها وسترِها والتَّجاوُزِ عنها، بمقتضى الإيمان والعملِ الصالحِ، وسَترُ السَّيِّئات ومحوُها يتناسبُ مع المغفرةِ والأجرِ العظيمِ.

دلالة المغايرة بالنَّصب والرَّفع في المغفرة والأجر بين آيتي المائدة و الفتح:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: 29]، هاتان آيتان من متشابهِ النَّظم القرآنيِّ تُخبران عن وعْدِ الله تعالى لعبادِه المؤمنين، وهنا نسأل: لِمَ رُفِعَ قولُه: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في المائدة، ولِمَ نُصِبَ في الفتح؟ والجوابُ: بأنَّ لقولِه: ﴿لَهُم﴾ في آية المائدة، و﴿مِنْهُم﴾ في آية الفتح فائدةً، بيانُها: أنَّه لمَّا قيل في الأولى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ عُلِمَ أنَّ المؤمنين الَّذين عملوا الصَّالحاتِ؛ وُعِدوا بما هو حقٌّ لهم، فعُدِل عن ذكْرِ المفعول، إلى جُملةٍ تضمَّنتْ معناه، والجُملةُ خبريَّةٌ من مبتدأ وخبر، وهي في موضعِ مفردٍ منصوبٍ، كأنَّه قال: (وعدَ الله الَّذين آمنوا مغفرةً)، فاللَّام في ﴿لَهُم﴾ داخلةٌ على ضمير الصَّالحين، فكأنَّها داخلةٌ عليهم، وكأنَّه قال: (وجدْنا للصَّالحين جزاءً)، وعطفَ على موضع الجُملةِ الَّتي هي (لهم جزاءٌ) منصوبًا؛ إذ كان موضعُ الجملة موضعَ نصبٍ... وأمَّا الآيةُ الأخرى؛ فإنَّ ﴿مِنْهُم﴾ فيها متعلِّقةٌ بالَّذين آمنوا، وعملوا الصَّالحاتِ، وهي في تمامِها، ولم يكن هناك ما ترتفعُ به ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، فتعدَّى إليها الفعلُ الَّذي هو ﴿وَعَدَ﴾، فجرى على الأصلِ في نصْبِ المفعولِ به.

---

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.

دلالة إيراد المفعول الثَّاني للفعل (وعد) جملة اسميَّة في المائدة، ومفردًا في الفتح:

ولنا أن نسأل عن ورود المفعول الثَّاني للفعل وعد في آية المائدة: جملة اسميَّة هي قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾، وفي آية الفتح مفردًا، هي قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾؟ ويجابُ عن ذلك: بأنَّ الآيةَ الأولى جاءت في معرض خطابٍ للمؤمنين، لحثِّهم على تَوَخِّي العدل فيما يحكمُون به، وهو أعمُّ من حَثِّ الصَّحابة الكرامِ الَّذين ذكرَهم في آخر سورةِ الفتحِ، وأثنى عليهم بالشِّدَّةِ على الكفَّار، والرَّحمةِ على المؤمنين، وملازمةِ الرُّكوعِ والسُّجودِ، وابتغاءِ رضوان اللّٰه، فَخَصَّ هؤلاء بصريحِ المغفرة، وذكرَ أنَّه وعدَهم ذلك، وقال في آية المائدة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكان إخبارًا عن وعْدِه إيَّاهم فقط؛ لأنَّ المخاطَبين في آية الفتح – وهم صفوةُ المؤمنين – أعلى درجةً، وأرفعُ منزلةً بما ذُكِرَ من صفاتهم منَ المخاطَبين في آية المائدةِ؛ لذا كان في الآيةِ الأولى إخبارٌ عن وعدِه إيَّاهم فقط، ثُمَّ أُتِيَ بخبرٍ ثانٍ، فقال: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾"على معنى الشَّرطِ، أي: إن قاموا بذلك، ولم يُحبطُوه بالسَّيِّئات، فَجُوِّزَ منهم هذا، ولم يُعلِّقِ المغفرةَ بوعْد، فيُعزيه إليها، وفي الآية الثَّانية: حقَّقَ للمخاطَبين المغفرةَ، وعَدَّى الفعلَ إليها، وكان الحُكْمُ بأنَّهم يُوافون الآخرةَ بأعمالِهم الصَّالحةِ، وقد وعدَهمُ اللّٰه عنها المغفرةَ والأجرَ العظيمَ، فناسبَ كُلُّ آية ما خُصَّتْ به"[1]، وينبغي أن يُوضعَ في الاعتبار أمران يَزيدان ذلك الفرقَ الدَّقيقَ وُضوحًا، نوردهما في الهامش[2].

(1) الإسكافّي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 65 - 66.

(2) الأوَّل: أنّ سورةَ الفتح وسورةَ المائدة آخرُ ما نزل بالمدينة وبينَهما سورةُ التَّوبة، على هذا التَّرتيب، ينظر: الزّركشي، البرهان: 1/194. وهذا يناسبُه التَّبشيرُ في السُّورتين لمن آمن وعمل صالحًا، والأعمالُ بخواتيمِها، والثَّاني: تناسُبُ كيفيَّةِ التَّبشير في كلِّ سُورةٍ من هاتين السُّورتَيْن مع مقصدِهما الأعظم، فلمَّا كان المقصدُ الأعظمُ لسورة المائدة: هو الوفاءُ بعهد الله في الأحكامِ التَّشريعيَّةِ الَّتي تتعلَّقُ بأمورٍ كثيرةٍ في حياة المسلمين لدُنياهم وآخرتِهم، كان ما في الوعْدِ من بُشرى مضاعفًا، فيتناولُ الثَّوابَ الجزيلَ الواقعَ مفعولًا ثانيًا مقدَّرًا للفعل، ومعه مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ، وكأنَّه قال: وعدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ثوابًا لا يحيطُ به الوصف، ثمَّ استأنف بالجُملةِ الخبريَّةِ التي تحملُ بشرى ثانية: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، ولمَّا كان المقصدُ الأعظمُ لسورة الفتح: هو تطييبُ خواطرِ المؤمنين وإيناسُهم وتبشيرُهم بنصر الله بعد صدِّهم عنِ المسجدِ الحرامِ في عام الحُدَيْبِية، وكان منهم من أبدى اعتراضَه وأعلن تحفُّظَه على بنود الصُّلح، لهذا كانت الحاجةُ - إلى مغفرةٍ عاجلةٍ وصريحةٍ - مباشرةً، ولهذا كان تعدِّي الفعلِ إلى المغفرة مباشِرًا وصريحًا وسريعًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]، و﴿مِنۡهُم﴾ هنا - في الفتح - أقلُّ درجةً من ﴿لَهُم﴾ - في المائدة - بما يَتناسبُ مع مَا في المائدةِ من ثوابٍ مضاعَفٍ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

[المائدة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآيةُ السَّابقة تتضمَّنُ وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم لِمَن آمن وعمل صالحًا؛ عُطفت عليها هذه الآيةُ بالواو، "ولمَّا قدَّم الوعد؛ لأنَّه في سورة الذين آمنوا؛ أتبعه الوعيد لأضدادهم، وهو أعظم وعد لأحبابه المؤمنين أيضًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: غطُّوا ما اتَّضح لعقولهم من أدلَّة الوحدانيَّة"[1]، وكذَّبوا بالآيات النَّازلة، فاستحقُّوا أن يكونوا من أصحاب النَّار، الملازمين لها، وهو تناسُبٌ بيِّنٌ بين الآيتين الكريمتين؛ فالمؤمن جزاؤه الجنَّة، والكافر المُكذِّبُ جزاؤه الجحيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماضٍ من (كفرَ يكفرُ)، وجِذرهُ اللُّغويُّ (كفر)، والأصلُ في معناه: دلالته "على معنى واحدٍ، وهوَ السَّترُ والتَّغطيةُ، يقال لِمَنْ غطَّى درعهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعهُ"[2]، ووصفُ اللَّيل بالكافر؛ لستره الأشخاصَ، ووصفُ الزّارعِ به لستره البِذْرَ في الأرض[3]، وسُمِّي الكافر الشرعيُّ: كافرًا؛ لأنَّه ستر الحقَّ، وغطَّى عليه[4]، ومعنى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآية: "والذين جحدوا وحدانيَّة الله، ونقضوا ميثاقه وعقودَه الَّتي عاقدوها إيَّاه"[5].

2) ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: فعل ماضٍ، جِذره اللغويُّ من: (كَذَبَ)، ومصدرُهُ التَّكذيب، والكذبُ عمومًا ضدُّ الصِّدْق[6]، و"المعنى المحوريُّ: نَقْص الحِدَّة، والشدَّة الجارية في الشَّيء، أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/45.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (كفر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/100.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كذب).

المتوقَّعة منه كانكسار الحرِّ الجاري، ونَقْص حِسِّ العين، وتوقُّف الوحشيُّ عن الجَرْي، وعَجْز القوم عن السُّرَى، وهو معتاد في أسفارهم، وكالجُبْن عن الاستمرار في الهجوم... ومنه الكَذِبُ من القول؛ لأنَّه نَقْصٌ، بل فَقْدٌ للمتوقَّع من الكلام، بل لما وُجد من أجله، وهو التَّعبير عن حقيقة ما في النَّفْس"[1].

وله "أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّدْقِ، وَتَلْخِيصُهُ: أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ نِهَايَةَ الْكَلَامِ فِي الصِّدْقِ، مِنْ ذَلِكَ الْكَذِبُ خِلَافُ الصِّدْقِ، كَذَبَ كَذِبًا"[2].

ومعنى (وكذبوا): أنَّه مكذِّب بالآيات، كافر بها بعد وضوحها وضوحًا بيِّنًا[3].

3) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جَمْعٌ بالألف والتَّاء، مفرده (أأية)، ثمّ صارتَا مدَّةً، وذكرَ "أنَّها مشتقَّةٌ مِنْ التأيِّيَ الَّذي هوَ التَّثبُّتُ، والإقامةُ على الشَّيءِ".[4] والآيةُ تأتي بمعنَى: العلامةِ والشَّخص والجماعةِ[5]، وكونُها مؤلَّفةً مِنْ الكلماتِ والجملِ سمِّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسم؛ ولأنَّها "طائفةٌ مِنَ القرآنِ، يتَّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانتْ أَوْ قصيرةً"[6].

ومعنى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في الآية: "ما شرع اللّه من أحكام، وأوجب على العباد أن ينفِّذوها، كما يطلق على الدَّلالات التي تدلُّ على قدرة الخالق جلَّ وعلا، وتطلق على الآيات القرآنيَّة، وتطلق على المعجزات الَّتي أيَّد اللّه بها الرُّسل"[7].

4) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُه صاحبٌ، وجِذره اللُّغويُّ من: (صحب)، وأصله: "يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ ومقاربتِه... وكلُّ شيء لاءمَ شيئًا؛ فقد استصحبه"[8].

أمَّا المعنى العامُّ للَّفظة؛ فإنَّ "الصَّاحِبَ: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بينَ أن تكون مُصَاحَبَتُهُ بالبدن، وهو الأصل والأكثرُ، أو بالعنايةِ والهمَّةِ"[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كذب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/96.
(4) الراغب، المفردات: (أي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(7) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/39.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(9) الراغب، المفردات: (صحب).

ولمَّا كان معنى الصُّحبةِ: اللُّزومُ والدَّوامُ؛ كان معنى أصحاب الجحيم: "ينبئ عن التَّخليد فيها؛ لأنَّ المصاحبة تقتضي الملازمةَ، كما يقال: أصحاب الصحراء، أي: اللَّازمون لها"(1).

5) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسم من أسماءِ النَّارِ، الجِذر اللُّغويُّ منه (جحم)، والأصلُ في معناها: "عُظْمُهَا به الحرارةُ وشدَّتُها، فالجاحمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ"(2)، والمعنى المحوريُّ لها: "بؤرةٌ متوقِّدة الأثناء، توقدُ أثناءَ الشَّيءِ الجسيمِ حِدَّة مع غلظه في نفسِه... ومنه الجحيمُ: كلُّ نارٍ عظيمةٍ في مهواة"(3).

و"الجحيمُ: شدَّة توقُّد النَّارِ وإضرامها، وجحمتُ النَّارَ: أضرمتها، وزدت في توقُّدها، ومنه الجحيمُ، أعاذنا اللّه منها"،(4) ومعنى الجحيم في الآية: "جَهَنَّمُ، وَأَصْلُ الْجَحِيمِ: النَّارُ الْعَظِيمَةُ تُجْعَلُ فِي حُفْرَةٍ لِيَدُومَ لَهِيبُهَا، يُقَالُ: نَارٌ جَحْمَةٌ، أَيْ: شَدِيدَةُ اللهب"(5).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

خلود أهل النَّار فيها

الآيةُ الكريمة فيها إشارة إلى حقيقةٍ جاء بها الأنبياء والرُّسل، وحذَّروا منها في أنَّ مَن يكفر باللّه، ويكذِّب بآياته؛ فإنَّه آيلٌ إلى الجحيم؛ ليكون من أصحابها الملازمين، "وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ مِثْلِ هَذَا الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ عَمَلٌ"(6).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عطف التَّكذيب على الكفر من عطف الخاصِّ على العامِّ

البدء بصفة الذين كفروا ثمَّ الذين كذبوا:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ ابتدأ هذه الآية بالرَّهط المُخالف من أولئك الَّذين كفرُوا، ثمَّ عطف ممَّنْ كذَّب بالآيات، وهُنا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جحم).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (جحم).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/13.
(6) رضا، تفسير المنار: 6/228.

عطف التَّكذِيب على الكُفر، مَعَ أنَّهُ ضَرْبٌ منهُ، فالكُفر معناهُ: التَّغطيةُ والسَّترُ للحقائق؛ وتغطيةُ العقُول عن إدراك الحقِّ، والتَّكذيبُ مُشابهٌ لهُ في تغطيةِ الحقِّ والتَّدليس عليه، وحَجْبِهِ عنِ العُقُول والبصائر، "فهُو هُنا من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ"[1]، أو المُجْمَل علَى المُفَصَّل؛ "لأنَّ الكافر على قسمين: جاهلٌ بالآيات، وكافرٌ كفَرَ بعد وضوح الآيات والمعجزات الدَّالَّة على صدق الرَّسول"[2].

بلاغة تقديم فعل الكفر على فعل التَّكذيب:

الكـفـر جحـود القلب وطمس معالم الإدراك والتَّـكـذيـب ردُّ مـا دلَّـت عليه الرِّسالة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ قدَّم الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على الفعل ﴿وَكَذَّبُواْ﴾؛ لأنَّ "الكفر هنا معناه: جحود القلب، وطمس معالم الإدراك؛ فقلوبهم غلف، قد غطِّيت عنها الحقائق، وغاب عنها الفهم الصحيح لأنَّ القلب قد شاه وفسد، فلا يرى الحقائق، ويكذِّب بها وكان التَّكذيب جرمًا عظيمًا؛ لأنَّه تكذيب بآيات الله تعالى الَّتي كانت للدَّلالة على الرِّسالة والإذعان للحقِّ"[3].

في الآية مجاز بالحذف التَّقابليّ:

ذكـر في الآيـة السَّابقة جزاء المؤمنين وحذفه مقابله هنا في جزاء الكافرين

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، في الآية ثمَّة محذوف يقابل المذكور في الآية السَّابقة؛ "لأنَّه ذكر في قسم المؤمنين الحكم بثواب عملهم، ولم يذكر ما به يقع الثَّواب، وذكر في قسم الكافرين ما به يقع العذاب، ولم يذكر الحكم بتعذيبهم، فالتقدير: لهم مغفرة وأجر عظيم، وهم أصحاب الجنَّة، والتقدير في الثَّاني: لهم عذاب أليم، وهم أصحاب الجحيم"[4].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ - تعبير تكرَّر أربع مرَّات في القرآن الكريم - أيِّ: "هُم سُكَّانُها، واللَّابثُون فيها"[5]، بلْ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/79.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2065.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/97.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/513.

مصاحبة الجحيم وردت أربع مرّات في القرآن توكيدًا

والخَالدُون فيها، أمَّا الآيةُ بتمَامِهَا؛ فذُكرتَ ثلاثَ مرَّاتٍ في القرآن الكريم: في هذا المَوْضِعِ مرَّة، وفي الآية السادسة والثمانين من سورة المائدة، والآية التَّاسعة عشرة من سورة الحديد مرَّة ثالثة، وهُو يدْخُلُ في باب التَّكرار الَّذي يُفيدُ التَّوكيد، ولهُ فوائدُ عظيمةٌ.

الجملةُ الاسميَّة دالَّةٌ على الثَّبات واللُّزوم قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، استعمل لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ بالاسميَّة، لدلالتها على الثُّبُوت؛ لذلك جاءتْ مُشتقَّاتُها في القرآن الكريم اسميَّةً أكثرَ منْ مجيئها فعليَّة؛ لأنَّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل؛ فإنَّه يستمرُّ، ويستقرُّ، والصَّاحبُ من لازم أبدًا[1]، وسِوَى ذلك لا يُسمَّى صاحبًا؛ لأنَّ الصَّاحب هُو المُلازم المُعاشر، أمَّا غيرُه الَّذي لا يُلازم، بلْ قدْ ينْقطعُ؛ فيُسمَّى صَديقًا أوْ رفيقًا أو نحْوُه، ولا يُسمَّى صَاحبًا.

وعندئذٍ فإنَّ الاسميّة أليقُ بهذا اللّفْظ؛ لذلكَ جاءَتْ في أغْلبِ وُرُودها في آيات القرآن بالاسميَّة، ومنْها هذه الآية الَّتي "جَاءَتِ الْجُمْلَةُ اسْمِيَّةً دَالَّةً عَلَى ثُبُوتِ هَذَا الْحُكْمِ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَهُمْ دَائِمُونَ فِي عَذَابٍ؛ إِذْ حَتَّمَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"[2].

ورود الصُّحبة بالفعليَّة في قصَّة موسى عليه السلام

وقد وردتْ الصُّحبةُ بصيغة الفعل الَّذي يُفيد التَّجدُّد في قصّة مُوسى (عليه السلام)؛ لأنَّه لم يكنْ مصاحبًا بصفة الدَّوام والثُّبوت للرَّجل الصَّالح، وهُو حديثُ مُوسى عليه السلام مَعَ الخِضْر عليه السلام الَّذي وهبهُ اللّه منْ لدُنه علمًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76]، وما ورد بالفعليَّة لا يُفيد الثَّبات.

فهو لم يُلازمه على الدَّوام، ولكنَّه طلب مُصاحبته استثناءً في مُدَّة مُعيَّنة من الزَّمن؛ لأنَّه كان يتعجَّلُ معرفة ما خفي عنه، حتَّى

(1) الراغب، المفردات: (صحب).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/197.

حصل الفراقُ بينهما، لمَّا عجز صبر موسى، عن الالتزام بعدم السُّؤال عن تصرُّفات الخِضر، ممَّا كان غريبًا وخارجًا عن سَنَنِ أحكام الشَّرع والعُرف الَّتي ألفها مُوسى وعرفها، فانبرى يحتجُّ على كلِّ فعل من الوقائع الثَّلاث تباعًا، كما فصَّلت في ذلك سورةُ الكهف.

قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يفيد القصر:

القَصر في الجملة متأرجحٌ بين الادِّعائي والحقيقيّ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، الجملة من باب القصر، فهو " قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا أَحَقَّ النَّاسِ بِالْجَحِيم، وَكَانُوا خَالِدِينَ فِيهِ جُعِلُوا كَالْمُنْفَرِدِينَ بِهِ، أَوْ هُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إِذَا كَانَتْ إِضَافَةُ ﴿أَصۡحَـٰبُ﴾ مُؤْذِنَةً بِمَزِيدِ الِاخْتِصَاص بِالشَّيْءِ، كَمَا قَالُوهُ فِي مُرَادِفِهَا، وَهُوَ ذُو كَذَا، كَمَا نَبَّهُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: 95]، فَيَكُونُ وَجْهُ هَذَا الِاخْتِصَاصِ أَنَّهُمُ الْبَاقُونَ فِي الْجَحِيم أبدًا"(1).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدَّث الحقُّ - تبارك وتعالى - في الآية السَّابقة عمَّن كان مصيرهم النَّار المتوقِّدة، فهي مصيرهم بما كذَّبوا، "ولمَّا كان من الأجر ما يحصل من أسباب السَّعادة في الدُّنيا، قال تعالى ذاكرًا لهم بعض ذلك، مذكِّرًا ببعض ما خاطبهم به؛ ليُقْدِموا على مباينة الكفرة، ويقفوا عند حدوده كائنة ما كانت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي: صدَّقوا باللّه ورسوله وكتابه، ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي أحاط بكلِّ شيء قدرة وعلمًا"[1].

وجاءت هذه الآيةُ بعد ثلاث آيات من "قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المَائِدَة: 7]، أُعِيدَ تَذْكِيرُهُمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى عَظِيمَةٍ عَلَى جَمِيعِهِمْ؛ إِذْ كَانَتْ فِيهَا سَلَامَتُهُمْ، تِلْكَ هِيَ نِعْمَةُ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ؛ لِأَنَّهَا نِعْمَةٌ يَحْصُلُ بِهَا مَا يَحْصُلُ مِنَ النَّصْرِ دُونَ تَجَشُّمِ مَشَاقِّ الْحَرْبِ وَمَتَالِفِهَا"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل ماضٍ من آمنَ يؤمنُ، وجذرُه اللغويُّ من (أمن)، وهو يدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[3]، وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النَّفسِ، وزوالُ الخوفِ[4]. أمَّا "آمنَ"؛ فلهُ وجهانِ[5]:

أحدُهما: أنْ يكونَ متعدِّيًا، تقولُ: آمنتُه؛ إذا جعلتَ له الأمنَ والأمانَ، ومنه في وجهٍ:[6] اسمُ اللّه المؤمنِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/45.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى: (31 - 32).

والآخرُ: أنْ يكونَ لازمًا، ومعنى (آمنَ) على هذا: صارَ ذا أمنٍ، والإيمانُ: التَّصديقُ باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[1].

ونازعَ في هذهِ الحقيقةِ اللُّغويَّةِ جماعةٌ[2]، والإيمانُ في الشَّرعِ يطلقُ إطلاقين[3]: إطلاقًا عامًّا تندرجُ فيه جميعُ أمورِ الدِّينِ العلميَّةِ والعمليَّةِ، فهو بهذا الاعتبارِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وإطلاقًا خاصًّا، والمرادُ بهِ التَّصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتَّةِ المشهورةِ، فهمْ أبدلُوا الكفرَ بالإيمانِ، وخلا ذلكَ؛ فإنَّ للإيمانِ تعريفًا اصطلاحيًّا، وهو التَّصديقُ والإقرارُ بالأصولِ السِّتَّةِ الواردةِ في الحديثِ الطَّويلِ، ومنهُ قولُه: بـ«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»[4].

ومعنى آمنوا في الآية: "يا أيها الذين أقرُّوا بتوحيد اللّه، ورسالة رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم"[5].

2) ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: فعل أمر، والجذر اللغويُّ منه: (ذكر)، والذِّكْرُ: نقيضُ النِّسيان[6]، وله أصلان في المعنى، أحدهما "ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلَافُ نَسِيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ، وَيَقُولُونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذَّالِ، أَيْ: لَا تَنْسَهُ"[7].

و"الذِّكْرُ بالكسر له معنيان، أحدُهما: التَّلَفُّظُ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضارُهُ في الذِّهن، بحيثُ لا يغيبُ عنه"[8].

و"تارة يقال، ويراد به هيئة للنَّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلَّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء: القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكر ذكران، ذكر بالقلب، وذكر باللِّسان"[9]، ومعنى ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ في الآية: (احفظوا)، كما تَقُولُ: اذكر أياديَّ عندك، أي: احفظها[10].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).وهذا الاتفاق إنما هو في الحقيقة اللغوية لا الشرعية.
(2) ابن تيمية، الإيمان، ص: 101، وما بعدها.
(3) البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 293.
(4) مسلم، الحديث رقم: (9).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/100.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ذكر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(8) الكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(9) الراغب، المفردات: (ذكر).
(10) الفرّاء، معاني القرآن: 2/366.

3) ﴿نِعۡمَتَ﴾: مصدر للفعل (نَعِمَ يَنْعَمُ)، وجذره اللغويُّ: (نعم)، و"النِّعْمَةُ: اليدُ، والصنيعةُ، والمنَّةُ، وما أُنْعِمَ به عليك، وكذلك النُّعمى... وفلانٌ واسعُ النِّعْمَةِ، أي: واسع المال، وقولهم: إن فعلتَ ذاك فبها ونِعْمَتْ: يريدون نِعْمَتِ الخَصْلة"[1].

والأصل في معناه له فروع كثيرة في لغة العرب، و"كثرتها راجعةٌ إلى أَصلٍ واحدٍ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، منهُ النِّعمة: ما ينعمُ اللّه تعالى على عبدِهِ بِهِ مِنْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّه تعالى عليهِ نعمةٌ، والنِّعْمَةُ: المنَّةُ، وكذا النَّعماءُ، والنَّعمةُ: التَّنَعُّمُ وطيب العيشِ"[2].

وهي كذلك حسن حالة المرء، وتقال للكثير والقليل[3]، والنِّعمة في هذه الآية مِنَّته تعالى عليهم؛ إذ دفع عنهم الشَّرَّ، وقصَّر عنهم أيدي الأعداء[4].

4) ﴿هَمَّ﴾: فعل ماضٍ، الجذر اللغويُّ منه: (هـمم) "همَّ بالشَّيْء يهِمُّ همًّا؛ إِذا عَزَم عَلَيْه، أَو حدَّث بِهِ نَفسه"[5]، و"الهَمُّ الحَزَنُ الذي يذيب الإنسان، يقال: هَمَمْتُ الشَّحم فَانْهَمَّ، والهَمُّ: ما هممت به في نفسك، وهو الأصل"[6].

"ومنه "هَمَّ بالشَّيء: نواه، وأراده، وعزم عليه، "كأنَّما تحلَّبت إرادته وهَوَاه بشدَّة نحو الشَّيء، كما يسيل اللُّعاب شهوةً إلى الطَّعام"[7].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾[8] في الآية: أَنَّ "الْأَعْدَاءَ يُرِيدُونَ إِيقَاعَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ بِهِمْ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُمْ بِفَضْلِهِ"[9].

5) ﴿يَبۡسُطُوٓاْ﴾: فعل مضارع يدلُّ على الحال والاستقبال مسند هنا لواو الجماعة، الجذر اللغويُّ منه (بسط)، والبسط في الفعل نقيض القبض، والبسط يدلُّ على الزِّيادة أيضًا[10].

(1) الجوهري، الصحاح: (نعم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) الراغب: المفردات: (نعم).
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/408.
(5) الجوهري، الصحاح: (همم).
(6) الراغب، المفردات: (همم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.
(9) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/208.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (بسط).

والأصل في معنى البسط: "امْتِدَادُ الشَّيْءِ فِي عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، فَالْبِسَاطُ: مَا يُبْسَطُ، وَالْبَسَاطُ: الْأَرْضُ... وَالْبَسْطَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ: السَّعَةُ"(1).

وبسط اليد في الآية هو "بِمَعْنَى: الْإِيذَاءِ الْمُطْلَقِ... فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِيذَاءِ الْعَمَلِيِّ يَكُونُ بِمَدِّ الْيَدِ"(2).

6) ﴿فَكَفَّ﴾: فعل ماضٍ، الجذر اللغويُّ له: (كفف)، "وسمِّيت كُفَّة الثَّوْب؛ لِأَنَّهَا تَمنعهُ أَن تَنْتَشِر، وأصل الكفِّ: الْمَنْع، وَلِهَذَا قيل لطرف الْيَد: كفٌّ؛ لِأَنَّهَا يُكَفُّ بهَا عَن سَائِر الْبدن، وَهِي الرَّاحَةُ مَعَ الْأَصَابِع"(3).

والأصل في المعنى: دلالته عَلَى قَبْضٍ وَانْقِبَاضٍ(4).

و"المعنى المحوريُّ: قَبْضُ الطَّرَف المنتشر، وثَنْيه وردُّه فلا ينتشر... وكلُّ كفِّ الأيدي أو القوم عن؛ فهي بمعنى: الصَّرف عن القتال، أو عن العدوان"(5).

ومعنى كفِّ اليد في الآية: "فَهُوَ مَجَازٌ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ السُّوءِ خَاصَّةً، وَكَفِّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ"(6).

7) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أمرٌ منه بالتَّقوى، وجِذره اللُّغويُّ من: (وقي)، والأصل في معناه: "كلمة واحدة تدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره... والوقاية: ما يقي الشَّيء، واتَّقِ اللّه: توقَّه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية"(7).

ومعناه المحوريُّ: "حفظ من الأذى، أو الضَّرر باتِّخاذ حاجز دونه، كالوقاية: الحاجز ثَوْبًا، أو حَشِيَّة أو وَرَقًا"(8).

و"الوِقَايَةُ: حفظُ الشَّيءِ ممَّا يؤذيه ويضرُّه، والتَّقْوَى: جعل النَّفس في وِقَايَةٍ ممَّا يخاف، هذا تحقيقه، ثمَّ يسمَّى الخوف تارة: تَقْوًى، والتَّقْوَى خوفًا... وصار التَّقْوَى في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(2) رضا، تفسير المنار: 7/521.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفّ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/138.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقى).

تعارف الشَّرع: حفظ النَّفس عمَّا يؤثم، وذلك بترك المحظور".[1] و"الاتِّقاء: هو افتعالٌ من الوقاية، وهي فرطُ الصِّيانة، وشدَّةُ الاحتراس من المَكْرُوه"[2].

ومعنى: "اتَّقوه على نحو ما أمركم ونهاكم، وليس فيه تكليف بما لا يطاق"[3]، والمراد من قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ في الآية: "معناها المتعارف في اللُّغة لا المعنى الشرعيِّ... والمراد باتِّقائه: اتِّقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب"[4].

ومعنى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في الآية: "الشُّعور بعظمته، والإحساس بجلاله، وامتلاء القلب به، واطمئنانه إليه، ورجاء ثوابه، وخشية عذابه، وعبادته كأنَّه يراه".[5] كما ورد في الحديث: «أَنْ تَعْمَلَ لله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[6].

8) ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: فعل أمر، الجِذر اللُّغويُّ منه: (وكل)، "والتَوَكُّلُ: إظهار العجز، والاعتماد على غيرك، والاسم: التُّكلانُ، واتَّكَلْتُ على فلانٍ في أمري؛ إذا اعتمدته"[7].

ومعنى الأمر بالتوكُّل في الآية: هو أن يعتمدوا في أمورهم عليه سبحانه، لا على غيره في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه[8].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

في الآية نوعان من أسباب النُّزول: الأوَّل عامٌّ، فلقد "كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَبَدًا يُرِيدُونَ إِيقَاعَ الْبَلَاءِ وَالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ بِالْمُسْلِمِينَ، والله تَعَالَى كَانَ يَمْنَعُهُمْ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ، إِلَى أَنْ قَوِيَ الْإِسْلَامُ، وَعَظُمَتْ شَوْكَةُ المسلمين"[9]، والنَّوع الثَّاني من سبب النزول: خاصٌّ، منه محاولة أعرابيٍّ قتل الرَّسول ﷺ ومنه محاولة رجل من محارب قتل الرسول ﷺ ومنه محاولة بني النَّضِير من اليهود قتله، وهو بينهم، يطلب ديَةَ قتلهم رجلًا مسلمًا، فجاء رجل منهم

---

(1) الراغب، المفردات: (وقى).

(2) الكفوي، الكليّات، ص: 38.

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (وقى).

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/484.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2067.

(6) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (2924).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (وكل).

(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/139.

(9) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/186 - 187.

"إلى رحًى عظيمة؛ ليطرحها عليه، فأمسك اللّه تعالى يده، وجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، فخرج رسول اللّه ﷺ وأنزل اللّه تعالى هذه الآية"(1).

وفي الآية أمر منه تعالى إلى المؤمنين من عباده بأن يتذكَّروا نعمته وفضله عليهم، بأن منع عنهم قوم "شارفوا أن يمدُّوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب، فكفَّ اللّه تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم"(2)، فعليكم آنئذٍ أن تتَّقوه، وهو الَّذي أراكم قوَّته، وأنجاكم من أعدائكم وقت ضعفكم، فاعتَمِدوا على اللّه، فكما أحسن إليكم في سالف الزَّمان، فبتوكُّلكم أُحْسِن إليكم فيما هو قادم، في جلب مصالحكم الدينيَّة والدُّنيويَّة، وتبرَّؤوا من حولكم وقوَّتكم، وثِقُوا باللّه تعالى في حصول ما تحبُّون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ افتتاح الآية بأسلوب النِّداء مع ضمير الجمع:

حصول إقبال السَّامعين وأنَّ الأمر متعلّق بالمؤمنين جميعًا

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صدَّر الآية بأسلوب النِّداء، مع اقترانه بضمير الجمع؛ "لِيَحْصُلَ إِقْبَالُ السَّامِعِينَ عَلَى سَمَاعِه، وَلَفْظُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْجَمْعِ: يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْحَادِثَةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ"(3).

دلالة رسم تاء ﴿نِعۡمَتَ﴾ مفتوحة:

النِّعمةُ هنا للبسط والتَّوسُّع وهي أكبر ممَّا رُسم في الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، فالجملة وردت في موضعين من القرآن الكريم: هنا، وفي الأحزاب، وهذا هو الموضع الأوَّل، فقد "كرِّرت هذه الجملة للتَّأكيد بلزوم تذكر النِّعمة، وشكر المنعم، والشُّكر بمقابل النِّعمة واجب، ولغيرها

(1) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 194.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 6/71.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.

مندوب"[1]، ورسمت التَّاء في ﴿نِعۡمَتَ﴾ هنا مفتوحة، والفتح دليل البسط والتوسُّع؛ لأنّ هذه "النِّعمة غير تلك المذكورة في الآية السَّابقة؛ لأنَّها لمطلق التَّذكر، وهذه بمقابل ما أزاله عنهم ورفعه المبين"[2]، فالنِّعمة هنا أكبر من النِّعمة في موضع الأحزاب التي جاءت تاؤها مقفلة ﴿نِعۡمَةَ﴾ [الأحزاب: 9].

إفراد ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة عظيمة:

النِّعمةُ الواحدة تستحقُّ شكر اللّه عليها فضلًا عن النِّعم الكثيرة

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وردت كلمة ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالإفراد دون الجمع، وفي ذلك دلالة عظيمة، وهي أنَّ "كلَّ نعمة على انفراد تستحقُّ أن نشكر اللّه عليها، فكلُّ نعمة مفردة في عظم وضخامة تستحقُّ الشُّكر عليها، أو أنَّ نعمة اللّه هي كلُّ فيضه على خلقه، فأفضل النِّعمة أنَّه ربُّنا"[3].

تأخير المتعلَّق في ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾:

شمول النِّعمة على خلقه وعدم تخصيصها بقوم

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، جاء المتعلَّق ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متأخِّرًا عن نعمة اللّه، وفائدة تأخيره شمول النعمة جميع خلقه؛ إذ لو تقدَّم؛ لأفاد التخصيص، وهو غير مراد؛ فإنَّ نعمة اللّه مبذولة لخلقه، لم يخصِّصها لطائفة دون الأخرى.

بلاغة تقديم المجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

تسليةٌ للرَّسول ﷺ وامتنانٌ على المؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾، وردت الأيدي مرَّتين في الآية، ففي المرَّة الأولى وردت متأخِّرةً عن المتعلَّق ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الحديث عن فعلة أولئك الَّذين أرادوا الشَّرَّ بالرَّسول ﷺ فكان همُّهم الوصول إليكم، فقدَّمه، أمَّا في المرة الثانية؛ فقد قدَّم الأيدي بقوله: ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ بتقديم المفعول على

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 6/305.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 6/305.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2981.

المجرور، وسرُّ ذلك: "أنَّ الآية خرَجَت مخرج التَّسلية للنَّبيِّ - صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم - والامتنان على المؤمنين بأنَّ اللّه تعالى لم يخذلهم، ولم يمكِّن عدوَّهم منهم، وذكر معها جملتان: أحدهما محْكِية عن الكفار وهي مثبتة، فكان الأعمُّ فيها تقديم الممنوع لَا تقديم الممنوع منه"(1).

دلالة استعمال بسط اليد في الإيذاء:

غالب حال الإيذاء العملي يكون ببسط اليد

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ﴾، ذكر اليد هنا مرَّتين: الأولى: في محاولتهم إيذاء الرَّسول ﷺ والثَّانية: كفُّه تعالى هذه الأيدي عنه ﷺ "وَقَدِ اسْتُعْمِلَ بَسْطُ الْيَدِ بِمَعْنَى الْإِيذَاءِ الْمُطْلَقِ... فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِيذَاءِ الْعَمَلِيِّ يَكُونُ بِمَدِّ الْيَدِ، فَإِنْ أُرِيدَ إِيذَاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً فِي قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾"(2).

بسط اليد - بمعنى الإيذاء - مجاز

استعمال مصطلح البسط مع اليد في الإيذاء والبطش ليس على باب الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ﴾، بل هو "مَجَازٌ فِي الْبَطْشِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: 2]... وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي مُحَاوَلَةِ الْإِمْسَاكِ بِشَيْءٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ ابْنِ آدَمَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ﴾"(3).

سرُّ استعمال كلمة قوم دون غيرها:

بيانُ الحالة النَّشطة للإنسان

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، ذكر في هذه الآية الفاعل معبِّرًا عنه بكلمة ﴿قَوْمٌ﴾، وهي كلمة "إذا سمعتها؛ ففيها معنى القيام، والقيام هو أنشط حالات الإنسان... فالقائم هو الَّذي يتعب أكثر من الآخرين؛ لأنَّ ثقل

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/97.

(2) رضا، تفسير المنار: 7/521.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/138.

جسمه كلِّه على قدميه الصَّغيرتين... ولذلك يطلقونها على الرِّجال فقط؛ لأنَّ من طبيعة الرَّجل أن يكون قوامًا، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة، فالقوم هم الرِّجال"[1].

إظهار ما حقَّه الإضمار:

الإشارة إلى إرادة اللهِ وقوَّته

قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾، ذكرت كلمة ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ مع الفعل ﴿يَبۡسُطُوٓاْ﴾، ثمَّ كرَّرها مع الفعل (كفَّ)، ويجوز لغة ألَّا يكرِّرها بأن يعوِّض منها بالضَّمير؛ لأنَّ الضَّمائر تعوِّض من تكرار الأسماء الظَّاهرة[2]، بأن يقال: (إِذ هَمَّ قَومٌ أَن يَبسُطُواْ إِلَيكُم أَيدِيَهُم فَكَفَّها عَنكُم)، لكنَّه أظهر الاسم هنا، وحقُّه الإضمار "لزيادة التَّقرير، وللإشارة إلى أنَّه سبحانه هو الَّذي قضى على موضع قوَّة أعدائهم، ومناط شدَّتهم؛ إذ الأيدي هي من أهمِّ وسائل البطش والقتل، أي: إنَّه سبحانه قد منع أيديهم عن أن تمتدَّ إليكم بالأذى عقيب همِّهم بذلك؛ دفاعًا عنكم أيُّها المؤمنون، وحماية لكم من الشُّرور"[3]، وفيه - أيضًا- زيادة في التَّقريع أنَّ الحقَّ ﷻ مانع أيديهم من أن تصل إليكم.

تأخير فعل التَّقوى عن فعل الذِّكر:

تقوى الله تعالى فيها إظهار عميم لشكره على نعمه

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، هنا جاء فعل التَّقوى متأخِّرًا عن فعل الذِّكر، وجاء الأمر "بِالتَّقْوَى عَقِبَ ذَلِكَ؛ لأنَّها أظهر للشُّكر، فَعَطَفَ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى بِالْوَاوِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَنَّهَا شُكْرٌ لله بِدَلَالَةِ وُقُوعِ الْأَمْرِ عَقِبَ التَّذْكِيرِ بِنِعْمَةٍ عُظْمَى"[4].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2984.
(2) أنيس، من أسرار اللغة، ص: 274.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/76 - 77.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/139.

دلالة عطف التَّوكُّل على التَّقوى:

التَّوكُّل مقترن بالتَّقوى، ولا يحصل إلَّا بالسَّير على سنن الله

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، من باب عطف الجمل؛ فقد عطف فعل التَّوكُّل على فعل التَّقوى، "وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: إنَّ الله تَعَالَى أَمَرَنَا بِالتَّقْوَى ثُمَّ بِالتَّوَكُّلِ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى: بَذْلُ الْجُهْدِ فِي الْوِقَايَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَكُلِّ شَرٍّ، وَمِنْ مَبَادِئِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ، وَلَا تَحْصُلُ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ إِلَّا بِالسَّيْرِ عَلَى سُنَّةِ اللَّه تَعَالَى فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ"[1]، فالتَّوكُّل والتَّقوى مقترنان، ولا يحصل التَّوكُّل إلَّا بعد حصول التَّقوى، والسَّير وفق سننه تعالى.

تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل:

اختصاص التَّوكُّل على الله وحده

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، يجوز لغة أن يقول: (فليتوكَّلِ المؤمنونَ على اللّه)، إلَّا أنَّ المعنى يختلف في أنَّ معنى الأولى: "وَعَلَى اللّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بِقُدْرَتِه وَعِنَايَتِه وَفَضْلِه وَرَحْمَتِه، لَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْفُسِهَا، وَلَا عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ"[2]، فيه اختصاص التَّوكُّل على اللّه وحده دون سواه، وهذا غير متوافر فيما لو جاء بالجارِّ والمجرور متأخِّرًا.

إظهار ما حقُّه الإضمار:

بيان فضلِ الله على خلقه وأنَّ توكُّلهم عليه كافيهم

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تَكْرار لفظ الجلالة مع فعل التَّوكل - بعد فعل التَّقوى - إظهار حقُّه الإضمار، فيجوز لغة إضماره بأن يقال: (وعليه فليتوكَّل المؤمنون)، لكنَّه أظهره هنا لبيان فضله على خلقه، وأنَّهم إن توكَّلوا عليه؛ كفاهم ما هم فيه، و"التَّوكُّل سكون السِّرِّ عند حلول الأمر، ونهاية التفويض، وفيها يتساوى الحلو والمرُّ، والنِّعمة والمحنة"[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/230.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/230.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/34.

﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [المائدة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كان من أسباب نزول الآية السَّابقة: أنَّ اليهود لا أمان لهم، ولا عهود تربطهم، ولا مواثيق تلزمهم، وذلك في استدراجهم الرَّسول ﷺ وما "همُّوا به من قتل النَّبيِّ ﷺ بإلقاء الرَّحى عليه من سطح البيت الذي أجلسوه إلى جانبه، بقوله إشارة إلى أنَّ اليهود ما زالوا على النَّقض قديمًا"،[1] فجاءت هذه الآية تتحدَّث عن الميثاق الَّذي أخذ على بني إسرائيل بالسَّمع والطَّاعة، فهو يقول للرَّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين: "لا تستعظموا أمرَ الذين همُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود، بما همُّوا به لكم، ولا أمرَ الغدر الذي حاولوه، وأرادوه بكم، فإنَّ ذلك من أخلاق أوائلهم وأسْلافهم، لا يَعْدُون أن يكونوا على منهاج أوَّلهم، وطريق سَلَفِهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: فعل ماض، وجذره اللُّغويُّ من: (أخذ)، وأخذ شيئًا بمعنى: تناوله[3]، والأصل في معناه: "حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ الْعَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ"[4].

والأخذ في حقيقته: التَّناول، لكن قد يستعمل مجازًا في أشياء أخرى كالقهر والاستيلاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/47.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/109.
(3) الخليل، العين: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).

والإحاطة وغيرها[1]، و"المعنى المحوريُّ: حَوْزُ الشَّيء في الأثناء ضمًّا أو قبضًا على غِلَظ ماديٍّ أو معنويٍّ... وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى: القبض الحقيقيِّ، أو المجازيِّ (55 مرة)... ومنها 18 مرة في أخذ الميثاق، وهو تقييد من باب القبض"[2] والمعنى في الآية: أَخَذَ اللّه ميثاقَهم أنْ يُخْلِصُوا لَهُ العِبادَة، ولا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وأنْ يَعْمَلُوا بما في التَّوْراةِ[3].

2) ﴿مِيثَـٰقَ﴾: اسم على وزن (مِفْعَال)، الجذر اللُّغويُّ منه: (وثق)، والفعل منه (وَثِقَ يَثِقُ)، والوثيق منه بمعنى: المحكم، والوثاق: الحبل والرِّباط، والميثاق مأخوذ من المواثقة والمعاهدة[4].

والأصل في معناه: دلالته "عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام، وَوَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وَنَاقَةٌ مُوَثَّقَةُ الْخَلْقِ، وَالْمِيثَاقُ: الْعَهْدُ الْمُحْكَمُ، وَهُوَ ثِقَةٌ، وَقَدْ وَثِقْتُ بِهِ"[5].

ويقال: "وَثِقْتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سكنت إليه، واعتمدت عليه، وأَوْثَقْتُهُ: شددته، والوَثَاقُ والوِثَاقُ: اسمان لما يُوثَقُ به الشَّيء، والوُثْقَى: تأنيث الأَوْثَق، قال تعالى: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦﴾ [الفجر: 26]، والمِيثاقُ: عقد مؤكَّد بيمين وعهد"[6].

والميثاق بمعنى: الرِّباط، ومن استعمالاته المعنويَّة العهد والمعاهدة، وهو بمنزلة الرِّباط المعنويِّ[7]، والمعنى في الآية: ما أُخذ عليهم من اتِّباع الرَّسول ﷺ وأداء فرائض اللّه تعالى[8].

3) ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: اسم أعجميٌّ، وما كان كذلك؛ فلا تنطبق عليه حدود الصَّرف العربيِّ، إلَّا أنَّ ابن منظور من بين المعجميِّين جعل له جذرًا هو (سرأل)، فقال "إِسْرَائِيلُ وإِسْرائينُ: زَعَمَ يعقوب أَنَّه بدل اسم مَلَكٍ"[9].

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (أخذ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/526.
(4) الخليل، العين: (وثق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وثق).
(6) الراغب، المفردات: (وثق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وثق).
(8) الشوكاني، فتح القدير: 4/207.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سرأل).

وقيل: إنَّ كلمة (إسرائيل) هي لقب ليعقوب أبي يوسف - عليهما السلام - "مَعْنَاهُ عبد اللّه؛ لِأَنَّ (إيل) اسْم من أَسمَاء اللّه بالسُّرْيَانيَّة؛ وَقيل صفوة اللّه، وَقيل: سرُّ اللّه"[1]، فيما جعله السهيليُّ اسمًا ليعقوب، وليس لقبًا[2].

وذكر الزَّبيديُّ في شأنه "(وإِسْرَالُ) يأْتي (في) حَرْفِ (اللَّام)، وَلم يَذْكُرْهُ هُنَاكَ سَهْوًا مِنْهُ، وَهُوَ مخفَّفٌ عَن إِسرائيل، وَمَعْنَاهُ صَفْوَةُ اللّه، وَقيل: عبدُ اللّه"[3].

وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [نحو: البقرة: 40] في جميع القرآن: "خطاب لذرِّيَّة يعقوب، وفي ذرِّيَّته انحصر سائر الأمَّة اليهوديَّة، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيُّها اليهود؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود؛ فهو اسم النِّحلة والدِّيانة"[4].

4) ﴿نَقِيبٗاۖ﴾: صفة مشبَّهة باسم الفاعل، وهي (فَعِيل) بمعنى: (فاعِل)، ويجوز أن يكون مبالغة اسم الفاعل كعليم وخبير، والجذر اللُّغويُّ له من: (نقب) "ونقب الرَّجل في الْبِلَاد؛ إِذا جاسها، ونقيب الْقَوْم: عريفهم، وَالْجمع نقباء، وَكَذَا فُسِّر في التَّنْزِيل: ﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾"،[5] وهو مشتقٌّ من التَّنقيب: وهو التَّفتيش، وسمِّي بذلك؛ لأنَّه يفتِّش عن أحوال القوم وأسرارهم، والأصل في معناه: دلالته "عَلَى فَتْح في شَيْءٍ... وَمِنَ الْبَابِ: النَّقَّابُ: الْعَالِمُ بِالْأُمُور، كَأَنَّهُ نَقَّبَ عَلَيْهَا، فَاسْتَنْبَطَهَا، أَوِ الْعَالِمُ بِهَا الْمُنَقِّبُ عَنْهَا... وَالنَّقِيبُ: نَقِيبُ الْقَوْمِ: شَاهِدُهُمْ وَضَمِينُهُمْ، وَمَعْنَاهُ وَمَعْنَى النِّقَابِ: الْعَالِمُ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ يُنَقِّبُ عَنْ أُمُورِهِمْ"[6].

"والنَّقيب: الَّذي ينقِّب عن أحوال القوم، ويفتِّش عنها، كما قيل له: عريف، لأنَّه يتعرَّفها"[7].

5) ﴿أَقَمۡتُمُ﴾: فعلٌ مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، الجذر اللغويُّ منه: (قوم)،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 216.
(2) السهيلي، الروض الأنف: 1/87.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (سرأل).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/449.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب).
(7) الزمخشري، الكشاف: 2/215.

ومصدرُه: الإقامةُ والدَّوامُ[1]، ويقالُ أقامَ الصَّلاةَ؛ إذا داومَ عليهَا، أمَّا إذا قيلَ أقامَ للصَّلاةِ؛ فمعناهُ نادَى عليها[2] بألفاظِ الإقامةِ.

وجوَّزَ بعضُ أهلِ العلمِ أنْ يكونَ ذلكَ من التَّقويمِ، وهوَ التَّعديلُ، من قولكَ: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتُه، ويكونُ معنَى (إقامَ الصلاةِ) على معنى: الإتيانِ بها على وجهِ المحافظةِ على أركانِها وشروطِها ومكمِّلاتِها[3].

ويحتملُ في إقامةِ الصَّلاةِ بمعنَى: إظهارِها؛ أخذًا من قولِهم: أُقيمتِ السُّوقُ،[4] ولامانعَ من الجمعِ بينَ تلكَ المعاني، فيكونُ معنَى إقامِ الصَّلاةِ داومَ عليهَا، وأظهرَها وأتَى بها محافظًا على أركانِها وشروطِها ومكمِّلاتِها، ومعنى إقامة الصَّلاة في الآية، أي: "ظاهرًا وباطنًا، بالإتيان بما يلزم، وينبغي فيها، والمداومة على ذلك"[5].

6) ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: فعل ماضٍ مضعَّف، مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه: (عزر)، والمصدر منه التَّعزير، ومن معانيه الضَّرب دون الحدِّ والنُّصرة والمؤازرة[6]، والأصل في معناه: دلالتان "إِحْدَاهُمَا: التَّعْظِيمُ وَالنَّصْرُ، وَالْكَلِمَةُ الْأُخْرَى: جِنْسٌ مِنَ الضَّرْبِ، فَالْأُولَى: النَّصْرُ وَالتَّوْقِيرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: التَّعْزِيرُ، وَهُوَ الضَّرْبُ دُونَ الْحَدِّ"[7].

و"التَّعْزِيرُ: النُّصرة مع التَّعظيم، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وقال ﷻ: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، والتَّعْزِيرُ: ضربٌ دون الحدِّ، وذلك يرجع إلى الأوَّل، فإنَّ ذلك تأديب، والتَّأديب نصرةٌ ما، لكنَّ الأوَّل نصرة بقمع ما يضرُّه عنه، والثَّاني: نصرة بقمعه عمَّا يضرُّه، فمن قمعته عمَّا يضرُّه؛ فقد نصرته"[8]، ومعنى ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ في الآية، أي: أيَّدتموهم ونصرتموهم بأن رددتم عنهم أعداءهم[9].

(1) الهروي، الغريبين: 5/1596.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 225.
(6) الخليل، العين: (عزر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزر).
(8) الراغب، المفردات: (عزر).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (عزر).

7) ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: فعل ماضٍ مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه (قرض)، "والقرضُ: اسمٌ لكلِّ مَا يُلتمَس عَلَيْهِ الجزاءُ مِن صدَقةٍ، أَو عملٍ صَالح، وأصلُ القرْض فِي اللُّغَة: القَطْعُ، وَمنه أُخِذَ المِقراض، وأَقْرَضْتُه، أَي: قطعتُ لَهُ قِطْعَة يُجازى عَلَيْهَا"[1].

أمَّا الأصل في معناه؛ فهو "يَدُلُّ عَلَى الْقَطْعِ، يُقَالُ: قَرَضْتُ الشَّيْءَ بِالْمِقْرَاضِ، وَالْقَرْضُ: مَا تُعْطِيهِ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالِكَ لِتُقْضَاهُ، وَكَأَنَّهُ شَيْءٌ قَدْ قَطَعْتَهُ مِنْ مَالِكَ"[2].

والقرض هنا: يراد به الصَّدَقة، سواء أكانت من باب الواجب أم المندوب، وسمِّي قرضًا من باب المجاز؛ إكرامًا للمتصدِّقين به، وإلَّا فهو صدقة يعود إليهم مقابله وبدله، أي: ثوابه[3]، "وَمَعْنَى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: الصَّدَقَاتُ غَيْرُ الْوَاجِبَةِ"[4].

8) ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ، وجذرُهُ اللغويُّ من: (كفر)، "وكلُّ شيء غطَّى شيئًا فقد كَفَرهُ... والكَفَّارة: ما يكفَّر به من الخطيئة واليمين، فيمحى به"[5].

وهو "يدلُّ على معنى واحدٍ، وهوَ السَّترُ والتَّغطيةُ، يقالُ لمَنْ غطَّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[6].

"ووصْفُ اللَّيلِ بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والزُّرَّاعَ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[7]، ومعنى كفر في الآيةِ: "فمن جحد منكم - يا معشر بني إسرائيل - شيئًا ممَّا أمرته به فتركه، أو ركب ما نهيته عنه"[8].

9) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويسمَّى مضعَّفُ الثلاثيِّ، والجِذر اللغويُّ منه: (ضلل)، والفعل منه: "ضلَّ يضِلُّ ضلالًا، والضَّلال: ضدُّ الهُدى، وضلَّ فِي الْأَمر ضلالًا؛ إِذا لم يهتدِ لَهُ، وضلَّ فِي الأَرْض ضلالًا؛ إِذا لم يهتدِ للسَّبيل"[9].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرض).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قرض).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/142.
(5) الخليل، العين: (كفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(7) الراغب، المفردات: (كفر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 10/124.
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).

والأصلُ في معناهُ: "ضياعُ الشَّيءِ، وذهابُه في غيرِ حقِّه"[1].

و"الضَّلَالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [هود: 108]، ويقال: الضَّلَالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا"[2].

والمقصودُ من فعل الضَّلال في الآية: هو الخطأ والانحراف عن قصد الطَّريق[3].

10) ﴿سَوَآءَ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعَال)، جذرُه اللُّغويُّ من (سوي)، ومنه: "السِّيُّ: المكان المستوي، وهما سِيَّانِ، أي: مثلان، أراد بهما: سواءان، غير أنَّ العرب تقول: هما سواء، وكذلك في الجميع والواحد، وإذا جمعوا سِيَّان؛ قالوا: سواسية، ولم يقولوا: سواسين كذا وكذا، وهم سواء"[4].

والأصلُ في معناهُ: أنْ يدلَّ "على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ، يقالُ: هذَا لا يساوِي كذا، أيْ: لا يعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمرِ، أيْ: سواءٌ"[5].

"وَسَوَاء الشَّيْء: وَسطُه... وَوضعتُ الشَّيْءَ فِي سَوَاءِ كمي، أَيْ: فِي وَسطِه"[6] ويمكنُ أنْ يكونَ السَّواءُ هو القصد؛ لأنَّ ابنَ قتيبةَ فسَّرَ اللَّفظةَ في الآيةِ بقولِه سَوَاءَ السَّبِيلِ، أيْ: قصدَ الطَّريقِ ووسطِه"[7].

ويوصفُ المكانُ بالسَّواءِ كنايةً عنْ عدلِه وتوسُّطِه بينَ الفريقينِ، والمرادُ في الآيةِ: أنَّهمْ ضلُّوا عن وسطِ الطَّريقِ؛ لأنَّ سواء كلِّ شيءٍ وسطه[8]، فإذا كانُوا كذلكَ؛ فهمْ لغيرِه أضلُّ.

11) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، جِذرُه اللُّغويُّ من (سبل)، ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على إرسالِ شيءٍ من علوٍّ إلى سفلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ... والممتدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سمِّيَ بذلكَ لامتدادِه، والسَّابلةُ: المختلفةُ في السُّبلِ جائية وذاهبة"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(2) الراغب، المفردات: (ضلّ).
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/15.
(4) الخليل، العين: (سيي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سأوي).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 141.
(8) الثعلبي، الكشف والبيان: 11/234.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).

والسَّبيلُ "كلُّ مأتيٍّ إِلَى الشَّيْءِ؛ فَهُوَ سَبيلُه"[1] وقدْ وردَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ، والغالبُ في معانيهِ أنَّهُ بمعنَى: الطَّريقِ[2]، وهوَ يذكَّرُ ويؤنَّثُ، وجمعُه على السُّبلِ، والسَّبيلُ في الآيةِ بمعناهُ المجازيِّ، أيْ: طريقُ الهدايةِ والإيمانِ؛ لأنَّه لمَّا "كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تُوَصِّلُ سَالِكَهَا إِلَى رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى؛ كَنَّى عَنْهَا بِالسَّبِيلِ"،[3] فهو ليسَ الطريقُ بمعناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل وثواب العمل به

يخبر اللّه تعالى أنَّه أخذ العهدَ المؤكَّد على بني إسرائيل أن يُخلصوا له العبادةَ وحدَه، وأمر اللّه موسى عليه السلام أن يجعل عليهم اثني عشر عَريفًا بعدد عشائرهم؛ ليكون كلُّ عَريفٍ ناظرًا عليهم، ورئيسًا على مَن تحتَه، يأخذُ هؤلاء العُرفاءُ عليهم العهدَ بالسَّمع والطَّاعة للّه ولرسوله ولكتابه، وقال اللّه لبني إسرائيل: إنِّي معكم بحِفظي ونَصري، لئن أقمتم الصَّلاة، وأعطيتم الزَّكاة المفروضة مستحقِّيها، وصدَّقتم برسلي جميعهم - الذين أفضلهم وأكملُهم محمَّد ﷺ - فيما أخبروكم به، ونصرتموهم، وأدَّيتم ما يجب لهم من الاحترام والطَّاعة، وأنفقتم في سبيلي من الصَّدَقة وطيبِ المكسب والإحسان؛ لأكفِّرنَّ عنكم سيِّئاتكم، ولأُدْخِلَنَّكم جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهارُ، فمن جحد هذا الميثاقَ منكم؛ فقد عدَلَ عن طريق الحقِّ إلى طريق الضَّلال[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّعبير بالفعل (أخذَ) مع (الميثاق) مع أنَّه أمر معنويّ:

عبَّر هنا بالفعل (أخذَ) مع لفظ (الميثاق) في قوله تعالى:

(1) الكفوي، التعريفات، ص: 494.
(2) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/557.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 109، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 109.

تنزيلُ المعنويِّ منزلة الحسِّيِّ لبيان أهمِّيَّته

﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، والأصل في الميثاق: دلالته على العقد والإحكام(1)؛ فجعل أخذ الميثاق - وهو أمر معنويٌّ - أي: "ألَّا تشركوا به شيئًا، وبالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وإحلال ما أحلَّ الله، وتحريم ما حرَّم الله، وحسن مؤازرتهم"(2)؛ فجاء التَّعبير هنا بهذه الصُّورة تنزيلًا للأمر المعنويِّ منزلةَ الحسِّيِّ؛ لأهمِّيَّته العظيمة؛ لما فيها من "معنى التَّشديد في العهد؛ لأنَّه مأخوذ مع الله ﷻ، وأيُّ عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرَّبِّ"(3).

وجهُ اشتمال الجملة على قد واللام:

الاهتمامُ بالمعنى المـــراد وهــو الالتزام بالمواثيق

قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ممَّا يجوز لغة قوله: (وأخذَ الله ميثاقَ بني إسرائيل) إلَّا أنَّه جاء هنا باللَّام وقد (لقد)، فهو من باب توكيد "الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ بِقَدْ وَبِاللَّامِ؛ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ، كَمَا يَجِيءُ التَّأْكِيدُ بِإِنَّ لِلِاهْتِمَامِ، وَلَيْسَ ثَمَّ مُتَرَدِّدٌ، وَلَا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَتَهُ"(4)، فالغرض من ذلك أن يهتمَّ للمعنى المراد، وهو الالتزام بالمواثيق والعهود.

فائدة التَّعبير بالاسم الجليل (الله):

تربية المهابة وتفخيم الميثاق

قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هنا جاء بالاسم الجليل (الله) في بدء الآية، والغاية منه لتربية المهابة، وتفخيم الميثاق، وتهويل الخطب في نقضه.

دلالةُ التَّعبير بـ(نَقِيب) زنة (فَعِيل):

صيغةُ «فَعِيل» تحتمل الفاعليَّة وتـحـتـمـل المفعوليَّة

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾، النَّقيب اسم على وزن (فَعِيل)، والنَّقْب: هو الثَّقب الكبير، والنقيب: هو الذي ينقِّب عن أحوال القوم، ومنه مناقبهم، أي: فضائلهم الَّتي تكون خافية،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وثق).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 3/479.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2070.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/139.

فتظهر بالتَّنقيب عنها، فهو هنا بمعنى: الفاعليَّة، ويجوز أن يكون "النَّقيب هاهنا: فَعِيلٌ، بِمَعْنَى: مَفْعُولٍ، يَعْنِي: اخْتَارَهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِهِمْ، وَنَظِيرُهُ أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَضْرُوبِ: ضَرِيبٌ، وَلِلْمَقْتُولِ قَتِيلٌ"(1).

تقديم المتعلَّق (منهم) على المفعول:

التَّقديم لأجل الاهتمام وتشويقًا للمؤخّر

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾، ﴿مِنۡهُمُ﴾ جارٌّ ومجرور متعلَّق بـ﴿وَبَعَثۡنَا﴾، و﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ﴾ مفعول به(2)، والأصل في المتعلَّق أن يتأخَّر، لكنَّه قدَّمه هنا: "وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح لما مرَّ مرارًا من الاهتمام بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر"(3).

غرض الالتفات في: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ﴾:

جريًا على سنن الكبرياء

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الحضور، والغرض منه أن يكون جاريًا على سنن الكبرياء(4) مع ما فيه من التَّعبير بالجمع، أو لأنَّ البعث كان بواسطة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وجهُ فرادة التَّركيب وقوَّته في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾:

التَّوكيدات المتكرِّرة لطمأنة المخاطبين

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ جملة فريدة من نوعها؛ إذ لم يرد مثلها في القرآن الكريم جميعًا إلَّا في هذا الموضع، وهي جملة مركَّبة من مجموعة من الألفاظ الَّتي تشي بالقوَّة النَّاتجة عن التَّوكيد في مجموعها العامِّ؛ فقد صدَّرها بالفعل ﴿وَقَالَ﴾، والخطاب موجَّه لهم على تقدير: (وقال لهم)(5)، ثمَّ التَّصريح بلفظ الجلالة مع أنَّه ذكره أوَّل الآية، وتكرار ذكره يخلع على الجملة

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/188 - 189.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/428.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/21.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/85.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189.

فخامة وتوكيدًا، ثمَّ زاد على ذلك (إنَّ) الدَّالَّة على التَّوكيد، وجاء اسمها ضميرًا دالًّا عليه ﷻ، ثمَّ جاء الخبر شبه جملة دالًّا على المعيَّة الَّتي تقوِّي الجملة، فمحصول الجملة مشتمل على توكيد إثر آخر، غرضه إيصال الطُّمأنينة للمخاطبين في أنَّه تعالى قريب منهم، "أَيْ: بِالنَّصْرِ وَالْحِيَاطَةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَعِيَّةِ دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ الِاعْتِنَاءِ وَالنُّصْرَةِ، وَتَحْلِيلِ مَا شَرَطَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَأْتِي بَعْدُ"[1].

المجاز في قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾، تعبير المعيَّة تعبير مجازيٌّ، غايته: الإشارة إلى الاعتناء والحفظ والتَّأييد والنَّصر، وهو بمنزلة الجزاء على وفائهم بالميثاق[2]، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12]، وهذه المعيَّة المذكورة في الآيةِ الكريمة هي من المعيَّة الخاصَّة، المقيَّدة بشخص معيَّن، وهي من الصِّفات الفعليَّة للّه تعالى؛ لأنَّ مقتضياتها تابعة لأسبابها، توجد بوجودها، وتنتفي بانتفائها، وتقتضي النَّصر، والتَّأييد لمن أضيفت له، وهي مختصَّة بمن يستحق ذلك من الرُّسل وأتباعهم، وهذه المعيَّة توجب لمن آمن بها كمال الثَّبات والقوَّة[3].

دلالة المعيَّة في ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ دلالة رقابيَّة:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾، التَّعبير بالمعيَّة فيه دلالة أخرى، وهي دلالة رقابيَّة، "أي: إنَّه ﷻ مطَّلع على واقعكم... لأنَّ اللّه رقيب، وقوله الحقُّ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ تدلُّ على أنَّ مَن ولي أمرًا؛ فلا بدَّ أن يتابعه ويراه"[4].

وجه البدء بالصَّلاة في الأركان المأخوذة عليهم:

الصَّلاة ركن كلِّ دين وبها طهارة النُّفوس

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، ذكر هنا الأركان الخمسة الَّتي إن قاموا بها؛ كفَّر عنهم سيِّئاتهم، وهي: الصَّلاة والزَّكاة والإيمان بالرُّسل وتعزيرهم والإنفاق في سبيل اللّه، وقد قدَّم إقامة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/141.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/193.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2998.

الصَّلاة؛ لأنَّها "طهارة النُّفوس، وتزكية القلوب، وبها تربية الضَّمير الَّذي يكون جماعة مؤتلفة، وإقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربِّي في النَّفس روح الخير، والإحساس بعظمة اللّٰه تعالى، ولا يمكن أن يكون الوفاء بالميثاق الإلهيِّ من غير إقامة الصَّلاة؛ فإنَّها ركن كلِّ دين"[1].

معنَى الألفِ واللَّامِ في كلمةِ (الصلاة):

تزاحمُ الأقوالِ على بابِ القبولِ بتأييدِ السِّباقِ واللِّحاقِ

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تحتملُ الألفُ واللَّامُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنْ تكونَ للعهدِ، أي: الصَّلاةُ المشروعةُ، ويؤيِّدُه أنَّ الصَّلاةَ إذا أُطلقتْ في لسانِ الشَّرعِ؛ فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلَّا للصَّلاةِ المعروفةِ، فهي حقيقةٌ شرعيَّةٌ، وإن كان الخطاب لبني إسرائيل، لكنْ ما المرادُ بالعهدِ: هل المكتوبةُ؟ أو جميعُ الصَّلواتِ، المكتوبةُ والمسنونةُ؟ الظَّاهرُ أنَّها المكتوبةُ، لأمرينِ وهما: الأمرُ بهَا، وقرنُها بالزَّكاةِ الواجبةِ، وحملُها على استغراقِ جميعِ الصَّلواتِ، فيدخلُ الواجبُ والنَّفلُ، يؤيِّدُه اللِّحاقُ، ويكونُ المقصودُ بالأمرِ بإقامتِها: تعديلَها والخشوعَ فيها، وأنْ تكونَ مقوِّمةً لصاحبِها، والمعنيانِ متزاحمانِ على بابِ القبولِ: الأوَّل يُؤيِّده السِّباقُ، والثَّاني يُؤيِّدُه اللِّحاقُ.

نكتةُ حذفِ المفعولِ الثَّاني:

بيانُ أهمِّيَّةِ العنايةِ بالمالِ المُزكَّى، وإطلاقُ فعلِ الإيتاءِ لإظهارِ العجلةِ في ذلكَ

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، المفعولُ الثَّاني للفعلِ ﴿وَءَاتَيْتُمُ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: مستحقِّيها، وحذفَ المفعول الثَّاني للإيجازِ وللعلمِ بهِ، ودليلُه: دليلٌ شرعيٌّ؛ لأنَّ الزَّكاةَ تصرفُ لمستحقِّيها، أمَّا غرضُ الحذفِ، وهو النُّكتةُ البيانيَّةُ؛ فهوَ لبيانِ أهمِّيَّةِ المعطَى لا المعطَى لهُ، وحثِّ المسلمينَ على العنايةِ بإيتاءِ الزَّكاةِ أكثر من العنايةِ بالمستحقِّينَ؛ فهؤلاء المستحقُّونَ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2072.

فصَّلتْ فيهم أدلَّةٌ أخرَى، وأمرٌ آخر: وهو إطلاقُ فعلِ الإيتاءِ بحيثُ يكونُ هَمُّ المزكِّي إيتاءَ الزَّكاةِ بما يُشابِه التَّخلُّصَ منهَا على وجهِ السُّرعةِ والعجلةِ.

نكاتُ تقديمِ جملةِ ﴿أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على جملةِ ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، عُطِفتْ جملةُ ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على جملةِ ﴿أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بجامعِ أنَّهما أهمُّ ركنينِ من أركانِ الإسلامِ، والعطفُ هنا "بالواوِ المقتضيةِ عدم التَّرتيبِ، فإنَّهم معَ ذلك إنَّما يبدؤونَ بالأهمِّ والأولَى"[1]؛ فيُسألُ عن سرِّ تقديمِ الأمرِ بالصَّلاةِ على الأمرِ بالزَّكاةِ؟ وذلكَ يظهرُ من خلالِ النِّكاتِ الآتيةِ:

النُّكتةُ الأولَى تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والقاعدةِ الأهمِّ على القاعدةِ المهمَّةِ

ولا ريبَ أنَّ الصَّلاةَ: هي القاعدةُ الأهمُّ، والزَّكاةُ: هي القاعدةُ المهمَّةُ، وهذا بدهيٌّ في مقياسِ التَّفضيلِ، فهيَ عمادُ الدِّينِ، ومعَ ذلكَ فهما مطلوبتانِ، لكنَّ الأولَى أهمُّ من بابِ أنَّها جوازُ مرورِ العبدِ لتلقِّي الحسابِ؛ لقوله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ»[2]، والأمرُ الآخرُ: وهوَ أنَّ الصَّلاة تمثِّلُ القاعدةَ الَّتي تُقبَلُ الزَّكاةُ بناءً عليها، فهوَ من قبيلِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ.

النُّكتةُ الثَّانيةُ تقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ

المأمورونَ بإقامةِ الصَّلاةِ همْ أضعافُ المأمورينَ بإيتاءِ الزَّكاةِ، فالصَّلاةُ فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم، بخلافِ الزَّكاةِ فهي فرضٌ على كلِّ من مَلكَ النِّصابَ، وحالَ عليه الحولُ، وعليهِ فتقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ.

الصَّلاةُ عبادةٌ بدنيَّةٌ يوميَّةٌ تُقام خمسَ مرَّاتٍ في اليوم والليلةِ، أمَّا الزكاةُ فهيَ عبادةٌ ماليَّةٌ سنويَّة، فالوقتُ الذي تستغرقُه الصَّلاةُ من حياةِ المسلمِ وقتَه كلَّه، بينَما الزَّكاةُ لا تأخذُ إلَّا وقتًا

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/37.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (16614).

النُّكتةُ الثَّالثة تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ على ما لا يأخذُ إلَّا الوقتَ اليسيرَ

يسيرًا جدًّا؛ فلهذَا حسُنَ تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ، على ما لا يأخذُ إلَّا الوقتَ اليسيرَ.

سرُّ تأخير الإيمان بالرُّسل مع أنَّه مقدَّم على الصَّلاة والزَّكاة:

من أهمِّ صفات اليهود تكذيبهم الرُّسل

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾، هنا أخَّر الإيمان بالرُّسل عن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، مع أنَّ الإيمان مقدَّم عليهما، فالإيمان أساس، والصَّلاة والزكاة بناء، والأساس قبل البناء، وذلك لأنَّ "الۡيَهُودَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي حُصُولِ النَّجَاةِ مِنۡ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، إِلَّا أَنَّهُمۡ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى تَكۡذِيبِ بَعۡضِ الرُّسُلِ، فَذَكَرَ بَعۡدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الۡإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ حَتَّى يَحۡصُلَ الۡمَقۡصُودُ، وَإِلَّا لَمۡ يَكُنۡ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ تَأۡثِيرٌ فِي حُصُولِ النَّجَاةِ بِدُونِ الۡإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ"[1].

تقديم الصَّلاة والزَّكاة على الإيمان من باب التَّشريف

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾، هنا قدَّم الصَّلاة والزَّكاة على الإيمان بالرُّسل، "وإقامة الصَّلاة: توفية شروطها، والزَّكاة هنا: شيء من المال كان مفروضًا... وقدَّم هذه على الإيمان تشريفًا للصَّلاة والزَّكاة، وإذ قد علم، وتقرَّر أنَّه لا ينفع عمل إلَّا بإيمان"[2].

الإيمان بالرُّسل مقترنٌ بتعزيرهم وتأييدهم

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾، هناك سبب آخر في تأخير "الإيمان عن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة مع كونهما من الفروع المترتِّبة عليه... ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾"[3]، وهو اقتران لفظيٌّ ومعنويٌّ: لفظيٌّ بالمجاورة، ومعنويٌّ بأنَّ الإيمان بالرُّسل يقتضي طبيعة مؤازرتهم وتعزيرهم.

---

(1) القمّاش، الحاوي: 240/160.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/168.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 87 - 88.

في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، الإيمان بالرُّسل في هذه الآية ليس مقتصرًا على ما مضى كما هو ظاهر النَّصّ، بل هناك "إيمانٌ ضمنيٌّ مقدَّر في ثنايا القول، وإن لم يكن مذكورًا، وإنَّ الإيمان بالرَّسل المذكور من بعد هو الإيمان بالرُّسل الذين يجيئون من بعد موسى، كعيسى ومحمَّد - صلّى اللّه تعالى عليهما وسلّم - حتَّى لَا يحسبوا أنَّ الرسالة مقصورة على موسى"[1].

في الآيـة إيمان ضمنيٌّ بجميع الـرُّسـل بعد موسى عليه السلام

تعزير الرُّسل يشتمل على دلالات متعددة:

في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، تعزير الرُّسل هنا يشتمل على معانٍ متعدِّدة ملتقية، منها: النَّصر، ومنها منع العدوِّ عنهم، ومنها الردُّ، ومنها التَّوقير؛ لأنَّ التَّوقير والتَّعظيم من أسباب نصرة الرُّسل[2]، فضلًا عن عدم التَّهجُّم عليهم، والسُّخرية منهم، فهذه مجموعة دلالات تلتقي، ولا تفترق.

منه التَّوقير والتَّعظيم والنَّصر والرَّدُّ والمنع

دلالة قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد ذكر الزَّكاة مع أنَّ بينهما تشابهًا:

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ذكر هذه الجملة بعد جملة من قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، مع أنَّ جملة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾ داخلة "تَحْتَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي الْإِعَادَةِ؟ وَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ بِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ: الْوَاجِبَاتُ، وَبِهَذَا الْإِقْرَاضِ الصَّدَقَاتُ الْمَنْدُوبَةُ، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى شَرَفِهَا وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهَا"[3].

الزَّكاة من الواجبات والقرض من المندوبات

الاستعارة في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، من باب الاستعارة؛ "لأنَّه سبحانه لمَّا وعد بجزائه والثَّواب عليه، شبَّه بالقرض الَّذي

مقابل القرض أن يكون جزاءً وثوابًا لكنَّه شبَّهه بمثله

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2074.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/301.
(3) القمّاش، الحاوي: 240/160.

يقضى بمثله، وفي كلام العرب قديمًا: الصَّالحات قروض ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾، وهو ما كان عن طيب نفس"[1].

وجه العدول الصَّرفي عن (إقراضًا):

الإقراض يشير إلى الفعل المتبادل وهو غير مراد بل المراد القرض نفسه

في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، عبَّر هنا أوَّلًا بالفعل المزيد (أقرضَ)، ولمَّا أراد أن يؤكِّده بالمفعول المطلق جاء بمصدر الفعل المجرَّد، والسِّياق لغة يقتضي التَّعبير بمصدر الفعل المزيد نفسه، بأن يقول: (أقرضْتم اللّه إقراضًا)، لكنَّه عدل عن مصدر المزيد إلى مصدر المجرَّد؛ "لأنَّ الإقراض هو العمليَّة الحادثة بين الطَّالب للقرض والذي يقرض"،[2] وهو غير مراد، بل المراد القرض نفسه، أي: ما يقدِّمه الإنسان، ثمَّ يجازى به.

دلالةُ وصف القرض بالحسن:

القرض الحسن الَّذي يخلو من شائبة المنِّ أو الأذى أو المنفعة

في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، قوله: ﴿حَسَنًا﴾ صفة للقرض[3]، وقد أورده مع هذه الصِّفة، "حتَّى لا يكون فيه منٌّ، أو منفعةٌ تعود على المقرض، وإلَّا صار في القرض ربا... والقرض الحسن: هو الذي لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة"[4].

تقديم تكفير السَّيِّئات على إدخال الجنَّات:

التَّطهيرُ من الذُّنوب تأهيل لدخول الجنَّات

في قوله تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، هنا قدَّم تكفير السَّيِّئات على إدخالهم الجنَّات، فـ"التَّكفير هو السِّتر والتَّغطية، وإنَّه يستر الذُّنوب حتَّى عن العاصي، فيمحو من ديوانه، وينسِي الحَفظَة سوالف عصيانه، وينفي عن قلبه تذكُّر ما أسلفه، ولا يوقِفُهُ في العَرْصة على ما قَدَّم من ذنبه، ثمَّ بعد ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/88.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3004.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/428.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3002.

يدخله الجنَّة بفضله"،[1] والتَّقديم هنا من باب أنَّ التَّطهير من الذُّنوب تأهيل لدخول الجنَّات.

التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية

في قوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾، هنا قدَّم تكفير السَّيِّئات على إدخالهم الجنَّات، "وأكَّد العطاء بمثل ما أكَّد الغفران، وقد قدَّم سبحانه الغفران على الثَّواب؛ لأنَّ الغفران تطهير، والتَّطهير مقدَّم على غيره، أو كما يقول العلماء: التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية"[2].

وجهُ تذييل الآية بضلال السَّبيل للكافر:

قبحُ الكفر بقدر عِظَم النِّعمة المكفورة

في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، قد يرد سؤال، أنَّه كيف جاء هذا التَّذييل في الآية، مع أنَّ كلَّ كافر هو ضالٌّ للسَّبيل؟ والجواب عن ذلك: "نعم، ولكنَّ الضَّلال بعد ما ذكر من النِّعم أقبح؛ لأنَّ قبح الكفر بقدر عظم النِّعمة المكفورة، فلذلك خصَّه بالذِّكر، فَإِذَا زَادَتِ النِّعْمَةُ؛ زَادَ قُبْحُ الْكُفْرِ، وَبَلَغَ النِّهَايَةَ القصوى"[3].

عدم الاهتداء إلى السَّبيل تعبير مجازيّ:

التَّعبير بالحسِّيَّات تقريب للأمَّة وتشبيه من واقعها

في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، عدم الاهتداء إلى السَّبيل تعبير على طريقة المجاز؛ لأنَّ السَّبيل: هو الطَّريق، وهو الممتدُّ طولًا؛ سُمِّي بذلك لامتداده، والضَّلال المعنيُّ في الآية: ضلال العقيدة والدِّين، وفيه امتداد وتشعُّبٌ والتواءٌ، فهو ضلال معنويٌّ، لكنَّه شبَّهه هنا بالحسِّيِّ؛ لأنَّ القرآن نزل على أمَّة تحبُّ التَّشبيهات في أسمائها ونعوتها وأماكن سكناها، فأراد أن يقرِّب لها المثال، فمن الخير للإنسان أن يتوسَّط في مشيه؛ لأنَّ "اليمين والشِّمال مضلَّة،

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 1/410.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2076.
(3) الرازي، أنموذج جليل، ص: 96.

وخير الأمور الوسط؛ لأنَّ الإنسان قد يتَّجه يمينًا، فيقع، أو يتَّجه شمالًا، فيقع، أو تقع عليه صخرة، ونجد الوالد ينصح ابنه، فيقول له: امشِ، ولا تلتفت يمينًا أو يسارًا، واتَّجه إلى مقصدك"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

إرشادُ المُزكِّي إلى أن تكونَ زكاتُه صادرةً عن يُسْرٍ وسهولةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإيتاءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولم يعبِّرْ بمادَّةِ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[2]، وقدْ خُصَّ هذا الفعلُ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ حيثُما وردَ في القرآنِ الكريمِ[3]، وعليهِ فالآيةُ تُرشدُ إلى أن تكونَ الزَّكاةُ مُؤدَّاةً بيُسرٍ وسهولةٍ.

أمَّا فعلُ الإعطاءِ؛ فإنَّه "اتِّصَال الشَّيْء إِلَى الآخِذ لَهُ، أَلا ترى أَنَّك تُعْطِي زيدًا المَال؛ ليَرُدَّهُ إِلَى عَمْرو، وتعطيه ليتَّجرَ لَك بِهِ"[4]، أي: إنَّ المعطَى يُعاد إلى المعطِي هذا أصلُه، وهذا ليسَ متعيَّنًا في فعلِ الإيتاءِ، فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ اللّه في المال، وهي بمنزلةِ الهبةِ، فلا تعادُ، وهذا هو الأنسب في التَّعبير.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/305.
(2) الراغب، المفردات: (أتى).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (أتى).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السَّابقة الميثاقَ والعهد بين الحقِّ تبارك وتعالى وعباده، وهو ميثاق مخصوص هنا ببني إسرائيل؛ فقد أخذه اللّه عليهم في إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والإيمان بالرُّسل ونصرهم وتعزيرهم، لكنَّهم بعد ذلك نقضوا ميثاقه الذي واثقهم به؛ فناسب أن يذكر ما وجبَ عليهم من العقابِ "عَلَى ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يَنْتَظِرُونَ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ أَشَدُّ وَأَبْقَى؛ لِنَعْتَبِرَ بِحَالِهِمْ، وَنَتَّقِيَ حَذْوَ مِثَالِهِمْ، وَلِيُبَيِّنَ لَنَا عِلَّةَ كُفْرِهِمْ بِنَبِيِّنَا، وَتَصَدِّيهِمْ لِإِيذَائِهِ وَعَدَاوَةِ أُمَّتِهِ؛ وَلِيُقِيمَ بِذَلِكَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقۡضِهِم﴾: مصدر للفعل (نقضَ ينقضُ)، والجذر اللغويُّ منه: (نقض)، ومعناه: "إفساد ما أبرمت من حبل أو بناء"(2).

والأصل في معناه: دلالته عَلَى نَكْثِ شَيْءٍ وَنَقْضِ الْعَهْدِ مِنْهُ أَيْضًا(3).

و"المعنى المحوريُّ: تفكُّك ما قوَّى ارتباط أجزائه الباطنة لضغط شديد أو نحوه، كانتقاض البناء والعَقْد والحَبْل والغَزْل ونحوهن"(4).

وهو أيضًا: "انْتِثَارُ العَقْدِ مِنَ البِنَاءِ والحَبْلِ والعِقْدِ، وهو ضِدُّ الإِبْرَام، يقال: نَقَضْتُ البِنَاءَ والحَبْلَ والعِقْدَ... ومن نَقْضِ الحَبْلِ والعِقْد استُعِيرَ نَقْضُ العَهْدِ"(5) والمعنى في الآية:

(1) رضا، تفسير المنار: 6/231.
(2) الخليل، العين: (نقض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقض).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض).
(5) الراغب، المفردات: (نقض).

"أنَّ بني إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده، بأن كذَّبوا الرُّسل الذين جاؤوا من بعد موسى، وقتلوا أنبياء الله، ونبذوا كتابه، وضيَّعوا فرائضه"[1].

2) ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾: فعل ماضٍ من (لعنَ يلعنُ)، مسند لضمير الجمع الدَّالِّ على عظمته تعالى، جذره اللُّغويُّ: (لعن)، واللَّعن: الإبعاد من الله، أو من رحمته؛ ليستحقَّ العذاب[2].

والأصل في معنى اللَّعن: دلالته "عَلَى إِبْعَادٍ وَإِطْرَادٍ، وَلَعَنَ اللهُ الشَّيْطَانَ: أَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لِلذِّئْبِ: لَعِينٌ"[3].

و"المعنى المحوريُّ: نَفْي أو طَرد، وإبعاد من الحيِّز بتخويف وذَعر؛ لعدم قبول القرب... ومن معنويِّه "اللّعْنُ: الطّرد والإبعاد من رحمة الله وجنَّته، ومن الخير غضبًا وعدم قبول... وليس في القرآن من التَّركيب إلَّا فعل (اللَّعن) وما هو منه بمعنى: الطَّرد، والإبعاد من رحمة الله"[4].

و"اللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾"[5].

ومعنى لعنَّاهم في الآية: الإبعاد من رحمته تعالى، وورد بمعنى: المسخ[6].

3) ﴿قَٰسِيَةً﴾: اسم فاعل من الفعل (قسا يقسو)، الجذر اللُّغويُّ له: (قسو)، ومنه "القَسْوة: الصَّلابة في كلِّ شيء، وقَسَا يَقْسُو، فهو قاسٍ، وليلة قاسيةٌ: شديدة الظُّلمة، والمُقاساةُ: معالجة الأمر ومكابدته"[7].

والأصل في معناه: الدَّلالة على الصَّلابة والقوَّة والشِّدَّة، كالأحجار القاسية، وقد يشبَّه بها القلوب القاسية؛ لما فيها من الغلظة[8].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/23.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لعن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعن).
(5) الراغب، المفردات: (لعن).
(6) البَغويّ، معالم التنزيل: 3/31.
(7) الخليل، العين: (قسو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسي).

و"القَسْوَةُ: غلظ القلب، وأصله من: حجر قَاسٍ، والْمُقَاسَاةُ: معالجة ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾"[1]، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حول الغلظة والصَّلابة والشِّدَّة والخلوِّ من الرَّحمة واللِّين[2]، ومعنى قسوة القلوب في الآية: صلابتها بتشبيهها بالأجسام الصُّلبة كالحجارة، فالقسوة في القلوب مجازيَّة للمبالغة[3]؛ لأنَّ معنى قاسية في الآية: أنَّها لا تلين عند رؤية الآيات، وعند النَّذر، ولا تتأثَّر بالمواعظ[4].

4) ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: فعل مضارع مضعَّف مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه: (حرف) "وتَحَرَّفَ فلانٌ عن فلان وانحَرَف، واحرَوْرَفَ واحد، أي: مالَ"[5]، فالتَّحريف من الميل، ومنه الانحراف.

وله أصل في المعنى دالٌّ على"الِانْحِرَافِ عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: انْحَرَفَ عَنْهُ يَنْحَرِفُ انْحِرَافًا، وَحَرَّفْتُهُ أَنَا عَنْهُ، أَيْ: عَدَلْتُ بِهِ عَنْهُ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: مُحَارَفٌ، وَذَلِكَ؛ إِذَا حُورِفَ كَسْبُهُ"[6].

والتَّحريف من الإمالة، ومنه تحريف الكلام[7]، وهو الوارد في الآية، "وَالتَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى الْحَرْفِ، وَالْحَرْفُ هُوَ الْجَانِبُ، وَقَدْ كَثُرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ اسْتِعَارَةُ مَعَانِي السَّيْرِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، إِلَى مَعَانِي الْعَمَلِ وَالْهُدَى وَضِدِّهِ"[8].

5) ﴿ٱلْكَلِمَ﴾: اسم جنس جمعيٍّ، مفرده: (كلمة)، وجذره اللُّغويُّ من: (كلم)، وأصل الكاف واللَّام والميم: "يدلُّ على نطق مفهم... تقول: كلَّمتُه أكلِّمه تكليمًا، وهو كليمي؛ إذا كلَّمك، أو كلَّمته، ثمَّ يتَّسعون، فيسمُّون اللَّفظة الواحدة المفهمة: كلمة، والقصَّة: كلمة، والقصيدة بطولها: كلمة"[9].

والكلام: "يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند

(1) الراغب، المفردات: (قسو).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (قسو).
(3) رضا، تفسير المنار: 1/292.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/1916.
(5) الخليل، العين: (حرف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرف).
(7) الراغب، المفردات: (حرف).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/143.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).

النَّحويِّين يقع على الجزء منه، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداة، وعند كثير من المتكلِّمين لا يقع إلَّا على الجملة المركَّبة المفيدة"[1].

والمعنى المراد في الآية: أنَّ الكلم "جماع كلمة، وكان مجاهد يقول: عنى بالكلم: التَّوراة"[2].

6) ﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جمع تكسيرٍ، مفرده: (موضع)، جذره اللُّغويُّ: (وضع)، و"المَوْضِعُ: المكان، والمَوْضعُ أيضًا: مصدر قولك: وضعتُ الشَّيء من يدي وَضْعًا، ومَوْضوعًا، وهو مثل المعقول... ويقال في الحَجَر وفي اللَّبِن؛ إذا بُنِي به: ضَعْهُ على غير هذه الوضعة"[3].

والأصل في معناه: أن "يَدُلّ عَلَى الْخَفْضِ (لِلشَّيْءِ) وَحَطِّه، وَوَضَعْتُهُ بِالْأَرْضِ وَضْعًا، وَوَضَعَتِ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ووُضِعَ فِي تِجَارَتِهِ يُوضَعُ: خَسِرَ، وَالْوَضَائِعُ: قَوْمٌ يُنْقَلُونَ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ يَسْكُنُونَ بِهَا"[4]، والموضع مشتقٌّ من الوضع، وهو أمر يدلُّ على الحطِّ، لكنَّه أعمُّ منه[5].

وتحريف الكلم عن مواضعه في الآية: "قَالَ الْحسن: حرَّفوا كَلَام اللّه، وَهُوَ الَّذِي وضعُوا من قِبَلِ أنفسهم من الْكتاب، ثُمَّ ادَّعوا أَنَّهُ من كتاب اللّه"[6].

7) ﴿وَنَسُواْ﴾: فعل ماضٍ (نَسِيَ) مسند إلى واو الجماعة، جذرهُ اللُّغويُّ منْ: (نسي)، ومصدرهُ النِّسيانُ، و"نَسِيَ فلانٌ شيئًا كان يَذْكُرُهُ، وإنَّه لنسيٌّ، أي: كثير النِّسيان، من قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم: 64]. والنَّسْي: الشَّيء المَنسِيُّ الذي لا يُذكر... وسمِّي الإنسان من النِّسيان"[7].

و"النُّونُ والسِّينُ والياءُ: أصلانِ صحيحانِ يدلُّ أحدُهما على إغفالِ الشَّيءِ، والثَّاني على تركِ شيءٍ"[8]، والمعنيان متشابهان.

(1) الراغب، المفردات: (كلم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/103.
(3) الجوهري، الصحاح: (وضع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(5) الراغب، المفردات: (وضع).
(6) ابن زمنين، تفسير القرآن العزيز: 1/377.
(7) الخليل، العين: (نسي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).

و"النِّسْيَانُ: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ؛ إمَّا لضَعْفِ قلبِه، وإمَّا عن غفْلةٍ، وإمَّا عن قصْدٍ حتَّى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، يقال: نَسِيتُهُ نِسْيَانًا"[1].

ومعناه أيضًا: "ضدُّ الذِّكْر، حيث يغيب ما كان محفوظًا في العقل، ويخفى، وهو يشمَل تركَ الشَّيء بمعنى: إغفاله، ونظير هذا قولهم عن الشَّخص أو الشَّيء المجهول: إنَّه مغمور"[2]، ومعنى (نسوا) في الآية: "نصٌّ على سوء فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظٌّ عظيم فيما ذكِّروا به، فنسوه، وتركوه"[3].

8) ﴿حَظًّا﴾: اسم مجرَّد من مضعَّف الثُّلاثيِّ، جذره اللُّغويُّ: (حظظ)، "والحظُّ: النَّصيبُ من الفَضْل والخير، والجميع: الحُظُوظ"[4].

وكلُّ (حظٍّ) في القرآن؛ فهو بهذا المعنى[5]، ومعنى الحظِّ في الآية: هو النَّصيب[6].

9) ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، مسند لواو الجماعة، والجذر اللُّغويُّ منه: (ذكر)، وهو "الحفظ للشَّيء تذكره، وهو مني على ذُكْر، والذِّكرُ: جري الشَّيء على لسانك، تقول جرى منه ذِكر"[7].

ولهذا الجذر أصلان في المعنى، أحدهما من التَّذكُّر، وهو خلاف النِّسيان، فحملوا عليه الذِّكر باللِّسان[8].

و"الذِّكْرُ: تارة يقال، ويراد به: هيئة للنَّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلَّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء القلب أو القول"[9].

(1) الراغب، المفردات: (نسى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسو - نسى).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/169.
(4) الخليل، العين: (حظ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظ).
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/528.
(7) الخليل، العين: (ذكر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(9) الراغب، المفردات: (ذكر).

و"الذِّكر بالكسر له معنيان، أَحدهما: التَّلَفُّظ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضاره في الذِّهن بحيث لا يغيب عنه"[1] والمراد بالَّذي ذكِّروا به في الآية: هو التَّوراة[2].

10) ﴿خَآئِنَةٍ﴾: اسم فاعل للمؤنَّث من (خانَ يخونُ)، جذره اللُّغويُّ من: (خون)، ومنه الخيانة الَّتي تحصل في الودِّ والنَّصيحة، وتغيُّر الإنسان من حالة إلى أخرى شرٍّ منها[3].

والأصل في معنى الخيانة: "التَّنَقُّصُ، يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وَذَلِكَ نُقْصَانُ الْوَفَاءِ، وَيُقَالُ: تَخَوَّنَنِي فُلَانٌ حَقِّي، أَيْ: تَنَقَّصَنِي"[4]، و"الخِيَانَة والنِّفاق واحد، إلَّا أنَّ الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة"[5].

و"قيل: هي صفة لفرقةٍ أو جماعةٍ، أي: على جماعةٍ خائنةٍ، أو فرقةٍ خائنةٍ، وقيل: على خائنٍ منهم، والتَّاء للمبالغة كرواية وداهية، وقيل: الخائنة بمعنى: مصدر جاء على فاعلةٍ كالعافية والكاذبة"[6].

ومعنى خائنة في الآية: "الخيانة، وُضع وهو اسمٌ موضع المصدر، كما قيل: خاطئة للخطيئة، وقائلة للقيلولة"[7].

11) ﴿فَٱعْفُ﴾: فعلُ أمرٍ من (عفا يعفُو)، وجذره اللُّغويُّ (عفو)، والعفو "تركُكَ إنسانًا استوجَبَ عُقوبةً؛ فعفوتَ عنه تعفُو، واللّه العَفُوُّ الغفوُّ"[8].

والأصلُ في معناه: أن يدلَّ على تركِ الشَّيءِ، فـ"عفوُ اللّه تعالى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركُه إيَّاهُم، فلا يعاقبُهمْ، فضلًا منهُ"[9].

و"العَفوُ عن الذُّنوبِ: عَدَمُ المؤاخذةِ عليها، وكأنَّ مَن عفَا غطَّاهَا، أوأعرضَ عنهَا؛ فلمْ

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 456.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(3) الخليل، العين: (خون).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خون).
(5) الراغب، المفردات: (خون).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (خون).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 10/131.
(8) الخليل، العين: (عفو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/56.

ينظرُ إليهَا"[1]؛ لأنَّ الأصلَ في العفوِ: التَّغطيةُ، والعفوُ الواردُ في الآيةِ ألَّا يؤاخذهم عمَّا صدر منهم من ذنوب[2].

12) ﴿وَٱصْفَحْۚ﴾: فعلُ أمرٍ موجَّهٌ لجماعةِ الحضورِ، جذرُه اللُّغويُّ من (صفح)، والاسمُ منهُ الصَّفْحُ، "وأصلُ الصَّفحِ: أَنْ تنحرفَ عَن الشَّيءِ؛ فتوليهِ صفحةَ وَجهِك، أَيْ: نَاحيَةَ وَجهِك"[3].

"وصفحتُ عن الرَّجل، أصفح صفحًا؛ إِذا عَفَوْتُ عَن جرمه، وأضربتُ عَن هَذَا الْأَمر صفحًا؛ إِذا تركتُه"[4] وأصلُ معناهُ: العرضُ، وهوَ صفحُ الشَّيءِ[5].

والمرادُ من الصَّفح في الآيةِ: أن يتركهم النَّبيُّ ﷺ ولا يتعرَّض لهم،[6] كالذي يولِّي صفحته، أي: عرضه، وجانبه للمذنب.

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

العقوبات الَّتي حلَّت على بني إسرائيل عندما نقضوا العهود

يخبر سبحانه أنَّه بسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكَّدة عاقبناهم بعقوبات خمسٍ، هي: طردناهم من رحمتنا، وجعلنا قلوبهم غليظةً لا تلين للإيمان، وابتُلوا بالتَّغيير والتَّبديل، فيجعلون كلام اللّٰه الذي أنزله على موسى عليه السلام وهو التَّوراة على غير ما أراده اللّٰه، وتركوا نصيبًا ممَّا ذُكِّروا به، فلم يعملوا به، والخامسةُ: الخيانةُ المستمرَّةُ منهم؛ بحيثُ لا تزال - أيُّها الرَّسول - تجد من اليهود خيانةً وغَدرًا، فهم على منهاجِ أسلافهم إلَّا قليلًا منهم، فاعفُ عن سوءِ معاملتهم لك، واصفح عنهم، فإنَّ اللّٰه يحبُّ مَن أحسن العفوَ والصَّفحَ إلى من أساء إليه، وهو إحسان لهؤلاء، يجلب محبَّة اللّٰه ورضوانه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1491.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/435.
(3) ابن عزيز، غريب القرآن، ص: 111.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صفح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/293.
(6) البَغَويّ، معالم التنزيل: 3/31.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (ما) بين الإعراب النَّحويِّ والإعراب التَّفسيريّ:

زيادة (ما) من باب عدم منعها العمل، وسيقت للتَّوكيد

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ "ما: لغوٌ، المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، ومعنى (ما) الملغاة في العمل توكيد القصَّة"[1]، فهي عند النَّحويِّين زائدة، وآية ذلك: أنَّها وإن فصلت بين حرف الجرِّ ومدخوله، لكنَّه بقي عاملًا، وهي عند المفسِّرين لا توصف بالزِّيادة؛ فلا شيء من ذلك واقعًا في كلام الله، "وَذَلِكَ أَنَّهَا تُؤَكِّدُ الْكَلَامَ، بِمَعْنَى: تُمَكِّنُهُ فِي النَّفْسِ مِنْ جِهَةِ حُسْنِ النَّظْمِ، وَمِنْ جِهَةِ تَكْثِيرِهِ لِلتَّوْكِيدِ"[2].

دلالة التَّعبير بـ(ما):

وجود (ما) في الجملة يخلع عليها تفخيمًا وتمكينًا

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، (ما) هنا وإن كانت زائدة للتَّوكيد، إلَّا أنَّ وجودها في الجملة يخلع عليها تفخيمًا وتمكينًا[3].

في الكلام مجاز بالحذف:

اللَّعن يكون جزاء نقض الميثاق فعلاً

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ هذه الجملة من الآية تتوفر على مجاز بالحذف، والحذف هنا: أنَّهم فعلًا قد "نَقَضُوا الْمِيثَاقَ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاؤوا بَعْدَ مُوسَى، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ"[4]؛ ليكون التَّقدير فبما نقضهم الميثاق، فنقضوا الميثاق، فلعنَّاهم على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: 160] فضرب، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: 160].

وجهُ التَّعبير بالنقض - وهو أمر حسِّيٌّ - عن المعنويّ:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾، معنى النَّقض: "فسخ التَّركيب في المركَّبات الحسِّيَّة، كالحبل والغزل ونحوهما، فهو

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/159.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/379.
(3) النسفيّ، مدارك التنزيل: 1/434.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/204.

أمر حسِّيٌّ"[1] لكنَّه جاء هنا تعبيرًا عن عدم الوفاء بالعهد، وترك الالتزام به؛ فجاء به تعبيرًا حسِّيًا؛ لتمكينه من النَّفس وبيان أهمِّيَّته.

غرضه بيان أهمِّيَّته وتمكينه من النَّفس

دلالة قراءة ﴿قَسِيَةً﴾ على ﴿قَسِيَّةً﴾:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾، في لفظة ﴿قَسِيَةً﴾ قراءة أخرى: فقد قرأ "حَمْزَة والكسائيُّ ﴿قَسِيَّةً﴾ بِغَيْر ألف، مُشَدَّدَة"،[2] فهذه القراءة (فَعِيْلَة) على التَّشديد، والأُولى ليست كذلك، "وَحجَّة من قَرَأَ ﴿قَسِيَّةً﴾ هِيَ أَنَّ فعيلًا أبلغ في الذَّمِّ والمدح من فَاعِل، كَمَا أَنَّ عليمًا أبلغ من عَالم، وسميعًا أبلغ من سامِع، وَهِي فَعِيْلَة من الْقَسْوَة"[3]، فقراءة التَّشديدِ تصوِّر حال قلوبهم بأنَّها لا تَلين للحقِّ، ولا تنتفعُ بأيِّ خير، فالغلظةُ فيها مستحكِمة.

القراءة على وزن (فَعِيلَة) دالَّة على المبالغة

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾، على قراءة "حَمْزَة والكسائيِّ ﴿قَسِيَّةً﴾ بِغَيْر ألف، مُشَدَّدَة"[4] من قولهم: درهم قسِيٌّ، وهو من القسوة؛ لأنَّ الذَّهب والفضَّة الخالصين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة"[5]، وكذلك هذه القلوب الَّتي لا تشتمل على الإيمان، ويخالطها الكفر.

القراءة مأخوذة من قولهم الدَّراهم القسيَّة التي يخالطها غشٌّ

دلالة تعقيب التَّحريف على قسوة القلوب:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ذكر هنا قسوة القلوب، ثمَّ أعقبها بتحريف الكلم؛ لأنَّه لَمَّا أصبحت قلوبهم قاسية"بيَّن نتيجة قسوة قلوبهم، فقال: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ لفظًا أو تأويلًا، ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب اللّٰه وتحريفه"[6].

القسوة سبب من أسباب الجرأة على تحريف كلام الله

---

(1) المطعني، خصائص التعبير القرآني: 1/462.
(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 243.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 224.
(4) ابن مجاهد، السبعة، ص: 243.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/216.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/18.

التَّعبير بالجمع في غالب جمل الآية:

المطابقة اللَّفظيَّة بين أفعالهم وما جوزوا به

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾، ألفاظ الآية وجملها في غالبها مبنيَّة على الجمع مثل ﴿نَقۡضِهِم﴾، ﴿مِّيثَٰقَهُمۡ﴾، ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾، ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾، ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، ﴿وَنَسُواْ﴾، ﴿ذُكِّرُواْ﴾، وسرُّ ذلك للمطابقة اللفظيَّة بين أفعالهم والجزاء الذي كان عاقبتهم؛ فلا يحسن مخالفة ذلك بأن يعبِّر أوَّلًا بصيغة الجمع، ثمَّ بصيغة الإفراد، أو أن يعكس الأمر ممَّا يخلُّ بمقتضى الفصاحة والبلاغة.

علَّةُ تأخُّر قوله: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا﴾:

قسوة القلوب وسوء الأفعال سبب لنسيان حظِّهم ممَّا ذكِّروا به

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾، في الآية جمل متعانقة متتالية، آخذ بعضها برقاب بعض، بدأها بنقض الميثاق، وعقَّبها بنسيان الحظِّ والنَّصيب، وهذه الجملة متأخِّرة عمَّا قبلها من قسوة القلوب وسوء الأفعال؛ لأنَّ هذه الأفعال سبب لذلك النِّسيان، فالعصيان سبب لنسيان العلم[1]، وهذا شامل لنسيان علم ما ذُكِّروا به من التَّوراة، وما أنزل الله على موسى عليه السلام وأنَّهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير ممَّا أنساهم الله إيَّاه عقوبة منه لهم، وشامل كذلك لنسيان العمل الذي هو التَّرك، فلم يوفَّقوا للقيام بما أمروا به[2].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي في ﴿وَنَسُواْ﴾:

النِّسيان أمر لا يتجدَّد إلى أن يتذكَّره النَّاسي

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾، الفعل الماضي يدلُّ على الانقطاع؛ لأنَّه قد تمَّ ومضى، وهو قريب من الثَّبات في كونه لا يتجدَّد كالفعل المضارع، إلَّا إنْ تذكَّره النَّاسي، وقد عبَّر هنا بقوله: ﴿وَنَسُواْ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/206.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 109.

"بِالْفِعْلِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ لَا يَتَجَدَّدُ، فَإِذَا حَصَلَ؛ مَضَى، حَتَّى يُذَكِّرَهُ مُذَكِّرٌ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مُرَادًا بِهِ الْإِهْمَالُ، فَإِنَّ فِي صَوْغِهِ بِصِيغَةِ الْمَاضِيَ تَرْشِيحًا لِلِاسْتِعَارَةِ، أَوِ الْكِنَايَةِ؛ لِتَهَاوُنِهِمْ بِالذِّكْرَى"[1]، فهو إهمال يفضي بالمرء إلى النِّسيان.

من جمال النَّظم القرآنيّ التَّعبير بالحظّ:

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾، في التَّعبير بالحظّ، وهو مفعول للنِّسيان جمال في النَّظم القرآنيِّ يومئ إلى أنَّهم "على قدر كبير من السُّوء بدرجة أنستهم الشَّيء الَّذي يأتي لهم بالحظّ الكبير، مثل نسيانهم البشارات بمحمَّد - ﷺ - وكتمانها، ولو كانوا قد آمنوا بها؛ لكان حظُّهم كبيرًا"[2].

تنكير الحظّ يفيد التَّعظيم والتَّكثير

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾، ورد الحظُّ هنا منكَّرًا "وَالْحَظُّ النَّصِيبُ، وَتَنْكِيرُهُ هُنَا لِلتَّعْظِيمِ، أَوِ التَّكْثِيرِ بِقَرِينَةِ الذَّمِّ، وَمَا ذُكِّرُوا بِهِ هُوَ التَّوْرَاةُ"[3]، أي: نسوا حظًّا عظيمًا، والنَّكرة تدلُّ على العموم والشُّمول، وهما قرينا الكثرة.

دلالةُ الفعل ﴿وَلَا تَزَالُ﴾:

استمرار خيانتهم ومن ثمَّ اطِّلاعك عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾، الفعل ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ فعل مضارع دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار، فهو في معنى "يَدُومُ اطِّلَاعُكَ، فَالِاطِّلَاعُ مَجَازٌ مَشْهُورٌ فِي الْعِلْمِ بِالْأَمْرِ، وَالِاطِّلَاعُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْمُطَّلَعِ عَلَيْهِ، أَيْ: لَا يَزَالُونَ يَخُونُونَ، فَتَطَّلِعُ عَلَى خِيَانَتِهِمْ"[4]، "أي: ستستمرُّ في الاطِّلاع على خائنة منهم"[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/144.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3009.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/144.
(5) السامرائي، معاني النحو: 1/242.

كشف الخيانة يقتضي تكلُّفًا ومشقَّة؛ لأنَّها من دخائل النُّفوس

معنى الفعل ﴿تَطَّلِعُ﴾ زنة (تَفْتَعِل):

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، الفعل ﴿تَطَّلِعُ﴾، وزنه الصَّرفيُّ (تَفْتَعِل)؛ لأنَّ الأصل فيه (طلعَ)، فهو على هذا الوزن (تَتْطَلِع)، ثمّ قلبت التَّاء الثانية طاء، وادغمتا؛ فصار (تَطّلِع) زنة (تَفْتَعِل) "فَاطَّلَعَ بِمَنْزِلَةِ تَطَلَّعَ، أَيْ: تَكَلَّفَ الطُّلُوعَ؛ لِقَصْدِ الْإِشْرَافِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا تَزَالُ تَكْشِفُ، وَتُشَاهِدُ خَائِنَةً مِنْهُمْ"(1)، وكشف الخيانة ممَّا يقتضي تكلُّفًا ومشقَّة؛ لأنَّها من دخائل النُّفوس.

يدلُّ على المصدريَّة المفيدة الوصول إلى منتهى الحدث، وإلى خالص الشَّيء وتمامه

التَّعبير بقوله: ﴿خَآئِنَةٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، الظَّاهر - في قوله: ﴿خَآئِنَةٍ﴾ - أنَّها صيغة اسم فاعل مؤنَّث، إلَّا أنَّها تحتمل أن تكون "بِمَعْنَى: الْمَصْدَرِ، وَنَظِيرُهُ كَثِيرٌ، كَالْكَافِيَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحَاقَّة: 5]، أَيْ: بِالطُّغْيَانِ... وَتَقُولُ الْعَرَبُ: سَمِعْتُ رَاغِيَةَ الْإِبِلِ، وَثَاغِيَةَ الشَّاءِ، يَعْنُونَ: رُغَاءَهَا وَثُغَاءَهَا"(2)، وفي دلالتها على المصدر فائدته: الوصول إلى منتهى الحدث؛ لأنَّ المصدر يدلُّ على خالص الشَّيء وتمامه.

لفظ ﴿خَآئِنَةٍ﴾ يحتمل دلالته على المبالغة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وتحتمل لفظة ﴿خَآئِنَةٍ﴾ دلالة أخرى، وهي المبالغة على زيادة التَّاء، مثلما يقال: رجلٌ علَّامة، ورجلٌ نسَّابة، فالتَّاء أو الهاء - عند الوقف - للمبالغة، وكذلك ﴿خَآئِنَةٍ﴾ التَّاء للمبالغة(3)، وكقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: 1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/192.
(3) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ص: 180.

تقريرُ قانون صيانة الاحتمال

دلالةُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ﴾، قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصبٌ على الاستثناء من خائنة[1]؛ فقد أخرج من الخيانة نفرًا منهم، ودلالة هذا الاستثناء دلالة دقيقة صادقة تدخل تحت قانون صيانة الاحتمال، فقد "يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق، فيفكروا في أن يؤمنوا بهذا الرَّسول، ويهدِّئوا من شراسة ظنِّهم به؟ وقد فكَّر بعضهم، وأعلن الإسلام"[2]، فمَن آمن منهم داخل في هذا القليل المستثنى.

تسليطُ الضَّوءِ على منهجِ التَّعامُلِ مع الآخرِ

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ هيَ الفاء الفصيحةُ، وهيَ الَّتِي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيِّينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا، وهوَ ليسَ بلازم، أيْ: إنْ كنت جاهلًا عمَّا يجبُ أنْ تقوم بهِ تجاهَ أولئكَ؛ فاعفُ عنهم واصفح، "والصَّفح: ترْك اللَّوم والمعاتبة، ولذا قالوا: الصَّفح أعلى رتبةً من العفو؛ لأنَّ العفو ترْك المقابلة بالمثل ظاهرًا، أمَّا الصَّفح فهو يتناول السماحة النَّفسيَّة، واعتبار الإساءة كأن لم تكن في الظَّاهر والباطن"[3]، ويظهرُ أثرُ بلاغةِ الفاءِ الفصيحةِ في تسليطِ الضَّوْءِ على الواجبِ فعلِه مع هؤلاء من أهلِ الكتابِ، وهوَ العفوُ والصَّفحُ؛ لأنَّهُ المقصودُ الحقيقيُّ في السِّياقِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعفوِ والصَّفح:

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، عبَّرتِ الآيةُ بالعفوِ

(1) العكبري، التبيان: 1/427.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/310.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/84.

والصَّفحِ، ولمْ تأتِ على ذكرِ الصَّبرِ، أو التَّصدِّي، أو غيرِها من المعانِي؛ لأنَّ المقصودَ هو التَّجاوز عن خيانتهم، وتليين قلوبهم، ولا يؤدِّي هذهِ المعاني إلَّا العفوُ والصَّفحُ، وما يولِّدُه منهجُ العفوِ والصَّفحِ من قوَّةٍ فكريَّةٍ، وثباتٍ عَقَديٍّ، وهوَ ما يورِّثُ في النَّفسِ المسلمةِ من القوَّةِ والمُكنةِ، ما لا يورِّثُه النِّزاعُ والجدالُ.

توريثُ القوَّةِ النَّفسيَّةِ، والمنعةِ العقديَّةِ

بلاغةُ عطفِ الأفعالِ المتقاربةِ الدِّلالة:

الجمعُ بينَ العفوِ المادِّي، والصَّفحِ المعنويِّ؛ لتحقيقِ التَّوازنِ بينَ الدِّلالتين

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، عُطفَ فعلُ ﴿وَٱصۡفَحۡۚ﴾ على فعلِ ﴿فَٱعۡفُ﴾ في قولِه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾؛ لتحقيق فائدةٍ بيانيَّةٍ بديعةٍ: وهيَ أنَّ العفوَ درجةٌ من التَّسامحِ عاليةٌ، وهيَ تدلُّ على تركِ عقابِ المذنبِ، أمَّا الصَّفحُ؛ فهوَ تركُ عقابِ المذنبِ جملةً، أي: أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ في "عدمِ لومهِ وتثريبِهِ عليهِ، وهوَ أبلغُ منَ العفوِ"[1]؛ ليشمل ذلك ترك العقاب والمجازاة، وترك اللَّوم أيضًا، فجاءَ بفعلينِ متقاربينِ في الدِّلالةِ؛ ليحقِّقَ الشموليَّةَ في بناءِ أخلاقِ المسلمينَ في الجانبينِ الماديِّ والمعنويِّ: الماديِّ في تركِ العقوبةِ، والمعنويِّ النَّفسيِّ في تركِ اللَّومِ والتَّثريبِ عليهم.

بلاغةُ تقديمِ العفوِ على الصَّفح:

العفوُ مقدِّمةُ الصَّفحِ ولا يُتصوَّرُ بدونِه، فهوَ من تقديمِ الأسبابِ على نتائجِها

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، قُدِّمَ العفوُ على الصَّفحِ؛ لأنَّ العفوَ أهمُّ من الصَّفحِ؛ فللعفوِ أثرٌ جسديٌّ ماديٌّ؛ لأنَّهُ يتعلَّقُ بالمظهرِ، بينَما نجدُ الصفحَ ذا أثرٍ نفسيٍّ، فالعفوُ سلامةٌ، والصَّفحُ غنيمةٌ، وطلبُ السَّلامةِ مقدَّمٌ على طلبِ الغنيمةِ، ثمَّ قدَّمَه لسببٍ ثانٍ، وهوَ أنَّ حصولَ العفوِ من المسلمينَ هوَ مقدِّمةٌ لحصولِ الصَّفحِ، فهوَ من قبيلِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فتركُ العقوبةِ قدْ يكونُ سببًا لتركِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/671.

اللَّوم والمؤاخذةِ، "والحقُّ هنا يأمر بالعفو، أي: إزالة أثرها، ويأمر بالصَّفح، أي: أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك"[1].

دلالة تذييل الآية بالإحسان:

الإحسان أمر زائد على التَّقوى

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، تذييل لما سبق من عفو وصفح؛ لأنَّ الإحسان له وجهان: الأوَّلُ؛ «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، وعلى ذلك فإنَّ الإحسانَ أمرٌ زائدٌ على التَّقوى، فمِنَ الإحْسانِ ما لا يقفُ المُحسِنُ عند ما كلَّفهُ الحقُّ تبارك وتعالى، بل يزيدُ عليها، ضمن الشَّرع طبْعًا، كالَّذي يتقرَّبُ إلى الله بالنَّوافل[3]، صلاةً وصيامًا وإنفاقًا للمال، وسوى ذلك من وجوه الخير الَّتي لا حصر لها، وهذا هو الوجهُ الثَّاني للإحسان.

الألفُ واللَّامُ تفيد جنس المحسنين وعمومهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، الألفُ واللَّامُ في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جنسيَّةٌ، تشملُ جميع المُحسنين، وتُفيدُ الجنس والعُمُوم، كي لا يظنَّ ظانٌّ أنَّ حبَّه تعالى للمحسنين مقتصر على الوارد ذكرهم في الآية.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾:

تحريف الكلم عن مواضعه أقرب زمنًا من تحريف الكلم من بعد مواضعه

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، آية من آيات المتشابه اللَّفظيِّ، وردت في ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم، فوردت هنا، وفي النِّساء بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النّساء: 46] بحرف الجرِّ داخلًا على ﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾، فيما وردت في موضع آخر من المائدة بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41] بالعدول من

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3011.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (185).
(3) الشعّراوي، تفسير الشّعراوي، 6/3391.

﴿عَن﴾ إلى ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾، فالسُّؤال عن الفرق بين الموضعين المتشابهين، ولا سيَّما التَّعبير بـ﴿عَن﴾ والتَّعبير بـ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾، ولِمَ اختصَّ أحدهما بما اختصَّ به؟

والجواب عن ذلك: أنَّ ثمَّة تقاربًا بين (عن) و(بعد) إلَّا أنَّ بينهما فرقًا دقيقًا وهو الزَّمن، فإنَّ "الأصل في هذا المكان أن تستعمل (عن)؛ لأنَّ (بعد) قد تكون لما تأخَّر زمان غيره بأزمنة كثيرة وبزمن واحد، و(عن) لما جاوز الشَّيء إلى غيره، وملاصقًا زمنه"[1] وهذا متعلِّق بالآية الأولى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أمَّا قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾؛ فهو "أن يكون المراد من بعد موت النَّبيِّ؛ ليجعلوه على خلاف ما سمعوه منه، وهذا موضع (بعد) لا موضع (عن)؛ لأنَّه ليس يعدوه إلى المحرَّف إليه، فينفصل عمَّا جاء عليه إلى الكذب مقارنًا له، وإنَّما ذلك بعده بأزمنة كثيرة يتوقَّعون مضيَّها؛ ليسهل كذبهم بعدها"[2].

﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ في أوائل اليهود، و﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ في زمنه ﷺ:

الفرق بين قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وقوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]: أنَّ "الأولى: فِي أَوَائِل الْيَهُود، وَالثَّانيَة: فِيمَن كَانُوا فِي زمن النَّبِي ﷺ أَي: حرَّفوها بعد أَن وَضعهَا الله موَاضعهَا، وعرفوها، وَعمِلُوا بهَا زَمَانًا"[3] وهو عين كلام ابن جماعة، فقد ذكر: "أنَّ الأولى هنا وآية النِّساء ربَّما أريد بها التحريف الأوَّل عند نزول التوراة... والآية الثَّانية: تحريفهم في زمن النَّبيِّ ﷺ، وتغييرهم عن المقول لهم في التَّوراة بغير معناه... فـ(عن)؛ لما قرب من الأمر، و(بعد)؛ لما بعُد"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المحبَّة والإرادة:

ثمَّة فرقٌ مُعجميٌّ بين المحبَّة والإرادة، وهو"أَنَّ المحبَّة: تجري على الشَّيء، ويكونُ المُرادُ به غيرَهُ، وليس كذلك الإرادة... وتقولُ: (اللهُ يُحِبُّ المُؤْمنين)، بمعنى: أَنَّهُ يُريد إكرامهم

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/437.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 1/438.
(3) الكرماني، البرهان، ص: 101.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 146.

المحبَّةُ تجري على الشَّيء ويراد غيرَهُ، وليس كذلك الإرادة

وإثابتهم، ولا يُقال: إنَّه يريدهم"[1]، والوارد في الآية الكريمة على هذا النَّسق؛ فالحقُّ (تبارك وتعالى) يحبُّ المُحسنين، أي: يريدُ إكرامهم وإثابتهم على إحسانهم، ولا يُتصوَّرُ أن يُقال في حقِّهم: إنَّهُ يُريدُهم؛ لأنَّ المحبَّة تختلفُ عن الإرادة كما تقدَّم، واللّه أعلم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بيـــانُ حـــالِ النَّـصـارَى بعد بيانِ حالِ اليهودِ

لمَّا ذكر الله حالَ اليهود ونَقْضَهُمُ الميثاقَ، بَيَّنَ على إِثْرِ ذلك أنَّ النَّصارى لم يكونُوا أحسنَ معاملةً منَ اليهودِ، فَبيَّن مُعامَلَتَهُمْ[1]، فالجُمْلَةَ مَعْطوفَةٌ عَلى جملةٍ سابقةٍ، وهي قَوْلُهُ: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 12]، كما أنَّ النَّصارى لمَّا دَخلُوا فيمن مَضى لأنَّهم من بني إسرائيلَ، خَصَّهم هُنا بالذِّكر؛ لأنَّ كُفرَهم أشدُّ وأَسْمَجُ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ الآيةَ[2]؛ فذُكِرَ بَعْدَ مِيثَاقِ اليَهُودِ مِيثَاقُ النَّصَارَى[3]، فَهُوَ شروعٌ في بيانِ خُبْثِ النَّصارى إِثْرَ بيانِ خيانةِ اليهودِ[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَٰرَىٰٓ﴾: جَمْعُ نَصرانٍ للمُذكَّرِ ونَصرانَةٍ للمؤنث، والغالبُ في الِاسْتِعْمَال النِّسبةُ نَصرانيٌّ ونصرانيَّةٌ؛ وهو مَأْخوذٌ منَ النَّصْرِ والنُّصْرَةِ بمعنى العونِ والإمداد، وأصلُ نَصَرَ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِه، وإنَّما سُمِّيَ النَّصارى بذلك لقولهم: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقِيلَ سُمُّوا بذلك انتسابًا إلى قريةٍ يُقالُ لها نَصرانٌ، وقيل لِنُزولِ عيسى عليه السلام قريةَ نَاصِرَةَ، فكان يُقالُ لَهُ عيسى النَّاصريُّ، ثُمَّ نُسِبَ قومُه إليه[5].

(1) السَّمَرْقَنديّ، بحر العلوم: 1/376.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/60.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/145.
(4) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/424.
(5) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والزَّمَخْشريّ، أَساسُ البلاغة، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (نصر)، والنيسابوري، باهِرُ البُرْهان: 1/89.

2) ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: الميثَاق: العَهْدُ المُوَثَّقُ، من وَثُق يَوْثُقُ وَثَاقَةً وإيثاقًا، والوَثيقُ: الشَّيءُ المُحْكَمُ، وأَصْلُ (وَثُقَ) يَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام، والوَثيقةُ في الأمر: إحْكامُهُ والأَخْذُ بالثِّقةِ، والمِيثاقُ: منَ المُواثَقةِ، العَهْدُ، وَالجَمْعُ مَواثيقُ، والمَعْنى هُنا: أَخَذْنا مِنَ النَّصارى المِيثاقَ على طاعَتي وأَداءِ فَرائِضي، واتّباعِ رُسُلي والتَّصديقِ بِهِمْ[1].

3) ﴿حَظّٗا﴾: الحَظُّ النَّصيبُ المُقَدَّرُ مِنَ الفَضْلِ والخيْرِ، وفُلَانٌ ذُو حَظٍّ وقِسْمٍ مِنَ الفَضْلِ، والحَظُّ: البَخْتُ، وأَصْلُ الحَظِّ النَّصيبُ، وقَدْ حَظَظَ وأَحَظَّ، فهو مَحْظُوظٌ، والمعنى هنا: نَسُوا مِنَ المِيثَاقِ المَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ نَصِيبًا وَافِرًا[2].

4) ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾: هَيَّجْنا وألصقْنا، يُقالُ: غَرِيَ بكذا؛ أَيْ: لَصِقَ بِهِ ولَهَجَ، وأَصْلُ ذَلِكَ من الغِراءِ، وهو ما يُلْصَقُ بِهِ، والإغراءُ: الإيلاعُ، والمَعْنى هُنا: فَألقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالتَّبَاغُضَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا[3].

5) ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ﴾: منَ العَدْوِ، وهو التَّجاوزُ ومُنافاةُ الالتئام؛ فتارةً يُعْتَبَرُ بالقَلْبِ؛ فيُقالُ لَهُ العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتَارَةً بالمَشْيِ؛ فَيُقالُ لَهُ العَدْوُ، والعَدُوُّ: ضِدُّ الوَليِّ، والجَمْعُ الأَعْداءُ، وأَصْلُ العَدْوِ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ، والعَداوةُ: تباعُدُ القُلُوب والنِّيات، وهي اسْمٌ عامٌّ من العَدُوِّ[4].

6) ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾: مِنَ البُغْضِ، وهو نِفارُ النَّفْسِ عَنِ الشَّيءِ الذي تَرْغَبُ عَنْهُ، ورجُلٌ بَغِيضٌ، وَقد بَغُضَ بَغَاضَةً؛ أَي: صارَ بَغِيضًا، وبَغَّضَه اللهُ إلى النَّاسِ تَبْغِيضًا فأَبْغَضُوه؛ أَي: مَقَتُوهُ، وأَصْلُ البُغْضِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الحُبِّ، فَهُوَ نَقِيضُ الحُبِّ، والبِغْضَةُ والبَغْضاءُ: شدَّة البُغْضِ[5].

(1) الخليل، العَيْن، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، وابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِسٍ، مَقايِيسُ اللُّغَة: (وثق)، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 454، وابن جرير، جامع البيان: 10/135.

(2) الخليل، العَيْن، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (حظ)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حظظ)، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/26.

(3) الخليل، العَيْن: (غر)، والرَّاغِب، المُفْردات: (غرا)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (غري)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 56، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 3/67.

(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (عد)، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والجَوْهَريّ، الصِّحاح: (عدا)، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (عدو)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 56.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (بغض).

أخذ الله الميثاقَ مِـنَ الـنّـصـارى فتركوه فعذّبَهم في الدُّنيا والآخرة

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَأخذْنا عَلى الذينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَتْباعُ المسيح عيسى عليه السلام - ولَيْسُوا كذلك - العَهْدَ المُؤَكَّدَ الذي أخذناه على بَني إِسْرائيلَ: بِأَنْ يُتابعوا رَسُولَهم ويَنْصُروه ويؤازِرُوه، فبدَّلوا دينَهم، فَتَرَكوا العَمَلَ بِجُزءٍ مِمَّا ذُكِّرُوا به، كَمَا فَعَلَ أَسْلافُهُمْ مِنَ اليَهودِ، وألقينا بَيْنَهُمُ الخُصومَةَ والكَراهَةَ الشَّديدةَ إلى يوم القيامة، فأصبحوا مُتَقاتِلينَ مُتناحرينَ يُكَفِّرُ بَعْضُهم بَعْضًا إلى يوم القيامة، وسَوْفَ يُخْبِرُهُمُ اللّه يومئذ بما كانوا يَعْمَلونَ ويُجازيهم عَلَيْه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقديم الجَارِّ والمَجْرورِ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ على مُتَعَلَّقِه:

تَقْرِيرُ المُتَعَلَّقِ والاهـتـمـامُ به وَتَـثْـبِـيـتُـه فِي الذِّهْنِ

حَيْثُ قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾، وجيءَ بِضَميرِه مَعَ العَامِلِ لِلنُّكْتَةِ الدَّاعِيَةِ لِلاشْتِغالِ مِنْ تَقْرِيرِ المُتَعَلَّقِ وَتَثْبِيتِه في الذِّهْنِ؛ إِذْ يَتَعَلَّقُ الحُكْمُ بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ وَبِضَميرِه، فـ (مِنْ) تَتَعَلَّقُ بِقَوْلِه: ﴿أَخَذْنَا﴾، وَالضَّمير في ميثاقهم عائدٌ عَلى المَوْصول، والتَّقْديرُ: وَأَخَذْنَا، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصارَى، مِيثَاقَهُمْ، فَقُدِّمَ الجارُّ والمجرور للاهتمام به[2].

وَالمَعْنَى: أَنَّهُ تَعالى أَخَذَ مِنَ النَّصارى ميثاقَ أَنْفُسِهِمْ، وهو الإيمانُ باللّه وَالرُّسُلِ وَبِأَفْعالِ الخَيْرِ[3]، فَجيء بِتِلْكَ العِبارَةِ لصورةِ الاهتمام بالمُقَدَّمِ والتَّشويق إلى المُؤَخَّرِ.

نُكتةُ التَّشبيهِ البليغِ في إضافةِ الميثاقِ:

وقد يكونُ ضَميرُ ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ عائدًا على بني إسرائيل الذين عادت إليهم الضَّمائرُ السَّابقةُ، والمعنى: أخذنا مِنَ النَّصارى

---

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 147، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/424.

(3) ابْنُ عَطِيَّة، المُحررُ الوَجيز: 2/17، وأَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.

تشبيهُ حالِ النَّصارَى بحالِ مَن سَبَقَهُمْ من اليهودِ وأنَّهم سواءٌ في نَقْضِ الميثاقِ

ميثاقَ من ذُكِرَ قَبْلَهُمْ من قوم موسى؛ أَيْ: مِثْلَ ميثاقِهم بالإيمان باللّه والرُّسل[1]؛ كقولِ القائلِ: أخذتُ من زيدٍ ميثاقَ عمرو؛ أي: مِثْلَ ميثاقِه[2]، وَالإضَافَةُ هُنا على معنى التَّشْبِيهِ؛ أَيْ: مِنَ النَّصَارَى أَخَذْنَا مِثْلَ مِيثَاقِ اليَهُودِ[3]، فَهُوَ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ حُذِفَتِ منه الأَدَاةُ فَانْتَصَبَ المُشَبَّهُ بِهِ[4]؛ لأَنَّ الجُمْلَةَ مَعْطوفَةٌ عَلى جملةٍ سابقةٍ، وهي قَوْلُهُ: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 12]، والجامعُ بَيْنَ الجُملتين خياليٌّ باعْتِبَار المُتَعَلَّق؛ لأنَّ ذِكْرَ حالِ إحدى الطَّائفتين مِمَّا يُوقِعُ في ذِهْنِ السَّامِعِ أنَّ حالَ الأخرى ماذا؟ فكأنَّه قيل: ومن الطائفةِ الأخرى أيضًا أخذْنا ميثاقَهُم[5].

نُكْتَةُ الإطنابِ في التَّعبير عَنِ النَّصَارَى بِالموصولِ وصِلَتِهِ:

تَوْبِيخُهُمْ وزَجْرُهُمْ عن قَوْلِهِمْ غيرِ المُوَفَّى به

وكان الظَّاهرُ أن يُقالَ (وَمِنَ النَّصارى) من دون إطْنَاب، فَعدلَ عنِ الظَّاهر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾؛ لِيُصَوِّرَ تِلْكَ الحالَ في ذِهْنِ السَّامع، ويقرِّرَ عنده أنَّهم ادَّعوا نُصْرةَ دينِ اللّه، فَعَلَّقَ كَوْنَهُمْ نَصارى بِقَوْلِهِمْ ودَعواهم، من حيث إنّ لقبَ (النَّصارى) هو اسمٌ شرعيٌّ يقتضي نصرَ دينِ اللّه، وسَمَّوْا به أنفسَهم دون استحقاقٍ ولا مُشابهةٍ بَيْنَ فِعْلِهم وقولِهم، فجاءت هذه العبارةُ فاضِحَةً مُوبِّخَةً لهم، مُزَحْزِحَةً لهم عن طريق نَصْرِ دِينِ اللّه وأنبيائِهِ[6].

وَلَمَّا كان المقصودُ من هذه الآية ذمَّهم بِنَقْضِ الميثاق المأخوذِ عليهم بِنُصْرَةِ اللّه، وبما يدلُّ على أنَّهم لم يُوفوا بما عَاهدُوا

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/616.

(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/224.

(3) قَالَ قَتَادَة: أُخِذَ عَلَى النَّصَارَى المِيثَاقُ كَمَا أُخِذَ عَلَى أَهْلِ التَّوْرَاةِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَرَكُوا مَا أُمِرُوا بِه، ينظر: أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207، وقدَّم الزَّمخشري ذِكْرَ هذا الوجه، واستبعده ابنُ عاشور، بحجّةِ أنّ مِيثَاقَ اليَهُودِ لَمْ يُفَصَّلْ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ حَتَّى يُشَبَّهَ بِهِ مِيثَاقُ النَّصَارَى، ينظر: ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/145 - 146.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.

(6) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170.

عَلَيْهِ مِنَ النُّصرة عَدَلَ عن قولِه النَّصارى إلى هذا، فحاصلُ ما صَدَرَ عنهم قولٌ بلا فعلٍ[1].

وقد كان هذا الاسمُ في الحقيقة اسمَ مدحٍ، فَبَيَّنَ الله تعالى أنَّهم يَدَّعون هذه الصِّفَةَ، ولكنَّهم لَيْسوا مَوْصوفِينَ بها عند الله تعالى[2].

ففي هذا التَّعبيرِ تَقْريعٌ ولومٌ على هذا الضَّعفِ مِنَ القوم الذين يدَّعون بالقولِ واللِّسان انتسابَهم إلى عيسى ﷺ وفعلُهم يُخالفُ قولَهم ومُعْتَقَدَهَمْ، فَهُو تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَزَجْرٌ عَمَّا ادَّعَوْهُ مِنْ أَنَّهُمْ أنصارُ دينِ الله وَأَنْبِيَائِهِ، إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مُجَرَّدَ دَعْوَى لَا حَقِيقَةً[3].

واخْتيرَ ما في النَّظْمِ لِيَدُلَّ عَلَى ذلك، وفيهِ نَوْعُ مُخالَفَةٍ لقوله في سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 62] مِنْ أَنَّهُم سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم نَصَروا المَسيحَ، وظاهِرُهُ أنَّ نُصْرَتَهُمْ واقعيةٌ لا ادّعائيةٌ على أنَّه تَعَالَى ذكرَ كثيرًا النَّصارى بدُون القَوْل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وغايةُ الأمرِ أنَّهم بعد ما سُمُّوا بالنَّصارَى لِنَصْرِهِمْ رُوحَ الله كالحَوارِيِّينَ بَدَّلوا دينَ الله تعالى، واخْتَلَفُوا بعدَها إلى نَسْطُوريَّةٍ ويَعْقوبيَّةٍ ومَلْكانيَّةٍ أنصارًا لِلشَّيْطانِ[4].

ولا يَبْعُدُ أن يكونَ قَوْلُ: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إشارةً إلَى ذلك، وفيه تقبيحٌ جسيمٌ جِدًّا؛ حيث يُتَوَقَّعُ منهمُ النُّصْرَةُ كما هو حالُهم أَوَّلًا، ثُمَّ غَيَّرُوا حالَهم وخَسِرَ مآلُهم[5]، فيكونُ تَعْريضًا؛ حَيْثُ يُفيدُ لفظُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بِطَريقِ التَّعريضِ الكِنائِيِّ أَنَّ هذا القَوْلَ غيرُ مُوَفًّى به، وأنَّه يَجِبُ أن يُوفَّى بِهِ[6]؛ لأنَّ ادّعاءَهم لِنُصرتِه تعالى يستدعِي ثباتَهم على طاعتِه تعالى ومراعاةِ ميثاقه[7].

فَلَمَّا كان المقصودُ في هذه الآية ذمّهم بنقض الميثاقِ المأخوذِ عليهم في نُصْرَةِ الله تعالى، نَاسَبَ ذلك أَنْ يُصَدِّرَ الكلامَ بما يَدُلُّ على أنَّهم لم يَنْصُروا الله، ولم يَفُوا بما واثقوا عليه مِنَ النُّصْرَةِ، وما كان حاصلُ أمرِهم إلا التَّفوهَ بدعوى النُّصْرَةِ، وقولَها دون فعلها[8].

---

(1) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.
(3) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشّاف: 1/616، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/118، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/224.
(5) القُونَويّ، حاشية القُونَويّ على البيضاوي: 7/425.
(6) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 4/90.

إقامةُ الحُجّةِ عليهم والتَّعريضُ بهم

كما أنّ في التَّعبير بالاسم الموصولِ هُنَا وَفي قَوْلِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المَائِدَة: 82] تَسْجيلًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اسْمَ دِينِهِمْ مُشِيرٌ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِه، وهو أَنْ يَكُونَ أَتْبَاعُهُ أَنْصَارًا لِمَا يَأْمُرُ بِه اللّه، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصَّفُّ: 14]، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنْ يَنْصُرُوا القَائِمَ بِالدِّينِ بَعْدَ عِيسَى مِنْ أَتْبَاعِه، مِثْلَ بُولُسَ وَبُطْرُسَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ دُعَاةِ الهُدَى، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه أَنْ يَنْصُرُوا النَّبِيَّ المُبَشَّرَ بِه في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ الَّذِي يَجِيءُ بَعْدَ عِيسَى قَبْلَ مُنْتَهَى العَالَم، وَيُخَلِّصُ النَّاسَ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾، الآيَةَ [آل عمران: 81]، فَجَمِيعُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ قَدْ لَزِمَهُمْ مَا التَزَمَهُ أَنْبِيَاؤُهُمْ، وَبِخَاصَّةٍ النَّصَارَى، فَهَذَا اللَّقَبُ، وهو النَّصَارَى، حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ قَائِمَةٌ بِهِمْ مُتَلَبِّسَةٌ بِجَمَاعَتِهِمْ كُلِّهَا[1].

وَمِن هنا فحَيْثُ جَاءَ النَّصَارَى مِنْ غَيْرِ نِسْبَةٍ إِلَى أَنَّهُمْ قَالُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ العَلَم لَمْ يُلْحَظْ فِيهِ المَعْنَى الأَوَّلُ الَّذِي قَصَدُوهُ مِنَ النَّصْرِ، كَمَا صَارَ اليَهُودُ عَلَمًا لم يُلْحَظْ فِيهِ مَعْنَى قَوْلِه: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾[2].

سِرُّ تَنْكِيرِ الحَظِّ المَذْكورِ وإفرادِه:

تَعْظيمُ شأنِ هذا الحَظِّ

فقد جاء مَكْتُوبًا في الإِنْجِيلِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، والحَظُّ هو الإِيمَانُ بِهِ، وتنكيرُ الحظّ يَدُلُّ على أَنَّ المُرَادَ بِه حَظٌّ وَاحِدٌ، وهو الإِيمَانُ بِالرَّسُولِ، وَخُصَّ هَذَا الوَاحِدُ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا أَكْثَرَ مَا أَمَرَهُمُ اللّه بِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هو المُعَظَّمُ والمُهِمُّ[3]، ومَعَ عِظَمِ هذا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.

(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.

(3) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.

الحظ وأهمِّيته فقد نَسُوه وتَركُوه خَلْفَهُمْ ظِهْرِيًّا؛ لذا عَبَّرَ بالماضي ﴿فَنَسُواْ﴾؛ لأنَّ النِّسيانَ لا يتجدَّدُ، فإذا حَصَلَ مضى؛ حتى يذكِّرَ بِهِ مُذَكِّرٌ[1]؛ وفي هذا ذَمٌّ ولومٌ شديدٌ لهم؛ إذْ نَسُوا أعظمَ أَمْرٍ وتركوه.

دَلالَةُ استعارةِ لَفْظِ الإغراءِ مع العَداوَةِ والبَغْضاءِ:

بيانُ مُلازَمَةِ العَداوَةِ وَالبَغْضَاءِ لنُفُوسِهِمْ

فالإغْراءُ والإلقاءُ محضُ فِعْلِهِ سبحانه، والتَّعادي والتَّباغضُ أَثَرُهُ، وهو مَحْضُ فِعْلِهِمْ[2]، وحَقِيقَةُ الإغْرَاءِ حَثُّ أَحَدٍ عَلَى فِعْلٍ وَتَحْسِينُهُ إِلَيْهِ؛ حَتَّى لَا يَتَوَانَى في تَحْصِيلِهِ، فَاسْتُعِيرَ الإغْرَاءُ لِتَكْوِين مُلَازَمَةِ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ في نُفُوسِهِمْ؛ أَيْ: لُزُومِهِمَا لَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فشُبِّهَ تَكْوِينُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ مَعَ اسْتِمْرَارِهِمَا فِيهِمْ بِإِغْرَاءِ أَحَدٍ أحدًا بِعَمَلٍ يعْمله تَشْبِيهَ مَعْقُولٍ بِمَحْسُوسٍ[3]؛ إذْ إنَّ أَصْلَ معنى الإغراء الالصاقُ، وغَرِيَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ إذا لَصَقَ به[4]، ومنه الغِراءُ المَعْروفُ، فاستُعمل في لازم معناه، وهو الإلزامُ للعداوة بأَنْ صارُوا فرقًا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[5]، فهو مَجازٌ عن الإلزام لِلُزومِهِ لَهُ[6].

بديعُ التَّجريد[7] في العُدول عن تعديةِ الفعلِ بحرفِ الجَرِّ إلى تَعْليقِهِ بالظَّرْفِ:

بَيانُ عِظَمِ العَداوةِ بَيْنَهُمْ وتَمَكُّنِها في قُلوبِهِمْ

ولَمَّا دَلَّ الظَّرْفُ، وهو ﴿بَيْنَهُمُ﴾، عَلَى أَنَّهُمَا أُغْرِيَتَا (بِهِمْ) اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ متعلّق ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾، وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: فَأَغْرَيْنَا العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ بِهِمْ كَائِنَتَيْنِ بَيْنَهُمْ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ العُدُولُ عَلَى تَعْدِيَةِ (أَغْرَيْنَا) بِحَرْفِ الجرِّ إِلَى تَعْلِيقِهِ بِالظَّرْفِ قَرِينَةً أَوْ تَجْرِيدًا؛ لِبَيَانِ أَنَّ المُرَادَ بـ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾: أَلْقَيْنَا[8].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.

(2) ابن القيم، شفاء العليل، ص: 58.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/147.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/119.

(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.

(6) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.

(7) التَّجريدُ هو: انتزاع المُتَكلِّم الأديب من أمرٍ ما ذي وصفٍ فأكثر أمْرًا آخر فأكثر مِثْلَهُ في الصِّفَةِ أو الصِّفات على سبيل المبالغة، مثاله قول القائل: "لِي مِنْ فُلانٍ صَديقٌ حَميمٌ"، فكأنَّه جرَّدَ فُلانًا من كُلِّ ظواهره واستخرج منه صَدِيقًا حَمِيمًا.

(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/147، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.

والضَّميرُ في ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يَحْتَمِلُ أن يَعُودَ على اليهود والنَّصارى؛ لأنَّ العَداوةَ بَيْنَهُمْ مَوجودةٌ مستمرَّةٌ، ويَحْتَمِلُ أن يعودَ على النَّصارى فَقَطْ؛ لأنَّها أمَّةٌ مُتقاتِلةٌ بينها الفتنُ إلى يوم القيامة[1]، وقد استُخْدِمَ هذا الفعلُ (أغرينا) مع كلمة العداوةِ والبغضاء لِيَدُلَّنَا على عِظَمِ العداوة بينهم ورغبتِهم في إثارتها بين الحِينِ والآخر.

بلاغة توجيه المتشابه اللّفظي في استعمال كلمة الإغراء مع النّصارى والإلقاء مع اليهود:

الخلافات عند النّصارى أكثر التصاقًا بهم من اليهود عبر تاريخهم الطويل

ومن لطائفِ البيانِ في هذا المقام مجيءُ كلمةِ (أغرينا) هُنا مع النَّصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، في حين نجدُ كلمةَ (ألقينَا) في موضع آخر استعملت مع اليَهودِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: 64]، فاليهود تَفَرَّقوا في وجهات نَظَرِهِمْ وفي آرائهم بما أَدْخَلُوه في التّوراة مِنَ التَّحريفِ، والنَّصارى تَفرّقوا تفرّقًا مُضاعَفًا؛ لأنَّهم اعتمدوا التَّوراةَ المحرَّفةَ وضمُّوها إلى الإنجيل الذي حَرَّفوهُ، فصار العَهْدُ القديمُ، الذي هو توراةُ اليهود بكلّ تحريفاتها، والعهد الجديد، الذي هو أناجيلُ المسيحيّين بما دخلها من تَحريفٍ، فهذا التَّحريفُ المضاعَفُ ألصَقَ بينهم العداوةَ والبغضاءَ، وأدَّى إلى هذه الفُرقةِ العظيمةِ بينهم[2].

السِّرُّ في عَطْفِ البَغضاءِ على العَداوَةِ:

تأكيد تأصُّلِ هاتين الصِّفتَيْن في قلوب اليهودِ والنَّصارَى

والعَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ اسْمَانِ لِمَعْنَيَيْنِ مِنْ جِنْسِ الكَرَاهِيَةِ الشَّدِيدَةِ، فَهُمَا ضِدَّانِ لِلْمَحَبَّةِ، فَإِنْ كانَتِ العَدَاوَةُ أَعَمَّ مِنَ البَغْضَاءِ زَادَتْ فَائِدَةُ العَطْفِ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ فِي مَعْنَى الِاحْتِرَاسِ[3]، وإِنْ كَانَتِ العَدَاوَةُ

---

(1) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170.

(2) ابن تيميَّة، الجواب الصَّحيح: 3/18.

(3) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادةٌ إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهامًا قد يُفهم من كلامه.

أَخَصَّ مِنَ البَغْضَاءِ لَمْ يَكُنِ العَطْفُ إِلَّا لِلتَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ التَّأْكِيدَ يَحْصُلُ بِذِكْرِ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى بَعْضٍ مُطْلَقٍ من معنى المؤكَّد، فَيَتَقَرَّرُ المَعْنَى وَلَوْ بِوَجْهٍ أَعَمَّ أَوْ أَخَصَّ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِهِ مَعْنَى التَّأْكِيدِ(1).

وقد يَخْتَلِفُ المَعْنيانِ فيكونُ إلقاؤُهما بَينهم على مَعْنَى التَّوْزِيعِ؛ أَيْ: أَغْرَيْنَا العَدَاوَةَ بَيْنَ بَعْضٍ مِنْهُمْ، وَالبَغْضَاءَ بَيْنَ بَعْضٍ آخَرَ، فَيقَعُ فِي هَذَا النَّظْمِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ(2).

فَائِدَةُ ذِكْرِ الغايةِ في قولِه ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

تَعْجيلُ المَسَاءَةِ لهم في الدُّنيا مع ما يُدَّخَرُ لهم من عذابٍ بعدَ القيامةِ

وإلقَاءُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ كَانَ عِقَابًا في الدُّنْيَا لِقَوْلِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: 14] جزاءً عَلَى نَكْثِهِمُ العَهْدَ، وَأَسْبَابُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ شِدَّةُ الاخْتِلَافِ؛ فَتَكُونُ مِنَ اخْتِلَافِهِمْ فِي نِحَلِ الدِّينِ بَيْنَ يَعَاقِبَةٍ، ومَلْكَانِيَّةٍ، ونَسْطُورِيَّةٍ، وهَرَاتِقَةٍ (بُرُوتِسْتَانْتَ)، وَتَكُونُ مِنَ التَّحَاسُدِ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا، كَمَا كَانَ بَيْنَ مُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤَسَاءِ دِيَانَتِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أُغْرِيَتْ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةُ وَهُمْ لَمْ يَزَالُوا أَلْبًا عَلَى المُسْلِمِينَ؟ فَجَوَابُهُ: أَنَّ العَدَاوَةَ ثَابِتَةٌ بَيْنَهُمْ فِي الدِّينِ بِانْقِسَامِهِمْ فِرَقًا، وَذَلِكَ الانْقِسَامُ يَجُرُّ إِلَيْهِمُ العَدَاوَةَ وَخَذْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، ثُمَّ إِنَّ دُوَلَهُمْ كَانَتْ مُنْقَسِمَةً وَمُتَحَارِبَةً، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ(3)، وَإِنَّمَا تَأَلَّبُوا فِي الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ عَلَى المُسْلِمِينَ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَخَاذَلُوا وَتَحَارَبُوا، وَلَا يَزَالُ الأَمْرُ بَيْنَهُمْ كَذَلِكَ إِلَى الآنَ، وَكَمْ ضَاعَتْ مَسَاعِي السَّاعِينَ فِي جَمْعِهِمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَتَأْلِيفِ اتِّحَادٍ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ اخْتِلَافُهُمْ لُطْفًا بِالمُسْلِمِينَ فِي مُخْتَلِفِ عُصُورِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، عَلَى أَنَّ اتِّفَاقَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ أُخْرَى لَا يُنَافِي تَمَكُّنَ العَدَاوَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ مَا ذُكِّرُوا بِهِ(4).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/148.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/148.
(3) وكم وقع بينهم من القتل في الحربين العالميّتين الأولى والثّانية! وكم حَصَدَت هذه الحروب ملايين الأرواح من نصارى ويهود وغيرهم!
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/149.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ المجازاةِ بالتَّنْبئةِ:

التَّهديدُ والوعيدُ بشِدَّةِ ما يَنْتَظِرُهُمْ وهَوْلِهِ

فقولُه ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ تَهْدِيدٌ؛ لِأَنَّ المُرَادَ بِالإِنْبَاءِ إِنْبَاءُ المُؤَاخَذَةِ بِصَنِيعِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، وهذا يُحْتَمَلُ أَنْ يَحْصُلَ في الآخِرَةِ، فَالإِنْبَاءُ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ أَيْ: يُخْبِرُهُمْ في الآخرة بما كانُوا يَصْنَعُونَ في الدنيا، وهو وعيدٌ شديدٌ بالجَزاءِ والعذابِ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِمَنْ يَتَوَعَّدُهُ: سَأُخْبِرُكَ بما فعلتَ؛ أي: يُجازيهم بما عَمِلوا على الاستمرارِ مِنْ نَقْضِ الميثاقِ ونِسْيانِ الحَظِّ الوافرِ ممَّا ذُكِّروا بِهِ[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَحْصُلَ في الدُّنْيَا، فَالإِنْبَاءُ مَجَازٌ في تَقْدِيرِ اللهِ لَهُمْ حَوَادِثَ يَعْرِفُونَ بِهَا سُوءَ صَنِيعَتِهِمْ[2]، فيكونُ الإنباءُ مجازًا عن وقوعِ ذلك وانكشافِه لَهُمْ، لا أَنَّ ثَمَّةَ إخبارًا حقيقةً[3]، فَعَبَّرَ بالمُشَبَّهِ به، وهو الإخبارُ بِصُنْعِهِمْ، عن المُشَبَّهِ، وهو العِقابُ بالحوادث والقوارع[4].

كما أنَّ التَّعبيرَ عنِ المجازاة بالتَّنْبِئَةِ للتَّنبيه على أنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ حقيقةَ ما يَعْمَلُونَه منَ الأعمالِ السَّيِّئَةِ واسْتِتْباعِها لِلْعذابِ؛ فيكونُ ترتيبُ العذابِ عَلَيْها في إفادة العلم بِحَقيقَةِ حالِها بمنزلة الإخبارِ بها[5].

وفي هذا الوعيد تأكيدٌ بذِكْرِ كلمةِ (سَوْفَ)، والالتفاتُ إلى ذِكر الاسم الجليلِ (الله)؛ لتَرْبيةِ المهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعة؛ لِتَشْديدِ الوَعيدِ بعذابِ الآخِرَةِ[6].

دَلالةُ التَّعبير عنِ العملِ بالصُّنْعِ:

الإيـــذانُ بِرُسوخِهِمْ في ذلك، وتوبيخُهم عليه

فالتَّعبيرُ عنِ العمل بالصُّنع مع كونِ الصُّنع أخصَّ للإيذانِ

(1) البروسوي، روحُ البَيان: 2/367.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(3) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(4) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(6) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/208، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/367، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.

بِرُسوخِهِمْ في ذلك[1]، فكأنَّ خياناتِهم من نقضٍ للميثاق، ونَكْثٍ للعهد، وتبديلٍ للكتاب، وتحريفٍ للأوامر والنَّواهي قد صارت لهم فيها مَلَكَاتٌ بما لازموا منها حتى ضُرِبُوا بها وتَدَرَّبُوا عليها؛ حتَّى صارت لهم أحوالًا لأنفسهم، وأخلاقًا لقلوبهم؛ أي: دَرَّبوا أَنْفُسَهم عليها حتَّى صارت لهم صَنْعَةً[2]، فكان الجَزَاءُ على ذلك بِقَدْرِ ما يَسْتَحِقُّونَ؛ ليعلمُوا أنَّ اللّه حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يظلمُ مثقالَ ذَرَّةٍ، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لهم، وهو تقريرٌ وتوبيخٌ بالعذاب؛ إذْ صُنْعُهُمْ كُفْرٌ يُوجِبُ الخُلودَ في النَّار[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الأَخْذ والتَّناوُل:

التَّناوُلُ أخصُّ مِنَ الأخْذِ، ويكونُ التَّناوُلُ بقصْدٍ

الأخذُ: حوزُ الشّيءِ وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناوُل، نحوَ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف، الآية 79]، وتارةً بالقهر والغلبة، نحو: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 229]، ومنه: أخذتْهُ الحُمّى، وفلان يأخذُ مأخذَ فلان: يذهبُ مذهبَه ويسلكُ مسلَكَه[4]، وقد يكون بِمَعْنى فعلٍ آخرَ مَعَ صِلَةٍ أُخْرَى كـ(أَخذ بِهِ)؛ فَإِنَّهُ بِمَعْنى (حمل عَلَيْهِ)، وَمنه قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206]؛ أي: حملته العزّةُ وحميّةُ الجاهلية على الفعلِ بالإثم[5]، أمَّا التَّناوُلُ؛ فهو أَخْذُ الشَّيءِ للنَّفس خاصَّة، ويجوزُ أن يُقال: إنَّ التَّناوُلَ يقتضي أَخْذَ شيءٍ يُحْتاجُ إليهِ ليُستعملَ في أمرٍ منَ الأُمورِ؛ ولهذا لا يُستعملُ في حقِّ اللّه تعالى؛ فَيُقال: تناولَ زيدٌ الطَّعامَ؛ أي: أكلَه، فالأخذُ أعمُّ، والتَّعبيرُ بالأخذ في هذا الباب أليَقُ؛ لاشتمال لفظِ التَّناوُلِ على معنى الحاجة والافتقارِ إلى الشَّيءِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: 7]، ولم يقل: تَناوَلْنا، وقيل:

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/367.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 6/61 - 62.
(3) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170، والهَرَري، حَدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 7/176.
(4) المَناويّ، التَّوقيف، ص: 42.
(5) الكَفَويّ، الكُلِّيات، ص: 62، والبَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 1/236.

التَّناوُلُ أخذُ القليل المقصودِ إليه؛ ولهذا لا يُقال: تناولتُ كذا من غير قصْدٍ إليهِ، ويقال: أخذتُه من غيرِ قصد[1].

العَهْد والميثاق:

العهدُ هو الالتزامُ بإلزام اللّه، أو إلزامُ العبدِ لنفسِه[2]، فيُقال في العهد: عَهِدَ إليه في كذا: أوصَاه به، والعهد في لسان العربِ له معانٍ، منها: الوصيةُ، والضَّمانُ، والأمرُ[3]، أمَّا الميثاقُ فهو ما وُثِّقَ به العهدُ منَ القَبولِ والإلزام والحَلِفِ[4]، فالمِيثَاقُ توكيدُ العَهْد، وهو مأخوذٌ من أوثقتُ الشَّيْءَ إذا أحكمتُ شدَّهُ، وَأخذتُ الأَمرَ بالأوثق؛ أَي: الشَّديدِ المُحكم[5]، وقال بعضُهم: العَهْدُ يكونُ حَالًا منَ المتعاهِدَيْن، ويَقْتَضِي الإنجازَ، والميثاقُ يكونُ من أَحدهمَا[6]، فالعهدُ إلزامٌ والتزامٌ، سواءً كانت فيه يمينٌ أو لم تكن، والميثاقُ هو العهدُ الشَّديدُ المؤكَّدُ، فهو نوعٌ منَ العهد.

العـهـدُ أعـمُّ مـنَ المـيـثـاقِ في معناه، والميثاقُ عَهْدٌ مُؤكَّدٌ

النَّصِيب والحَظّ:

النَّصيبُ هو الحظُّ والقِسْمُ من كُلِّ شيء[7]، فيكونُ النَّصِيب في المحبوب وَالمَكْرُوه، يُقَال: وفَّاه اللّه نصِيبَه منَ النَّعيم أَو منَ العَذَاب، والحَظُّ هو النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الفضْل والخيْر[8]، فلَا يُقَال حَظُّهُ منَ العَذَاب إِلَّا على اسْتِعَارَةٍ بعيدَة؛ لِأَنَّ أَصْلَ الحَظِّ هو مَا يُحْظِهِ اللّه تَعَالَى للْعَبد منَ الخَيْرِ، والنَّصيبُ مَا نُصِبَ لِلْعَبْدِ لينالَه سَوَاء كَانَ مَحْبوبًا أَو مَكْرُوهًا؛ ولهذا كان الحَظُّ اسْمًا لما يرْتَفع بِهِ المَحْظُوظُ، فيُذكرُ على جِهَةِ المَدْحِ، فَيُقَالُ: لفُلَانٍ حَظٌّ، وهو مَحْظوظٌ، وفي

الـحـظُّ نصيبٌ مُــقـدَّرٌ مِــنَ الفَضْلِ والخيْرِ، والنَّصيبُ يَعُمُّ المحبوبَ والمَكْرُوهَ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 139.
(2) السَّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن: 1/83.
(3) الخليل، العين: (عهد)، والكَفَويّ، الكُلِّيات، ص: 640، والقرافي، أنوار البروق: 3/37.
(4) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 320.
(5) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة: (ثقو).
(6) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 57.
(7) ابن مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نصب).
(8) الخليل، العَينْ: (حظ)، والأَزْهَرِيّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (حظ).

التَّنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ مَا يُصِيبُ الإنسانَ من مُقاسمةٍ، سَوَاءً ارْتَفع بِهِ شَأْنُه أم لَا؛ ولِهَذَا يُقَال: لِفُلَانٍ حَظٌّ فِي التِّجَارَة، ولَا يُقَال: لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبْحَ الذِي يَنَالهُ فِيهَا لَيْسَ عَن مُقاسَمَةٍ[1].

العَدَاوَة والبَغضاء:

العَداوَةُ تكونُ في الفعْلِ، وهي سببٌ في تباغُضِ القلوبِ

العَدَاوَةُ: الانقطاعُ والبِعادُ مِنْ حَال النُّصْرَة، ونَقيضُها الوِلَايَة، والبَغْضاءُ شِدَّةُ إِرَادَة الاستحقار والإهانةِ، ونقيضُها المحبَّةُ، وهي إرادة الإعظامِ والإجلالِ، والعداوةُ إرَادَةُ السُّوءِ لِما تُعاديه، وتكونُ بالفِعال، وهي سَبَبٌ في التَّباغُضِ، والبغضاءُ تكونُ بالقلوب[2].

الصُّنع والفعْل والعمل:

الصُّنْعُ أَخصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ وأَرْسَخُهَا، والفعلُ أَعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُهَا

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إِحْدَاثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ[3]، فهو مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهةِ مُؤَثِّرٍ[4]، سواءً كان عن سبب أو لا، ويُقال لِمَا كان بإجادةٍ وبدونِها، ولِمَا كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[5]، وأمَّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجاد الأثرِ في الشَّيءِ مع امتدادِ زمانٍ، ولا يُقالُ إلَّا لما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلا بِقَصْدٍ وامتدادِ زمانٍ.

وأمَّا الصُّنْعُ فهو: تَرْتيبُ العَمَلِ وإِحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يُوصِلُ إلى المُراد منه؛ ولذا قيل لِلْعِلْمِ المُتَعَلِّق بكيفيَّةِ العمل صِناعَةٌ[6]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجَّار صَانِعٌ؛

(1) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغويَّة، ص: 165.
(2) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغويَّة، ص: 131، والنيسابوري، باهِرُ البُرْهان: 3/1495.
(3) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغة: (فعل).
(4) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (فعل).
(5) المَناويّ، التَّوقيف، ص: 262.
(6) الجُرْجانّي، التَّعْريفات، ص: 134، والتَّهانويّ، كشَّافُ اصطلاحات الفنون: 2/1097.

لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأَسبابِ التي تُوصِلُ لِلْمُرادِ من ذلك والصُّنْعِ؛ فالصُّنْعُ أَخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعلُ أَعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[1].

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيّة، ص: 134.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

نـــداءُ أهــلِ الـكــتــابِ إلى عنوانِ هدايتِهم وسعادتِهم بعد بيانِ حالِهم

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ أَحْوَالِ فَرِيقَي أَهْلِ الكِتَابِ وأَنْبَائِهِمْ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُ عُلَمَائِهِمْ، وما لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطَابِ بِالمَوْعِظَةِ؛ إِذْ قَدْ تَهَيَّأَ مِنْ ظُهُورِ صِدقِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يُسَهِّلُ إِقَامَةَ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فأقبَلَ عليهم واعظاً مناديًا متلطّفًا مُستعطفًا مرغّبًا في اتِّباعِهِ والإيمانِ بالكِتابِ الهادي الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ[1].

ولَمَّا كانت هدايتُه مَشْروطَةً بِشَرْطِ صلاحِ الجِبلَّةِ، بَيَّنَ ذَلِكَ بقولِه واصفًا له: ﴿يَهۡدِي بِهِ﴾؛ أيْ: الكِتابِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعۡفُواْ﴾: مِنَ العَفْوِ، وهو التَّجاوُزُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْواً، فَهُوَ عافٍ وعَفُوٌّ، وأَصلُه يدلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، والمعنى هُنا: يَتْرُكُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ مَا فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِه[3].

2) ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طُرُقَ السَّلامَة، والسُّبُلُ جَمْعُ سبيل، وهو الطَّريقُ الذي فيه سُهولَةٌ، وأَصْلُ سَبَلَ يَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِ شَيْءٍ مِنْ عُلُوٍّ

(1) ابْنُ عادِلٍ، اللُّباب: 7/258، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/62.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/63.
(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (عفو)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (عفا)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/118.

إِلَى سُفْلٍ، وأصلُ سَلِمَ يَدُلُّ على العافيةِ والسَّلامةِ مِنَ الأذى، ومَعْنى سُبُلِ السَّلامِ هُنا: طُرُقُ السَّلامَةِ المُؤَمِّنَةُ مِنَ العُقوبَةِ، أَوْ طُرُقُ اللهِ، وهي دِينُهُ[1].

3) ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: الطَّريقُ المُستَقيمُ، وأَصْلُ الصِّراطِ بالسِّينِ، مِنْ قَوْلِهِم: سَرَطَ الرَّجلُ الطَّعامَ؛ إِذَا بلَعَهُ، ويُقالُ: انْسَرَطَ الشَّيْءُ في حَلْقِهِ؛ إِذَا سَارَ فيه سَيْرًا سَهْلًا، وَمِنْهُ سمِّيَ السِّراطُ؛ وذلك على وجهِ التَّخْييلِ؛ لأنَّه يَبْتَلِعُ سالكِيهِ، أو أنَّ سَالِكِيه يبتلعُونَهُ، والصِّراطُ: الطَّريقُ مُطْلَقًا، أَوِ الطَّرِيقُ القاصِدُ، والمِنْهاجُ الواضِحُ، والمعنى هُنا: طريقٌ وَاضِحٌ، وَهُوَ الإِسْلَامُ[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يا أهلَ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارَى، قد جاءكم رَسولُنا محمَّد ﷺ يُظْهِرُ لكم كثيرا ممَّا كنتم تَكْتُمُونَهُ عنِ النَّاسِ ممَّا في التَّوراة والإنجيل، ويَدَعُ كثيرًا ممَّا أخفيتُمُوه ممَّا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى إظْهارِه، قَدْ جاءكم القُرْآنُ كتابًا من عند اللهِ، وهو نورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ، وكِتابٌ مُبينٌ لِكُلِّ ما يَحتاجُ إليه النَّاسُ في شؤونِهم الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، يَهْدِي اللهُ بهذا الكتابِ مَنِ اتّبع ما يرضيه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ إلى طُرقِ السَّلامةِ والأمنِ مِنْ عذابِ اللهِ، وهي الطُّرُقُ المُوصِلَةُ إلى الجنَّة، ويُخْرِجُهُمْ من ظُلُماتِ الكُفْرِ والمعصيةِ إلى نورِ الإيمانِ والطَّاعةِ بِإِذْنِه، ويُوَفِّقُهُمْ إلى الطَّريقِ القويمِ المستقيمِ طَريقِ الإسلامِ[3].

جـاء الـنَّـبـيُّ ﷺ هـاديًـا ونُـورًا للأمـم، ومُـخـرِجًـا لـهـم مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فنُّ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

فقولُهُ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ فيه التفاتٌ من ضمائر الغيْبة إلى

دعوتُهم للإيمان بِـذِكْـرِ الامتنان علـيهم ببعثةِ النَّبيِّ العدنانِ

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (سبل)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 275، وابن الهائم، التبيان، ص: 149.

(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (رسط)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سَرَطَ)، والواحديّ، الوسيط: 2/68، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/63، وابن عزيز، غريبُ القُرْآن، ص: 310.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

ضمير الخطاب في نداء الفَريقَين اليهودِ والنَّصارى[1]، إثرَ بيانِ أَحْوالِهِما مِنَ الخيانة وغَيْرِها من فُنونِ القبائِحِ، وفي هذا الخطابِ دَعْوَةٌ لهم إلى الإيمان بَرَسولِ اللّه ﷺ والقرآنِ[2].

سِرُّ ندائِهِم بِأَهْلِ الكتاب:

بيانُ شَرَفِ الانتسابِ إلى الكتابِ وقُبْحِ مُخالفتِه وتركِ ما فيه

ففي ندائِهم بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْريفٌ لهم بإضافتِهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قَبولِ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُمْ أهلُ الكتابِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتابِ الذي عِنْدَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِهِ[3].

كما أنَّ في إيرادهم بعنوانِ أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، فَيَقبُحُ بمن كان أهلًا للكتابِ وتشرَّفَ بالانتساب إليه أن يخالفَه، فإنَّ أَهليَّة الكتابِ من مُوجِباتِ مُراعاتِهِ والعملِ بمقتضاه وبيانِ ما فيه مِنَ الأحكام، وقد فَعَلُوا مِنَ الكَتْمِ والتَّحْريفِ ما فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمونَ[4].

الغَرَضُ من توحيدِ لفظةِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ جنسُ الكتابِ

ووحَّد لفظةَ الكِتاب مع أنَّ لكلِّ فريقٍ كِتابًا؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ الكِتابِ[5]؛ لأنَّ الكتاب جِنْسٌ شاملٌ للتَّوراة والإنجيل.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرَّسول إلى نونِ العظمةِ:

تعظيمُ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شُمولِ رسالتِه

فالتَّعبيرُ عنه بذلك مع الإضافة إلى ضميرِ العظمةِ للتَّشريف والإيذانِ بوجوبِ اتِّباعه ﷺ[6]، وفيه رَدٌّ صريحٌ على أهل الكتَاب في قَوْلِهِمْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلَى العربِ خاصَّةً[7].

فلمَّا أَرْسَلَ اللّه نبيَّنا محمَّدًا ﷺ كان الخلقُ قِسْمَيْنِ: أهلُ كتابٍ

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 3/271، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/118، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(7) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

- وهم اليهودُ والنَّصارى-، وغيْرُهُم، وكان أَشْرَفَ القِسمَيْنَ أَهْلُ الكتاب؛ بما عندهم منَ النَّصيب مِنَ الكتاب الذي أُوتوهُ على نسيانِهم حظًّا منه، وتحريفِهم لِمَا حرَّفوا، وكانوا أَوْلى القِسْمَيْنِ باتِّباع محمَّدٍ ﷺ بما عَرَفُوا قَبْلَهُ منَ الكُتب والأنبياء؛ فَلِهَذا وذاك كانت تُوَجَّهُ إليهم الدَّعوةُ الخاصَّةُ بمثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾[1].

فالإضافة هُنا للتَّشريف، والإيذانِ بوُجوبِ اتِّباعِه[2].

سِرُّ إيثارِ الجُملةِ الفعليَّةِ:

استمرارُ البيان بِحَسَبِ الوقائع والحوادث وتَجَدُّدُه

فجملةُ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حالٌ من ﴿رَسُولُنَا﴾، وإيثارُ الفعليَّة على غيرها للدَّلالَةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ للبيان؛ أي: قد جاءكم رسولُنا حالَ كونه مُبَيِّنًا لكم على سبيل التَّجدُّدِ والتَّدريجِ حَسْبَما تَقْتَضيه المصالحُ والوقائعُ منَ الكتاب[3].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على لفظِ (كثير) في ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾:

إظهارُ العنايةِ بالمُقَدَّمِ، وتعجيلُ المَسَرَّةِ بتقديمِه، والتَّشويقُ إلى تفصيلِ ما تأخَّرَ

وتأخيرُ ﴿كَثِيرًا﴾ عن الجارِّ والمَجْرورِ لإظهارِ عنايةٍ بالمُقَدَّمِ لما فيه من تعجيلِ المسرَّةِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ لأنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ، لا سيما الإشعارُ بكونِه من منافع المخاطَب، تبقَى النَّفسُ مُتَرَقِّبَةً إلى وُرودِه فيَتَمَكَّنَ عِنْدَها إذا وَرَدَ فَضْلُ تَمَكُّن، ولأنَّ في المُؤَخَّرِ دَرْبَ تَفْصيلٍ ربَّمَا يُخِلُّ تقديمُه بِتجاذُبِ أَطْرافِ النَّظْمِ الكَريمِ[4].

وأفاد هذا التّنكير في ﴿كَثِيرًا﴾ معاني التّكثير والتّعظيم.

دلالةُ الجمعِ بين صيغةِ الماضي والاستقبالِ في قولِه: ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾:

فَالجَمْعُ بَيْنَ صيغتَي الماضي والمُسْتَقْبَلِ للدَّلالَةِ على استمرارِهِمْ

---

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

بيانُ استمرارِ الكَتْمِ والإخفاءِ من أهلِ الكتاب وتأصُّلِهِ فيهم

على الكَتْمِ والإِخْفاءِ؛ أيْ: بَيَّنَ لَكُمْ كَثِيرًا مِنَ الذي تُخْفونَهُ على الاستمرار حالَ كَوْنِهِ منَ الكِتابِ الذي أنتم أَهْلُهُ والمُتَمَسِّكونَ بِهِ[1]، ومن ذلك نَعْتُ النَّبيِّ ﷺ وآيةُ الرَّجْمِ، وبِشارَةُ عيسى بأَحْمَدَ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام -[2]، ودلّ استعمال الاسم الموصول (ما) وما فيه من معاني الإبهام والعموم على عظم ما كانوا يخفونه.

توجيهُ ذكْرِ العَفْوِ بَدَلَ الإخفاءِ في مُقابلِ ذِكْرِ البيان:

صيانتُهم عنِ الفضيحة وترهيبُهم من إخفاءِ الحقِّ وكتمانِه كما فعلَ أسلافُهم

فقد وَصَفَ النَّظمُ الكريمُ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بِأَنَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، وَمَعْنَى يَعْفُو: يُعْرِضُ وَلَا يُظْهِرُ، وهو أَصْلُ مَادَّةِ العَفْوِ، يُقَالُ: عَفَا الرَّسْمُ، بِمَعْنَى لَمْ يَظْهَرْ، وَعَفَّاهُ: أَزَالَ ظُهُورَهُ، ومنه عَفَا اللهُ عَنِ المُذْنِبِ، بِمَعْنَى سَتَرَ عَنْهُ ذَنْبَهُ[3].

والمعنى هُنا أي: ولا يُظهرُ كثيرًا ممَّا تُخْفُونَهُ إذا لم تَدْعُ إليه داعيةٌ دينيَّةٌ؛ صيانةً لكم عن زيادة الافتضاحِ كما يُفصحُ عنه التَّعبيرُ عن عدمِ الإظهار بالعَفْوِ، وفيه حَثٌّ لهم على عدم الإخفاءِ ترغيبًا وترهيبًا، فالجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ الحاليَّةِ، داخلةٌ في حُكْمِها[4]، وهذا المعنى هو الأظهرُ والأقربُ لدَلالة السِّياق؛ لأنَّ الظَّاهرَ أن يكونَ هذا الكثيرُ كالكثيرِ السَّابقِ الذي بُيِّنَ[5].

ويجوز أن يُراد هُنا مَعْنَى الصَّفْحِ وَالمَغْفِرَةِ؛ أَيْ: وَيَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ؛ أَيْ: يُبَيِّنُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَيَعْفُو عَنْ جَهْلِكُمْ[6]، فيكونُ العفوُ الثَّاني غيرَ الأوَّل؛ لأنَّ النَّكرة إذا أُعيدت نَكِرَةً فهي مُتغايرةٌ[7].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(7) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

كما عدلَ بالعفو عن ذِكْرِ الإخفاءِ في مُقابلة ذكرِ البيان في هذا المقام؛ لما يَحْمِلُهُ الإخفاءُ من مَعْنى صورةِ الذَّمّ المَذْكُور سابقًا في قوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ المُتَمَثِّل في جحْدِ الحقِّ وكِتْمانِه، فاختار النَّظمُ الكريمُ لفظةَ العَفْوِ؛ لِما تَحْمَلُهُ هذه اللَّفظةُ مِنَ المعاني الجَميلةِ والصِّفاتِ الجَليلَة.

دلالةُ الاستئنافِ في قوله ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وغرض تنكير النّور:

بيانُ منافعِ مجيءِ الرَّسُولِ ﷺ إليهم زيادةً عمّا ذُكِرَ

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ فائدةَ مجيءِ الرَّسولِ ليستْ منحصرةً فيما ذُكِرَ، ومن بيانِ ما كانوا يُخفونَه، بل له منافعُ لا تُحصى[1]، وهذه الجملة بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ؛ لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ اشْتَمَلَ عَلَى مَجِيءِ الهُدَى وَالقُرْآنِ، فَوِزَانُهَا وِزَانُ (عِلْمُهُ) مِنْ قَوْلِهِمْ: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنْهَا، وَأُعِيدَ حَرْفُ ﴿قَدْ﴾ الدَّاخِلِ عَلَى الجُمْلَةِ المُبْدَلِ مِنْهَا زِيَادَةً فِي تَحْقِيقِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ البَدَلِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ بَدَلِ الاشْتِمَالِ بِالمُبْدَلِ مِنْهُ أَضْعَفُ مِنْ تَعَلُّقِ البَدَلِ المُطَابِقِ[2].

وقد تكون الجملة مستأنفة بيانيًّا جوابًا عن سؤال مقدّر عن ماهيّة ما جاء به الرّسول ﷺ ليبيّنه لهم.

فَهَذِهِ الجُملةُ مُشْتَمِلَةٌ على بيان أنَّ محمدًا ﷺ قد تَضَمَّنَتْ بِعْثَتُهُ فَوائِدَ غَيْرَ ما تَقَدَّمَ مِنْ مُجَرَّدِ البيانِ[3]، ولِأَجْلِ هَذَا نُكِّرَتْ لَفْظَةُ ﴿نُورٌ﴾؛ لإرادة التَّعظيم والتَّفْخيم[4].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعل:

بيانُ عُلُوِّ جِهَةِ الجائي والتَّشويقُ إِلَيْهِ

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿نُورٌ﴾

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

(3) القِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.

(4) على مَنْ فَسَّرَ النُّورَ بأنَّهُ رَسولُ الله ﷺ، ينظر: أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 3/269.

للتّخصيص؛ أي: منه، لا من غيره، وقد يكون للمُسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المجيءِ من جِهته العاليةِ، والتَّشويقِ إلى الجائي[1].

بلاغةُ الاستعارةِ وبديعُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرَتَّبِ[2]:

بيانُ أنَّ نُورَ النَّبيِّ ﷺ وبَيَانَهُ ونُورَ الكِتابِ الذي جاء بِهِ واحِدٌ

فالنُّورُ المُبينُ، هو نُورُ الأنوارِ والنَّبيّ المُخْتارِ ﷺ، الذي جاء بالْهدى ودينِ الحقّ ليبدّدَ ظلماتِ الشّركِ والوهْم، فيكونُ في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيث صرّح بِذِكْرِ المشبَّه به، وهو اسمٌ جامدٌ[3]، والعَطْفُ بعده ظاهرٌ، وقيل: عَنَى بالنُّورِ القرآنَ؛ لِكَشْفِهِ وإظهاره طُرُقَ الهُدى واليَقين، ولِمَا فيه مِنْ كَشْفِ ظُلُماتِ الشِّرْكِ والشَّكِّ، وإبانَةِ ما خَفِيَ على النَّاس منَ الحقِّ والإعجازِ البيِّن؛ وعليه فالعطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ لِتَنْزيلِ المُغايَرَةِ بالعُنْوانِ مَنْزِلَةَ المُغَايَرَةِ بالذَّات، ودَليلُهُ تَكْريرُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾ بغَيْرِ عاطِفٍ في الاِسْتِئْنافِ السَّابِقِ، فَعَلَّقَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ وَصْفَ الرَّسولِ، وهُنَا وَصْفَ الكِتَابَ[4]، وعلى هذا التَّأْويلِ يَكُونُ في الآيَةِ تَشْبيهُ القُرآنِ بالنُّور، ووجْهُ الشَّبَهِ فيه أَنَّهُ الكاشِفُ لِظُلُماتِ الشَّكِّ والضَّلالِ، والكتَابُ الواضحُ الإعجازِ، والظَّاهِرُ أنَّ الكَلَامَ على التَّشبيهِ لا الاسْتِعَارَةِ لِذِكْرِ المُشَبَّهِ بِهِ، وهو قولُه ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[5].

فعلى تفسير النُّور بالقرآن يكون النُّورُ والكتابُ واحدًا، وتَسميتُه نورًا لكشفِه وإظهارِه طُرُقَ الهُدى واليقين، ويكونُ (المُبِينُ) بمعنى (الظَّاهر) من (أَبَانَ) اللَّازم؛ أي: (ظَهَرَ)، وعلى تفسير النُّور بالنَّبيِّ ﷺ لِظُهُورِهِ بالمعجزات وإظهاره لِلْحَقِّ؛ فـ(المُبِينُ) حينئذ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(2) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاء، إِمَّا تَفْصِيلاً بِالنَّصِّ عَلىَ كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَالاً بِأَنْ يُؤْتىَ بِلَفْظٍ يَشْتَمِلُ عَلىَ مُتَعَدِّدٍ، ثُمَّ يُذْكَرَ أَشْيَاءُ عَلىَ عَدَدِ ذَلِك، كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ المُتَقَدِّم، وَيُفَوِّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِه، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503، والسيوطيّ، الإتقان: 3/320.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/56.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

يَحْتمل وجْهَين؛ (الظَّاهِرُ)، و(المُظْهِرُ)، ولا تكرارَ فيه، فالمُراد بهما واحدٌ على التَّفسير الأوّل للنُّور، وكونُهما كالواحد في التَّفسيرِ الثَّاني فهو لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّبٌ[1]، فلا شَكَّ في صِحَّةِ إطلاق ﴿نُورٌ﴾ على النَّبيِّ - ﷺ - من باب العِبارةِ أو الإشارةِ، والمبينُ من (بان) اللازم، بمعنى ظهرَ، فمعناه: الظاهرُ الإعجازِ، ويجوز أن يكونَ منَ المتعدّي، فمعناه: المُظْهِرُ للنَّاس ما كان خافيًا عليهم[2].

فَمُحَمَّدٌ ﷺ والقُرْآنُ نورٌ وبيانٌ، في هذه الآية وَصْفُ مُحمَّدٍ ﷺ بأنَّهُ نُورٌ، ووصفُ القرآنِ بأنَّهُ مُبينٌ، وفي آياتٍ أُخْرى وَصْفُ القُرْآنِ بأنَّهُ نُورٌ، كقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التّغابن: 8]، ووَصْفُ الرَّسُولِ بأنَّهُ مُبينٌ، كَقَوْلِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّحل: 44].

وهذا لِيُبَيِّنَ لَنَا اللّه تعالى أنَّ إظْهارَ النَّبيِّ ﷺ وبَيانَهُ، وإظهارَ القرآن وبيانَه واحدٌ؛ لأنَّ فِقْهَ القرآن يَتَوَقَّفُ على فقه حياةِ النَّبي ﷺ وسُنَّتِه، وفِقْهَ حياته ﷺ يَتَوَقَّفُ على القرآن، وفِقْهَ الإسْلام يَتَوَقَّفُ على فِقْهِهما.

فهذا نَبيُّنا ﷺ نُورٌ وبيانٌ، وهذا كِتابُنا نورٌ وبيانٌ؛ فالمسلمُ المؤمنُ بِهِمَا المُتَّبِعُ لَهُما لَهُ حَظُّهُ من هذا البَيانِ والهِدايَةِ[3].

دلالَةُ تَوْحيدِ الضَّميرِ وتقديمِه على المسنَدِ إليه في ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾:

الاهتمامُ بالنُّورِ المُبِينِ الخارِجِ من مِشْكاةٍ واحدَةٍ

فتوحيدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِ﴾ مع أنَّه عائِدٌ على ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالنُّورِ والكِتابِ المبين واحدٌ: (القرآنُ)، أو لأنَّهما كواحدٍ في الحُكمِ؛ إذا كان النورُ غيرَ الكِتابِ المُبينِ[4]، أو أريد بـ(يهدي) بما ذُكر[5].

لأنَّ مَحَلَّ الجُمْلَةِ الرَّفْعُ على أنَّها صِفَةٌ ثانيةٌ لـ﴿وَكِتَٰبٌ﴾، أو النَّصْبُ على الحاليَّةِ منه لِتَخْصيصِهِ بالصِّفَةِ، ويجوزُ أن تكونَ

(1) الخَفاجيّ، حَاشِيةُ الشِّهاب: 3/225.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(3) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 330.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/119.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

حالًا من ﴿رَسُولُنَا﴾ بَدَلًا من ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تَكونَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تكون حالًا منَ الضَّمير في ﴿مُّبِينٌ﴾، وأن تكون صِفَةً لـ﴿نُورٌ﴾، ولأجلِ هذا تَقدَّمَ المَجْرورُ لِلاهْتمام؛ نَظَرًا إلى المقام وإظهارِ الاسم الجَليلِ؛ لِإِظْهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بِأَمْرِ الهِدايَةِ[1].

سِرُّ تَخْصيصِ الهِدايَةِ بأهلِ الاتِّباعِ:

بيانُ أنَّ الاتّباعَ سَبَبُ هدايةِ التَّوفيقِ

فَمِنَ المعلوم أنَّ الهِدايةَ نَوْعانِ: هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ والبيانِ، وهي كما تَقَدَّم عامَّةٌ، وهدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ مع التَّوفيقِ والتَّسديدِ، فهي خاصَّة للذين اتَّبعوا ما جاء من عند اللّه، من رسولِه وكتابه، وكانوا باتِّباعهم لها مُتَّبِعينَ لِرضوانه، المُقْتَضي لِقَبولِه مَثوبَتَهُ وكرامَتَهُ لهم، فَلَمْ يَتَّبعوا أَهْواءَهُمْ ومَأْلُوفَاتِهِمْ وما أَلِفوا عليه آباءَهم، ولا أهواءَ النَّاس وَرِضاهُمْ، فكان اتِّباعُهم رضوانَ اللّه سَبَبًا في دوام إِرْشادِهِمْ وتوفيقِهم، وبِقَدْرِ ما يكونُ ازديادُ اتِّباعهم، يكون تَوْفيقُهمْ؛ إذ قُوَّةُ السَّبَبِ تَقْتَضي قُوَّةَ المُسَبَّب، والخيرُ يَهْدي إلى الخير، والهُدى يزدادُ بالاهتداء، وهذا الرَّبطُ الشَّرْعيُّ بين التَّوفيقِ والاتّباع يقتضي الرَّبطَ ما بين ضدَّيْهما: الإعراضِ والخِذْلانِ، وأنَّه بِقَدْرِ ما يكونُ الإعراضُ عنِ الهُدى، يكون الخِذْلانُ والحِرْمانُ، والشَّرُّ يَدْعو بَعْضُهُ إلى بَعْض، والسَّيئةُ تَجُرُّ السَّيئَةَ، وقَدْ أَفادَ تَخْصيصُ التَّوفيقِ بأهل الاتِّباع، وجَعْلُ التَّوفيقِ مُسَبَّبًا عنه بما في صِلَةِ الموصولِ منَ التَّعليل في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾[2].

دلالةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قَوْلِهِ: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

تنزيهُ اللهِ ﷻ عنِ النَّقائصِ التي وصفَه بها اليهودُ والنَّصارَى

فالسَّلامُ اسمُه تعالى، وَوُضِعَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ رَدًّا على اليهودِ والنَّصارَى الواصفِين له سبحانَه بالنَّقائصِ تعالى عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا، والمُرادُ حينئذٍ بِسُبُلِهِ تعالى شرائعُهُ سبحانَه التي شَرعَها لعبادِه[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 33/269.
(2) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 331.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عنِ الدِّين الحقِّ بسبيلِ السَّلام:

مَدْحُ سالكِ هذه الطَّريقِ التي تُوصِلُهُ إلى أَمْنه ونَجاتِه

وقد يُطْلَقُ السَّلامُ مجازًا على الحقِّ، وعلى الدِّينِ؛ فَيكونُ سَبِيلُ السَّلَامِ اسْتِعَارَةً تصريحيّة لِطُرُقِ دِينِ الحَقِّ، بجامع اتّفاقهما في تحقيق السّلامة؛ حيث لَا خَوْفَ عَلَى السَّائِرِ فِيهَا[1]، وفيه مَدْحٌ لِسالِكِها، والمُرادُ أنَّه تعالى يَدُلُّ من أطاعَه على طريق نَجاته، وسبيلِ أَمَنَتِهِ؛ لأنَّ طاعَتَهُ تعالى إمامُ السَّلامَةِ، وطريقُ الاستقامة، فَمَنِ اتَّبَعَ قِيادَه نجا، ومن تَقَاعَسَ عَنْهُ ضَلَّ وغوَى[2].

سِرُّ الاسْتِعَارَةِ في تَشْبيهِ الضَّلَالِ بالظُّلُماتِ والهُدَى بالنُّورِ:

التَّنْفيرُ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعُ صُورَتِهِ، والتَّرغيبُ في الإيمانِ وتزيينُ صُورَتِه

فالظُّلماتُ هُنا لم تُسْتَعْملْ بمعناها الحَقيقيِّ الذي هو خلافُ الضِّياءِ؛ إنَّما اسْتُعيرتْ لِلْكُفْرِ والضَّلالِ؛ إذْ شَبَّهَ الكُفْرَ بالظُّلماتِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ واسْتُعيرَ لَهُ اللَّفْظُ الدَّالُّ على المُشَبَّه بِهِ؛ وهو ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والجامعُ بينهما التَّخَبُّطُ والضَّياعُ وعدمُ الاهتداء في كلٍّ منهما؛ فالظُّلُماتُ حاجبةٌ لِلْأَبْصارِ عن إدراكِ الأشياء وإثباتِها، وكذلك الكُفْرُ حاجِبٌ أَبْصارَ القُلوبِ عن إِدْراكِ حقائِقِ الإيمانِ والعِلْمِ بِصِحَّتِهِ وصحَّةِ أَسْبابِهِ، وكذا في كلمةِ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ فَهِي أيضًا لم تُسْتَعْمَلْ في معناها الحقيقيِّ؛ الذي هو خِلافُ الظُّلمةِ، إنَّما استُعيرتْ للإيمان؛ بجامع الاهتداءِ والوضوحِ في كلٍّ مِنْهُما[3].

وفي النَّظم القُرآنيّ إذا ذُكِرَتِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وقد استُعيرتْ للكفر، قُرِنَ معها ما يُقابِلُها، وهو استعارةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾ للإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257].

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

(2) الرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.

(3) ابْنُ جَرير، جامع البيان: 6/424، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.

[إبراهيم: 1]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9].

بلاغةُ اقترانِ الاستعارتَيْن:

بيانُ كَمالِ قُدْرَتِهِ سبحانه وتعالى وكمالِ فَضْلِهِ على عباده بهدايتِهم

والسِّرُّ البلاغيُّ في اقترانِ استعارةِ الظُّلمات باستعارةِ النُّور في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ الإخراجَ: فَصْلُ شَيْءٍ مَحْوِيٍّ عَنْ حَاوِيهِ، فَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[1]؛ فالضَّالّون في الضَّلال مُنْغَمِسونَ يُحيطُ بِهِم من كلِّ جِهَةٍ، يحجبُ عنهم الحقَّ؛ وإخراجُهم من هذا الضَّلال فيه مشقَّةٌ لا تَخْفى، وهو لا يكون إلا بِقُدْرَةٍ إلهيَّة عَظيمَةٍ؛ ولهذا علَّق اللّٰه تعالى هذا الإخراجَ بإذْنِه، فلا يكونُ إلا بتوفيقِه وقدرتِه، فإذا أُخرجوا منَ الضَّلال، فسيُنْقلون إلى مكانٍ آخرَ، هو الهُدى أو الإيمانُ؛ لذا قُرن بَيْنَهُما بالذِّكر؛ والتَّعبيرُ عن ذلك المعنى بهذا الأسلوبِ لبيانِ كَمالِ قُدْرَتِه جلَّ وعَلا وكمالِ فَضْلِه، ولبيانِ أنَّه لا هَاديَ إلا هو سبحانه وتعالى، والسِّرُّ أيضًا في اقترانِهمَا؛ لِيَقِفَ المُتَلَقِّي أَمامَ البَوْنِ الشَّاسِعِ بين الصُّورتَيْن؛ صُورَةِ الكُفْرِ وكأنَّه الظُّلماتُ بِوَحْشَتِهَا وتَخَبُّطِ السَّالِك فيه وضياعِه، وصورةِ الإيمان وكأنَّهُ النُّورُ بوضوحِه واستبانَةِ الطَّريقِ مَعَهُ، وما يَحْصُلُ من ذلك مِنْ نُفورٍ مِنَ الكُفْرِ، ورغبةٍ في الإيمان، فَلِلتَّنْفيرِ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعِ صُورَتِه، والتَّرغيبِ في الإيمان وتزيينِ صُورَتِهِ قَرَنَ بَيْنَهُمَا في الذِّكر على هذه الصُّورة[2].

وجهُ جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النُّورِ:

بيانُ أنّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مردُّه إلى الله، وطرقَ الباطل متشعّبةٌ

لِلْمُفَسِّرينَ في العدول عن إفراد كلمةِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والإتيان بها جَمْعًا؛ وفي المُقابلِ أُفْرِدَتْ كلمةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾، توجيهاتٌ، مِنْهَا: أَنَّ جَمْعَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ باعتبارِ تعدُّدِ معانيها؛ إذِ المرادُ: ظلمةُ الكفر، وظلمةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/68.

(2) مريم العبيد، بلاغة الاقتران في القرآن الكريم، ص: 193.

النّفاق، وظلمةُ العناد، وظلمةُ الحيرةِ، وظلمةُ التّقليدِ، وظلمةُ يوم القيامة، أو المرادُ ظلمةٌ شديدةٌ، كأنّها ظلماتٌ متراكمةٌ[1]، أو لتعدّد طرقِ الضّلال وأشكالِ الكفر؛ وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ طرقَ الكُفْرِ والبدعةِ كثيرةٌ؛ فجُمعتِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وفي المقابل أُفرد ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ طريقَ الحقّ واحدةٌ[2]؛ ولهذا وحّدَ الله تعالى لفظَ النّور، وجمعَ الظّلمات؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ، والكُفْرَ أجناسٌ كثيرةٌ، وكُلُّها باطلةٌ؛ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، إلى غيرِ ذلك منَ الآيات التي في لفظها إشعارٌ بِتفرُّدِ الحَقِّ، وانتشارِ الباطل وتَفَرُّقِه وتَشَعُّبِه[3].

ويُحْتَمَلُ أنَّ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمِعَتْ؛ لِلإِشارَةِ إلى أنَّ المُكَذِّبَ لَا يَنْتَفِعُ بِبَصَرٍ ولا بَصيرَةٍ، وذلك أنَّهم لمَّا لم ينتفِعُوا بحياتهم، ولا بأسماعِهم، ولا بِنُطْقِهِمْ، ولا أبصارِهم، ولا عقولِهم، كان كلُّ ذلك عدمًا كالظُّلمات[4].

وقَدْ يُرادُ بالظلمات أيضًا الأَسْبابُ المؤدِّيَةُ إِلَى الكُفْرِ، كالجَهْلِ واتِّباعِ الهَوى وقَبولِ الوَساوِسِ والشُّبَهِ، وبِالنُّور الهُدى المُوصِلُ إِلَى الإيمانِ[5].

فَهِيَ مُتعدِّدَةٌ بِتَعَدُّدِ الحُجُبِ المُقْتَضيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا، لكلِّ حجابٍ ظُلْمَةٌ خاصَّةٌ، ولا تَرْجِعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي ﷻ أصلًا لا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنَّما تَرْجِعُ إلى مفعولاتِه سبحانَه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ ومفعولاتِها مُتَعَدِّدَةً متكثرةً، بخلاف النُّورِ، فإنّهُ يَرْجِعُ إلى اسمه وصفتِه ﷻ، تعالى أن يكون كَمِثْلِهِ شيءٌ وهو نُورُ السَّماوات والأرض[6].

سِرُّ الاستعارة في تَشْبيهِ الإسلامِ بالصِّراطِ المُسْتَقيم:

التَّنْبِيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ

وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ مُستعارٌ لِلْإِيمَان[7]؛ لأنَّ الصِّراطَ يُطلقُ في الأصل على الطَّريق الحِسِّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ هُنا لطريق الإسلامِ استعارةٌ تَصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام

(1) تَفْسيرُ النَّسَفيّ، أنوار التَّنزيل: 2/502، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/58.
(3) ابنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/685.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 7/108.
(5) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/427.
(6) ابن القيم، طريق الهجرتين، ص: 177، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/119.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

بالطَّريق المخصوصِ الحسِّيِّ، والجامعُ بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ[1]، مع الاستقامةِ في كلٍّ منهما، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطُوِيَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصريحِيَّة، وفائدةُ الاستعارةِ ههنا: التَّنْبِيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ؛ إِذِ الحِسِّيَّاتُ أَظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ.

والهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم هي عينُ الهدايةِ إلى سُبُلِ السَّلام، وإنَّما عُطِفَتْ عليها تنزيلًا للتَّغايُرِ الوَصْفيِّ مَنْزِلَةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: 58][2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهل والآل:

الآلُ خاصَّةُ الرَّجلِ وقرابتُه، والأهلُ أعمُّ

الآلُ: خاصّةُ الرَّجلِ من جِهَةِ القرابةِ أو الصُّحْبةِ، فيقال: آلُ الرَّجل لأهله وأصحابِه، أمَّا الأهلُ فيكونُ من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابتِه الأَدْنِين، ويكونُ للاختصاص، كأهل البصرةِ وأهلِ العلم، ولا يقال: آلُ البصرة وآلُ العلم[3].

ثمَّ إنَّ لفظَ الآل مختصٌّ بأُولي الخطرِ، كالأنبياءِ والملوك ونحوِهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصَّافات: 130]، وآلُه لأهله وأقاربه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، وآلُه لمن تبعه، كقولِه: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]، وأمَّا إن ذُكِرَ الرّجل ثم ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[4].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/92.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/19، والآلوسّي، روح المعاني: 3/270.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

(4) ابن القَيِّم، جلاء الأفهام، ص: 226. وقراءة (ءَالِ يَاسِينَ) قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب.

ولا يضافُ (آل) إلى الأرذالِ ولا المكانِ والزَّمانِ، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال آلُ الحائِكِ وآلُ مِصرَ وآلُ زمانٍ وآلُ اللّٰه تعالى؛ بخلاف الأهلِ في جميع ما ذُكِرَ(1).

المجيء والإتْيان:

المَـجـيءُ إتْـيَـانٌ مُحَقَّقٌ

الإتْيَانُ مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهو بدايَةُ المَجِيءِ(2)، فَإِذَا اكْتَمَلَ وَبُلِغَ مَقْصِدُهُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ شَخْصٍ أَصْبَحَ مَجِيئًا، فَالمَجِيءُ هو إتْيَانٌ مُحَقَّقٌ بَعِيدٌ عَنْ عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فَالإتْيَانُ بِدَايَةُ المَجِيءِ زَمَانِيًّا أَوْ مَكَانِيًّا، وَقَدْ لَا يَتِمُّ فَلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا المَجِيءُ فَهُوَ إتْيَانٌ مُحَقَّقٌ قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا(3).

أَمَّا فِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَمَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجِيءِ وَالإتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ(4) يَجْعَلُهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَيَسْتَدِلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفْسِهَا دُونَ تَفْرِيقٍ؛ فَالفَرْقُ السَّابِقُ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

الكِتْمَان والإخْفاء:

الـكِـتْـمَـانُ يَخْتَصُّ بِالمعانِي والإخْفاءُ أَعَمُّ

الكتمانُ هو السُّكوتُ عنِ المعنى، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتُونَ عن ذِكْرِه، والإخْفَاءُ يكونُ في المعاني، كقولِه تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غيره منَ الأمورِ الحسّيّة، كقوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهدُ أنَّك تقول:

(1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/72.
(2) الرَّاغِب، المُفردات: (أتى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتو/أتى).
(4) ابْنُ تَيْمِيَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيِّم، الصَّواعِقُ المُرْسَلَة: 3/1099.

أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تقولُ: كَتَمْتُ[1]، فالكتمانُ يختصّ بالمعاني، كالأخبارِ والأسرارِ، والإخفاءُ يكونُ في الأمور الحسّيَّةِ.

الرِّضوان والمرضَاة:

الرِّضوانُ هو أعظمُ الرِّضا وأكبرُه، ولا يكونُ إلا منَ الله

الرِّضوان: بكسر الرَّاء وضمِّها، اسمُ مُبالغةٍ في مَعْنى الرِّضا، فهو الرِّضا الكثيرُ، ولمَّا كان أعظمُ الرِّضا رضا اللّه خَصَّ الرِّضوانَ في القرآن بما كان منه تعالى[2]، من حيث إنَّ رِضاهُ أعظمُ الرِّضا، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72][3].

أمَّا المَرْضاةُ فتأتي منَ اللّه ومن غيره، فَلَيْسَتْ مُخْتَصَّةً باللّه تعالى، وإنَّما تأتي للّه تعالى ولِغَيْرِهِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207]، وقال تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التَّحريم: 1]، فالرِّضوان خاصٌّ باللّه تعالى، والمرضاة عامَّةٌ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ ما يُسْلَكُ، والسَّبيلُ أَسْهَلُهُ، والصِّراطُ أَقْوَمُهُ

الطَّرِيقُ هُوَ كُلُّ مَا يَطْرُقُهُ الطَارِقُ مِنَ النَّاسِ؛ مُعْتَادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتاد[4]، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]، أَمَّا السَّبيلُ فهُوَ الطَّرِيقُ السَّهْلُ؛ وَأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأَنْعام: 55]، أَمَّا الصِّراطُ: فهو السَّبيلُ الذي لا اعْوجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فَالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ أَنَّ الطَّرِيقَ لا يَقْتَضِي السُّهُولَةَ واعْتِيادَ السُّلوك[5]، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فهو السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 287.
(2) الرَّاغِب، المُفْردات: (رضى)، والمَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 178.
(3) الكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 478.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 513.
(5) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 298.

بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ أَنَّ الصِّراط لا اعْوِجاجَ فيهِ[1]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأَنْعامُ: 161]، فَالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأَنْعامُ: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[2]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) الكَفَويّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(2) المُناويّ، التَّوقيف، ص: 215.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: 17]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللّٰه تعالى أَخْذَ الميثاقِ على أهلِ الكِتابَيْنِ، وأنَّهم لم يَقوموا به، بل نَقَضُوه، ذكَر أقوالَهم الشَّنيعةَ، فذكَر قولَ النَّصارى وَرَدَّ عليهم[1]، فقالَ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾؛ فكانَ أَنْسَبَ الأشياء بَعْدَ الوَعْظِ أن يَذْكُر حال النَّصارى في نَبِيِّهِمْ، مُبَيِّنًا أنَّهم في أظلم الظَّلام وأعمى العَمى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: عيسى عليه السلام عبدُ اللّٰه ورسولُه، من مسحَ يمسحُ مسْحًا، وَمَسَحْتُهُ بِيَدِي مَسْحًا، ومسيحٌ فعيلٌ من مسْحِ الأَرْض؛ لِأَنَّهُ كَانَ يمسحُها؛ أَي: يقطعُهَا، وأصلُ المسح إِمْرَارُ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ بَسْطًا، وَقيل: سّمي بذلك؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسَحُ يَده على العليل والأَكْمَه والأبرص فيبرئُه بإذن اللّٰه، وَقيل: المَسِيح الصّديق، وقيل: لِأَنَّهُ خرج من بطن أمّه ممسوحًا بالدُّهن، وَقيل لِأَنَّهُ كَانَ أَمسَحَ الرِّجل، لَيْسَ لرجلِه أَخْمصُ[3].

2) ﴿يُهۡلِكَ﴾: الهلاكُ افتقادُ الشيء بموتٍ أو باستحالةٍ وفسادٍ؛ من هَلَكَ يهلِك هُلْكاً وهَلْكاً وهَلاكاً؛ أَي: مَاتَ، وأصلُ هلك يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وَسُقُوطٍ، والمعنى هنا: يميتُه وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا[4].

(1) السَّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 266.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (مسح)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 414.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (هلك)، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/93.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لقد كفر القائلون منَ النَّصارى بأنَّ اللّه هو المسيحُ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ، قل لهم - أيُّها الرَّسول: من يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ اللّه من إماتَةِ المسيح عيسى ابْنِ مَرْيمَ وأمِّه، وإماتةِ من في الأرض كُلِّهمْ إذا أراد إماتتَهم؟! وإذا لم يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَهُ من ذلك دلَّ ذلك على أنَّه لا إله إلا اللّه، وأنَّ الجميعَ: عيسى ابْن مريم وأمَّه وسائرَ الخَلْقِ هم خَلْقُ اللّه؛ وجميعُ الموجوداتِ في السَّماوات والأرض مُلْكٌ للّه، يَخْلُقُ ما يشاء ويُوجِدُهُ على أيِّ مثالٍ أرادَ، واللّه عظيم القُدْرةِ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ البيانِ في الاستئنافِ بذكْرِ الموصولِ:

بيانُ شناعةِ مقالةِ النَّصارى بعد بيانِ حالِهم فيما سَبَقَ

اسْتَأْنَفَ هَذِهِ الجُمْلَةَ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ اسْتِئْنَافَ البَيَانِ، إجابة عن سؤالٍ مقدّر عن بيان حُكمهم بعد بيان حالهم، وَتَعَيَّنَ ذِكْرُ المَوْصُولِ هُنَا؛ لِأَنَّ المَقْصُودَ بَيَانُ مَا في هَذِهِ المَقَالَةِ مِنَ الكُفْرِ لَا بَيَانُ مَا عَلَيْهِ النَّصَارَى مِنَ الضلال؛ لأَنّ ضلالَهم حَاصِلٌ لَا مَحَالَةَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ كُفْرًا، وهَذَا مِنْ ضُرُوبِ عَدَمِ الوَفَاءِ بِمِيثَاقِ اللّه تَعَالَى، فكَانَ أَعْظَمَ ضَلَالِ النَّصَارَى ادِّعَاؤُهُمْ إِلَهِيَّةَ عِيسَى ﷺ، فَإِبْطَالُ زَعْمِهِمْ ذَلِكَ هو أَهَمَّ أَحْوَالِ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَهَدْيِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم[2].

دلالةُ استعمال المؤكّدات وأساليب القصر:

بيانُ تأكُّدِ مقالَتِهِمْ الشَّنيعةِ في نفوسهم، والإنكارِ عليهم فيها

فجُمْلَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ هي تَرْكِيبٌ دَقِيقُ المَعْنَى من حيث اتِّحادُ مُسَمَّى هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ بِطَرِيقِ تَعْرِيفِ كُلٍّ مِنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ بِالعَلَمِيَّةِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

الكَلَامَ لَيْسَ مَقْصُودًا لِلْإِخْبَارِ بِأَحْدَاثٍ لِذَوَاتٍ، المُسَمَّى في الاصْطِلَاحِ: حَمْلُ اشْتِقَاقٍ، بَلْ هُوَ حَمْلُ مُوَاطَأَةٍ، وهو مَا يُسَمَّى في المَنْطِقِ، حَمْلَ (هُوَ هُوَ)، وَذَلِكَ حِينَ يَكُونُ كُلٌّ مِنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ مَعْلُومًا لِلْمُخَاطَبِ، وَيُرَادُ بَيَانُ أَنَّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ، كَقَوْلِكَ حِينَ تَقُولُ: قَالَ زِيَادٌ، فَيَقُولُ سَامِعُكَ: مَنْ هُوَ زِيَادٌ؟ فَتَقُولُ: زِيَادٌ هو النَّابِغَةُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُكَ: مَيْمُونٌ هو الأَعْشَى، فَمُجَرَّدُ تَعْرِيفِ جُزْأَيِ الإِسْنَادِ كَافٍ في إِفَادَةِ الاتِّحَادِ، وَإِقْحَامُ ضَمِيرِ الفَصْلِ بَيْنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ في مِثْلِ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ لَا يَكَادُ يَتَخَلَّفُ قَصْدًا لِتَأْكِيدِ الاتِّحَادِ، وتأكيدِ القصْرِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وَكَذَلِكَ وُجُودُ حَرْفِ (إِنَّ) لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ، وفي هذا بَتُّ القَوْلِ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ اللّٰه هو المَسِيحُ[1]، فمعنى البتِّ مُسْتَفَادٌ من ثلاثةِ تأكيداتٍ باللَّامِ وضميرِ الفَصْلِ وإنَّ[2]، وفيه بيانُ شناعة ما قالوه وبُعدِه منَ العقل، فهو في غاية الإنكار[3].

دلالةُ الأمرِ بعدَ بيانِ مقالةِ النَّصارَى:

تَبْكِيتُهُمْ وإظهارُ ضلالِهم، والدَّعوةُ إلى إبطالِ شُبَهِهِمْ

فـ﴿قُلۡ﴾؛ أي: يا محمَّد تبكيتاً لهم وإظهارًا لبطلان قولِهم الفاسدِ وإلقامًا لهم الحجرَ، وقد يُقال: إنَّ الخطاب لكلِّ من له أهليَّةُ ذلك[4]، فهو خِطابٌ لأهل العلم والدُّعاةِ إلى التَّصدّي لِشُبهِ المُبْطلينَ منَ النَّصارى ومن كان في حُكمِهم، ومُناظرتِهم بالحُجَجِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، ومِنْ ثَمَّ دعوتُهم إلى الحقِّ والنُّورِ المُبين الذي جاء بِهِ خيرُ النَّبيّين وإمامُ المُرسلين نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ:

بيانُ كذبِهم وافترائِهم، والتَّعقيبُ على مقالتِهم الشَّنيعةِ بما يُبْطِلُها ويَدمَغُها

﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾: الفاءُ عاطفةٌ هذه الجملةَ على جملةٍ مقدّرةٍ قبْلَها، والتّقديرُ: قل كذبوا، أو جوابِ شرطٍ مقدّرٍ؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، أو إن كان كذلك ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾؟[5]، وقد تكونُ الفاءُ عاطفةً

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/617، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/152.
(2) ابنُ التَّمْجيد، حاشِيَةُ ابنِ التَّمْجيد: 7/427، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270، والجَمَل، حاشية الجَمَلِ على الجلالين: 2/199.
(5) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 4/230.

للاستفهام الإنكاريِّ على قَوْلِهم: إنَّ اللّه هو المَسِيحُ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الإنكارَ ترتَّبَ على هذا القَوْلِ الشَّنيعِ؛ فهي للتَّعقيبِ الذِّكْرِيِّ[1].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الإنكارُ والتَّوبيخُ للنَّصارَى على مَقالَتِهِمْ القبيحةِ

﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾: فَمَنْ استفهامٌ للإنكارِ والتَّوبيخ؛ أي: لا يُوجَدُ أحدٌ يستطيعُ أن يردَّ إرادتَه؛ لأنَّه هو المالكُ لأمرِ الوجودِ كلِّه، ولا يملكُ أحدٌ مِن أمْرِه شيئًا يستطيعُ به أن يَصرِفَه عن عملٍ يُريدُه، أو يَحمِلَه على أمرٍ لا يُريدُه، أو يَستقِلَّ بعملٍ دونَه[2]، فمن استفهاميةٌ للإنكار والتَّوبيخ[3].

بلاغةُ الكنايةِ على المَنْعِ والقُدْرةِ بالمِلك:

بيانُ أنَّ من لا يقدِرُ على دفْعِ المقاديرِ ليس له حظٌّ في الألُوهيَّةِ

فالمعنى: فمن يمنعُ من قدرته تعالى وإرادته شيئاً ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ إشارةً إلى أنّ ﴿يَمۡلِكُ﴾ مجازٌ عن يمنع، أو يضمّن معناه، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ به على حذف مضاف؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، أو إن كان كما تزعمون، لكنْ ذُكر في الأحقاف في قوله: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ [الأحقاف: 8]، أنّ معناه لا تقدِرون على كفِّه من معاجلتي وتُطيقون دفعَ شيءٍ من عقابِه، وحقيقتُه من يستطيعُ إمساكَ شيءٍ من قدرة اللّه تعالى إن أراد تعالى أن يُهلكَه، فإذا لم يستطع إمساكَه، ودفعَه عنهم فلا يمكنُ منعُهم منه؛ فلذا فُسّر بالمنع أخذًا بالحاصل، فهو بمعنى المنع مجازاً[4]، وهي كنايةٌ عن نفي المانع مطلقًا.

وقد يكونُ بمعنى القُدرة، وَمعْنَى يَمْلِكُ شَيْئًا هُنَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَالمُرَكَّبُ مُسْتَعْمَلٌ في لَازِمِ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقَةِ الكِنَايَةِ أيضًا، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/19، ورضا، تفسير المنار: 6/256 - 257.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.
(4) البَيْضاويّ، أنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.

اللَّازِمُ مُتَعَدِّدٌ، وهو المِلْكُ، وهو اسْتِعْمَالٌ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ [الفَتْح: 11]؛ لِأَنَّ الَّذِي يَمْلِكُ يَتَصَرَّفُ فِي مَمْلُوكِهِ كَيْفَ شَاءَ[1].

فمن حقٍّ من يكونُ إلهاً ألّا يتعلّق به ولا بشأنٍ من شؤونه، بل بشيءٍ منَ الموجودات قدرةُ غيره، فضلاً عن أن يعجزَ عن دفع شيءٍ منها عند تعلّقِها بهلاكه، فلمّا كان عجزُه بيّنًا لا ريب فيه ظهرَ كونُه بمعزلٍ عمَّا تقولون فيه[2].

سِرُّ التَّنكيرِ في مَعْرِضِ الحِجاجِ والتَّقرير:

التَّحقيرُ ونفيُ القليل المقتضِي لِنَفْيِ الكثيرِ

وتنكيرُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، ولَمَّا كان الاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾ بمعنى النَّفْيِ، كان نفيُ الشَّيءِ القليلِ مُقتضيًا نفيَ الكثيرِ بطريقِ الأَوْلى، فَالمَعْنَى: فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ اللهِ؛ أَيْ: مِنْ فِعْلِهِ وَتَصَرُّفِهِ أَنْ يُحَوِّلَهُ عَنْهُ، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ [يُوسُف: 67][3].

سِرُّ تقديمِ الجزاءِ على الشَّرْطِ في الجملةِ الشّرطيَّةِ:

إقامةُ الحُجَّةِ عليهم من خلالِ بيانِ فسادِ مذهبِهم

فاللهُ سُبحانه دلَّلَ على فَسادِ هذا المذهبِ بقوله: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾، وهذه جملةٌ شرطيَّةٌ قُدِّم فيها الجزاءُ على الشَّرطِ، والتَّقديرُ: إن أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريم وأمَّهُ ومن في الأرض جميعًا، فمنِ الذي يَقْدِرُ على أن يدفعَه عن مُرادِهِ ومَقْدُورِه[4]، والمُرادُ بالإهلاك الإماتةُ والإعدامُ مُطلَقًا لا عن سَخَطٍ وغَضَبٍ[5].

وَحَرْفُ الشَّرْطِ هنا مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنۡ أَرَادَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ فِي مُجَرَّدِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154، والخَفاجيّ، حَاشِيةُ الشِّهاب: 3/226.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.

التَّعْلِيقِ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى الِاسْتِقْبَالِ؛ لِأَنَّ إِهْلَاكَ أُمِّ المَسِيحِ قَدْ وَقَعَ بِلَا خِلَافٍ، ولأَنَّ إِهْلَاكَ المَسِيحِ؛ أَيْ: مَوْتَهُ، وَاقِعٌ عِنْدَ المُجَادِلِينَ بِهَذَا الكَلَامِ، فَيَنْبَغِي إِرْخَاءُ العِنَانِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ[1].

غرض التّعبير بـ ﴿إِنْ﴾ دون (إذا):

الـــردّ عـلى شـبـهـاتـهـم والـتّـقـلـيل من شأنها

والتّعبيرُ بـ﴿إِنْ﴾ دون (إذا) مع أنّها تأتي في الأمر المشكوك فيه وغيرِ المحقَّق، وهلاكُ كلّ المخلوقات محقّقٌ، والأصلُ أن يُؤتَى في التّعبير عنه بـ(إذا)، هو خروجٌ عنِ الظاهر لإنزال الأمرِ المحقَّق منزلةَ غيرِ المحقَّق؛ لأنّها جاءت في معرِضِ جدالِهم وردِّ افتراءاتِهم على المسيح عليه السلام في ادّعاء أُلوهيّته.

النُّكْتَةُ في وصفِ المسيح عليه السلام بكونِه ابنَ مريم وأنَّها أُمُّهُ:

بـيـانُ حـاجـةِ المـسـيـح لأمِّـه حـمَـلًا وكـفـالـةً وكـونُـه حـادثًـا وهذه من دلائلِ ضَعْفِهِ

فكرَّر وصْفَهُ بالبُنُوَّةِ إيضاحًا للمُراد، فقال: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وأزال الشُّبهة جدًا بقوله: ﴿وَأُمَّهُۥ﴾، فقال: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فهو مُحتاج إلى كفالتِها بما لها منَ الأمومة[2].

فإظهارُ المسيح على الوجه الذي نَسبوا إليه الألوهيَّةَ حيث ذُكِرَتْ معه الصِّفَةُ؛ في مقامِ الإضمارِ لزيادة التَّقريرِ والتَّنصيصِ على أنَّه من تلك الحيثيَّة بِعينها داخلٌ تحت قهرِه تعالى وملكوتِه سبحانَه، كما أنَّ وصْفَه بذلك للتَّنبيه على أنَّه حادثٌ تَعَلَّقَتْ به القُدْرَةُ بلا شُبْهَةٍ؛ لأنَّه تَوَلَّدَ من أمٍّ[3].

فمَن اشتملتْ عليه أرحامُ الطَّوامِثِ متى يُفارِقُهُ نَقْصُ الخِلْقة[4]، ومقهورٌ بالفناء مَنْ هذه صفتُه، فكيف يكونُ إلهًا؟![5].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/413.
(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226.

دلالةُ عطف ﴿وَأُمَّهُۥ﴾ مع اندراجِها في عمومِ المعطوف:

تأكيدُ عجزِ المسيحِ في كونِه مخلوقًا تَوَلَّدَ عن مخلوقٍ تَحَقَّقَ هَلاكُهُ

﴿وَأُمَّهُۥ﴾ عَطَفَهُ عليه احتجاجًا على انحطاطِها عنِ الأُلُوهيَّة أَيْضًا، وتَخْصيصُ الأمِّ بالذِّكر مع اندراجِها في عُموم المعطوفِ لِزيادَةِ تأكيدِ عجْزِ المسيح، ولعلَّ نَظْمَها في سِلْكِ من فرضَ إرادةَ إهلاكِهم مَعَ تَحَقُّقِ هَلاكِها قَبْلُ؛ لِتأْكيدِ التَّبْكيتِ وزيادَةِ تقريرِ مَضْمُونِ الكلام بجعل حَالها أُنْموذجًا لِحالِ بقيَّة من فُرِضَ إهْلاكُهُ[1].

سِرُّ تعميمِ إرادةِ الإهلاكِ مع حُصولِ الغرضِ بقصْرِها على عيسى عليه السلام:

المُبالغةُ في إظهارِ كمالِ العَجْزِ المُبْعِدِ من رُتبةِ الإلهيَّة

فلمَّا خَصَّ اللّه تعالى المسيحَ وأمَّه بالذِّكر دليلًا على ضعفِهما المُستلزم للمُراد، عمَّ دلالةً على عموم القُدْرةِ المُستلزم لِتَمام القَهْرِ لكلِّ من يماثلُهُما المُسْتَلْزِمِ لعجزِ الكلِّ المُبْعِدِ من رُتبة الإلهيَّة، فقال موضِّحًا للدَّليل بتسويتِهما ببقية المخلوقات: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾[2].

وهذا التَّعميمُ لتهويلِ الخَطبِ وإظهارِ كمالِ العجْزِ ببيانِ أنَّ الكُلَّ تحت قهرِه وملكوتِه تعالى لا يقدِرُ (أَحَدٌ) على دفْعِ ما أُريدَ به، فضلًا عمَّا أُريدَ بغيرِه، وللإيذان بأنَّ المسيحَ أُسْوَةٌ لسائرِ المخلوقات في كونِه عُرْضَةً للهلاك، كما أنَّه أُسْوَةٌ لهم في العجْزِ وعدم استحقاقِ الأُلوهيَّة[3].

كما أنَّ عَطْفَ العامِّ ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾؛ ليكونَا قد ذُكرَا مرَّتين: مرَّةً بالنَّصِّ عليهما، ومرَّة بالاندراجِ في العامِّ، وذلك على سبيلِ التَّوكيدِ والمبالَغةِ في تعلُّق نَفاذِ الإرادةِ فيهما، وكذلك تأكيدُ عَجْزِ المسيح[4] عليه السلام.

كما أنَّ ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾ فيه أنَّ عيسى مُشَاكِلٌ لمن في الأرض في الصُّورة والخِلْقَةِ والجسميَّة، والتَّركيب، وتغييرِ الصِّفاتِ

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/20، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/371.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/210، وأَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/20، والجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 2/200.

والأحوالِ، فلمَّا سلّمتُمْ كونَه تعالى خالقًا للكُلِّ مُدَبِّرًا لِلْكُلِّ وَجَبَ أن يكونَ أيضًا خالقًا لعيسى[1].

دلالةُ الشَّرطيَّةِ في التَّعبيرِ بالجمعيَّةِ:

استِلزامُ الشَّرطِ للحالِ والاستقبالِ

وَالمُرَادُ بـ ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ مَنْ كَانَ فِي زَمَنِ المَسِيحِ وَأُمِّهِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ بِالضَّرُورَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَصُدَّ اللّه إذا أَرَادَ إِهْلَاكَ المَسِيحِ وَأُمِّهِ وَمَنْ في الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ.

وَقد تَسْتلزِمُ الشَّرطِيَّةُ هنا كَوْنَ الشَّرْطِ لِلاسْتِقْبَالِ؛ بِاعْتِبَارِ جَعْلِ مَنْ في الأَرْضِ جَمِيعًا بِمَعْنَى نَوْعِ الإِنْسَانِ، فَتَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِ مَفَاعِيلِ يُهْلِكَ منها عَلَى طَرِيقَةِ التَّغْلِيبِ، فَإِنَّ بَعْضَهَا وَقَعَ هَلَاكُهُ، وَهُوَ أُمُّ المَسِيحِ، وَبَعْضَهَا لَمْ يَقَعْ وَسَيَقَعُ، وَهُوَ إِهْلَاكُ مَنْ في الأَرْضِ جَمِيعًا؛ أَيْ: إِهْلَاكُ جَمِيعِ النَّوْعِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ وَاقِعٍ، وَلَكِنَّهُ مُمْكِنُ الوُقُوعِ، وهذا الشَّرْطُ مِنْ غَرَائِبِ اسْتِعْمَالِ الشُّرُوطِ في العَرَبِيَّةِ، وَمَرْجِعُهُ إِلَى اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الشَّرْطِ في مَعْنًى حَقِيقِيٍّ وَمَعْنًى مَجَازِيٍّ تَغْلِيبًا لِلْمَعْنَى الحَقِيقِيِّ؛ لِأَنَّ مَنْ فِي الأَرْضِ يَعُمُّ الجَمِيعَ، وهو الأَكْثَرُ[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بين هذه الآيةِ وآيةِ الفتح:

بيانُ عمومِ الخطابِ هنا للنّاسِ أجمعين وتقييدِه في آيةِ الفتحِ بالمُخَلَّفينَ

فمن لطيفِ المُتشابِهِ اللّفظي بين قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ هنا، وفي سورة الفتح: عند قوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ [الفتح: 11]، بزيادة لفظة (لكم)، أنَّ في آية المائدة عمومًا يستدعي الإطلاقَ وعدمَ التَّقييد بالمخاطَبين، وفي سورة الفتح خصوصٌ يستدعي التَّخصيصَ بآية الخطاب للمواجَهين به، وذلك أنَّ الإخبارَ في سورة المائدة إنَّما هو للنَّصارى، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328، والجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 2/200.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.

مَرۡيَمَۖ﴾، وهذا حكايةُ قولِهم، ثمَّ أعلم تعالى بقدرتِه وقهرِه للكلِّ، فقال: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: من يدافعُ مرادَه في خلقه إن أراد هلاكَهم، ثمَّ ذكر سبحانَه خَلْقَهُ المقهورين من سكَّانِ الأرض، فبدأ بالمسيحِ وأمِّه عليهما السلام، ثمَّ قال: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾، فعمَّ الكُلَّ، فلم يكنْ ليُناسبَ هذا العمومَ أداةُ خِطابٍ تَخُصُّ، أمَّا آيةُ الفتح فقبْلَها إخبارهُ سُبحانَه عنِ المُتَخَلِّفينَ عن غزوة الحديبيَّةِ، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ثُمَّ أعلَمَ تعالى نبيَّه عليه السلام والمؤمنين أنَّ قولَ المُخَلَّفينَ قولٌ بألسنتهم غيرُ مُطابِقٍ لما في قلوبهم، فَقالَ تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: قلْ يا محمَّد ﷺ من يملك لكم مَعْشَرَ المُخَلَّفينَ منَ اللَّه شيئًا؛ أي: من يدفعُ عنكم الضُّرَّ إن أراده بكم، أو يُوصلُ إليكم النَّفعَ إن مَنَعَهُ عنكم، فالإخبارُ إنَّما هو عنهم، وتقديرُ النَّفعِ والضُّرِّ مرفوعًا أو لاحقًا خاصٌّ بهم، لم يُرَدْ بذلك غَيْرُهم، فَوَرَدَ بخطاب المواجهة، فقال: ﴿لَكُم﴾، ولم يكن بُدٌّ من ذلك ليُعلَمَ أنَّ الإخبارَ عنهم والخطابَ بما بعدُ لهم، فجاء كلٌّ على ما يُناسبُ ويَجِبُ، ولا يُتَصَوَّر فيه العَكْسُ(1).

سِرُّ التَّذييلِ بِذِكْرِ المُلْكِ والخَلْقِ بعد الشَّرطِ ونفيِ المانعِ:

تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى في اختصاصِه بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾: تذييلٌ في مقام التَّعليل للجُملةِ السَّابقةِ، وفيه عدَّةُ فوائدَ؛ منها: تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى، فَلَهُ وحده ملكُ جميعِ الموجوداتِ، والتَّصرّفُ المُطْلَقُ فيها إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، لا لأحد سواه، استقلالًا ولا اشتراكًا، فهو تحقيقٌ لاختصاص الأُلوهيَّة به تعالى إثْرَ بيان انتفائها عمَّا سواه، وفيه ردٌّ آخَر عليهم بأنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرضَ، ومَلَكَ ما فيها من قَبْلِ أن يظهرَ المسيحُ؛ فاللهُ هو الإلهُ حقًّا، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاءُ، فهو الذي خَلَقَ المسيحَ خلقًا غيرَ مُعتادٍ؛ فكان مُوجِبَ ضلالِ مَن نَسَبَ له الأُلوهيَّةَ(2).

كما أنَّ جُمْلَةَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾ جملةٌ

(1) ابْنُ الزُّبَيْر، مِلاكُ التَّأْويل: 1/125.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/155.

مؤكِّدةٌ لِقَوْلِه: ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾، ودالَّة على أنَّه إذا أرادَ فَعَلَ؛ لأنَّ مَن له ذلك المُلْكُ يَفعلُ في مُلْكِه ما يشاءُ[1]، وتقديمُ الخبر شبْهِ الجملة هنا على المبتدأ ﴿مُلۡكُ﴾ أفاد معنى التّخصيص في قصر هذا الملكِ على الله وحده دونَ غيرِه ﷻ.

التَّأكيدُ على مُطْلَقِ الإرادةِ والفعْلِ لكمالِ المُلْكِ والتَّصرُّفِ

فالمسيحُ وأُمُّه مخلوقانِ محدودانِ محصورانِ داخلانِ في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾، وما أحاط به الحدُّ والنِّهايةُ لا يصلح للإلهيَّة[2].

بيانُ أنَّ ما يُحيطُ بِهِ الحَدُّ والحصْرُ لا يَصْلُحُ للإلهيَّة

وفيها دليلٌ آخر على نفيِ ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّه لو كان إلهًا كان له مُلكُ السَّماوات والأرض وما بينهما، فدليلُ نفيِ كونِه عليه السلام ابنًا ببيانِ أنَّه مملوكٌ لدخولِه تحت العُموم، ومنَ المعلومِ أنَّ المملوكية تُنافي البُنُوَّةَ[3].

بيانُ أنَّ المملوكَ لا يكونُ إلهًا ولا ابنًا للإله

دلالةُ الاستئنافِ بعدَ التَّذْييلِ:

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مسوقةٌ لبيانِ بعضِ أحكامِ الملكِ والألوهيَّةِ، فاستأنفَ قولَه: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ دليلًا على ما قبْلَه، ونتيجةً له، فيَخْلُقُ على أيِّ كيفيَّة أراد - كما تقدَّمَ - أنَّ له أن يُعْدِمَ ما يشاءُ كذلك، فلا عَجَبَ في خلْقِه بَشرًا من أُنثى فقط، لا بواسطةِ ذَكَرٍ، حتى يكون سببًا في ضلالِ من ضَلَّ به[4].

بيانُ كمالِ القُدْرةِ على الخلْقِ بأيِّ طريقةٍ وكيفيَّةٍ

والمعنى أنَّه ﷻ قادرٌ على الإطلاقِ، يَخْلُقُ من غيرِ أصلٍ كما خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، ومن أصلٍ كخلْقِ ما بينهما، فيُنْشئُ من أصلٍ لَيْسَ من جنسِه، كآدم خَلَقَهُ من ترابٍ؛ فإنَّه خُلِقَ منَ الطِّين وهو ليس من جنْسِ البشرِ؛ ومِنْ أَصْلٍ يُجانسه؛ إمَّا من ذَكَرٍ وحْدَهُ، كما خلَقَ حواءَ، أو من أنثى وحْدَها، كعيسى عليه السلام، أو منْهُما كسائرِ النَّاس[5]، وهذا التَّنوُّعُ في الخلق دليلٌ على كمالِ قُدرته ﷻ.

(1) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/211.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/119.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65 - 66.
(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/429.

و﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ يعني أيضًا أنَّ عيسى إذا قَدَّر صُورَةَ الطَّيْرِ من الطِّين فاللّه تعالى يَخْلُقُ فيه اللَّحميَّةَ والحياةَ والقدرةَ معجزةً لعيسى، وتارةً يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمهَ والأبرصَ مُعجزةً له، ولا اعتراضَ على اللّه تعالى في شيءٍ من أفعالِه[1]، فيجبُ أن يُنسبَ إليه ولا يُنسبَ إلى البشرِ المُجرَى على يده[2].

السِّرُّ في التَّذْييلِ بعدَ التَّذْييلِ:

تقريرُ مضمونِ ما قبلَه وتعميمُ القدرةِ وتأكيدُها

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تَذْييلٌ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه وإظهارِ الاسمِ الجليلِ لما مرَّ منَ التَّعليل، وتقويةِ استقلالِ الجُملةِ[3]، فلمَّا دلَّ ذلك على تمامِ القُدرةِ على المذكورِ عمَّ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ أي: ذو الجلالِ والإكرام ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: من ذلك وغَيْرِه ﴿قَدِيرٞ﴾[4].

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ بين هذه الآيةِ والآيةِ التي تَلِيها:

التَّعقيبُ بِذِكْرِ الخَلْقِ لمناسبتِه القُدرَةَ في الآيةِ الأُولى، والتَّعقيبُ بِذِكْرِ المآلِ بعدَ الجزاءِ في الثَّانيةِ

ومن لطائف التَّناسُب بين تعقيبِ المُتشابه في قوله تعالى هُنا: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]؛ حيث عقَّبَ الأولى بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وعقَّب الثَّانيةَ بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18].

ووجه التَّناسُبِ في ذلك أنَّه سُبحانَه لَمَّا ذَكَرَ في الأولى قُدْرَتَهُ وعظيمَ سلطانه في قوله: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾، وعرَّف سبحانَه أنَّه لا مُعانِدَ له ولا مانعَ لما يريدُه، أشار بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إلى ما أفصحَ به قولُه: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328.
(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65 - 66.

[النِّساء: 133]، وقوله ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]، فصارت الآيةُ بهذا في قوَّةِ أن لو قيل: قل من يملكُ من اللّه شيئًا إن أراد أن يُهلِك مَنْ ذَكَرَ ويأتي بآخرين سِواهُمْ، فأعقبَ هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذا واضح.

ولما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، ثُمَّ ذكرَ تعذيبَهم بِذُنوبهم بأنَّهُ سبحانَه يَغْفِرُ لمن يشاءُ ويعذِّبُ من يشاءُ، أَعْقَبَ هذا بما يُشيرُ إلى وقتِ التَّعذيب وظهورِ المغفرة والمُجازاة، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]، وهذا واضحٌ أيضًا، فلمَّا اختلف مقصودُ الآيَتَيْنِ أُعقِبَتْ كلُّ واحدةٍ منهما بما يُناسِبُ مقصودَها بالقَهْرِ في الأولى، والاختراعُ يُنَاسِبُ وصْفَه ﷻ بِالقُدْرَة، كما أنَّ التَّعذيبَ والغُفْرانَ في الثَّانيةِ يُناسِبُها ذِكْرُ المآل، فجاء على ما يُناسِبُ(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإهلاكُ والإعدام:

الإهلاكُ أعمُّ منَ الإعدامِ

الإهلاكُ أعمُّ منَ الإعدام؛ لأنَّه قد يكونُ بِنَقْضِ البِنْيَةِ وإبطالِ الحاسَّةِ، وما يجوزُ أن يَصِلَ مَعَهُ اللَّذَّةُ والمَنْفَعَةُ، والإعدامُ نَقيضُ الإيجادِ، وأصلُهُ من العَدَمِ خلافَ الوجودِ، فَيُقالُ: أَعْدَمَهُ اللّه؛ أي: أفقرَه اللّه، وقيلَ في خِلافِه: أوجدَه اللّه، فَهُوَ أَخَصُّ، فكلُّ إعدامٍ إهلاكٌ، ولَيْسَ كُلُّ إِهْلاكٍ إِعْدامًا(2).

---

(1) ابنُ الزُّبَيْرِ، مِلاكُ التَّأْويل: 1/126.

(2) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 58، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/271.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ بَعْضِ فضائح بني إسرائيل عامَّةً بعد ذِكْرِ فضائح النَّصارى خاصَّة

لَمَّا عمَّمَ اللَّه سبحانه ذكرَ فضائح بني إسرائيل تارةً، وخَصَّصَ تارة أُخرى، ختمَ بِذِكْرِ طامَّةٍ مِنْ طامّاتهم، حَمَلَهُمْ عليها العُجْبُ والبَطَرُ بما أنعم اللّه به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية[1]، فعُطِف هذا القول عَلَى الْمَقَالِ الْمُخْتَصِّ بِالنَّصَارَى، وهُوَ جُمْلَةُ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: 17]؛ فهو مَقَالٌ آخَرُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الْيَهُودِ يَدُلُّ عَلَى غَبَاوَتِهِم فِي الكُفرِ؛ إِذْ يَقُولُونَ مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللَّه تَعَالَى[2]، فهو حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحد الفريقين الكاذبيْنِ الخاطئَيْنِ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْيَهُودُ﴾: من الهَوْدِ: وهو التَّوْبةُ قال اللّه جَلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تُبْنا إليك، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصل الهَوْدِ إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيدُ، وسُمّيت اليهود اشتقاقًا من هادوا؛ أي: تابوا ورجعوا، كأنّهم رجعُوا عن شيء إلى شيء، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثُمَّ صار بعد نَسْخِ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/66.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/155، 156.
(3) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/94.

معنى المدح، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فأَدخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إِرادَةِ النَّسَبِ، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي صَارُوا يَهودًا[1].

2) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: جَمْعُ نَصْرانٍ للمُذكَّرِ ونَصْرانَةٍ للمؤنث، والغالبُ في الاِسْتِعْمَال النِّسبةُ نَصْرانيٌّ ونصرانيَّةٌ؛ وهُوَ مَأْخوذٌ من النَّصْرِ والنُّصْرَةِ بمعنى العون والإمداد، وأصل نَصَرَ يَدُلُّ عَلَى إِتيَانِ خيرٍ وإِيتَائِهِ؛ وإِنَّما سُمِّيَ النَّصارى بذلك لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقِيلَ سُمُّوا بذلك انتسابًا إلى قريةٍ يُقالُ لها نَصْرانُ، وقيل لِنُزُولِ عيسى عليه السلام قرية نَاصِرَةَ، فكان يُقالُ لَهُ عيسى النَّاصريُّ، ثُمَّ نُسِبَ قومُه إليه[2].

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المَرْجِع والمَعَادُ، يُقال: صِرْتُ إِلَى فُلان أَصِيرُ مَصِيرًا، وصار إلى كذا انتهى إليه، وأصل المصير هُوَ المَآلُ والمَرجِعُ الذي ينتهي إليه في تنقّلِه وتَحَرُّكِهِ، والمعنى هنا: المَرْجِع إليه في كل الشُّؤونِ في الدُّنْيا والآخرة[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

دعـوى اليهـود والنَّصارى مَحَبَّةَ اللهِ لهم دعوى بـاطـلـةٌ شَـرْعًـا وحِسًّا وعَقْلًا

ادَّعى كل من اليهود والنصارى فقالوا إنَّنا المُفَضَّلونَ؛ لأَنَّنا أبناءُ الله والمحبَّبون لَدَيهِ، قُلْ - أيُّها الرَّسول - ردًّا عليهم: لماذا يُعَذِبُكُمُ الله بالذُّنوب التي ترتكبونها؟! فلو كنتم أحباءَه كما زعمتم ما عذَّبكم بالقتل والمسخ في الدُّنيا، وبالنَّارِ في الآخرَةِ؛ لأنَّهُ لا يُعَذِّب أحبابه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، مخلوقون ومُحاسبون على أعمالكم، فيَغْفِرُ الله لمن يشاء بفضله، ويُعَذِّبُ من يشاء بعدله، ولله وحده مُلْكُ السَّماوات والأرض ومُلْكُ ما بَينهما، وإليه وَحدَهُ المَرجِعُ فيَحكُمُ بين عباده، ويُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[4].

---

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (هود)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 173، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 490.

(2) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، والنيسابوري، باهر البرهان: 1/89.

(3) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابن الأثير، النِّهايَة، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (صير)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (عود)، والخَضيري، السِّراج، ص: 270، ومُقاتل، تفسير مُقاتِلٍ: 1/232.

(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 148، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 111، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر، ص: 111.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بديع اللَّفِّ[1] والإيجاز:

بيانُ اختصاصِ كلِّ فرقة منهم بهذا القولِ الشَّنيعِ

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ فيه إيجازٌ؛ حيثُ إنَّ ظاهِرَ اللَّفظِ: أنَّ جميعَ اليهودِ والنَّصارى قالوا عن جميعِهم ذلك، وليس كذلك، بل في الكلام لفٌّ وإيجازٌ، والمعنى: وقالت كلُّ فرقةٍ من اليهودِ والنَّصارى عن نفْسِها خاصَّةً: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه[2]، فَفي الكلام لَفٌّ وإيجازٌ يُحالُ المُستَمِعُ على تَفْريقِهِ بِذِهنِه[3].

مجيء الإضافة على خلاف مقتضى الظّاهر في معنى البُنُوَّة:

بيان شِدَّةِ مُبالَغتِهِمْ في دعوى العِنايةِ والاختصاصِ بمحبّةِ الله وقُرْبِ المنزلة منه

لمّا كانت الإضافة بمعناها الحقيقي ممتنعةً عقلًا دلَّت على أنّها جاءت على خلافِ مقتضى الظّاهر، وفي توجيه التركيب الإضافي وجوه هي:

الأَوَّلُ: أَنَّ يكونَ مِنْ بَابِ حَذفِ المُضافِ، والتَّقْدِيرُ: نَحنُ أَبنَاءُ رُسُلِ اللَّه[4]، فأُضِيفَ إلى اللّه ما هو في الحقيقة مُضافٌ إلى رسولِ اللّه، ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: 10].

والثَّاني: أَنَّ لَفظَ الابْنِ كَمَا يُطلَقُ على ابنِ الصُّلبِ، فقَدْ يُطلَقُ أيضًا على مَنْ يُتَّخَذُ ابنًا، واتِّخَاذُهُ ابنًا بِمَعنَى تَخْصِيصِهِ بِمَزِيدِ الشَّفَقَةِ والمَحَبَّةِ، فالقومُ لَمَّا ادَّعوا أَنَّ عِنَايَةَ اللّه بِهِمْ أَشَدُّ وَأَكمَلُ مِنْ عِنَايَتِهِ بِكُلِّ مَن سِوَاهُمْ، لَا جَرَمَ إِنْ عَبَّرَ النَّظمُ عَن دَعواهُم كَمَالَ عِنَايَةِ اللّه بِهِمْ بِأَنَّهُمْ ادَّعوا أَنَّهُم أَبنَاءُ اللّه، فأَرَادُوا أَنَّ اللّه تعالى لَهم كَالأَبِ في الحُنُوِّ والعَطفِ، وهمْ كَالأَبنَاءِ لَهُ في القُربِ والمَنزِلَةِ[5]،

(1) هو أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدّد ثمّ يذكر أشياء على عدد ذلك كلّ واحد يرجع إلى واحد من المتقدّم ويفوّض إلى عقل السّامع ردّ كلّ واحد إلى ما يليق به، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503.

(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/211.

(3) ابْنُ عَطِيَّة، المحرر الوَجيز: 2/172.

(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120.

(5) البَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/33.

والوالدُ إذا سَخِطَ على ولدِه في وقتٍ يَرضَى عنه في وقت آخر[1]، فهمْ مُقرَّبون عنده قُربَ الأولادِ من والدهم، فحِينَئِذٍ لا حَذْفَ في الكَلَام بل هُوَ من قبيل ذكرِ الَملزوم وإرادة اللَّازم[2].

الثَّالِثُ: أَنَّ اليَهُودَ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّ عُزَيرًا ابنُ الله، والنَّصَارَى زَعَمُوا أَنَّ المَسِيحَ ابنُ الله، ثُمَّ زعموا أنَّ عُزَيرًا والمَسِيح كَانَا مِنْهُم، صَارَ ذَلِكَ كَأَنَّهُمْ قَالُوا نَحنُ أَبنَاءُ الله، فأَقَارِبُ المَلِكِ إِذَا فَاخَرُوا إِنسَانًا آخر يَقُولُونَ: نَحنُ مُلُوكُ الدُّنيَا، ونَحنُ سَلَاطِينُ العَالَم، وغَرَضُهُمْ مِنْهُ كَوْنُهُمْ مُخْتَصِّينَ بِذَلِكَ الشَّخصِ الذي هو المَلِكُ والسُّلطانُ فكذا الأمر هنا[3].

فيكونُ مُرادُهم بكونِهم أبناءَ الله تعالى أنَّه لَمَّا أرسل إليهم الابن على زعمهم، وأرسل لغيرهم رُسُلَ عباده، دلَّ ذلك على امتيازهم عن سائر الخلق، وأنَّ لهم مع الله تعالى مُناسَبَةً تامَّةً وزُلْفى تقتضي كرامةً لا كرامةَ فوقها، كما أنَّ المَلِكَ إذا أرسل لِدَعْوَةِ قوم أحدَ جُنْدِهِ، ولآخرين ابنَه عَلِموا أنَّه مُريدٌ لتقريبهم، وأنَّهم آمنون من كلِّ سُوءٍ يَطْرُقُ غَيْرَهُمْ[4].

وعليه يكون المُضَاف مَحذُوفًا وهو (ابْنَيْهِ)، فلا إشكالَ بأنَّهم لا يقولون لأنفسهم نحن أبناء الله، وإنَّما قَالُوا ذلك في عيسى وعزيرٍ عليهما السلام، فالمُخْتَصُّ بِشَخصٍ يُطلَقُ عليه ما يُطلَقُ عَلَى ذلك الشَّخْصِ مَجَازًا ومُبَالَغَة، إمَّا مجازًا في الحذف، أو مجازًا في اللَّفْظ، فالمُرَاد أنَّ أصلَ الكَلَام: نَحْنُ أشياع ابني الله؛ فحُذِفَ المُضَاف إليه، وأقيم المُضَاف مُقامَهُ[5].

وحاصلُ دعواهم أنَّ لهم فَضلًا ومزيَّة عند الله تعالى على سائر الخلق[6]، وأنَّى لهم ذلك، فالبُنُوَّةُ تقتضي المُجانسة، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ، والمحبَّةُ بين المُتَجانِسَين تقتضي الحظوة والمؤانسةَ، والحقُّ سُبحانَهُ عن ذلك مُقَدَّسٌ[7].

---

(1) السَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/329، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272، 271.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 1/414.

دلالةُ عطفِ المحبَّةِ على ادّعاءِ البُنُوَّةِ:

المبالغةُ في بيان شدَّة القُرب المقرونِ بالرِّضا

عطف تعالى ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ على ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّهُم أَبنَاءٌ مَحبُوبُونَ؛ إِذْ قد يَكُونُ الابنُ مَغضُوبًا عَلَيهِ[1].

السِرُّ في مجيء جوابِ الشَّرط عَلَى طَرِيقَةِ الإلزام والاِحْتِبَاكِ[2]:

تبكيتُهم وتقريعُهم وإلزامُهم بما اعترفوا به من وقوع العذابِ عليهم

فقوله: ﴿قُلۡ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا[3]، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾؛ أي: فإنْ صحَّ ما زعمتم من مَحَبَّتِهِ لكم فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بذنوبكم، فالفاءُ جوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ[4]، يُرِيدُ إِنْ كَانَ الأَمرُ كَمَا زَعمتُمْ أَنَّكُم أَبنَاؤُهُ وأَحِبَّاؤُهُ؛ فإِنَّ الأَبَ لَا يُعَذِّبُ وَلَدَهُ، والحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ، وأَنتُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُ مُعَذِّبُكُمْ؟؛ يعني يُحرِقُكُم؛ لأَنَّ اليهود كانوا مُقرِّينَ بأنَّه يُحَرِّقُهُمْ أربعين يومًا، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]؛ أو من كان في هذا المنصب والقُربِ لا يُذنِبُ، وإن أَذنَبَ لا يُعَذَّبُ بِذُنوبِه، وقد عذّبكُم فمَسَخكم قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ؛ فيكون مَعنَى ﴿يُعَذِّبُكُم﴾: عَذَّبَكُمْ، فهُوَ بِمَعنَى المُضِيِّ؛ لِأَنَّ اللّه سُبحَانَهُ لَا يَحتَجُّ عَلَيهِم بِشَيءٍ لَم يَكُنْ بَعدُ؛ لِأَنَّهُم رُبَّمَا يَقُولُونَ: لَا نُعَذَّبُ غَدًا، بَل يَحتَجُّ عَلَيهِم بِمَا عَرَفُوهُ[5]، وفي الكلامِ إلزامٌ بالحجّة عليهم وتبكيتٌ لهم[6].

والحاصل أنَّه إذا قيل: لو كنتم أبناءَه وأحباءَه، فلِمَ عذَّبكم؟، لكن اللَّازم مُنتَفٍ، فَرُبَّما مَنَعُوا انتفاءَ اللَّازم، وطالبوا بالحجَّة،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.

(2) الإحْتِباك: هُوَ أَنْ يُحْذَفَ مِنَ الْأَوائِلِ ما جاءَ نَظِيْرهُ أَوْ مُقابِلُهُ فِي الْأَواخِرِ، ويُحْذَفَ مِنَ الْأَواخِرِ ما جاءَ نَظِيْرهُ أَوْ مُقابِلُهُ فِي الْأَوائِلِ، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ [الإنسان: 13]، فقد قيل في الزَّمهرير قولان، فقيل: هو القَمر في مقابلة الشَّمس، وقيل: هو البَرْد، فأفاد بالشَّمس أنَّه لا قمر فيها، وبالزَّمهرير أنَّه لا حرَّ فيها، فَحُذِفَ مِن كلِّ شقٍّ مُقابِلَ الآخَر، يُنْظَر: السُّيوطي، التَّحبير في علم التَّفسير، ص: 45.

(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 4/230.

(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/121، والبَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/34، والسَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.

(6) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/430.

وإذا قيل: لِمَ عذّبكم في الدُّنيا بالمسخِ وفي الآخرة بما تزعمون، تمَّ الإلزامُ على النَّهج المعتاد المشهور[1].

والتَّعذيبُ بالذَّنب ثمرةُ الغضبِ المُنافي للمحبَّةِ، فلو كانت المحبَّةُ قائمةً لم يكن هُناك ذنوبٌ يَستَوجبونَ عليها العذابَ من المَسْخِ قردةً وخنازيرَ، وتَسَلُّطِ أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويَسبُونَ ذراريهم، فالمُحِبُّ لا يَفْعَلُ هذا بحَبيبه، ولا الأبُ بابنه، فمعلوم أنَّ الأبَ قد يُؤَدِّبُ ولدَه إذا أذنب، والحبيبُ قد يهجرُ حبيبَه إذا رأى منه بعضَ ما يكره، ومعلومٌ أيضًا أنَّ الرَّحمن الرَّحيم لا يفعلُ هذا بأمّةٍ إلّا بعد فرطِ إجرامِها وعُتُوِّها على اللّه، واستكبارها عن طاعتِه وعبادته؛ وذلك ينافي كونهم أحبابَه، فلو أحبّوه لما ارتكبُوا من غضبه وسَخَطِه ما أوجب لهم ذلك، ولو أَحَبَّهُمْ لأَدَّبَهُمْ ولم يعذّبهم، فالتَّأديب شيءٌ، والتَّعذيب شيءٌ، والتَّأديبُ يُرادُ به التَّهذيبُ والرَّحمةُ والإصلاحُ، والتَّعذيبُ للعقوبةِ والجزاءِ على القبائح فهذا لَونٌ، وهذا لَونٌ[2].

وبالجُملَةِ فإنَّهُم رَأَوا لِأَنْفُسِهِم فَضلًا، فرَدَّ اللّه عَلَيهِم قولَهُم بأن فقَالَ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾؛ فلم تكن أجابتهم تحتمل إلا أحد وجهين، إمَّا أن يَقُولُوا: هُوَ يُعَذِّبُنَا، وقد عذَّبهم في الدُّنيا بالقتل والأسرِ والمسخِ فيقال لَهُمْ: فَلَستُمْ إِذًا أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ؛ لأَنَّ الحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ؛ وأَنتُمْ تُقِرُّونَ بِعَذَابِهِ لكمْ، فقد اعترفتم بأنَّه سَيُعذِبُكُمْ بالنَّار أيامًا معدوداتٍ؛ فذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِكُم[3]، فامتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ اللّه[4]، وأفاد الاستفهام الإنكاريُّ هنا معنى التَّوبيخ والتَّعجب.

نكتةُ التّعبير بقوله ﴿وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾:

لمّا نسب اللّه تعالى هذا القول إلى اليهود والنّصارى كان في التّعبير به إلزامٌ عليهم وحجّةٌ رادّةٌ لقبيح قولِهم، فإنَّ ﴿وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ جمعُ حبيبٍ بمعنى محبٍّ، فعُبِّرَ به؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَعْصِي مَنْ يُحِبُّهُ، بِخِلَافِ الْمَحْبُوبِ فإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَعْصِي مُحِبَّهُ.

(1) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/227.
(2) ابْنُ القَيِّم، بدائع الفوائد: 4/150.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.
(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/213.

دلالةُ العَطْفِ بِحَرفِ الإضرابِ الانتقالي:

إبـطـالُ دعـوى البُـنُـوَّةِ وإثبـاتُ بشريَّةِ المسيحِ عليه السلام

فقد أَضرَبَ عَنِ الاستِدلَالِ في قوله: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ مِنْ غيرِ إبطَالٍ لَهُ، إِلَى استِدلَالٍ آخَرَ مِنْ ثُبُوتِ كَونِهِمْ بَشَرًا من بَعضِ مَنْ خَلَقَ، فهُم مُسَاوُونَ لِغَيرِهِمْ في البَشَرِيَّةِ والحُدُوث، وهُمَا يَمنَعَانِ البُنُوَّةَ؛ لأنَّ القَدِيمَ لَا يَلِدُ بَشَرًا، والأَبَ لَا يَخلُقُ ابنَهُ، فامْتَنَعَت دعوى البُنُوَّة، كما امتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ قبل ذلك أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ اللّه، فبَطَلَ الوَصفَانِ اللَّذَانِ ادَّعَوهُمَا[1].

وقوله سُبْحانه: مِمَّنْ خَلَقَ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةَ ﴿بَشَرٞ﴾؛ أي: بَشَرٌ كائن من جنس من خَلَقَهُ اللّه تعالى من غير مزيَّةٍ لكم عليهم[2].

فأُخِذَتِ النَّتِيجَةُ مِنَ البُرهَانِ بِقَوْلِه: ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾؛ أي: يَنَالُكُم مَا يَنَالُ سَائِرَ البَشَرِ، وفي هَذَا تَعرِيضٌ أَيضًا بِأَنَّ المَسِيحَ بَشَرٌ؛ لِأَنَّهُ نَالَهُ مَا يَنَالُ البَشَرَ مِنَ الأَعرَاضِ والخَوفِ، وَقد زَعَمُوا أَنَّهُ نَالَهُ الصَّلبُ والقَتْلُ[3]، وأفاد تنكير ﴿بَشَرٞ﴾ معنى التّحقير والتَّقليلِ من شأنِهم.

سِرُّ الاحتراس(4) بَعْدَ ذِكْرِ وصفِ البَشريَّةِ:

دفـعُ تَـوَهُّـمِ الـنَّـصـارى في اسـتـحـقـاقِ العذابِ بمُوجبِ البشريَّةِ

فقوله﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾: فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا رتَّبَ على نيل العذاب إيَّاهم أنَّهم بشرٌ، دفَع توهُّمَ النَّصارى أنَّ البشريَّة مقتضيةٌ استحقاقَ العذابِ بوراثةِ تبعةِ خَطيئةِ آدَم، فقال: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: مِن البَشَرِ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ[5].

---

(1) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/213.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/273، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/95.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

(4) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهامًا قد يُفهم من كلامه.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

معنى لامِ الجرِّ في قوله ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إفادةُ الملك والاختصاصِ بدلالةِ الحرفِ والسِّياقِ.

اللَّام في الاسم الأحسن ﴿وَلِلَّهِ﴾ لِلمُلْكِ والاختصاص، فهُوَ المُنشِئُ الخَالِقُ، المُلْكِ تَدُلُّ عَلَى القُدرَةِ البَاهِرَةِ[1]، فالخلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةُ ربوبيَّته ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماواتِ وما في الأرض[2].

وقد أكدَّ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ الَّذي يُفيد الحصرَ، فهِيَ للّه خَلْقًا ومُلْكًا[3]، لا لغيره أصلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وأكَّدَهُ وعمَّمه بالطِّباق بَينَ لَفظَتَيَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

عمومُ ملكِ اللّه لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ القدرةَ على تملُّكِه، وفيها إشارةٌ غيبيَّةٌ.

وخَصَّ السَّماواتِ والأَرضِ بالذِّكر من بَينِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعظَمُ مَا يُرَى مِنَ المَخْلُوقَاتِ وقَدَّمَ السَّماوات لِعِظَمِهَا[4].

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور في جملةِ التَّذييل:

بيانُ الاختصاصِ بِتَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ اللّه المَحْضِ.

فقوله ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: تذييلٌ لِمَا قَبلَهُ، من ذِكرٍ للمغفرة والعذاب؛ لأَنَّ الرُّجوعَ يكونُ للحساب والجزاءِ[5]، وقَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ عَلَى ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لإفَادَةِ اختصاص الرّجوع إليه سبحانه لا إلى غَيرِهِ استقلالًا أو اشتراكًا؛ بِمعنى تَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ اللّه المَحْضِ[6].

---

(1) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 1/360.

(3) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/165، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 5/494.

(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.

(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/276، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 2/241.

(6) ابن عاشور، التّحرِيرُ والتّنوير: 25/64.

سِرُّ الكنايةِ عن الرُّجوع بالمصير:

بيانُ أنّ المرجعَ لا يكونُ إلّا إلى اللهِ وحده وهو المجازي لعبادِه بما يستحقّون

عبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: كنايةٌ عن الرُّجوع إلى اللهِ بالحشرِ والمعادِ في الآخرة، فيُجازي المُحسِنَ بإحسانِه والمُسيءَ بإساءَتِه بما يَستَدعيه عِلمُهُ من غير صارفٍ يُثْنيه ولا عاطفٍ يَلويهِ[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظةِ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

بيانُ شمولِ المآل للخَلقِ أجمعين

التَّعرِيفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ لِلعهدِ العلميِّ، أي المصير المعلوم بالحشرِ والحسابِ والمجازاة؛ وعبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبدِ في كلِّ أمرٍ وكلِّ نازلةٍ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُبّ والوُدّ:

الـــوُدُّ خـالـص الحُبِّ؛ والحُبُّ مـا اسـتـقـرَّ في القلبِ، والوُدُّ ما ظهر في السُّلوك

الحبُّ: ميلُ النَّفس إلى ما تراه وتظنُّه خيرًا[3]، على سبيل اللُّزوم والثَّبات[4]، فمُجرَّدُ تَعَلُّقِ القلب يُسَمَّى حُبًّا[5]، وأمَّا الوُدُّ فهو خالص الحُبِّ وألطفُه وأَرَقُّهُ وهو من الحُبِّ بمنزلة الرَّأفة من الرَّحمة؛ فالوُدُّ أَصفَى الحُبِّ وأَلطَفُهُ[6]، قال تعالى﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الرُّوم: 21]، وفي الوُدِّ معنى الصِّلَةِ وبَذلِ ما يَزيدُ في الحبُّ، فمَشاعِرُ الميل نحو المحبوب حُبٌّ، والابتسامة في وَجهِهِ وبذل النُّصح والهديَّة وُدٌّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [المُمْتَحِنَة: 1]؛ أي: بأسباب المحبَّة من النَّصيحة[7]، ومن أسماء اللّه تعالى (الوَدُودُ)، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: 14]؛ أي: المحبُّ لعباده يَصِلُهم ويُمِدّهم برَحْمَتِهِ[8].

(1) الآلوسيّ، روحُ المعاني: 3/274، والقونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/431.
(2) العليمي، فتح الرَّحمن: 1/411.
(3) الرَّاغب، الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة، ص: 256.
(4) الأزهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، وابنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (حبب).
(5) الهروي، منازل السَّائرين، ص: 88.
(6) ابن القيم، روضة المحبين، ص: 46.
(7) الرَّاغِب، المُفردات: (ودد).
(8) الرَّاغِب، المُفْردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ودد).

فكُلُّ وَدُودٍ مُحِبٌّ وليس كلُّ مُحِبٍّ وَدودًا.

العذاب والعقاب والألم:

العِقَابُ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمِّيَ بذلِكَ لِأَنَّ الفاعِلَ يَستَحِقُّهُ عُقَيبَ فِعلِه، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، فالعِقابُ يَقتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعلِهِ، والعَذابُ لَيسَ كَذلِكَ، فبَينَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[1].

العِقابُ يُنبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ ويكون عُقَيبَ الفِعلِ والعذابُ أَعَمُّ

والعذاب أخَصُّ من الألم؛ وذلك أنَّ العذاب هو الألمُ المُستَمِرُّ الثَّقيل[2]، والألمُ الوجعُ، والأليمُ: المؤلمُ من العَذَابِ الَّذي يبلغُ إيجاعُه غَايَة البلُوغ، ويَكُونُ الألم مُستمِرًّا وغَيرَ مُستَمِرٍّ فقَرْصَةُ البعوضِ ألمٌ وليس بعذاب، فإن استَمَرَّ ذلك يُقال عذَّبَني البعوضُ اللَّيلةَ، فكلُّ عذابٍ ألمٌ وليس كلُّ ألمٍ عذابًا، وأَصلُ الكلمة الاستمرار، ومنه يُقال: ماء عَذْبٌ لاستمرائِهِ في الحَلقِ، واشتقاقه من عَذُبَ الشَّيءُ إذا استَمَرَّ وجَرى[3].

العذاب ألَمٌ مُستَمِرٌّ ثَقيلٌ

المصير والمآب والمرجِع:

المصيرُ هو المآلُ، والمآبُ هو الرُّجوع إلى المستقَرِّ، والرُّجوع تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه.

هي ألفاظ متقاربة في المعنى، فالمصيرُ: يدلُّ على التَّحوّلِ إلى غايةٍ أو مَجْمَع؛ ليكون المآل والمُنتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم ثمانيةً وعشرين مرّةً، وورد مرّة واحدة بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: 53].

---

(1) العَسْكرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 364.

(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 654.

(3) المَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 239، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 174، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 239.

والمآب: رجوعُ الشَّيءِ إلى مُستَقَرِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النَّبأ: 21، 22].

والمرجعُ: مصدر ميمي، أو اسم زمان، الرُّجوع هو العود إلى ما كان منه البدء، والرَّجْع: الإعادة تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردد الماء في الغدير؛ لأنَّه محتبس فيه لا يسترسل بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن من: (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى الله ﷻ[1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير)، (أوب)، (رجع).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَعْظُ اليهودِ والنَّصارى بَعْدَ إبطالِ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْناءُ اللهِ وأَحِباؤُهُ

لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّةُ اليهود والنَّصارى، ووَضُحَتْ أكذوبتهم، اقتضى ذَلِكَ الالتفاتَ إلى وَعظِهِمْ على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنُّونَه حُجَّةً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1]، مكرِّرًا مَوعِظَتَهُمْ ودعوتَهم بعد أن بَيّن لهم فسادَ عقائدهم وغُرورَ أنفسهم، بيانًا لا يَدَعُ لِلمُنصِفِ فرصةً للتمسُّك بتلك الضَّلالاتِ، كَمَا وَعَظَهُمْ ودعَاهُم آنفاً بِمِثلِ هذا عَقِبَ بَيانِ نَقضِهِم المَواثيقَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتۡرَةٖ﴾: أي سكون، ويدور معنى الفَتْرَة على الانكسارِ والضَّعف، يقالُ فَتَرَ يَفْتُرُ ويَفْتِرُ فُتُوراً وفُتاراً: سَكَنَ بعدَ حِدَّةٍ، ولانَ بعدَ شِدَّةٍ، وضعف بعد قوة، وأصل الفُتور: الضعفُ والسّكونُ، يقال: فَتَرَ الماءُ؛ أي: سَكَنَ حَرُّهُ فهو فاتِرٌ، وفَتر عَزْمُ فلان: إذا ضَعُفَ، ومعنى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على حِينِ انقطاعِ من الإرسالِ والوَحْي[3].

2) ﴿بَشِيرٖ﴾: البشيرُ هو المُبشِّر بخيرٍ أو شرٍّ، والبِشَارَةُ: مَا بُشِّرت بِه، وإذا أطلقت فالبشارة بالخير والنذارة بغيره، يقال بَشَّرْتُه فأَبْشَرَ وبَشَرَ وتَبَشَّرَ، والبَشيرُ: حسن الوجه الجميلُ، والبِشْرُ في الوَجهِ: الطَّلاَقةُ والفَرَحُ. وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ،

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.
(3) الخليل، العَينْ، الجَوْهَرِيّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (فتر)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 360، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 149.

ومعنى البشير هنا: المُبَشِّرُ من أطاع اللّه وآمنَ به وبرسوله،، بعظيم ثوابه في آخرته[1].

3) ﴿نَذِيرٍ﴾: بِمَعْنَى مُنْذِرًا؛ أَي: مُحذِّرًا، والإنذار، الإبلاغُ والإعذارُ والإِعْلَامُ، يُقَالُ: أَنْذَرْتُه أُنْذِرُهُ إِنْذَاراً، إِذَا أعلمتُه، وفلان مُنْذِرٌ ونَذِيرٌ؛ أَي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر، وأصلُ النِّذارةِ: التخويفُ، ومعنى النَّذيرُ هنا: المُنذرُ من عصى اللّه وكذّب رسولَه ﷺ، بما لا قِبَلَ له به من أليمِ العقابِ وشديدِ العذاب[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بشارةُ أهلِ الكتابِ ونَذَارَتُهم ببعثة النَّبيِّ ﷺ

يا أَهْلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى، قد جاءكم رسولُنا مُحمَّد ﷺ يُظهِرُ لكم الحقَّ والهُدى بعد مُدَّة انقطاع من الرُّسُلِ؛ لئلَّا تقولوا مُعتَذِرينَ: ما جاءنا رسول يُبَشِّرُنا بثواب اللّه، ويُنْذِرُنا عقابَه، فقد جاءكم محمَّد ﷺ مُبَشِّرًا بثوابه ومُنْذِرًا عقابه، واللّه هو القادرُ على كلِّ أَمْرٍ؛ ومنه: إنزالُ الرِّسالات[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تِكْرارِ الخِطابِ بِطَرِيقِ الِالْتِفاتِ:

التَّلطُّف في دعوتهم وتنشيطهم لإجابة الدَّعوة

في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: تَكريرٌ للخِطابِ بطريق الالتِفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ، وفيه لُطْفٌ في الدَّعوة، وتنزيل للخطابِ مَنزِلَةَ التأكيدِ لجُملَة ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ [المَائِدَة: 15][4]، وأيضًا في تكريرِ

---

(1) الخليل، العَيْن، والأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، والجَوْهَرِيّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفردات: (بشر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 69، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (ذرن)، والرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ الأثير، النِّهايَة: (نذر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 232، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 463، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.

(4) الآلوسِّي، روحُ المعاني: 3/274، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.

الخطاب بلا عاطف بعد قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15] تنشيطٌ لهم بلذّةِ المخاطبةِ، وكأنَّ الخطابَين في وقتٍ واحدٍ وفي أمرٍ واحدٍ يجمعهما، وفيه اهتمامٌ بأمر مجيءِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلام[1].

سِرُّ ندائهم بِقولِه ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بَيانُ شَرَفِ الانتسابِ إلى الكتابِ وقُبْحِ مُخالفته وتَرْكِ ما فيه

في نِدائِهِمْ بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْرِيفٌ لهم بإضافتهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قبولِ ما جاء به رسولُ اللّه مُحَمَّدٌ ﷺ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُم أَهْلُ الكتاب، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتاب الّذي عِندَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الّذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِه[2]، كما أنَّ في إيرادهم بعنوان أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، إذْ يَقبحُ بمن كان أهلًا للكتاب وتشرَّف بالانتساب إليه أن يخالِفه، فإنَّ أهليَّة الكتاب من مُوجِباتِ مُراعاتِهِ والعملِ بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام[3]، فتكون إضافَتُهُمْ إلى الكتاب على وجه التَّعيير أيضًا، والمعنى: أنتم أهلُ الكتابِ، فَلِمَ لا تعملون بكتابكم؟ كقول القائل: يا عاقلُ لِمَ لا تَفْعَلُ كذا وكذا، فذِكْرُ العقل على معنى التَّعييرِ؛ أي: إنَّكَ لا تَعمَلُ عَمَلَ العُقَلاءِ[4].

فائدةُ إضافة لَفْظِ الرَّسولِ إلى نون العَظَمَةِ:

تَعْظيمُ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شمول رِسالَتِهِ

فالتَّعبيرُ عَنْهُ بذلك مع الإضافة إلى ضمير العَظَمَةِ للتَّشريفِ والإيذان بوُجوب اتِّباعه ﷺ[5]، فـ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾؛ أي: الّذي عَظَمَتُهُ من عَظَمَتِنَا، فتعظيمُهُ وإجلالُه واجبٌ لِذَلِكَ[6]. وفيه رَدٌّ

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(3) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(4) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.

أكثرُ صراحةً من الخِطابِ السَّابِقِ على أَهْلِ الكِتَاب في قَولِهم إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلى العرب خاصَّة[1].

المتشابه اللَّفظي:

جاء قوله تعالى في الآية 15 من هذه السّورة ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، وكُرِّرَ صدر الآية ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ في هذه الآية، فالنَّظمُ الكريمُ ذَكَرَ الرَّسُولَ ﷺ هُنَا بِوَصفِ مَجِيئِه على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِيُذَكِّرَهُمْ بِأَنَّ كُتُبَهُمْ مُصَرِّحَةٌ بِمَجِيءِ رَسُولٍ عَقِبَ رُسُلِهِم، ولِيُرِيَهُمْ أَنَّ مَجِيئَهُ لَم يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ؛ إِذْ كَانُوا يَجِيئُونَ عَلَى فِتَرٍ بَينَهُم، وذُكِرَ الرَّسُولُ هُنَالِكَ بِوَصفِ تَبيِينِهِ مَا يُخفُونَهُ مِنَ الكِتَابِ؛ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَا قَد دَلَّ عَلَى مُسَاوَاةِ الرُّسُلِ في البَشَرِيَّةِ، ومُسَاوَاةِ الأُمَمِ فِي الحَاجَةِ إِلَى الرِّسَالَةِ، ومَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَالِكَ إِنَّمَا كَانَ إِنبَاءً بِأَسرَارِ كُتُبِهِم، ومَا يُخْفُونَ عِلْمَهُ عَنِ النَّاسِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَسَاوِيهِم وسُوءِ سُمعَتِهِم،[2].

سِرُّ استعارةِ المجيءِ لِلأَمرِ بالتَّبْليغ:

بيانُ منزلةِ الدِّين والأمرِ بتَبْليغِهِ

المَجِيءُ هُنا مُستَعَارٌ لِأَمرِ الرَّسُولِ بِتَبلِيغِ الدِّين، فكَمَا سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا سُمِّيَ تَبلِيغُهُ مَجِيئًا تَشْبِيهًا بِمَجِيءِ المُرسَلِ مِنْ أَحَدٍ إِلَى آخَرَ[3].

دلالة جملة الحال في قوله تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾:

لَمّا كان الحال يأتي مقترنًا بصاحبه دلَّ الكلام على أنَّ البيان المذكور كان مقترنًا بمجيء رسول اللّه ﷺ لم ينفكَّ عنه، ليكونَ وصفًا لبيانِ هيئة الرَّسول في حالِ مجيئه مقترنًا به ﷺ والتّقدير: جاءكم رسولنا مبيّنًا لكم عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ[4].

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/426.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.

(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 3/70.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ للدلالةِ على استمرار التبيين للرّسول ﷺ وتجدّده حالًا فحالًا من غيرِ انقطاعٍ.

نكتة حَذْفِ المفْعُولِ في قوله تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾:

بيانُ شُمولِ البيان وتَجَدُّدِهِ

يحتمل الفعل المتعدّي ﴿يُبَيِّنُ﴾ أن يكون مفعولُه مقدّرًا أو غيرَ مقدَّر أو أن يكون منزَّلًا منزلة اللّازم، فهذه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل أن يكون المفعول مقدَّرًا، وفيه احتمالان: الأول أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ المَبَيَّنُ هُوَ الدِّينُ والشَّرَائِعُ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا أُرسِلَ لِبَيَانِ الشَّرَائِعِ، ثانيهما: أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ يُبَيِّنُ لَكُم مَا كُنْتُم تُخْفُونَ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ، والسياق يقوّي الاحتمالَ الأوّل؛ فإنَّ فتورَ الإرسال وانقطاع الوحي إنَّما يحوجُ إلى بيان الشَّرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه.

الوجه الثّاني: أَنْ يكون على حذف المفعولِ، والمَعنَى: يُبَيِّنُ لَكُمُ البَيَانَ، وحَذْفُ المَفعُولِ أَكمَلُ؛ لِأَنَّه على هَذَا التَّقْدِيرِ يَصِيرُ أَعَمَّ فَائِدَةً، لتناولِه كلَّ ما يبيّنه الرَّسول للنّاس[1].

الوجه الثَّالث: أن ينزَّل الفعل منزلةَ اللازم، والمعنى وصفُه وشأنُه هو البيان، يبذلُه لكم في كلِّ ما تحتاجون فيه من أمور الدِّين، ويقوّي هذا الوجهَ إيثارُ التّعبير بالمُضَارِعِ المشعر بأنَّ التَّبيين يَتَجَدَّدُ بحسب المصالح والوقائع والحال[2]، فالبيانُ لا ينقطع أصلًا بحفظ كتابه، فكُلَّمَا دَرَسَتْ سُنَّةٌ، فَتحَ اللّه تعالى بعالِمٍ يَرُدُّ النَّاس إليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدًا[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، وأبو السعود: إرشاد العَقْل السّليم: 3/21.

(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.

(3) الشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

دلالةُ تقديم ذِكْرِ البيان على ما بَعْدَهُ:

بيان عِظَمِ شأن الدَّعوة وعِظَمِ مَنْزِلَتِها

يحتمل أن يكون في الآية تَقديمٌ وتأخير، وتقدير الكَلام (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ يُبَيِّنُ لَكُمْ)[1]، فقدَّم ذِكرَ البيان للدَّلالة على أهمِّيته فذكر الوصف الأهمَّ والأسمى والمَقْصَدَ الأعظمَ لمجيءِ هذا الرَّسول الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأَتَمُّ التَّسليم، ويحتمل أن يكون الكلامُ على الأصل من غير تقديم ولا تأخير، ليكون قوله﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ حالًا من فاعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو من الضّمير في ﴿لَكُمۡ﴾، وقدَّم ما هو الأولى بالتّقديم كما تقدّم[2].

دلالةُ استعمالِ حرفِ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في الآيةِ:

بيانُ فوقيَّةِ الرِّسالَةِ وعُلُوِّها ورِفْعَةِ شَأْنِها

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لِلاستِعلَاءِ المَجَازِيِّ بمَعنَى (بَعْدَ)؛ لِأَنَّ المُسْتَعلِيَ يَستَقِرُّ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ مَا يَسْتَعلِي هُوَ فَوقَهُ، فشُبِّهَ اسْتِقرَارُهُ بَعدَهُ بِاسْتِعلَائِهِ عَلَيهِ، فاسْتُعِيرَ لَهُ الحَرفُ الدَّالُّ على الِاستِعلَاءِ[3]، على سبيل الاستعارة التبعيّة في الحرف.

فالتَّعبير بِقَوْلِه ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾ فيه مَعْنى فوقيَّةِ الرِّسالة على الفَتْرَة، وعُلُوِّها عليها كَعُلوِ البيانِ على الجهل، والنُّور على الظُّلْمَة، فمن الواجب عليهم أَنْ يُسارعوا إلى اتِّباع الرَّسول الّذي جاءهم بالحقِّ، وإلَّا كانوا ممَّن يَرْتَضي لنفسه الانحدارَ من الأعلى إلى الأدنى، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهُدى إلى الضَّلالِ[4].

وعليه كان هذا البيانُ مُستَعليًا على وقْتِ مجيئه وما مضى قَبْلَهُ وما يأتي بعده ببقاء كتابه، محفوظًا لعموم دعوتِه وختامِه وتفرُّدِه، فلا نبيَّ بَعْدَهُ[5]، فبهذا حازَ المعالي من كُلِّ وَجهٍ، ونالَ الكمالَ من كُلِّ جِهَةٍ.

(1) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(2) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380، والعكبري، التبيان: 1/429.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(4) طَنْطاوي، الوَسيط: 4/100.
(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/70.

دلالة التنكير في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾:

لفظ ﴿فَتۡرَةٖ﴾ متعلّقٌ - بجاءَكم - أي: (جاءكُم على حِينِ فتورٍ من الإرسال وانقطاعِ الوحي ومزيد الاحتياج إلى البيان)[1]؛ فلم يكن بعد عيسى عليه السلام إلّا رسولُ اللّه محمّدٌ - عليه السلام -؛ وفي الظّرفيَّة مع تنوين ﴿فَتۡرَةٖ﴾ من التَّفخيم اللّائق بمقام الامتنانِ عليهم بأنَّ الرَّسول قد بُعث إليهم عند كمالِ حاجتهم إليه؛ بسبب مُضيِّ زمانٍ طويلٍ بعد انقطاعِ الوحي ليَهُشُّوا إليه ويعُدُّوه أعظمَ نعمةٍ من اللّه تعالى، وفتحَ بابٍ إلى الرَّحمة، وتلزَمُهم الحجّةُ فلا يَعتلُّوا غداً بأنَّه لم يُرسَلْ إليهم من يُنبِّههم من غفلَتِهم[2].

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن الانقطاعِ بالفترة:

بيان الامتنان عليهم ببعثة النّبي ﷺ لِشِدَّةِ حاجتهم إلى هُداه

الفَتۡرَةُ أصلُها سُكون عن حدَّةٍ وليونةٌ بعدَ شدَّةٍ،[3]، فاستعارةُ لفظِ الفترةِ هُنا يُصَوِّرُ زمنَ انقطاع إرسالِ الأنبياء إلى الأمم، فشَبَّهَ فقدَهم - بعدَ أن كانوا يأتون متعاقبين على أقوامِهم - وبُعْدَ العهدِ بهم ونسيانَ أخبارهم، وبلاءَ رسومهم وآثارهم، وانطماسَ معالمهم وأنوارهم، بشيءٍ كان يَغْلِي ويتتابع، ففَتَرَ وسَكَنَ، ولم يبقَ من وصفه المقصود منه إلّا أثرٌ خافٍ ورسْمٌ دارسٌ[4].

والمقصودُ أنَّ اللّه تعالى بَعَثَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ على فَترَةٍ من الرُّسُلِ، وطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وتَغَيُّرِ الأديان، وكَثرَةِ عبادة الأوثان والنِّيران والصُّلبان، فكانت النِّعمةُ به أتمَّ النِّعَم، وأنّ الحاجةَ إليه أمر عَمَمٌ، فإنَّ الفساد كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطُّغيان والجهل قد ظهرا في سائر العباد، إلّا قليلًا من المُتَمَسِّكينَ ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النَّصارى والصَّابئين[5].

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.

(3) الزمخشري، أساس البلاغة: 2/4.

(4) الشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.

(5) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: 3/70، 71.

دلالة التَّعليلِ في قوله ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾:

قَطْعُ معاذير أهل الكتاب في الدُّنيا والآخرة

﴿أَن تَقُولُواْ﴾: تَعليلٌ لِقَوْلِه: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ﴾؛ لِبَيَانِ بَعضِ الحِكَمِ مِنْ بَعثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، منها قَطعُ مَعذِرَةِ أَهلِ الكِتَابِ عِندَ مُؤَاخَذَتِهم في الآخِرَةِ، أو تَقْرِيعُهُمْ في الدُّنيَا عَلَى مَا غَيَّرُوا مِنْ شَرَائِعِهِم؛ لِئَلَّا يَكُونَ مِنْ مَعَاذِيرِهِم أَنَّهُمْ اعتَادُوا تَعاقُبَ الرُّسُل وإرشادَهم وتَجدِيدَ الدِّيَانَة، فَلَعَلَّهُمْ يعتذرون بِأَنَّهُمْ لَمَّا مَضَت عَلَيهِمْ فَترَةٌ بِدُونِ إرسَالِ رَسُولٍ لَم يَتَّجِه عَلَيهِم مَلَامٌ فِيمَا أَهمَلُوا مِنْ شَرعِهِم، وأَنَّهُمْ لَو جَاءَهُمْ رَسُولٌ لَاهتَدَوا، وقد كان اختلط في تلك الفترة الحقُّ بالباطل[1].

فلَيسَ المُرَادُ من التَّعليل أَنْ يَقُولُوا: مَا جَاءَنَا رَسُولٌ إِلَينَا أَصلًا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ، وكَيفَ وقَد جَاءَهُم مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام، وبيانه أنّه لّما كان المعنى في الآية هو انتفاء أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لا إثباته، كما هو ظاهرٌ، اقتضى السِّياق أن يكون الكلامُ بتقدير (كراهة أن يقولوا ماجاءنا من بشير و لا نذير) أو بتقدير (أن لا يقولوا) أو أن تكون ﴿أَن﴾ بمعنى (لئَلَّا) والتّقدير (لئلا تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ و لا نذير)، ويحتمل أن يكون المعنى لإثباتِ قولِهم في ما مضى لا لانتفائه، بتَقدِيرِ لَامِ التَّعلِيلِ قَبلَ ﴿أَن﴾ وتجريدها من الزّمن المستقبل، بمعنى (لأن تقولوا) أي لقولِكم، وهُوَ تَقْدِيرٌ يَقْتَضِيهِ المَعنَى[2].

نُكْتَةُ مجيء حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ﴾:

تأكيدُ النَّفي والمبالغة فيه لتأصُّل الإنكار في نفوسهم

﴿مِنۢ﴾ حرف جرٍّ زائد دخلَ على الاسم النّكرة في سياق النّفي؛ ليفيدَ النّصَّ على العموم المبالغةَ في تأكيدِ النّفي وتقريره، والمعنى ما جاءنا أيُّ بشيرٍ يُبشرنا ولا نذيرٍ ينذرنا؛ لنرغبَ فنعملَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/571، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/96، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158، 159.

(2) البَغَويّ، معالم التنزيل: 2/33، والزمخشري، الكشاف: 1/619، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/159.

بما يسعدنا، ونتركَ المنهيَّات فنفوزَ[1]، وأفاد التَنكيرُ في لفظي ﴿بَشِيرٍ﴾، و﴿نَذِيرٍ﴾ التَّقليلَ[2].

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في قوله ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾:

الإبانةُ عن وجه بُطلان دعواهم على فَرْضِ قولهم لها واحتجاجهم بِهَا

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هي الفصيحة تُفْصِحُ عن محذوفٍ ويكونُ ما بعدها عِلَّةً له، فإمّا أن يكونَ التَّقدير: لا تعتذروا عَن كفركم وتفريطكم في أحكام الدِّين ومتابعة الكتَاب المبين ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾، والمعنى لا تقدروا على الاعتذار ولا يُمكِنُكُمْ ذلك[3]، وإما أن يكون التَّقدير: لإِنْ قُلْتُم ذلك فقَدْ بطل قولكم؛ إذ قد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ[4].

دلالةُ ذِكْرِ الوَصفِ بالبِشارَةِ والنِّذارَةِ بدلَ الذَّات:

بيانُ شأنِ البِشارَةِ والنَّذارة واختصاصِهِمَا في مَوضِعِ الوعدِ والوعيدِ

ذكر الوصفين (البشير والنذير) في ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ وفي ما قَبْلَهُ قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 15]؛ إذ المُرَادُ هنا الوصفُ بالبشارةِ والنّذارةِ لا ذاتُه[5]، ولعظم شأن البشارة والنِّذارة عبَّر عنهما بصيغة (فعيل) التي تأتي للمبالغةِ، وجيء بالتَّنوين أيضًا في ﴿بَشِيرٌ﴾ و﴿وَنَذِيرٌ﴾ للتَّفخيمِ؛ أي: فقد جاءَكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ[6].

سِرُّ تقديمِ البِشارَةِ على النِّذارة:

بيانُ أنَّ الأصلِ في دعوة الرَّسول تنشيطُ المَدْعوِّين للانقياد والقبول

وقدَّم البِشارة على النِّذارة في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ لأنَّ القاعدةَ في محاولةِ الأمور الصَّعبةِ أن يبدأ فيها بالتلطّف والتيسير، ليكون أدعى للقبول،[7] وإشعارًا بأنَّ الأصلَ في رسالته

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/71.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/160.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(7) ابْنُ عَرَفَة، تَفْسِيرُ ابْنِ عَرَفَة: 1/165.

ﷺ التَّبشير؛ فقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين[1]؛ ولأنَّ في التَّبشيرِ تَنْشيطًا قدَّمَهُ على الإنذار[2].

وقَدْ تقدَّم التَّبشير على الإنذار في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

ففي الغالبِ الأعمِّ تكون البشارةُ مقدَّمةً على النِّذارة؛ لأنَّ التَّبشير هو الأصل؛ ولأنَّ النَّفس جُبِلَتْ على حُبِّ ما يُفرِح ويَسُرُّ، وكراهيَّة ما فيه تخويف وإنذار.

وتقدَّمت النِّذارة على البِشارَةِ في مواضع أيضًا كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]، وقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود: 2]؛ لأنَّ المقامَ خطابٌ للمكذِّبين المشركين، فالنِّذارة أَعلَقُ بأحوالهم الّتي كانوا عليها من البشارة[3]، وفي ذِكْرِ بعض أحوالهم من التَّكذيب والجحود والاستهزاء بالرَّسول تَعليلًا لتقديم الإنذار على التَّبشير؛ لأنَّ في ذلك تخويفًا لهم.

دلالةُ الختمِ والتَّذييل بذكر القدرة:

بيانُ القُدرةِ المطلقةِ حالَ الإرسال والإمساك

قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، ومُناسبتُه هُنا أنَّ حصولَ الفترة يُوجِبُ احتياج الخَلق إلى بعثة الرُّسل، والله تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فكان قادرًا على البعثة، ولمَّا كان الخلق مُحتاجين إلى بعثة الرسل، وكان الرَّحيم الكريم قادرًا على البعثة تفضَّل بكرمِهِ ورحمتِه بإرسالِ الرُّسُل إليهم[4]، فَيَقْدِرُ على إرسال الرسل تَتْرى كما فعل بين مُوسى وعيسى - عليهما السلام -؛ حيث كان بينهما ألفٌ وسبعُمائة سنة وألفُ نبيٍّ، وعلى إرسالهم بعد فترة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 22/53.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 9/209.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330.

كما فعل بينَ عيسَى ومحمَّدٍ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ -؛ حيثُ كان بينهما ستُمائة سنةٍ[1].

كما أنَّ في الختم بوصفِ القُدرة، وإتباعِهِ تَذْكيرهُمْ ما صاروا إليه من العِزِّ بالنبوّة والملك بعد ما كانوا فيه من الذلِّ بالعبودية والجهل، في الآية الّتي تليها، إشارةً إلى أنَّ إنكارَهم لَأَنْ يكون من ولدِ إسماعيل عليه السلام نبيٌّ، يَلْزَمُ منه إنكارُهُم لِلقُدرَة[2].

كما أنَّ ختمَ الآيةِ بالكلام عن القُدرة ممّا يُناسب المقامَ، ووَجهُهُ أنَّ مخالفة أهل الكتاب للرَّسول ﷺ تعني أنَّهم مُعَرَّضُونَ للعقوبة، واللّه غَيرُ عاجزٍ عن عقوبتهم لِكَمالِ قُدرَتِهِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإِتْيان:

المَجيءُ إتيانٌ مُحَقَّقٌ

الإِتْيَانُ: مجيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهُوَ بدايَةُ المَجيءِ[4]، فإذَا اكتَمَلَ وبُلِغَ مَقْصِدُهُ من مَكَانٍ أو زَمَانٍ أَوْ شَخصٍ أَصبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ هُوَ إتيَانٌ مُحقَّقٌ بَعيدٌ عَن عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِمَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيَانُ بِدَايَةُ المَجيءِ زَمَانيًّا أو مَكانيًّا، وقَد لَا يَتِمُّ فلَا يَكُونُ مَجيئًا، أَمَّا المَجيءُ فهُوَ إتيَانٌ مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمَانيًّا وَمَكَانيًّا[5].

أَمَّا في بَابِ الأَسماءِ والصِّفَاتِ فمَنْ تَكَلَّمَ عَن صِفَةِ المَجيءِ والإِتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهلِ السُّنَّةِ[6]، يَجعَلُهُمَا بِمَعنًى وَاحِدٍ، ويُسْتَدَلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفسِهَا دُونَ تَفريقٍ؛ فالفَرقُ السَّابِقُ غَيرُ وَارِدٍ هُنَا في بَابِ الصِّفَاتِ، فقَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(2) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/96.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/253.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، ص: 283.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/264.
(6) ابْنُ تَيْميَّة، مَجموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيّم، الصَّواعِقُ المُرْسَلَة: 3/1099.

التَّخويف عامٌّ، والإنذارُ تخويفٌ مع إعلام بما يُحْذَرُ ووعيدٍ به

التَّخويف والإنذار:

الإِنذَار: تخويفٌ مع إِعْلَام مَوضِع المخافةِ، من قَوْلك: نذرتُ بالشَّيْء، إِذا عَلمته فاستعددت لَهُ، ولا يكاد يكون إلّا في تخويفٍ يسعُ زمانه الاحتراز[1]؛ فإذا خوّفَ الإِنسَانُ غيرَه وأعلمَه حَال مَا يخوّفُه بِهِ فقد أنذرَه، وإِن لم يُعلمهُ ذَلِك لم يقل أنذره، وذِكرُ الوَعيدِ مع الإِنْذَار وَاجِبٌ[2]، والإنذارُ إِحسَانٌ من المُنْذِر، وكلما كَانَت المخافة أَشدَّ كَانَت النِّعْمَة بالإنذار أعظمَ؛ ولِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ أعظمَ النَّاس منَّةً بإنذاره لَهُم عِقَاب اللّه تَعَالَى[3]، فالإنذار خاصٌّ من هذه الوجوه والتَّخويف أَعَمُّ.

(1) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 64.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 201.
(3) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغويَة، ص: 242.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ وقائع اليهودِ وعصيانهم لأنبيائهم؛ وفضحهم بعد دعواهم محبة الله لهم

لَمَّا أَقَامَ اللّه تَعالى الحُجَجَ القَيِّمَةَ على بَنِي إسرَائِيلَ، وأَثْبَتَ لَهُم رِسَالَةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى فِيمَا أَوحَاهُ إِلَيه بِشَأنِهم وشَأْنِ كُتُبِهم وأَنبِيَائِهم مِنَ البِشَارَاتِ وأَخبَارِ الغَيبِ وَتَحرِيفِ الكُتُبِ ونِسيَانِ حَظٍّ منهَا، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّة عَلَى صِدقِهِ وكَونِ مَا جَاءَ بِه مِنْ عِندِ اللّه تَعالى هُوَ مِنْ جِنسِ مَا جَاءَ بِهِ أَنبِيَاؤُهُم، وأَيَّدَ ذَلِكَ بِدَحضِ شُبُهَاتِهِمْ وإِبطَالِ دَعَاوِيهِم، وبَيَانِ مَنَاشِئَ غُرُورِهِم، ثُمَّ لَمَّا لَم يَزِدهُمْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا كُفْرًا وعِنَادًا، بَيَّنَ اللّه تَعالى فِي هَذِهِ الآيَاتِ وَاقِعَةً مِنْ وَقَائِعِهِم مَعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، الَّذِي أَخْرَجَهُمُ اللّه عَلَى يَدَيهِ مِنَ الرِّقِّ والعُبُودِيَّةِ وَاضطِهَادِ المِصرِيِّينَ لَهُمْ إِلَى الحُرِّيَّةِ والاِستِقْلَالِ ومِلْكِ أَمرِهِم، وَكَونِهِمْ عَلَى هَذَا كُلِّهِ كَانُوا يُخَالِفُونَهُ ويُعَانِدُونَهُ، حَتَّى فِيمَا يَدعُوهُمْ إِلَيهِ مِنَ العَمَلِ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ النِّعْمَةُ عَلَيهِم في دُنيَاهُمُ الَّتِي هِيَ أَكبَرُ هَمِّهِم، لِيَعلَمَ الرَّسُولُ بِهَذَا أَنَّ مُكَابَرَةَ الحَقِّ ومُعَانَدَةَ الرُّسُلِ خُلُقٌ مِنْ أَخلَاقِهِمُ المَورُوثَةِ عَنْ سَلَفِهِم، فَيَكُونَ ذَلِكَ تَسلِيَةً لَهُ ﷺ ومَزِيدَ عِرفَانٍ بِطَبَائِعِ الأُمَمِ وسُنَنِ الاجتِمَاعِ البَشَرِيِّ[1]، فبيَّنَ تَمَرُّدَ أَسلَافِ اليَهُودِ على مُوسَى، وعِصيانهم إياه، مَعَ تَذْكِيرِهِ إِيَّاهُم نِعَمَ اللّه وَتَعدَادِهِ لِمَا هُوَ العَظِيمُ مِنهَا، وأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ بِحَضرَةِ الرَّسُولِ هُم جَارُونَ مَعَكُم مَجرَى أسلافهم[2].

(1) رضا، تَفْسِيْر المنار: 6/265.

(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/214.

وأيضًا لمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى سَعَةَ ملكه وتمام عِلْمِهِ وشمول قُدْرَتِهِ، أَتْبَعَ ذلك بالتدليل عليه بقصَّة بني إسرائيل في استنقاذِهم من أسرِ العُبوديَّة والرِّقِّ، وإعلاء شأنهم وإيراثهم أرضَ الجبَّارين بعد إهلاك فرعون وجنوده وغير ذلك ممَّا تضمَّنته القِّصَّة، إظهارًا لتمام القُدْرَةِ وسَعَةِ الملكِ ونفوذِ الأمر فقال عاطفًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: آتَى إِلَيهِ الشَّيءَ، بالمدِّ، يُؤْتِي إيتَاء: ساقَهُ وجعَلَه يَأْتِي إِلَيهِ، وآتَى فلَانًا شَيْئًا إيتَاء: أَعْطاهُ إيَّاهُ؛ والإِيتَاءُ: الإِعْطَاء، واشْتَهَرَ الإيتاءُ في مَعنى الإعْطاءِ، وأَصْلُه الإِحْضارُ، والمعنى هنا: أَعْطاكُم ما لم يُعطِ أحدًا من العالمينَ[2].

2) ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: أي: المطهَّرةَ المُعظَّمة المباركة؛ يقال تقدّس أَي تطهَّرَ، والمقدّسُ: المطهَّرُ، وأصل (قدس) يدلُّ على الطُّهر، والقُدْسُ: تَنْزِيهُ اللّه ﷻ، وهو القُدُّوسُ المُقَدَّسُ: المُطَهَّرُ، وتُسَمَّى الجَنَّةُ حَظِيرَةَ القُدْسِ؛ أَي: الطّهرِ، والبيت المقدّس هو المطهّرُ من النّجاسةِ؛ أي: الشِّرك، ولأنّه يتطهّرُ فيه من الذنوب، فالتَّقديسُ هو التَّطهيرُ والتَّعظيمُ، ومعنى الأرضُ المُقَدَّسَةُ هنا: المطَهَّرةُ بالتَّبريكِ[3].

3) ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: ولا تَرجِعوا مُدبرين، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه؛ يُقال: رَددتُه فارتدَّ، وأصل الرَّدِّ: رَجعُ الشَّيءِ، تَقُولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا والارتدادُ والرِّدَّة: الرُّجوعُ في الطَّريقِ الذي جاء منه، ومنه قيل للكافرِ بعدَ إسلامِه: مُرتدٌّ؛ وأمَّا الأدبارُ: جمع دُبُرٍ، وهو ضِدُّ القُبُل، وأصل الدُّبُر: آخِرُ الشَّيءِ وخَلفُه، والإِدْبارُ: نقيضُ الإِقْبالِ[4].

4) ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: أي: فتَرْجِعوا، وقَلْبُ الشَّيء تَصريفه وصَرْفُهُ عن وجهٍ إلى وجه كَقَلْبِ الثَّوب؛ أي: صَرفُهُ عن طريقته، والانقلابُ: الانصرافُ؛ ومنه قَلْبُ الإنسان، قيل: سُمِّيَ

---

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/72.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابنُ سِيدَه، المُحكَم، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (أتى)، والزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 4/198، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 7/202.

(3) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قدس)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 8، وابن جرير، جامع البيان: 1/505.

(4) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغة، والرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قلب) و(دبر)، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 476، 977.

به لكثرة تَقَلُّبِهِ، ويُقال لِمَن كانَ على شيءٍ ثُمَّ رجَع عنه قدِ انقلَب على عَقِبه، وأَصْلُ القلب: صرْفُ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهةٍ[1].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

دعـــوةُ مـوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قـومَـه لـلـجـهـاد، واحـتـجـاجُـهـم بقوَّة الأعداء

واذكر - أيُّها الرَّسول - حينما قال مُوسى لقومِه بني إسرائيل: يا قوم، اذكرُوا بقلوبكم وألسنتِكم نعمةَ اللهِ عليكم؛ حيث اختارَ منكم أنبياءَ يدعونكم إلى الهدى، وجعلكم مُلوكًا تملكون أَمْرَ أنفسكم بعد أن كنتم مَمْلُوكين مُسْتعبَدين لِفِرْعونَ وقومه، وأعطاكم من نِعَمَهِ ما لم يُعْطِ أَحَدًا من العالَمِين في زمانكم. يا قوم، ادخلوا الأرضَ المُطَهَّرة (بَيْتَ المقدس وما حوله) الّتي وعَدَكُمُ اللهُ بدخولها وقتال مَن فيها من الكافرين، ولا تَتَراجَعوا أمامَ أهلها الجبَّارين فيكون مآلَكم الخُسرانُ في الدُّنيا والآخرة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بذكرِ قصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِهِ:

تَـذكـيرُ بني إسـرائـيـل بـجـنـاياتِـهـم وتَـعـدادُ فضائحِهم

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ مسوقةٌ لبيان ما فعلت بنو إسرائيل بعد أخذِ الميثاق منهم، وتفصيل كيفيَّة نَقْضِهِمْ له مع الإشارة إلى انتفاءِ فترة الرُّسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - فيما بينهم، ليكونَ بطريق تَلْوينِ الخِطاب وصَرْفِهِ عن أهل الكتابِ؛ ليُعَدِّدَ عليهم ما سَلَفَ من بعضهم من الجنايات.

نكتة التّعبير بـ﴿وَإِذْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾:

نُصِبَ ﴿وَإِذْ﴾ على أنَّه ظرفٌ لفعلٍ محذوفٍ خُوطِبَ به سيِّد

(1) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قلب)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 113.

(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المنتخب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المختَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 111.

المخاطَبين ﷺ، والتّقديرُ: واذكر لهم يا محمّد على جهة إعلامِهم بغير كُتُبِهم ليحقِّقُوا نبوّتَك وَقْتَ قول موسى - عليه السلام - لقومه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وتنتظمُ في ذلك نِعَمُ الله عليهم، وتلقيهم تلك النِّعم بالكُفْرِ وقلَّة الطَّاعة والإنابة[1]، وتوجيهُ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقتِ أبلغُ من توجيهِهِ إلى ما وَقَعَ فيه[2]؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[3].

سِرُّ نداءِ موسى عليه السلام قَوْمَهُ بإضافَتِهم إليه:

حُسْنُ التَّلطُّفِ بهم وتنشيطُهم للاستجابَةِ لكلامِهِ

حيث قال لهم ناصحًا ومُسْتميلًا لهم بإضافتهم إليه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾[4]، ففي هذا النِّداء والإضافة مزيدُ تَلَطُّف لهم ليَتَفَطَّنُوا[5].

المتشابهُ اللفظيُّ:

تضمَّن خطاب موسى عليه السلام في هذه الآية النَّداء بقوله ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وفي خطابه في سورة إبراهيم بدونه﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]؛ وذلك أنَّهُ لمّا اعتمد في آيةِ المائدة تذكيرَهم بضروب من الآلاء والنِّعم الجِسام، مِنْ جَعْلِ الأنبياء فيهم وجَعلِهم مُلوكًا، وإعطائهم ما لم يُعْطِ غيرَهم، كان ذلك تعريفًا باعتنائه سُبْحانَهُ بهم وتفضيلِهِمْ على مَنْ عاصرَهُم وتقدَّمَهُم من أُمَمِ الأنبياء قَبلَهُم، فناسَبَ ذلك نِدَاءَ موسى عليه السلام بِقَولِهِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، بالإضافة إلى ضميره إنباءً بالقُرْبِ والمزيَّة، وناسب هذا النِّداءُ المُنْبِئُ بالاعتناء ما تَقَدَّمَ من تخصيصهم بما عُقِّبَ به النِّداء من التَّشريفِ بما مَنَحَهُمْ

---

(1) ابنُ عَطِيَّة، المحرر الوَجيز: 2/173.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/275.
(3) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/433.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/275.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونوي على تفسير البيضاوي: 7/433.

من الآلاءِ والنِّعَم الجِسام، ولمَّا قَصَدَ في آية سورة إبراهيم تَذْكيرَهُمْ بِنَجاتِهِمْ من آل فرعون وما كان يَسُومُهُمْ به من ذَبْحِ ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم لِلمِهْنَة، ولم يذكر شيئًا ممَّا في آية المائدة لِمَا اقتصر عليه من التَّذكير بِمُجَرَّدِ الإنجاء، فناسَبَ ذلك الاقتصارُ على خطابهم دون النِّداءِ مراعاةً للمُناسَبَةِ[1].

دلالةُ تقديمِ الأمر بِتَذَكُّرِ النِّعم على الأمر بالحرب:

تهيئتُهم للاستجابةِ للأَمْرِ الثَّاني وتعزيز الثِّقة بالله في نفوسهم

قَدَّمَ مُوسَى عليه السلام أَمرَهُ لِبَنِي إِسرَائِيلَ بِحَربِ الكَنعَانِيِّينَ بِتَذكِيرِهِم بِنِعمَةِ اللّه عَلَيهِم؛ لِيهيئَ نُفُوسَهُمْ إِلَى قَبُولِ هَذَا الأَمرِ العَظِيمِ عَلَيهِم، ولِيُوثِقَهُم بِالنَّصرِ إِنْ قَاتَلُوا أَعدَاءَهُم، فذَكَرَ نِعمَةَ اللّه عَلَيهِم، وَعَدَّ لَهُم ثَلَاثَ نِعَمٍ عَظِيمَةٍ: أُولَاهَا: أَنَّ فِيهِم أَنبِيَاءَ، والثَّانِيَةُ: أَنْ جَعَلَهُم مُلُوكًا، والنِّعمَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ آتَاهُم مَا لَمْ يُؤتِ أَحَدًا مِنَ العَالمين[2]. كما أنَّ في هذا الأمر تذكيرًا لهذه الأمَّةِ بنعمة التَّوفيق للسَّمع والطَّاعة الّتي أباها بنو إسرائيل بعدما رَأوا من الآياتِ، وبما كفَّ عنهم على ضَعفِهِم وشَجَّعَ به قلوبَهم، وعَظَّم ذلك التَّذكير بالاسم الأعظم[3].

دلالةُ تقديم النِّعمةِ بِبَعْثِ الأنبياءِ في بني إسرائيل على غيرها من النِّعم:

بيانُ تقديمِ المنافع الدينيَّة وتشريفها وتفضيلها على المنافع الدُّنيويَّةِ

فقدّم نعمةَ بَعْثِ الأنبياءِ فيهم على نعمة جعلهم ملوكًا؛ لأنَّ منفعةَ الأنبياء منفعةٌ دينيَّةٌ، والنِّعمة بهم أعظمُ وباتِّباعهم صلاحُ أمور الدُّنيا والآخرة، ومنفعةُ جعلهم ملوكًا منفعةٌ دنيويَّةٌ، ولشرف نعمة النُّبوَّة نَبَّهَ بذكر ظرفها على أجلِّ النِّعَم؛ لأنَّ النُّبوَّة منقذةٌ لهم من النّار، واصطُفيت الظَّرفيَّة عند ذكرهم في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾؛ فـ(في) هذه للظرفيَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ يكون من ثِقَة قومِه ومن أشرافهم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

---

(1) ابْنُ الزُّبَيْر، مِلاكُ التَّأْويل: 1/126.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.

(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/72.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: 2]، تأكيدًا على شرف النُّبوَّة ومنافعها وخصوصيَّتها، أمَّا في ذِكرِ الملوك فقال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ فجعل المُلْكَ عامًا، لأنَّ أيَّ واحدٍ منهم يمكن أن يكون مَلِكًا بخلاف النُّبوَّة؛ فإنَّها وإن كَثُرَتْ فيهم لا يسلكُ أحدٌ مسلكَ الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام -؛ لأنَّها أمرٌ إلهي يَخُصُّ الله تعالى به من يشاء[1].

بلاغة التّعبير في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾:

تأكيد تتابع النِّعم وتواليها عليهم في الماضي والمستقبل

في التّعبير بقوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ توجيهات عدّة تنوِّعُ المعنى، فيُحتمل أن يكون من التَّشْبِيهِ البَلِيغ بحذف أداةِ التّشبيه ووجهِ الشّبه؛ أَي: كَالمُلُوكِ في تَصَرُّفِهِم في أَنْفُسِهِم، وسَلَامَتِهِم مِنَ العُبُودِيَّةِ الَّتِي كَانَت عَلَيهِم لِلقِبْطِ، فلمَّا كانوا مملوكين مقهورين في أيدي القِبط، أنقذهم الله منهم بالغرق وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورهم لا يغلبُهم عليها غالبٌ، فهم ملوكٌ بهذا الوجه[2]، ويحتمل أن يكون بتقدير بمحذوف، أي وجعل منكم ملوكًا أو فيكم ملوكًا، وهذا يقتضي أن يكون الملوكُ من جملتهم[3]، وقَد يُقَالُ في حق من كان منهم ملوكٌ: أَنتُم مُلُوكٌ على سَبِيلِ الاستِعَارَةِ[4]، ويحتمل أن يكون الفعل الماضي﴿جَعَلَ﴾ على معنى الاستقبال، أي سيجعلكم ملوكًا، مِثلَ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1]، قَصدًا لِتَحقِيقِ الخبَرِ، فيَكُونَ الخبَرُ بِشَارةً لَهُم بِمَا سَيَكُونُ لَهُمْ[5].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(ال) بينَ العهدِ والاستغراقِ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

فقوله ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من فَلْقِ البحر وإغراق العَدوِّ، وتظليل الغَمام وانفجار الحَجَرِ، وإنزال المَنِّ

(1) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/255، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/73، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/123، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/121، والقونويّ، حاشيةُ القونوي على تفسير البيضاوي: 7/433.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/331.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.

بيانُ تمامِ النِّعَمِ عليهم بتَفْضيلِهم وأنَّ التَّفضيل من وَجْهٍ لا يستلزم التَّفضيل من جميع الوُجوهِ

والسَّلوى، وغيرِ ذلك ممَّا آتاهم اللّه تعالى من الأمور المخصوصة، والخِطابُ لقوم موسى عليه السلام كما هو الظَّاهر، و(أل) في العالَمِينَ تحتمل أن تكونَ للعهد، والمُراد عالَميّ زمانهم[1]، لا عالَميّ كلِّ زمان، ولم يكن أوتي في ذلك الزَّمان من نِعَم اللّه وكرامته أحدٌ من العالمين[2]، مثلما أوتي قومُه عليه الصلاة والسلام.

ولهذا لم يقل (ما لَنْ يؤتِيَ)، بل قال: ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ﴾، وبينهما فَرْقٌ، فلو قال: ما لن يؤتيَ؛ صار قومُ موسى أفضلَ النَّاس إلى يوم القيامةِ، ولن يُعطَى أحدٌ مثلهم، فجاء بدلالة الماضي؛ لأنَّ اللّه تعالى آتى هذه الأمَّة المحمّديَّة ما لم يؤتِ بني إسرائيل ولا غيرهم[3].

وتحتملُ (ال) أن تكونَ للاستغراقِ، والمعنى ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين ويقصد بالعالمين الأممَ الخالية إلى زمانهم فيكونُ استغراقًا مقيَّدًا بالزمان، أو يكون المعنى على عموم الاستغراق والمرادُ ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين أي ممّا تقدّم ذكره من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى ونحوها مما آتاهم اللّه، ففضَّلهم من وجهٍ ممّا لا يستلزم التَّفضيلَ من جميع الوجوه؛ فإنَّه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل، وعلى التَّقديرين لا يَلْزَمُ تفضيلهم على هذه الأمّة المحمّديَّة على نبيِّها أفضلُ الصَّلاة وأكملُ التَّحيَّة[4].

والحاصلُ أنَّ تذكيرَهم بنعم اللّه هو توطئةٌ لنفوسِهم، بما يُلقَى من أمر قتال الجبَّارين ليُقَوِّيَ جَأْشَهُم، وليهيِّئَ نُفوسَهم إلى قَبولِ هذا الأمرِ العَظيم عليهم، وليوثِّقَهم بالنَّصرِ إنْ قاتلوا أعداءَهم[5]. وليعلموا أنَّ من أنعَمَ اللّه عليه بهذه النِّعم العظيمةِ لا يَخذُلُه، بل يُعْليه على عَدُوِّه ويَرفَعُ من شأنه، ويجعلُ له السَّلطنة والقَهرَ عليه[6].

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/166.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/256.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161، والسّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 227.
(6) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/216.

سِرُّ تِكْرار النِّداء بَعدَ ذِكرِ النِّعَمِ والآلاءِ:

الاهتمامُ بشأنِ الأمرِ مع المُبالغة في الحَثِّ على الامتثال

كُرِّرَ النِّداءُ في قولِه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ بإضَافتهم إلى نفسِه النّفيسةِ تَشريفًا؛ اهتمامًا بشأنِ الأمرِ، ومبالغةً في حثِّهم على الامتثالِ به[1]، وتحريضهم على الانقيادِ له[2]، وكَرَّرَ اللَّفظَ الَّذي ابتَدَأَ بِهِ مَقَالَتَهُ وهُوَ النِّدَاءُ بِـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ لِزيَادَةِ استِحضَارِ أذهَانِهِمْ[3].

نُكتةُ مجيءِ (ال العهديَّة) في تعريفِ الأرض:

الاهتمامُ بشأنِ دخولِ بيتِ المقدس والتَّحريض عليه

اللَّامُ في ٱلۡأَرۡض للعهد؛ لكونها حاضرةً في أذهانهم، وهم مأمورون بدخولها أوَّلًا؛ لأنَّ فيها بيتَ المقدس الّذي كَانَ بأَيدِيهم في زَمَانِ أَبِيهِم يَعقُوبَ، لَمَّا ارتَحَلَ هُوَ وبَنُوهُ وأَهلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[4]؛ فلأجل الاهتمام بشأن هذا المقصدِ العظيم، جِيءَ بـ(أل) العهديّة مقترنةً بالأرض المأمور بدخولها[5].

سِرُّ استعارةِ لفظةِ الكتابة لمعنى القضاء والتَّقدير:

التَّحريضُ على الإقدامِ لدخولِها وبيانُ تَحقُّقِ ذلك

استُعِيرت الكتابة لمعنى قَضى وقدَّر؛ فلَيْسَ ثَمَّةَ كِتَابَةٌ وَلَكِنَّهُ تعبيرٌ مَجَازِيٌّ شَائِعٌ في اللُّغَة، قال النَّابغةُ الجَعْدِيُّ:

يَا بِنْتَ عَمِّي كِتابُ اللهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وهَلْ أَمْنَعَنَّ اللهَ ما فَعَلَا[6].

ووجه الاستعارةِ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا أَكَّدَهُ المُلْتَزِمُ بِهِ كَتَبَهُ، مِثلُ الأَمرِ الَّذي يُرَادُ ضَبطُهُ وعَدَمُ الإخلَالِ بِهِ؛ فَإِنَّهُ يُكتَبُ لِكَي لَا يُنْسَى ولَا يُنقَصُ مِنهُ شَيءٌ؛ فأُطلِقَتِ الكِتَابَةُ عَلَى مَا لَا سَبيلَ لِإبطَالِه، وإذا قَضَى اللهُ ذَلِكَ وأَرَادَ وُقُوعَهُ في الوَقتِ الَّذي عَلِمَهُ وأَرَادَهُ فهُوَ مُحَقَّقُ الوُقُوعِ لَا يَتَخَلَّفُ؛ فمَعنَى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: قَضَى وَقَدَّرَ، يُقالُ: كَتَبَ اللهُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/434، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(4) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 3/74، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/434.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(6) النَّابغة الجعديّ، ديوان النَّابغة، ص: 138.

عليه كذا؛ أي: قضى عليه، وكَتَبَ الله الأجل والرِّزق، وكَتَبَ على عباده الطَّاعة وعلى نفسه الرَّحمة، وهذا كِتابُ الله: قَدَرُهُ[1]، وفي هذه الاستعارة تحريض على الإقدام لدخولهَا، فإنَّ القومَ وَإنْ كَانُوا جَبَّارِينَ، إلَّا أنَّ الله تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ بِأَنَّ تلكَ الأَرضَ لَهُم، فإنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُقِرِّينَ بِصِدْقِ مُوسَى عليه السلام عَلِمُوا قَطعًا أَنَّ الله يَنْصُرُهُمْ عَلَيهِم وَيُسَلِّطُهُمْ عَلَيهِم، فَلَا بُدَّ وأَنْ يُقْدِمُوا عَلَى قِتَالِهِمْ مِنْ غَيرِ جُبنٍ ولَا خَوفٍ ولَا هَلَعٍ، فَهَذِهِ هِيَ الفَائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ[2].

فإنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المَائِدَة: 26]:

والجَوَابُ: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: كَانَت هِبَةً ثُمَّ حَرَّمَهَا عَلَيهِم بِشُؤمِ تَمَرُّدِهِم وَعِصيَانِهِم. وقِيلَ: اللَّفْظُ وإنْ كَانَ عَامًّا لَكِنَّ المُرَادَ هُوَ الخُصُوصُ، فصَارَ كَأَنَّهُ مَكتُوبٌ لِبَعضِهِم وَحَرَامٌ عَلَى بَعضِهِمْ، وقِيلَ: إنَّ الوَعدَ بِقَولِهِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مَشْرُوطٌ بِقَيدِ الطَّاعَةِ، فلَمَّا لَمْ يُوجَدِ الشَّرطُ لَا جَرَمَ أن لا يُوجَدِ المَشرُوطُ، وَقِيلَ: إنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا فلَمَّا مَضَى الأَربَعُونَ حَصَلَ مَا كَتَبَ[3].

دلالة تَعْدِيَةِ الفعل (ارْتَدَّ) بـ(على) بَدَلَ (إلى):

التَّحذيرُ مِنْ خَطَرِ الارتدادِ المُوجِبِ للهَزيمَةِ

الاِرتِدَادُ: الرُّجُوعُ، والأَدْبَارُ: جَمعُ دُبُرٍ، وهُوَ الظَّهْرُ، ومَعنَى الرُّجُوعِ عَلَى الأَدْبَارِ إِلَى جِهَةِ الأَدْبَارِ؛ أي: الوَرَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَكَانَ الَّذِي يَمشِي عَلَيهِ المَاشِي، وهُوَ قَد كَانَ مِنْ جِهَةِ ظَهرِهِ، كَمَا يَقُولُونَ: نَكَصَ عَلَى عَقِبَيهِ، ورَكِبُوا ظُهُورَهُمْ، وارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وعَلَى أَعقَابِهِمْ فعُدِّيَ بِـ (عَلى) الدَّالَّة على الاستِعلَاءِ؛ أي: اسْتِعلَاءِ طَرِيقِ السَّيرِ، فنُزِّلَتِ الأَدْبَارُ الَّتِي يَكُونُ السَّيرُ فِي جِهَتِهَا مَنزِلَةَ الطَّرِيقِ الَّذِي يُسَارُ عَلَيهِ[4]، وفيه تَحذِيرٌ مِمَّا يُوجِبُ الانهِزَامَ؛ لِأَنَّ ارتِدَادَ الجَيشِ عَلَى الأَعْقَابِ مِنْ أَكبَرِ أَسبَابِ الانخِذَالِ.

---

(1) الزَّمَخشريّ، أساس البلاغة: (كتب)، والفَيْروزآبادِيّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 4/330.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162، و28/57.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/332.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.

تبشيعُ حال العاصي النَّاكِص المُتقاعس عن أمرِ ربِّه

سِرُّ الاستعارة التَّمثيليَّة[1] في التَّعبير عن عدمِ الامتثال بالارتدادِ على الأدبار:

معنى ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾: لا ترتدُّوا عن دينكم بالعصيان وعَدِمِ التكلان على اللّه ﷻ[2]، وأن ترجعوا إلى ورائكم خوفًا من الجبَّارين فالكَلام محمولٌ مَجَازا، على معنى الاسْتعَارَةِ التَمْثيليَّةِ[3]، والمعنى لا تكونوا كالْمُقَهْقِرِ الرَّاجع، والمُتقاعِسِ النَّاكص[4].

وفي هذه الاستعارة التَّمثيليَّة تشبيهُ حالِ من يرجعُ عن الجهادِ بعد أن توافرت أسبابُه، بحال من يتراجعُ سائرًا بظهره إلى الوراء، بَدَلَ أن يسير بوجهه إلى الأمام، فشَبَّه سُبحانه الرجوع ارتيابا بالرُّجوع على الأعقابِ، وهذا التَّعبير يُصَوِّرُ قُبحَ الجُبنِ والتَّخاذل حِسًّا ومَعنى[5].

دلالةُ الفاء في قولِه تعالى ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

الإنذارُ بالخُسران المُبين لمن انقلَبَ على عَقِبَيْهِ بَعْدَ وُضوحِ الدَّلائِل والتَّذكير بالنِّعم والفضائل

تحتمل الفاء أن تكون عاطفةً للفعل ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ على الفعل المجزوم ﴿تَرۡتَدُّواْ﴾ فيكون﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ مجزومًا، والمعنى لا ترتدّوا ولا تنقلبوا، وتحتمل أن تكون سببيَّةً، والمعنى ارتدادكم على الأعقاب سببٌ لانقلابكم خاسرين[6]، وهذه العبارة تُنْذِرُهُمْ بالخُسْرانِ المُبين إذا لم يستجيبوا لأمر اللّه، والانقلاب: الرُّجوع، وأصله الرُّجوع إلى المنزل، والمرادُ به هنا مُطْلَقُ المَصير، فبعد أن ساق لهم موسى ألوانًا من المُشَجِّعات والمُرَغِّبات في الجهاد؛ وذلك لأنَّه عليه السلام كان مُتَوَقِّعًا منهم الإحجام عن القتال، بعد أن جَرَّبَ عنادهم وعصيانهم ونُكُوصَهُمْ على أعقابهم في مواطن كثيرة، فهذه التَّجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدَّسة يَذْكُرُ لهم أكبر النِّعم، ويَسُوقُ لهم

(1) الاستعارة التَّمثيليَّة: تركيب استعمل في غير ما وُضِعَ له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي.
(2) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/121.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/435.
(4) الرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.
(5) طَنْطاوي، الوَسِيط: 4/106، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 5/186.
(6) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23.

أكرمَ الذِّكريات وأقوى الضَّمانات وأَشَدَّ التَّحذيرات؛ لكي يُقْبِلوا على الجهاد بعزيمة صادقة[1]؛ فإنَّ ترتيب الخيبة والخُسران على الارتداد يَدُلُّ على اشتراط الكَتْبِ بالمجاهدة المُتَرَتِّبَة على الإيمان قَطعًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإِعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعطاءِ

لَا يَكَادُ أَهلَ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَينَ الإِيتَاءِ والإِعطَاءِ، لَكِنْ نَجدُ في الاستِعمَالِ القُرآنيِّ بَعضَ الفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ القُرآنِ وعَظَمَتِهِ؛ وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إنّ الإِيتَاءَ أَقوَى مِنَ الإعطَاءِ في إثبَاتِ مَفعُولِهِ؛ لِأَنَّ الإعطَاءَ لَهُ فعِلُ مُطَاوِعُ، تَقُولُ: أَعطَاني فَعَطَوتُ، ولَا يُقَالُ في الإِيتَاءِ آتاني فأَتَيْتُ، وإِنَّمَا يُقَال: آتَاني فأَخَذتُ، والفِعلُ الَّذي لَهُ فِعلٌ مُطَاوِعٌ أَضعَفُ في إثبَاتِ مَفعُولِهِ مِنَ الَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[3].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وكَذَا ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظِيمٌ أيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] لِعِظَمِ القُرآنِ وشَأْنِه[4].

في الإيتاءِ وُجوبٌ والْتِزام وفي الإعطاءِ تَفَضُّلٌ وإكْرام

ومِن الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ الإيتَاءَ فِيهِ مَعنَى الوُجُوبِ والالتِزَام، أَمَّا العَطَاءُ فَفِيهِ مَعنَى التَّفَضُّلِ والإِكرَام؛ فبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللهُ المُؤمنِينَ بِدُخُولِ الجَنَّةِ قَالَ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ: 36]، ومِنَ الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ العَطَاءَ يَكُونُ في الأَشيَاءِ المَادِّيَّةِ ويُفِيدُ التَّكرَارَ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ أَي: سَيَتَكَرَّرُ شُربُكَ يَا مُحَمَّد كَثِيرًا مِنْ نَهرِ الكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

(1) طَنْطاوي، الوَسيط: 4/107، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277.
(3) السُّيوطِيّ، الإِتْقان: 2/367 - 368، والكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 212.
(4) السُّيوطِيّ، الإِتْقان: 2/367، والكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 212.

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]؛ أي: سَيَكُونُ عَطَاءُ اللّٰه لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[1].

أمَّا الإيتَاءُ ففي الأَشياءِ المادِّيَّةِ والمَعنويَّةِ، قال سُبْحانَهُ: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20][2].

الإعطاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومِنَ الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ الإعطَاءَ دَليلُ التَّمَلُّك دُونَ الإيتَاءِ[3]، فالإيتَاءُ يَشمَلهُ اَلنَّزْعُ، بِمَعنَى أَنَّهُ لَيسَ تَمليكًا، ولَكِنَّ العَطَاءَ تَمليكٌ، والإيتَاءُ لَيسَ بالضَّرُورَةِ تَمليكًا؛ لِأَنَّ الإعطَاءَ هُوَ إِيصَالُ اَلشَّيءِ إِلى آخذه وكَثُرَ استِعمَالُ الإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطلَقُ إِلَّا على التَّمليكِ، فيُقَال: أَعطَاهُ مَالاً، إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ.

الانقلاب والرُّجوع:

الانقلابُ تَغَيُّرُ الحالِ والمصيرِ إلى نقيضِ ما كان فيه قبلُ، والرُّجوعِ المصيرُ إلى المَوْضِعِ السَّابِقِ

ذكر كثيرٌ من أهل اللُّغة أنّ الانقلابَ هو الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ مُطْلقًا[4]، فلا فرق عندئذ؛ وفَرَّقَ بَعضُهُمْ بَينَ الانقِلَابِ والرُّجُوعِ، بِأَنَّ الانْقِلَابَ صَيرُورَةُ الشَّيءِ إِلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيهِ، فالرُّجوعُ هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبلُ، والانقلاب المصير إلى نقيض ما كان فيه قبل، ويُوَضِّح ذلك قولهم: انقلب الطِّينُ خَزَفًا، فأمَّا رُجُوعُهُ خَزَفًا فلا يَصِحُّ؛ لأنَّه لم يكن قَبْلُ خَزَفًا[5]، فالانْقِلَابُ: مُطَاوِعُ (قَلَبَ)، والقَلْبُ تَغييرُ الحَالِ وتَبَدُّلُهُ، والأَكثَرُ أَنْ يَكُونَ تَغييرًا مِنَ الحَالِ المُعْتَادَةِ إِلى حَالٍ غَرِيبَةٍ، ويُطلَقُ الانقِلَابُ شَائِعًا على الرُّجُوعِ إِلى المَكَانِ الَّذِي يُخرَجُ منهُ، وانقَلَبَ مِنَ الأَفعَالِ الَّتِي تَجِيءُ بِمَعنَى (صَارَ)، وهُوَ المُرَادُ في قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الإعراب: 119]؛ أي: صَارُوا صَاغِرِينَ[6].

(1) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212، والسُّيُوطِيّ، الإِتْقان: 2/367.
(2) لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعبيرِ في القُرْآنِ الكَريم، ص: 71 - 77.
(3) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات: 1/360، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 86.
(4) الكَجْراتِّي، مَجْمَعُ بِحارِ الأَنْوار: 4/309، والمَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 65.
(5) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 303.
(6) ابن عاشور، التّحرِيرُ والتّنوير: 9/51.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جــــوابُ بنـي إسـرائيـل لنبيِّ الـلــه مــوسى عليه السلام بعد حثِّهم وأَمْرِهِمْ بدُخول بيت المقدس

لَمَّا كان السِّياقُ السَّابقُ مُحَرِّكًا للنَّفس إلى معرفة جوابهم عنه، أورده على تقدير سؤالٍ مؤداه: إنَّ هذا لترغيبٌ مُشوِّق وترهيب مُقْلِقٌ، فما قالوا في جوابِهِ؟ فَقالَ: ﴿قَالُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَبَّارِينَ﴾: أي: أقوياءَ عِظامَ الأجسامِ طوالًا؛ وُصِفوا بذلك لكثرتهم وقُوَّتِهم، وعِظَم خَلْقِهم، وطولِ جُثَثِهم، يُقَالُ: رَجُلٌ جَبَّار إذا كَانَ طَوِيلًا عَظِيمًا قَوِيًّا، تَشبيهًا بالجَبَّارِ مِنَ النَّخْلِ، وأصلُ (جبر): جِنسٌ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ، وجبَّارون: جمع جبَّار، وهو القهَّار، والمتسلِّطُ، والقتَّال[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

احتـجـاج بنـي إسـرائـيـل بضعفهم وقوة أعدائهم للنُّكول عن قتالهم

قال بنو إسرائيل مخالِفين أمرَ الله: يا موسى، إنَّ في الأرض المقدّسة قومًا أشداءَ أقوياءَ، وهذا يمنعُنا من دخولِها، فلن ندخلَها ما دام هؤلاءِ فيها؛ لأنّه لا حولَ لنا ولا قوّة بقتالِهم، فإن خرَجُوا منها دخلناها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ البيانيّ في قوله﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾:

قوله تعالى ﴿قَالُواْ﴾: اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ، جاء في جوابِ سؤالٍ

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.

(2) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (جبر)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 174، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 149.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.

بيان جواب بني إسرائيل الدال على سوء أدبهم مع نبيهم

مقدَّرٍ اقتضاه الحال؛ كأنَّه قيل: فماذا كانَ جوابهم لنبيّهم في مُقابلةِ الأَمرِ والتَّحذير والإنذار؟ فقيل: قَالُوا مخالفين لأمره، ومخاطبين له باسمه العلَميِّ جفاءً وجلافةً وقِلَّةَ أَدَبٍ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾.

السِّرُّ في العطفِ بتتابعِ المؤكِّدات:

التَّأكيد على النُّكول والنُّكوص واختلاق الأعذار لتخلّفهم وقعودهم عن القتال

فقد أَكَّدُوا قولهم، فقالوا مُخاطِبينَ بجُرْأةٍ وقلَّة حياءٍ لأعلم أهل زمانه: ﴿إِنَّ فِيهَا﴾؛ أي: دون غيرها[1]، ثُمَّ عَطَفُو التَّأكيدِ بتأكيد آخر فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، لتأكيدِ امتناعهم التَّامِّ مِنْ أَنْ يُقَاتِلُوا الجَبَابِرَةَ، ولِذَلِكَ كَانَ النَّفيُ بِـ﴿لَن﴾ الدالَّة على تأكيدِ نفي المستقبل[2].

دلالة العطف في قوله تعالى: إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُوا مِنۡهَا:

هذا العطف من قبيل عَطفِ المَعْلولِ عَلَى العِلَّةِ؛ والمعنى لأنَّ فيها قومًا جبَّارين لن ندخل فيها حتّى يخرجوا منها، إذ الدُّخول في دار الأعداء قَهْرًا يَستَلزمُ القتال، ونفي الملزوم يستلزم نَفْيَ اللَّازم، أي فلمّا نَفَوا دخولَهم استلزم الأمرُ نفيَ قتالهم، ثمَّ صَرَّحوا بالإتيان بالجُملَةِ الاسميَّة المُؤكِّدةِ إِنَّا ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بتهالكهم على الدُّخول، وأنَّه لا مانع لهم إلّا الجُبْنُ، فأكَّدوا دُخولَهم إذا خرَج منها هؤلاءِ القومُ الجبَّارونَ بقولِهم: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ - فهو مُؤكَّد بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملة - وهذا لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ، لكن يَدلُّ على شِدَّةِ بلاهتِهم؛ لأنَّ المعروف أنَّه متى خلَتِ البلادُ من الأعداء فخرَجُوا منها، فالدُّخولُ في هذه الحالة لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ[3].

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على تفسير البيضاوي: 7/436، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.
(2) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/218.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/76، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على تفسير البيضاوي: 7/436، وابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/274.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة في وصفِ الأعداء:

تعظيمُ شأن العَدُوِّ وتهويل بَطْشِهِ وشِدَّتِهِ

قولهم ﴿قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عُتاةً قاهرين لغيرهم مُكْرِهينَ له على ما يُريدُونَ[1]، والجَبَّارُ صيغة مُبالغة من (جَبَر) الثُّلاثي على القياس، والجَبَّار: هو الذي يقهرُ الناس كائنا منْ كان ويكرهُهُم على ما يريدُ كائنا ماكان، ففي هذه المُبالغة تَعظيمٌ لشأن هؤلاء القوم ومبالغةٌ في قوّتهم، مع التَّعظيم والتَّهويل الّذي يحمله تَنْكيرُ لفظة ﴿قَوۡمٗا﴾.

دلالة الشَّرْطِ في قولِه تعالى ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾:

بيان خَوَرِ الطَّبيعة والجُبْنِ المُتَأصِّلِ في نفوسهم

هَذَا الشّرطُ تَوجِيهٌ مِنهُمْ لِأَنفُسِهِم بِخُرُوجِ الجَبَّارِينَ مِنهَا وتأكيدٌ لِما تقدّم ذكرُه؛ إِذْ عَلَّقُوا دُخُولَهُمْ عَلَى شَرطٍ مُمكِن الوُقُوعِ، وأتوا بجملة الشّرط وجوابِه مع كون مضمونهما مفهومًا ممّا تقدّم - تصريحًا بالمقصود، وتنصيصًا على أنَّ امتناعَهم من دخولها ليس إلّا لمكانهم فيها خوفًا ورهبةً من الجبّارين، وعُبِّرَ بـ﴿فَإِن﴾ الدالّة على استبعادِ وقوعِ الشّرطِ وأنّه نادُر الحصول مع إعلام اللّه لهم بإهلاكهم على أيديهم جلافةً منهم وعَراقَةَ طَبْعٍ في التَّكذيب وكشفًا لجبنِهم وتهرُّبِهم من القتالِ[2]، وللإشعارِ بأنَّهم لم يرغبوا في الدخول إلى الأرضِ المقدَّسة، ولهذا جاؤوا بالجزاءِ مؤكَّدًا بالجملةِ الاسمية المصدّرة - بإنّ - للدلالةِ على تقرُّر الدُّخول وثباته عند تحقق الشَّرطِ الذي استبعدوا حصولَه، وكأنّهم كانوا يرغبونَ في دخولِ الأرضِ المقدَّسةِ وفي الامتثال لِلأمر[3]، وفي الجملة الشّرطية تَصريحٌ بِمَفهُومِ الغَايَةِ فِي قَولِه: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾؛ لِقَصدِ تَأْكِيدِ الوَعدِ بِدُخُولِهَا إِذَا خَلَتْ مِنَ الجَبَّارِينَ الموجودين فيها[4].

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/76، 75.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجبَّار والقهَّار:

الجبَّارُ يفيدُ الاقــتــدارَ وهــو أعمُّ من القهَّار

الجبَّارُ في صفة اللّه ﷻ صفةُ تعظيم؛ لأنَّه يفيدُ الاقتدارَ، وهو - سبحانه - لم يزل جبَّارًا، بمعنى: أنَّ ذاتَه تدعو العوارفَ بها إلى تعظيمها، والجبَّارُ هو المصلحُ للأمور؛ فجبرُ الفقير يكون بالغِنى، وجبرُ الكَسير يكون بإصلاحِه؛ فهو سبحانه الجبَّارُ المصلح للأمور[1]، وأمَّا القهَّارُ فهو الغالبُ لمن ناوأه، واللّه هو الذي قهر الجبابرةَ من عتاة خلقِه بالعُقوبة، وقَهَرَ الخلقَ كُلَّهم بالموت[2]، والجبَّارُ في صفة المخلوقين صِفةُ ذَمٍّ؛ لأَنَّهُ يتعاظمُ بما ليسَ لهُ، لأنَّ العظمةَ للّه سبحانه[3]، وقد وردت لفظةُ الجبّارِ في القرآن على أَربعة أَوجهٍ:

الأَوَّل: بمعنى القهَّار قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]، وقيل: هذا من قولهم جَبَرتُ الفقيرَ؛ لأَنَّه يَجْبر النَّاس بِفائض نِعَمِه.

الثَّاني: بمعنى القَتَّال بغير حقٍّ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشُّعراء: 130]، وقَوْلُه ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: 19]، وقوله ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: 35] أَي قَتَّال.

الثَّالث: بمعنى الزِّيادة في القُوّة والشِّدَّة وطُول القَدِّ والقامة، كقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أَي: أَقوياء عِظَام الأَجسام، ومنه نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ.

الرّابع: بمعنى المُتَكَبِّر، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم: 14]، وقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: 15]؛ أَي: متكبّر[4].

---

(1) عياض، مشارق الأنوار: 1/137.

(2) النَّجدي، النَّهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: 2/182.

(3) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغويَة، ص: 153.

(4) الفَيْرُوزآبادِيّ، بَصائِرُ ذَوِي التَّمْيِيز: 2/360.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحريضُ أهلِ الإيمانِ لِقَومِهِمْ بعد ظُهورِ تخاذلهم وخوفهم

لمَّا نَكَلَ بنوا إسرائيلَ عن طاعةِ اللّه واتباع رسوله موسى عليه السلام، حرَّضهم رَجُلانِ، للّه عليهما نِعْمَةٌ عظيمة، وهما ممَّن يخافُ أمرَ اللّه ويخشى عقابَه، فقال تعالى ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[1]، ولَمَّا أمَرَ هذانِ الرَّجُلانِ قَومَهما بالأَخْذِ بالأسبابِ النَّافعة، أرشدَاهُم إلى ألَّا يَعتمِدوا على أنفُسِهم، فقالَا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخَافُونَ﴾: الخَوْف: ضِدُّ الأَمْن، خَافَ يخَاف خَوْفًا وخِيفَةً ومَخَافةً، والخَوْفُ: الفَزَعُ، وأصل الخوف يَدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَع، وخوف اللّه تعالى لا يُراد به ما تعارفه النَّاس من الرُّعب كاستشعار الخوفِ من الأسد، إنَّما المُرادُ به الكفُّ عن المعاصي وتَحَرِّي الطَّاعات وعَمَلُها، فمعنى ﴿يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يُراقِبُونَهُ تعالى ويَتَّقونَهُ[3].

2) ﴿غَٰلِبُونَۚ﴾: منتصرون قاهرون، غَلَبَ يغلِبُ غَلَباً وغلَبَةً، والغُلُبَّةُ القَهْرُ، وتَغَلَّبَ الأميرُ عَلَى البَلَدِ استَولَى عَلَيه قَهْرًا. وأصل (غلَبَ) يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَشِدَّةٍ، والغِلابُ: النِّزاعُ، والمُغَلَّبُ: الّذي يَغلِبُه أقرانَه فيما يمارس،[4].

(1) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآنِ العظيم: 3/76.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165، وابْنُ عُثَيمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/265.

(3) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (خوف)، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/71، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/122.

(4) الخليل، العَيْنُ، والجَوْهَرِيّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (غلب)، والمصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/249، والراغب، تفسير الراغب: 4/316.

3) ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: اعتمدوا عليه، يُقال وَكَل بِاللّه يَكِلُ، وَتَوَكَّل عَلَى اللّه تَوَكُّلاً، وتوكّلت عليه بمعنى اعتمدته، واتّكَلَ اتِّكالاً: استَسلَمَ إِلَيه، وأَوْكَلْتَ عَلَى أَخِيكَ العَمَلَ؛ أَي: خَلَّيْتَهُ كُلَّهُ عَلَيهِ، وأصل (وكلَ) يدلّ على اعتِمَادِ غَيرِكَ فِي أَمرِكَ، والتَّوَكُّلُ، إِظهَارُ العَجْزِ فِي الأَمْرِ والاعْتِمَادُ على غَيرِكَ، والمعنى هُنا: اعتمدوا على اللّه فإِنَّه ناصرُكم[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مُخاطبةُ المتَّقين من بني إسرائيل لقومهم وتحريضُهُم لهم على الجهاد في سبيل الله والتَّوكُّلِ عليه

قال رجلان من أصحابِ موسى ممَّن يخشون اللّه ويخافون عقابه، أنعم اللّه عليهما بالتَّوفيق لطاعته، وطاعة نَبِيِّهِ يَحضَّان قَوْمَهُما على امتثال أمر موسى ﷺ: أُدخلوا على الجبابرة بابَ المدينة، فإذا فَعَلتم ذلك فإنَّكم مُنْتَصرون عليهم، وعلى اللّه وحدَه اعتمدُوا وتوكَّلوا إن كنتم مُصدِّقين رَسُولَه فيما جاءكم به، عامِلِينَ بِشَرْعِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ البياني في قولِه ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾:

استثناءُ أهلِ الإيمانِ واليَقينِ من جملةِ الجُبناءِ الخائفين

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ جديد وقع جوابًا لسؤالٍ اقتضاه المقامُ، وكأنَّه قيل: هَلْ كان فيهم رَجُلٌ رشيدٌ ينصحهم فيأتي بقولٍ سديدٍ، أم لا؟ فأجيب بقوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ الآيةَ؛ ولِذَا اخْتِير الفصلُ، وبذلك يُعْلَمُ أَنَّ ضميرَ الجمعِ (الواو) في قوله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، عامٌّ خُصَّ مِنهُ البَعضُ، بقوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[3].

(1) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغة، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (وكل).
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/437.

دلالة شبه الجملة في قوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾:

دلَّ حرفُ الجر على التّبعيض، والمعنى الرجلان بعضٌ من الذين يخافونَ اللّه، وأفادَ مجيءُ شبهِ الجملةِ صفةً لـ﴿رَجُلَانِ﴾ بصيغةِ الاسم الموصولِ وصلتِه بيانَ وجهِ بناءِ قولِهم، أي إنَّ خوفَهم من اللّه هو السبب في أن قالوا ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾.

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿يَخَافُونَ﴾ بعد ذِكْرِ مقالة الخائفين من العدوِّ:

التَّفريقُ بين من يخافُ اللهَ ومن يخافُ غَيْرَهُ

معنى ﴿يَخَافُونَ﴾؛ أي: يخافون اللّه تعالى، وحُذِفَ المفعولُ؛ لتنزيلِ الفعلِ ﴿يَخَافُونَ﴾ منزلةَ اللازم، بمعنى أنَّ الخوفَ من اللّه كانَ وصفًا لازمًا لهما، وفي وصفِهم بذلك تعريضٌ بأنَّ من القومِ من كانوا لا يخافونه تعالى، بل كانوا يخافون العَدُوَّ[1].

دلالةُ قولِه تعالى ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بين الاستئناف والصفة والحاليّة:

بيانُ أثرِ الإنعامِ مـن الـلـهِ على عـبـدِه بالخوف مِنهُ دونما سِواه

تحتمل جملةُ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أن تكونَ استِئنَافًا بَيَانيًّا جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ لِبَيَانِ مَنشَأ خَوفِهمَا اللّه تعالى، وتقديرُ السُّؤالِ: كيف حصل عندهما هذا الخوف من اللّه ولا يخافونَ العدوَّ، فجاء الجواب بأنَّه تعالى أنعمَ عَلَيهِمَا بالشجاعةِ، فحذف متعلق فعل ﴿أَنۡعَمَ﴾ اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهذَا يَقتَضِي أَنَّ الشَّجَاعَةَ في نَصرِ الدِّينِ نِعمَةٌ مِنَ اللّه عَلَى صَاحِبِهَا[2]، وتحتمل الجملةُ أن تكون صفةً ثانيَةً لـ﴿رَجُلَانِ﴾، تفصيلًا في مدحهما وتأكيدًا له، فيكون الإنعام على معنى العموم، وليسَ مختصًّا بالشجاعة، والتّقدير: قال رجلان موصوفان بأنَّهما من الّذين يخافون اللّه - تعالى - ولا يخافون سِواه، وبأنَّهما من الّذين أنعمَ اللّه عليهما بالإيمانِ والتَّثبيتِ والثِّقة

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/164.

بوعدِه، والطَّاعةِ لأمره، قالا لقومهما: ادخُلُوا عليهم البابَ، وتحتمل الجملة أن تكون حالًا من ضمير ﴿يَخَافُونَ﴾ والمعنى قال رجلان من الذين يخافون حالَ كونهما قد أنعم اللّه عليهما بخوفهم من اللّه[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ في قولِه ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾:

الاهتمامُ بشأنِ مباغتَةِ العدوِّ ومفاجئَتِهم في بَلَدِهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلۡبَابَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم[2]؛ لأنَّ المقصودَ إنَّما هو دخولُ البابِ، وهم في بلدِهم؛ أي: فاجِئُوهم وضاغِطُوهم في المضيقِ، ولا تمهلوهُم ليحصُرُوا ويجدُوا للحربِ مجالًا[3]؛ فإنَّهم عندئذٍ يُصيبُهُم الذُّعرُ، وتأخذُهُم الفجاءةُ، ويتحَيَّرون، فتأخذهم السُّيوفُ، وتكونون أنتم الغالبين، ولا شَكَّ أنَّ غزوَ قومٍ في دارهم فجاءةً يُؤدي إلى هزيمتهم، ولقد قال في ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "ما غُزِيَ قَوْمٌ في عُقْرِ دارهم إلّا ذَلُّوا"[4].

دلالةُ التّعبير بقولِه ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

ليفيدَ دخولَهم على طريقة الغلبَة والاستعلاء والتمكُّنِ من القومِ الجبَّارين.

دلالةُ الشَّرطِ والجزاءِ في قولِه ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾:

الحثُّ على الدّخولِ والتّرغيب فيه

عُبِّرَ بالأداة ﴿فَإِذَا﴾ للحثِّ على دخولِ البابِ وقُرِنَت الأداة بالفعل الماضي، ﴿دَخَلۡتُمُوهُ﴾ للإشعارِ بالقطعِ في حصولِ الشّرطِ وكأنَّه قد وقَعَ، فإذا وقع تحقَّقت الغلبَةُ، من غيرِ مهلةٍ بسبب وجودِ الفاء، والمعنى منْ غيرِ حاجةٍ إلى القتال، ثقةً منهما بوعدِ اللّه وما عهداه من صنع اللّه تعالى لموسى عليه السلام في قهر أعدائه، أو أنّهما عَلِمَا بذلك من خبرِ موسى، ومنْ قوله: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أو كانا قد عَرِفَا أنَّ الجبّارين قد مُلِئَتْ قلوبهم خَوفًا ورُعبًا[5]، والتّعبير بأداةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24، وطَنْطاوي، الوَسيط: 4/108.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.

(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278.

(4) أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 4/2116.

(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/391.

الشّرط (إذا) مع الفعل الماضي هنا أقضى لحقِّ البلاغة والمطابقُ لها، وفي العبارة ما يُفيدُ تأكيد الغَلَبِ؛ لأنَّهُ عبَّر عن الغلبِ بالجملة الاسميَّة، و(إنَّ) الّتي تؤكِّدُ القولَ[1]، وفي هذا الخطابِ مُبالغةٌ في الوعدِ بالنَّصر والظَّفر، كَأنَّه قال: مَتَى دَخَلْتُم بابَ بَلَدِهم، انهزَمُوا ولا يبقى منهم نافخُ نَارٍ ولا ساكنُ دارٍ، فلَا تَخافُوهم[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل:

بيانُ خصوصيةِ التَّوكل على الله دونما سِواه، وأنَّ التوكّلَ علامةُ الإيمانِ وسببُ التَّوفيق والإقدام

أفادَ التّقديمُ التّخصيصَ والاهتمام، والمعنى وعلى اللّه تعالى خاصّةً دونَ غيره فَتَوَكَّلُوا في دخولِ البابِ وفي غيرِه من أعمالِكم ليفيدَ عمومَ التَوكُّلِ، بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمدُوا عليها فإنَّها لا تُؤثِّر من دون إذنِه إِنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ باللّه تعالى، والمرادُ بهذا الإلهابُ والتَّهييجُ، وإلَّا فإيمانهُم مُحقَّقٌ، وقد يُرادُ بالإيمان التَّصديقُ باللّه تعالى وما يَتبَعُهُ من التَّصديق بما وَعَدَ به[3].

سِرُّ التَّذييل بالجملةِ الشرطيَّةِ:

بيانُ أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى هو سِرُّ التَّوكُّل الجَالِبُ للنَّصر والظَّفر

لمّا رَأى الرجلانِ بني إسرائيل قد عَصَوا الرَّسولَ في الإقدامِ على الجهاد مع وعدِ اللّه لهم السَّابق، استرابًا في إيمانهم، فاحتاج الأمر إلى تأكيد الأمرِ بالتَّوكُّلِ على اللّه؛ إذ هو الملجأُ والمفزعُ عند الشَّدائد، فجاء الشّرط محذوف الجوابِ ودلَّ عليه السّياقُ، والتّقدير (إنْ كنتم مؤمنينَ فعلى اللّه توكّلوا)، فكأنَّه أعاد الأمر بالتّوكُّلِ مرّتين؛ لتأكيده وتقريرِه في نفوسهم، وعلَّق ذلك بِشَرطِ الإيمان الّذي استرابَا في حصوله لبني إسرائيل[4]، فذَيَّلَا بِقَوْلِهِمَا: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأَنَّ الشَّكَّ في صِدقِ الرَّسُولِ مُبطِلٌ لِلإِيمَانِ[5].

---

(1) أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 4/2116.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278.
(4) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/220.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَلَبَة والنُّصْرَة:

النُّصْرةُ تسديدٌ وتأييدٌ من اللهِ، وهي تشريفٌ خاصٌّ للمؤمنين، والغَلَبَةُ أعَمُّ

ليس كل غلبةٍ نُصرَةً؛ وإنّما النّصرُ يكون للخير والفوز العظيم؛ ولذلك جاء في الآية الكريمة ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160]، وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51]، والنَّصر يكون من عند اللّه لِعبادِه المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 126]، وقال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف: 13]، والنُّصرَة لَا تكونُ إلَّا على المنازِع والخصم والمناوِىءِ المُشاغب[1]، وأمّا الغَلَبَة فقد تكونُ بِفضل القُدرَةِ وبفضل العلم، يُقَال: قَاتَلَه فغلَبَه وصارَعَه، وذَلِكَ بفضلِ قدرتِه، وقد تكون أيضًا بالاستكبارِ أو الكثرة بالعددِ أو الأموال.

أمّا الانتصارُ فإنَّما يكونُ بتسديدِ من اللّه ﷻ بغضِّ النَّظر عن الفئةِ الرَّاجحةِ العدد أو الأموال أو السُّلطة، وفي مطلع سورة الرُّوم ذكر الغَلَبَةِ والنُّصرة؛ حيث وافق غلبةُ الرُّوم لِلفُرسِ انتصارَ المسلمين في بدر، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: 1 - 5]؛ فالنُّصرة تكونُ في ظلالِ التَّكريم والتَّشريفِ من اللّه، وهذا خاصٌّ بالمؤمنين الصَّالحين.

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 189.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكلام موصولٌ في شأن بني إسرائيل عندما طلبَ إليهم موسى عليه السلام أنْ يدخلوا الأرضَ المقدَّسة الَّتي كتبَ اللّه عليهم أنْ يدخلُوها، فقد أجابوا خائفين بأنَّ فيهم قومًا أشدَّاء عمالقة، وأنَّهم لن يدخلوها ما دام هؤلاء(1)، فبعد تلك العبارات القويَّة المثيرة للهمم والعزائم الَّتي نادى بها من الصُّفوف رجال منهم أو من أعدائهم، أجابوا بإجابتهم الأولى، وهي أنَّهم لن يدخلوا فيها، حتَّى يخرجوا منها(2)، فالنَّصيحة الحكيمة من الرَّجلين المؤمنين لم تلقَ من بني إسرائيل قلوبًا واعيةً، ولا آذانًا صاغيةً، بل قابلوها - كعادتهم - بالتَّمرُّد، والعناد(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَٰعِدُونَ﴾: "القافُ والعينُ والدَّالُ: أصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ لا يخلف، وهو يضاهي الجلوس"(4)، أو بمعنى: الجلوس(5)، و"قَعَد يَقْعُدُ قُعُودًا: خلاف قام(6)، وَيُقَالُ: رَجُلٌ قَاعِدٌ عَنِ الْغَزْوِ، وَقَوْمٌ قُعَّادٌ وَقَاعِدُونَ، القَعَدُ: الَّذِينَ لَا يَمْضُون إِلى القِتَالِ، وَهُوَ اسْم لِلْجمع(7)، وقوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، يعني: متوقِّفون(8)، فقد جاء في القرآن بمعنى: الثَّبات؛ تخلُّفًا عن النُّهوض، أو رفضًا لمعيَّة بغيضة إلى القاعد، أو توقُّفًا بسبب تغيُّر الأحوال، أو تربُّصًا، أو ملازمة لحال ما(9).

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2114.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/109.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قعد).
(5) الجوهري، الصّحاح: (قعد).
(6) الخليل، العين: (قعد).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(8) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صـــورة جبن بني إسرائيل، وغلوّهم في المنازعة مع أنبياء الله تعالى

بيَّنت الآية جهل بني إسرائيل، وقلَّة معرفتهم باللّه، وأنَّهم ما قدروا اللّه حقَّ قدره؛ حيث أمروه أنْ يستصحبه إلى الجواب استصحاب الأشخاص، وبكَّتهم بامتناعهم من الدُّخول: إمَّا جُبنًا، وإمَّا قصدًا إلى العصيان، وأيُّهما كان؛ فمذموم[1]، وكشفت ما جُبِلَ عليه بنو إسرائيل من جبن شديد، وعزيمة خوَّارة، وعصيان لرسلهم، وإيثار للذِّلَّة مع الرَّاحة على العزَّة مع الجهاد، فالآيةُ تحكي بأسلوبها البليغ قصَّة تاريخيَّة معروفة[2].

ومقصدُ الآية الكريمة: شرحُ خلافِ اليهود، وشدَّةِ بغضهم، وغلوِّهم في المنازعة مع أنبياء اللّه تعالى منذ القِدَم[3].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصل في مطلع الآية:

أهل الباطل مصرُّون عليه مَهما جاءهم من بيِّنات

البدء بجملة: ﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ عبَّروا فيه عن أنَّهم غيرُ مبالين بعظة الرَّجلين وبمقالتهما، مخاطِبين موسى عليه السلام إظهارًا لإصرارهم على القول الأول، وتصريحًا بمخالفتهم له عليه السلام[4].

دلالة تكرار النِّداء المبالغةُ والتَّنبيه:

في تكرير النِّداء منهم لموسى عليه السلام هنا وفي الآية: [22] بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ مبالغةٌ في عدم الامتثال لما أمرهم به، وتنبيهٌ إلى عِظَمِ شأنِ دعواهم[5].

سببُ ترك خطابِ الرَّجلينِ النَّاصِحَيْن:

خاطب بنو إسرائيل موسى عليه السلام عقب موعظة الرَّجلين لهم،

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/102.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334.
(4) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/106.

الكِبْرُ عنوانُ العُصاةِ في المواقفِ الحاسِمةِ

ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرَّجلين رجوعًا إلى إبايَتِهِمُ الأولى الَّتي شافهوا بها موسى؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾، أو لقلَّة اكتراثهم بكلام الرَّجلين[1]، أو كأنَّهم لم يجزموا بذهابهم، أو يعبؤوا بقتالهم[2]، فضلًا عن كونه هو الرَّسول، وهو مناط الطَّاعة، ومخالفته أدْعى لإظهار سوء طبائعهم في التَّمرُّد واتِّباع الهوى والعياذ بالله.

بلاغة افتتاح الكلام بحشد المؤكِّدات:

كثرةُ المؤكِّدات تثبتُ عظيمَ المخالفات

افتُتح الكلام بـ (إنَّ) المؤكِّدة الدَّالَّة على إصرار بني إسرائيل على موقفهم بامتناعهم ثانيةً من الدُّخول بعد الامتناع المتحصِّل من المحاورة الأولى معهم، ورسَّخوا هذا الامتناع، وأُكِّد الكلامُ أشدَّ توكيد بأنْ أُعقبَ بالأداة ﴿لَن﴾، وكلمة ﴿أَبَدٗا﴾[3].

فائدة النَّفي بأداة النَّصب ﴿لَن﴾، والتَّأبيد:

نفى بنو إسرائيل بما قيل على لسانهم: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾ دخولَهم على التَّأكيد والتَّأبيد[4]، فالتَّأبيدُ مستفادٌ من ﴿أَبَدٗا﴾، والتَّأكيد منه، ومن ﴿لَن﴾؛ فإنَّها تفيد تأكيد النَّفي؛ لكونها في مقابلة (سوف يفعل)[5]، فهو نفيٌ لدخولهم في المستقبل نفيًا مؤكَّدًا معلَّقًا بالدَّهر المتطاول ﴿أَبَدٗا﴾[6]، على وجه التَّأييس[7].

سرُّ التَّعبير بضمير الجماعة:

التَّعبير بضمير الجمع في عموم الآية الكريمة تلميحٌ باجتماعهم على ما قرَّروه، وإجماعهم على ما عزموا عليه من القعود وامتناع الدُّخول.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/166.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/110.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/166.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/122.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 3/230، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.
(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/439.
(7) النّيسابوري، غرائبُ القرآن: 2/575.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الدُّخول) دون مرادفاته:

أخـــذ لـفـظُ الدُّخول في هذا السِّياقِ معنى الاقتحام والغزو

لم يذكر المفسِّرون وأهل اللُّغة لـ(الدُّخول) في هذه الآية وأمثالها إلَّا معنى الولوج إلى المكان، مثل: ولوج البيوت أو المدن، وهو المعنى الحقيقي، في حين ذهب العلَّامة ابن عاشور إلى أنَّ الدخول كثر إطلاقه على دخول خاصٍّ: وهو اقتحام الجيش أو المغيرين أرضًا أو بلدًا لغزو أهله، وهو يعدَّى غالبًا إلى المغزوِّينَ بحرف الجر (على)، ومنه قوله تعالى في الآية السَّابقة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾، ثمَّ قوله في هذه الآية: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، فإنَّه لا يصلح إلَّا معنى دخول القتال والحرب لقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾؛ لظهور أنَّه لا يراد: إذا دخلتم دخول ضيافة أو تجوُّل أو تجسُّس[1]، وممَّا يؤكِّد توجيه الطَّاهر بن عاشور اقتران لفظ (الدُّخول) في هذه الآية بلفظ القتال بقوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، فالدُّخول دخول محاربة وقتال.

ومن توجيه ابن عاشور يظهر قصديَّة اختيار لفظ الدُّخول على غيره من ألفاظ الحرب، كالغزو والقتال؛ بوصفه مناسبًا لطبائع بني إسرائيل من مخالفة ومعاندة وجبْنٍ، ومع هذه المراعاة لحالهم؛ فقد امتنعوا من تنفيذ الأمر أشدَّ الامتناع، وذلك ديدنهم.

فائدة الجمع بين قوله: ﴿أَبَدٗا﴾، وقوله: ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾:

قال الرَّاغب: "إنَّ امتناعهم من دخولها لكون هؤلاء فيها، وإنَّ اعتبارَ ذلك ليس في وقتٍ دون وقتٍ، بل كلّ وقت، ما يدخلونها من كونهم فيها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 21/286.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.

مناسبة التَّعبير بالمصدر عن دوام ما قبله:

التَّعبير بالمصدر عن الدَّوام ترسيخ لأبديَّة عدم الدُّخول مدةَ بقاء الأعداء

قوله: ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ بيانٌ للأبد[1]، ويحتمل هذا القول: بدلَ بعضٍ من كلٍّ؛ لأنَّ الأبدَ يعمُّ الزَّمان المستقبل كلَّه، ودوام الجبابرة فيها بعضُه، أو عطفَ بيانٍ؛ لوقوعه بين النَّكرتين، وهذا بناء على تفسير الأبد بالظَّاهر منه، أو بالزَّمن المتطاول[2]، والتَّعبير بالمصدر المؤوَّل الحرف المصدري والفعل الناقص الدَّالِّ على قوَّة الحدث يناسبُ شدَّة التَّأبيد بعدم الدُّخول، والمعنى: (لن ندخلها مدَّة دوامهم فيها).

بيان الإطناب في جملة التَّنصُّل عن القتال:

في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ إطنابٌ بتأكيد الضَّمير المتَّصل بالمنفصل[3]؛ إنعامًا في الاستخفاف والجفاء، وترك آداب الخطاب.

وجه عطفِ لفظ الربوبيّة ﴿وَرَبُّكَ﴾ على ضمير الفصل:

الجهل مبدأُ طريق الفسق والعصيان

في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ذكرُ جهلهِم، وقلَّة معرفتهم باللّه، وأنَّهم ما قدروا اللّه حقَّ قدره؛ حيث أمروه أنْ يستصحبه استصحابَ الأشخاص[4]، "فتركوا آداب الخطاب، فصرَّحوا ببيان الجحد، ولم يحتشموا من مجاهرة الرَّدِّ"[5]؛ لكون هذا القول منهم يعدُّ فشلًا وجبنًا، أو عنادًا وجرأة على اللّه ورسوله، واستهانة بهما[6]، واستخفافًا بمقام الألوهيَّة والرِّسالة، وخروجًا عن معاني الإيمان السَّليم؛ لأنَّ اللّه تعالى لَا يعمل أعمال البشر، ويقاتل، ولكن ينصر، ويخلق، والقتال من أعمال العباد[7].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 3/230.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/287.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/417.
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/392.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.

دلالة لفظ الذَّهاب بين الحقيقة والقَصْد:

حـمـلُ ألـفـاظِ الـقــرآنِ على ظاهرِها منهجُ أهـل الـحـقِّ في فهمِ كلامِ الحقِّ

ذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّ لفظَ الذَّهابِ في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ "يحتمل ألَّا يقصدوا حقيقة الذَّهاب، ولكن كما تقول: كلَّمته، فذهب يجيبني، تريد معنى: الإرادة والقصد للجواب، كأنَّهم قالوا: أُريدَ قتالهم، والظَّاهر أنَّهم قالوا ذلك؛ استهانة بالله ورسوله، وقلَّة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم الَّتي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله ﷻ جهرة، والدَّليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم"[1]؛ إذ الذَّهاب حَقيقَة لا يتصوَّر إلَّا مِن الأجسام، فإسناده إلَى مَن استحال كونه جسمًا لا يكون إلَّا بطَريق الاستهانة، وكذا لا يسند إلى رئيس القوم الذَّهاب إلى العدوِّ وحده إلَّا بطَريق التَّحقير وعدم المبالاة به[2]، وهذه العبارة منه تدلُّ على منتهى التَّمرُّد، والمبالغة في العصيان والإصرار عليه والجفاء والبعد عن الأدب، فلا وجْه لتأويلها بما ينافي ذلك[3].

دلالة التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَرَبُّكَ﴾ بصيغة الخطاب:

الاستـخـفـافُ بـالمُـخـاطَـبِ، وتـأكـيـدٌ لإنـكـارِ مـديـدِ الـنِّـعـمِ السَّالفة

قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ جهلًا منهم بالله تعالى وصفاته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91][4]، فإنَّ التَّعبير عنه بصيغة الخطاب ﴿وَرَبُّكَ﴾ لا المتكلِّم (ربنا) إثباتٌ للاستهانة، وتحقيقٌ للاستخفاف، وتأكيدٌ لإنكار مديد النِّعم السَّالفة عليهم، والله أعلم.

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة مسبوقًا بأداةِ التَّنبيه:

التقييد بـ ﴿هَٰهُنَا﴾ يقتضي أنَّ المراد بالذَّهاب حقيقته[5]، والمعنى: أنَّا لن نبرح من هذا المكان - المُشار إليه بـ ﴿هَٰهُنَا﴾ -، لا

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/32.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/230.

نتقدَّم معك، ولا نتأخَّر عن هذا الموضع، وقيل: أرادوا بذلك عدم التَّقدُّم لا عدم التَّأخُّر[1]، وفيه ترسيخٌ لدلالة شدَّة الرَّفض بالإيماء إلى الالتصاق بالمكان، والتَّنبيه على عدم التَّحرُّك منه بالإشارة إلى المكان القريب المصحوب بـ(ها) التَّنبيه الَّتي يجاءُ بها في أوائل أسماء الإشارة؛ "لتنبيه المخاطب على حضور المشار إليه وقربه، وللمبالغة في إيضاحه"[2].

مـــن تـــوطَّـــن الأماكنَ لذاتِها فَـقَـدَ الـعـزةَ ولذّاتِها

بلاغةُ الكناية في بيان الأخلاق:

قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ كناية عدم التَّقدُّم للحرب[3] جبنًا وعصيانًا؛ إذ أكَّدوا لموسى أنَّهم لن يدخلوا تلك الأرض الَّتي فيها الجبابرة ما داموا فيها؛ لأنَّ دخولها يستلزم القتال والحرب، وليسوا لذلك بأهل[4]، فـ"بكَّتهم بامتناعهم من الدُّخول: إمَّا جُبنًا، وإمَّا قصدًا إلى العصيان، وأيُّهما كان؛ فمذموم"[5]، ومستحقٌّ فيه التَّقريع والتَّبكيت.

إذا سيطر على أخـلاق الأمـةِ الجبنُ اقتصرت في الكرامة على أكل الجبن

سرُّ استعمال لفظ القعود دون مرادفاته:

انتقى النظم الكريم لفظ القعود في وصف بني إسرائيل لأنفسهم في الانكفاءِ عن القتال والثَّبات في أماكنهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وهو وصفٌ يدلُّ على الخِسَّة؛ لأنَّ القعود غير البروز، والقاعد مُخَذَلٌ، والمجاهدُ عاملٌ، والقُعود في وقت وجوب النَّشاط للعمل الصَّالح هو وصف ذمٍّ، كما قال وصفًا لأمثالهم: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: 46]، فهم قد أخبروا عن أنفسهم بأقبح ما تُوصف الجماعات الطَّامحة[6]، واختار القرآن لذلك الإخبار لفظ القعود.

القاعدُ في وقتِ الـجـهـادِ عـاصٍ لربِّه خائنٌ لأمَّته

---

(1) القِنَّوجِيّ، فتح البيان: 3/392.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/93.
(3) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/224.
(4) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.

نكْتَةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿قَٰعِدُونَ﴾:

التَّعبير عن القعود بصيغة اسم الفاعل فيه دلالة على ثبوت الصِّفة ودوامها فيهم، وأنَّ أمر قعودهم بمنزلة الحاصل الثَّابتِ المُستقرِّ، يرسِّخه التَّوكيد بـ(إنَّا)، والإشارة إلى مكان القعود على طريق التَّنبيه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قعد)، و(جلس):

القُعُود: يكون مِنَ القِيَام، بينما الجُلُوسُ: يكون مِنَ الضَّجْعَةِ ومِنَ السُّجودِ، والقُعُود: يكون فِيهِ طولُ لُبْثٍ وإقامة؛ وَلذَا يُقَال: قَوَاعِدُ البَيْتِ، وَلَا يُقَال: جَوَالِسُه[1]، فالجلوسُ يُطلقُ على المكث مدَّةً قصيرة، والقعودُ آتٍ من الرُّسوخ واللُّصوق بالأرض الدَّالِّ على التَّثاقل والتَّخلُّف، وفيه ملحظ الاستمرار في الأمر؛ أخذًا من الثَّبات على الأمر[2]، وهذا المعنى يناسب دلالة قوله: ﴿قَٰعِدُونَ﴾ في الآية؛ تعبيرًا عن تثاقلهم، وخذلانهم نبيَّهم، وتخلُّفهم عنه مدَّة طويلة، وكأنَّهم أضْحَوا مقيمينَ في أماكنهم من شدَّة تخلُّفهم عنه.

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (قعد).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حكى الله تعالى هنا عن موسى عليه السلام أنَّه لمَّا سمع منهم هذا الكلام المتضمِّن العصيان والتَّمرُّد والمخالفة ومقالتهم كلمة الكفر، ولم يبقَ معه مطيعٌ موافق يثق به إلَّا هارون، فأحسَّ النَّبيُّ القويُّ الأمين بالعبء الَّذي أُلقي على هذه الجماعة وتخاذلها عن حمله، فتقدَّم إلى ربِّه بالمعذرة يرجو بها المغفرة، فقال ما حكاه الله تعالى عنه: إِنِّي لا أَمْلِكُ لنصرة دينك إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾: الفاءُ والرَّاءُ والقافُ: أصل يدلُّ على تمييز، وتزييل بين شيئين، ومنه: فرْق الشَّعر[2]، فالفَرْقُ: موضع المَفرِق من الرَّأس في الشَّعر[3]، وسُمِّي القُرآن فرْقانًا؛ لأنَّه فَرَقَ بَين الحقِّ وَالْبَاطِل، فكلُّ شَيْئَيْنِ فصلتَ بَيْنهمَا؛ فقد فرَقتهما فَرْقًا[4]، "سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾"[5]، والفرق: خلافُ الجمع[6]، فالمعنى المحوريُّ للفرق: هو فصلُ بعض شيءٍ، أو أشياءَ من بعضها الآخر فصلًا واصلًا إلى العُمق: كالفرق بين النَّخلتين، والعُرفين، والشَّعر، وهو واصل إلى المنبت[7].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

قدَّم موسى عليه السلام معذرته بالالتجاء إلى ربِّه الَّذي خلقه وربَّاه متضرِّعًا إليه، مبيِّنًا

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(3) الخليل، العين: (فرق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) ابن سيده، المحكم: (فرق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

أنَّه أعلم بحاله، وأنَّه في طاعته لَا يخرج عنها، وأنَّه لَا يملك من أمر قومه شيئًا، وإنَّما الأمر كلُّه للّٰه تعالى، وأنَّه لَا يستطيع أن يجعل من ضعف نفوسهم قوَّة، ولا من استخذائهم عزَّة، ولا من تقاعدهم همَّة، ولا يملك إلَّا نفسه وأخاه، فهو لَا يضمن إلَّا إيَّاهما، وهما وحدهما لَا يملكان الدُّخول إلى هذه الأرض[1]. ومعنى العبارة: إنَّني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلَّا أمر نفسي وأمر أخي، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليُسر والعُسر، والمَنشط والمكره[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف دون الوصل في المطلع:

جملة ﴿قَالَ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[3]، وعَدَلَ عن الوصل إلى الاستئناف انتقالًا إلى موقف الاعتذار وبثِّ الحزن؛ تبرُّؤًا ممَّا فعل بنو إسرائيل.

نُكْتَة حذف حرف النِّداء مع ﴿رَبِّ﴾:

حــــذف (يـــا) لـلـمـبـالـغـة في تـصـويـر قُـرب المنادَى

جملة النِّداء ﴿رَبِّ﴾: لا محلَّ لها اعتراضيَّة غرضُها الاسترحام[4]، و(ياء) النِّداء تستعمل لنداء البعيد في الغالب، واللّٰه تعالى قريب إلى عبده، فكان مقتضى البلاغة حذفها، فـ"النِّداء إنَّما يحتاج إليه عند البُعد، أمَّا عند القرب؛ فلا"، وإنَّ العبد إذا واظب على التَّضرُّع؛ نال القرب من اللّٰه تعالى[5].

فإذا قُرِّر نداء العباد للرَّبِّ؛ أتى بأمور تستدعي قرب الإجابة، ومنها: إسقاط حرف النِّداء المشير إلى قرب المنادى، وأنَّه حاضر مع المنادي غير غافل عنه[6]، فالحذف فيه للمبالغة في تصوير قُرب المنادَى (الرَّبِّ)؛ حيث إنَّ معناه: المربِّي، والسَّيِّد، والمالك،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/277.
(3) صافي، الجدول: 6/321.
(4) صافي، الجدول: 6/321.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/124.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 1/88.

وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريبًا، حاضرًا لا يحتاج في نداله إلى وسائط[1].

بلاغةُ التَّوكيد بـ (إنَّ) وبأسلوب القصر:

التَّوكيد يُظهر جانب معاناة موسى عليه السلام من قومه

وقد جاء تأكيد كلام موسى عليه السلام معذرته بـ"إنَّ" وبالقصر[2]؛ قصدًا إلى بيان قلَّة من يوافقه، وتشبيهًا لحالِه بحالِ مَنْ لا يملكُ إلَّا نفسَه وأخاه[3]، وهو في الوقت الَّذي أثبت - بأسلوب الحصر - أنَّه لا يملك إلَّا نفسه وأخاه، فإنَّه نفى الملكيَّة عن غيرهما على طريق المبالغة والتَّجوُّز، فلم يعتدَّ بإيمان الرَّجلين؛ نظرًا إلى تقلُّب قومه، وتغيُّر أحوالهم[4].

بلاغة العدول عن الإنشاءِ إلى الخبر في الدُّعاء:

يصح الدُّعاءُ بالإخبارِ عن الحالِ للعليم الرَّحيم

قوله تعالى على لسانِ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ صورته خبر، ومعناه إنشاء[5]، فهو من البثِّ والحزن والحسرة والشَّكوى إلى اللّه، والاعتذار إليه، والتَّنصُّل من فسق قومه عن أمره الَّذي يبلِّغه عن ربِّه، ورقَّة القلب الَّتي بمثلها تستجلب الرَّحمة، وتستنزل النُّصرة، ونحوه قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][6].

وجه قول موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾:

الملك نوعان تصرف وتملك، والمقصود في الآية ملك التَّصرف

إن قيل: كيف يصح أن يقول: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾، والإنسان في الحقيقة لا يملك نفسه وأخاه، إذ الملك هو التصرف في الشيء بالبيع والشراء؟

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 130.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/279.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621، ورضا، تفسير المنار: 6/276.

والجواب: أن هذا القول هو من مقتضى تصرف العرب في كلامها، ومقتضى معرفة حقائق الأشياء؛ فإنَّ الإنسان إذا انقاد له قواه فيما يَسُومُها من فعل الخير؛ يقال: هو مالكٌ لنفسه، وإذا امتنعت عليه قواه؛ يقال: هو غير مالك لها، وليس تصرف المَلِكِ والمَالك على وجه واحد[1]، ولأنَّ هارون كان يطيع (موسى)؛ فلذلك أخبر أنَّه يملكه - على إعراب ﴿وَأَخِيۖ﴾ منصوبًا عطفًا على ﴿نَفۡسِي﴾[2]، ولاختصاصِ هارون به، ولمزيد الاعتناء بأخيه[3]، أو لأنَّه كان محرِّضًا للقوم على دخول القرية[4].

وجه الاستعارة في لفظ: ﴿وَأَخِيۖ﴾:

تشبيه أخوَّة في الدِّين بأخوّة النَّسب لا يظهرُ معناها في السِّياق

جوَّز الزمخشريُّ إرادة معنى: (ومن يُؤاخِيني على ديني) في لفظ ﴿وَأَخِيۖ﴾، من باب تشبيهِ الأخوَّة في الدِّين بالأخوَّة في النَّسبِ، وعلى هذا التَّقدير يدخل الرَّجلان في قوله: ﴿وَأَخِيۖ﴾[5]، وعلى معنى دخول الرَّجلين في معنى الأخوَّة يكون (أخي) اسْتعَارَة، وفيه إشَارَة إلَى أنَّ قومه خارجون عن المؤاخاة في الدِّين[6]، وهو تجويزٌ لا يُساعد عليه المقام، ولا يهدي إلى السِّياق، ولو كان هذا المرادُ لأتى بنظم يدل عليه كقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: 40]، وتجويز الزَّمخشريِّ صناعيٌّ لا بلاغيٌّ.

دلالة نفي الفعل المضارع بلا:

حرف النفي ﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ خلَّص الفعل المضارعَ إلى الحال، ولو قال مثلًا: (لن أملك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/318.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/176.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/33.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/167.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.

إلَّا نفسي)، لتخلَّص الفعل للاستقبال[1]، ودلالة الحال مرادة؛ لكون معذرة موسى عليه السلام وشكواه إلى الله كانت في الحال ردًّا على عصيان بني إسرائيل، وهو ما يعكس رحمة موسى عليه السلام بقومه، فهو يرجو لهم الخير والهداية في المستقبل.

معذرة موسى وشكواه كانت للحال للحال طمعًا في هداية قومه في المستقبل

دلالة حرف الفاء:

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾: يريد نفسه وأخاه، ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، والفاء: جزائيَّة؛ لترتيب الفرقِ على ما قبله؛ أي: لما كنت لا أملك إلّا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، أو الدُّعاء بالفرقِ على ما قبلَه[2]؛ أي: لما عصوني قومي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين.

دلالة التَّعبير بلفظ: ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾:

التَّعبير بطلب التفريق في معنى: الدُّعاء عليهم؛ أي: فافصل بَيْنَنا وبينهم بحكم، وافتح بأن تحكم لنا بما نستحقُّ، وتحكم عليهم بما يستحقُّون، حكمًا يفرِّق هذا الاختلاف، ويلمُّ الشَّعث[3]، أو افرق بين مسكنينا في الدُّنيا، أو بين منزلينا في الآخرة[4].

دعاءُ موسى بالفصلِ بينه وبين الفاسقين منهجٌ إسلاميٌّ قويم

والدَّليل على إرادة معنى الدُّعاء: أنَّه سبحانه وتعالى عقَّب بما يدلُّ على استجابة دعائه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾، ولا شكَّ أنَّ التِّيه، والمنع من الدخول في الأرض المقدَّسة، من أشدِّ البلاء، ولولا اشتمال دعائه على الدُّعاء عليهم؛ لم يحسن هذا التَّرتيب[5]، وكذلك نبَّه على العلَّة الموجبة للتَّفرقة بينهم وبين الفسق، فالمطيع لا يريد صحبة الفاسق، ولا يؤثرها؛ لئلَّا يصيبه بالصُّحبة ما يصيبه[6].

(1) فاضل السّامرائّي، معاني النّحو: 3/363 - 364.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/25، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/440.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/176.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(5) الطّيبي، فتوحُ الغيب: 5/328.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/472.

علَّة التَّصريح بوصف الفاسِقين:

القيمة الهدائيّة هي الملحوظة في غالب نظم القرآن

قال تعالى: ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: بيننا وبينهم؛ وذلك ليكون دعاؤه أبلغ وأقرب إلى استعمال الأدب في مخاطبة اللّه تعالى، ولأنه من يجوز أن يصلح منهم بعضهم، فيجب أن لا يعين، بل يذكر الوصف الذي هو الفسق فيتعلَّق به الحكم[1].

علَّة التَّعبير بالفسق دون الكفر:

منهجُ التَّعاملِ مع الفاسقين محكومٌ بحكمة الإسلامِ ورحمتِه

وذكر الفسق دون الكفر؛ إذ هو أعمُّ منه[2]؛ لأنَّ القوم خارجُون عن الطَّاعة، يجاهرُون بالمعاصي، ويصرُّون عليها، وليسوا كافرين جاحدين بموسى عليه السلام وربِّه، فهذا الوصف تعيينٌ لحقيقةِ حالهم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن ينعتهم بالكفرِ، أو ينعت من يُشابههم في هذه الأمَّة، فإنَّ هذا من الخروج عن حكم الوسطيَّة والاعتدال في التَّعاملِ مع الفاسقين.

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفاسق، والعاصي:

الفاسق: الخارج عن حجر الشَّرع، وهو أعمُّ من الكفر، وأكثر ما يقال لمن التزم حكم الشَّرع، وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فَاسِقٌ؛ فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة، فالفاسق أعمُّ من الكافر[3]، وَقد يكونُ الفُسوقُ شِرْكًا، وَيكون إثْمًا، والفاسق: هو جارَ، ومالَ، وخرج عَن طاعَةِ اللّه عزَّ وجلَّ متظاهرًا بالمعاصي[4].

والعاصي: المخالف الأمر، والخارج عن الطَّاعة[5]، من غير

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(3) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (فسق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عصو).

تظاهر بالمعاصي، أو إصرار عليها، وناسب لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ السِّياقَ؛ لتضمُّن معناه الإخلال بجميع أحكام الشَّرع أو ببعضها بعد أنْ أقرَّ بها، ولذلك دعا موسى عليه السلام أن يفرق الله بينه وبينهم.

الفَصْل، والفَرْق:

الفَصْلُ: إبانة أحد الشَّيئين من الآخر، حتَّى يكون بينهما فرجة[1] من غير انفصال أو بون.

وأمَّا الفَرْقُ؛ فيقال اعتبارًا بالانفصال، فالفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ، والفَرِيقُ: للجماعة المتفرِّدة من النَّاس، المتفرِّقة عن آخرين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء:63][2]، والتَّعبير بقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾ أنسب لوصفهم بالفاسقين؛ إذ لا وجْه للالتقاء بين من يقرُّ بشرعة النَّبيِّ المرسل، ويداوم على الإخلال بأحكامها.

(1) الرَّاغب، المفردات: (فصل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (فرق).

المحتويات